سلسلة الرسائل الجامعية
(٥)

القرآن الكريم

ومنزلته بين السلف ومخالفيهم

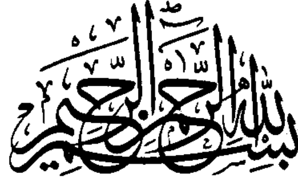
دراسة عقدية

تأليف
محمد هشام بن لعل محمد طاهري

تقديم
أ. د. محمد بن عبد الرحمن الخميس
أستاذ العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

المجلد الأول

دار التوحيد للنشر
الرياض



أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدّم بها المؤلّف لنيل درجة العالمية
(الماجستير) بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة
ونوقشت الرّسالة في ٢٨/٨/١٤٢٤هـ وأجيزت من لجنة المناقشة
بتقدير ممتاز مع مرتبة الشّرف الأولى

القرآن الكريم

ومنزلته بين السلف ومخالفيهم

دراسة عقدية

١

ⓒ دار التوحيد للنشر ، ١٤٢٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الافغاني ، محمد هشام الطاهري

القرآن الكريم ومنزلته بين السلف ومخالفيهم : دراسة عقدية. /

محمد هشام الطاهري الافغاني - الرياض ؛ ١٤٢٥هـ

٢ مج - (سلسلة الرسائل الجامعية ؛ ٥)

ردمك : ٥- ٣- ٩٤٩٤- ٩٩٦٠ (مجموعة)

٣- ٤- ٩٤٩٤- ٩٩٦٠ (ج ١)

١- القرآن - مباحث عامة أ. العنوان ب. السلسلة

ديوي ٢٢٩ ١٤٢٥/٤٥٧١

رقم الإيداع : ١٤٢٥/٤٥٧١

ردمك : ٥- ٣- ٩٤٩٤- ٩٩٦٠ (مجموعة)

٣- ٤- ٩٤٩٤- ٩٩٦٠ (ج ١)

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الناشر

دار التوحيد للنشر

المملكة العربية السعودية- الرياض - ص.ب ١٠٤٦٤ الرمز البريدي ١١٤٣٣

هاتف وناسوخ - ٤٢٨٠٤٠٤ - ١ ٩٦٦ ٠٠

البريد الإلكتروني: E-mail:dar_attawheed.pub.sa@naseej.com

الصف والإخراج دار التوحيد للنشر هاتف وناسوخ - ٤٢٨٠٤٠٤-١ ٩٦٦ ٠٠

تقديم
أ.د. محمد بن عبد الرحمن الخميّس

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد: فمما لا شك فيه أن كل مسلم يؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، يؤمن ويعتقد أن القرآن كلام الله، وهو المنزل على نبينا محمد ﷺ؛ وأنه آخر الكتب السماوية، وخاتمها، وأفضلها، وأشملها، وهو الحاكم عليها، وهو الهدى والشفاء، والنور والضياء، يستضاء به في ظُلمات الجهالة وعماية الضلالة.

والقرآن مشتمل على الهداية التامة، وكل ما يحتاج إليه الخلق من أمور دينهم ودنياهم، من العلم بالله وأسماءه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بالأحكام الشرعية والأحكام الجزئية، فبينت غاية البيان، لذا فهو منهج رباني، عظيم، محقق لسعادة

الإنسانية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[المائدة:١٥-١٦].

هذا وجهود علماء السلف في العناية بالقرآن الكريم جهود عظيمة وكبيرة إذ كل من اشتغل بعلم من العلوم الشرعية فهو معتن بالقرآن الكريم.

ولا زال أهل العلم حديثًا يعتنون بالقرآن الكريم كما كان عليه السلف، ويردون تحريف المنحرفين، وأنتحال المبطلين، وتأويلات الجاهلين، من أهل الأهواء والضلال.

ومن المؤلفات المفيدة في هذا الموضوع رسالة أخي في الله فضيلة الشيخ محمد هشام بن لعل محمد طاهري، التي هي بعنوان (القرآن الكريم ومنزلته بين السلف ومخالفيهم)، فهي رسالة قيمة في بابها، متميزة في موضوعها، بيّن الباحث ـ وفقه الله ـ عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم، وما هم عليه من التعظيم والتبجيل، والعلم به، والدعوة إليه، وبيّن ما عليه المخالفون لأهل السنة من أهل الباطل ممن نهج نهجًا فاسدًا، واعتقادًا باطلاً في كتاب الله، وما هم عليه من التحريف والتعطيل.

هذا والله أسأل أن يجزي المؤلف خير الجزاء، وأن يكتب له ثواب المنافحين عن كتاب الله، والذابين عن سنة رسول الله ﷺ وأهلها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه:

أ.د. محمد بن عبد الرحمن الخميّس

أستاذ العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

المُقَدِّمَة

إن الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه(١)، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبِه وسلمَ.

«أما بعد: فإن خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهُدى هُدى محمدٍ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالَة»(٢).

ثم أما بعد: فإن الله ﷻ خلقَ الخلقَ لعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، كما قال ـ عزَّ شأنُه ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، وعبادتُه سبحانَه لا تكونُ إلاَّ وفقَ ما شرعَه، ولهذا أرسلَ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، وليبيّنوا لهم طريقَ العبادة، ويحذروهم سبيلَ الغواية، كما قال ربّ العزّة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، فأوحى الله إلى أنبيائه ما أرادَه من عبادِه، من امتثالِ الأوامرِ، واجتنابِ النواهِي، وأنزلَ كتُبَه، ثم ختمَ الله ﷻ بمحمدٍ ﷺ الأنبياءَ فلا نبيَّ بعدَه، كما قال عنه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب:٤٠]، فجعلَ آيتَه الكتابَ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]،

---

(١) وهذا جزء من خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يفتتح بها خطبه. انظر: خطبة الحاجة للشيخ الألباني ص٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب/ تخفيف الصلاة والخطبة، ح(٨٦٧) عن جابر ﷺ.

وجعلَه الله ناسخاً للكتبِ السابقة، حاوياً للأحكامِ اللّاحقة إلى قيام الساعة، وتحدّى الله بالقرآنِ العربَ والعجمَ؛ فعجزوا عن الإتيانِ بسورةٍ من مثلِه، فكان آيةً خالدة، من تمسكَ بِهِ اهتدى، ومن عمِلَ به نجا، ومَن عالج به شَفَى، وهكذا كان دأبُ السلفِ ومن بِـهِم اقتفَى، فرفعهم الله في الدنيا والأخرَى.

وكان اهتمامُ السلفِ بالقرآنِ الكريمِ فوقَ أيِّ اهتمام، وعنايتُهم به وبعلومِه فوقَ المرام، حتّى كانوا به محاجين، وبدعوته داعين، وبأوامره مؤتمرين، وعن نواهيه منـزجرين.

ثم نشأَ بعدَهم خَلُوف أعرضوا عن الكتاب؛ فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، ويتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبّهونهُ عليهم، وبما يُظْهِرونَهُ من التعظيم للقرآن، وهم في الحقيقةِ لا يقيمونَ له وزنًا، ولا يقطعون به في مسألَة، بل القطعيُّ عندَهم ما حكمَ به العقلُ مما سمُّوهُ براهينَ وهي سراب، يتحير منها أولوا الألباب، وهانت منـزلتُه عندَهم حتى عامَلُوه معاملة المرتاب؛ فهذا يدَّعِي أنه صعبٌ مغلق دونَه الأبواب، وآخرُ يدعي فيه التحريفَ والجواب، وثالثٌ يدعي فيه النقصَ والعتابَ، ورابعٌ يقول بنسخه بكتاب، وهكذا اختلفت فيه أقوالُ الأحزاب.

لكن جعلَ الله في كلِّ زمانٍ بقايا من أهلِ العلمِ، يُحْيُونَ بكتابِ الله الموتَى، ويَنْفُونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين، وقد تكفلَ الله بحفظِه وهو العزيز الوهاب، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وهذا معتقدُ المسلمِ الحقِّ، فيعرفُ للقرآنِ قدرَه، ويُنـزِلُه منـزلَتَه، ويَعلمُ أن الله سبحانَه أحسنُ حديثًا، وأصدقُ قيلاً، فلا ينبغي العدولُ عن كلامِه، ولا التحريفُ في آياتِه.

ولا زالَ أهلُ العلمِ قديماً وحديثًا يُبَيِّنُونَ الحقَّ في كتابِ الله ﷻ، ويُبْطِلُون ما يَقولُه أهلُ الزيغِ والضلالِ، فمِنهم مَن ضَمَّنَ ذلك في مؤلَّفٍ يَذْكُرُ فيه أهمِّيَةَ القرآنِ الكريمِ ـ في أبوابِ الدينِ ـ فيُبَيِّنُ الأحكامَ المتعلقةَ به.

ومن كان له اليدُ الطولَى، وقدمُ السبقِ في هذا المضمارِ: الجامعاتُ الإسلاميةُ بالمملكةِ العربيةِ السعوديةِ بشتىَّ أقسامِها العِلميةِ (العقيدةِ، والتفسيرِ، والحديثِ، والفقهِ، واللغةِ..) حيثُ عُنِيَتْ رسائلُ عدةٌ بالقرآنِ الكريمِ، كلٌّ من جانبِ تخصُّصِهِ، فهذا من ناحيةِ اهْتمامِ القرآنِ بالتوحيدِ، وآخرُ في كيفيةِ تفسيرِه، وذلك في الأحكامِ الفقهيةِ المتعلقةِ به... الخ.

ويسرَّ الله ﷻ أن أطلعَ على فهارسِ الرسائل الجامعية، ولم أَجِدْ رسالةً علميةً عنِيَتْ بِبَيانِ مسائلِ العقيدَةِ المتعلقةِ بالقرآنِ الكريمِ نفسِه، وبيانِ منـزِلَتِه، فاستخرتُ الله ﷻ، واستشرتُ أساتِذَتِي، وشُيوخِي الأفاضلَ في الكتابةِ في هذا الموضوعِ، فشرحَ الله صدرِي، ثم ازدادَ شوقِي لِمَا رأيتُ من التَّشجيع من مشايخي الكرام ـ في هذا الـمَيْدان ـ في أطروحتي العلمية المقدمة لنيل درجة العالمية (الماجستير)، وجعلت موضوع البحث بعنوان:

(القرآنُ الكريمُ ومنـزلَتُهُ بينَ السلفِ ومخالِفِيهِم)

أهميةُ الموضوعِ وأسبابُ اختيارِه:

١. ترجعُ أهمية الموضوعِ إلى المباحثِ المتناولةِ فيه؛ فإنها في أصل ما يُبنى عليه الدينُ، وهو القرآنُ الكريمُ، الذي هو كلامُ الله ﷻ غير مخلوق، بل صفة من صفاته، وكيف ينبغي أن يُتعامل معه، ويُعظَّم، ولا شك أن التهاون في هذا يؤدي إلى مثل ما وقع فيه المسلمون من نزاع وتفرّقٍ يجب تركهما، ومعرفة كيفية التعامل معه وتعظيمه لا تحقّق إلا بالرجوع إلى الأصل الأصيل، والحبل المتين، وهو الوحي المبين. وبما أن للقرآن منـزلةً في قلب كل مسلم فالواجب إظهارُ ما عليه أهلُ الباطل من تفريطٍ في كتاب الله ﷻ حتى يُهجروا ويُتركوا، وتَوضيحُ ما عليه السلفُ وأتباعُهم من التعظيم والتبجيل حقا وصدقا حتى يُتَّبعوا، ولذلك يكون عرضي الموضوعَ أشبهَ ما يكون بعرض ما عليه السلف، وما عليه الخلف، حتى يرى المنصف بالميزان، ويعرفَ الذهب من النحاس؛ فيعرفَ الحق

ويَتبعَه، ويُبغضَ الباطل ويَجتنبَه.

٢. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «إن مسألة القرآن وقع فيها بين السلف والخلف من الاضطراب ما لم يقع نظيره في العلو»[١]، وقال: «الناس كثر نزاعهم فيها، حتى قيل: مسألة الكلام حيرت عقول الأنام»[٢]، وقال ابن الوزير اليماني ﵀ في بيان خلاف الفرق: «ومن ذلك خبط كثير من الناس في مسألة القرآن»[٣]، وبُحثت مسألة العلو من جهات عدة، وأما مسائل القرآن الكريم فلم تبحث، فوقع هذا الكلام من هؤلاء الأعلام في نفسي، فجمعت المسائل العقدية المتعلقة بالقرآن فوجدتها جديرةً بالبحث والكتابة، وعلى الله التكلان.

٣. إنّ بيان منـزلة القرآن الكريم، والرد على أهل الأهواء من الجهاد في سبيل الله الذي ينبغي على المرء الاحتساب فيه، وصح في الحديث: [**ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن**][٤]، وإني لأرجو بهذا أن أكون من المنافحين عن كتاب الله ﷻ، والذابين عنه، على قلة البضاعة، والله المستعان.

٤. بيان ما عليه أهل الباطل من العقيدة الزائفة في كتاب الله ﷻ من تحريف، وتعطيل، وتهوين، والرد عليهم من أقوال أهل العلم الراسخين، وبيان عوارهم، وإظهار شنيع أقوالهم.

٥. إنّي لم أجد مادة هذا الموضوع مجموعة في مؤلف مستقل، وهي جديرة بالعناية لما لمتعلقه من الشرف، ومعلوم أن شرف العلم بشرف معلومه، ولما فيها من أمور يترتب عليها أحكام من الإيمان والكفرِ، والتفسيق والتبديع؛ فإذا جمعت في مكان واحد كان أظهر للحق، وأجلى للباطل.

---

(١) التسعينية ١/ ٢٣٠، وانظر: المجموع ١٢/ ٦، ١١٥.

(٢) المجموع ١٢/ ١١٣.

(٣) إيثار الحق ص ١١٨.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب/ كون النهي عن المنكر من الإيمان... (ح٨٠) من رواية ابن مسعود ﵁.

٦. إنّ بيان ما عليه أهل السنة من الاتفاق في عقيدتهم في القرآن الكريم، وما عليه من الاختلاف الكبير أهل الأهواء والبدع يُظهِر محاسن أهل السنة، ومساوئ أهل البدعة.

٧. إنّ هذا الموضوع يتطلب مني الرجوع إلى كتب كثيرة، وهذا سيزيد في تحصيلي العلمي إن شاء الله ﷻ.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة أبواب، وخاتمة.

المقدمة، وتشمل ما يأتي:-

١. الافتتاحية.

٢. أهمية الموضوع.

٣. أسباب اختياره.

٤. خطة البحث.

٥. منهج البحث.

التمهيد: ويشتمل على مطالب:

المطلب الأول: تعريف (القرآن) لغة، واصطلاحا، والفرق بينه وبين الحديث القدسي.

المطلب الثاني: المقصود بـ (المنـزلة) لغة، واصطلاحا.

المطلب الثالث: تعريف (السلف) لغة، واصطلاحا.

المطلب الرابع: تعريف المخالفين لأهل السنة، وأقسامهم.

الباب الأول: حقيقة القرآن الكريم في نظر السلف، وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: القرآن الكريم كلام الله ﷻ غير مخلوق، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: إثبات أن القرآن كلام الله تعالى، وفيه مطالب:

المطلب الأول: الدليل على أن القرآن كلام الله تعالى.

المطلب الثاني: القرآن الكريم من الله بدأ وإليه يعود.

الفصل الأول: اختلافهم في تعريف القرآن الكريم، وفيه مباحث:

المبحث الأول: القول بالفيض.

المبحث الثاني: القول بالحلول.

المبحث الثالث: القول بخلق القرآن.

المبحث الرابع: القول بأن القرآن عبارة، أو حكاية عن كلام الله.

المبحث الخامس: القول بأزلية القرآن.

المبحث السادس: القول بأن الله تكلم بعد أن لم يكن متكلما، ومن ذلك تكلمه بالقرآن.

المبحث السابع: القول بالتوقف في القرآن الكريم.

المبحث الثامن: ابتداع مسألة اللفظ بالقرآن.

الفصل الثاني: قول المخالفين في نزول القرآن على نبينا محمد ﷺ، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في نزول القرآن الكريم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نفيهم سماع جبريل القرآن من رب العزة.

المطلب الثاني: معنى نزول القرآن الكريم عند المخالفين، وشبههم.

المبحث الثاني: قول بعض الرافضة في نزول القرآن.

الفصل الثالث: قول المخالفين في التعبد بالقرآن الكريم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعبد بمجرد القراءة.

المبحث الثاني: التعبد بالتبرك به.

الفصل الرابع: قول المخالفين في كون القرآن آية لنبينا محمد ﷺ، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: قول المعتزلة بأن العرب صُرفوا عن الإتيان بمثله.

المبحث الثاني: صور الإعجاز عند المخالفين.

الباب الثالث: منـزلة القرآن الكريم عند السلف، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: بيان فضل القرآن الكريم، ووجوب تعظيمه، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: فضل القرآن الكريم، وفيه مطالب:

المطلب الأول: الأدلة في بيان فضل القرآن.

المطلب الثاني: مفاضلة القرآن بعضه على بعض.

المطلب الثالث: حكم تفضيل غير القرآن على القرآن.

المبحث الثاني: تعظيم القرآن الكريم، وفيه مطالب:

المطلب الأول: الدليل على وجوب تعظيم القرآن الكريم.

المطلب الثاني: حكم الاستهزاء بالقرآن، والحط منه.

المطلب الثالث: حكم التبرك بالقرآن.

المطلب الرابع: خصائص القرآن.

الفصل الثاني: طريقة السلف في فهم القرآن، والاحتجاج به، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: طريقة أهل السنة في فهمه، وفيه مطالب.

المطلب الأول: الاستغناء بالوحي.

المطلب الثاني: تلازم القرآن والسنة.

المطلب الثالث: حمل القرآن على الحقيقة.

المطلب الرابع: حمل القرآن على الظاهر.

المطلب الخامس: الاستعانة بفهم السلف الصالح في فهم القرآن.

المبحث الثاني: حجية القرآن عند السلف، وفيه مطالب:

المطلب الأول: الأدلة على حجية القرآن في العقائد.

المطلب الثاني: كونه مصدر التشريع.

المطلب الثالث: نسخ القرآن للكتب السابقة.

المطلب الرابع: وجوب اعتقاد أن القرآن لا يُنسخ بعد انقطاع الوحي.

الفصل الثالث: جهود السلف في حفظ القرآن، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: عناية السلف بالقرآن، وفيه مطالب:

المطلب الأول: حفظ القرآن في الصدور.

المطلب الثاني: كتابة القرآن الكريم.

المبحث الثالث: اعتقادهم في القرآن، وفيه مطالب:

المطلب الأول: أنه منسوخ، ولا يعمل به.

المطلب الثاني: أنه إلى العرب خاصة.

المطلب الثالث: تحريفهم النصوص.

المبحث الرابع: استهانتهم بالقرآن، وفيه مطالب:

المطلب الأول: استخفافهم بالقرآن.

المطلب الثاني: عدم الاعتماد عليه.

المطلب الثالث: تفضيل غير القرآن على القرآن.

المطلب الرابع: حفظهم لكتبهم المزعومة.

الفصل الخامس: منـزلة القرآن عند أهل الكلام، وفيه مباحث:

المبحث الأول: التعريف بأهل الكلام.

المبحث الثاني: عدم تعظيمهم للقرآن.

المبحث الثالث: جعلهم القرآن فرعا في باب العقائد، والرد عليهم.

المبحث الرابع: بيان عدم حفظهم للقرآن.

الفصل السادس: منـزلة القرآن الكريم عند بعض المعاصرين (العقلانيين، ومنكري السنة "القرآنيين")، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العقلانيون، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالعقلانيين لغة، واصطلاحا.

المطلب الثاني: منـزلة القرآن الكريم عند العقلانيين.

المبحث الثاني: منكرو السنة "القرآنيّون"، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بهم.

المطلب الثاني: منـزلة القرآن الكريم عند منكري السنة "القرآنيين".

الخاتمة: وأذكر فيها أهم النتائج التي أتوصل إليها في البحث.

منهجي في البحث:

بعد الجمع الأولي للمادة رأيت أن أسير في بحثي هذا على المنهج التالي:-

١) أنقل الأقوال من مصادرها الأصلية ـ إن وجدت ـ، فقول أهل السنة من كتب أهل السنة، وأقوال المخالفين من كتبهم.

٢) أضع الكلام المنقول بنصه بين علامتي تنصيص، وإذا تصرفت في النص أقول بتصرف، وإن نقلته بمعناه فأقول في الهامش: انظر.

٣) كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وأذكر في الحاشية اسم السورة ورقم الآية.

٤) إذا كان الحديث في الصحيحين، أو في أحدهما اكتفيت بذلك، وقد أضيف مصدرا آخر للفائدة، وإن كان في غيرهما فأخرجه من مظانه ـ دون استقصاء ـ ثم أورد كلام أهل العلم ـ قديما وحديثا ـ في الحكم عليه.

٥) أعزو الحديث بذكر الكتاب، فالباب، فالرقم، وذلك في الكتب التي التزمت ذلك، وإلا فحسب ما وقفت عليه من الجزء والصفحة.

٦) أحيل الآثار إلى مصادرها من غير حكم عليها، إلا إذا ترتب على الأثر حكم مستقل فإني أذكر أقوال العلماء عليها حينئذٍ.

٧) أقوم بشرح ما تقتضي الحاجة إلى شرحه من الألفاظ الغريبة.

٨) أعرف بالفرق الواردة ذكرهم في صلب البحث في أول موضع الورود، إلا إذا كان لها مبحث مستقل في البحث، فإني أعرف بها هناك.

٩) أترجم للأعلام ـ غير المشاهير ـ الوارد ذكرهم في صلب الموضوع.

١٠) إذا قلت: "شيخ الإسلام" فالمراد به العلم الهمام/ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، وإذا قلت "الحافظ" فالمراد به: المحدث النحرير/ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، وإذا قلت: "المجموع" فمرادي به مجموع الفتاوى لشيخ

الإسلام ابن تيمية ـ رحمهم الله ـ، وإذا قلت: السير؛ فمرادي به كتاب: سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي رحمه الله.

١١) إذا ذكرت آية وتفسيرها فإنما أختصر على الوجه الشاهد من التفسير من دون استقصاء الأقوال في الآية، ولا بيان الراجح من المرجوح، إلا إذا كان متعلقا بالبحث أصالة لا تبعا.

١٢) أذيل البحث بأهم الفهارس[١]، وهي كالتالي:-

أولا: فهرس المصادر و المراجع.

ثانيا: فهرس الموضوعات.

وختاما: فإني لا إخالني قد استوعبت جميع ما قيل، لكن حسبي أني بذلت جهدي، فيما تيسر لدي من الكتب، وحرصت على وضع خطة الموضوع علميا بما يُنَاسِبُ قدرَهُ، ويحيط بأهم وأغلب أجزائه، وأفراده، وبذلت ما في وسعي لإخراجه بأحلى زي، وبأجمل عبارات من غير عي، فإن أصبت فمن الله تعالى وله الفضل والنعمة والمنة، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣].

وبما أن العبد فيه زلل وخطأ فإني أتمنى من مشايخي أصحاب الفضيلة الأساتذة والدكاترة مراعاة ما يبدو لهم من نقص أو قصور، والمؤمل من كل ناظر: أن يدلني على خطئي، فالدين النصيحة، وإني لأستغفر الله من كل ما بدا من الأخطاء، وأسأل المولى عز وجل أن يغفر لي ما كان في الابتداء والانتهاء.

---

(١)في الأصل كان البحث متضمنا لسبعة فهارس، ولكن اختصارًا للقراء أوردنا فهرسين منها فقط.

كلمة شكر وتقدير:

أحمد الله ﷻ الذي حباني الصحة والفراغ، حتى استطعت إتمام هذه الرسالة فله الحمد أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا.

ثم من منطلق قول النبي ﷺ: [**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**][(١)]؛ فإني أتقدم بالشكر لهذه الجامعة المباركة ـ هدية المملكة العربية السعودية لأبناء العالم الإسلامي ـ على اهتمامها بالمنهج السلفي، وتربية الأجيال المسلمة على ذلك، وفتح أبوابها لأبناء المسلمين، لينهلوا منها المنهل العذب المورود.

وأشكر كلية الشريعة التي تخرجت منها لكونهم نعم الموجهين، ثم أشكر ـ على وجه الخصوص ـ كلية الدعوة وأصول الدين، وقسم العقيدة على وجه أخص، على ما يولونه من عناية واهتمام بأبنائهم، سائلا المولى ﷻ أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم، وأن يجزيهم خير الجزاء.

وكما شكرت من له يد علي؛ فإني لا إخالني أستطيع أن أؤدي الواجب الذي علي في حق شيخي، وأستاذي، وموجهي فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/ أحمد بن عطية الغامدي، تغمده الله ﷻ بعنايته ورعايته وحفظه، لما أحاطني به من رعايته، وتوجيهاته، طيلة أربع سنوات، وذلك منذ أن كان أستاذا لنا في السنة المنهجية، وخلال إشرافه ـ وفقه الله ـ على هذه الرسالة التي هي نتاج علمي لإرشاداته الرشيدة، وتوجيهاته السديدة، علاوة على ما استفدت من كونه مؤدبا، وصابرا، وجادا، وكنت إذ كسلت شجعني بفعاله، وإذ مللت أنبني بحسن تعليماته، وأقول:

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان، كتاب الزكاة، باب/ ذكر ما يجب على المرء من الشكر لأخيه...، ح(٣٣٩٨)، واللفظ له، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب/ ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، ح(٢٠٢٠)، كلاهما عن أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ١٥٨.

جزاه الله خير ما جازى شيخا عن طلبته، وبارك له في نفسه ووقته وذريته، وأثابه عني خير وأحسن الثواب في الحال والمآب، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته يوم نلقى الوهاب.

وأشكر شيخي الفاضلين المناقشين، الشيخ الدكتور/ شايع الأسمري، الأستاذ بقسم التفسير في الجامعة الإسلامية، والشيخ الدكتور/ صالح العقيل، الأستاذ بقسم العقيدة بالجامعة الإسلامية، على ما بذلا من جهد وعناء في قراءة هذه الرسالة وملاحظاتهما القيمة، حفظهما الله ورعاهما، وأشاع بهما محاسن الرسالة، وأصلح الله بهما معاطنها، وبارك في جهودهما.

كما أشكر كل من أولاني بنصحه وإرشاداته، وعلى رأسهم شيخي وأستاذي الدكتور/ صالح بن سعد السحيمي، وشيخي وأستاذي الدكتور/ إبراهيم بن عامر الرحيلي، وجميع أساتذتي ومشايخي، وأن يجزيهم عني خير الجزاء.

وأشكر أخي وشقيقي/ أبا عمر عتيق الله، على ما قام به من رعاية لوالدتي وإخواني بعد وفاة والدي الذي كان له الأثر الكبير في تنشأتي وتوجيهي العلمي، فأسأل الله أن يغفر له، وأن يبارك في ذريته، وأن يرحم والدينا وجميع أموات المسلمين.

وأشكر جميع إخواني وعلى وجه الخصوص منهم: أخي شيبان بن شيبان الهاجري، ومحمود بن عبد الله الهزاع لما كان يولونني من اهتمام ورعاية، وتشجيع؛ فالله أسأل أن يوفقهم لما يحبه ويرضاه.

وأكرر الشكر لأهلي وأولادي الذين ما فتئوا يولونني العناية، ويوفرون لي الجو المناسب للتأليف والمدارسة، ويعينوني على الكتابة.

وأسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، المتكلم بالقرآن الكريم، الموصوف بالجلال والتعظيم أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، ومقربا إلى الرحمن

الرحيم، وأسأله ﷻ أن يعلمني ما ينفعني في الدنيا والعقبى، علما نافعا، وأن يجعل عملي مباركا متقبلا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

محمد هشام طاهري

ابو صلاح الأفغاني

يوم ١/ ٤ / ١٤٢٤هـ

التمهيد

ويشتمل على مطالب:

المطلب الأول: تعريف (القرآن) لغة واصطلاحا؛ والفرق بينه وبين الحديث القدسي.

إن معرفة الشيء أولا قبل الكلام عليه معين على تصور المسألة، وهذا يدل على أهمية التعريفات، والتمهيدات، وحتى يكون القارئ على بينة من أمره؛ فإني أذكر المراد بعنوان البحث، وهو مشتمل على أربعة عناصر مهمة، وهي: القرآن، المنـزلة، السلف، المخالفين.

أولا: معنى "القرآن" لغة:

إن معرفة المعاني اللغوية مهمة جدا، إذ القرآن نزل بلغة العرب، وخاطبهم بما هم يعرفون به الأشياء، وما يتخاطبون به، ومن هنا فإن معرفة الشيء من حيث معناه اللغوي معين على معرفة ما يراد به اصطلاحا بعد ذلك، ـ لأن المعاني الاصطلاحية: سواء كان اصطلاحا شرعيا، أو اصطلاحا عرفيا، أو اصطلاحا علميا ـ يراعى فيها المعنى اللغوي، وإلا فإنه لا يكون صحيحا.

ومن هذا الباب فإني أعرف بالمعنى اللغوي لكلمة "القرآن" أولا:

"القرآن" مصدر، واختلف فيه؛ فقيل:

١. **"القرآن"**: اسم عَلَمِي لكتاب الله تعالى، وهو غير مشتق، وهذا قول ضعيف[١]، وذلك لأن الأسماء الجوامد لا معاني لها، وهذا نقص في حق القرآن، ثم أيضا: هو قياس على التوراة والإنجيل، والتوراة والإنجيل اسمان لهما معانٍ، وليستا جامدتين.

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور ١١/ ٧٨، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٢٠٠.

٢. إنّ "القرآن" مصدر مشتق، قال الراغب: «والقرآن في الأصل مصدر، نحو:كفران ورجحان»[(١)]، واختلف في اشتقاقه على قولين:-

أ. أنه مشتق من القراءة، مصدر قرأ يقرأ قراءة، وقرآنا[(٢)] يدل له قول ابن عباس ﷺ: «في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ ﴾، يقول: بيناه، ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾[القيامة:١٨] يقول: اعمل به»[(٣)]، قال ابن جرير رحمه الله: «والواجب أن يكون تأويله على قول[(٤)] ابن عباس ﷺ: من التلاوة والقراءة، وأن يكون مصدرا من قول القائل: قرأت، كقولك: الخسران، من خسرت، والغفران من غفر الله لك، والكفران من كفرتك، والفرقان من فرق الله بين الحق والباطل... ومعنى قول ابن عباس هذا: فإذا بيناه بالقراءة، فاعمل بما بيناه لك بالقراءة...، فقد صرح أن معنى "القرآن" عنده القراءة؛ فإنه مصدر من قول القائل: قرأت، على ما بيناه»[(٥)]، وعلى هذا فقول ابن عباس ﷺ يدل على أن القرآن اسم للمتلو من كلام الله ﷻ خاصة؛ فيخرج كلامه ﷻ غير المتلو، من الأحاديث القدسية، ونحوها.

ب. أن القرآن مصدر من القراءة، أو القرء، وهو الجمع، وأطلق والمقصود به المتلو المجموع[(٦)]، يدل له قول قتادة رحمه الله: «في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾[القيامة:١٧] يقول: حِفظه وتأليفه»[(٧)]، ويدل له قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾[الأعراف:٢٠٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، وقوله: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ

(١) المفردات للراغب الأصبهاني ص ٤٠٠.

(٢) انظر: الإرشاد للجويني ص١٢٣، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٢، ٢/ ١٩٩، المجموع ١٢/ ٥٦٢، ١٧/ ٣٦، إرشاد الفحول ص٦٣.

(٣) رواه البخاري: كتاب التفسير، سورة القيامة، باب/ ٢، ورواه ابن جرير في تفسيره ١/ ٦٧.

(٤) وسيأتي قول ابن عباس ﷺ، وتخريجه ص ١٦٥.

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٦) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس ص ٨٨٤، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٢٠٠، الفواكه الدواني ١/ ٥٦.

(٧) رواه ابن جرير في تفسيره ١/ ٦٨.

خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١] وغير ذلك من الآيات كثير، **ويكون القرآن مصدرا من القرء بمعنى الجمع**، قال ابن جرير ﷺ: « وعلى قول قتادة: فإن الواجب أن يكون مصدرا، من قول القائل: قرأت الشيء إذا جمعته، وضممت بعضه إلى بعض، فرأي قتادة أن تأويل "القرآن" التأليف »[١]، **فالقرآن سمي (قرآنا)**؛ لأنه يجمع السور؛ فيضمها إلى بعضها، وقيل: لكونه جامعا لثمرة الكتب المنزلة كلها، وقيل: لكونه جامعا العلوم كلها[٢].

ولا ريب أنه لا منافاة بين هذه المعاني؛ فإن القرآن مضمومة آياته بعضها إلى بعض، ومضمومة سوره بعضها إلى بعض، وفيه ثمرات الكتب المنـزلة، وجمع العلوم المختلفة، وهو متلو بالألسنة[٣].

و"القرآن" مصدر، والمصدر يطلق ويراد به الفعل، ويطلق ويراد به المفعول[٤]؛ فإن كان القرآن مصدرا من القراءة التي هي بمعنى التلاوة؛ فالمقصود أنه متلو مقروء، وإن كان القرآن مصدرا من القراءة، والقرء، وهو الجمع؛ فالمقصود أنه مجموع مضموم بعضه إلى بعض، وأنه لا اختلاف بينه.

وقيل: القرآن مصدر بمعنى اسم الفاعل: لأنه هو الجامع للسور والآيات[٥].

فيطلق القرآن على التلاوة التي هي فعل العبد، فـ « القـرآن قد يراد به المصدر، وقد يراد به الكلام المقروء »[٦]، **وأكثر الآيات** التي ورد فيها ذكر "القرآن" فالمراد به العَلَمِيّة، التي هي بمعنى المقروء المتلو، وجاز أن يسمى "القرآن" بمعنى القراءة ـ مع أنه مقروء ـ، كالمكتوب يسمى كتابا[٧].

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) انظر: المفردات للراغب الأصبهاني ص ٤٠٠.

(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور ١١/ ٧٨.

(٤) وهذه من لغة العرب، معروف مكتوب، فيقولون للمشروب شراب، وكتسميتهم للمعلوم علما، وهكذا. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٢٠٠.

(٥) انظر: شرح أبو المنتهي على الفقه الأكبر ص١٩.

(٦) المجموع ١٢/ ١٩٨.

(٧) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ١/ ٦٩.

وأما إطلاق القرآن والمقصود المصدر الذي هو الفعل نفسه، من القراءة والتلاوة والجمع؛ فهذا قد يطلق، وهو القليل في كتاب الله ﷻ، قال شيخ الإسلام ؒ: «وغالب ما يذكر لفظ "القرآن" إنما يراد به نفس الكلام، لا يراد به التكلم بالكلام الذي هو مسمى المصدر»(١)، **ومما يدل لهذا القليل** قول الله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[الإسراء:٧٨]، والمقصود: القراءة هنا في صلاة الفجر خاصة(٢)، وقول النبي ﷺ: [**زينوا القرآن بأصواتكم**](٣)؛ فالمقصود زينوا قراءة القرآن بأصواتكم؛ فأطلق القرآن والمقصود منه القراءة، وهو الفعل.

ولما كان القرآن مصدرا، قد يراد به الفعل، وهو القليل، وقد يراد به المفعول، وهو الكثير، اشتهر الاستعمال في هذا الكثير، واقترن به العرف الشرعي؛ فصار القرآن اسما لكلام الله، حتى إذا قيل: القرآن غير مخلوق، يراد به المقروء ـ الذي هو المفعول ـ لا القراءة.

وبهذا يعلم أن القرآن ليس من قبيل الأسماء المشتركة عند الإطلاق؛ فإنه ـ عند إطلاقه ـ لا يتبادر إلى الذهن إلا معنى واحد، ومعلوم واحد، ومسمى واحدا، وهو كلام الله ﷻ المنـزل على محمد ﷺ الموجود بين الدفتين، فهو المسمى "قرآنا"، لا غيره(٤).

ثم كلمة "القرآن" هل هي مهموزة أم لا؟ فيها قولان لأهل العلم، وذلك أنه إن كان من القرء وهو الجمع؛ فإن القرء يكون مهموزا وغير مهموز، فتقول العرب: القَرْي، والقَرْء، وإن كان مأخوذا من القراءة فهو أيضا يكون مهموزا؛ فيصح على هذا أن يقال:

---

(١) المجموع ١٧/ ٣٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٢.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقاق، باب/ ذكر إباحة تحسين المرء صوته بالقرآن، ح(٧٤٦)، والحاكم في مستدركه، كتاب فضائل القرآن، ذكر فضائل سور وآي متفرقة، ح(٢٠٩٨) كلاهما عن البراء بن عازب ؓ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٧١).

(٤) وأما ما يذكره بعض أهل البدع من أن القرآن اسم مشترك بين المعنى النفسي، واللفظ المخلوق؛ فهذا من مبتدعاتهم، ومن تفريقاتهم الباطلة، وسيأتي الرد عليهم في الفصل الأول، من الباب الثاني، وأما أهل السنة فإنهم يرون أن القرآن كلام الله غير مخلوق، كيفما تصرف. انظر: الفصل الأول من الباب الأول.

قران بغير همز، وقرآن، بالهمز، وهو الأشهر، وهو الذي أصبح علما على كتاب الله ﷻ[١].

ثانيا: معنى "القرآن" اصطلاحا[٢]:

اختلف أقوال الناس في تعريف القرآن الكريم، وذلك لأسباب عدة، منها:-

١- لأنه اسم معروف، وعلم على كتاب الله ﷻ وتعريفه يزيده غموضا، فيمتنع بعض الناس عن تعريف القرآن الكريم بحجة أنه من المعلومات، ولا نضبط المعلومات!![٣].

٢- بسبب الاختلافات العقدية؛ فإنهم يختلفون في تعريف كلام رب البرية، ومن ثم القرآن الكريم.

٣- أن كل واحد منهم يعرف القرآن بتعريف يرى أنه جامع مانع، وذلك بحسب الحد والرسم، ونحو ذلك.

٤- أن بعض الاختلافات في التعريفات يكون بسبب التنوع في العبارات، والتفنن في الدلالات، وذلك اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد، وإنما عرفه كل بحسب ما ظن أنه يؤدي المقصود الشرعي، فمنهم من عرف بالمثال، ومنهم من عرف بالإشارة، ومنهم من عرف بالحد[٤]، وأذكر بعض هذه التعاريف ثم أذكر التعريف

---

(١) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس ص ٨٨٤، المفردات للراغب الأصبهاني ص ٤٠٠.

(٢) **والاصطلاحات أنواع**، فمنها المصطلحات الشرعية، كالصلاة والزكاة، والصوم، والقرآن، ونحو ذلك، وهو المقصود هنا في قولي: اصطلاحا، أي في عرف الشرع، وهناك اصطلاح لغوي كالشمس والقمر، وهناك اصطلاح عرفي كاللحم، والسفر، والعيش، وهناك اصطلاح علمي، وهو ما اصطلح عليه العلماء في علومهم، وهكذا.

(٣) انظر: الإرشاد للجويني ص ١٠٨.

(٤) في القرآن الكريم تعريف بأشياء كثيرة غير معروفة، وغير مصطلح عليها في اللغة والعرف على هذا النحو، فهذه تعريفات شرعية، **وهي لا تخلو إما أن تكون من المعرفات بالإشارة، أو من المعرفات بالمثال**، فالقرآن الكريم فيه هذان النوعان من التعاريف، وهما من التعاريف السهلة والميسرة، التي تمكن الناس من معرفة المقصود بالتعريف، وأما التعريفات بالحدود فهي غالبة تكون عقلية بحتة، متصورة خيالا، وذلك بتصور الجمع والامتناع فهي مشكلة لأنها تحتاج في التعريف إلى توسط أمور

الذي يدل عليه الشرع، ويعرف بالمعرف.

فقيل في تعريفه ما يأتي:-

١- قيل حد الكتاب، وهو "القرآن": ما نقل إلينا بين دفتي المصحف على الأحرف السبعة المشهورة نقلا متواترا(١). وهذا كما هو واضح فيه إهمال لمصدرية القرآن، هل هو كلام الله ﷻ أم لا؟، وكأنه أراد عدم ذكر ذلك في التعريف لكثرة اختلاف الناس فيه ـ والله تعالى أعلم ـ.

٢- القرآن: المكتوب في المصحف، الذي أوله الحمد لله، وآخره قل أعوذ برب الناس(٢)، وهذا مثل الأول لم يذكر كونه كلام الله ﷻ.

٣-قال ابن قدامة رحمه الله: «هو ما نقل إلينا بين دفتي المصحف، نقلا متواترا»(٣). وابن قدامة رحمه الله مذهبه معروف في القرآن، وأنه كلام الله ﷻ، ولكنه لعله أغفل ذلك في التعريف لكونه معروفا، والمعروف عرفا كالمشروط شرطا.

٤-قال ابن خلدون رحمه الله: «القرآن: كلام الله المنـزل على نبيه، المكتوب بين دفتي المصحف، وهو متواتر بين الأمة»(٤)، وذكر التواتر بعد ذكر الدفتين هو من باب الاستطراد في التعريف، وإلا فإنه معلوم أن ما بين الدفتين متواتر؛ وكأنه احترز بذلك عن القراءات غير المتواترة، ومعلوم أن القراءات إذا وافقت المصحف، وصحت

= كثيرة لا بد من تصورها قبل هذه المفردات فهي طويلة الطريقة، قليلة الجدوى، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله كلاما نحو هذا، يفيد أن القرآن فيه من التعاريف الأولان. انظر: الرد على المنطقيين ص٧٢ وما بعدها.

(١) المستصفى للغزالي ص ٨١.

(٢) انظر: المطالع للبعلي ص٣٩٩، وهذا من التعريفات بالإشارة إلى ما في المصحف، وهذا لا يعني أن الآية إذا وجدت في غير المصحف، أو السورة، أنها تخرج عن القرآنية، وإنما المقصود ثبوت القرآنية بوجودها في المصحف، وأما بعد الثبوت؛ فإنها حيثما قرأت، ونظرت، سواء كانت آية أو سورة فهي من القرآن بلا ريب.

(٣) روضة الناظر ١/ ١٤٨.

(٤) المقدمة لابن خلدون ص ٧٨٢.

أسانيدها، ووافقت وجها من العربية؛ فإنها تكون من القرآن ولو لم تكن متواترة[١].

٥-قال القرطبي ﷺ: «القرآن: اسم لكلام الله تعالى الذي جاء به محمد ﷺ معجزة له... محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، معلومة على الاضطرار سوره وآياته». ثم قال: «فلا يحتاج في تعريفه بحد، ولا في حصره بعد»[٢].

وتعريفه جيد لولا الاستطراد فيه، وفيه أيضا إغفال لإنزال القرآن الكريم؛ فلا يكون جامعا.

٦-ذكر الشوكاني ﷺ تعريفات عدة للقرآن؛ فقال: «**والقرآن:...غلب في العرف العام**: على المجموع من كلام الله ﷻ المقروء بألسنة العباد»[٣]. ثم ذكر المؤاخذات عليه، ثم قال في تعريف الكتاب، بعد أن بين أن المراد به القرآن: «وأما حد الكتاب اصطلاحا: فهو الكلام المنـزل على الرسول المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلا متواترا...، وقيل: اللفظ العربي المنـزل للتدبر والتذكر، المتواتر»[٤]، ثم عقبه بأنه غير جامع، وقال: «...**والأولى أن يقال**: هو كلام الله المنـزل على محمد ﷺ المتلو المتواتر»[٥]. وهذا أيضا غير مانع إذ يدخل فيه بعض الأحاديث القدسية المنـزلة على محمد ﷺ وهي من قبيل المتواتر.

٧- القرآن هو: اللفظ المنـزل على محمد ﷺ المنتظم من الحروف المسموعة، المفتتح بالتحميد، المختوم بالاستعاذة، وعليه انعقد اجماع السلف، والخلف[٦]، وهذا تعريف ناقص إذ القرآن ليس لفظا منـزلا فقط!!، بل هو لفظ ومعنى منـزل.

وبعد ذكر بعض التعريفات، وذكر وجهة النظر عليها؛ فإني أورد ما يكون

---

(١) انظر: الفصل الرابع من الباب الأول.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٥٨، وانظر: ٢/ ١٩٩.

(٣) إرشاد الفحول ص٦٣.

(٤) انظر لهذا التعريف، الفواكه الدواني ١/٥٦.

(٥) إرشاد الفحول ص٦٣ ـ ٦٤.

(٦) الفواكه الدواني ١/٥٦.

مجموعا من هذه التعاريف، ولا يخرج عنها، ويكون جامعا، ومانعا، ـ بإذن الله تعالى ـ، وأبين بعد ذلك وجه كونه كذلك.

فنخلص مما سبق أن القرآن هو: كلام الله المنـزل على محمد ﷺ بواسطة جبريل، الموجود بين الدفتين.

شرح مفردات التعريف:

فبقيد **(كلام الله)** خرج كلام غيره وإن وجد في المصحف كالتعاشير، وأرقام الآيات، وأسماء السور، ونحو ذلك.

وخرج أيضا كلام غير الله ﷻ لمحمد ﷺ.

ودلت الإضافة في التعريف **"كلام الله"** أن القرآن كلام الله، وما كان من الله فهو لا يكون مخلوقا، إذ صفة الخالق غير مخلوقة، كما أن صفة المخلوق مخلوقة؛ والإضافة هنا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف؛ فإذا علم هذا فلا داعي لوضع كلمة (غير مخلوق) في التعريف لأن كلام الله صفة من صفاته فلا يقال غير مخلوق في التعريف، ولكن يمكن أن يكون شرحا بعد ما وقع فيه الاختلاف ـ كما سيأتي ـ، كما لا نقول في تعريف علم الله غير مخلوق؛ فكذلك في الكلام، وإنما نص عليه العلماء شرحا، وبيانا، بعد ما وقعت الفتنة، ومحنة مسألة خلق القرآن.

وما « ذكره الله تعالى في القرآن من حكاية عن موسى، وغيره من الأنبياء عليهم السلام، وعن فرعون، وإبليس؛ فإن ذلك كله كلام الله تعالى إخبارا عنهم، وكلام الله تعالى غير مخلوق، وكلام موسى عليه السلام وغيره من المخلوقين مخلوق »(١).

وبقيد **(المنزل)** خرج كلام الله غير المنـزل، مثل كلامه لجبريل، أو غيره من الملائكة؛ فإنه كلام الله، وغير مخلوق، ولكن لا يقال عنه قرآن.

و بقيد (المنـزل **على محمد** ﷺ) خرج ما كان منـزلا على غيره من الأنبياء ممن

---

(١) شرح أبو المنتهي على الفقه الأكبر ص٢٢.

قبله؛ فإنه وإن كان كلاما لله ﷻ غير مخلوق، ومنـزلا، إلا أنه لم ينـزل على محمد ﷺ فلا يكون قرآنا، وإنما يقال: كلام الله التوراة، وكلام الله الإنجيل...

وبقيد (**بواسطة جبريل**) يخرج كلام الله المنـزل على محمد ﷺ بواسطة غير جبريل؛ ومعلوم أن الذي نزل بالقرآن على محمد ﷺ هو جبريل، كما هو معتقد أهل السنة والجماعة(١).

وبقيد (**الموجود بين الدفتين**) خرج كلام الله المنـزل على محمد ﷺ بواسطة جبريل مما كان قرآنا، ثم نسخ، فلا يقال عنه الآن قرآن ـ إلا بقيد قرآن منسوخ ـ؛ لأنه نسخ تلاوة، أو تلاوة وحكما.

ويستغنى بذكر الدفتين عن ذكر المتواتر؛لأن ما بين الدفتين متواتر إسنادا ومعنى، وبذكر الدفتين إشارة إلى الموجود في مصاحف المسلمين، المتداول بينهم، وهذا من التعاريف بالإشارة، وهي من أحسن التعاريف، إذ الإشارة معينة على إدراك الشيء، ومعرفته.

وبه يخرج ما كان من القراءات غير موافقة للرسم الموجود بين الدفتين، فإنه لا يكون قرآنا، وإنما تسمى قراءة شاذة.

وبه خرجت الأحاديث القدسية؛ فإنها ـ على الصحيح ـ من كلام الله ﷻ، ومنها ما نزل بواسطة جبريل، ولكنه غير موجود بين الدفتين.

قال العمراني(٢) رحمه الله: «القرآن عند أصحاب الحديث هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، هو القرآن العربي السور والآيات، المتلو باللسان، والمسموع بالآذان، المعقول بالأذهان، المحفوظ في الصدور، المكتوب بالمصاحف

---

(١) انظر: ما يأتي في الفصل الثاني، من الباب الأول.

(٢) هو الشيخ يحيى بن أبي الخير العمراني، شيخ الشافعية في اليمن في زمانه، توفي سنة ٥٥٨هـ، وكان على السنة في الجملة، ومن كتبه القيمة التي رد فيها على أهل البدعة كتابه الإنتصار. انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣٣٦ وما بعدها.

بالسطور، له أول وآخر وبعض، ومن قال بخلقه فهو كافر»[١].

فالقرآن: اسم للقرآن العربي لفظا ومعنى[٢]، ولا ريب أن هذا القرآن متعبد به، وإنما لم يذكر في التعريف لأن المقصود به هو التعريف وهو يحصل من غير هذا القيد، وهذه القيود وغيرها إنما هو من باب الاستطرادات، وهي غير محبوبة في التعريفات.

وكذلك هذا القرآن وقع به التحدي، وهو آية لنبينا محمد ﷺ وإنما لم يذكر في التعريف لأنه ليس مقصودا أساسا، وإنما هو خارج عن ماهية التعريف، فذكره - أيضا - يكون استطرادا.

والدليل على تسمية كلام الله ﷻ المنزل على محمد ﷺ بواسطة جبريل ﵇ "قرآنا"، القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة؛ فمن القرآن:

١- قوله تبارك وتعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[يوسف:٣].

٢- قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[النمل:٧٦].

٣- والأحاديث أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، لكن من خلال هذا البحث ستمر عليك أحاديث كثيرة تفيدك تسمية كلام الله ﷻ بالقرآن[٣].

٤- وأما أقوال السلف؛ فهي غير معدودة، وشهرتها أغنت عن إيرادها[٤].

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار للعمراني ٢/ ٥٥٤.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١٢٣، وإنما قصد شيخ الإسلام ﵀ بهذا أن القرآن ليس اسما على النظم وحده، ولا على المعنى وحده، وإنما هو اسم وعلم عليهما معا؛ فإن القرآن ليست معاني مجردة، ولا ألفاظا مجردة، بل هو مجموع منهما معا، وهذا هو قول أهل السنة.

(٣) وانظر بعض هذه الأحاديث في الفصل الثالث من الباب الأول.

(٤) وسيأتي ذكر أن من أسماء كلام الله ﷻ الموجود بين الدفتين القرآن، في الفصل الرابع من الباب الأول.

ثالثا: الفرق بين القرآن والأحاديث القدسية:

القرآن الكريم كلام الله ﷻ وكذلك الأحاديث القدسية، وحتى لا يكون هناك جمع بينهما فإني أذكر بعض الفروقات، وبها يحصل التبيان، فذكر الفروق أفضل ما يجلى به الأمور:-

١- القرآن متحدى به، والحديث القدسي ليس متحدى به.

٢- القرآن أنزل بواسطة جبريل ﵇ والأحاديث القدسية قد لا تكون بواسطة جبريل ﵇[١].

٣- الأحاديث القدسية يقال فيها: قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه، أو قال: قال الله ﷻ، وأما القرآن فلا يقال ذلك، وإنما يقال: قال الله تعالى.

٤- القرآن منـزل على رسول الله ﷺ، مكتوب في دفات المصاحف، منقول إلينا بالتواتر، وما دون التواتر لا يثبت به القرآن[٢]، وأما الأحاديث القدسية فلا يشترط فيها ذلك.

٥- **القرآن**: هو قول الله تعالى، وهو سور وآيات، وهو خارج عن أجناس النظم، وعن كلام البشر، بمعاني تصح، ولا تفسد[٣]، وأما الأحاديث القدسية فهي ليست متحدى بها، ولا هي في إعجازها مثل القرآن الكريم.

٦- أن «قول الأشاعرة والمعتزلة عن الحديث القدسي: لفظه لفظ النبي ﷺ ومعناه من الله[٤]، هذا التعريف باطل، دعاهم إلى ذلك تعريفهم للقرآن، والصواب: أن الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله ﷻ »[٥]، ولكن لا يتأتى الجزم باللفظ وأنه لفظ الله تبارك وتعالى إلا إذا أُمنت الرواية بالمعنى[٦]. وكل من خالف السلف من

---

(١) انظر: الدر النضيد في مجموعة ابن الحفيد ص ٦٠.

(٢) أصول السرخسي ص٢٧٩.

(٣) الانتصار في الرد على القدرية الأشرار للعمراني ١/ ١٠٣.

(٤) انظر: دستور العلماء للقاضي الأحمد نكري ٢/ ١٢.

(٥) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ/ حماد بن محمد الأنصاري ٢/ ٥١٢.

(٦) انظر: المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ/ حماد بن محمد الأنصاري ٢/ ٥١٢.

الجهمية والمعتزلة... « قالوا: إن الحديث القدسي لفظه من النبي ﷺ، ومعناه من الله ﷻ، وهذا قولهم أيضا في القرآن، وما قال بهذا أحد من السلف، بل الذي عليه السلف أن الحديث القدسي كلام الله ﷻ؛ فالنبي ﷺ قال: قال الله، وهذه حقيقة، لا صارف لها؛ فإذاً يقال: إن الحديث القدسي كلام الله ﷻ حرفا ومعنى »[(١)].

قال البخاري رحمه الله: « باب قول المحدث: حدثنا، وأخبرنا، وأنبأنا » ثم أورد تحته الحديث القدسي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ[(٢)]. وهذا يدل على أن البخاري رحمه الله يرى أن قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه يعني أن القول قول ربنا ﷻ لا قول النبي ﷺ كما أنا نقول عن النبي ﷺ والقول قول رسولنا ﷺ لا قولنا ـ والله تعالى أعلم ـ.

(١) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ/ حماد بن محمد الأنصاري ٢/ ٥٤٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب/ ٤، ص ١٧.

المطلب الثاني: المقصود بـ(المنزلة) لغة، واصطلاحا:

أولا: المقصود بـ(المَنْزِلَة) لغة:

إن المنزلة مأخوذة من المَنْزِل، وهو مسكن الرجل، ومكان نزوله، وكل إنسان ينزل في المنزل الذي يليق به، ويناسب حاله.

فالمنزلة مأخوذة من النزل، ومنه: "**التنزيل**"، وهو «ترتيب الشيء، ووضعه منزله»[١]، ومنه قول العرب: أنزلت فلانا، أي: أضفته[٢]، وذلك إذا وضعته **منزلته** اللائقة به.

ومنه قول الفقهاء في مسائل الفرائض: يرثون بالتعصيب، أو **بالتنزيل**، أي: بإنزالهم منازل أصولهم التي بها يتوصلون بالميت[٣].

ومنه (أنزله) و(نزّلته)، و(استنزلته) بمعنى: (أنزلته) والمنزل: موضع النزول، **والمنزلة** مثله، وهي أيضا المكانة.

و(نزّلت) هذا مكان هذا، أي: أقمته مقامه[٤].

و(المنزل): المنهل والدار، والمنزلة مثله، **والمنزلة** أيضا المرتبة، وهي لا تجمع، واستُنزِل فلان، أي: حُطّ عن مرتبته[٥].

إذا فمعنى التنزيل لا يخرج عن:

١. ترتيب الشيء ووضعه حسب ما يليق به.
٢. إقامة الضيف المكان اللائق به.
٣. المكانة، والدرجة.

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ص ١٠٢٣، وانظر: مختار الصحاح ص ٦٥٥.

(٢) انظر: المفردات للراغب الأصبهاني ص ٤٩١.

(٣) انظر: طلبة الطلبة ص٣٠٧.

(٤) انظر: المصباح المنير للفيومي ص ٦٠٠.

(٥) انظر: مختار الصحاح ص٦٥٥.

٤. إقامة الشيء مقامه.

٥. المنهل والدار.

وهذه معاني مترادفة، تدور بعضها على بعض، وهي من قبيل اختلاف التنوع في العبارة، لا التضاد في المعنى والمقصد والإشارة.

ثانيا: المقصود بـ(المنزلة) اصطلاحا:

المنـزلة إذا كانت دائرة حول إقامة الشيء مقامه، وما يليق به؛ فمقصودي بالمنـزلة اصطلاحا هو: **إقامة القرآن الكريم مكانته اللائقة به، وتنـزيله الدرجة التي أنزلها الله ﷻ**.

المطلب الثالث: تعريف (السلف) لغة واصطلاحا:

أولا: معنى السلف لغة:

يقال في اللغة: سَلَفَ يسلُف سلَفًا وسُلُوفا: أي تقدم، والسّالفُ: المتقدم، والسَّلف: الجماعة المتقدمون[(١)].

قال ابن الأثير ﷺ في معنى السلف لغة: « سلف الإنسان: من تقدمه بالموت، من آبائه، وذوي قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح »[(٢)].

والنسبة إلى السلف سلفي، قال السمعاني: « السلفي: بفتح السين، واللام، وفي آخرها الفاء، هذه النسبة إلى السلف، وانتحال مذاهبهم على ما سمعت منهم »[(٣)].

ثانيا: معنى السلف اصطلاحا:

السلف ليس اسما يطلق على أناس لكونهم كانوا في زمن معين فحسب، وإنما هو إطار ومنهج متبع، وطريق لفهم الشرع غير مبتدع؛ فمن كان يعيش في عصر الصحابة كبعض الخوارج والروافض؛ فإنهم ليسوا من السلف، وذلك لكونهم ليسوا على منهج السلف، وإن كانوا في عصر السلف، وكذلك من عاش بعد زمن السلف وكان على منهجهم فإنه لا يقال: عنه إنه ليس سلفيا، لأن الزمن ليس فارقا مطلقا، فمن جمع الوصفين: أعني الزمان وسبيل الصحابة فإنه من السلف، وإن كان على نهجهم ولكن تأخر عنهم زمانا؛ فإنه وإن لم يكن من السلف؛ فإنه سلفي، قال السفاريني ﷺ: « المراد بمذهب السلف: ما كان عليه الصحابة الكرام ﷺ، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه

---

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٢/ ٤٣١ وما بعدها، لسان العرب لابن منظور ٦/ ٣٣٠-٣٣٢، القاموس المحيط ٣/ ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ٣٩٠.

(٣) الأنساب للسمعاني ٣/ ٢٧٣.

في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف، دون من رمي ببدعة، أو شهر بلقب غير مرض، مثل: الخوارج، والروافض...»(١).

وأما تحديد السلف بوقت معين فقد اختلف فيه على أقوال عدة، منها:-

منهم من يرى أن السلف هم الصحابة(٢)، وهذا لا ريب فيه، ولكن لا يمنع من دخول غيرهم في معنى السلف، خصوصا بالنسبة إلى من بعدهم؛ فإن التابعين سلف لتبع التابعين، وهكذا.

وقيل السلف: هم الصحابة والتابعون(٣)، فـ «السلف هم الصحابة، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والقرون المفضلة كان فيها القدرية والمعتزلة، والجهمية، وغيرهم من أهل البدع، ولكن لا يطلق عليهم سلف، إنما يطلق السلف على الصحابة، ومن تبعهم بإحسان»(٤)، فالقرون الثلاثة الأولى هي قرون علماء السلف، ثم أتى بعد القرن الثالث قرون علماء الخلف(٥).

وقيل: السلف هم الصحابة والتابعون، وتابعوا التابعين(٦)، أي القرون الثلاثة المفضلة، التي ورد فيها الحديث المشهور: [**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...**](٧)، ويدل لهذا قول النبي ﷺ: [**يأتي على الناس زمان؛ فيغزو فئام من الناس؛ فيقولون: فيكم مَن صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون لهم: نعم، فيفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان؛ فيغزو فئام من الناس؛ فيقال: هل فيكم مَن صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟**

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٢٠.

(٢) انظر: حاشية العدوي ١/ ١٠٦.

(٣) انظر: إلجام العوام للغزالي ص٥٣، ويفهم هذا من صنيع الزرقاني في مناهل العرفان ٢/ ١٦.

(٤) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ/ حماد بن محمد الأنصاري ٢/ ٥١٨.

(٥) انظر: المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ/ حماد بن محمد الأنصاري ٢/ ٦٩٣، ٦٩٨.

(٦) وهذا رأي كثير من أهل العلم، كشيخ الإسلام، والشوكاني، والسفاريني، وهو صنيع المصنفين من أهل الحديث والأثر فإنهم إذا ألفوا في السنن والاعتقاد يضمنون مؤلفاتهم أقوال الصحابة والتابعين وأتباع التابعين لهم بإحسان. انظر: الدرء ٧/ ١٣٤، التحف في مذاهب السلف ص٧-٨، لوامع الأنوار ١/ ٢٥.

(٧) رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب/ ١، ح(٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب/ فضل الصحابة...، ح(٢٥٣٣)، كلاهما من رواية عبد الله ابن مسعود ﷺ.

فيقولون: نعم؛ فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس؛ فيقال: هل فيكم مَن صاحب مَن صاحب أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون: نعم؛ فيفتح لهم](١).

وربما يطلق لفظ السلف، ويراد به من تقدم من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان ولو لم يكن من أتباع التابعين(٢)، وهذا يدل عليه صنيع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فإنه أحيانا يذكر أقوال السلف، ثم يقول: «وكذلك قال ابن الماجشون، وأحمد بن حنبل وغيرهما من السلف...»(٣)، ومعلوم أنهما متأخّرون عن طبقة أتباع التابعين، وقال: «علامة من أراد الله به خيرا، سلوك هذا الطريق: كتاب الله، وسنن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلى آخر ما كان من العلماء، مثل الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلام، **ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يذمه هؤلاء العلماء**»(٤).

وأطلق لفظ السلف على القرون الثلاثة مع أن فيها أهل البدع، ذلك لأن الغالب فيها السنة، ولم تظهر البدع وتفشوا بين الناس إلا بعد انقراض أتباع التابعين(٥)، فيكون على هذا الإطلاق الزمني أغلبيا لا كليا.

ومرادي بالسلف هم الصحابة والتابعون، وأتباع التابعين، ومن تبعهم من العلماء الراسخين ـ ولي في هذا سلف يقول الآجري رحمه الله مبينا ما يجب سلوكه على طالب

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب/ ١، ح(٣٦٤٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب/ فضل الصحابة...، ح (٢٥٣٢)، كلاهما من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب ص٦٠ فإنه أيضا حدد السلف إلى الإمام أحمد، والشريعة للآجري ١/ ١٩٥، **والقيد في أن السلف هم من تبع الصحابة بإحسان، بلفظ: "الإحسان" مهم جدًا**، وذلك حتى يخرج الذين كانوا في العصور الأولى من أهل البدع، فبهذا القيد يخرج كل صاحب بدعة من تسميته بالسلف، ويكون من الخلف، ولهذا فإن بعض المصنفين من أهل البدع يقولون: السلف: من كان قبل القرن الخامس، وذلك حتى يدخل فيه أئمة الأشاعرة!!، كما فعل البيجوري في شرحه على تحفة المريد ص٩١.

(٣) الدرء ١/ ٢٠٧.

(٤) الشريعة للآجري ١/ ١٢٤.

(٥) انظر: المجموع ١٠/ ٣٥٦-٣٥٧.

العلم: «الزم سنن رسول الله ﷺ، وما كان عليه الصحابة ﷺ، ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين في كل عصر»[(١)] ـ وكانوا على الحق المبين، فقصدي بالسلف في هذه الرسالة، ونقل أقوال السلف، وعقائدهم هو ما ذكرت، وقد أنقل قول من وافق السلف وكان منتهجا نهجهم، آخذا بطريقتهم، ولو كان من الخلف زمنا.

وأما من كان خلفي المنهج؛ فإني قد أذكر قوله أحيانا إذا وافق الحق، وهذا لا يعني أنه من السلف، ولكن هذا يعني أنه في هذه المسألة وافق السلف، كما يوافق المبتدع السني في بعض المسائل، وقد أذكر قول بعض أصحاب المنهج السلفي مع المخالفين، ولكن هذا لا يعني أنه منهم، وإنما أعني بذلك أن قوله في هذه المسألة مجانب للصواب، وأنه خالف الحق في هذه المسألة وصار مع الخلف، فذكر الأقوال شيء، والحكم على المعين شيء آخر، ولهذا لا يستعجل القارئ لرسالتي فيظن أن كل من ذكر له قول في الاعتقاد السلفي في القرآن أنه سلفي، ولا يستعجل في الحكم إذا قرأ قول رجل في الاعتقاد الخلفي في القرآن فيظن أنه خلفي.

والاعتزاء إلي السلف مفخرة، والعمل بالسير على نهجهم نجاة، والإقتداء بهم فلاح، وهو الذي أمر الله ﷻ به، ورسوله ﷺ[(٢)]، و«لا ريب أن أهل النقل والأثر المتبعين آثار رسول الله ﷺ، وآثار أصحابه هم أهل السنة؛ لأنهم على تلك الطريق التي لم يحدث فيها حادث، وإنما وقعت الحوادث، والبدع بعد رسول الله ﷺ، وأصحابه»[(٣)].

وحيث إن المطلب لا يحتمل التطويل فقد اكتفيت بما يرشد ويكون كالدليل، لمعرفة معنى السلف ولو بإيجاز يسير[(٤)].

---

(١) الشريعة للآجري ١/ ١٩٥، وانظر منه: ١/ ١٩٩.

(٢) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول، والموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية د.مفرح بن سليمان القوسي ص١٦٠.

(٣) تلبيس إبليس ص٢٩.

(٤) انظر: المنهج السلفي: تعريفه، تاريخه... د.مفرح بن سليمان القوسي ص٢٦ وما بعدها، والموقف المعاصر من المنهج السلفي له أيضا ص١٨ وما بعدها.

المطلب الرابع: تعريف (المخالفين) لأهل السنة، وأقسامهم.

عنيت بالمخالفين: أهل البدع المعروفين ببدعهم، الغالين في مخالفتهم، فمرادي بالمخالفين: أهل البدع الكبرى الغلاة، أيا كانوا[١]، خصوصا ممن بدعتهم في مسألة القرآن ظاهرة، وبين الأنام منتشرة، وإنما أذكر أصحاب المدارس البدعية، ولا أعتني بذكر الأشخاص وأقوالهم، ولكن قد أذكر شخصا ممن يكون رمزا لتلكم النحلة، وأورد أقواله كشاهد على تلكم المدرسة البدعية.

وعموم أهل البدع لهم طريقان:-

١- **طريقة أهل التخييل،** وهم الذين يقولون: إن الأنبياء جاؤوا بما هو خيال، وليس في حقيقة ما دعوا إليه مثال، وهذا هو قول الفلاسفة، والباطنية، إذ كل فلسفي يفسر ما دل عليه اللفظ بما يهواه، لظنه أنها خاوية عن الحقائق، وماثلة بالألفاظ بلا معاني!!، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأهل التخييل هم: الفلاسفة، والباطنية، الذين يقولون: إنه خيل أشياء، لا حقيقة لها في الباطن، وخاصية النبوة عندهم التخييل»[٢].

٢- **طريقة أهل التجهيل،** وهؤلاء يظنون أن الشرع جاء بما هو مخالف للعقل؛ ثم هذا المخالف للعقل، ماذا يعمل به؟!، فمنهم من يقول: إن أحدا لا يعرف مرامه؟، وإنما يعلم الله المراد بذلك، ومنهم من يقول: إن الرسول يعلم ذلك ولكنا نجهل المعنى، ونكله إلى الله، ومنهم من يقول: إن المعنى مجهول لبعض الناس، وإنما يظهر للراسخين؛ فيجب عليهم أن يؤولوه بما علموه من عقولهم!!، **وقد يقولون:** «إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات، ولا جبريل يعرف معاني الآيات، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك، وكذلك قولهم في أحاديث الصفات: إن معناها لا يعلمها إلا الله!!»[٣].

---

(١) وهذه طريقة سار عليها بعض العلماء كابن الوزير اليماني في كتابه إيثار الحق على الخلق، انظر منه ص٨٤.
(٢) نقض المنطق ص٥٦.
(٣) المجموع ٥/ ٣٤.

فأصحاب هذه الطريقة، أعني طريقة التجهيل ينقسمون إلى قسمين:-

أ. **المجهلة المفوضة**، وهم الذين يقولون: إن هذه الألفاظ الواردة لها معانٍ بينات، ولكنا لا نعلم المراد منها في الآيات!!؛ فنفوض المعنى إلى الله ﷻ، وهذا حال كثير من الأشعرية، والماتريدية، وبعض من سار على دربهم، وظنوه طريقة السلف!!!، ومن المجهلة المفوضة بعض الفلاسفة الذين يقولون: إن هذه الحقائق لم يعلم النبي ﷺ معانيها!!؛ فهؤلاء المفوضة إما أن ينسبوا الجهل في معاني آيات الشرع إلى أنفسهم، أو إلى السلف، أو إلى النبي ﷺ!!.

ب. **المجهلة المؤولة**، وهم الذين يقولون: إن هذه الآيات لها معانٍ، وهذه المعاني علمناها بعقولنا، فإذا يجب المصير إليها، والتأويل على مقتضى ذلك، ثم اختلفوا في هذا الذي يجب أن يؤول، ما هو؟؟، واختلفوا في المعنى المراد ما هو؟؟ إلى أقوال كثيرة متضاربة، وهؤلاء هم أهل الكلام بشتى فرقهم[1]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وطريقة التأويل: طريقة المتكلمين من الجهمية، والمعتزلة، وأتباعهم، يقولون: إن ما قاله، له تأويلات تخالف ما دل عليه اللفظ، وما يفهم منه، **وهو ـ وإن كان لم يبين مراده، ولا بين الحق الذي يجب اعتقاده ـ فكان مقصوده**: أن هذا يكون سببا للبحث بالعقل، حتى يعلم الناس الحق بعقولهم!!، ويجتهدوا في تأويل ألفاظه إلى ما يوافق قولهم، ليثابوا على ذلك!!؛ فلم يكن قصده لهم البيان، والهداية، والإرشاد، والتعليم، بل قصده التعمية، والتلبيس!!، ولم يعرفهم الحق حتى ينالوا الحق بعقلهم، ويعرفوا حينئذ أن كلامه لم يقصد به البيان؛ فيجعلون حالهم في العلم مع عدمه خيرا من حالهم مع وجوده»[2]؛ فهؤلاء يقولون: إنما كان السلف غير مهتمين بها، أو مشغولين عنها، ولهذا كانوا غير عالمين بمراميها، ولا منشغلين بمعانيها، وأما نحن فإنما احتجنا إلى ذلك بعد خوض الخائضين، للبحث عن المعاني لمحاجة المبتدعين!!.

---

(١) انظر: الدرء ١/ ٩، وانظر: الصفدية ١/ ٢٧٦.

(٢) نقض المنطق ص٥٦.

فهؤلاء الذين خالفوا السلف على وجه التفصيل أربعة أصناف:-

١ ـ أهل التخييل المطلق.

٢ ـ أهل التجهيل المطلق.

٣ ـ أهل التأويل المطلق.

٤ ـ أهل التفويض المطلق.

وكل من انتمى إلى الإسلام فإنه ينقسم إلى قسمين:-

١ ـ أهل الاتباع والأثر، وهم المتبعون للقرآن والسنة على فهم سلف الأمة.

٢ ـ أهل البدعة والشرر، وهم الذين يدعون اتباع القرآن والسنة على فهومهم، وقد يقتصرون على القرآن، والأهم عندهم عقولهم، وما عليه أئمتهم[1].

وإنما عنيت بذكر كل فرقة على أنها نحلة، ولم أقصد إيراد الأشخاص وبيان أحوالهم، إلا من كان منهم إماما متبعا في تلكم النحلة؛ فقوله المعتبر، ولهذا أورد قوله على أنه قول للنحلة والفرقة، وكما ذكرت ليس مقصودي هو الحكم على الأعيان، وإنما قصدي البيان، لما عليه المخالفون لسنة محمد ﷺ.

وليس قصدي بالمخالفين هم أهل الكفر الظاهر، والشرك الجلي الذين لا ينتمون إلى الإسلام كاليهود والنصارى والمستشرقين ونحوهم.

فهؤلاء ليسوا مخالفين للسلف فحسب، بل هم مخالفون لأهل الإسلام أجمعين، وللشرع المبين، وآن أوان الشروع في المقصود، وبيان عقيدة السلف في القرآن الكريم، وهذا ما يتجلى ـ إن شاء الله ـ في الباب التالي.

---

(١) انظر: حجة الله البالغة للدهلوي ١/ ١٩-٢٠.

الباب الأول

حقيقة القرآن الكريم في نظر السلف

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: القرآن الكريم كلام الله ﷻ غير مخلوق، وفيه مبحثان.

الفصل الثاني: بيان أن القرآن الكريم منزل على محمد ﷺ، وفيه ثلاثة مباحث.

الفصل الثالث: بيان أن القرآن الكريم متعبد به، وفيه مبحثان.

الفصل الرابع: بيان أن القرآن الكريم هو الموجود في المصحف، وفيه أربعة مباحث.

الفصل الخامس: بيان أن القرآن آية لنبينا محمد ﷺ، وفيه مبحثان.

الفصل الأول

القرآن الكريم كلام الله عز وجل غير مخلوق

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: إثبات أن القرآن كلام الله تعالى، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الدليل على أن القرآن كلام الله تعالى.

المطلب الثاني: القرآن الكريم من الله بدأ وإليه يعود.

المطلب الثالث: تكليم الله بالقرآن وتعلقه بالمشيئة،

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعلق هذه الصفة بالذات.

المسألة الثانية: تعلق هذه الصفة بالمشيئة.

المسألة الثالثة: نفي التشبيه في الصفة.

المبحث الثاني: مسألة اللفظ بالقرآن، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: بيان اللفظ والملفوظ..

المطلب الثاني: موقف السلف من مسألة اللفظ.

المبحث الأول: إثبات أن القرآن كلام الله تعالى

إن من المسلمات العقدية، والقواعد السلفية، وصف رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، بما وصف به نفسَه في كتابه، أو وصفه به رسولُه ﷺ فيما صح من سنته، « والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسَه، وبما وصفته به رسلُه، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يثبتون له ما يستحقه من صفات الكمال، وينـزهونه عن الأكفاء والأمثال، فلا يعطلون الصفات، ولا يمثلونها بصفات المخلوقات، فإن المعطل يعبد عدما، والممثل يعبد صنما، والله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] »[(١)].

وقال الله ﷻ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم:٢٧] « أي الوصف الأعلى على ألسنة أهل السماوات والأرض، وهو كمال الثناء بأسمائه الحسنى »[(٢)].

وإذا كان الأمر كذلك، « فلا بدّ للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال، وينفي عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال »[(٣)]، « وإجماع أهل الإسلام على مدحه تعالى بإثبات الأسماء الحسنى، لا بنفيها »[(٤)].

و« المدح والثناء لا يكون إلا في الإثبات، فإنه ـ أي الإثبات ـ إنما يكون بصفات الكمال، والكمال إنما يكون في الأمور الوجودية... وإذا كان كذلك، فمن المعلوم أن

---

(١) مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم، ضمن المجموع ١٢/ ٧٣.

(٢) إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ص ١٨٠.

(٣) الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤، وانظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٠٠.

(٤) إيثار الحق على الخلق ص ١٨٠.

الكلام صفة كمال، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر صفة كمال، وأن المتكلم أكمل ممن لا يتكلم»[(١)].

والله ﷻ إذا أُثبِت له صفات الكمال، ونُفِيَ عنه مماثلة غيره له، فهذا هو الكمال الذي يستحقه جل ثناؤه، ويجب إثباته «وهذا حقيقة التوحيد، وهو أن لا يَشرَكه شيءٌ من الأشياء فيما هو من خصائصه، وكل صفة من صفات الكمال فهو متصف بها على وجه لا يماثله فيه أحد، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها إثبات ما وصف به نفسه من الصفات، ونفي مماثلته لشيء من المخلوقات»[(٢)].

وربنا ﷻ موصوف بصفات الكمال، الدالة على الجمال والجلال، وبهذا عَرَّف نفسه إلى العباد، وأنه ليس له نظير ولا أنداد، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١] وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[الإخلاص:٢] وقال: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[مريم:٦٥] وقال: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٢].

وبكونه منفردا بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، ألزم عباده بعبادته وحده، فقال جل شأنه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[الأعراف:١٨٠]، وذم الأصنام والأوثان، والمعبودات الباطلة التي اتخذت من الإنس والجان، بأنها ليس لها من الأمر شيء، بل هي موصوفة بالعيب والشين، فكيف تعبد من دون الله الواحد القهار، أو تتخذ شفعاء من دون الملك الجبار، وتصرف لها أنواع من العبادات، وصور من القربات، لا تنبغي إلا للملك الوهاب، ذي الأمر والنهي والكمالات، الموصوف بأحسن الصفات.

قال تعالى مخبرا عن إبراهيم ﷺ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾[مريم:٤٢]، وقال: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[الشعراء:٧٢-٧٣] فلا يُنفَى عن الله تعالى صفاتُ الكمال... فيُجْعَل كالجمادات التي لا تتكلم، ولا تسمع، ولا تبصر، فلا تكلم عابديها، ولا تهديهم سبيلا، ولا ترجع

(١) الصفدية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٦٦.

(٢) الرسالة التدمرية ص ١٢٤.

إليهم قولا، ولا تملك لهم ضرا ولا نفعا(١).

و« الكلام صفة كمال لا صفة نقص، وإنما يكون صفة كمال إذا قام به »(٢) ﷻ « والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وجمهورها أن كلام الله قائم به، وكذلك سائر ما يوصف به من الحياة والقدرة وغير ذلك »(٣).

والكلام من أوصاف الكمال، وضده نقص وإعلال، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾[الأعراف:١٤٨] وقال تعالى عن العجل أيضا: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[طه:٨٩].

قال ابن أبي العز(٤) رحمه الله: « فعلم أن نَفيَ رَجْعِ القول، ونفي التكليم نقص يُسْتدَلّ به على عدم ألوهية العجل »(٥)، ولهذا عاب الله تعالى الجمادات المعبودة بأنها لا تتكلم(٦).

وإذا علم أن الله تعالى موصوف بالكمال، فمن تلكم الصفات التي وصف الله بها نفسه، صفة الكلام، التي وردت بها الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية.

و« لا خلاف بين جميع العقلاء، أن الله ﷻ متصف بجميع صفات الكمال، منـزه عن جميع صفات النقص، لكنهم ـ مع اتفاقهم على ذلك ـ اختلفوا في الكمال

---

(١) انظر: المسألة المصرية في القرآن، ضمن المجموع ١٢/ ١٧٣.

(٢) الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٣٤١ وانظر: منهاج السنة له ٣/ ٣٦٠، الصفدية ١/ ٦٦.

(٣) الجواب الصحيح ٣/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) هو: الإمام العلامة صدر الدين، أبو الحسن، علي بن علاء الدين علي بن شمس الدين محمد بن شرف الدين... بن أبي العز الدمشقي، ولد بدمشق سنة ٧٣١هـ، ونشأ في أسرة علمية متأصلة في المذهب الحنفي، ونهل من العلم في الصغر، وولي مناصب عدة منها القضاء في دمشق، ومن مؤلفاته المشهورة؛ شرح الطحاوية، والاتباع، والتنبيه على مشكلات الهداية، توفي رحمه الله عام ٧٩٢هـ. انظر: كشف الظنون ص١١٤٣، وشذرات الذهب ٦/ ٣٢٦، ومقدمة شرح الطحاوية (مؤسسة الرسالة).

(٥) شرح الطحاوية ١/ ١٧٥.

(٦) الصفدية ١/ ٦٦.

والنقص»[١]. بحسب المناهج والأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما السائرون على المنهج الأثري، فهو كما قال الإمام أبو عثمان الصابوني[٢] ـ رحمه الله وإيانا وجعل الجنة مثواه ومثوانا ـ: «إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة ـ حفظ الله أحياءهم، ورحم الله أمواتهم ـ يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم ﷻ بصفاته التي نطق بها وحيُه وتنـزيلُه، أو شهد له رسولُه ﷺ على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته العدول الثقات عنه، ويثبتون له جل جلاله منها ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا يعتقدون تشبيها لصفاته بصفات خلقه، فيقولون: إنه خلق آدم بيده... ولا يحرفون الكلم عن مواضعه... وقد أعاذ الله تعالى أهلَ السنة من التحريف، والتكييف والتشبيه، ومَنّ عليهم بالتعريف والتفهيم، حتى سلكوا سُبُلَ التوحيد والتنـزيه، وتركوا القـول بالتعليل والتشبيه، واتبعـوا قول الله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]»[٣].

وأما كلامه سبحانه وأدلة كونه متكلما، وأن القرآن كلام الله ﷻ؛ فيتبين خلال المطالب التالية.

---

(١) مختصر لوامع الأنوار لمحمد بن سلوم ص ٨٦.

(٢) هو الإمام شيخ الإسلام أوحد عصره: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد، المعروف بأبي عثمان الصابوني، ولد سنة ٣٧٣هـ، نبغ في صغره، واشتهر بالزهد والعبادة كشأن السلف، قال فيه الذهبي: «الإمام العلامة، القدوة، الواعظ، المفسر المذكِّر، المحدّث، شيخ الإسلام»، من مصنفاته المشهورة، عقيدة السلف أصحاب الحديث، توفي رحمه الله سنة ٤٤٩هـ. انظر: الأنساب للسمعاني ٣/ ٥٠٦، السير للذهبي ١٨/ ٤٠، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤/ ٢٧١ وما بعدها.

(٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٢٦-٢٧.

المطلب الأول: الدليل على أن القرآن كلام الله تعالى، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في إثبات الكلام لله ﷻ:

الكلام في لغة العرب التى نـزل بها القرآن: « يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التى تحتها مجموعة »[(١)].

فاللفظ الذي لا يُفهَم منه معنىً يكون هذرا وعبثا، أو عجزا وعِيّا، لأن الكلام هو: « ما دل على نطق مفهم »[(٢)].

والنطق: لفظ اللسان، وغير المنطوق مما في النفس والخاطر، أو كان في النوم سائر، فهذا ليس كلام مطلقا، بل يقال عنه: زورت في نفسي، أو قلت في النوم، هكذا مقيدا.

والـمُفْهِمُ: كونُه معنىً، « فالكلام في أصل اللغة: عبارة عن أصوات متتابعة، لمعنى مفهوم »[(٣)].

وإذا تبين أن الكلام هو: اللفظ المفهم فالمتكلم هو: من قامت به صفة الكلام، فبها صار متكلما، و« لا يمكن أحدا ممن يؤمن بالتوراة أو الإنجيل أو القرآن أن ينكر أن الله متكلم، وهذه الكتب مملوءة بذكر ذلك، وأهل الملل مطبقون على ذلك... والمقصود أنه متكلم حقيقة، بكلام يقوم به »[(٤)].

وهذا ثابت نقلا، ومفهوم عقلا، وعليه الإجماع قطعا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « والذي أخبرت به الرسل، أنه متكلم بكلام قائم بنفسه وهذا هو الذي فهمه عنهم أصحابهم ثم تابعوهم بإحسان، بل علموا هذا من دين الرسل بالاضطرار، ولم

---

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٤١.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ص ٩٠٦، وقد طبع هذا الكتاب باسم "معجم مقاييس اللغة" مع أن المصنف ومن ذكروا الكتاب لم يذكروا لفظة "معجم".

(٣) المصباح المنير للفيومي ص ٥٣٩.

(٤) شرح الأصبهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٤١٣، وانظر:رسالة مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم، ضمن المجموع١٢/ ٤١، والفتح ١٣/ ٤٦٣.

يكن في صدر الأمة وسلفها من ينكر ذلك»[(١)].

ومعقول في الخطاب، معلوم عند أولي الألباب، أنه لو قال قائل: «علم فلان وكلامه ومشيئته، لم يكن شيئا بائنا عنه، والسبب في ذلك أن هذه الأمور صفات لما تقوم به، فإذا أضيفت إليه كان ذلك إضافة صفة لموصوف، إذ لو قامت بغيره، لكانت صفة لذلك الغير، لا له»[(٢)]، فإن الموصوف لا يوصف إلا بما قام به، لا يتصف بما هو بائن عنه، فلا يكون الموصوف حيا عالما قادرا متكلما رحيما... بكلام ورحمة قامت بغيره[(٣)].

فالرب تعالى إنما يتصف «بما يقوم به من الصفات، لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات، فهو الحي العليم القدير السميع البصير الرحيم المتكلم بالقرآن، وغيره من الكلام»[(٤)].

فيعتقد السلف الصالح بكل ما تدل عليه النصوص الصحيحة الصريحة من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ، ومنها الدالة على أن الله موصوف بالكلام[(٥)]، وأنه ﷻ يتكلم بمشيئته واختياره[(٦)].

ويعتقدون أن كلامَه أحسنُ الكلام، ولا يُشبِه كلامُه كلامَ المخلوقين، كما لا يُشبِهُ ذاتُه ذواتِ المخلوقين.

ويكلم سبحانه من شاء، من الملائكة الأنقياء، ورسله الأصفياء، وسائر عباده الأتقياء، وغيرهم، بواسطة إن شاء، أو بغيرها كما يشاء.

وكلامه يُسمع حقيقة، سمعه الملائكة الكرام، ورسُلُه خير الأنام، ويسمعه عباده في الدار الآخرة بصوت نفسه، كما أنه كلم موسى وناداه بصوت نفسه، وصوته

---

(١) شرح الأصبهانية ص ٤١٨، وانظر: التسعينية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٢٧٦.

(٢) شرح الأصبهانية ص ٤٣٤.

(٣) انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٠.

(٤) رسالة مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم، ضمن المجموع ١٢/ ٤١.

(٥) من هنا أذكر مجمل اعتقاد السلف في الكلام، وأما التفصيل فسيكون خلال مباحث هذا الباب.

(٦) وسيأتي تفصيل هذا في المطلب الثالث من هذا المبحث.

جل في علاه لا يُشبِه أصوات المخلوقين، كما أن كلامه لا يشبه كلام المخلوقين.

وكلامه تعالى لا نهاية له، كما أن أفعاله لا منتهى لها.

وكلامه تعالى أمر ونهي وخبر، يتكلم ﷻ بما يشاء من اللغات، فالتوراة بالعبرانية، والإنجيل بالسريانية، والقرآن بالعربية(١).

وأما كون الله ﷻ يتكلم، فكم عليها من دليل، لا يُعمَى عنه إلا كل ذليل، ومن ذلك:

١- ما في القرآن الكريم من إخبار الله ﷻ عن نفسه بأنه متكلم، وأخبر عن نفسه المقدسة بأن له قولا، وأكد ذلك بالتكرار، وبمختلف التصاريف للادكار، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً ﴾[النساء:١٢٢] وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ ﴾[المائدة:١١٦]، وقد ورد في القرآن الكريم وحده أكثر من ثلاثة وخمسين موضعا التصريحُ بـ﴿ قَالَ ٱللَّهُ ﴾، مما يدل على أن الله هو المتكلم سبحانه، وهو القائل سبحانه، وما ورد من ذلك في الأحاديث يصعب حصرها، ومنها قوله ﷺ: [**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك مؤمن بالكوكب**](٢).

٢- ورد في القرآن الكريم ذكر حديثه ﷻ، مما يدل على أنه سبحانه متكلم جل في علاه، كما قال: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[النساء:٨٧] ، وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف:١٨٥]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾[الزمر:٢٣]، وقوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور:٣٤] وقوله: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا

(١) انظر لما سبق: المعتمد لأبي يعلى ص٩٠، والاعتقاد للبيهقي ص١٢٠، المجموع ٣/ ١٧٦، ٢٠٨، ٦/ ٥٣٠-٥٤٤ وقد ذكر شيخ الإسلام ﵀ عشرة أوجه مسددة، على أن الله تعالى يتكلم بصوت يسمع، فارجع إليها إن شئت في الموضع المشار إليه، وانظر: ١٢/ ١٧٣، التسعينية ٢/ ٥٧٧، شرح الطحاوية ١/ ١٧٤، ١٨٦، ١٩٤، وقطف الثمر ص٤٩-٥١، والعقيدة السلفية ص٧٩ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب/ يستقبل الناس الإمام إذا سلم، ح(٨٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب/ بيان كفر من قال مطرنا بنوء كذا، ح(٧١)، كلاهما عن زيد بن خالد الجهني ﵁.

ﵟٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَﵞ[النجم:٥٩]، وقوله: ﵟفَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖﵞ[القلم:٤٤] ففي الأدلة السابقة «إثبات الحديث، والقول لله ﷻ، ففيهما إثبات الكلام له ﷻ»[(١)].

٣- ورد في القرآن الكريم إضافة الـ(كَلِمَةِ) مفردة، والـ(كلمات) مجموعة إلى الله ﷻ كما قال سبحانه: ﵟوَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُﵞ[الأنعام:١١٥][(٢)]، فوصف الأخبار بالصدق، والأحكام بالعدل، فهي أقوال، لأن القول هو الذي يصح أن يقال فيه: كاذب أو صادق[(٣)]، ثم ذكر صفة السمع والبصر بعد ذكر القول دليل اقتران على أنه من الصفات مثلهما، وقال تعالى: ﵟوَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦﵞ[الكهف:٢٧]، فإضافة الكلمة والكلمات إلى نفسه، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فدل ذلك على إثبات صفة الكلام لله ﷻ[(٤)].

٤- من الأدلة ورود اشتقاقات "الكلم" في القرآن، لبيان أن الله متكلم ذو بيان، قال الله تعالى: ﵟوَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗاﵞ[النساء:١٦٤]، وفيه تشريف لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، إذ كلمه الله بلا واسطة، ولهذا يقال له الكليم، و"تكليما" مصدر مؤكد للتّكلُّم، وأتى به توكيدا ليدل أنه كلمه بغير رسول ولا ترجمان وهذا التأكيد يدل على أن الكلام حقيقي[(٥)]، «وأجمع السلف والخلف من أهل السنة وغيرهم على أن "كَلَّمَ" هنا من الكلام»[(٦)]، ويؤكده قوله تعالى: ﵟوَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥﵞ[الأعراف:١٤٣]، و«سلف الأمة وأئمتها..يقولون: إنه لم يزل سبحانه متكلما إذا شاء، ويقولون: لم يزل فاعلا لما يشاء»[(٧)]، وفي الحديث: [ما منكم

(١) شرح الواسطية للفوزان ص٨٨، وانظر: شرح الأصبهانية ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣، والمجموع ١٢/ ٤٣٤.

(٢) وقرئت "كلمة" و"كلمات" بالوجهين: بالإفراد، وبالجمع، والمعنى واحد، لأن المفرد المضاف يعم، فهو كالجمع. انظر: شرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٤٢٠.

(٣) انظر: شرح الواسطية لابن عثيمين١/ ٤٢٠.

(٤) انظر: شرح الأصبهانية ص ٤٣٢.

(٥) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار ليحيى العمراني ٢/ ٥٤٠، وشرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٤٢١.

(٦) الفتح ١٣/ ٤٨٧.

(٧) شرح الأصبهانية ص ١٦١.

من أحد إلا سيكلمه ربه،وليس بينه وبينه ترجمان][(١)]، وكلم ربنا سبحانه بعض رسله، كما في قوله: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾[البقرة:٢٥٣]، أي بلا واسطة، فسمعوا كلام الرب ﷻ بصوته، مثل آدم[(٢)]، وموسى، ومحمد[(٣)] ﷺ، ومن كلامه ﷻ القرآن المبين، وهو الذي نسمعه بواسطة المبلغين، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٦]، وقال: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٧٦]، وقال: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾[الفتح:١٥] أي: يريدون تبديل ما سمعوه من كلام الله فيهم، وقد ورد ذكر تكليم الله ﷻ في مواضع كثيرة في كتابه، بلغت أكثر من عشرة مواضع بصيغة "كلم"، و"يكلم" و"كلام"، وفي سنة رسول الله ﷺ شيء كثير منها: قوله ﷺ في حديث الشفاعة: [**ائتوا موسى عبدا كلمه الله...**][(٤)]، وقوله ﷺ: [**ثلاثة لا يكلمهم الله،ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛ رجل على فضل ماءٍ بطريق يمنع**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب/ كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ح(٧٥١٢)، وبنحوه مسلم في كتاب الزكاة، باب/ الحث على الصدقة ولو بشق تمرة...، ح(١٠١٦) كلاهما من رواية عَدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) وسأذكر ما يدل على ذلك في الدليل الخامس.

(٣) ومن الأدلة على ذلك، ما جاء في صحيح البخاري في حديث (الإسراء) وفيه: [**ودنا الجبارُ ربُّ العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله...**] كتاب التوحيد، باب/ ما جاء في قوله ﷻ ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾، ح(٧٥١٧) وفي مناقب الأنصار: [**فلما جاوزت ناداني منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي...**] باب/ ٤٢، ح(٣٨٨٧)، قال الحافظ ابن حجر: «هذا أقوى ما استدل به على أن الله ﷻ كلم نبيه محمدا ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة» الفتح ٧/ ٢٥٧، وعند مسلم: [**فأوحى الله إلـيَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة...**] كتاب الإيمان، باب/ الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات الخمس، ح(١٦٢) كلاهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة البقرة، باب/ قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ح(٤٤٧٦)، ونحوه مسلم في كتاب الإيمان، باب/ أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ح(١٩٣)، كلاهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

منه ابن السبيل...](١) فتضافر الكتاب والسنة على الإخبار بأن الله ﷻ موصوف بالكلام.

٥- ومن الأدلة على إثبات الكلام لله سبحانه، ما ورد في القرآن والسنة من ذكر مناداته، ومناجاته، قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[مريم:٥٢]، وقوله: ﴿قَرَّبۡنَٰه﴾، أي أدنيناه حتى كلمناه، ﴿نَجِيّٗا﴾: أي مناجاة، والمناجاة ضد المناداة... فالمناداة: بصوت مرتفع، والمناجاة: بصوت غير مرتفع، والأول للبعيد، والثاني للقريب، وكلاهما كلام(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾[الشعراء:١٠] وقال: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾[الأعراف:٢٢]، ولفظ النداء ورد في أكثر من عشرة مواضع، مما يدل على أن الله سبحانه يتكلم، وأن كلامه بصوت حقيقي يسمع(٣)، وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **[يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار]**(٤)، وفي حديث عبد الله بن أُنيس ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **[يحشر الله العباد فيناديهم بصوتٍ يسمعُه مَنْ بَعُدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان]**(٥)، قال الإمام البخاري ﷺ مقررا إثبات الكلام لله ﷻ: «وفي هذا دليل أن صوت الله لا يُشبِه أصوات الخلق، لأن صوت الله يُسمَع مِن بعدٍ، كما يُسمع مِن قربٍ، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا تنادى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب/ اليمين بعد العصر، ح(٢٦٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب/ بيان غلظ تحريم إسبال الإزار..، ح(١٠٦)، كلاهما عن أبي هريرة ﷺ.
ومضى حديث [ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه...] وستأتي أحاديث أخرى.

(٢) انظر: شرح الواسطية لابن عثيمين١/ ٤٢٢، وللفوزان ص٨٩.

(٣) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤٢٣، المجموع١٢/ ٤٠.

(٤) أخرجه البخاري:كتاب التوحيد، باب/ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ...﴾، ح(٧٤٨٣)، ومسلم بلفظ: **[يقول الله ﷻ: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، قال: يقول؛ اخرج بعث النار...]** في كتاب الإيمان، باب/ قوله: **[يقول الله لآدم...]**، ح(٢٢٢).

(٥) أخرجه البخاري: معلقا، كتاب التوحيد، باب/ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، والحديث أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٩٥)، ح(١٦١٣٨)، وغيرهما، قال الحافظ ابن حجر بعد ما ذكر طرقا: «إسناده صالح» (الفتح١/ ٢٠٩)، وقال الشيخ الألباني: «حديث صحيح» أي بطرقه، كما في ظلال الجنة في تخريج السنة له ص٢٢٥، وقد أسهب ﷺ في الرد على من ضعف الحديث تعصبا لمذهب أهل الكلام، واتباعا لمشرب أهل الملام.

الملائكة لم يُصعقوا، وقال ﷻ : ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[البقرة:٢٢] »[(١)]، فليس لصفة الله ند ولا مثل، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين[(٢)].

٦- ومن الأدلة المتوافرة، والآيات المتكاثرة، الدالة على إثبات الكلام لله سبحانه، ما في القرآن من ذكر إنبائه وقصصه[(٣)]، ومنها: قوله تعالى: ﴿ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ ﴾[التوبة:٩٤]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[التحريم:٣]، وقوله: ﴿ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[العنكبوت:٨]، وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾[فاطر:١٤]، والإنباء: الإخبار، والمخبر متكلم ولا ريب، إلا ممن كان به عيب، وقد ذكر الإنباء في أكثر من عشرين موضعاً في كتاب الله تعالى، وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾[يوسف:٣].

وقوله: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[هود:١٢٠]؛ فَذِكرُه تعالى أنه "قص" و"يقص" دليل على كونه سبحانه متكلم بكلام يُسمع فيُفهم ويُعقل.

٧- ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴾[الشورى:٥١]، وهذا فيه تخصيص لبعض الرسل بالكلام بلا واسطة، وبعضهم بواسطة، ولو لم يكن ربنا متكلما، لما صح التقسيم أصلا، ففي الآية أن التكليم « ثلاثة أنواع: الوحي المجرد، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى ﵇، والتكليم بواسطة إرسال الرسول، كما كلم الرسل بإرسال الملائكة »[(٤)]، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله ﵄: **[ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا]**[(٥)] أي مواجهة ليس بينهما حجاب

(١) خلق أفعال العباد للإمام البخاري ص١٤٩.

(٢) انظر: التسعينية ٢/ ٥٩١، الفتح١٣/ ٤٦٥ـ٤٦٦.

(٣) انظر: شرح الأصبهانية ص ٤٣٢.

(٤) المجموع ١٢/ ٢٧٩، ٣٠٠، وانظر: الفتح ١٣/ ٤٦٢.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب/ ومن سورة آل عمران، ح(٤٠٩٧)، وقال: « حديث حسن غريب»، وأخرجه ابن ماجة في سننه، المقدمة، باب/ فيما أنكرت الجهمية، ح(١٩٠)، وقال الشيخ الألباني: (إسناده حسن) كما في ظلال الجنة ص٢٦٧.

ولا رسول[(١)]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله موجها لهذا الحديث: «ولكن هذا في عالم البرزخ»[(٢)]، ففي الآية إثبات الكلام للباري جل جلاله، وأنه «لا يكلم بشرا إلا من وراء حجاب في دار الدنيا»[(٣)]، فهو سبحانه ﴿علي﴾ لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاها في الدنيا، و ﴿حَكِيمٌ﴾ يدبر بالحكمة وجوه التكليم، ليظهر علمه في تفصيل المظاهر، ويكمل به عباده، ويهتدوا إليه ويعرفوه[(٤)].

٨- ومما يدل على كونه جل جلاله متكلما، ما ورد في محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه، حين كسر أصنامهم، وكان من خبره ما ذكره الله عنه في قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متفكرين فيما قاله إبراهيم لهم، فقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فاعترفوا بالظلم في كونهم عبدوا من لا يتكلم، ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ متمسكين بالشرك، فقالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فرد عليهم الخليل: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:٦٣ـ٦٦][(٥)]، والنطق: عبارة عن الكلام، فدل أن الكلام غير مستحيل من الله، إذ لو كان مستحيلا منه الكلام، لكان دليل إبراهيم عليه السلام منقلبا عليه، ولكان للكفار أن يقولوا له: فإن إلهك الذي تدعونا إليه لا يوصف بالكلام أيضا[(٦)]، فهذا إبراهيم عليه السلام بين أن من لا يتكلم، ولا يعلم، ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يعبد، وأن يطلق عليه أنه إله[(٧)].

٩-ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ

(١) انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجة ١/ ١٢٤، وتحفة الأحوذي ٨/ ٣٦٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٢٢.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٢٩٨.
(٤) انظر: تفسير القاسمي ٦/ ١٨١.
(٥) انظر: تفسير البغوي ٥/ ٣٢٥.
(٦)انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٥٤٠.
(٧) انظر: فتح القدير للشوكاني ٣/ ٥١٣.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران:٧٧]، قال العلامة ابن أبي العز رحمه الله: « فأهانهم بترك تكليمهم، والمراد: أنه لا يكلمهم تكليم تكريم... فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواء، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدةٌ أصلا... ـ و ـ أفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة، وأعلى نعيمها، وأفضلِه، الذي ما طابت لأهلها إلا به »[١].

١٠- إذا كان النقل يدل على إثبات الكلام لله عز وجل، فإن العقل يدل عليه كذلك، إذ لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح، ومن الأدلة العقلية على إثبات الكلام لله تبارك وتعالى:

أ- أن يقال: إما أن يكون الرب تعالى قادرا على الكلام أو غير قادر، والمتعين في العقل الأول قطعا[٢].

ب- يقال: إن للكلام ضِدًّا وهو الخرس، كما أن للعلم ضِدًّا وهو الجهل والشكوك، ومعلوم أن الله موصوف بالكمالات، منـزه عن النقائص والآفات، فهو عالم سبحانه، متكلم جل في علاه، ولو لم يثبت له الكلام لوصف بضده وهو الخرس، وهو عيب وبؤس، ينـزه عنه المخلوق المتطلع للكمال، فالرب الموصوف بصفات الجلال، أولى بأن ينـزه عنه وهو الكبير المتعال[٣].

ت- ثبت بالحس والمشاهدة، والعقل والمدارسة إرسال الرسل من الله سبحانه، والرسول إنما هو مبلغ لكلام المرسِل إلى المرسَل إليه، فإذا قيل: إن الله لا يتكلم، لزم منه تكذيب الرسل، وإنكارهم في دعواهم أنهم مبلِّغون عن الله تعالى[٤].

ث- علم أن إرسال الرسل فيه دلالة على أن الله يتكلم سبحانه، وأنه يُرْسِل

---

(١) شرح الطحاوية ١/ ١٧٨.

(٢) انظر: المجموع ٦/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٣) انظر: المعتمد لأبي يعلى ص ٩٢، والانتصار للعمراني٢/ ٥٤٠ ـ ٥٤١، والتسعينية ٢/ ٦٨٦، والعين والأثر في عقائد أهل الأثر لعبد الباقي الحنبلي ص ٨٢.

(٤) الانتصار للعمراني ٢/ ٥٤١، والتسعينية ٢/ ٦١٩.

بأمره ونهيه وإخبارِه عبادَه المرسلين، إلى الناس أجمعين.

ج- الفطرة السليمة، المعافاة من الأهواء الرذيلة، تدل على أن الله متكلم سبحانه، إذ كل من سمع كلام الله، يفهم منه أنه هو الذي تكلم بذلك، وقاله، وهذا يجده أصحاب الفِطَرِ الصحيحة، ويعرفه ذوو العقول المستقيمة، كما قالت عائشة ﵂ في حديث الإفك الطويل: [**ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنْزِلٌ في شأني وحيا يُتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتلَى**][1] [2]. وفي رواية: [**ولكن والله ما ظننت أن يُنزِل في شأني وحيا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري**][3].

وبكل ما تقدم يتبين لنا أن الله تعالى يتكلم متى شاء كيف شاء، بكلام يسمع، فالكلام من صفات الكمال التي يجب إثباتها له ﷻ قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ مشيرا إلى مجموع ما تقدم من الأدلة السابقة: « واعلم أن الاستدلال على الكلام بمثل هذه السمعيات أكمل من الاستدلال على السمع والبصر بالسمعيات، لأن ما أخبر الله به عن نفسه من: قوله، وكلامه، ونبئه، وقصصه، وأمره ونهيه، وتكليمه، ونداثه ومناجاته، وأمثال ذلك، أضعاف أضعاف ما أخبر به من كونه سميعا بصيرا.

وأيضا فإنه نوَّع الإخبار عن كل نوع من أنواع الكلام[4]، وثنّى ذلك، وكرره في مواضع، ولا يحصى ما في القرآن من ذلك إلا بكلفة »[5].

ويكفي هذا القدر من الاستدلال، لمن أراد الادكارَ دون ملال، على إثبات الكلام على وجه الكمال، لله الكبير المتعال، وإذا ثبت أنه متكلم ﷻ فإني أبين أن القرآن الكريم من كلامه ﷻ في المسألة التالية.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة النور باب/ ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، ح(٤٧٥٠)، ومسلم، في كتاب التوبة، باب/ في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ح(٢٧٧٠) كلاهما عن عائشة ﵂.

(٢) انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٥٤١، والتسعينية ٢/ ٦١٩.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب/ تعديل النساء بعضهن بعضا، ح(٢٦٦١).

(٤) يقصد به الأمر والنهي والخبر، والقرآن كله إما أمر أو نهي أو خبر.

(٥) شرح الأصبهانية ص ٤٣٤.

المسألة الثانية: في إثبات أن القرآن كلام الله ﷻ، وأنه غير مخلوق:

ومجمل اعتقاد أهل السنة والأثر في القرآن الكريم أنه كلام رب البشر، والقرآن كلام الله سوره وآياته، وكلماته، وهو حرف ومعنى.

وأسمعه اللهُ تعالى جبريلَ ﵇، وأسمعه جبريلُ محمداً ﷺ، وأسمعه محمدٌ ﷺ أمّتَـه[(١)].

والله ﷻ المتكلم بالقرآن حقيقة، وليس لجبريل، ولا لمحمد عليهما السلام إلا التبليغ والأداء، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، وهو الذي في المصاحف[(٢)].

ويتلوه التالون بألسنتهم، ويقرؤه المقرئون بأصواتهم، ويسمعه السامعون بآذانهم، وينسخه النساخ والكتاب بآلاتهم، وهو في صدور الحفاظ بحروفه ومعانيه.

تكلم الله به حقيقة، فهو كلامه حقيقة، ومنـزل غير مخلوق، كيفما تصرف.

وأصوات العباد، وحركاتهم بالقرآن، وورق المصحف وجلده، ومداد الكتابة، مخلوق مصنوع[(٣)].

ويدل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وأنه غير مخلوق: الكتاب، والسنة والإجماع، والاعتبار[(٤)]، وقد مضى شيء من ذلك في المسألة الأولى، ويُوَضَّح أكثر بما يأتي من الأدلة:

---

(١) سيأتي بحث هذه المسألة في الفصل الثاني من هذا الباب .

(٢) سيأتي بحث هذه المسألة في الفصل الرابع من هذا الباب.

(٣) انظر لما سبق: رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت لأبي نصر عبيد الله بن سعيد السجزي ص١٠٥، الانتصار للعمراني٢/٥٩٨،٤٥١، المعتمد لأبي يعلى ص٨٧، الاعتقاد للبيهقي ص١١٤، تلبيس إبليس لابن الجوزي ص١٠٠، عقيدة السلف للصابوني ص٣٠-٣١، التسعينية ٢/ ٥٤١، ٥٣٧، شرح الأصبهانية ص٢٠٧-٢١١، الجواب الصحيح ٤/ ٣٢٦، ٤٠١، المجموع ٣/ ١٧٢، ٢٠٨، ٤٠١، ١٢/ ٢٩٢، ٥٦٦، شرح الطحاوية ١/ ١٧٢، ١٩٠، ١٩٩، قطف الثمر ص٤٤-٤٥،٥٢.

(٤) انظر: المعتمد لأبي يعلى ص٨٧، الانتصار للعمراني٢/ ٥٩٨.

أولا: الأدلة من القرآن الكريم:

١ـ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]. استدل غير واحد من أئمة المسلمين بهذه الآية على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، فإن النص دل على أنه لا يخلق شيئا حتى يقول له "كن" فيكون، فلو كان "كن" مخلوقا، للزم أن يخلقه بـ"كن" وهذا يستلزم التسلسل، وهو فاسد، وإذا ثبت فساد ذلك، ثبت فساد كون القرآن مخلوقا[١].

٢ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٦] ففيه دلالة على أنه يسمع كلام الله من التالي المبلغ، وأن ما يقرأه المسلمون هو كلام الله، وإنما نقرأه بحركاتنا وأصواتنا، الكلام كلام الباري، والصوت صوت القاري[٢]، قال شيخ الإسلام ﷬: «إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو كلام الله حيث تلي، وحيث كتب، وهو قرآن واحد... وإن تنوعت الصور التي يتلى فيها ويكتب، من أصوات العباد ومدادهم، فإن الكلام كلام من قاله مبتدئا، لا كلام من بلغه مؤديا، فإذا سمعنا... **[إنما الأعمال بالنيات]**[٣] قلنا هذا كلام رسول الله ﷺ لفظه ومعناه، مع علمنا أن الصوت صوت المبلغ... ونحن إذا قلنا: هذا كلام الله لِما نسمعه من القارئ، ونرى في المصحف، فالإشارة إلى الكلام من حيث هو هو[٤]، مع قطع النظر عما اقترن به البلاغ من صوت المبلغ، ومداد الكاتب»[٥]، وبهذا يتبين أن

---

(١) انظر: رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب لأبي الحسن الأشعري ص١٢٦، السنة للخلال ٦/ ٣٨، الاعتقاد للبيهقي ص٩٥، الصفدية ٢/ ١٢١، المجموع ١٢/ ٣٧٢،٢٤٤،٢٣٥، الفتح ١٣/ ٤٦٢.

(٢) انظر: السنة للخلال ٦/ ٢٤، الاعتقاد للبيهقي ص١١٢،٩٩، المجموع ١٢/ ٢٥٩،٩٨، شرح الطحاوية ١/ ١٩٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب/ كيف كان بدء الوحي...، ح(١)، ومسلم نحوه، في كتاب الإمارة، باب/ قوله ﷺ **[إنما الأعمال بالنية...]**، ح(١٩٠٧) كلاهما عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٤) هذه العبارة كثيرا ما ترد على ألسنة المتكلمين، وخاطبهم شيخ الإسلام بما يفهمون، والمراد هنا: إثبات الشيء بقطع النظر عن علائقه وصفاته وإضافاته.

(٥) المجموع ١٢/ ٢٤١.

القرآن كلام الله حيث تصرف، وأنه غير مخلوق حيثما سمع وتلي وكتب.

٣ـ ومن تلكم الأدلة الباهرة، والحجج القاهرة، الدالة على الحق، وأن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام الخلق، أنه لا يمكن لمَلَكٍ مقرب، ولا لنبي مرسل، أن يقول: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[القصص:٣٠]، إلا إذا بلغه عن الله، كما نقرأ نحن القرآن، والمَلَك إذا أمره الله بالنداء، فإنه يبين العبارة، ويوضح بصراحة، أنه مبلِّغٌ لا معبر، كما في الحديث: [**إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إني أحب فلانا فأحبه، ثم ينادي جبريل في السماء، إن الله يحب فلانا فأحبوه**](١) والملائكة قالت لزكريا ﵇: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾[آل عمران:٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ ﴾[آل عمران:٤٢] فالملائكة تُبين أنها مبلغة عن الله، ولا يجوز لمخلوق أن يقول: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[القصص:٣٠]؛ فدل هذا على أن القرآن كلام الله تعالى(٢)، قال الإمام عبد الله بن المبارك ﵀: « من قال ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[القصص:٣٠] مخلوق فقد كفر، ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك »(٣)، وهل يجوز لأحد غير الله أن يقول: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾[طه:١١ ـ ١٢]، أو يقول: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾[طه:١٤]، فمن زعم هذا، فقد ادعى الربوبية، ولو كوَّن الله شيئا وخلقه، وأمره أن يقول ذلك، لكان يقول ذلك المكوَّن المخلوق: يا موسى إن الله رب العالمين، وليس له أن يقول: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[القصص:٣٠] فعلمنا بهذا أن القرآن كلام الله تعالى، وكلامه غير مخلوق(٤).

٤ـ قد كفر الله ﷻ من نطق فتقول بأن القرآن قول البشر، ووعده الله بسقر،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب/ ذكر الملائكة، ح(٣٢٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب/ إذا أحب الله عبدا...، ح(٢٦٣٧)، كلاهما عن أبي هريرة ﵁.

(٢) انظر: المعتمد لأبي يعلى ص٩١، الاعتقاد للبيهقي ص٩٧-٩٨، الانتصار للعمراني ٢/ ٥٥٣، التسعينية ١/ ٢٧٦، الدرء ١/ ٢٥٨، منهاج السنة ٥/ ٤٢٤-٤٢٥.

(٣) خلق أفعال العباد للبخاري ص ١٤، وانظر: شرح الأصبهانية ص٤٢١.

(٤) انظر: المجموع ٦/ ١٥٣، ١٢/ ٥٠٩.

كما في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر:١١ ـ ٢٦]. ولا ريب أن الكافر العنيد، المتقول في القرآن المجيد، أراد أن البشر أحدثوه، أو أن الخلق أنشؤوه، فكذبه الله سبحانه، وبين عواره وبطلانه[(١)]، **فلما توعَّد على ذلك**، دل أن القرآن ليس من قول البشرية، ولا من قول أحد من البرية، بل هو كلام الله تعالى[(٢)]، **ومن قال بعد هذا**: «إن هذا القرآن قول البشر، كان قوله مضاهيا لقول الوحيد[(٣)]، الذي أصلاه الله سقر، ومن قال: إن شيئا منه قول البشر، فقد قال ببعض قوله»[(٤)].

٥ـ ومن الأدلة الجلية، على إثبات أن القرآن كلام رب البرية، وأنه ليس مخلوقا، قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، ففَصَل بين الخلق والأمر، فدل أن قوله غير خلقه، ولو كان أمره مخلوقا، لكان كأنه قال: ألا له الخلق والخلق، وهذا تكرار من الكلام وعِيٌّ لا فائدة فيه، فينبغي أن يحمل على فائدة مجددة، وهي أن كلام الله تعالى غير خلقه، والكلام صفة من صفاته، وأن القرآن من أمره لا من خلقه[(٥)].

٦ـ القرآن العربي، كلام ربنا العلي، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ

---

(١) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص٩٨، المجموع ٦/ ٥٤٢، شرح الطحاوية ١/ ١٧٢، ١٨٤.

(٢) انظر: المعتمد لأبي يعلى ص٨٨.

(٣) وهو الوليد بن المغيرة، وكان من صناديد كفار مكة، ومات على الكفر. انظر: جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ١٢/ ٣٠٥.

(٤) الدرء ١/ ٢٥٨، وانظر: المجموع ١٢/ ٢٥٩.

(٥) انظر: السنة للخلال ٥/ ١٣٨، ٦/ ٣٦، المعتمد لأبي يعلى ص٨٧، الاعتقاد للبيهقيص٩٧، التسعينية ٢/ ٥٧٤-٥٧٥، معارج القبول ١/ ٣٣٨.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:٩٨ ـ ١٠٣]، فالقرآن الذي يبدل منه آية مكان آية، نزله روح القدس جبريل ﷺ من الله تعالى بالحق، وبعد ذلك قال هالك ـ كما أخبر الله عنه ـ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فقال جل شأنه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾، فالذي ينسبون إليه هذا التعليم أعجمي ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[(١)]، وهذا يدل على أن القرآن كلام الله تعالى، لا كلام أحد من البشر، تلقاه رسول الله ﷺ عن الله ﷻ.

٧ـ أن ربنا الرحمن، تكلم بهذا القرآن، كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾[السجدة:١٣]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الأحقاف:٢]، ومعلوم أن القرآن ليس عينا من الأعيان القائمة بنفسها، إنما هو صفة كالعلم، والقدرة، والرحمة، والغضب والإرادة، والرؤية، والسمع، ونحو ذلك، وهذا كله لا يقوم إلا بموصوف، فإذا أضيفت إلى الله تعالى فهي صفات له، فهو العالم، والقادر... وهو المتكلم، ومن زعم أن هذه الصفات أو شيئا منها قامت بغير الله، لكان ذلك الغير، هو العالم، وهو القادر... وهو المتكلم، والقرآن منـزل من الله ـ كما صرحت بذلك الآيات السابقة ـ فدل ذلك على أنه كلامه، وصفة له، قائمة به[(٢)]، قال الإمام المبجل أحمد بن حنبل: «كلام الله ليس بمخلوق، ولا تجزع أن تقول ليس بمخلوق، فإن كلام الله من الله ﷻ، من الله، ومن ذات الله، وتكلم الله به، وليس من الله شيء مخلوق»[(٣)]، لأن الله بصفاته خالق، ومن سواه بصفاتهم مخلوقون.

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٣٨، ١١٧، ٢٦٠-٢٦١.

(٢) انظر: المجموع ٦/ ٥٤٤، ١٢/ ٤٣٤، شرح الطحاوية ١/ ١٩٦.

(٣) السنة للخلال ٦/ ١٨ بتصرف يسير.

٨ـ وكل شيء مخلوق له قدر معلوم، وكلمات الله لا منتهى لها، فدل ذلك على أنها غير مخلوقة، والقرآن من كلماته، فهو غير مخلوق، قال ابن أبي حاتم[(١)] حدثنا أبي[(٢)] سمعت بعض أهل العلم يقول: « قول الله ﷻ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر:٤٩] وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾[الكهف:١٠٩] الآية، يدل على أن القرآن غير مخلوق، لأنه[(٣)] لو كان مخلوقا لكان له قدر، وكانت له ـ نهاية ـ، ولنفد كنفاد المخلوقين »[(٤)].

٩ـ قال الله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾[الرحمن:١-٣]، ففي الآية خص القرآن بالتعليم، لأنه كلامه وصفته، وكلامه وصفته لا يكونان مخلوقين، وخص الإنسان بالتخليق، لأنه خَلْقُه ومصنوعه،ولو لا ذلك لما فرق بينهما[(٥)].

١٠ـ أن رسول الله ﷺ صادق لا شاعر، ومبلِّغٌ لا كاهن[(٦)]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الحاقة:٤٠ ـ ٤٣]، وفي هذه الآيات إثبات أن القرآن منـزل من الله وأنّه هو المتكلم به، وأما الرسول فما هو إلا مبلِّغ، وهو الصادق الأمين، وقد ثبت صدقه في كل ما يُخبِر به عن الله، فمما أخبر به عنه القرآن، فإنه قد عُلِم

(١) هو الإمام الحافظ الناقد أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي، ولد سنة ٢٤٠هـ، كان بحرا في العلوم، ومعرفة الرجال، وهو صاحب المصنفات المشهورة ومنها: كتاب الجرح والتعديل، والتفسير الكبير، والرد على الجهمية، توفي سنة ٣٢٧هـ. انظر: السير١٣/ ٢٦٣-٢٦٩، طبقات الشافعية للسبكي٣/ ٣٢٤-٣٢٨، طبقات الحفاظ ص٣٤٦-٣٤٧.

(٢) هو الإمام الحافظ شيخ المحدثين أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الرازي، ولد سنة ١٩٥هـ، طوف البلاد، وبرع في علوم الحديث، وهو من نقاد الجرح والتعديل، له نقولات طيبة، ومقالات نفيسة، في كتب السنة، في الرد على أهل البدعة. انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/ ٣٤٩-٣٧٥، طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٢٦٤-٢٦٥، السير ١٣/ ٢٤٧-٢٦٣.

(٣) الضمير يرجع إلى "الكلام" في المواضع الثلاثة.

(٤) الفتح ١٣/ ٤٥٤، وفيه: (عناية) ولعله خطأ مطبعي، وما أثبته هو الصواب.

(٥) انظر: الحيدة ص٦٥-٦٦، الاعتقاد للبيهقي ص٩٦-٩٧، الفتح ١٣/ ٤٦٢.

(٦) انظر: جمع الوسائل في شرح الشمائل لملا علي القاري ٢/ ٤٠.

بالاضطرار أنه مبلِّغ القرآنَ عن الله، وأخبر أن القرآن كلام الله لا كلامه[١].

١١ـ ومن السنة ما رواه جابر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف، فقال: [**ألا رَجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي**][٢] يعني القرآن الكريم، فهذا تصريح جلي، ونص قطعي، على أن القرآن كلام ربنا العلي[٣]، واحتج الأئمة المهديون، الذين سلكوا نهج الأنبياء والمرسلين، على أن القرآن غير مخلوق، بقول النبي ﷺ : [**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**][٤]، قالوا: والمخلوق لا يستعاذ به، والنبي ﷺ لا يَستعيذ بمخلوق، ولا يقول عالم إنه يجوز أن يقال: أعوذ بالكعبة من شر ما خلق الله، ولا أن يقال: أعوذ بالصفا أو بالمروة، أو بغيرها من المخلوقات، وإن كان لها حرمة عند رب البريات[٥]؛ فدل هذا على أنه إنما يُستعاذ بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته، ومن صفاته كلماته ﷻ.

١٢ـ ومن الأدلة على كون القرآن كلام الله تعالى، وأنه غير مخلوق، الإجماع، وقد ذُكِر الإجماع عن السلف العدول، الذين سلكوا منهج الرسول، ونذكرهم جملة لا بتفصيل، ومجموعا دون تطويل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ: «وهذا قول السلف قاطبة من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين: أن القرآن كلام الله ليس

---

(١) انظر: الانتصار للعمراني ١/ ١٠٢، قواطع الأدلة ١/ ٣٣-٣٤، شرح الأصبهانية ص٦٧٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب/ في القرآن، ح(٤٧٣٤)، والترمذي، كتاب ثواب القرآن، باب/ حرص النبي ﷺ على تبليغ القرآن، ح(٢٩٢٦)، وابن ماجة في المقدمة، باب/ فيما أنكرت الجهمية، ح(٢٠١) والإمام أحمد في المسند(٣/ ٩٠)، وغيرهم، وقال فيه الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين...، باب/ ذكر أخبار سيد المرسلين..، ح(٤٢٢٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ١٧٢، ٢٥٩، ٣٠١.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب/ في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، ح(٢٧٠٨)، من رواية خولة بنت حكيم السلمية ؓ، و(٢٧٠٩) من رواية أبي هريرة ؓ.

(٥) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ١٦٥-١٦٦، كتاب التوحيد لابن منده ٢/ ١٣٥، المعتمد لأبي يعلى ص٨٧، الاعتقاد للبيهقي ص١٠٨، التسعينية ٢/ ٤٦٢، الدرء ٢/ ٥٤٤، الرد على البكري ٢/ ٥٤٤، المجموع ١٢/ ٣١٣، السير ١٠/ ١٩، شرح الطحاوية ١/ ١٨٩.

بمخلوق»[(١)]، وقال أيضا: «وهذا مذهب الصحابة، والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت وغيرهم، وهذا مذهب الأئمة المتبوعين، مثل: مالك بن أنس، والثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق[(٢)]... ومحمد بن خزيمة[(٣)]، ومحمد بن نصر المروزي[(٤)]، وأبي بكر بن المنذر[(٥)]، ومحمد بن جرير الطبري، وأصحابهم»[(٦)]، وقد عد العلماءَ المجتهدين، الذين يقتدى بهم في الدين، أبو القاسم اللالكائي[(٧)]،

(١) منهاج السنة ١/ ٢٤٦، وانظر: ٥/ ٤١٦، المعتمد لأبي يعلى ص٢٦٢، الاعتقاد للبيهقي ص١١٢، التسعينية ٢/ ٦١٢، شرح الأصبهانية ص٧-٨، الصفدية ٢/ ٥٥،٨٦ ، المجموع١٢/ ٢٣٥، ٣٧٢، ٤٠٧، ١٧/ ٣٦، ٢٣/ ٣٦١، الفتح ١٣/ ٤٧٠، العين والأثر ص٨١.

(٢) هو الإمام الثقة، الحافظ المجتهد: أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي المعروف بابن راهُويه، ولد سنة ١٦١هـ لقي الكبار، وأخذ العلم في الأمصار، واحتاج إليه أهل الديار، وكان رأسا في السنة، شديدا على أهل البدعة، مات سنة ٢٣٨هـ. انظر: الجرح والتعديل ٢/ ٢٠٩-٢١٠، السير ١١/ ٣٥٨-٣٨٣، تقريب التهذيب ص٣٩.

(٣) هو إمام الأئمة الحافظ الحجة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة السلمي النيسابوري، ولد سنة ٢٢٣، وعنى في صغره بالحديث والفقه، فحاز فيهما السبق، وأخذ من خلق، وأخذ عنه كثيرون منهم الشيخان في غير الصحيحين، وكان لا يهتم بأمور الدنيا ولا يفرق بين العشرة والعشرين، مع السخاء والجود، مهتما بالعلم والحفظ، حتى قيل:إنه يحفظ المسائل الفقهية من حديثه كما يحفظ القارئ السورة، ومن مؤلفاته السنية كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب، توفي ﷺ سنة ٣١١هـ. انظر: الجرح والتعديل ٧/ ١٩٦، السير ١٤/ ٣٦٥-٣٨٢، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٠٩-١١٩.

(٤) هو الإمام الحافظ: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، ولد ٢٠٢هـ أخذ عن جماعة كثيرة، وتفقه في فنون عديدة، ومن أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام، ومن مصنفاته: كتاب تعظيم قدر الصلاة، والسنة، مات سنة ٢٩٧هـ. انظر: السير١٤/ ٣٣-٤٠، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٤٦-٢٥٥، طبقات الحفاظ ص٢٨٩-٢٩٠.

(٥) هو الإمام الحافظ، العلامة: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تفقه بالمذهب الشافعي ومِنْ عِدادهم، ويدور مع الدليل حيث دار، وأصبح إماما مقتدىً به، وهو صاحب التصانيف، ومن تصانيفه: الإجماع، والإشراف على مسائل الخلاف، توفي سنة ٣١٨هـ. انظر: السير ١٤/ ٤٩٠-٤٩٢، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٠٢-١٠٨، طبقات الحفاظ ص٣٢٨.

(٦) منهاج السنة ٢/ ١٠٦-١٠٧، وانظر: الفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة ص٤٠ مع شرح ملا علي القاري، العقيدة الطحاوية ص٤٠ بتحقيق الشيخ الألباني، شرح الأصبهانية ص٥٠٧، المجموع ١٢/ ٣٦-٣٧، ٥٠٦-٥٠٧، ٥٥٤، ٥٨٢، شرح الطحاوية ١/ ١٨٥.

(٧) هو الحافظ الفقيه: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، حفظ الحديث، وتفقه على مذهب الشافعي، وله تصانيف منها: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وكتاب في

وذكرهم وأحصاهم، فبلغوا (٥٥٠) نَفْسا بل أكثر، من التابعين وأتباع التابعين، والأئمة المرضيين ـ سوى الصحابة ﷺ وفيهم نحو مائةِ إمام مقتدىً به، غير الألوف من المحدثين[١]، فالله ﷻ تكلم بالقرآن، وكلم موسى تكليما، وهذا اعتقاد المؤمنين المتبعين، للقرآن والحديث، وإجماع السلف الصالحين، من الصحابة والتابعين، فالنقول «بذلك متواترة مستفيضة، عن الصحابة، والتابعين لهم بإحسان»[٢] بل «وجمهور المسلمين يقولون: إن القرآن العربي كلام الله، وقد تكلم الله بحرف وصوت»[٣]، فهذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ، كما ثبت بذلك النص والإجماع[٤]؛ فنعلم أن الذي نقرؤه هو كلام الله حقيقة، لا كلام غيره، وأن الذي بين اللوحين هو كلام الله حقيقة، كما هو إجماع المسلمين من السلف، ومتبعيهم من الخلف، قبل حدوث البدع، وانتشار الأهواء.

١٣ـ ومن الأدلة على ذلك، الآثار السلفية، الواردة عن الصحابة ﷺ، ومن تلكم الآثار، المشهورة في الأمصار:

أ ـ ما جاء في حديث أبي بكر الصديق ﷺ، لما قرأ على المشركين، قول الله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾[الروم:١ ـ ٢]، فقالوا: كلامك هذا أم كلام صاحبك؟ قال ﷺ: [**ليس بكلامي، ولا كلام صاحبي، ولكنه كلام الله ﷻ**][٥].

= السنن وغيرها، مات سنة ٤١٨هـ. انظر: تاريخ بغداد ١٤/ ٧٠-٧١، السير١٧/ ٤١٩-٤٢٠، طبقات الحفاظ ص٤٢١.

(١) انظر: اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٢/ ٣٤٤ وقد عدها أحد الاخوة فبلغ بالتدقيق (٥٥٧) نفسا، والمجموع ١٢/ ٤١٩-٤٢٠، اعتقاد أئمة السلف أهل الحديث د. محمد الخميس.

(٢) منهاج السنة ٢/ ٣٦٣، وانظر: خلق أفعال العباد ص ٦٨-٦٩، السنة للخلال ٦/ ١٠٧، شرح الأصبهانية ص١٤٨، المجموع ٥/ ٩١، ١٩٠، ١٢/ ٣٠، ٥١٦-٥١٧.

(٣) شرح حديث النزول ص٤٣٤، وانظر: شرح الأصبهانية ص٤١٣، المجموع ٦/ ١٨٣.

(٤) انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٥٩٦، التسعينية ٢/ ١٢، ٥١٣، المجموع ٦/ ٥٤٣، ١٢/ ٥٠٤.

(٥) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد ص١٦٦-١٦٧، والبيهقي في الاعتقاد ص١٠٧-١٠٨، ونحوه البخاري في خلق أفعال العباد معلقا ص٣١، وغيرهم، قال شيخنا: بدر البدر في تعليقه على خلق أفعال العباد: «وإسناده صحيح»، وانظر: المجموع ٦/ ٥٤٣، ١٢/ ٥٠٤.

ب ـ ما روي عن عليّ ﷺ، أنه لما قيل له: [**حكمت مخلوقا؟ قال: لَمْ أُحكِّم مخلوقا، وإنما حكمت القرآن**][١]؛ «فلم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة الذين يوالونه، ولا أحد من الخوارج[٢] الذين يعادونه، ولا روي عن أحد منهم خلاف له في ذلك»[٣].

ج ـ روى ابن أبي حاتم في كتابه "الرد على الجهمية" بسنده عن ابن عباس ﷺ: [**أنه سمع رجلا يقول في جنازة: يا رب القرآن ارحمه؟؟ فقال: مَـهْ؟ القرآن منه، القرآن كلام الله، وليس بمربوب، منه خرج وإليه يعود**][٤].

د ـ روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار[٥] قال: [**سمعت مشيختنا منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق**][٦]؛ **فهذه أدلة أثرية**، تفيد أن القرآن من كلام رب البرية، هو المتكلم به، ومنه سمع، وهو المتصف به لا غيره[٧]

---

(١) رواه البيهقي في الاعتقاد ص١١٠، وفي الأسماء والصفات ص٥٢٥، وقال: «وهذه الحكاية شائعة فيما بين أهل العلم، ولا أراها شاعت إلا عن أصل»، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ١/ ٢٥٤-٢٥٥، وذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص١٠٠، واستشهد به شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ٢/ ٢٥١-٢٥٢، المجموع ١٢/ ٤١٨.

(٢) الخوارج فرقة ضالة، كان أول بزوغهم السعي لقتل عثمان ﷺ، ثم الخروج على علي ﷺ وقتله، وهم يظهرون العبادة، والولاء بشدة للدين، ويفهمون الشرع على فهومهم، ولهذا شذوا في كثير من الأحكام، ومن ذلك تكفيرهم للحكام المسلمين، ويرى الخوارج ـ كفرقة ـ أن مرتكب الكبيرة كافر حلال الدم، وهم فرق كثيرة، ومنهم الإباظية اليوم، وعلى فكرهم كثير من الأصاغر في هذا العصر. انظر: معجم ألفاظ العقيدة ص ١٦٩.

(٣) رسالة إلى أهل الثغر ص١٢٦، وانظر: شرح أصول الاعتقاد للالكائي ٢/ ٢٥٣.

(٤) أخرجه البيهقي في الاعتقاد ص١١٠، وفي الأسماء والصفات ص٥١٩، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٢/ ٢٥٦-٢٥٧، وانظر: تلبيس إبليس ص١٠٠، منهاج السنة ٢/ ٢٥٢-٢٥٣، المجموع ١٢/ ٤١٨، الفتح ١٣/ ٤٦٣، وسيأتي مزيد من الآثار في المطلب الثاني، تؤكد هذا المعنى.

(٥) هو الإمام الحافظ، الثقة الثبت: أبو محمد عمرو بن دينار المكي الأثرم، الجُمَحِي مولاهم، روى عن عدد من الصحابة، ذو فقه ودراية، وعلم ورواية، مات سنة ١٢٦هـ. انظر: السير ٥/ ٣٠٠-٣٠٧، تقريب التهذيب ص٣٥٨، طبقات الحفاظ ص٥٠. وقد ذكر اللالكائي أنه قد لقي تسعة من الصحابة، كما في شرح أصول الاعتقاد ٢/ ٢٥٣-٢٥٤.

(٦) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ١١، ومن طريقه البيهقي في الاعتقاد ص ١١١، والأسماء والصفات ص٢٤٥، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٢/ ٢٦٠-٢٦١، وغيرهم، وانظر: منهاج السنة ٢/ ٢٥٣.

(٧) انظر: شرح الأصبهانية ص١٣.

١٤ـ الأدلة من القياس وهو دليل العقل؛ وقد دل العقل على أن الله ﷻ متكلم بمختلف الأدلة، ومن ذلك:

أ ـ أن القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله، قيل للإمام أحمد: «ما تقول في القرآن؟، قال: ما تقول في العلم؟؟ فسكت، فقال الإمام أحمد: القرآن من علم الله»(١).

ب ـ القرآن كلام الله باتفاق المسلمين، فإما أن يكون كلامه النظم والمعنى، كما هو قول جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أو النظم دون المعنى، وهذا معلوم بطلانه بضرورة العقل، أو المعنى دون النظم؛ فإن كان كلامه هو المعنى فقط، والنظم العربي الذي يدل على المعاني ليس كلام الله،كان مخلوقا خلقه الله في غيره، فيكون النظم لذلك الغير، ومن المعلوم بالاضطرار من دين المسلمين، أن الكلام العربي الذي بلغه محمدٌ ﷺ عن الله، أعلمَ أمتَه أنه كلام الله، لا كلام غيره، فإن كان النظم العربي مخلوقا، لم يكن كلام الله، فيكون ما تلقته الأمة عن نبيها باطلا؟ وهذا من أعظم حجج أهل السنة على أن القرآن كلام الله غير مخلوق(٢).

ج ـ أن صفات الله تعالى لا تكون مخلوقة، فكذلك القرآن وهو من كلامه ﷻ، قال أحمد بن الحسن الترمذي(٣): «قلت لأحمد بن حنبل: إن الناس قد وقعوا في القرآن! فكيف أقول؟ فقال: أليس أنت مخلوقاً؟، قلت: نعم!، قال: فكلامك منك مخلوق؟، قلت: نعـم، قال: أفليس القرآن من كلام الله؟ قلت: نعم!، قال: وكلام الله من الله؟ قلت: نعم! قال: فيكون من الله شيء مخلوق؟!»(٤).

---

(١) المجموع ٦/ ١٥٧.

(٢) انظر: المجموع ٦/ ٥٣٤، وانظر: معارج القبول ١/ ٣٣٨.

(٣) هو الثقة الحافظ: أبو الحسن أحمد بن الحسن بن جُنَيْدِب الترمذي، تفقه على الإمام أحمد، وكان بصيرا بالعلل والرجال، حدث عنه جماعة، توفي بعد مائتين وأربعين هجرية. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٣٩-٤٠، السير ١٢/ ١٥٦-١٥٧، تقريب التهذيب ص١٨.

(٤) المجموع ١٢/ ٤٣٣-٤٣٤.

د ـ ويدل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، أنه لو حلف إنسان لا أتكلم، فقرأ القرآن، لم يحنث، فلو كان الكلام كلامه لحنث، فلما لم يحنث دل على أن القرآن ليس كلامه، وأنه كلام الله تعالى[١].

هـ ـ أنه لا بد من اعتقاد في القرآن، وأنه كلام الرحمن، وهذا من دين الإسلام، « **لأن الدين لا بد فيه من أحد أمرين**: إما أن يكون الله تعالى تكلم بالقرآن وبسائر كلامه، وإما أن يكون خَلَقه في غيره، لا يحتمل الأمر وجها ثالثا؛ فإذا بطل أن يكون خلقه في غيره من الدين، تعين أن يكون القول الآخر من الدين، وهو أن الله هو المتكلم به، فمنه بدأ، ومنه حق القول، ومن لدنه نزل »[٢].

١٥ ـ مما يدل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، إطلاق السلف لفظ التكفير، على من زعم ذلك، ومن ذلك:

أ ـ قال الثوري: « من قال: القرآن مخلوق، فهو كافر »[٣].

ب ـ ما رواه البخاري في خلق أفعال العباد أن: « عبد الله بن إدريس[٤] جاءه رجل فقال: يا أبا محمد! ما تقول في قوم يقولون: القرآن مخلوق؟ فقال: أمن اليهود؟[٥] قال: لا، قال: فمن النصارى؟ قال: لا، قال: فمن المجوس؟[٦] قال: لا، قال: فممن؟ قال: من أهل التوحيد!، قال: ليس هؤلاء من أهل التوحيد، هؤلاء زنادقة، من زعم أن القرآن مخلوق، فقد زعم أن الله مخلوق، يقول الله: ﴿ بسم الله

---

(١) انظر: المعتمد لأبي يعلى ص٨٨، وانظر: المجموع ١٠/ ١٧.

(٢) التسعينية ٢/ ٥١٨، وانظر: معارج القبول ١/ ٣٣٨.

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص١٤، وعبد الله بن أحمد نحوه في السنة ص١١، وغيرهما.

(٤) هو الإمام الثقة، الفقيه العابد: أبو محمد عبد الله بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن الأودي الكوفي، ولد سنة ١٢٠هـ، كان من أئمة الدين، ومن القراء التالين، والمحدثين المشهورين، توفي سنة ١٩٢هـ. انظر: التاريخ لابن معين ٢/ ٢٩٥-٢٩٧، السير٩/ ٤٢-٤٨، تقريب التهذيب ص٢٣٨.

(٥) اليهود هم الذين يزعمون أنهم أتباع موسى ﷺ، وكانت في الأصل ديانة سماوية، ثم حرفت كما دل على ذلك القرآن، وسميت يهودية، قيل: نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، وقيل: غير ذلك. انظر: معجم ألفاظ العقيدة ص ٤٥٢.

(٦) وهم عباد النار، ويزعمون أن للكون إلهين: إله للخير ويمثله النور، وإله للشر ويمثله الظلمة، ومنهم الثنوية والمانوية. انظر: معجم ألفاظ العقيدة ص٣٦٣.

الرحمن الرحيم﴾[النمل:٣٠]، فـ(الله) لا يكون مخلوقا، و(الرحمن) لا يكون مخلوقا، وهذا أصل الزنادقة، من قال هذا فعليه لعنة الله، لا تجالسوهم، ولا تناكحوهم »(١).

ج ـ قال ابن المديني(٢): « القرآن كلام الله،من قال: إنه مخلوق فهو كافر، لا يصلى خلفه »(٣).

بل اتفاق السلف على أن هذه المقالة شنيعة بدعية، وأنها من مروجات أهل البدع الكفرية، وتكفيرهم بهذه المقالة عام، مع اتفاقهم على تكفير الجهمية(٤) الأولى خصوصا(٥)، وهم المراد بقول السلف أنهم زنادقة، وأما غيرهم من الفرق، وتنـزيل هذا العموم على آحادهم، فلا يكون إلا بعد العلم والبيان، وإقامة الحجة والبرهان(٦)، ومن هنا نفهم إطلاقات السلف، في فتاواهم بتكفير القائلين بخلق القرآن، وأنها من حيث العموم، قال الإمام الشافعي: « لله أسماء وصفاتٌ لا يسع أحدا ردَّها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل »(٧)، وقال الإمام البخاري رحمه الله: « وكل من لم يعرف الله بكلامه أنه غير مخلوق، فإنه يُعلَّم ويُرد جهله إلى الكتاب والسنة، فمن أبى بعد العلم به كان معاندا »(٨)؛ فإطلاق السلف

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص١٣، وعبد الله بن أحمد نحوه في السنة ص١٤.

(٢) هو الإمام الثبت، الثقة الحافظ: أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفر بن نَجيح السعدي مولاهم المديني، ولد سنة ١٦١هـ أعلم أهل عصره بالحديث وعلله، قال النسائي: « كأن الله خلقه للحديث »، أجاب في محنة (مسألة خلق القرآن) مُكْرَهًا، واعتذر بالخوف معلِّلا، مات سنة ٢٣٤هـ. انظر:طبقات الحنابلة ١/ ٢١٣-٢١٥، السير ١١/ ٤١-٦٠ تقريب التهذيب ص٣٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص١٨، وانظر بعض الآثار السلفية عن الأئمة في السنة للخلال ٦/ ١٠ وما بعدها، عقيدة السلف للصابوني ص٣١، شرح الأصبهانية ص٤٢١ وما بعدها، التسعينية ٢/ ٥٧٥، ٦٨٦

(٤) الجهمية هم أتباع الجهم بن صفوان السمرقندي، وقد أخذ عن الجعد بن درهم، وهو رأس الجهمية، وناشر مذهبهم، وكل من نفى صفات الله ﷻ فهو جهمي، ومن أنكر علو الله ﷻ فهو جهمي بهذا الاعتبار، وأما الجهمية الخلص فهم الذين لا يثبتون لله ﷻ أسماء ولا صفات. انظر: أصول الدين للبغدادي ص٣٣٣، معجم ألفاظ العقيدة ص١٢٨.

(٥) انظر: الدرء ٥/ ٢٥٧، ٣٠٩، المجموع ١٢/ ٤٨٥، ٢٠/ ١٨٥.

(٦) انظر: خلق أفعال العباد ص ٧٠، السنة لابن أبي عاصم ص٦٣١.

(٧) الفتح ١٣/ ٤٠٧.

(٨) خلق أفعال العباد ص٧٠.

لفظ التكفير، على من قال بأن القرآن مخلوق، يدل على قوة اعتقادهم، وثبات رسوخهم في هذه العقيدة، وهي: أن القرآن كلام الله غير مخلوق(١).

١٦ـ ومما يدل على ذلك، ثبات أهل السنة، ورسوخهم في مقابل هذه البدعة الشنيعة، وبذلهم أنفسهم، وأموالهم، وجاههم في بيان هذه العقيدة النقية السلفية، في كلام رب البرية، وأنه من صفاته العلية؛ فمنهم من قُتل، ومنهم من ضُرب بالسياط، وكبل بالحديد، وسلسل بالسلاسل، ومنهم من أُعفي من منصبه، ومُنع من تدريسه وإفتاءه، ولم يزدهم ذلك إلا رسوخا في هذه العقيدة، حصل كل هذا وزيادة، لما وقعت المحنة العظيمة، ذات الشرور المستطيرة، وهي معروفة مشتهرة، وفي كتب التاريخ والسير مستطرة، وأنقل خلاصة ذلك بما حصل لإمام أهل السنة المبجل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل ﵀ ورضي عنه، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرا، قال شيخ الإسلام ﵀: «فلما امتحن الناس بذلك ـ بالقول بخلق القرآن ـ، واشتهرت هذه المحنة، وثبت الله من ثبته من أئمة السنة، وكان الإمام الذي ثبَّته الله، وجعله إماما للسنة ـ حتى صار أهلُ العلم بعد ظهور المحنة يمتحنون الناس به، فمن وافقه كان سُنِّيا، وإلا كان بدعيا ـ، هو الإمام أحمد بن حنبل، فثبت على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكان المأمون(٢) لما صار إلى الثغر بطَرَسُوس(٣)، كتب إلى نائبه بالعراق إسحاق بن إبراهيم(٤)، فدعي العلماء، والفقهاء، والقضاة، فامتنعوا عن الإجابة

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٤٢٠، ٥٠٧.

(٢) هو أحد خلفاء بني العباس: أبو جعفر عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي العباسي، ولد سنة ١٧٠هـ، بويع له بالخلافة بعد مقتل أخيه، وعُربت الكتب اليونانية بأمره، وكان فيه تشيع، دعا إلى القول بخلق القرآن، نسأل الله لنا وله الغفران، وامتحن الناس، وبالغ فيه سنة ٢١٨ هـ، حتى توفي في رجب من السنة نفسها. انظر: المعارف لابن قتيبة ص ٢١٧-٢٢٠، البدء والتاريخ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ٢/ ٢٩٦-٢٩٧، السير ١٠/ ٢٧٢-٢٩٠، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٦٨-٢٩٠.

(٣) بفتح الأولَيَيْن، مدينة بثغور الشام بين إنطاكية وحلب وبلاد الروم. معجم البلدان ٤/ ٣١-٣٢، وهي الآن في أوروبا الشرقية، جنوب من (أضنة) التركية. أطلس التاريخ العربي الإسلامي ص٤٠.

(٤) هو الوالي الحازم: إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي، ولي بغداد نحوا من ثلاثين سنة، قال الذهبي: «وعلى يده امتُحِن العلماءُ، بأمر المأمون في ـ مسألة ـ خلق القرآن»، توفي سنة ٢٣٥هـ. انظر: السير ١١/ ١٧١، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٢/ ٨٤.

والموافقة، فأعاد عليه الجواب، فكتب كتابا ثانيا يقول فيه عن القاضيين، بشر بن الوليد(١)، وعبد الرحمن بن إسحاق(٢)، إن لم يجيبا فاضرب أعناقهما، ويقول عن الباقين: إن لم يجيبوا فقيدهم فأرسلهم إليّ، فأجاب القاضيان، وذكرا لأصحابهما: أنهما مكرهان، وأجاب أكثر الناس قبل أن يقيدهم لمّا رأوا الوعيد، ولم يجب ستة أنفس، فقيدهم فلما قيدوا أجاب الباقون إلا اثنين، أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح النيسابورى(٣) فأرسلوهما مقيدين إليه فمات محمد بن نوح في الطريق، ومات المأمون قبل أن يصل أحمد إليه، وتولى أخوه أبو إسحاق(٤)، وتولى القضاء

(١) هو قاضي العراق: أبو الوليد بشر بن الوليد بن خالد الكندي الحنفي، تفقه على يد القاضي أبي يوسف، امتحن في مسألة خلق القرآن، فأجاب مكرها، ثم كان رأيه الوقف، فكان لا يقول: إنه مخلوق ولا غير مخلوق، مات سنة ٢٣٨هـ. انظر: تاريخ بغداد ٧/ ٨٠، السير ١٠/ ٦٧٣-٦٧٦، الجواهر المضية ١/ ٤٥٢ ـ ٤٥٤.

(٢) هو القاضي: عبد الرحمن بن إسحاق بن إبراهيم بن سلمة الضبي، تولى قضاء الرقة، ثم تولى قضاء الشرقية ببغداد، أيام المأمون إلى آخر أيام المعتصم، وذكره ابن كثير فيمن دعي في المحنة وطلب منه أن يجيب، وعزل عن القضاء سنة ٢٢٨هـ، توفي سنة ٢٣٢هـ. انظر: البداية والنهاية ١٠/ ٧١٥، والجواهر المضية ٢/ ٣٧٥-٣٧٦، وتاريخ بغداد ١٠/ ٢٦٠-٢٦١.

وذكر محقق كتاب "شرح حديث النزول": «أن ذكر الشيخ لعبد الرحمن بن إسحاق في هذه القصة وهم، والصواب أن الثاني هو: إبراهيم المهدي»، والذي يظهر لي ـ والله تعالى أعلم ـ أن ما قاله شيخ الإسلام هو الصواب، خصوصا أنه ذكره في عدة مواضع من كتبه، كما في: (المجموع ٥/ ٥٥٤، الدرء ٥/ ١٨٢، ٧/ ٢٥٦)، ويظهر أنه كان في أول الأمر على ما كان عليه عامة العلماء من السنة، وفي أول المحنة التي أجراها المأمون على الفقهاء والقضاة والمحدثين، إلا إنه صار بعدُ إلى قول المعتزلة خصوصا أنه لم يكن صاحب حديث، وإنما كان صاحب فقه على المذهب الحنفي، (جمّاعًا للمال) كما قال الدارقطني، وناظر بعدُ الإمامَ أحمد بين يدي المعتصم، وأفتى بقتل أحمد بن نصر الخزاعي في زمن الواثق. انظر: تاريخ بغداد ٥/ ١٧٧، ٧/ ٣٦٤، ١٠/ ٢٦٠، والمجموع (وناظره الأئمة في هذه المسألة وصار متجهما) ٦/ ١٥٧، الفتاوى الكبرى ٥/ ٧٧، الدرء ٣/ ٢٤.

(٣) هو المُدافع عن السنة، والباذل نفسه لها: محمد بن نوح بن ميمون العجلي، قال عنه الإمام أحمد: «ما رأيت أحدا ـ على حداثة سنه، وقلة علمه ـ أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، وإني لأرجو أن يكون الله قد ختم له بخير» وُجِّهَ إلى المأمون بطرسوس، مُكَبلا بالسلاسل، مات في الطريق، سنة ٢١٨هـ. انظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٢٣، البداية والنهاية ١٠/ ٧١٦ (ووقع فيه: الجنديسابوري، وهو آخر متأخر، كما ذكر المتأخر الذهبي في السير ١٤/ ٣٤)، شذرات الذهب ٢/ ٤٥.

(٤) هو أحد خلفاء بني العباس: المعتصم محمد بن هارون الرشيد بن المهدي العباسي، بويع بالخلافة بعهد من

أحمد بن أبي دؤاد[١]، وأقام أحمد ابن حنبل في الحبس من سنة ثماني عشرة إلى سنة عشرين. ثم إنهم طلبوه وناظروه أياما متعددة، فدفع حججهم، وبين فسادها، وأنهم لم يأتوا على ما يقولونه بحجة، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا من أثر، وأنه ليس لهم أن يبتدعوا قولا، ويلزموا الناس بموافقتهم عليه، ويعاقبوا من خالفهم، وإنما يلزم الناس ما ألزمهم الله ورسوله، ويعاقب من عصى اللهَ ورسولَه، فإن الإيجاب والتحريم، والثواب والعقاب، والتكفير والتفسيق، هو إلى الله ورسوله، ليس لأحد في هذا حكم»[٢]، وبهذا الثبات ظهرت السنة، ومحقت البدعة، والحمد لله أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا، وبهذا القدر كفاية لمن اعتبر، وتذكير لمن تذكر، فالقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهذه العبارة الأخيرة هي موضوع المطلب الآتي.

= أخيه المأمون، وذلك سنة ٢١٨هـ، وصار على طريقة سلفه في امتحان الناس في مسألة خلق القرآن، وبلي به الناس، وكان رجلا مقداما، يغزو بنفسه، مات سنة ٢٢٧هـ. انظر: المعارف لابن قتيبة ص٢٢٠-٢٢١، البدء والتاريخ ٢/ ٢٩٨-٣٠٠، السير ١٠/ ٢٩٠، تاريخ الخلفاء ص٢٩١-٢٩٦.

(١) هو القاضي الجهمي: أبو عبد الله أحمد بن فرج بن حَريز الإيادي البصري، المعروف بابن أبي دُؤَاد، صاحب جود ومكرمة، لولا ما كان منه في المحنة، فإنه أجج نارها، وزكم بها أنوف أهل السنة وحمل شنارها، وكان عدوّا لدودا لأئمة أهل السنة، مفتيا بقتلهم في المحنة، أصيب بالفالج، ومات ولم يوجد له معالج، توفي سنة ٢٤٠هـ. انظر: الفهرست ص ٢٩٦ وفيه (جرير بدل حريز)، السير ١١/ ١٦٩-١٧١، ميزان الاعتدال ١/ ٩٧.

(٢) شرح حديث النزول ص٤٣٠-٤٣٣، المجموع٥/ ٥٥٣، وانظر: طبقات الحنابلة ١/ ١٨-١٩، المجموع ١٢/ ٣٥٥، ٥٠٧، ١١/ ٤٧٨، الدرء ٥/ ١٨٢ السير١٠/ ٢٨٧-٢٨٨، ١١/ ٢٣٦-٢٦٥، البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٧١٤-٧١٧، ٧٨٠-٧٨٦، تاريخ الخلفاء ص٢٧٠-٢٧٤.

المطلب الثاني: القرآن الكريم من الله بدأ وإليه يعود.

إن من العقائد السلفية، لمتبع الآثار السَنِيّة، أن الله ﷻ متصف بالصفات العلية، وصفاته منه ﷻ، وأن القول في الصفات كالقول في الذات[١].

وسبق أن من الصفات العلا، الثابتة لربنا الأعلى، صفة الكلام على ما يليق بجلاله، من غير مشابهة لأحد من خلقه، وأن من كلامه القرآن الكريم.

وللتأكيد على أن القرآن كلام الله سبحانه، هو المتكلم به لا غيره، سُطِّرت في كتب العقائد والنحل، والآثار والسنن: [**أن القرآن من الله بدا وإليه يعود**]، ونُقِلَت هذه العبارة مأثورا، واشتهرت معقولا، ويتضح معناها جليا، في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: قول السلف: [القرآن من الله بدا].

و(بَدَا) من(البَدأْ) و(الابْتِدَاء)، كما ورد عن العرب، أو من(البُدُوِّ) وهو الظهور[٢]، وعلى هذين المعنيين كلام السلف يدور، **وفي الاصطلاح أراد السلف بهذه العبارة معنيين:**

المعنى الأول: أنهم أرادوا بقولهم: (القرآن منه) أي كلام الله، من الله، وأن الكلام صفة من صفاته، والصفة داخلة في مسمى اسمه.

وهذا كقولهم: علم الله منه، وقولهم: صفاته منه، وهذا التفسير يطابق قول الإمام أحمد وغيره من السلف حين قالوا: «ما وصف الله من نفسه، وسمى من نفسه، كالقدرة والحياة، والعلم، وغيرها، فإن هذه الصفات كلها من الله، أي: مما تدخل في مسمى اسمه»[٣].

---

(١) انظر: التدمرية ص ٤٣، المجموع ١٢/ ٥٧٥.

(٢) انظر: المفردات للراغب ص٤٩، مقاييس اللغة ص١٢٠، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري ١/ ١٠٣، شرح الواسطية للشيخ محمد خليل هراس ص٩١.

(٣) التسعينية ١/ ٣٦٣-٣٦٤، وانظر: المجموع ١٢/ ٤٦، ٢٧٤، ٣٣٠.

فالسلف يعتقدون: أن القرآن سمعه جبريل من الله حقيقة، كما سمع موسى ﷺ كلام الله منه حقيقة، فالقرآن منه حقيقة[(١)].

قال عبد الله بن إدريس الأودي: «لما سُئِل عن قوم يقولون: القرآن مخلوق؟؟ فاستشنع ذلك، وقال: سبحان الله! شيء منه مخلوق؟ هؤلاء زنادقة؟؟»[(٢)].

وذلك لأن القرآن كلام الله تعالى، وصفة من صفاته، والله بصفاته الخالق، وصفاته منه، وليس شيء من صفاته مخلوق.

وقال محمد بن خفيف[(٣)] ـ مبينا أن القرآن من كلام الله سبحانه، وأنه صفة من صفاته ـ: «وقولنا وقول أئمتنا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإنه صفة الله، منه بدأ قولا، وإليه يعود حكما»[(٤)].

وباب الصفات واحد ـ فالقول في بعض الصفات كالقول في البعض الأخر[(٥)] ـ فعلمه وكلامه منه، وهو غير مخلوق، والقرآن من كلام الله تعالى.

قال وكيع بن الجراح[(٦)] رحمه الله: «القرآن كلام الله، وهو منه جل وتعالى». وقال: «القرآن من الله، منه خرج وإليه يعود»[(٧)].

---

(١) انظر: الواسطية ص ١٣٦ بحاشية الفوزان.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في السنة ص ١٤.

(٣) الشيخ الفقيه القدوة، الزاهد الناسك: أبو عبد الله محمد بن خَفيف بن اسفكشار الضبي الفارسي الشيرازي، تفقه على أبي العباس بن سريج، وأخذ عنه الباقلاني وغيره، وهو معدود من الزهاد، متمسك بالكتاب والسنة، جمع بين العلم والعمل، توفي سنة ٣٧١هـ. انظر: السير ١٦/ ٣٤٢-٣٤٧، الأنساب للسمعاني ٣/ ٤٩٢، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٤٩-١٦٣.

(٤) المجموع ٥/ ٧٦، وانظر: الواسطية ص ١٣٦ بحاشية الفوزان.

(٥) انظر: التدمرية ص٣١.

(٦) هو الثقة الحافظ: أبو سفيان وكيع بن الجرح الرؤاسي الكوفي، طلب العلم في الصغر، وبرز فيه وتبحر، ومن أقواله المعروفة، في أحاديث الصفات المشهورة: «نسلِّم هذه الأحاديث كما جاءت، ولا نقول: كيف كذا؟ ولا لم كذا؟»، قال فيه الإمام أحمد: «ما رأيت أوعى للعلم منه، ولا رأيت معه كتابا قط، ولا رقعة»، مات سنة ١٩٧/٦هـ. انظر: السير ٩/ ١٤٠-١٦٨، تقريب التهذيب ص٥١١، طبقات الحفاظ ص١٣٣.

(٧) رواه عبد الله بن أحمد في السنة ص٣٢ رقم(١٤٩) و(١٥٠)، وروى نحوه الخلال في السنة٦/ ٢٧، رقم (١٨٦٢).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «كلام الله من الله ﷻ، من الله، ومن ذات الله، وتكلم الله به، وليس من الله شيء مخلوق»[(١)]، فبين رحمه الله أن القرآن من الله وأنه صفة من صفاته.

فالقرآن كلام الله، وليس من الله شيء مخلوق، وهذا القول قاله غير واحد من السلف، بل على هذا إجماع السلف[(٢)].

قال عمرو بن دينار المكي: [**أدركت أصحاب النبي ﷺ، فمن دونهم - منذ سبعين سنة - يقولون: الله خالق، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود**][(٣)].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «لقيت الرجالَ، والعلماءَ، والفقهاءَ، بمكةَ، والمدينةِ، والكوفةِ، والبصرةِ، والشامِ، والثغورِ[(٤)]، وخراسانَ[(٥)]، فرأيتهم على السنة والجماعة، وسألت عنها الفقهاءَ، فكلٌ يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود»[(٦)].

وقال إسحاق بن راهويه الحنظلي: «ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، فكيف يكون شيء خرج من الرب ﷻ مخلوقا؟؟»[(٧)].

فتبين مما سبق أن الإضافة إلى الله ﷻ، في كون القرآن كلام الله، أو في كونه منه، إضافة صفة لموصوف.

---

(١) رواه الخلال في السنة ٦/ ١٨، رقم (١٨٤٥)، وانظر: ما سبق من أثر أحمد بن الحسن الترمذي.

(٢) انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٥٤٧، الدرء ٢/ ١١٣، المجموع ١٢/ ٥١٧،٣٧، مختصر العلو للألباني ص١٤٣.

(٣) رواه غير واحد عنه كما سبق، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذا رواه غير واحد عن سفيان بن عيينة عن عمرو» كما في منهاج السنة ٢/ ٢٥٢، وقال أيضا: «وهو مستفيض عنه» كما في المجموع ١٢/ ٤١٩.

(٤) الثغور هي الأرض التي تلي بلاد الكفر، وهي عدة ثغور في عدة نواحي؛ فمنها كانت الثغور التي تلي بلاد الإفرنجة، وغيرها، وإذا أطلقت الثغور؛ فهي إما ثغر طرسوس، أو ثغر الشام. انظر: الأنساب للسمعاني ١/ ٥٠٧، معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ٩٣.

(٥) خراسان كلمة أعجمية ومعناها: موضع طلوع الشمس، وأهل العراق يسمون مشرقهم خراسان، وهي بلاد كبيرة، متضمنة لهراة ونيسابور، ومرو، وبلخ، وطالقان، ونسا، وسرخس، وبيهق، وهي الآن كلها ما بين الجنوب الغربي والشمال الغربي لأفغانستان، وتابع لها. انظر: الأنساب للسمعاني ٢/ ٣٣٧، معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ٤٠١، أطلس العالم الإسلامي ص٦٠.

(٦) رواه ابن الحنبلي في الرسالة الواضحة ٢/ ٢٥١، والضياء المقدسي في اختصاص القرآن بعوده إلى الرحيم الرحمن ص٢١.

(٧) ذكره الذهبي في العلو، كما في مختصر العلو للألباني ص١٩٤، رقم(٢٣٩).

والإضافة إلى الله تعالى نوعان:

١ ـ إضافة عين قائم بنفسه، فهذا من باب التشريف والتعظيم، كبيت الله، وناقة الله، وسيف الله، ونحو ذلك...

٢ ـ إضافة ما لا يقوم بنفسه، فهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، مثل علم الله، وكلام الله، وقدرة الله، ونحو ذلك...

وبهذا يفرق بين كلام الله سبحانه، وعلم الله، وبين بيت الله، وناقة الله، إذ لا يمكن للصفات أن تقوم إلا في محل، وتكون الصفة بحسب المحل المضاف إليه، فصفة الخالق إذا أضيفت إليه تليق بجلاله وكماله، وصفة المخلوق إذا أضيفت إليه فهي بحسبه(١).

وعلى هذا التقسيم ما كان مجرورا بـ(مِنْ) التي لابتداء الغاية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن كان المجرور بها عينا يقوم بنفسه لم يكن صفة لله، كقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣]، وقوله في المسيح: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾[النساء:١٧١]، وكذلك ما يقوم بالأعيان كقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣]، وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل، كان صفة لله، كقوله: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي ﴾[السجدة:١٣]»(٢).

فبين رحمه الله الفرق بين ما كان منه مسخرا في السماوات والأرض، وهي أعيان قائمة، وروح الله عيسى عليه السلام وهو عين قائم بنفسه،فالإضافة إضافة امتنان وتشريف.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: « ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ كقوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جميعا منه﴾ أي من خلقه، ومن عنده، وليست (مِنْ) للتبعيض كما تقوله النصارى ـ عليهم لعائن الله المتتابعة ـ بل هي لابتداء الغاية، كما في الآية الأخرى»، ثم قال بعد ذكر الأقوال: «والأظهر الأول: وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة،

(١) انظر: الرسالة الواضحة ٢/ ٦٠٠، شرح الأصبهانية ص ٤٢٣،٤٣٣، الصفدية ١/ ٦٧، المجموع ١٢/ ٦٦، شرح الواسطية للشيخ محمد خليل هراس ص٩١.

(٢) المجموع ١٢/ ٥١٨ ـ ٥١٩.

وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة، والبيت إلى الله...»[(١)].

ومن إضافة التشريف المجرورة بمن التي هي لابتداء الغاية، ما جاء في حق آدم ﷺ، حيث قال فيه الرب ﷻ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[الحجر:٢٩] فهذه كقوله في حق عيسى ﷺ ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ فـ « هذه الروح هي التي يحيى بها الإنسان، ولا تُعْلَم ماهيتها، وإنما أضافها إليه، تشريفا لآدم، وهذه إضافة مِلْك »[(٢)].

وبهذا يتبين أن القرآن منـزل من الله، والقول من الله، وهذا ذكر للصفات، ولم يذكر لها محل، فهي صفات لله تعالى، وقد ذكر الله تعالى في غير موضع: أن القرآن منـزل منه، فهو صفة من صفاته على التحقيق[(٣)].

وفي قولهم [منه بدأ] لا ينبغي أن يفهم الانفصال، كما زعمه بعض أهل الضلال، إذ صفات الله قائمة به، ولا يلزم من سماع جبريلَ للقرآنِ أنه انفصل عن الله، كما أنا عَلِمْنَا بتعليم الله إيانا، كما قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٥١]، ولا يلزم أن ينفصل علم الله عن الله بالتعليم، فكذلك القرآن من الله تعالى بدأ بالتعليم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[الرحمن:١ ـ ٢]، والقرآن من علم الله، والعلم لا يبايِن العالِمَ بتعليمه لغيره، فكذلك كلام الله تعالى لا يباينه، ولهذا قال الإمام أحمد ﷺ ـ لما قيل له بم كَفَّرْتَ القائلين بخلق القرآن ـ: « قال: بآيات من كتاب الله ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [البقرة:١٢٠] و ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[البقرة:١٤٥] فالقرآن من علم الله، فمن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر »[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٩٠، وانظر: فتح البيان لصديق حسن خان القنوجي ٢/ ٤١٦، تفسير القاسمي ٢/ ٦١٠.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٤٠٠.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٥١٩ ـ ٥٢٠، اعتقاد أهل الإيمان للقرشي ص٣٣.

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٢/ ٢٩١، ونحوه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة ص١٠، رقم(٣).

كما أن الرسول ﷺ علم الناسَ القرآنَ، ولم ينفصل عنه، فالله ﷻ أولى بهذا الكمال ـ ولله المثل الأعلى ـ، فلا ينفصل القرآن بالتعليم بحيث لا يبقى مع المعلِّم منه شيء.

وأوضح مثال على أنه لا يلزم الانفصالُ بالتنـزيل والتعليم هو: «أن رجلا لو دخل بلدة لا ضوء فيها، ومعه سراج، فأسرج لهم من مصباحه، فهل ينقص من الأول شيء؟ وقد صار منه ألف مصباح؟! ثم لو قدر أنها انطفأت كلها، إلا الأول، لانفرد الأول بنوره على حالته أول قدومه من غير زيادة حدثت فيه»(١) ولا نقصان لحق به.

فالقرآن لا يعني أنه صفة بائنة عن الله، فكلام الله من الله، ليس ببائن عنه، ولا تباين الصفة الموصوف، ولم يرد السلف بهذه العبارة أنه فارق ذات الله تعالى، وحل في غيره.

قال محمد بن الهيصم(٢): «إنه غير بائن من الله، فإن الجهمية وأتباعهم من المعتزلة(٣) قالوا: إن القرآن بائن من الله، وكذلك سائر كلامه، ولا يصح عندهم أن يوجد من الله كلام يقوم به في الحقيقة، وقال أهل الجماعة: بل القرآن غير بائن من الله، وإنما هو موجود منه، وقائم به»(٤).

ولا نزاع بين السلف، أن كلام الله لا يفارق ذات الله، وأن الكلام لا يباينه، كما أن علمه لا يباينه فكذلك كلامه، بل وسائر صفاته.

---

(١) الرسالة الواضحة ٢/ ٥٣٦، وانظر: المجموع ١٢/ ٣٥٥.

(٢) شيخ الكرامية وعالمهم في وقته: أبو عبد الله محمد بن الهيصم الكرامي، ناظر ابن فورك بحضرة السلطان الغزنوي محمود ابن سبكتكين، ولم يذكر كتب التراجم عن ولادته ووفاته شيء إلا أنه كان في عصر متأخر عن ابن كرام حيث كان في زمن السلطان سبكتكين، ومن مؤلفاته: جمل الكلام في أصول الدين كما ذكر ذلك شيخ الإسلام. انظر: الوافي بالوفيات ٥/ ١٧١، المجموع ٦/ ١٨٣، الدرء ٣/ ١٥٩،٦٣، ٦/ ٢٥٣، بيان تلبيس الجهمية٢/ ٣٣١ وما بعدها وفيها بحث لطيف حول المناظرة المنقولة في إثبات العلو لله تعالى، وذكر صاحب الجواهر المضية ما يدل على أنه من علماء القرن الخامس الهجري ٢/ ٥٥٦.

(٣) المعتزلة فرقة ضالة تعتقد بنفي الصفات عن الله ﷻ، ورئيسهم واصل بن عطاء الغزال، ولهم أصول خمسة، عليها يجتمعون، وهم فرق شتى، يكفر بعضهم بعضا، وكان سبب خروجهم عن السنة إبتداء القول بأن صاحب الكبيرة في منزلة بين المنـزلتين في الدنيا، ثم تطور المذهب وصاروا فرقا، ومن أتباعهم اليوم كثير من العقلانيين والإباضية من الخوارج على اعتقادهم في مسألة القرآن الكريم. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص١٣٤، معجم ألفاظ العقيدة ص٣٧٧.

(٤) شرح الأصبهانية ص٢١١ ـ ٢١٢، وانظر: الدرء ٢/ ٤٧، المجموع ٦/ ١٨٣ ـ ١٨٤، ٥٢٩.

وسلف الأمة، بل وسائر العقلاء يقولون: إن كلام المتكلم قائم به، وكلام الله قائم به، وما كان بائنا عن الله فلا يكون كلامه، ولذا قال الأئمة: كلام الله من الله، ليس ببائن عنه. ويُوَضح أن القرآن كلام الله ليس ببائن عنه، هو أن المتكلم حينما يتكلم لا يكون كلامه منفصلا عنه، بل ليس شيء من صفات الموصوفين مباينة لموصوفيها، وليس شيء من صفات موصوف ينتقل إلى غيره، فكيف يتوهم عاقل أن كلام الله يباينه، وينتقل إلى غيره[(١)].

قال الإمام أحمد رحمه الله: « كلام الله من الله، ليس ببائن منه »[(٢)].

وكون الكلام بدأ وخرج من الله، لا يلزم منه المفارقة، قال الله تعالى في حق المخلوق: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[الكهف:٥] فأخبر تعالى أن كلامهم خرج منهم، ومع ذلك أضافه إليهم، فهم القائلون للكذب، « ومعلوم أن كلام المخلوق لا يباين محله »[(٣)].

وإذا قرأ الناسُ القرآنَ، وكتبوه في المصاحف، وسمعوه، لم يخرج بذلك من كونه كلام الله سبحانه حقيقة، فإن الكلام يضاف إلى من قاله مبتدئا، لا إلى من قاله مبلغا مؤديا.

قال الإمام أحمد رحمه الله: « القرآن كلام الله غير مخلوق، بكل جهة وعلى كل تصريف، وليس من الله شيء مخلوق »[(٤)].

وأما نقل الكلام، وتأديته، فهذا مجرد بلاغ، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[المائدة:٦٧] فالمبلَّغُ كلامُ الله، والمبلِّغُ هو رسولُ الله، وفي الحديث: [**نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه...**][(٥)]، فهنا المبلَّغُ

---

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص١٢،٩، الدرء ٢/ ١١٣، المجموع ٦/ ٥٢٩، ١٢/ ٢٩٧، ٣٥٥، ٥١٧ـ٥١٨، قطف الثمر ص ٤٦.

(٢) شرح الأصبهانية ص٩، المجموع ١٢/ ٢٩٧.

(٣) المجموع ١٢/ ٣٩٠.

(٤) رواه الخلال في السنة ٦/ ١٩، رقم(١٨٤٧)، وابن بطة في الإبانة ٢/ ٣٦، رقم(٢٢٧).

(٥) أخرجه أبوداود، كتاب العلم،باب/ فضل العلم، ح(٣٦٦٠)، والترمذي، كتاب العلم، باب/ الحث =

كلامُ رسولِ الله ﷺ، وهو حديثه، والمبلِّغُ آحاد الأمة من المحدّثين وغيرهم[(١)].

المعنى الثانـي: أنهم يريدون بقولهم: [**كلام الله منه بدأ**] أي خرج منه، وتكلم به، فهو الذي ابتدأ وتكلم بالقرآن، ومنه ظهر وسمع، ولم يخلقه في غيره، ولم يبدأ من بعض المخلوقات كما تقوله المبتدعة أهل التحريف والجهالات.

فالله هو المتكلم بالقرآن، ومنه سمع، فالكلام من المرسِل، لا من أحد آخر من خلقه، «فلما كان الرسولُ رسولَ الله، كانت الرسالة كلامَ الله، والأمر والنهي (منه بدأ) دفعا للوسائط»[(٢)].

فمقصود السلف في عبارة (منه بدأ) الرد على أهل البدع القائلين: إن الله خلق القرآن في غيره، وخرج من ذلك الغير، لا من الله[(٣)].

والسلف وعلماء الأمة أرادوا بهذه العبارة الوجيزة، ذات المعاني العظيمة، أن القرآن من الله وصفا وابتداء، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾[السجدة:١٣]، فأخبر أن القول منه لا من غيره من المخلوقات، كما زعم أهلُ البدع والضلالات.

فالقرآن متلقى من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل:٦] فهو من الله تنـزيلا، وتلقيا، وابتداء، وجبريل ومحمد عليهما السلام ما هما إلا مبلِّغان ومؤديان، وهما أمينان على وحي الرحمن جل في علاه[(٤)].

= على تبليغ السمـاع، ح(٢٦٥٨)، وقال:(حديث حسن)، وأخرج نحوه ابن ماجة، المقدمة، باب/ من بلغ علما، ح(٢٣٠)، وغيرهم، وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة، ١/ ٢/ ٧٦٠ ـ ٧٦١، رقم (٤٠٤).

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص٩، المجموع ١٢/ ٣٩٠، ٥١٨.

(٢) الرسالة الواضحة لابن الحنبلي ٢/ ٥٢٩.

(٣) سيأتي بيان عقائد أهل الضلال والطغيان، في كلام الله القرآن، في الباب الثاني ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(٤) انظر لما سبق: التسعينية ١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤، الصفدية ١/ ٦٧، الدرء ٢/ ١١٣، المجموع ٣/ ١٧٦، ١٢/ ٥١٨، ٣٩٠.

ومن الأدلة على أن القرآن من الله ابتداء، وتكلم الله به، ما يأتي:

أ- قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام:١١٤] فبين الله سبحانه، أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منـزل من عند الله، وفيه «تقرير لكونه منـزلا من عند الله ببيان أن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيقته ونـزوله من عنده تعالى»(١)، وفي الآية دليل على بطلان الزاعمين: أنّ القرآن مخلوق في جسم من الأجسام، لأنه صرح بأنه منـزل من الله تعالى، لا من مخلوق من المخلوقات(٢).

ب - قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[الأحقاف:١] وقوله: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾[السجدة:١ - ٣] وقوله: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[فصلت:١ - ٤] وقوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الواقعة:٨٠] وقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[الزمر:١ - ٢].

قال شيخ الإسلام ﷺ: «فقد بُيّن في غير موضع أن الكتاب والقرآن العربي منـزل من الله، وهذا معنى قول السلف: منه بدأ... فإن الذين قالوا: إنه مخلوق، قالوا: خلقه في غيره، فبدأ من ذلك المخلوق؛ فقال السلف: (منه بدأ) أي: هو المتكلم به، لم يخلقه في غيره»(٣).

ج - قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤١ - ٤٢] فالذكر القرآن العزيز و «أعزه الله لأنه كلامه، وحفظه من الباطل»(٤) فهذه الآيات وغيرها مبيِّنات

(١) تفسير القاسمي ٣/ ٤١٠.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١١٨ - ١٢٤، وسيأتي قول الخلقية في القرآن، في الباب الثاني.

(٣) المجموع ١٢/ ٤٠، وانظر منه ٦/ ٥٤٤، ١٢/ ٥٨٩.

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره ١١/ ١١٦ عن قتادة بن دعامة السدوسي.

أن القرآن العربي كلام الله، وتنـزيله، فمنه ظهر وابتدأ، لا من أحد سواه.

د ـ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل:١٠١ ـ ١٠٢]، فالقرآن العربي نزل به روح القدس ـ وهو جبريل عليه السلام ـ من الله تعالى، فليس القرآن كلام جبريل، ولا كلام غيره من البشر، وما جبريل إلا رسول يبلِّغُ ما أرسل به، ولا هو كلام محمد ﷺ، بل هو كلام المرسِلِ لهما وهو الله تبارك وتعالى(١).

هـ ـ قال صديق الأمة أبو بكر رضي الله عنه لما بلغه بعض ما يدعيه مسيلمة الكذاب ـ: « ويحكم! أين يذهب بعقولكم؟ إن هذا كلام لم يخرج من "إل" أي: من رب »(٢).

و ـ قال خباب رضي الله عنه(٣): « تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه مما خرج منه »(٤).

المسألة الثانية: قول السلف: [وإليه يعود]:

مراد السلف بهذه العبارة دائر بين معنيين، كلاهما صحيح بغير مين:

المعنى الأول: أنه تأكيد لما سبق من كون القرآن منه، وصفة من صفاته، فقالوا: (وإليه يعود) أي: حكماً، فلا يوصف به أحد سوى الله عز وجل، فهو المتكلم بالقرآن، وهو الموصوف به(٥).

---

(١) انظر: العقيدة السلفية ص ١٩٤.

(٢) شرح الأصبهانية ص١١، المجموع ١٢/ ٥١٧، وانظر: تاريخ الطبري ٣/ ٣٠٠، وغريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٦٨ وقيل في معنى "إل" غير ذلك، والله تعالى أعلم.

(٣) هو الصحابي الجليل: أبو عبد الله خباب بن الأرت التميمي، أسلم قديما، وعذب في الله شديدا، شهد بدرا، وما بعدها من الغزوات، نزل الكوفة، ومات بها سنة ٣٧هـ. انظر: معجم الصحابة للبغوي ٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٤، أسد الغابة ١/ ٥٩١ ـ ٥٩٤، تقريب التهذيب ص١٣٢.

(٤) شرح الأصبهانية ص١٣، وروى نحوه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص٢٤، رقم(٩٤) وص٢٦، رقم(١٠٨)، والبغوي في معجم الصحابة ٢/ ٢٧٣، وروى نحوه الترمذي كتاب فضائل القرآن، باب/ ...ح(٣٠٩٠)عن أبي أمامة مرفوعا، وقال: (غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه)، وضعفه الألباني، كما في ضعيف سنن الترمذي، برقم(٥٥٥)، وانظر: السلسلة الضعيفة ح(١٩٥٧).

(٥) انظر: المجموع ٥/ ٧٦، شرح الواسطية للشيخ ابن عثيمين١/ ٤٣٠،شرح الواسطية للشيخ محمد خليل هراس ص٩٢.

المعنى الثاني: أنه يُرفَع، ويُسرى به في ليلة، فيصبح الناس، وليس في أيديهم قرآن، لا في الصدور، ولا في السطور، ولا يبقى منه آية تُذكر، فضلا عن الأجزاء والسُّوَر[(١)].

ودلّ على هذا الكتاب والسنة والآثار:

فمن الكتاب:

١ـ قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾[هود:١٢٣]، فالأمور كلها ترجع إلى الله تعالى في المعاد، والأمور لفظ عام يشمل المأمور (المفعول)، والأمر نفسه، والقرآن من أمره، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[الأعراف:٥٤] فهو يرجع إلى الله من غير شك ولا ريب، كما دل عليه عموم الآية.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٨٦ـ٨٧] والوحي هنا القرآن، قال الزجاج[(٢)]: «لو شئنا لمحوناه من القلوب، والكتب، حتى لا يوجد له أثر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: لا تجد من يتوكل علينا في رد شيء منه...»[(٣)]، فهذه الآيات ظاهرة في تضمن عود القرآن، من المصاحف والصدور إلى الرحيم الرحمن.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[البقرة:١٠٦] قال قتادة: «كان تُنْسَخ الآيةُ بالآيةِ بعدها، ويقرأ نبي الله ﷺ الآية أو أكثر ثم تُنسى وتُرفع»[(٤)]، ففيها: أنهم يسمعون من النبي ﷺ آيات تتضمن أحكاما، ثم يُنسخ ذلك،

---

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص ٩، المجموع ٦/ ٥٢٩.

(٢) هو نحوي زمانه: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السَّرِيِّ الزَّجاج البغدادي، لزم المبرد وأخذ عنه، وعنه أبو علي الفارسي وجماعة، ومن مصنفاته: معاني القرآن، وكان حسن الاعتقاد، اختلف في سنة وفاته وجزم الذهبي بأنه توفي سنة ٣١١هـ. انظر: تاريخ بغداد ٦/ ٨٩ ـ ٩٣، تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢/ ١٧٠ ـ ١٧١، السير ١٤/ ٣٦٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٨٣.

(٤) رواه عنه ابن جرير في التفسير ١/ ٥٢٢، وهو مرسل، وانظر في رفع المنسوخ: مصنف عبدالرزاق ٣/ ٣٦٣، الانتصار للعمراني ٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠١، تفسير البغوي ١/ ١٣٤.

فلا يجدونه مكتوبا، ولا في الصدور محفوظا(١)، فالآية دلت على جواز رفع المنسوخ، وذلك ـ والله أعلم ـ لعدم الحاجة إليه، فكذلك رفع المحكم منه وغيره في آخر الزمان لعدم وجود من يعمل به، والله تعالى أعلم.

وأما الأدلة من السنة على رفع القرآن فمنها:

١ ـ ما رواه حذيفة ﷺ مرفوعا: [**يُدرَسُ الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدرَى ما صيام؟ ولا صلاة؟ ولا نسك؟ ولا صدقة؟ وليُسرى على كتاب الله ﷻ في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير، والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة، لا إله إلا الله، فنحن نقولها...**](٢)، ولعل هذا الرفع يدخل تحت عموم قوله ﷺ: [**بين يدي الساعة أيام، يُرفع فيها العلم، وينـزل فيها الجهل...**](٣) لأن القرآن أعظم العلم ووسائله.

٢ ـ ما جاء عن ابن مسعود ﷺ وهو مرفوع حكما: [**ليُنتَزَعَنّ هذا القرآن من بين أظهركم... يُسرَى عليه ليلةً، فلا يبقى في قلب عبدٍ منه، ولا مصحفٍ منه شيء، ويصبح الناس فقراء كالبهائم، ثم قرأ عبد الله ﷺ** ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[الإسراء:٨٦]](٤).

وأما الأدلة من الآثار فمنها:

١ـ قول ابن عباس ﷺ : [**القرآن كلام الله، وليس بمربوب، منه خرج، وإليه يعود**].

---

(١) انظر: الرسالة الواضحة ٢/ ٥٥٢.

(٢) رواه ابن ماجة، كتاب الفتن، باب/ ذهاب القرآن والعلم، ح(٤٠٤٩)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات»، وقوى الحافظ إسناده كما في الفتح ١٣/ ١٨ ـ ١٩.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب/ ظهور الفتن، ح(٧٠٦٢)، ومسلم، كتاب العلم، باب/ رفع العلم..، ح(٦٧٢٩) وغيرهما عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٤) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب/ في تعاهد القرآن، ح(٣٣٤١)، وعبد الرزاق في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب/ تعاهد القرآن ونسيانه، ح(٥٩٨٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب/ في رفع القرآن...، ح(٣٠١٩٣)، وصححه الألباني كما في السلسة الصحيحة رقم(٨٧).

٢ـ قال عمرو بن دينار المكي: [**أدركت أصحاب النبي ﷺ، فمن دونهم ـ منذ سبعين سنة ـ يقولون: الله خالق، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود**][١]. فهذا فيه حكاية الإجماع عن الصحابة ومن بعدهم على عود القرآن إلى الله تعالى.

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله مبينا سبب الرفع: « وهذا ـ والله أعلم ـ حينما يُعرِض الناسُ إعراضا كليا، لا يتلونه لفظا، ولا عقيدة، ولا عملا، فإنه يُرفع، لأن القرآن أشرف من أن يبقى بين يدي أناس هجروه، وأعرضوا عنه، فلا يقدرونه قدره... »[٢].

فقول السلف [وإليه يعود] أي: حكما ورفعا، وكلا المعنيين صحيح، دل عليه النص الصريح، والعقل الصحيح، والله تعالى أعلم[٣].

تنبيـه: وأما تأويل العود، بعود تلاوته، وقراءته ـ وإن فهمه بعضهم ـ فليس بصحيح، لأن السلف لم يريدوا هذا، بل أرادوا الرفع الذي هو في آخر الزمان، وأرادوا بالعود، عوده حكما وحقيقة، فالقرآن كلام الله تعالى.

على أن عود التلاوة،والقراءة، التي هي كسب العبد حق، كما قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[فاطر:١٠]، فأخبر الله سبحانه أن الكلم الطيب من العبد يصعد إليه، وأعظم الكلم الطيب القرآن الذي يتلوه العبد ويقرؤه[٤].

وتكلم الله ﷻ بالقرآن، في الوقت والزمان الذي شاءه الرحمن ﷻ، وهذا ما سأبينه في المطلب الآتي.

---

(١) سبق تخريجه، وانظر بعض الآثار الأخرى في (اختصاص القرآن للضياء المقدسي).

(٢) شرح الواسطية لابن عثيمين ١/ ٤٢٩.

(٣) شرح الواسطية للشيخ ابن عثيمين ١/ ٤٣٠.

(٤) انظر في تفسير الكلم الطيب والعمل الصالح: تفسير ابن جرير ١٠/ ٣٩٨، وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٩.

المطلب الثالث: تكليم الله بالقرآن وتعلقه بالمشيئة:

تبين فيما سبق أن الله ﷻ متكلم، ومن ذلك تكليمه بالقرآن، والطريقة السلفية في صفات رب البرية، هي: إثبات ما أثبته الله ورسوله، ونفي ما نفاه الله ورسوله، لا نتجاوز القرآن والسنة، فالسلف يثبتون الصفات بلا تحريف، وأن لها معاني بلا تكييف[(١)]، ومن تلكم الصفات صفة الكلام.

وتنقسم الصفات باعتبار تعلقها بذات الله تعالى ومشيئته واختياره إلى قسمين:

١ـ **صفات ذاتية**: وهي التي لم يزل ولا يزال الرب ﷻ متصفا بها، كالعلم، والحياة، والقدرة، والإرادة.

٢ـ **صفات فعلية**: وهي التي لها تعلق بمشيئة الله ﷻ، كالإتيان والمجيء، والمحبة والرضا، والمغفرة والرحمة.

وتكون الصفة ذاتية باعتبار، وفعلية باعتبار، كالكلام فإنه باعتبار أصل الصفة صفة ذاتية، لأن الله ﷻ لم يزل ولا يزال متكلما.

وباعتبار آحاد الكلام فهو صفة فعلية، لأن الكلام متعلق بمشيئة الله ﷻ، يتكلم متى شاء مع من شاء[(٢)].

والكلام من الأوَّلين لكن بحسب الاعتبار، فباعتبار الأصل وهو النوع صفة ذات، وباعتبار الآحاد وهو العين صفة فعل، وهذا التفريق مهم لجميع ذوي الألباب «ومن اهتدى في هذا الباب إلى الفرق بين النوع والعين، تبين له فصل الخطأ من الصواب، في مسألة الأفعال، ومسألة الكلام والخطاب»[(٣)].

---

(١) انظر: التدمرية ص٦ ـ ٧، معارج القبول ١/ ٤٤٧، وقد كتبت في هذا بحثا خاصا بعنوان: إثبات معاني الصفات مع نفي الكيفية والمثلية في الإثبات (مخطوط).

(٢) انظر: شرح لمعة الاعتقاد للشيخ ابن عثيمين ص ٢٦، الصفات الإلهية للشيخ د/ محمد أمان الجامي ص ٢٦٢، شرح الواسطية للشيخ الفوزان ص ٩١.

(٣) الصفدية ١/ ٦٥، وانظر منه ١/ ١٣.

فالكلام من صفات الذات باعتبار النوع، ومن صفات الفعل باعتبار العين أو الآحاد، وهذا التقسيم هو الذي يخرج الإنسان، من إشكالات كثيرة في الأذهان، هذى بها أهل الضلال والطغيان[1].

فالخلقية ـ الجهمية ومن وافقهم ـ يحتجون بما يدل على أن القرآن متعلق بمشيئة الله وقدرته، ويحتجون بما يدل على أن الكلام فعل متعلق بالمشيئة، والمنازعون لهم ـ كالأشاعرة[2] ومن وافقهم ـ يحتجون بأن الكلام من صفات الذات، لا من صفات الفعل.

والحق هدى بين ضلالتين، ووسط بين غوايتين، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومدلول الأدلة الصحيحة من الجانبين صحيحة، ولا تناقض بينهما، ولا منافاة بين كونه صفة ذات، وصفة فعل، فإن الأقسام ثلاثة: **أحدها**: ما توصف به الذات، مع عدم تعلق القدرة والمشيئة به، كالحياة. **والثاني**: ما يكون مخلوقا بائنا عن الله، فهذه هي المفعولات ـ المخلوقات ـ...[3]، **والثالث**: ما يقوم بالذات، وهو من الفعلية لتعلقه بالمشيئة والقدرة، والكلام... من هذا الضرب»[4].

وقال أيضا: «فالفرق بين دوام النوع، وقِدَمِه، ودوام الشيء المعيَّن، وقِدَمِه، يكشف الحجاب عن الصواب، في هذا الباب، الذي اضطرب فيه أولو الألباب»[5].

---

(١) سيأتي بيان معتقد أهل البدع، في الباب الثاني ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(٢) الأشاعرة نسبة لأبي الحسن الأشعري، وهم أقرب الفرق البدعية إلى أهل السنة بالنسبة إلى غيرهم، وقدماؤهم كانوا يثبتون الصفات الخبرية، وإنما كان نزاعهم في الصفات الاختيارية، وأما المتأخرون منهم فلا يثبتون الصفات إلا إذا ثبت بالعقل، = ولهذا أنكروا كثيرا من الصفات الواردة لله ـ عز وجل، ولم يثبتوا إلا الصفات السبع المشهورة، وهي: العلم، والكلام، والسمع، والبصر، والحياة، والقدرة، والإرادة، وحتى في إثباتهم شيء، وهم أظهروا مناصرة للسنة، ولكنهم لا للمعتزلة كسروا، ولا للسنة انتصروا. انظر: المجموع ١٢/ ١٣٥، الصفدية ص٢٧٠، معجم ألفاظ العقيدة ص ٤٢.

(٣) وهذا لا تعلق له بالخالق إلا كما بين شيخ الإسلام أنه من حيث كونه مفعولا لله، وهذا لا يعني أنه قسم من أقسام الصفات مطلقا.

(٤) الصفدية ٢/ ٨٦ـ ٨٩، وانظر: الدرء ٢/ ١١٣، المجموع ١٢/ ١٣٣.

(٥) الصفدية ٢/ ١٤٠.

فمنشأ اضطراب الناس في مسألة الكلام عدم التفريق، وعدم معرفة وجه الجمع بين صفة الذات، وصفة الفعل، وقد نشأ أقوام لم يفهموا أقوال السلف، وظنوها موافقة لما عليه الخلف، «فصاروا يحملون ما يسمعونه من الكلام على عرفهم، فغلط كثير منهم في فهم كلام السلف، والأئمة، بل وفي فهم كلام الله ورسوله، والواجب على من أراد أن يعرف مراد المتكلم أن يرجع إلى لغته، وعادته التي يخاطِبُ بها، لا يُفسرُ مرادَه بما اعتاده هو من الخطاب»[١].

ومعلوم من سير السلف، أنهم من أشد الناس اتباعا للأثر، ومن أبعد الناس عن الخوض في الباطل، فيجب فهم كلامهم وِفْقَ منهاجهم، وهو: اتباع الأثر، لا بالتأويل والنظر.

ومما يدل على أن الكلام صفة ذات باعتبار، وصفة فعل باعتبار، ما يفهم من كلام الإمام أحمد رحمه الله لما قال: «لم يزل الله متكلما عالما غفورا»[٢]، وهذه العبارة تفهم على أصوله رحمه الله، **وتفيد أن الصفات منها:**

صفة ذاتية: ومثَّل لها بالعلم.

وصفة فعلية: ومثَّل لها بالمغفرة.

وذكر أيضا التكلم وهو يشبه العلم من حيث هو وصف قائم به، لا يتعلق بالمخلوق، ويشبه المغفرة من حيث هو متعلق بالمشيئة[٣].

وبعد أن تبين لنا تقسيم الصفات إلى ذاتية، وفعلية، أتكلم على تعلق صفة الكلام بذات الله تعالى في المسألة الآتية.

---

(١) الصفدية ٢/ ٨٤، وانظر: المجموع ١٢/ ١٠٥.

(٢) المجموع ٦/ ١٥٩.

(٣) انظر: المجموع ٦/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

المسألة الأولى: تعلق هذه الصفة بالذات:

الصفات المتعلقة بذات الله تعالى، قائمة به، أزلية بأزليته، وباقية ببقائه ﷻ، لم يزل متصفا بها، ولا يزال كذلك، وهذا معنى تعلق صفة الكلام بذات الله تعالى ـ لأنها باعتبار النوع من الصفات الذاتية ـ وأن الرب سبحانه لم يتجدد له هذه الصفة، بمعنى أنه لا يقال: إن الله لم يكن قادرا على الكلام ثم تكلم، وأنه لم يكن متصفا بالكلام ثم اتصف به؛ لأن الله ﷻ هو الخالق قبل أن يخلق، وهو الرازق قبل أن يرزق، فكذلك هو متكلم سبحانه قبل أن يكون منه آحاد الكلام، ولا يكتسب صفة لم يكن متصفا بها أزلا، فهو سبحانه بصفاته الأول والآخر.

قال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: «ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا»[(١)]، قال العلامة ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «أي أن الله ﷻ، لم يزل متصفا بصفات الكمال، صفات الذات، وصفات الفعل، ولا يجوز أن يُعتقد أن الله وُصِف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها»[(٢)].

فالله ﷻ متكلم أزلا، ولا يزال متكلما أبدا، وذلك حسب مشيئته، قال الإمام أحمد رحمه الله: «إن الله لم يزل متكلما إذا شاء، ولا نقول: إنه كان ولا يتكلم حتى خلق كلاما، ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علما، ولا نقول: إنه قد كان ولا قدرة حتى خلق لنفسه قدرة...»[(٣)].

فبين الإمام رحمه الله أن الله ﷻ متكلم، ويتكلم إذا شاء، ونفى أن يكون الكلام صفة له بعد أن لم يكن، وقاسه على العلم الذي هو من صفات الذات مطلقا، وهذا معنى تعلق صفة الكلام بالذات.

---

(١) الطحاوية ص ٩٦ مع شرح ابن أبي العز الحنفي.
(٢) شرح الطحاوية ١/ ٩٦.
(٣) المجموع ٦/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

قال عبد العزيز الكناني[1] ﷺ: « ثم ذكر جل ذكره كلامه، كما ذكر نفسه، ودل عليه مثل ما دل على نفسه، ليُعلِمَ الخلقَ أنه من ذاته، وأنه صفة من صفاته »[2].

والمتكلّم عند السلف وأتباعهم ـ بل وجمهور العقلاء ـ مَنْ قام به الكلام، ولا يعقل متكلم لم يقم به الكلام، فإذا قيل: كلام الله قائم بذاته أي: هو المتكلم به لا غيره.

قال شيخ الإسلام ﷺ: « والسلف والأئمة لما عرفوا حقيقة مذهبهم ـ أي الجهمية ـ عرفوا أن هذا كفر، وأن هذا في الحقيقة تعطيل للرسالة، وأنه يمتنع أن يكون متكلما بكلام لا يقوم به، بل بغيره، كما يمتنع أن يكون عالما بعلم لا يقوم به، بل بغيره، وأن يكون قادرا بقدرة لا تقوم به، بل بغيره »[3].

فكلام الله قائم بذاته، وهذا وجه شبهه بالعلم، وإن كان آحاد الكلام متعلقا بمشيئته واختياره.

وهنا وصفان، لا بد من وَضْعِهما في الأذهان، حين القول في الكلام والقرآن، وهما:

١ـ الفعل الاختياري.

٢ـ قيامه بذات الباري.

ولا تنقطع حجج الخصوم، من أهل البدع والكلام المذموم، إلا باعتبار هذين الوصفين، قال شيخ الإسلام ﷺ: « فهؤلاء ـ أي السلف ـ إذا قالوا: المتكلم من قام به الكلام، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته، خصموا المعتزلة، وانقطعت حججهم عنهم، فإنهم ـ أي السلف ـ اعتبروا الوصفين جميعا.

---

(١) هو الحجة المناظر: عبد العزيز بن يحيى بن عبدالعزيز بن مسلم الكناني المكي، كان يلقب بالغول، وكان ممن اختص بالشافعي، وأخذ عن ابن عيينة وغيره، وقدم بغداد في خلافة المأمون لمناظرة بشر المريس الجهمي الضال، وقد أفحمه في المنقول والمعقول، وقصة مناظرته مشهورة، توفي سنة ٢٤٠هـ تقريبا. انظر: الفهرست لابن النديم ص٣٢٠، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥، تقريب التهذيب ص٣٠٠.

(٢) كتاب الحيدة ص٢١.

(٣) شرح الأصبهانية ص٤٢٣، وانظر: ص٥٤٦.

فمن جعل المتكلم من قام به الكلام، وإن لم يكن متكلما بمشيئته وقدرته ـ كقول الأشاعرة ومن وافقهم ـ، أو جعله من فِعْلِه بمشيئته وقدرته، وإن لم يكن قائما به ـ كقول المعتزلة ومن وافقهم ـ حذف أحد الوصفين»[١].

وبهذا يتبين أنه **لا يعقل كلام إلا وهو قائم في محل**، وهو بحسب المحل القائم به، فإن قام بالمخلوق، وتكلم به المخلوق ابتداء فهو مخلوق كمحله الذي ظهر منه، وإن قام بذات الرب ﷻ، وتكلم به فهو كلامه، وليس شيء منه مخلوق، و «السلف وأئمة السنة يقولون: إنه صفة ذات، وصفة فعل، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته، كلاما قائما بذاته، وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم ـ أي من حيث المعنى لا من حيث التكييف ـ فكل من وصف بالكلام كالملائكة، والبشر، والجن، وغيرهم، فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم»[٢]، ولله المثل الأعلى، فهو بكل كمال أولى.

ومن الأدلة على أن الله ﷻ موصوف بأنه متكلم أزلا، ما يأتي[٣]:

١ـ أن الله ﷻ لو لم يكن متصفا بالكلام أزلا، لاتصف بضده، وهو الخرس، والخرس آفة يُنَزه الله ﷻ عنها؛ فهذه الحجة «تدل على مذهب السلف، وأنه لم يزل متكلما إذا شاء، وكيف شاء، فيدل على أن نوع الكلام قديم»[٤].

٢ـ إذا قُدِّرَ وجود حيٍّ لا يقدر على الكلام، ولا يتكلم بنفسه، كان ذلك دلالة على عجزه، وكان بمنـزلة الزَّمِنِ والأخرس، كما لو قدر حي لا يسمع، ولا يبصر، ثم سمع وأبصر، فلا شك أنه كان قبل موصوفا بالصمم والبكم، والله منـزه عن ذلك كله، فثبت أنه متصف بالكلام أزلاً، كاتصافه بالسمع والبصر أزلاً، وأنه يتكلم متى شاء سبحانه، لم يمنعه آفة ولا عيب.

---

(١) شرح الأصبهانية ص ٤٣٩.

(٢) المجموع ٦/ ٢١٦.

(٣) سبق ذكر كثير من الأدلة على أن الله ﷻ متكلم، في المطلب الأول من هذا المبحث.

(٤) المجموع ٦/ ٢٩٢، وانظر منه: ١٢/ ٣٧٢.

٣ـ أن القدرة على الكلام صفة كمال، كما أن العلمَ، والقدرة، والحياة، صفةُ كمال، ومِنَ المعلوم أن من قدر على الكلام، كان أكمل ممن لا يقدر عليه، ومن كان قادرا متكلما أزلا، فهو أكمل ممن تكلم بعد أن لم يكن قادرا أزلا، والله ثبت له صفات الكمال على الدوام، فهو موصوف بها أزلا وأبدا وهو ذو الجلال والإكرام، **قال شيخ الإسلام** رحمه الله: «فمن المعلوم أن من يتكلم بقدرته ومشيئته، فهو أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل يكون الكلام المعين لازما لذاته، ومن المعلوم أن من لم يزل متكلما إذا شاء، فهو أكمل ممن كان لا يمكنه الكلام ثم صار يمكنه»[(١)]، فالله سبحانه لم يزل قادرا على الكلام، لم يزل متكلما إذا شاء، ولم يزل موصوفا بصفات الكمال، منعوتا بنعوت الجلال.

٤ـ إذا قُدر أنه لم يكن قادرا على الكلام أزلا، ولم يكن يستطيع الكلام ثم قَدِر على الكلام، لزم أن يكون الرب ﷻ مفتقرا ناقصا، حتى اكتمل بتلكم الصفة التي لم يكن موصوفا بها، والرب تعالى لا يفتقر إلى شيء، بل له الكمال المطلق، وهو الأحد الصمد، المستغني عن كل ما سواه، فهو ـ سبحانه ـ بصفاته وذاته أزلي، بل اتصافه بصفات الكمال من لوازم ذاته[(٢)].

٥ـ مما يدل على كون الرب ﷻ موصوفا بالكلام أزلاً، كونه متّصفًا بالكلام أبداً، قال الله تعالى في محكم التنـزيل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[الكهف:١٠٩]، «والمقصود أن كلمات الله باقية، لا تنفد أبدا، تامة لا تنقص أبدا، وذلك لأن كلامَه صفتُه، و ليس من صفاته شيء ينفد، ولذا أخبرنا تعالى أن جميع أشجار الأرض لو كانت أقلاما، والبحار وأضعافها مدادا يكتب بها كلماته لنفدت كلها، وكلماته باقية لا تنفد، وذلك لأن الأشجار والبحار مخلوقة، والمخلوقات من لازمها النفاد والفناء، وكلمات الله صفتُه،

---

(١) الصفدية ٢/٦٦،وانظر: منهاج السنة ٣/ ٣٦٠، شرح الأصبهانية ص٤٤٠، المجموع١٢/ ٥٢،العين والأثر ص٦٨.

(٢) انظر: المجموع ٦/ ٢٩٤ـ ٢٩٥، ١٢/ ١٥٨.

وليس من صفاته شيء يفنى، بل هو الباقي بأسمائه و صفاته أزلا و أبدا»[(١)] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[لقمان:٢٧]، وهذه الآية كالآية السابقة، دالة على ما دلت عليه، من بقاء كلمات الله، وعدم نفادها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: « وقد قال غير واحد من العلماء: إن مثل هذا الكلام يُراد به الدلالة على أن كلام الله لا ينقضي، ولا ينفد، ولا نهاية له»[(٢)].

٦ـ قول أئمة السنة واتفاقهم على أن الله جل جلاله، متصف بالكلام أزلا، وأنه يتكلم متى شاء، وأن كلامه قائم بذاته تعالى، قال شيخ الإسلام رحمه الله: « **فإن السلف وأئمة السنة والحديث يقولون: يتكلم بمشيئته وقدرته**، وكلامه ليس بمخلوق، بل كلامه صفة له قائمة بذاته، وممن ذكر أن ذلك قول أئمة السنة، أبو عبد الله بن منده[(٣)]، وأبو عبد الله بن حامد[(٤)]، وأبو بكر عبد العزيز[(٥)]، وأبو إسماعيل الأنصاري[(٦)]، وغيرهم،

---

(١) معارج القبول ١/ ٣٢٥.

(٢) منهاج السنة ٣/ ٣٦٠، وانظر: الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص٣٢، و المجموع ١٢/ ٣٠٤.

(٣) هو الإمام الحافظ: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده الأصبهاني، طلب العلم في الصغر، وجدَّ في طلب الأثر، قال عن نفسه: « طفت الشرق والغرب مرتين، فلم أتقرب إلى كل مذبذب، ولم أسمع من المبتدعين حديثا واحدا»، له مؤلفات كثيرة منها: كتاب الإيمان، والرد على الجهمية، كتاب التوحيد، ومؤلفات أخرى، توفي رحمه الله سنة ٣٩٥هـ. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٨ ـ ٤٣، طبقات الحفاظ ص٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٤) هو شيخ الحنابلة ومفتيهم في زمانه: أبو عبد الله الحسن بن حامد بن علي بن مروان البغدادي الوراق، كان متمسكا بمرويات الإمام أحمد، وكان كثير الحج، يقتات من عمل يده في نسخ الكتب، ومن أشهر تلامذته القاضي أبو يعلى الحنبلي، توفي مقتولا عند قفوله من الحج في الطريق سنة ٤٠٣هـ من مؤلفاته: "الجامع"، وشرح أصول الدين. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢/ ١٤٥ ـ ١٥١، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، شذرات الذهب ٣/ ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٥) هو العلامة شيخ الحنابلة: أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يَزْداد البغدادي، المعروف بغلام الخلال، ولد سنة ٢٨٥هـ، وسمع في صباه، وتفقه على أبي بكر الخلال، وكان صاحب سنة وعبادة، وجاه عند السلطان ومكانة، له مؤلفات منها: "المقنع" و"مختصر السنة"، توفي سنة ٣٦٣هـ. انظر: تاريخ بغداد ١٠/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠، طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢/ ١٠٥ ـ ١١١، السير ١٦/ ١٤٣ ـ ١٤٥.

(٦) هو شيخ الإسلام الحافظ الإمام: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد الأنصاري

وكذلك ذكر أبو عمر بن عبد البر نظير هذا في الاستواء، وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وعثمان بن سعيد الدارمي(١)، ومن لا يحصى من الأئمة، وذكره حرب بن إسماعيل الكرماني(٢)، عن سعيد بن منصور(٣)، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم(٤) **وسائر أهل السنة والحديث** متفقون على أنه متكلم بمشيئته، وأنه لم يزل متكلما إذا شاء، وكيف شاء»(٥).

فالله تعالى أزلا موصوف بأنه متكلم، وكلامه قائم به، وأما أنه يتكلم متى شاء، إذا شاء، فهذا أبينه في المسألة الآتية.

المسألة الثانية: تعلق هذه الصفة بالمشيئة.

مذهب السلف ومحققي الأمة، أن الكلام من صفات الذات باعتبار كون الرب ﷻ متصفا به أزلا، وقادرا عليه أبدا، وأن كلامه قائمٌ به حقا، ووصفٌ له صدقا، وهو

=

الـهَرَوِي، ولد سنة ٣٩٦هـ، روى عن كثيرين، وعنه كذلك، كان سيفا مسلولا على المتكلمين، لا يسكت عن المخالفين، ولو كان فيه قطع الوتين، ومن مؤلفاته المشهورة "ذم الكلام"، و"منازل السائرين" وفيه بعض الموافقات للصوفية، انتقدها ابن القيم بأدلة ورويَّة في كتابه مدارج السالكين، توفي أبو إسماعيل رحمه الله سنة ٤٨١هـ. انظر: دمية القصر ٢/ ٨٨، طبقات الحنابلة ٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣، السير ١٨/ ٥٠٣ ـ ٥١٨.

(١) هو الحافظ الناقد: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد التميمي الدارمي، طاف الأقاليم، ولقي خلقا كثيرا في بلاد العرب والعجم، كان لهجا بالسنة، بصيرا بالمناظرة، قوي الحجة والكتابة، ومن مؤلفاته المشهورة: "الرد على بشر المريسي" و"الرد على الجهمية" توفي سنة ٢٨٠هـ. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٢٠٩، السير ١٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٦، طبقات الحفاظ ص٢٧٤.

(٢) هو العلام الفقيه: أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الحنظلي الكرماني، طلب العلم من الأكابر، واختص بالإمام أحمد بن حنبل، ومسائل "حرب" من أنفس مرويات الحنابلة، توفي سنة ٢٨٠هـ. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ١٣٦ـ١٣٧، السير ١٣/ ٢٤٤ـ٢٤٥، طبقات الحفاظ ص٢٧٤.

(٣) هو الحافظ الإمام: أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني ثم المكي، سمع من خلق كثير، وروى عنه الخلق الغفير، وكان من أئمة الحديث، صنف " السنن " مات في مكة سنة ٢٢٧هـ. انظر: الجرح والتعديل ٤/ ٦٨، السير ١٠/ ٢٨٦ ـ ٥٩٠، تقريب التهذيب ص١٨١.

(٤) هو الإمام ابن راهويه الحنظلي.

(٥) المجموع ٦/ ٢١٨.

صفة فعل باعتبار كون الرب ﷻ يتكلم متى شاء، إذا شاء، مع من شاء.

والسلف بينوا أن جنس الكلام ونوعه متصف به الرب أزلا، وأما آحاد كلامه ﷻ فهو متعلق بمشيئته، فالله لم يزل متكلما إذا شاء، فمن فهم قول السلف، وفرّق هذا التفريق بين النوع والآحاد، زالت عنه الشبهات في هذه المسألة التي اضطرب فيها أهل الجهالات والانحرافات(١).

وقول السلف وأهل الحديث في هذه المسألة ـ وفي الصفات الفعلية ـ قائم على مقدمتين:

الأول: أن الرب ﷻ يتصف بالأمور الاختيارية، فهو متكلم متى شاء، من شاء، ويرحم متى شاء، من شاء، ويغفر متى شاء لمن شاء.

الثاني: أن كلامه وفعله لا نهاية له(٢).

فالصواب الذي لا مرية فيه أن الله ﷻ، لم يزل متكلما إذا شاء، تكلم مع الملائكة والمرسلين في الدنيا، وسيتكلم معهم، ومع أوليائه الصالحين في الآخرة، فكلامه مع آدم ﷺ في وقت، وكلامه مع موسى ﷺ في وقت آخر، والتوراة من آحاد كلامه كما الإنجيل والقرآن، وهذه الكتب متعددة متنوعة.

ومن الأدلة على أن الله يتكلم متى شاء، مع من شاء:

١ـ **قول الله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الأعراف:١١] فأخبر ﷻ أن أَمْرَهُ الملائكةَ بالسجود كان بعد خلق آدم ﷺ وتصويره، ولم يأمرهم قبل ذلك، وكذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩] فأخبر أنه قال له: كن فيكون بعد أن خلقه وصوره، و(ثُمَّ) لا تكون إلا للشيء بعد الشيء، قال إمام المفسرين الطبري رحمه الله ـ بعد أن

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٥٤، لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ١٣٤.

(٢) انظر: منهاج السنة ٣/ ٣٥٩، شرح الأصبهانية ص١٦١.

استدل بما يكفي ويشفي ـ على أن "ثم" للترتيب والتراخي[(١)]، فـ «غير جائز أن يكون أمرُ الله الملائكةَ بالسجود لآدم كان، إلا بعد الخلق والتصوير... فإنه يقول جل ثناؤه: فلما صورنا آدم، وجعلناه خلقا سويا، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ابتلاء منا، واختبارا لهم بالأمر، ليُعلم الطائع منهم من العاصي، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ يقول: فسجد الملائكة إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين لآدم حين أمره الله مع من أمر»[(٢)]، **فمثل هذا الخبر كثير**: في كون الرب ﷻ تكلم في وقت معين، ونادى في وقت معين، وأمَر في وقت معين، لا في الأزل، قبل أن يكون هذا الترتيب لمثل هذه الأمور[(٣)].

٢ـ قول الله ﷻ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف:٢٢]؛ فثبت بهذا النداء أنه ﷻ تكلم في وقت معين، وأنه كان بعد الأكل من الشجرة، ولم ينادهما قبل ذلك بهذا الخطاب[(٤)].

٣ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص:٣٠ـ٣١]، فنادى الرب ﷻ كليمه موسى ﷺ حينما أتاه، ولم يناده قبل ذلك، وأمره بإلقاء العصا بعد النداء، ثم لما ولى مدبرا، ناداه بعد متلطفا، وهذا معلوم من السياق، يعرفه كل من تدبر في الآيات، ممن لم تتدنّس فطرته وعقله بالشبهات، «**وفي هذا أعلى دلالة وأبينها**، وأوضحها، على ثبوت صفة الكلام لربنا ﷻ، وأنه يتكلم إذا شاء، بما يشاء، وكيف شاء، بكلام يُسمِعُه من يشاء، أسمعه موسى ﷺ كيف شاء، وعلى ما أراد»[(٥)]

---

(١) انظر لمعرفة أنها للترتيب: المفردات للراغب الأصبهاني ص٨٧، المفصل للزمخشري ص٣٠٤، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ١/ ١١٧ـ ١١٨.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن ٥/ ٤٣٨.

(٣) انظر: المجموع ٦/ ٢٢٢، ١٢/ ٥٨٨، ١٣/ ١٣٢.

(٤) انظر: المجموع ٦/ ٢٢٣، ١٢/ ٥٨٨.

(٥) معارج القبول ١/ ٣١٦، وانظر: المجموع ٦/ ٢٢٣، ١٢/ ٥٨٨، شرح الواسطية للفوزان ص٨٨.

ولم يثبت عن أحد من السلف، القول بأزلية الصوت، والنداء لموسى ﷺ(١)، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ونحن لا نقول: كلم موسى بكلام قديم، ولا بكلام مخلوق، بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء، ويسكت إذا شاء، كما أنه ﷻ... يأتي في ظلل من الغمام... وأمثال ذلك في القرآن والحديث كثيرة، يبين الله ﷻ أنه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه، وأفعاله القائمة بنفسه، وما كان قائما بنفسه هو كلامه، لا كلام غيره... وليس من ذلك شيءٌ مخلوقا»(٢).

٤ـ قول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]، ويفسر هذه الآية حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: [**إن نبي الله ﷺ قال: إذا قضى الله الأمرَ في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا: الحقَّ، وهو العلي الكبير**](٣)، دلت الآية والحديث على أنه ﷻ تكلم في وقت معين، ومثله قوله ﷺ: [**إن الله ﷻ إذا أحب عبدا نادى جبريلَ: إن الله قد أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريلُ، ثم ينادي جبريلُ في السماء: إن الله قد أحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض**](٤)، ففي هذا دليل على أن الملائكة تسمع صوت الرب ﷻ، وأنه يكلمهم بما يريد، في أي وقت شاء سبحانه(٥).

٥ـ ثبت في الكتاب والسنة أن الله تعالى يكلم الرسل والملائكة، وعباده يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[المائدة:١٠٩] وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾[سبأ:٤٠] وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

---

(١) انظر: الصفدية ٢/ ٦٧ـ ٦٨، المجموع ١٢/ ٨٦، ١٧/ ٨٦.

(٢) المجموع ١٢/ ٥٢٩، وانظر: منهاج السنة ٢/ ٣٦٢.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب/ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾...، ح(٧٤٨١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب/ كلام الرب تعالى مع جبريل...، ح(٧٤٨٥)، وسبق تخريج الحديث.

(٥) انظر: معارج القبول ١/ ٣١٦ـ ٣١٧.

[القصص:٦٥] وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[يس:٥٨] وقوله: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٨].

والآيات في كتاب الله ﷻ كثيرة، تدل على أنه ﷻ يتكلم في وقت معين، بكلام معين، فإن « القرآن فيه مئون من الآيات تدل على هذا الأصل، وأما الأحاديث فلا تحصى، **وهذا قول أئمة السنة والسلف**، وجمهور العقلاء، ولهذا قال الإمام عبد الله بن المبارك، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما: لم يزل متكلما إذا شاء، وكيف شاء، وهذا قول عامة أهل السنة »[(١)].

قال الإمام البخاري رحمه الله: « باب كلام الرب تعالى مع جبريل، ونداء الملائكةَ »[(٢)] وقال: « باب كلام الرب تعالى مع الأنبياء وغيرهم يوم القيامة »[(٣)]، وقال: « باب كلام الرب مع أهل الجنة »[(٤)].

فهذا كله يدل على أن الرب ﷻ يتكلم بمشيئته في أي وقت شاء، فهو ﷻ :

لـم يزل بصفات الفعل متصفـا   وبالكلام بعيدا في تقربــه
سبحانـه لـم يزل ماشاء يفعلـه   في كل ما زَمَنَ ما مِن معقبه
نوع الكلام كذا نوع الفعال قديـ   ـم لا المعيَّنُ منه في ترَتُّبــه[(٥)]

٦ ـ ما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في حجة النبي ﷺ **[فلما دنا من الصفا قرأ:** ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:١٥٨] **أبدأ بما بدأ الله به؛ فبدأ بالصفا]**[(٦)]، فأخبر النبي ﷺ أن الله بدأ بالصفا قبل المروة، مما يدل على أن الكلام كان

(١) المجموع ١٣/ ١٣٢، و انظر: المجموع ٦/ ٤٢٤.
(٢) كتاب التوحيد من صحيحه، باب(٣٣)، ص ١٥٧٠.
(٣)كتاب التوحيد من صحيحه، باب(٣٦)، ص ١٥٧٤.
(٤)كتاب التوحيد من صحيحه، باب(٣٨)، ص ١٥٧٨.
(٥) أبيات في الرد على السبكي ليوسف بن محمد السرمري، كما في مقدمة منهاج السنة ١/ ١١٧.
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب/ حجة النبي ﷺ، ح(١٢١٨).

في وقت معين، وأن البدء في الذكر كان للصفا[١].

ويوضح هذا قول الإمام أحمد وغيره من الأئمة: «لم يزل الله متكلما إذا شاء، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته، يتكلم بشيء بعد شيء»[٢].

وبعد سرد هذه الأدلة[٣]، أورد بعض التنبيهات حتى يتجلى الأمر في هذه المسألة:

التنبيه الأول: أن السلف يقولون: إن الله تعالى يتكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه أحسن الحديث، وليس بمخلوق، باتفاق السلف، ويسمى حديثا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾[الزمر:٢٣] وقال: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ [القلم:٤٤] وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[النساء:٨٧].

وهل كلام الله تعالى يسمى محدثا؟ فيه قولان لأهل السنة، مشهوران في الكتب وعلى الألسنة، قال شيخ الإسلام ﷺ: «والنزاع في ذلك بين أهل السنة "لفظي" فإنهم متفقون على أنه ليس بمخلوق منفصل، ومتفقون على أن كلام الله قائم بذاته، و... أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته»[٤].

وسبب النـزاع هو: هل كل محدَثٍ مخلوق؟ أم لا يلزم ذلك؟

ومعلوم أن كل مخلوقٍ «فهو محدَثٌ وحادث باتفاق أهل اللغة، وأهل الكلام، وأما أن كل حادث ومحدَث فهو مخلوق؟ فهذا مما تنازع فيه أهل الكلام.

والنظرُ واللغةُ لا يوجبان أن يكون كل ما كان حادثا يسمى مخلوقا، لأن المخلوق هو الذي خلقه غيره، والخلق يجمع معنى الإبداع، ومعنى التقدير[٥].

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٥٨٩.

(٢) المجموع ١٢/ ٥٨٨.

(٣) مضى شيء من الأدلة في المطلب الأول من هذا المبحث.

(٤) المجموع ٥/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

(٥) انظر: مقاييس اللغة ص٣٢٩، والمفردات للراغب ص١٦٣ ـ ١٦٤، والمصباح المنير ص١٨٠.

وأما لفظ "حادث" فلا يقتضي أنه "مفعول"، ولو قيل: "محدَث" فمعنى الخلق أخص من معنى الحدوث »[١].

ولفظ "محدَث" كلفظ "موجود"، فلفظ الموجود يطلق على ذات الباري ﷻ، من حيث الإخبار، لا يلزم أن يكون هناك موجِد[٢]، فكذلك لفظ "محدَث" يطلق على صفة الكلام، ولا يلزم أن يكون مفعولا مخلوقا، بل هو كلامه، وصفته ﷻ.

واللغة التي نزل بها القرآن، هو أن المحدَث خلاف القديم[٣]، ويطلق المحدَث على الشيء الجديد، ولو كان نسبيا، فالمتأخر محدَث بالنسبة للمتقدم، أي جديد[٤]، « وكان القرآن ينـزل شيئا فشيئا، فما تقدم نـزوله فهو متقدم على ما تأخر نـزوله، وما تأخر نزوله محدَث بالنسبة إلى ذلك المتقدم، ولهذا قال: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[الأنبياء:٢] فدل أن الذكر منه محدَث ـ أي جديد ـ ومنه ما ليس بمحدث »[٥].

فلما وصف الذكر بأنه محدَث، دل على أن منه ما هو غير محدَث، وليس المحدث في الآية المراد به المخلوق، كما يقوله المبتدعة، بل المراد الذي أُنزل جديدا، فإن القرآن كان ينـزل شيئا بعد شيء، فالمنـزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنـزل آخرا[٦].

فالمكي قديم بالنسبة إلى الآي المدني، وما نزل في حجة الوداع وبعدها جديد بالنسبة إلى ما قبلها، والقرآن حديث بالنسبة إلى الكتب التي قبله، كما قال حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ: [**كيف تسألون أهل الكتاب عن كتبهم، وعندكم كتاب الله، أقرب الكتب عهدا بالله، تقرؤونه محضا لم يُشَب**] وفي رواية [**وكتابكم الذي أنزلَ اللهُ**

---

(١) الصفدية ١/ ٢٤٠، ٢/ ٨٣، ١٥٩.

(٢) لأنه يطلق والمراد به أنه ﷻ حق وثابت وله وجود حقيقي، انظر: الصفدية ١/ ١٩٩، ٢/ ١٨٩.

(٣) قال شيخ الإسلام ؒ: « وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وقال: ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ » المجموع ١٢/ ٥٢٢.

(٤) انظر: المفردات للراغب ص١١٧.

(٥) الصفدية ٢/ ٨٥، و انظر:المجموع ١٢/ ١٠٥.

(٦) انظر: المجموع ١٢/ ٥٢٢.

على نبيكم... أحدثُ الأخبار بالله، محضا لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا][١].

وقد بوب البخاري رحمه الله بابا قال فيه: «باب قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩] ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[الأنبياء:٢]»[٢].

فهذا وما سبق يدل صراحة على وصف كلام الله تعالى بالحدوث، على اصطلاح أهل اللغة، لا على اصطلاح أهل الإحداث والبدعة.

ومن تلكم الأدلة أيضا، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾[الشعراء:٥] فكلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول[٣].

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[الطلاق:١]، قال البخاري رحمه الله: «وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]»[٤].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **[إن الله يحدِثُ من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة]**[٥].

فمن أطلق لفظ "الحادث" أو "المحدَث" على القرآن الكريم، وكلام الرحمن الرحيم، مع اعتقاده بأنه ليس بمخلوق، فهو متمسك بظاهر النصوص، وإن كان

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب/ قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ...، ح(٧٥٢٢) و(٧٥٢٣).

(٢) كتاب التوحيد من صحيحه، باب(٤٢) ص ١٥٨٠، وكأن البخاري رحمه الله أراد أن يبين أن الأفعال والكلام من باب واحد، فالله يفعل متى شاء، ويتكلم متى شاء، بما شاء، فذكر الآية التي تدل على الأفعال، والآية التي تدل على الأقوال، وأن آحادها حادث، وإن كان المفعول من حيث هو مخلوق، وأما كلام الله جل جلاله؛ فإنه ليس بمخلوق، وإنما ذكرهما ليبين ـ والله تعالى أعلم ـ مرادفتهما في كونهما متعلقين بالمشيئة.

(٣) انظر: معالم التنـزيل للبغوي ٦/ ١٠٧.

(٤) كتاب التوحيد من صحيحه، باب(٤٢) ص١٥٨٠.

(٥) رواه البخاري معلقا مجزوما به، كتاب التوحيد، باب/ قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ...، ص١٥٨٠، ورواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب/ رد السلام في الصلاة، ح(٩٢٤)، والنسائي، كتاب السَّهْو، باب/ الكلام في الصلاة، ح(١٢٢٠)، وقال الشيخ الألباني: إسناده حسن، كما في تحقيق مشكاة المصابيح ١/ ٣١٣.

الأولى بعد اختلاط الاصطلاحات، والبعد عن معاني الدلالات، القول بالتفصيل، فبه تجتمع الأقاويل.

قال شيخ الإسلام ﷺ: « والإطلاقات قد توهم خلاف المقصود، فيقال: إن أردت بقولك "محدث" أنه مخلوق، منفصل عن الله... فهذا باطل، لا نقوله.

وإن أردت بقولك "محدَث" أنّه كلام الله، تكلم به بمشيئته، بعد أن لم يتكلم به بعينه ـ وإن كان قد تكلم بغيره قبل ذلك ـ مع أنه لم يزل متكلما إذا شاء، فإنا نقول بذلك، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهو قول السلف، وأهل الحديث »[(١)].

فينبغي أن نحمل ما جاء عن بعض السلف في إنكار لفظة "الحادث" أو "المحدَث" على إنكارهم لقول من قال: إنه تكلم بكلام "حادث" بعد أن لم يكن متكلما. فبهذا الاعتبار، وقع عليهم الإنكار، أو باعتبار أن كلمة الحادث يريد بها ما يدل على أنه مخلوق.

التنبيه الثاني: أن قول بعض أهل الحديث عن آحاد الكلام ـ القرآن أو غيره ـ بأنه "قديم" لا ينبغي أن يفهم أن عين الكلام وآحاده قديمٌ[(٢)].

قال شيخ الإسلام ﷺ: « فإذا قيل: كلام الله "قديم" بمعنى أنه لم يصِر متكلما بعد أن لم يكن متكلما، ولا كلامه مخلوق، ولا معنى واحد قائم بذاته، بل لم يزل متكلما إذا شاء، فهذا كلام صحيح »[(٣)].

فدل هذا على أن كلامَ بعضِ أهل الحديث الذين أُثر عنهم أن القرآن "قديم" مع كونه من آحاد كلام الله، يحمل على وجهين:

الأول: أنهم أرادوا بقولهم "قديم"، أنّ القرآن ليس بمخلوق، كما تقوله الجهمية.

الثاني: أنهم أرادوا بقولهم "قديم"، أنه موصوف بالكلام أزلا، وأن نوع الكلام

---

(١) المجموع ٦/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) ولم يقل أحد من السلف: إن القرآن "قديم" بمعنى أن الله تكلم به أزلا، وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في المجموع ١٢/ ٥٤، وفي غيرها.

(٣) المجموع ١٢/ ٥٦٦ ـ ٥٦٧.

قديم، خلافا لمن زعم أن الرب ﷻ تكلم بعد أن لم يكن متكلما[١].

وأما أن القرآن "قديم" لازم لذات الله أزلا، وأنه تكلم به أزلا، فهذا لم يقل به أحد من السلف، ولم يروه عنهم أحد من الخلف، بل هو من محدثات "الكلابية"[٢].

فالواجب حمل كلام السلف على منهاجهم، لا على منهاج الخلف، فهم إذا قالوا: «إن كلامه "قديم"، وأنه ليس بحادث، ولا محدَث يريدون نوع الكلام، إذ لم يزل يتكلم إذا شاء، وإن كان الكلام العيني يتكلم به إذا شاء»[٣].

التنبيه الثالث: أن الله ﷻ متكلم أزلا، ويتكلم إذا شاء أبدا، وهذا يدل على وصفه ﷻ بالسكوت، لأن المتكلم بمشيئته وإن كان موصوفا بالكلام، وأنه يتكلم متى شاء، فإنه لا يتكلم إذا شاء، ووصف الرب ﷻ بالسكوت عن أشياء، في وقت ما، وردت به السنة الغراء، ومن ذلك:

١ـ ما جاء في الحديث المرفوع: **[ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن نسيا، ثم تلا هذه الآية:** ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم:٦٤]][٤].

٢ـ قوله ﷺ: **[الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه]**[٥].

---

(١) كما يأتي قولهم في الباب الثاني، الفصل الأول.

(٢) انظر: شرح الأصبهانية ص٣٢٤، **والكلابية**: فرقة ضالة تتبع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهم ينفون الصفات الخبرية عن الله ﷻ، وهم أصل مذهب الأشاعرة والماتريدية، وإن كان بعد ذلك تطور المذهبان. انظر: المجموع ٢/ ١١٣، معجم ألفاظ العقيدة ص٣٣٧.

(٣) المجموع ٦/ ١٦١ ـ ١٦٢، وانظر: المجموع ١٢/ ٣٨، ٥٤، ١٧/ ٨٦.

(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الضحايا، باب/ ما لم يذكر تحريمه، ١٠/ ١٢ كلاهما عن أبي الدرداء ﷺ، وقال الشيخ الألباني: «حسن» كما في غاية المرام ص١٩.

(٥) أخرج الترمذي، كتاب اللباس، باب/ ما جاء في لبس الفراء، ح(١٧٢٦)، وابن ماجة، كتاب الأطعمة، =

٣ـ ما جاء مرفوعا: [إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وحد حدودا فلا تضيعوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها](١).

٤ـ ما زال العلماء يقولون: هذا ما نطق به الشارع، وهذا ما سكت عنه، ويقول بعضهم: هذا ما دل عليه منطوق النص، وهذا من دلالة المسكوت(٢).

فثبت بالسنة أن الله يوصف بالسكوت: تارة عن التكلم، وتارة عن إظهار الكلام وإعلامه، أو عن شيء معين منه(٣).

لكن إثبات صفة السكوت لله ﷻ ينبغي أن يكون من غير توهم نقص، ولا تشبيه، ولا رد للنصوص، فهو سبحانه يتكلم متى شاء، مع من شاء.

وكما أنه ليس له مثيل ولا شبيه في ذاته، فكذلك في سائر صفاته، ومن تلكم الصفات "الكلام" فهو ﷻ تكلم ويتكلم، من غير تشبيه، وهذا ما سأبينه في المسألة الآتية.

المسألة الثالثة: نفي التشبيه في الصفة.

لما تبين أن الله ﷻ يتكلم متى شاء، إذا شاء؛ فإن ذلك لا يلزم منه النقص والعيب في كلام الله ﷻ ولهذا فإن التشبيه في صفة الكلام لله ﷻ مُنتَفٍ تماما؛ فإن من العقائد السلفية، أن الذات العلية، ليس لها نِدٌّ ولا مشابِهٌ في الكيفية، وكذلك الصفات العلا،

=

باب/ أكل الجبن والسمن، ح(٣٣٦٧) والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الضحايا، باب ما لم يذكر تحريمه...١٠/ ١٢، كلهم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، ونحوه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا، كتاب الأطعمة، باب/ ما لم يذكر تحريمه، ح(٣٨٠٠)، قال الألباني في حديث سلمان: «وخلاصة القول... إنه موقوف... إلا أن الحديث في المعنى كالذي قبله». انظر: غاية المرام ص٢١.

(١) رواه البيهقي في سننه، كتاب الضحايا، باب ما لم يذكر تحريمه...١٠/ ١٢، وقال النووي: «حديث حسن» كما في الأربعين النووية، وعقبه ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص٢٠٠، وقال الألباني: «ضعيف» كما في غاية المرام ص٢١، ولكن الحديث يشهد له الحديث الأول ـ والله تعالى أعلم ـ.

(٢) انظر: المجموع ٦/ ١٧٩، تقريب الوصول إلى علم الأصول لابن جزي الكلبي الغرناطي ص١٦٩.

(٣) انظر: شرح الأصبهانية ص ٢٠٣، المجموع ٦/ ١٧٩، ١٢/ ٥٢٩.

ليست مشابهةً لصفات أحد من الورى، كما قال ﷻ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، وقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[الإخلاص:١-٢].

فالمفارقة بين صفات الخالق والمخلوق جلية كمفارقة ذات الخالق لذات المخلوق، «فالعلم بكيفية الصفة مستلزمة للعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن تُعلم كيفية صفة لموصوف لم تُعلم كيفيته»[(١)].

والخوض في كيفيات الصفات، وإعمال العقول فيها يكون من المحالات، وهو سبب للضلالات والانحرافات.

فالله ﷻ أعلمنا أنه يتكلم ولم يعلمنا كيف يتكلم، فالواجب التسليم والإذعان، وصفة الكلام كغيرها من الصفات وصفت بأوصاف تدنيها إلى الأفهام، وتقربها إلى عقول الأنام، ومنها: أن الرب ﷻ يتكلم بصوت وحرف، وأن كلامه يُسمع، وأن لكلامه أولا وآخرا[(٢)]، وأنه يتكلم بمشيئته واختياره، وهذا كله ينبغي أن يفهم على وجهين:

الوجه الأول: أن الاشتراك العام في المعنى، لا يلزم منه التشبيه في الصفة، فالحياة مثلا من حيث التواطؤ اللفظي معلوم معناه، وأنه ضد الموت، وهذا هو القدر العام الذي يعرف بالتواطؤ في اللفظ، ثم إذا أضيفت فهي في كل موضع بحسبه، فمثلا حياة الخالق ليست كحياة المخلوقين، وحياة المخلوقين فيما بينهم مختلفة كل بحسبه، فحياة المِلِك ليست كحياة آحاد الرعية، وحياة الرجل ليست كحياة الحيوان، وهكذا كلما أضيف اللفظ اختص المعنى، وعُلِم الفارقُ[(٣)].

وكذلك الكلام، فهو من حيث المعنى العام، أو التواطؤ اللفظي معلوم، وهو ضد الخرس، وإذا أضيفت اكتسبت خصائص المضاف إليه، فـ «ـالاتفاق في أصل الحقيقة ليس بتشبيه، كما أن إدراك البصر، بأنه إدراك المبصَرات، والسمع في أنه إدراك

(١) المجموع ٥/ ١١٤، وانظر: الرسالة الواضحة ٢/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧.
(٢) وقد سبق ذكر الأدلة الدالة على هذا في المطلب الأول من هذا المبحث.
(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٦٦.

المسموعات، والعلم في أنه إدراك المعلومات ليس بتشبيه، كذلك هذا»[١].

ومن الأدلة على نفي التشبيه على وجه التفصيل ما يأتي:

أ ـ لا يلزم من كون الرب ﷻ يتكلم بصوت التشبيهُ، ويدل له أن «التفاوت الذي بين صفات الخالق والمخلوق، أعظم من التفاوت بين أدنى المخلوقات وأعلاها، فإذا كان سمع التابعين لكلام النبي ﷺ من الصحابة، ليس كسمع الصحابة من النبي ﷺ، فسماع كلام الله من الله أبعد من مماثلة سماع شيء لشيء من المخلوقات»[٢].

فكلام الله ﷻ إذا سُمع من الله كحال موسى ﷺ، ليس كحال من سمع بواسطة مِن خلقه، وهذا فرق بين الحالين، والكلام واحد، كذلك الكلام إذا سمع من الرسول ﷺ فالحال، ليس كما لو سمعنا أحاديثه بواسطة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإذا كان هذا الفرق ثابتا في كلام المخلوق مسموعا، ومبلغا عنه، فثبوته في كلام الله أولى وأحرى، فإنه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا يمكن أن يكون تكلمُهُ به، وسماعُه مما يعرف له نظير، ولا مثال.

ولا يقاس ذلك بتكلم النبي ﷺ، وسماع الكلام منه، فإن النبي ﷺ بشر، يمكننا أن نعرف صفاتِه، والرب تعالى لا مثال له، وهو أبعد عن مماثلة المخلوقات، أعظم مِن بعد مماثلة المخلوقات أدناها»[٣].

ب ـ أن الصوت الذي يتكلم اللهُ به، لا يماثل صوت المخلوقين، وكلام الله شامل لنظمه ومعانيه، وذلك الكلام ليس ككلام المخلوقين، بدليل أنه يسمعُه مَن قَرُب كما يسمعُه مَن بَعُد[٤].

ت ـ إذا كان المؤمن المصدِّق يوقن أن الأيدي تنطق، ولا نعرف كيف تنطق، فالله ﷻ أجل من ذلك، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ

(١) العين والأثر ص ٨٧.

(٢) المجموع ١٢/ ٥٣٩.

(٣) المجموع ١٢/ ٥٤٩، وانظر: دقائق التفسير ٢/ ١٨٨.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٧٧، وانظر الدليل على ذلك في المطلب الأول.

أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥].

والجبال الراسيات، الصم الشامخات، تسبح ولا نعرف كيف تسبح، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[الأنبياء:٧٩]، فالله ﷻ أولى بأن لا نعلم كيف يتكلم، وهو سبحانه العلي الأعلى، ذو الصفات العلى.

قال الإمام أحمد ﵀: «أتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفتين؟؟... ولكن الله أنطقها كيف شاء، وكذلك الله تكلم كيف شاء، من غير أن نقول بجوف، ولا فم، ولا شفتين، ولا لسان»[1].

ث ـ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[فصلت:٢١] فالجلود تشهد، وتنطق، ولا نعلم كيف تنطق، فالله أجل من ذلك، ومن هذا الباب تسبيح الحصا، والطعام، وسلام الحجر وتكليمه، كما ثبتت السنة بذلك[2].

فالمؤمن يُصدق هذا، فَلْيُؤمن بكلام الله الذي أنطقها، وهو على كل شيء قدير، بأنه تكلم من غير أن يكون له نظير.

قال حنبل بن إسحاق[3]: قلت لأبي عبد الله ـ أي الإمام أحمد ـ: «آلله ﷻ يكلم عبده يوم القيامة؟؟ قال: نعم، فمن يقضي بين الخلائق إلا الله ﷻ، يكلم عبده

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ص ٤٥، وانظر: المجموع ٦/ ١٥٤.

(٢) وذلك مروي في عدة أحاديث منها:

١ـ [تقاتلون اليهود، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول: يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله] رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب/ قتال اليهود، ح(٢٩٢٥، ٢٩٢٦).

٢ـ [إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن] مسلم، كتاب الفضائل، باب/ فضل نسب النبي...، ح(٢٢٧٧).

٣ـ [فحن الجذع فأتاه، فمسح يده عليه...] رواه البخاري، كتاب المناقب، باب/ علامات النبوة في الإسلام، ح(٣٥٨٣).

(٣) هو المحدث الثقة: أبو علي حنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني، ابن عم الإمام أحمد ﵀، سمع من الإمام أحمد وغيره، وسمع المسند منه، وروى عنه روايات جيدة، توفي في واسط سنة ٢٧٣هـ. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ١٣٤ ـ ١٣٦، تاريخ بغداد ٨/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧، السير ١٣/ ٥١ ـ ٥٣.

ويسأله، الله متكلم، لم يزل الله يأمر بما يشاء ويحكم، وليس له عِدلٌ ولا مثل، كيف شاء، وأنى شاء»(١).

الوجه الثاني: عدم الخوض في الكيفية، مع إثبات المعنى دون مثلية، فالسلف يعتقدون أن الله سبحانه متكلم أزلا، ويتكلم إذا شاء، على الوجه اللائق بجلال الله سبحانه، وعلى ما يليق بكماله تعالى شأنه، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

وقـد تكلم رب العرش بالكتب الـ ـمنزَّلات كلاما لا شبيـه لـه
ولـم يـزل فاعـلا أو قائـلا أزلا إذا يشاء وهذا الحق فارض بـه(٢)

فاعتقاد الكمال المطلق لله ﷻ، يُخرِجُ الإنسانَ من التشبيهِ، والتعطيلِ، والإعراضُ عن الخوض في كيفيات الصفات سلامة للدين.

وفي الطحاوية: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر، فقد كفر، فمن أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أن الله ليس بصفاته كالبشر»(٣).

قال شارحه ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «يعني: أنه تعالى وإن وُصف بأنه متكلم، لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون بها متكلما، فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]»(٤).

فالله ﷻ متكلم، يتكلم متى شاء، كيف شاء، مع من شاء، ولا نخوض في كلامه بما لم يثبت به النقل، ولم يدل عليه العقل، ولا نأتي بالمجملات من الألفاظ والأقوال، ولا نخوض في اللفظ وغيره ـ وسأبين في المبحث الآتي مسألة اللفظ في القرآن ـ والله تعالى أعلم.

---

(١) الدرء ٢/ ٣٧ـ ٣٨.
(٢) أبيات لمحمد جمال الدين اليمني الشافعي في الرد على السبكي ١/ ١٠٩ من مقدمة منهاج السنة.
(٣) الطحاوية ١/ ٢٠٦ مع شرح ابن أبي العز الحنفي.
(٤) شرح الطحاوية ١/ ٢٠٦ـ ٢٠٧.

المبحث الثاني: مسألة اللفظ بالقرآن

المطلب الأول: بيان اللفظ والملفوظ.

قبل الخوض في بيان مسألة اللفظ والملفوظ، أنبه على أن المراد بهذه المسألة: لفظ القارئ بالقرآن، وقراءته له، وتلاوته له، هل يقال مخلوق أو لا يقال ذلك؟

وهذه مسألة كبيرة، شغلت حيزا في مسألة القرآن، وكان لها صدى عند السلف وغيرهم، مما أدى إلى الشقاق والفرقة، ضاقت بسببها صدور أهل السنة، وفرح بها أهل الزيغ والبدعة.

قال أبو محمد بن قتيبة الدَّيْنَوَرِي رحمه الله[(١)]: «لم يختلف أهل الحديث في شيء من اعتقادهم إلا في مسألة "اللفظ"»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله مبينا أثر هذه المسألة على أهل السنة: «وصار يحصل بسبب كثرة الخوض في ذلك ألفاظ مشتركة، وأهواء للنفوس، حصل بسبب ذلك نوع من الفرقة والفتنة»[(٣)].

وهذه المسألة ظهرت ـ أوّل ما ظهرت ـ من الجهمية، وذلك لـمّا أطفأ الله نارهم بالحق الدامغ، ولم يستطيعوا إظهار القول الزائغ، فحادوا في إظهار اعتقادهم إلى

---

(١) هو العلامة ذو الفنون: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينَوَرِي، نزل بغداد وصنف وجمع وبعُد صيته، ولي قضاء دينور، رماه المتمشعرة بالتشبيه، وهو عنه نزيه، ومن مؤلفاته المشهورة: غريب القرآن، وغريب الحديث، ومشكل القرآن، ومشكل الحديث، الرد على من يقول بخلق القرآن، والاختلاف في اللفظ، توفي سنة ٢٦٧هـ. انظر: الفهرست ص ١٢٣ ـ ١٢٤، تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠ ـ ١٧١، السير ١٣/ ٢٩٦ ـ ٣٠٢.

(٢) المجموع ٧/ ٦٦٠، وانظر: الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة ص٥٧، ٢٠.

(٣) الدرء ١/ ٢٦٢.

الألفاظ المجملة، مع أنهم يريدون مذهبهم البدعي وهو: اعتقاد أن القرآن مخلوق كالبرية، فلبّسوا على الناس بهذه الألفاظ المحدثة البدعية.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق أطفأ الله نار الجهمية المعطلة صارت طائفة يقولون إن كلام الله الذي أنزله مخلوق ويعبرون عن ذلك باللفظ فصاروا يقولون: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو تلاوتنا، أو قراءتنا مخلوقة، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يُدْخِلون في كلامهم نفس كلام الله الذي نقرؤه»(١).

وظهور هؤلاء المعروفين بـ "اللفظية"(٢) كان في عهد الإمام أحمد، لما أظهر الله السنة حتى صار لها ولأهلها شوكة، وخُذلت البدعة والمبتدعة، ويفهم هذا من القول السابق لشيخ الإسلام رحمه الله، وكذا يفهم مما قاله ابن جرير الطبري رحمه الله حيث قال: «فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى، ولا تابعي قضى، إلا عمن في قوله الغناء والشفاء، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم قوله لدينا مقام قول الأئمة الأولى: أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل...»(٣).

فكون الإمام أحمد أول ما عرف عنه من الأئمة الإنكار في هذه المسألة الحادثة، لكونها ظهرت في زمانه، ومما يؤكد ذلك أن هذا القول اشتهر من معاصر له وهو الحسين الكرابيسي(٤).

---

(١) المجموع ٧/ ٦٥٥، وانظر: الاختلاف في اللفظ ص ٢٠، الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٢.

(٢) اللفظية مصطلح يطلق على من قال: إن لفظي بالقرآن مخلوق، وقد يطلق على من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، قال البخاري: قال أحمد بن حنبل: «اللفظي: الذي يقول القرآن بألفاظنا مخلوقة»، وقال الحافظ عن هذه المسألة إنها هي: «المشهورة بمسألة اللفظ، ويقال لأصحابها اللفظية». انظر: المجموع ١٢/ ٣٦٦، الفتح ١٣/ ٥٠٠، معجم ألفاظ العقيدة ص٣٤٧.

(٣) صريح السنة للإمام أبي جعفر ابن جرير الطبري ص٢٥ ـ ٢٦، وانظر: المجموع ١٢/ ٤٢٣ وقال ـ وهذا القول ـ: «مشهور... ومتواتر عنه»، وانظر: ما ذكره الأشعري في اتباع الإمام أحمد في الإبانة ص ١٤ ـ ١٥، وانظر: أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٩٢.

(٤) هو الفقيه: أبو علي الحسين بن علي بن يزيد البغدادي الكرابيسي، تفقه بالشافعي وأخذ عن يزيد بن هارون =

قال قوام السنة الأصبهاني رحمه الله[1]: « وأول من قال باللفظ، وقال ألفاظنا بالقرآن مخلوقة حسين الكرابيسي فبدَّعه أحمد بن حنبل، ووافقه على تبديعه علماء الأمصار »[2].

ثم تبع الكرابيسي على ذلك أقوام، « ونشأ بين أهل السنة والحديث نزاع في... القرآن ـ أي اللفظ بالقرآن ـ بسبب ألفاظ مجملة، ومعانٍ متشابه »[3].

وخاض فيه أناس بحق، لتجلية الحق، وخاض فيه آخرون بباطل، وحملوا من أجل ذلك كلام الأئمة المحامل، وأصبح بينهم وبين أهل الحق حائل، وقد ينتسب بعضهم إلى الأئمة، وينتحل مناهج علماء الأمة، وكان لزاما توضيح هذه المسألة، كما وردت في كتب السنة، بجمع كلامهم، وتجلية أقوالهم، حتى لا يبقى لمخالف حجة، ولا لموافق شبهة، والكلام في هذا سيكون في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: بيان الألفاظ المجملة في المسألة.

المسائل المجملة في باب العقائد تسبب الفرقة والاختلاف، لاحتمالها معان عدة؛ منها ما هو صحيح، ومنها ما هو باطل، فإذا أثبتها قوم فباعتبار ما تحتمله من معنى صحيح، ومن نفاها فباعتبار ما تحتمله من معنى باطل.

= وكان ذكيا فطنا له مصنفات، ونشأ بينه وبين الإمام أحمد الخلاف لما قال باللفظ، حتى قال ابن عدي: « اعتبروا بالكرابيسي وبأبي ثور، فالحسين في علمه وحفظه لا يَعْشِرُه أبو ثور، فتكلم فيه أحمد في مسألة اللفظ فسقط، وأثنى على أبي ثور فارتفع للزومه السنة »، و إنما كان إنكار الإمام أحمد عليه لقوله بقول مجمل مبتدع دون تفصيل، يتذرع به إلى القول بخلق القرآن، ولذا لما فَصّل هو فُهم مرادُه وأنه كان يقصد فعل نفسه وهو مخلوق حقا، دون القرآن الذي هو كلام الله صدقا، توفي الكرابيسي سنة ٥٨/ ٢٥٩هـ. انظر: تاريخ بغداد ٨/ ٦٤ ـ ٦٧، السير ١٢/ ٧٩ ـ ٨٢، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ١١٧.

(١) هو قوام السنة الحافظ: أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي بن طاهر التيمي الأصبهاني ولد سنة ٤٥٧هـ، ترعرع في ربوع العلم، ونشأ على التعليم، صاحب رحلات كثيرة، ومصنفات جليلة ومنها: الحجة في بيان المحجة، وكتاب السنة، ودلائل النبوة، توفي سنة ٥٣٥هـ. انظر: السير ٢٠/ ٨٠-٨٨، شذرات الذهب ٤/ ١٠٥ - ١٠٦، طبقات الحفاظ ٤٦٣.

(٢) الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني ١/ ٣٧٠.

(٣) المجموع ٧/ ٦٥٨.

وأما ألفاظ القرآن والسنة ففيها الشفاء، والكفاية لمن به داء، ونحن متعبدون بالكتاب والسنة، لا بألفاظ أحد من أهل الملة، والواجب في كل لفظ مجمل محتمل لمعانٍ عدة، أن نتركه وأن نلتزم بألفاظ الشرع، ومن الألفاظ المجملة في باب "اللفظ بالقرآن" ما يأتي:

١- **لفظي بالقرآن**(١) ومنه: اللفظ، أو الألفاظ، أو لفظ القرآن.

٢- **تلاوتي بالقرآن**(٢) ومنه: التلاوة، أو التلاوات، أو تلاوة القرآن.

٣- **قراءتي للقرآن**(٣) ومثله: القراءة، أو القراءات، أو قراءة القرآن.

٤- **كتابتي القرآن**(٤) ومثله: الكتابة، أو الكتابات، أو كتابة القرآن.

٥- **هذا عين كلام الله**(٥).

٦- **هذا يحكي القرآن**(٦).

٧- **القرآن حال في المصحف، أو حال في الصدور**(٧).

٨- **القرآن من قدر الله.**

٩- **القرآن من أمر الله.**

١٠- **القرآن من شرع الله**(٨).

ووجه الإجمال في هذه العبارات، كونها مصادر تحتمل الفعل الذي هو فعل العبد، وتحتمل المفعول الذي وقع عليه الفعل، وهو المقروء، المتلو، الملفوظ، المكتوب.

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٤٠٩.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١٧٠، إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ١١٩.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٤١٠.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٧٤.

(٥) انظر: المجموع ١٢/ ٢٨٦.

(٦) انظر: المجموع ١٢/ ٥٤٣، إيثار الحق على الخلق ص ١١٩.

(٧) انظر: المجموع ١٢/ ٢٩٣، وإنما كان هذا من المجملات؛ لأن لفظ الحلول في كل موضع بحسبه، فقد يفهم من هذا قول الحلولية من الصوفية الغلاة، ومن وافقهم، انظر: قولهم في أن القرآن حال في العباد، في الفصل الأول، من الباب الثاني.

(٨) ذكر هذه الثلاثة شيخ الإسلام ﷺ في المجموع ٨/ ٤١٢.

وقدر الله فيه ما هو من أفعاله، وما هو من مفعولاته، وكذلك أمر الله، وشرع الله فيه ما هو من كلامه، وما هو من كلام نبيه، فكانت هذه الألفاظ الثلاثة أيضا من الألفاظ المجملات، فينبغي التنبه لها حتى لا نقع في الاحتمالات، ونبعد أنفسنا من المشتبهات[١].

ومنشأ الضلال «من عدم الفرق في المشار إليه في هذا»[٢]، فعدم تعيين المشار إليه أوقع الإجمال، والالتباس، «والنفي والإثبات بدون التفصيل يوهِم»[٣]، وإذا بُيّن الفرق، وفُصّل في العبارة، واستفصل عن المقالة، تبين المتفق والمفترق[٤].

وأما بيان الفرق والتفصيل في هذه العبارات، والموقف الصحيح منها فأبينه في المسألة التالية.

المسألة الثانية: هل اللفظ هو الملفوظ أو غيره؟

بينت في المسألة السابقة، أن الألفاظ المجملة سبب من أسباب النـزاع في الأمة ـ خصوصا في المسائل العلمية ـ، وأما إذا كشف الغطاء، وأزيل الإلباس، وقع التوافق بين الناس.

ومن هذا الإلباس، ما وقع بين الأنام في مسألة اللفظ والملفوظ، أو القراءة والمقروء، أو التلاوة والمتلو، أو غيره.

وبيان المسألة من حيث اللغة، وعلى ضوء فهم السلف كما يأتي:

إن "اللفظ" «اللام والفاء والظاء كلمة صحيحة تدل على طرح الشيء، وغالب ذلك يكون من الفم، تقول: لفظ بالكلام يلفظ لفظا، ولفظت الشيء من فمي»[٥].

فاللفظ بمعنى الطرح هو خارج عن بحثنا إذ لم يكن النـزاع فيه، ولم يكن

(١) انظر: المجموع ٨/ ٤١١ وما بعدها.
(٢) المجموع ١٢/ ٢٨٤.
(٣) المجموع ١٢/ ٥٤٩.
(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٢٨٤.
(٥) مقاييس اللغة ص ٩٥٨، وانظر: الحجة في بيان المحجة ٢/ ٢٠٥.

القائلون يعنون ذلك، وإن كان بعض المتسببين للسنة كره مسألة اللفظ، لكون القرآن لا يُلفظ، أي: لا يطرح ولا يُرمى منه شيء، لا حقيقة ولا معنى(١).

وإنما موضع النـزاع في "اللفظ" الذي هو الكلام، فاللفظ والقراءة، والتلاوة، ألفاظ تطلق على المصادر، والمصدر في اللغة العربية يطلق على الفعل وعلى المفعول.

فالمصدر "اللفظ" من لَفَظَ يَلْفِظُ لَفْظاً، **يطلق** على الفعل الذي هو فعل اللافظ من صوت وحركة، وما يكون منه كسبا بجوارحه، **ويطلق** على المفعول الذي وقع عليه فعل اللافظ والقارئ، والتالي، وهو الملفوظ، المقروء، المتلو(٢).

ومثال هذا في "الكتاب" فهو مصدر يطلق على الفعل كما في قولنا: كتبت كتابا، فالمصدر هنا مؤكد للفعل وهو بمعناه، ويطلق على المفعول كقولنا: قرأت الكتاب، فالمصدر هنا بمعنى المفعول، أي قرأت الشيء المكتوب، وعلى هذا قياس اللفظ والقراءة والتلاوة.

فاستعمال المصدر وإرادة الفعل معلوم عند العرب، وكذلك استعمالهم المصدر وإرادة المفعول معلوم عندهم.

قال سيبويه(٣): «وقد يجيء المصدر على المفعول..كقولهم: الخَلْقُ إنما يريدون المخلوق، ويقولون للدرهم: ضرب الأمير، إنما يريدون مضروب الأمير»، وقال: «فجاء للفاعل كما جاء للمفعول، وربما وقع على الجميع»(٤).

فيعمل «المصدر إعمال الفعل مفردا كقولك: عجبت من ضَرْبِ زيدٍ عمراً...

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٢٠٩ـ ٢١٠.

(٢) انظر: خلق أفعال العباد للبخاري ص ١٧٣، المجموع ١٢/ ١٩٧.

(٣) هو إمام العربية: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البصري، المعروف بـ (سيبويه) طلب الحديث أولا، ثم شغف بالعربية ثانيا، وبرع فيها، وساد أهل عصره، وله مؤلف كبير فيها لا يُماثله مؤلف ـ وهو المشهور بالكتاب ـ، عاش نحو الأربعين سنة قيل مات سنة ١٨٠هـ وقيل غير ذلك. انظر: الفهرست لابن النديم ص٨١، تاريخ بغداد ١٢/ ١٩٥، السير ٨/ ٣٥١-٣٥٢.

(٤) الكتاب ٤/ ٤٣.

ومضافا إلى المفعول، كقولك: ضَرْبُ اللصِّ الأميرُ»[١]، فإذا عمل عمله فهو بمعناه.

ومثال ما جاء على المعنيين قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾[الزمر:٦] فالخلق هنا "مصدر" والمراد به فعل الله ﷻ، وقوله: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[النساء:١١٩] فالخلق "مصدر" والمراد به المخلوق الذي هو مفعول الرب ﷻ[٢].

وبهذا يتضح «أن اللفظ يراد به مصدر: لَفَظَ يَلْفِظُ لَفْظاً، ويراد باللفظ الملفوظ به، وهو نفس الحروف المنطوقة»[٣].

فإطلاق المصدر وإرادة الفعل وارد، وإرادة المفعول وارد، فإذا قيل: اللفظ، أو لفظي، أو ألفاظنا، فقد يراد به نفس فعل العبد وصوته وحركته، وقد يراد به الملفوظ المقروء المتلو[٤].

وله مثال آخر وهو "اسم القرآن"[٥]، فإنه قد يراد به القراءة نفسها كقوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[الإسراء:٧٨] قال الطبري في معنى الآية: «إن ما تقرأ به في صلاة الفجر من القرآن كان مشهودا يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[٦].

وقد يراد بـ "القرآن" المقروء الذي هو كلام الله، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩] والمراد المقروء الذي هو كلام الله تعالى.

يوضحه قول الإمام البخاري رحمه الله: فـ «بعضهم يزيد على بعض في القراءة،

---

(١) المفصل في علم العربية ص ٢٢٣، وانظر: شرح ابن عقيل ٢/ ٨٨ ـ ٩٣، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي ٢/ ٢٤٦.

(٢) انظر: خلق أفعال العباد ص١٨٦.

(٣) المجموع ١٢/ ٥٦٧.

(٤) انظر: الاختلاف في اللفظ ص ٥٧، المجموع ٧/ ٦٦٠.

(٥) انظر: المجموع ١٢/ ٥٦٢،١٩٨.

(٦) جامع البيان ٨/ ١٢٧، وانظر: الاختلاف في اللفظ ص ٥٧.

وبعضهم ينقص، وليس في القرآن زيادة ولا نقصان، فأما التلاوة فإنهم يتفاضلون في الكثرة والقلة.. وقد يقال: فلان حسن القراءة، ورديء القراءة، ولا يقال: حسن القرآن، ورديء القرآن، وإنما نسب إلى العباد القراءة لا القرآن، لأن القرآن كلام الرب، والقراءة فعل العبد»[(١)].

فبهذا يتبين أن القرآن محتمل لفعل القراءة، وإن كان أظهر في المفعول المقروء، ولا شك أن القراءة غير المقروء من القرآن، فكذلك لا يقال في الألفاظ المجملة في هذا الباب، أن المصدر يحتملها، وأن الفعل غير المفعول.

فلو قال قائل: **لفظي بالقرآن مخلوق**، دخل في هذا الإطلاق فعل اللافظ، الذي هو حركته وصوته، وهو مخلوق حقا، ودخل المفعول الذي هو كلام الله، وكلامه مسموع منطوق، وبحروف، وله معنى، وإدخاله في العبارة المطلقة باطل، إذا لا بد من التفصيل.

وكذلك لو قال قائل: **لفظي بالقرآن غير مخلوق**، دخل فيه فعل اللافظ الذي هو صوته وحركته، وهو باطل لأنه مخلوق قطعا، فإن أفعال العباد كفاعليهم مخلوقة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[(٢)] ودخل الملفوظ الذي هو كلام الله وهو حق، فإن كلام الله غير مخلوق حقا، حروفه ومعانيه[(٣)].

قال شيخ الإسلام ﷺ: «قوله "لفظي" مجمل يدخل فيه فعله... وصوته، فإذا قيل: لفظي، أو تلاوتي، أو قراءتي غير مخلوقة، أو هي المتلو، أشعر ذلك أن فعل العبد وصوته قديم، وأن ما قام به من المعنى والصوت هو عين ما قام بالله من المعنى والصوت.

وإذا قال: "لفظي بالقرآن"، أو تلاوتي للقرآن، أو لفظ القرآن، أو تلاوته مخلوقة، أو التلاوة غير المتلو، أو القراءة غير المقروء أفهم ذلك أن حروف القرآن

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٦٦، وانظر: المجموع ١٧/ ٣٦ـ٣٧، الفتح ١٣/ ٥١٧.

(٢) سورة الصافات، الآية ٩٦، وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: «يحتمل أن تكون ما مصدرية، فيكون تقدير الكلام: خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي، تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم...». تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٣.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٣٠٦ـ٣٠٧.

ليست من كلام الله بحال، وأن نصف القرآن كلام الله، ونصفه كلام غيره»[١].

ولهذا كان السلف ينكرون هذا اللفظ المجمل، كما سيأتي، وأذكر هنا كل لفظة من الألفاظ المجملة في هذه المسألة، ووجه الصواب فيها على ما هو مقرر في عقائد السلف.

أولا: "اللفظ": وقد سبق بيان وجه الإجمال فيه، وأما الحق في هذه اللفظة أن يقال قولك: لفظي بالقرآن مخلوق إن كنت تقصد المعنى الحق وهو: أن أصوات العباد وحركاتهم مخلوقة دون كلام الخالق سبحانه، وأن كلام الله بصوت وحرف، فهذا يقبل منه هذا المعنى، ويُرد عليه اللفظ المجمل لاحتماله المعاني الباطلة[٢].

وكذلك يقال لمن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، إن عنيت به الملفوظ الذي هو كلام الله، دون صوت العبد وحركاته وأفعاله فهذا حق أيضا ويقبل، ويُرد اللفظ المجمل لاحتماله المعاني التي هي باطلة.

ومثل هذا التفصيل في "اللفظ" يجري على "التلاوة" قال شيخ الإسلام رحمه الله: «من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق، أو تلاوتي...أردت به أن القرآن المتلو غير مخلوق، لا نفس حركاتي، قيل له: لفظك هذا بدعة، وفيه إجمال وإيهام، وإن كان مقصودك صحيحا، كما يقال ـ لمن قال لفظي مخلوق ـ: أردتُ أن فعلي مخلوق، لفظك أيضا بدعة، وفيه إجمال وإيهام وإن كان مقصودك صحيحا»[٣].

ثانيا: "القراءة": فقول القائل: قراءتي بالقرآن مخلوقة أو غير مخلوقة، من الألفاظ المجملة فإن «القراءة: قرآن وعمل، لا يتميز أحدهما عن الآخر، فمن قال: إنها قرآن فهو صادق، ومن حلف إنها عمل فهو بار، وأخطأ من أطلق: أن القراءة مخلوقة، وأخطأ من زعم أنها غير مخلوقة... فإن هذه المسألة خفيت على الطائفتين لغموضها، فإن إحدى الطائفتين ـ وهي القائلة بأن قراءتي مخلوقة ـ وجدت القراءة

---

(١) المجموع ١٢/ ٤٠٩، وانظر: المجموع ٦/ ٥٢٧.

(٢) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ١/ ٥٤٤.

(٣) الدرء ١/ ٢٦٥.

تسمى قرآنا، فنفت الخلق عنها، والأخرى ـ وهي القائلة بأن القراءة مخلوقة ـ وَجَدَتِ القراءة فعلا يثاب صاحبه عليه فأثبتت حدوثه»[١].

فهذا يدل على أن القائل بهذه العبارة لو أراد فعل نفسه مع إقراره بأن كلام الله غير مخلوق، وأن كلام الله بحرف، فهذا حق ويقبل منه هذا المعنى دون اللفظ، وإن كان القائل مثبتا[٢] قائلا: قراءتي غير مخلوقة، وهو يريد المقروء الذي هو كلام الله مع إقراره بأن فعله وحركاته وصوته مخلوق لكان حقا مقبولا، دون اللفظ فإنه يكون مردودا، ولعسر هذا الفرق وصعوبته مال أقوام في هذه المسألة إلى زيادة في الإثبات، وآخرون إلى زيادة في النفي، والحق العدل والتوسط، فالمعوَّل فيما اختلفنا فيه إلى كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ، وإجماع المعتبرين من علماء الأمة.

وأنبه ـ كما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله ـ على أن «إطلاق لفظ "القرآن" على نفس الكلام أكثر من إطلاقه على نفس التكلم، وكذلك لفظ "الكلام" و"القول" و"القصص"... يراد به نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم»[٣].

ثالثا: "الكتابة": أو قولهم: كتابتي للقرآن مخلوقة، أو غير مخلوقة، من الألفاظ المجملة، وذلك أن الكتابة مصدر يطلق على الفعل، وقد يراد به المفعول، فلما احتمل هذين المعنيين، صار من المجملات.

والتفصيل هو أن يقال لمن أطلق هذه العبارة نفيا أو إثباتا، هل تعني بقولك هذا، أن المداد والورق وحركة الكاتب مخلوقة، وأن المكتوب في المصاحف هو كلام الله، حروفه ومعانيه، وأنه غير مخلوق، فهذا حق يقبل.

وإن أردت بقولك هذا: أن المداد والورق، وفعل الكاتب غير مخلوق، أو أن

---

(١) المجموع ١٢/ ٤١٠ وقد نقله عن ابن قتيبة، وانظر: ما قاله ابن قتيبة في الاختلاف في اللفظ ص ٥٧ ـ ٥٨ مع اختلاف يسير.

(٢) اللفظية النافية هم: الذين يقولون؛ ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، واللفظية المثبتة هم: الذين يقولون ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة. انظر: المجموع ١٢/ ٣٧٣، ٣٩٤، ٤٢١.

(٣) المجموع ١٧/ ٣٨ ـ ٣٩.

المكتوب هو المخلوق فهذا باطل مردود.

وكذا لو قال: إن فعل العبد من الكتابة مخلوق، وكذا المكتوب من القرآن مخلوق، فهذا أيضا باطل مردود.

وإجماع السلف قائم على أن المداد في المصحف مخلوق، وأن فعل العبد من الكتابة مخلوق، وأن الأوراق مخلوقة، وكذا إجماعهم قائم على أن المكتوب هو القرآن، وأن ما بين الدفتين هو كلام الله حروفه ومعانيه، وكلام الله غير مخلوق[١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمداد الذي في المصحف لم يكن أحد من السلف يتوقف في ذلك، بل كلهم متفقون أن أصوات العباد مخلوقة، والمداد كله مخلوق، وكلام الله الذي يكتب بالمداد غير مخلوق»[٢].

فالمكتوب المقروء في مصاحف المسلمين هو كلام الله، قال الشيخ حافظ حكمي رحمه الله عن القرآن مفرقا بين فعل العبد، وكلام الرب:

يحفظ بالقلب وباللسان يُتلى كما يُسمع بالآذان
كذا بالأبصار إليه يُنظر وبالأيادي خطه يُسطر
وكل ذي مخلوقة حقيقة دون كلام بارئ الخليقة[٣].

قال رحمه الله في شرحها: « "وكل ذي" المذكورات من القلب، وحافظته وذاكرته، واللسان وحركته، والآذان وأسماعها، والأبصار ونظرها، والأيادي وكتابتها، وأدوات الكتابة، من أوراق، وأقلام، ومداد، كلها "مخلوقة حقيقة" ليس في ذلك توقف، "دون" القرآن»[٤].

قال الإمام البخاري رحمه الله: « حركاتهم ـ أي العباد ـ، وأصواتهم، واكتسابهم،

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٦٩ ـ ٧٤، ١٧٩، ٥٦٧ ـ ٥٦٨، ٣/ ١٧٠ ـ ١٧١، ١٩٧.
(٢) المجموع ١٢/ ٥٦٨، وانظر: ١٢/ ٥٨٦.
(٣) سلم الوصول ص ١٥.
(٤) معارج القبول ١/ ٣٧٣.

وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين، المثبت في المصحف، المسطور، المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله »[١]، وقال: « فأما المداد، والرق، ونحوه، فإنه خلقٌ »[٢].

رابعا: قولهم "هذا عين كلام الله": فإن الإشارة هنا تحتمل إما أن تكون إلى المكتوب، أو المسموع، أو المقروء فهذا حق، وإما أن تكون إلى الورق والمداد والجلد، أو الصوت، وفعل العبد، فهذا باطل.

« فإذا ميز الإنسان في المشار إليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق »[٣]، قال الإمام أحمد رحمه الله: « يتوجه العبد لله تعالى بالقرآن بخمسة أوجه وهو ـ أي القرآن ـ فيها غير مخلوق، حفظ بالقلب، وتلاوة باللسان، وسمع بأذن، ونظرة ببصر، وخط بيد، فالقلب مخلوق، والمحفوظ غير مخلوق، والتلاوة مخلوقة، والمتلو غير مخلوق، والسمع مخلوق، والمسموع غير مخلوق، والنظر مخلوق، والمنظور إليه غير مخلوق، والكتابة مخلوقة، والمكتوب غير مخلوق »[٤].

وقولهم: هذا عين كلام الله، في مفهوم المسلمين الذين لم تُدنس فطرهم، لا إشكال فيها، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: « وكذلك قول القائل: هذا نفس كلام الله، وعين كلام الله، وهذا الذي في المصحف هو عين كلام الله، ونفس كلام الله، وأمثال هذه العبارات، هذه مفهومها عند الإطلاق في فطر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره، وأنه لا زيادة فيه ولا نقصان، فإن من ينقل كلام غيره، ويكتبه في كتاب قد يزيد فيه وينقص، كما جرت عادة الناس... وذلك معنى قولهم هذا كلامه بعينه، وهذا نفس كلامه، لا يريدون أن هذا هو صوته، وحركاته، وهذا لا يقوله عاقل، ولا يخطر ببال عاقل ابتداء، ولكن اتباع الظن، وما تهوى الأنفس يلجئ أصحابه إلى القرمطة في السمعيات، والسفسطة في العقليات، ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة »[٥].

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٤٢.
(٢) خلق أفعال العباد ص ٤٤، وانظر: الفتح ١٣/ ٥٣٢.
(٣) المجموع ١٢/ ٢٨٤.
(٤) المسائل والرسائل للإمام أحمد في العقيدة ١/ ٢٤٤، وانظر: معارج القبول ١/ ٣٧٣.
(٥) المجموع ١٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧، وانظر ١٢/ ٢٠١، ودقائق التفسير ٢/ ٩٣ ـ ٩٤.

خامسا: عبارة **"هذا يحكي القرآن"**: فهذا اللفظ مجمل من حيث كونه يحتمل أنه يريد بهذه العبارة أنه يأتي بكلام يحاكي به القرآن، وهذا كفر، ويحتمل أنه أراد أنه يتلوه وهذا حق، « **فالقائل إذا قال للقارئ**: هذا يحكي كلام الله، أو يحكي القرآن، فقد يفهم منه أنه يأتي بكلام يحاكي به كلام الله، وهذا كفر، وإن أراد أنه بَلَّغَه وتلاه، فالمعنى صحيح، لكن ينبغي تعبيره بما لا يدل على معنى باطل، فيقول: قرأه، وتلاه، وبلغه وأداه، ولهذا إذا قيل: يحكي القراءات السبع، ويرويها، وينقلها لم ينكر ذلك، لأنه لا يفهم منه إلا تبليغها، لا أنه بمثلها »[(١)].

ومن هذا قول الفقهاء: فلان حكى الإجماع، أي نقله، ورواه.

وبعد ذكر بعض الألفاظ المجملة في هذا الباب، وبيان الصواب فيها من الباطل، لا بد من بيان سبب وقوع الاضطراب في مسألة اللفظ، وذكر بعض الفروق.

المسألة الثالثة: سبب النزاع في مسألة اللفظ، وذكر بعض الفروق فيها:

من أهم الأسباب التي كانت سببا إلى التنازع في هذا الباب، أمور منها:

١ ـ عدم التفريق بين فعل الرب وتكلمه بالقرآن وسائر كلامه، وبين فعل العبد وتكلمه بكلام الرب، قال شيخ الإسلام ﷺ: « ومنشأ النزاع بين أهل الأرض، والاضطراب العظيم الذي لا يكاد ينضبط في هذا الباب **يعود إلى أصلين: مسألة**: تكلم الله بالقرآن وسائر كلامه، **ومسألة**: تكلم العبد بكلام الله »[(٢)].

والفرق بين فعل الرب وكلامه وصوته، وبين فعل العبد وتكلمه بكلام الرب وصوت العبد، معلوم إلا عند من ضعفت بصيرته، وانطمست فطرته.

وإن من عقائد أهل السنة: أن الرب بصفاته هو الخالق، وأنه تعالى يتكلم بصوت لا يشبه أصوات المخلوقين، وأن العبد بصفاته مخلوق، حركاته، وأفعاله، وأصواته، فجميع صفات العبد مخلوقة، ومن قال عن شيء من صفات العبد: أنها غير مخلوقة أو

---

(١) المجموع ١٢/ ٥٤٣، وانظر: ١٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢) المجموع ١٢/ ٣٩٥، وانظر: ١٢/ ٥٨٢.

أنها أزلية فهو مخطئ ضال[(١)].

فالفرق بين الخالق والمخلوق، وبين صفات الخالق وصفات المخلوق واضح لكل ذي عقل سليم، فالله ﷻ «تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه، ونادى موسى بصوت نفسه، كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف، وصوت العبد ليس هو صوت الرب، ولا مثل صوته، فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

وقد نص أئمة الإسلام أحمد بن حنبل ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله ينادي بصوت، وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت، ليس شيء منه كلاما لغيره... وأن العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم، وأفعالهم، فالصوت المسموع من العبد صوت القاري، والكلام كلام الباري.

وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز بين صوت العبد، وصوت الرب، بل يجعل هذا هو هذا، فينفيهما جميعا، أو يثبتهما جميعا»[(٢)].

وبهذا يتبين أن ما اقترن مع القرآن من أفعال العباد، سواء في التبليغ والأداء، أو القراءة والكتابة أنه مخلوق، وكلام الله حيث تصرف غير مخلوق[(٣)] «ومن قال بأن المداد الذي في المصاحف قديم أزلي، أخطأ وابتدع، وقال ما يخالف العقل والشرع»[(٤)].

قال الإمام أحمد رحمه الله: «نقول: القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف»[(٥)]، أي إن تلي وكتب وقرئ فهو كلامه، وكلامه غير مخلوق، وأما صفات العباد وأفعالهم التي بها يقرؤون ويكتبون فهو مخلوق، ومن لم يهتد إلى هذا الفرق وقع في الحيرة[(٦)].

٢ ـ عدم التفريق بين سماع الكلام من المتكلم بلا واسطة، وبين سماع الكلام من

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٥٦٨، ١٢/ ٢٠١.

(٢) المجموع ١٢/ ٥٨٤-٥٨٥، وانظر: خلق أفعال العباد ص٥٤، و المجموع ١٢/ ٢٨٧، ٥٤٨.

(٣) انظر: خلق أفعال العباد ص ٦٦-٦٧، المجموع ١٢/ ٤١٦.

(٤) المجموع ١٢/ ٥٨٣.

(٥) المجموع ١٢/ ٧٥.

(٦) انظر: المجموع ١٢/ ٧٥.

المبلغين: فمن العقائد السلفية أن كلام رب البرية، بحرف وصوت، يُسمِعه الله من شاء من الملائكة، والنبيين، وأن القرآن سمعه جبريل ﷺ من الله، وأن محمدا ﷺ سمعه من جبريل، بصوت جبريل، والصحابة سمعوا القرآن من محمد ﷺ بصوته ﷺ، وهكذا نحن نسمع القرآن من القراء، بأصواتهم وأفعالهم، وفي كل ذلك: الصوت صوت القاري، والكلام كلام الباري.

وظن أناس أنه إما أن يكون «كلام الله مسموعا منه، أو أنه ليس كلام الله، بل كلام المبلِّغ عنه، وكلا القولين خطأ وقع في كلام طائفة من الناس»[(١)].

قال شيخ الإسلام ﷺ: «والخطأ في هذا الأصل في طرفين: ...من قال: كلامه لا يقوله غيره، أو لا يُسمع من غيره، ومن قال: كلامه إذا أبلغه غيره وأداه فحاله كحاله إذا سمعه منه وتلاه، بل كلامه يقوله: رسله وعباده، ويتكلمون به، ويتلونه، ويقرؤونه، فهو كلامه حيث تصرف، وحيث تلي، وحيث كتب، وكلامه ليس بمخلوق حيث تصرف، وهو مع هذا فليس حاله إذا قرأه العباد، وكتبوه كحاله إذا قرأه الله وسمعوه منه، ولا من يسمع القاري كمنـزلة موسى بن عمران الذي سمع كلام رب العالمين منه»[(٢)].

والفرق: أن أصل هذا هو العلم بالجامع، والفارق، بين سماع الكلام من المتكلم به، ومن المبلِّغ له، فهو في **الأول**: مسموع منه مطلقا، صوتا وحرفا، من غير واسطة، **وفي الثاني**: مسموع مقيدا، الحرف والمعنى من المتكلم، والصوت من المبلِّغ، وفي الموضعين هو كلام المتكلم به، ومثال هذا كما قال شيخ الإسلام ﷺ: «إنك ترى الشمس، والقمر، والكواكب بطريق المباشرة، فلا تحتاج في ذلك إلى واسطة، وتارة تراها في ماء، أو مِرآة، ونحو ذلك تراها بواسطة ذلك الجسم الشفاف، فهي ـ أي المشاهد من هذه الكواكب ـ المقصودة بالرؤية في الموضعين، لكن في إحدى الحالتين: رأيتها نفسها بالمباشرة رؤية مطلقة، وفي الأخرى رأيتها رؤية مقيدة بواسطة...، **فإن قلت** فهذا المسموع مثل كلام

---

(١) المجموع ١٢/ ٥٤٩، وانظر: ٤٠٨.

(٢) المجموع ١٢/ ٤١١، وانظر منه: ١٢/ ١٣٧.

المروي عنه... كان إطلاق هذا خطأ، كما أنك إذا قلت لِما تراه في المرآة هذا مثل الشمس، أو هذا يحكي الشمس، كان إطلاق ذلك خطأ، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، فقد بين عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، مع أنهم قادرون على تبليغه وتلاوته، فعلم أن المسموع... كلامه بواسطة المبلِّغ، لا بطريق المباشرة »(١).

ويوضح هذا الفرق أكثر قوله ﷺ: « فإذا قيل "لفظي" جعل نفس الوسائط غير مخلوقة، وهذا باطل، كما أن من رأى وجها في مرآة فقال: أكرم الله هذا الوجه، وحياه، أو قبحه، كان دعاؤه على الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المِرآة لا على الشعاع المنعكس فيها، وكذلك إذا رأى القمر في الماء فقال: قد أبدر، أو لم يبدر، فإنما مقصوده القمر الذي في السماء...، وكان بعضهم يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فرأى في منامه وضارب يضربه، وعليه فروة، فأوجعه بالضرب، فقال له: لا تضربني، فقال: أنا ما أضربك؟ وإنما أضرب الفروة! فقال: إنما يقع الضرب علي، فقال: هكذا إذا قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فالخلق إنما يقع على القرآن. يقول: كما أن المقصود بالضرب بدنك، واللباس واسطة، فهكذا المقصود بالتلاوة كلام الله، وصوتك واسطة...، **ولهذا قال الأئمة**: القرآن كلام الله غير مخلوق كيفما تصرف، بخلاف أفعال العباد وأصواتهم، فإنه من نفى عنها الخلق كان مبتدعا ضالا »(٢).

فمنشأ الضلال في مسألة اللفظ كان بسبب عدم التفريق بين المسموع بلا واسطة، والمسموع بواسطة « وإذا رجع أحدهم إلى فطرته وجد الفرق بين أن يشير إلى الكلام المسموع ـ فيما لو سمعه من غيره ـ فيقال: هذا كلام زيد، وبين أن يقول: هذا صوت زيد، ويجد فطرته تصدق بالأول، وتكذب بالثاني، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٦]، وقال النبي ﷺ: **[زينوا**

(١) المجموع ١٢/ ٥٤٣-٥٤٤، وانظر: ١٢/ ١٧٢، الدرء ١/ ٢٥٨، العين والأثر ص ٩٨.
(٢) المجموع ١٢/ ٢٨٢-٢٨٣، وانظر: ١٢/ ٢٨٤، ٣٦٩، دقائق التفسير ٢/ ١٩١.

القرآن بأصواتكم]، وكل أحد يعلم بفطرته ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الكلام كلام الباري، والصوت صوت القاري »(١).

والتفريق بين السماعين جلي، كما لو أن أحدا سمع من محدِّث قول النبي ﷺ: [**إنما الأعمال بالنيات]**؛ فهذا الكلام لفظه ومعناه إنما هو كلام الرسول ﷺ، والمحدث قد بلَّغه بصوت نفسه، وفعل نفسه، كذلك القرآن: لفظه ومعناه كلام الله تعالى ليس للمخلوق فيه إلا التبليغ والأداء والتلاوة، والغلط يكمن من جعل البابين واحدا(٢).

٣ ـ الغلو في إثبات أن القرآن كلام الله، في مقابلة الزيادة، والغلو في النفي: قال شيخ الإسلام رحمه الله: « هذا الغلو من جانب الإثبات ـ أي في الإثبات العام، وهو: أن اللفظ كلام الله غير مخلوق، أو التلاوة، أو... ـ يقابل التكذيب من جانب النفي، وكلاهما خارج عن السنة والجماعة »(٣)، وقال أيضا: « فلعسر الفرق والتمييز، يميل قوم إلى زيادة في الإثبات، وآخرون إلى زيادة في النفي، ولهذا كان مذهب الإمام أحمد والأئمة الكبار: النهي عن الإثبات العام، والنفي العام، بل الإمساك عنهما، وهو الأصلح للعموم، وهو جُمَلُ الاعتقاد، وأما التفصيل المحقق فهو لذي العلم من أهل الإيمان، كما أن الأول لعموم أهل الإيمان »(٤).

والفرق: يتضح عند التفصيل في العبارات العامة، نفيا وإثباتا كما سبق، وأما من حيث الإجمال فيجب اعتقاد: أن القرآن من جميع الجهات مقروءا ومتلوا ومحفوظا ومسموعا ومكتوبا وملفوظا كلام الله حقيقة، وإن سمع بواسطة المبلغين، وكتب بمداد المخلوقين(٥).

---

(١) المجموع ١٢/ ٤٠٨-٤٠٩، وانظر: ١٢/ ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٥٧٤، ٥٦٦، ٥٨٤، دقائق التفسير ٢/ ١٩١، الدرء ١/ ١٥٧، ٢٥٩، العين والأثر ص٩٨.

(٣) المجموع ٣/ ٤٠٤.

(٤) المجموع ١٢/ ٤٣١.

(٥) انظر: المجموع ٥/ ١٩٠، وقد نقل نحو هذه العبارات عن أبي نعيم صاحب الحلية.

٤ ـ **التنازع في مسمى الكلام في الأصل**: والمقرر عند أهل السنة: أن الكلام اسم للفظ الدال على المعنى، والمعنى مدلول عليه باللفظ، فهو اسم عام للفظ والمعنى جميعا، يتناولهما عند الإطلاق[(١)].

والتفريق: بين اللفظ والمعنى كان سببا في الاختلاف في مسألة اللفظ، والقرآن كلام الله، وهو حرف وله معنى، وقد سبق تقرير هذا[(٢)].

وبعد بيان اللفظ والملفوظ بهذا القدر، الذي ـ أظن ـ أن فيه الكفاية لمن تدبر، أبين موقف السلف من مسألة اللفظ إنكارا وموافقة ومخالفة في المطلب الثاني.

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٦٧.

(٢) كما في المطلب الأول، المسألة الأولى.

المطلب الثاني: موقف السلف من مسألة اللفظ.

تذرعت الجهمية وأذنابهم[(١)] بمسألة اللفظ ليتوصلوا إلى قولهم الباطل، وهو: أن القرآن مخلوق؟، ولما كانت هذه المسألة مجملة من حيث النفي المطلق أو الإثبات المطلق، أوقعت بعض المتسبين إلى السنة والحديث إلى الخوض فيها نفيا أو إثباتا[(٢)].

ولأبين موقف السلف جليا، وأوضح الأمر كليا، أبين ما أجمعوا عليه؛ ليظهر أن ما عدا ذلك فهو إما خلاف لفظي، أو إنكار لسبب شرعي، فمن متعلقات مسألة اللفظ ما يأتي:

١ ـ **القرآن الكريم**: وقد أجمع السلف على أنه كلام الله تعالى غير مخلوق، وأن جبريل ﷺ سمعه من الله بصوت الرب ﷻ، وبلغه إلى النبي ﷺ بصوت نفسه، وأن محمدا ﷺ بلغه أمتَه بصوت نفسه، وأن القرآن الكريم كلام الله تعالى حيثما تصرف، سواء قرئ، أو حفظ، أو كتب، أو سمع[(٣)].

٢ ـ **أفعال العباد**: وقد أجمع السلف على أن أفعال العباد مخلوقة لله ﷻ، وأنها من مفعولاته ﷻ، ويدخل ضمن ذلك أصوات العباد، وحركات ألسنتهم، وعموم أفعالهم، ومنه خطهم، وكتابتهم، ولا يقول أحد منهم أن أفعال العباد أزلية، كما لا يقول ذلك أحد من المسلمين ذلك في المخلوقات[(٤)]، **ولهذا قال السلف** في القرآن المسموع: الكلام كلام الباري، والصوت صوت القاري[(٥)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولم يقل أحد من السلف: إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله...، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو مخلوق، فضلا عن أن

---

(١) من المعتزلة والكلابية والأشعرية والماتريدية.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٣٠٦.

(٣) انظر المسألة الثانية من المبحث الأول، وانظر: المحنة لعبد الغني المقدسي ص١١٣.

(٤) انظر: صريح السنة ص ٢١، المجموع ١٢/ ٢١١، ٢٣٨، ٤٣٢، ٥٧٢، ٣٦/١٧، الفتح ١٣/ ٥٠٠.

(٥) انظر: المجموع ٢٣/ ٣٦١.

يقول: إن صوتي به قديم أو غير مخلوق، بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يقرؤونه بأصواتهم، ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مخلوق»(١).

فإذا تبين إجماع السلف في المسألتين اللتين بُني عليهما مسألة اللفظ، تأكد للناظر أن الخلاف بين السلف إما أن يكون لفظيا، أو لسبب شرعي وهو: سد الباب على الجهمية(٢).

ويتبين موقف السلف في هذا الموضوع من خلال مسألتين:

المسألة الأولى: الإنكار على من أطلق مسألة اللفظ.

إن كثيرا من السلف أنكروا مسألة اللفظ بالقرآن لكونها محدثة، لم تُعرف من قبل، فلم يقل بها صحابي يقتدى به، ولا إمام يتبع، سواء نفيا أو إثباتا، وأيضا لكونها من الألفاظ المجملة المحتملة للحق والباطل، ولكونها ذريعة إلى القول بخلق القرآن، وستار احتمى به أهل الزيغ والطغيان، كل هذا كان سببا في شدة إنكار السلف على اللفظية.

وما ورد عن السلف من الشدة على اللفظية، يمكن أن يرتب بحسب سبب وقوع الإنكار على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الإنكار لكون هذه المسألة محدثة:

١ ـ قال الإمام أحمد رحمه الله: «القرآن حيث تصرف غير مخلوق، وقال: ما سمعت أحدا تكلم في هذا بشيء، وأنكر على من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق»(٣).

٢ ـ قال أبو ثور رحمه الله(٤) ـ لما سُئل عن ألفاظ القرآن ـ: «هذا مما يسعك جهله، والله لا يسألك عز وجل عن هذا، فلا تتكلموا فيه فإن من زعم أن كلامه بالقرآن مخلوق

(١) المجموع ١٢/ ٣٠٢، وانظر: ٣٣/ ١٧٠.

(٢) انظر: الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص ٥٧.

(٣) شرح السنة للخلال ٧/ ٩٩-١٠٠ (٢١٦٠)، وانظر: المجموع ١٢/ ٤٢٤-٤٢٥.

(٤) هو الإمام الحافظ: أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، سمع من ابن عيينة ووكيع، وصاحب الشافعي، واشتهر بالفقه والإفتاء، والسنة والذب عنها، توفي سنة ٢٤٠هـ. انظر: الجرح والتعديل ٢/ ٩٧-٩٨، السير ١٢/ ٧٢-٧٦، تقريب التهذيب ص ٢٩.

فقد وافق اللفظين»(١).

٣ ـ قال الإمام أبو عثمان الصابوني رحمه الله: «إن السلف الصالحين من أهل السنة لم يتكلموا في باب اللفظ، ولم يُحوجهم الحال إليه، وإنما حدث الكلام في اللفظ من أهل التعمق، وذوي الحمق الذين أتوا بالمحدثات، وبحثوا عما نهوا عنه من الضلالات، وذميم المقالات، وخاضوا فيما لم يَخُض فيه السلف من علماء الإسلام، فقال الإمام أحمد: هذا القول في نفسه بدعة، ومن حق المتدين أن يدعه، وكل بدعة مبتدعة، ولا يتفوه به، ولا بمثله من البدع المبتدعة، ويقتصر على ما قاله السلف من الأئمة المتبعة: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يزيد عليه إلا تكفير من يقول بخلقه»(٢).

٤ ـ قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله في المقالات: «ويقولون: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، والكلام... في اللفظ من قال باللفظ... فهو مبتدع عندهم، ولا يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال غير مخلوق»(٣)؛ فبين رحمه الله أن القول باللفظ مبتدع، ولا يثبت ولا ينفى لما فيه من الإجمال(٤).

٥ ـ قال أبو الحسن الكرجي رحمه الله(٥): «ولما حدث الكلام في ذلك ـ أي اللفظ ـ أنكر أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره أن يقال: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق»(٦).

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٩٣ (٦٠٣).

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص٣٤ ـ ٣٥ (١٧).

(٣) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ص٢٩٢، وانظر: الرسالة الوافية لأبي عمرو الداني ص٧٣، الدرء ١/ ٢٦١.

(٤) انظر: الدرء ١/ ٢٦٥.

(٥) هو الإمام المتقن: أبو الحسن محمد بن عبد الملك بن محمد الكرجي (بالجيم)، ولد سنة ٤٥٨هـ، أفنى عمره في جمع العلم ونشره، وانتسب للشافعي ولم يقلده، وكان على السنة والأثر، متبعا لمن غبر، زاجرا لأهل البدع والشر، وله مصنفات كثيرة منها: الفصول في اعتقاد الأئمة الفحول، وله قصيدة بائية في السنة، على طريقة أهل السنة، توفي سنة ٥٣٢هـ. انظر: الأنساب للسمعاني ٥/ ٤٧، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٣٧-١٤٧ وقد نسبه إلى التجسيم وما أنصف، وما ذاك من السبكي إلا تعصبا للأشعري، وردا للحق الجلي، وانظر: معجم المؤلفين ١٠/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩، وقد وقع تصحيف في المجموع ٣/ ٢٦٥، ١٢/ ٣٠٦ حيث كتب (الكرخي) بالخاء، والصواب (الكرجي) بالجيم كما في الدرء ٢/ ٩٥، ٩٧، والمجموع ٤/ ١٧٥، ١٨٦، والمصادر السابقة.

(٦) المجموع ١٢/ ٣٠٦.

٦ ـ قال أبو عبد الله محمد بن خفيف ﷺ: «والقول في اللفظ والملفوظ... بدعة»[١].

٧ ـ قال قوام السنة الأصبهاني ﷺ: «وأول من قال باللفظ، وقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، حسين الكرابيسي فبدَّعه أحمد بن حنبل، ووافقه على تبديعه علماء الأمصار»[٢].

فالإنكار عليه ـ مع شهرة الكرابيسي بالحديث ـ لكونه أحدث شيئا لم يُعرف الخوض فيه عن السلف؛ فردّا للبدعة، وطلبا للاستفصال، وسدا لباب الذرائع، كان من الأئمة هذا الإنكار.

الوجه الثاني: الإنكار لكون مسألة اللفظ فيها إجمال:

وقد سبق بيان وجه الإجمال، وأن التباسه شديد، فكره السلف الإطلاق فيها نفيا أو إجمالا فـ «أهل العلم كرهوا التنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا الخوض فيها والتنازع، إلا بما بينه الرسول ﷺ، ومن شدة اللبس في هذه المسألة، كثر نهي السلف عن الخوض فيها، واستغنوا باعتقاد: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يزيدوا على ذلك، وهو أسلم الأقوال، والله المستعان»[٣].

ومن نهي السلف عن الخوض فيها:

١ ـ قال الإمام أحمد ﷺ: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع»[٤]، وهذا النهي عن النفي والإثبات، يؤكد أن النهي كان للإجمال، فالأول أطلق القول ودخل في هذا الإطلاق المقروء الذي هو كلام الله تعالى وهو غير مخلوق، لذا عُدَّ قائله من الجهمية، والثاني: مبتدع، لكونه أطلق القول فدخل

---

(١) المجموع ٥/ ٧٨.

(٢) الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٧٠.

(٣) العين والأثر ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٤) صريح السنة ص ٢٦، شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٩٢، المجموع ١٢/ ٧٤، ٦/ ٥٢٧، الدرء ١/ ٢٦١، الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٨.

فيه فعله وحركاته، وصوته وهو مخلوق.

قال شيخ الإسلام ﷺ: «من قال: إن ألفاظنا، وتلاوتنا، وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضى كلامه أن الله لم يتكلم بالقرآن الذي أنزله، وأن القرآن المنزل ليس هو كلام الله... وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله تعالى، وإن كان مسموعا من المبلِّغ عنه، فإن الكلام قد سمع من المتكلم به كما سمع موسى بلا واسطة، وهذا سماع مطلق...، وقد يسمعه من المبلِّغ عنه فيكون مقيدا... كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦] كان معلوما عند جميع من خوطب بالقرآن أنه يسمع سماعا مقيدا من المبلِّغ ليس المراد به أنه يسمع من الله»[١].

وقال أيضا في شرح عبارة الإمام أحمد ﷺ: «اللفظ والتلاوة يراد به الملفوظ المتلو، وذلك هو كلام الله، فمن جعل أفعال العباد وأصواتهم غير مخلوقة، فهو مبتدع ضال»[٢].

٢ـ قال عبد الرحمن بن أبي حاتم سُئل أبو زرعة[٣] عن أفعال العباد؟ فقال: «مخلوقة، فقيل له: لفظنا بالقرآن من أفعالنا؟ قال: لا يقال هذا»[٤]؛ فهو ﷺ منع ذلك لكون اللفظ يشمل فعل العبد الذي هو حركته وصوته، ويشمل المقروء الذي هو كلام الله تعالى، مع اتفاقه على أن أفعال العباد مخلوقة، وأن القرآن غير مخلوق.

---

(١) المجموع ٧/ ٦٥٦، وانظر: الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٢.

(٢) المجموع ٦/ ٥٢٧، وانظر: المجموع ١٢/ ١٧٠.

(٣) هو الإمام الحافظ المحدث: أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ، طلب الحديث وهو حدَث، وجمع الشيء العظيم منه وحدَّث، وأصبح من كبار علماء الجرح والتعديل، وعلى أقواله في هذا الفن التعويل، قال الذهلي: «لا يزال المسلمون بخير ما أبقى الله لهم مثل أبي زرعة، يُعلِّم الناس، وما كان الله ليترك الأرض إلا وفيها مثل أبي زرعة، يعلم الناس ما جهلوه»، وهو صاحب أبي حاتم وزميله، وله كلمات سديدة في السنة، شديدة على أهل البدعة، توفي ﷺ سنة ٢٦٤هـ. انظر: الجرح والتعديل ١/ ٣٢٨-٣٤٩، السير ١٣/ ٦٥-٨٥، تقريب التهذيب ص ٣١٣.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٩٠.

٣ ـ سبق قول أبي ثور ﷺ حيث قال: « هذا مما يسعك جهله، والله لا يسألك ﷻ عن هذا، فلا تتكلموا فيه فإن من زعم أن كلامه بالقرآن مخلوق فقد وافق اللفظيين، لأنه إذا سمع منك القرآن فزعمت أنه لفظك، فقد زعمت أن القرآن مخلوق »[١].

الوجه الثالث: الإنكار لكون مسألة اللفظ ذريعة إلى القول بخلق القرآن:

يكره تجريد الكلام عن واسطته التي بها يرى أو يقرأ أو يسمع لئلا يتذرع بذلك إلى القول بخلق القرآن، ومن الناس من تكلم بإثبات أو نفي، والذين في قلوبهم زيغ من أهل الأهواء لا يفهمون من كلام الله، وكلام رسوله، وكلام السابقين الأولين، والتابعين لهم بإحسان في باب صفات الله إلا ما في أذهانهم، ثم يريدون تحريف الكلم عن مواضعه، أو زادوا في الألفاظ وغيروها، بل يبتدعون ألفاظا حتى توافق مذهبهم، ومن ذلك مسألة اللفظ الذي تذرعوا به إلى القول بخلق القرآن، ولذا منع الأئمة الأثبات هذا اللفظ المبتدع الذي لم يرد في السمعيات[٢].

١ ـ قال الإمام أحمد ﷺ ـ وقد سُئل عن اللفظية، ومن قال باللفظ ـ: « هذا يجانَب، وهو قول مبتدع، وهذا كلام الجهمية، ليس القرآن بمخلوق »[٣]، وقال: « هم جهمية، وهم أشد ممن يقف، هذا قول جهم »[٤]، وقال: « كل من يقصد إلى القرآن بلفظ، أو غير ذلك، يريد به مخلوق، فهو جهمي »[٥].

وقوله: (يريد به مخلوق) احتراز منه ﷺ عمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وهو يريد فعل العبد القائم به الذي هو الحركة والصوت، لا كلام الله تعالى الملفوظ المكتوب، فمن قال هذا على هذا التفصيل فقوله حق، لكن إطلاقه غير جائز[٦].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٩٣.
(٢) انظر: المجموع ٣٣/ ١٧٠.
(٣) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة ص ٣٥(١٦٩)، وانظر: السنة للخلال ٧/ ٧٣.
(٤) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة ص ٣٥(١٧٠)، وانظر: السنة للخلال ٧/ ٧٣.
(٥) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة ص ٣٦(١٧٣)، وانظر: السنة للخلال ٧/ ٧٤، ٨٢.
(٦) انظر: المجموع ١٢/ ٥٦٧-٥٦٨.

٢ ـ قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ النيسابوري رحمه الله(١)، وقد سئل عمن يقول: لفظي بالقرآن مخلوق؟ «قال: هذا كلام جهم، من كان يخاصم منهم فلا يجالس، ولا يكلم، والجهمي كافر»(٢)؛ **فالجهمية تذرعوا باللفظ** ليصلوا إلى مقصودهم الخبيث، وهو القول بخلق القرآن، لذا اشتد نكير العلماء على اللفظية، وسأستوفي ذكر مذهب اللفظية المبتدعة في الباب الثاني، وأما هنا فأكتفي بما ذكرت، وفي الإشارة عبارة، وفي ذكر ما مضى كفاية، والله المستعان.

والخائضون في هذه المسألة حصل منهم خلط، حتى نسب كل منهم مذهبه إلى إمام من أئمة السلف، خصوصا الإمام أحمد، والإمام البخاري، وإيضاحا لبراءتهم أرى لزاما علي بيان منهجهم في هذه المسألة، وهذا ما سأبينه في المسألة الثانية، ومن الله التوفيق.

المسألة الثانية: الجمع بين أقوال الأئمة، وتوضيح مقاصدهم:

كل من أنكر الخوض في مسألة اللفظ من السلف الذين ظهر في عهدهم هذه المقالة إنما كان ذلك باعتبار، ولذلك اختلفت ألفاظهم قوة وشدة، مع اتفاق الجميع أنها بدعة محدثة، وأنها مطية للجهمية كما سبق أن أشرت إليها(٣).

والبدع المحدثات ترد مطلقا، وهكذا كان شأن السلف في هذه المسألة رحمهم الله، فكل من بالغ في الإنكار وشدد، فلأجل كونها ذريعة إلى قول جهم والجعد، وكل من فرق وفصل فلأجل كونها من المجملات، ولابد فيها من التفصيل وذكر البينات، وكل من بيَّن موقفه فلأجل كون البدعة إذا ظهرت، فلا بد فيها من قول جلي، وطريق سوي، ولا يسعهم السكوت ـ خصوصا ـ بعد ظهور القول وفشوه بين الناس.

---

(١) هو الفقيه: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن هانئ النيسابوري، ولد سنة ٢١٨هـ، ولزم الإمام أحمد وخدمه وتفقه به، وكان من العلماء العاملين، له عن الإمام أحمد سؤالات، ومنها قال: «سمعت أبا عبد الله يُسأل عن الذي يشتم معاوية نصلي خلفه ؟ قال: لا، ولا كرامة»، مات ببغداد سنة ٢٧٥هـ. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ١٠٢، السير ١٣/ ١٩-٢٠، رفع النقاب عن تراجم الأصحاب لإبراهيم ابن ضويان ص ٧٦.

(٢) مسائل ابن هانئ ٢/ ١٥٤.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٢٥٧.

ويتضح هذا من وجهين:

الأول: أقوال الإمام أحمد في مسألة اللفظ، وأنه لا تضارب بينها:

ورد عن الإمام رحمه الله أقوال في رد مقالة اللفظ، لكونها محدثة، ولكونها مجملة، ولكونها ذريعة للجهمية، ومطية لهم، وعلى هذا يحمل كلام الإمام أحمد رحمه الله، قال الإمام أبو عثمان الصابوني رحمه الله: « وأما ما حكاه محمد ابن جرير عن أحمد رحمه الله أن من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، فإنما أراد به أن السلف الصالحين من أهل السنة لم يتكلموا في باب اللفظ، ولم يُحوجهم الحال إليه، وإنما حدث الكلام في اللفظ من أهل التعمق... فقال الإمام أحمد: هذا القولُ في نفسه بدعةٌ، ومن حق المتدين أن يدعه، وكل بدعة مبتدعة، ولا يتفوه به، ولا بمثله من البدع المبتدعة، ويقتصر على ما قاله السلف من الأئمة المتبعة: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يزيد عليه إلا تكفير من يقول بخلقه »[١].

وأنكر الإمام رحمه الله الإطلاق في هذه المسألة نفيا وإثباتا:

ومن ذلك ما قاله أبو بكر المروذي رحمه الله[٢] « قال لي أبو عبد الله: قد غيض قلبي على ابن شداد؟[٣]، قلت: أي شيء حكى عنك؟، قال: حكى عني في اللفظ، فبلغ ابن شداد أن أبا عبد الله قد أنكر عليه، فجاءنا حمويه بن شداد بالرقعة فيها مسائل، فأدخلتها على أبي عبد الله، فنظر فرأى فيها: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق ـ مع مسائل فيها ـ فقال أبو عبد الله: فيها كلام ما تكلمت به، فقام من الدهليز فدخل، فأخرج المحبرة والقلم، وضرب أبو عبد الله على موضع: لفظي بالقرآن غير مخلوق، وقال: ما سمعت أحدا تكلم في هذا بشيء، وأنكر على من قال: لفظي

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص٣٤-٣٥ (١٧).

(٢) هو الإمام الفقيه المحدث: أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المَرُّوْذِي، صاحب الإمام أحمد، وأجل أصحابه، وكان إماما في السنة، شديد الإتباع ـ قال أبو بكر بن صدقة: « ما علمت أحدا أذب عن دين الله من المروذي »ـ زاهدا نقيا ورعا، روى عن الإمام مسائل كثيرة، توفي سنة ٢٧٥هـ. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٥٧ ـ ٦٢، تاريخ بغداد ٤/ ٤٢٣ ـ ٤٢٥، السير ١٣/ ١٧٦.

(٣) هو: حمدويه بن شداد، نقل عن الإمام أحمد أشياء، وهو من أصحابه. انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى١/ ١٤٢.

بالقرآن غير مخلوق»[(١)].

ومن ذلك إنكاره رحمه الله على أبي طالب[(٢)] كما رواه صالح بن أحمد[(٣)]، قال صالح: «تناهى إليَّ أن أبا طالب يحكي عن أبي أنه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فأخبرت أبي بذلك، فقال: من أخبرك؟ قلت: فلان، قال: ابعث إليّ أبا طالب، فجئت إليه، فجاء وجاء فوران[(٤)]، فقال له أبي: أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وغضب، وجعل يرعد، فقال له: قرأت عليك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[(٥)]، فقلت لي: هذا ليس بمخلوق! قال له: لم حكيت عني أني قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك وضعت ذلك في كتابك، وكتبت به إلى قوم؟ فإن كان في كتابك فامحه أشد المحو، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم أني لم أقل لك هذا، وغضب، وأقبل عليه، فقال: تحكي عني ما لم أقل لك؟ فجعل فوران يعتذر إليه، وانصرف من عنده، وهو مرعوب، فعاد أبو طالب فذكر أنه قد محا ذلك من كتابه، وأنه كتب إلى القوم يخبرهم أنه وَهِم على أبي عبد الله في الحكاية»[(٦)].

---

(١) رواه الخلال في السنة ٧/ ٩٩-١٠٠، وانظر: المجموع ١٢/ ٤٢٤-٤٢٥.

(٢) هو: أبو طالب أحمد بن حميد المشكاني، مخصوص بصحبة أحمد، مكرما معظما عنده، وكان صالحا صابرا، وروى عنه مسائل، توفي سنة ٢٤٤هـ. انظر: طبقات الحنابلة ١/ ٤٠، تاريخ بغداد ٤/ ١٢٣، رفع النقاب ص٦٤.

(٣) هو الحافظ الفقيه: أبو الفضل صالح بن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ولد سنة ٢٠٣هـ، وهو أكبر إخوته، وتفقه على أبيه، وسمع الحديث منه، تولي القضاء بطرسوس ثم بأصبهان، وكان صالحا سخيا، مع كثرة عياله، روى عن أبيه الشيء الكثير، وتوفي بأصبهان سنة ٢٦٦هـ. انظر: الجرح والتعديل ٤/ ٣٩٤، طبقات الحنابلة ١/ ١٦٥-١٦٧، السير ١٢/ ٥٢٩-٥٣٠.

(٤) هو: أبو محمد عبد الله بن محمد بن المهاجر، الملقب بفوران (بالراء المهملة)، قال الدارقطني: «فوران نبيل جليل، كان أحمد يجله»، وكان يأنس به، ويقترض منه، له روايات قليلة عن الإمام أحمد، توفي سنة ٢٥٦هـ. انظر: طبقات الحنابلة ١/ ١٨٧-١٨٨ وقد وقع في اللقب تصحيف حيث كتب (بالراء المعجمة) والصواب ما أثبته كما في باقي المراجع، وهو كذلك في رواية الخلال في السنة، وانظر: تاريخ بغداد ١٠/ ٧٩، هداية الأريب الأمجد لمعرفة أصحاب الرواية عن أحمد للشيخ سليمان بن حمدان ص ١٥٨-١٥٩.

(٥) أي قرأ عليه سورة الإخلاص ١-٤.

(٦) رواه الخلال في السنة ٧/ ٩٥-٩٦، وانظر: المجموع ٧/ ٦٥٩، ٨/ ٤٠٧، ١٢/ ٤٢٣-٤٢٤، ١٦٨.

وفي رواية المروذي: «قال أبو عبد الله: القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف، فقيل لأبي طالب: اخرج وأخبر أن أبا عبد الله قد نهى أن يقال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فخرج أبو طالب فلقي جماعة من المحدِّثين، فأخبرهم أن أبا عبد الله نهاه أن يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق»(١).

وقد سبق إنكار الإمام ﷺ على النافي والمثبت لهذه اللفظة، كما في قوله: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع».

ولما كان الإمام ﷺ قد ابتلي بالجهمية القائلين بخلق القرآن كان أكثر كلامه وإنكاره عليهم، لأنهم قالوا باللفظ لقصد باطل(٢) وإلا فإن النقول عنه جلية، في رد هذه المقولة البدعية، سواء كان نفيا أو إثباتا، كما قال الإمام البخاري ﷺ: «فأما ما احتج به الفريقان ـ القائلون: بأن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، والقائلون: بأنها غير مخلوقة ـ من مذهب أحمد، ويدعيه كل لنفسه، فليس بثابت كثير من أخبارهم، وربما لم يفهموا دقة مذهبه، بل المعروف عن أحمد وأهل العلم: أن كلام الله غير مخلوق، وما سواه مخلوق، وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا أهل الكلام»(٣).

ودقة كلام الإمام أحمد يوضحه شيخ الإسلام ﷺ بقوله: «ولم يقل أحمد قط، من قال: إن صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، وإنما قال: من قال: لفظي بالقرآن، والفرق بين لفظ الكلام، وصوت المبلِّغ له فرق واضح، فكل من بلَّغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فإنما بلغ لفظ ذلك الغير، لا لفظ نفسه، وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير.

ونفس اللفظ والتلاوة، والقراءة والكتابة، ونحو ذلك، لما كان يُراد به المصدر الذي هو حركات العباد، وما يحدث عنها من أصواتهم، وشكل مدادهم، ويُراد به نفس الكلام الذي يقرؤه التالي، ويتلوه ويلفظ به، ويكتبه، منع أحمد وغيره من إطلاق

---

(١) رواه الخلال في السنة ٧/ ٩٤، وانظر: المجموع ١٢/ ٣٦١.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٠٦.

(٣) خلق أفعال العباد ص ٧٠، وانظر: المجموع ٧/ ٦٥٨-٦٥٩، ١٢/ ٢٠٩.

النفي والإثبات، الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقة، أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوقة... ومن لم يهتد إلى هذا الفرق يَحار »(١).

وقال أيضا: « وأما أصوات العباد، ومداد المصاحف، فلم يتوقف أحد من السلف في أن ذلك مخلوق، وقد نص أحمد وغيره على أن صوتَ القاري، صوتُ العبدِ...، وقال أحمد: من قال لفظي بالقرآن مخلوق ـ يريد به القرآن ـ فهو جهمي »(٢).

فتبين مما سبق أن إنكار الإمام أحمد رحمه الله موَجّه إلى اللفظية المثبتة والنافية، لما في ذلك من الإجمال.

وانتساب الطائفتين: المثبتة والنافية على اختلاف أقوالهم فيه نظر، بينه الإمام البخاري رحمه الله، بأن كلتا الطائفتين لم تفهم قول الإمام أحمد.

وانتساب اللفظية النافية إليه أبعد، وذلك لكونه كان سدا منيعا على الجهمية اللفظية القائلين بأن: لفظي بالقرآن مخلوق، والروايات في ذلك عنه أكثر وأشهر وأَسَدُّ.

وأما انتساب اللفظية المثبتة إليه فهو الذي كان بسببه بعض التنازع بين أصحابه، والحق الكف عن المسألة، أو القول بالتفصيل، قال شيخ الإسلام رحمه الله: « والقول بأن: اللفظ غير مخلوق، نسب إلى محمد بن يحيى الذهلي(٣) وأبي حاتم

---

(١) المجموع ١٢/ ٧٤-٧٥.

(٢) المجموع ١٢/ ٥٦٧-٥٦٨، وانظر: ١٢/ ٧٤، ١٧٩.

(٣) هو العلامة الحافظ الإمام: أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله بن خالد بن فارس الذهلي مولاهم، إمام أهل الحديث بخراسان، كانت له جلالة عظيمة بنيسابور كجلالة أحمد في بغداد، روى عن الأئمة، وروى عنه الأئمة، متمسك بما ورد، مُنكِرٌ على المحدَثين بما لم يرد، قال أبو حاتم: « هو إمام أهل زمانه »، توفي سنة ٢٥٨هـ، وأما ما نسب إلى الذهلي ـ فإنه لم يكن يقول ذلك: أعنى لفظي بالقرآن غير مخلوق، ولكنه كان يقول كالإمام أحمد كما نقل ذلك عنه الذهبي بإسناده: « القرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته، وحيث تصرف، ولا نرى الكلام فيما أحدثوا فتكلموا في الأصوات، والأقلام، والحبر والورق، وما أحدثوا من المَتْلِيّ والـمُتْلَى والمقري، فكل هذا عندنا بدعة، ومن زعم أن القرآن محدث، فهو عندنا جهمي، لا يُشك فيه، ولا يُمترى »، وبهذا يتبين أنه منع القول باللفظ لكونه بدعة، ولم ير التفصيل، لكن النقلة زادوا عليه ـ والله أعلم ـ. انظر: الجرح والتعديل ٨/ ١٢٥، شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٨٨، طبقات الحنابلة ١/ ٣٠٢، السير ١٢/ ٢٧٣-٢٩٤.

الرازي[١]... وبعد موت أحمد، وقع بين بعض أصحابه وبعضهم، وبين طوائف من غيرهم بهذا السبب...، فلما ولي صالح بن أحمد قضاء الثغر، طلب منه أبو بكر المروذي: أن يظهر لأهل الثغر "مسألة أبي طالب"، ـ فإنه قد شهدها صالح وعبد الله[٢] ابنا أحمد، والمروذي، وفوران، وغيرهم ـ وصنف المروذي كتابا في الإنكار على من قال: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق، وأرسل في ذلك إلى العلماء بمكة والمدينة، والكوفة والبصرة، وخراسان، وغيرهم، فوافقوه، ومع هذا فطوائف من المنتسبين إلى السنة، وإلى اتباع أحمد... يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، ويقولون: هذا قول أحمد... وليس الأمر كما قاله هؤلاء، فإن أعلم الناس بأحمد، وأخص الناس، وأصدق الناس في النقل عنه، هم الذين رووا ذلك عنه، ولكن أهل خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد ما لأهل العراق الذين هم أخص به»[٣]، فالطوائف المنتسبة إلى الإمام أحمد في مسألة اللفظ، لم تفهم دقة كلام الإمام، ومرامه في ذلك، نفيا أو إثباتا، والمحققون من أهل العلم من المنتسبين إلى السنة، وإلى الإمام أحمد فهموا المراد من ذلك، فوقفوا عن هذه المسألة المبتدَعة، ونَهوا الناس عنها، أو الخوض فيها إلا بالتفصيل الذي يشفي ويكفي، ومن أبرز هؤلاء: صالح وعبد الله ابنا الإمام أحمد، والمروذي، وفوران، وابن شداد، وأبو طالب، والبخاري، وابن جرير... وشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرهم رحمهم الله، فإنهم جميعا وضحوا المراد من نهي الإمام أحمد نفيا أو إثباتا، وأنه للإجمال، وكونها ذريعة للجهمية، وأيضا لا

---

(١) سبقت ترجمته، وأما ما نسب إليه فإنه ـ والله تعالى أعلم ـ أيضا من قبيل ما نسب إلى الذهلي، فإنه قد ورد عنه تبديع اللفظية المثبتة، كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٨٩، وهذا لا يدل على أنه يقول بأن لفظه بالقرآن غير مخلوق.

(٢) هو الحافظ الناقد: أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ولد سنة ٢١٣هـ، روى عن أبيه العلم، فروى المسند والزهد وفيهما علم جم، وشيوخ خلق لا يحصون، وروى عنه خلق لا يعدون، وله مصنفات منها: الرد على الجهمية، والسنة، مات سنة ٢٩٠هـ. انظر: الجرح والتعديل ٥/ ٧، تاريخ بغداد ٩/ ٣٧٥-٣٧٦، طبقات الحنابلة ١/ ١٧٤-١٨١.

(٣) المجموع ١٢/ ٢٠٧-٢٠٨.

يتبادر عند الإطلاق إلا الملفوظ «فإن المسلمين إذا قالوا: هذا القرآن كلام الله، لم يريدوا بذلك أن أصوات القارئين، وحركاتهم قائمة بذات الله،كما أنهم إذا قالوا:هذا الحديث حديث رسول الله ﷺ لم يريدوا بذلك أن حركات المحدث،وصوته قامت بذات رسول الله ﷺ»[١].

فهذا الذي ثبت عن أبي عبد الله في اللفظ..بَدَّع الذين يقولون باللفظ نفيا أو إثباتا[٢]، وبهذا يتضح أن الإمام أحمد بريء ممن انتسب إليه في مسألة اللفظ، وأن قوله المنع من الإطلاق، وعدم الخوض في كلام الخلاق، إلا بما ورد في نصوص الكتاب والسنة.

الثاني: الغلط على الإمام البخاري رحمه الله، والاعتذار للأئمة:

البخاري هو من هو في جلالة قدره، وعلو شأنه، ورفيع منـزلته، وله في قلوب المسلمين مكانة، وذلك لما اقترن اسمه بأحاديث رسول الله ﷺ كثيرا، واتفق العلماء على أن ما في صحيحه قد جاوز القنطرة، وكان الإمام متبعا للأثر، ينهى عن البدع ويزجر، ووقع من بعض أقرانه له نوع حسد، فأشاعوا عنه أنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق، قال محمد بن شادل[٣]: «لما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري، دخلت على البخاري فقلت: يا أبا عبد الله أَيْشٍ الحيلة لنا فيما بينك وبين محمد بن يحيى، كل من يختلف إليك يُطرد؟؛ فقال: كم يعتري محمد بن يحيى الحسدُ في العلم؟ والعلمُ رزق الله يعطيه من يشاء؛ فقلت: هذه المسألة التي تُحكى عنك؟ قال: يا بني هذه مسألة مشؤومة، رأيت أحمد بن حنبل وما ناله في هذه المسألة[٤]؟ وجعلت نفسي

---

(١) الدرء ١/ ٢٥٩، وانظر: المجموع ١٢/ ٢٨١-٢٨٢.

(٢) السنة للخلال ٧/ ١٠٤.

(٣) هو المحدث المقري: أبو العباس محمد بن شادَل بن علي الهاشمي مولاهم النيسابوري، حدَّث عن خلق كُثُر، وعنه كذلك، وكان يقرئ، وفَقَد بصره قبل موته بعشرين سنة، توفي سنة ٣١١هـ. انظر: السير ١٤/ ٢٦٣-٢٦٤، شذرات الذهب ٢/ ٢٦٣.

(٤) لعله يقصد انتساب اللفظيين النافين إليه، ثم إنكار الإمام أحمد عليهم، كما حصل مع أبي طالب، وابن شداد.

أن لا أتكلم فيها»[١].

فالإمام البخاري رحمه الله تكلم في هذه المسألة بالتفصيل وفرق بين القراءة وهي فعل العبد عنده فإنها مخلوقة، وبين المقروء وهو المتلو عنده، فالأول بإجماع أهل العلم مخلوقة، والثاني بإجماع أهل العلم كلام الله غير مخلوق، ثم الرواية المذكورة تبين لنا أن الإمام البخاري جعل على نفسه أنه لا يتكلم في مسألة اللفظ، لما فيه من الإجمال، وهذا الذي سبب الخلاف، فأصبح قوله أخيرا كقول الإمام أحمد رحمهم الله وهو السكوت عن هذه الألفاظ المبتدعة وردها، والوقوف بما ورد عن السلف.

وقول البخاري رحمه الله في الفرق بين اللفظ الذي يراد به الفعل، وبين الملفوظ الذي هو المتلو هو المتعين، خصوصا عند اضطراب الناس، ووافقه على هذا التفريق أئمة فضلاء، وعلماء أجلاء، فالتفريق بين الفعل والمفعول واضح بين، ولكن التلفظ بها على وجه اللفظ والملفوظ هو الذي فيه الإجمال، وكان الأولى تركه، والتعبير عنه بما هو أدل وأبين أولى، وبما هو نص في الموضوع أجلى، بخلاف الألفاظ المجملة.

قال البخاري رحمه الله ـ بعد قول يحيى بن سعيد[٢] ـ: «ما زلت أسمع من أصحابنا، يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة، قال أبو عبد الله: حركاتهم وأصواتهم، واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين، المثبت في المصحف، المسطور المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله ليس بخلق»[٣].

وهذه ألفاظ صريحة، وعنه ثابتة صحيحة، تدل على أن اعتقاده واعتقاد الإمام أحمد رحمهما الله في القرآن واحد، وأن الجميع يرون أن أفعال العباد مخلوقة، وأن كلام

---

(١) السير ١٢/ ٤٥٦، وانظر: المجموع ١٢/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٢) هو الإمام الحافظ الكبير: أبو سعيد يحيى بن سعيد بن فرُّوخ القطان التميمي مولاهم البصري، ولد سنة ١٢٠هـ، سمع من جمع من التابعين، وساد خِلانه المقارنين، وكان يحفظ بلا إملال، مع نقد في العلل والرجال، روى عنه جمع، قال فيه أحمد: «ما رأيت بعيني مثل يحيى بن سعيد القطان»، توفي سنة ١٩٨هـ. انظر: التاريخ لابن معين ٢/ ٦٤٥-٦٤٨، المعارف لابن قتيبة ص ٢٨٧، السير ٩/ ١٧٥-١٨٨.

(٣) خلق أفعال العباد ص ٤٢.

رب العباد لا يكون مخلوقا[(١)] .

وهناك معنى آخر من أجله أنكر الإمام البخاري على القائلين بعدم التفريق بين التلاوة والمتلو، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فصار طائفة منهم - أي: من أهل الحديث - يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، ومرادهم: أن القرآن المسموع غير مخلوق، وليس مرادهم صوت العبد، كما يذكر عن أبي حاتم الرازي، ومحمد بن داود المصيصي[(٢)] ، وطوائف غير هؤلاء، وفي أتباع هؤلاء من قد يدخل صوت العبد أو فعله في ذلك، أو يقف فيه، ففهم ذلك بعض الأئمة، فصار يقول: أفعال العباد أصواتهم مخلوقة، ردا لهؤلاء، كما فعل البخاري، ومحمد بن نصر المروزي، وغيرهما من أهل العلم والسنة»[(٣)]؛ فـ «ظن بعضهم: أن البخاري خالف أحمد، وليس كذلك، بل من تدبر كلامه لم يجد فيه خلافا معنويا»[(٤)] .

قال ابن قتيبة في مسألة اللفظ: «وليس ما اختلفوا فيه مما يقطع الألفة، ولا مما يوجب الوحشة، لأنهم مجمعون على أصل واحد، وهو: القرآن كلام الله غير مخلوق، في كل موضع، وبكل جهة، وعلى كل حال»[(٥)] .

وأما أن الإمام البخاري رحمه الله قال: إن لفظي بالقرآن مخلوق، وانتساب اللفظية النافية إليه فباطل، وذلك أنه لم يثبت عنه إلا التفريق بين فعل العبد المخلوق، وكلام الرب عز وجل، ولم يقل يوما: إن لفظي بالقرآن مخلوق، فقد « ثبت عنه بالإسناد المرضي أنه قال: من قال عني أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فقد كذب»[(٦)] .

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٣٦٩.

(٢) هو الثقة الفاضل: أبو جعفر محمد بن داود بن صبيح المصيصي، من خواص الإمام أحمد، وله عنه مسائل كثيرة، يوازي مسائل الأثرم. انظر: طبقات الحنابلة ١/ ٢٧٤-٢٧٥، تقريب التهذيب ص٤١٣، رفع النقاب ص١٠٨.

(٣) الدرء ١/ ٢٦٢، وانظر: الفتح ١٣/ ٥٠١.

(٤) الفتح ١٣/ ٥٠١، وانظر منه ١٢/ ٢٦٥.

(٥) الاختلاف في اللفظ ص ٥٧.

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٩٦، تاريخ بغداد ٢/ ٣٢، وانظر: المجموع ١٢/ ٥٧٢.

وقال أيضا: « من زعم من أهل نيسابور[١]، وقومس[٢]، والري[٣]، وهمذان[٤]، وحلوان[٥]، وبغداد، والكوفة، والمدينة، ومكة، والبصرة، أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقل هذه المقالة، إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة »[٦].

وقال أيضا: « إني أقول كما قال الله: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾[الطور:١-٢] أقول: في المصاحف قرآن، وفي صدور الرجال قرآن، فمن قال غير هذا يستتاب، فإن تاب وإلا فسبيله سبيل الكفر »[٧].

وبعد هذا ليس لمنتسب إليه في هذه المقالة حجة، ولا لقوله بينة، فالإمام البخاري رحمه الله إنما أراد التفريق بين فعل العبد المخلوق، وكلام الرب الخالق، ولم يرد نفي لفظ القرآن، أو أنه ليس له لفظ، أو... من هذه المعاني الباطلة التي ذهب إليها أهل الأهواء والبدع.

ويعتذر للأئمة لما جرى بينهم بسبب الوشاة، والنقلة غير الضابطين، وأنهم خاضوا البحر الخضم، وتكلموا في هذه المسألة بهذا الكم، بأنهم أرادوا الخير، وقصد السبيل، وبيان الدليل « فلما وقعت الحيرة، ونزلت هذه البلية، فزع الناس إلى علمائهم، وذوي رأيهم، فاختلفوا عليهم: **فقال فريق منهم:** القراءة فعل محض، وهي مخلوقة

---

(١) نيسابور هي: إحدى مدن خراسان سابقا، وفتح في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، وكانت مدينة للعلم وتخرج منها العلماء، وقد دمرها التتار. انظر: الأنساب للسمعاني ٥/ ٥٥٠، معجم البلدان لياقوت الحموي ٥/ ٣٨٢.

(٢) قُومِس: بلدة من البلاد الفارسية، ويقال لها: كومش، وهي على طريق خراسان إذا توجه إليها العراقي. انظر: الأنساب للسمعاني ٤/ ٥٩٥، معجم البلدان لياقوت الحموي ٤/ ٤٧٠.

(٣) الرَّيّ: بلدة قريبة من نيسابور، تخرج منها علماء، وخربت أيام التتار،وهي الآن عاصمة إيران، وتسمى "طهران". انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/ ١٣٢. أطلس التاريخ العربي الإسلامي ص٣٩.

(٤) هَمَذان ـ بالتحريك و الذال ـ: بلدة فتحها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أيام خلافة عمر رضي الله عنه وهي الآن في الشمال الغربي من إيران. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٥/ ٤٧٣.أطلس التاريخ العربي الإسلامي ص٣٩.

(٥) حُلْوَان: هي بلدان عدة، فحلوان العراق، وحلوان أيضا قرية من أعمال مصر، والأول هو المراد هنا. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ٣٣٤.

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٩٦ـ٣٩٧.

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٣٩٥ـ٣٩٦، وتاريخ بغداد ٢/ ٣٢.

كسائر أفعال العباد، والقرآن غيرها... فاتبعهم في ذلك فريق، **وقالت فرقة**: ـ القراءة ـ هي القرآن بعينه، ومن قال: إن القراءة مخلوقة فقد قال بخلق القرآن، واتبعهم قوم، **وقالت فرقة**: هذه بدعة لم يتكلم الناس فيها، ولم يتكلفوها، ولا تعاطوها»[(١)].

فهذا اعتذار لطيف للأئمة، وبيان سبب خلافهم في المسألة، واعتذر شيخ الإسلام رحمه الله للأئمة بقول لطيف، ومعنى عفيف، فقال: «فالذين قالوا: التلاوة هي المتلو، من أهل العلم والسنة قصدوا: أن التلاوة هي القول، والكلام المقترن بالحركة، وهي الكلام المتلو، **وآخرون قالوا**: بل التلاوة غير المتلو، والقراءة غير المقروء، والذين قالوا ذلك من أهل السنة والحديث أرادوا بذلك: أن أفعال العباد ليست هي كلام الله، ولا أصوات العباد هي صوت الله، وهذا الذي قصده البخاري، وهو مقصد صحيح»[(٢)].

وقال أيضا في الاعتذار للبخاري ومخالفيه: «وإذا حسن قصدهم، واجتهد هو وهُم، أثابه الله وإياهم على حسن القصد، وإن كان قد وقع منه أو منهم بعض الغلط والخطأ فالله يغفر لهم كلهم»[(٣)].

فإذا علمنا موضع النـزاع تبين وجه الإنكار، وأن الخلاف لفظي خصوصا مع اتفاقهم في الأصول، ومنها: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو القرآن الموجود في المصاحف، والمكتوب في السطور، المحفوظ في القلوب، وهذا قد سبق بيانه.

وأيضا اتفقوا أن القرآن هو المنـزل على محمد ﷺ، وهذا ما سأبينه في الفصل التالي.

---

(١) الاختلاف في اللفظ ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) الدرء ١/ ٢٦٤، وانظر: الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٨.

(٣) المجموع ١٢/ ٢٠٨، وانظر: ١٢/ ٣٣٤.

الفصل الثاني

بيان أن القرآن الكريم منزل على محمد ﷺ

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: وجوب الإيمان بنزول القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ وفيه مطلبان.

المبحث الثاني: نزول القرآن، وفيه مطلبان.

المبحث الثالث: معنى إنزال الله القرآن عند السلف، وفيه مطلبان.

المبحث الأول

وجوب الإيمان بنزول القرآن الكريم

على نبينا محمد ﷺ

المطلب الأول: وجوب الإيمان بنزول القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ.

القرآن الكريم كلام الله عز وجل منزل على محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، والقرآن المنزل هو اللفظ والمعنى، ليس اللفظ دون المعنى، ولا المعنى دون اللفظ، وقد بلغه النبي ﷺ إلى أمته(١).

وثبت بالنقل المتواتر المعلوم من الدين بالضرورة للموافق والمخالف أن محمدا ﷺ كان يبلغ هذا القرآن، ويقول: إنه كلام الله، وكان يفرق بين القرآن، وبين ما يتكلم به من السنة(٢).

وبين ﷺ الدينَ البلاغَ المبين فلم يكتم آية، ولم ينقص شيئا من الدين، بل بلغ الدين كله، ومن ذلكم القرآن الكريم الموجود بين الدفتين(٣).

وهذا القرآن الذي أنزل عليه، وعلمه أمته، لم يُحَصِّلْهُ هو بعلم تعلمه، ولا بجهد بذله، بل لم يتعلم القراءة والكتابة أصلا، فقد كان ﷺ أميا، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

---

(١) انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٣٣٦، دقائق التفسير ٢/ ١٩٣، والمراد أن لهذا القرآن المنزل معنى، فالقرآن ليس لفظا وحروفا لا معاني لها، ولا معاني من دون حروف، بل هو حرف ومعنى.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ١٨، ٢٠.

(٣) انظر: شرح الأصبهانية ص ٢٠٧.

ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[الأعراف:١٥٧].

ولم يتعلم عليه ﷺ من أحد من الخلق شيئا من الوحي، لا من كتابي، ولا من عجمي، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[النمل:١٠٣].

ولم يكن ﷺ حاكيا للقرآن، ولا معبرا له، بل هو مبلغ له عن الله ﷻ [١]، ولم يقل أحد من السلف أن النبي ﷺ سمع القرآن من الله ﷻ مباشرة بدون واسطة، **وإجماع السلف قائم على أنه ﷺ سمعه من جبريل** عليه السلام؛ قال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: «وإن القرآن كلام الله... أنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا»[٢]، قال ابن أبي العز في شرحه لهذه العبارة وما بعدها: «وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله، هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تُغَيَّر بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة»[٣].

وقال الموفق ابن قدامة رحمه الله: «فإن المسلمين أجمعوا على أن القرآن أنزل على محمد ﷺ...»[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها: أن النبي ﷺ سمع القرآن من جبريل»[٥].

فأُنزل القرآن على نبينا محمد ﷺ هاديا وبشيرا، ونذيرا للورى، و هو آيته الكبرى، ومعجزته العظمى، شاهدة له بالصدق، ومؤيدة له بالحق، آية باقية ما بقي الليل والنهار.

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٢٨٠.

(٢) العقيدة الطحاوية ص ٤٠، بشرح وتعليق الشيخ الألباني، وانظر: شرح العقيدة السفارينية لابن مانع ص ٧٦-٧٧.

(٣) شرح الطحاوية ١/ ١٧٢.

(٤) رسالة في القرآن وكلام الله لابن قدامة المقدسي ص ١٦١، ضمن مجلة البحوث الإسلامية العدد (٦١)، وانظر: عقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٣٠.

(٥) المجموع ٥/ ٢٣٣، وانظر: الفتح ١٣/ ٤٧١، وشرح الواسطية للشيخ ابن عثيمين ١/ ٤٣٥.

وقد دلت الأدلة الكثيرة على وجوب الإيمان بكون القرآن منـزّلا على محمد ﷺ، وهذه الأدلة هي التي أوردها في مسألتين:

المسألة الأولى: الأدلة الدالة على وجوب الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ.

وهذه الأدلة كثيرة فمنها:

١- قول الله ﷻ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٦]؛ فقوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ دليل على وجوب الإيمان بالمنـزل على نبي هذه الأمة، قال أبو جعفر الطبري: « يقول أيضا: صدقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبينا محمد ﷺ فأضاف الخطاب بالتنـزيل إليهم، إذ كانوا متبعيه ومأمورين منهيين به »[(١)]؛ فقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ يعني القرآن[(٢)]، ومثل الآية السابقة قوله تعالى[(٣)]: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران:٨٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:١٣٦]، والكتاب الذي نزل على رسوله محمد ﷺ هو القرآن[(٤)].

٣- قوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن ١/ ٦١٨.

(٢) معالم التنـزيل ١/ ١٥٦.

(٣) انظر: درة التنـزيل وغرة التأويل للإسكافي ص ١٩.

(٤) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٢٢٤، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٢/ ١٢٤.

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[البقرة:١٧٧] وقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[البقرة:٢٨٥]؛ فالمنزَّل إلى النبي ﷺ من ربه هو القرآن المشتمل على الأحكام وفصل الخطاب، والقرآن داخل أيضا في عموم ﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ و﴿ كُتُبِهِۦ ﴾ وهي الكتب المنـزلة المشتملة على الشرائع التي تعبد الله بها عباده؛ فالواجب على كل امرئ الإيمانُ بالكتب إيمانا مجملا، وبالقرآن على وجه الخصوص، من حيث كونه كلام الله تعالى غير مخلوق، وأنه منـزل على محمد ﷺ بواسطة جبريل ﷺ، وأنه مهيمن على الكتب السابقة، وأنه هو الموجود في مصاحف المسلمين[(١)]، وقال ﷺ : **[الإيمان؛ أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره]**[(٢)]؛ فالإيمان بالكتب من أركان الإيمان الستة المشهورة، والإيمان بالقرآن من أركان الإيمان بالكتب الخمسة المعروفة، وهي: صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن الكريم.

٤- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾[غافر:٦٩-٧٢]؛ فهذا فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن كذب بالكتاب الذي هو القرآن، ولم يؤمن بها فيه من الآيات والفرقان[(٣)].

هذه بعض الأدلة الدالة على وجوب الإيمان بالقرآن الكريم، وأن الله أنزله على محمد ﷺ وفي المسألة التالية مزيد بيان لجانب آخر من الأدلة.

---

(١) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن القنوجي ١/ ٤٧٤، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ١/ ٣٥٢.

(٢) رواه البخاري بنحوه: كتاب التفسير، باب/ قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾، ح(٤٧٧٧)، عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم بلفظه: كتاب الإيمان، باب/ بيان الإيمان والإسلام والإحسان..، ح(٨)، عن عمر ﷺ.

(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري١١/ ٧٧، وفتح القدير للشوكاني٤/ ٦٢٦.

المسألة الثانية: ذكر الأدلة الدالة على كون القرآن منزّلاً على محمد ﷺ.

ومن ذلك:

١- تلقى النبي ﷺ القرآن من الله عز وجل عن طريق الوحي، وهذا ما دل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩] وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[يوسف:٣] وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[الشورى:٧][(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه:١١٣-١١٤]، **ولما كان آية النبي العظمى القرآن الموحى إليه،** قال ﷺ: **[ما من نبي من الأنبياء، إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة]**[(٢)]؛ **فأعظم المعجزات وأشرفها وأبينها القرآن الكريم** المنـزل على نبينا محمد ﷺ، فالخوارق غالبا مغايرة للوحي المتلقى، لأن الخوارق شاهدة بصدق الوحي، والقرآن بنفسه الوحي وهو المعجز، فهو شاهد بعينه على نفسه لا يحتاج إلى شاهد يشهد عليه، فاتحد في القرآن الدليل والمدلول[(٣)]؛ **فالله تبارك وتعالى أرسل رسوله بالهدى،** وبالبراهين وأعظمها في القرآن الموحى، وهو من أعظم الوحي المنـزل على نبينا محمد ﷺ خير الورى.

---

(١) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ٢٧٢.

(٢) رواه البخاري؛ كتاب فضائل القرآن، باب/ كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ح(٤٩٨١)، ومسلم؛ كتاب الإيمان، باب/ وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، ح(١٥٢)، كلاهما عن أبي هريرة ﵁.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ص ١٦٥.

٢- كونه ﷺ أوتي الكتاب وهو هذا القرآن؛ قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٥-١٦]، قال الحافظ ابن جرير رحمه الله: « ﴿ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني كتابا فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله، وحرامه وحلاله، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ »[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف:٥٢] وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤١-٤٢] فالذكر هو الكتاب المنزل وهو القرآن الكريم، وقال: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾[الحجر:١] وقال: ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[النمل:١] **فالكتاب هو القرآن**، والقرآن هو الكتاب، اسمان لما أوحي إلى النبي ﷺ من كلام الرب ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[فصلت:١-٣] وقال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[العنكبوت:٤٥] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[فاطر:٣١] وقال: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:١-٢]، **وهذا الكتاب الذي أوتيه** ﷺ بين الله تبارك وتعالى أنه أنزله على نبيه محمد ﷺ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾[الكهف:١-٢] وقال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[إبراهيم:١] وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[السجدة:١-٢] وقال: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) جامع البيان للطبري ٤/ ٥٠٣، وانظر: معالم التنزيل للبغوي ٣/ ٣٣.

ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[الزمر:١-٢] وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص:٢٩] وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾[الزمر:٤١].

والآيات في كون الكتاب العزيز منزّلاً من الله تعالى على محمد ﷺ كثيرة جدا[١].

٣ ـ كونه ﷺ أوتي الآيات، وأعظمها القرآن[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[النور:٤١]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[الحج:١٦] وقال: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾[النور:٤٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[البقرة:٩٩]، وقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[يونس:١٥]؛ فهذا فيه أن البينات منزلة على محمد ﷺ ومنها القرآن[٣].

٤ ـ التصريح بنزول القرآن على محمد ﷺ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥] وقال: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة:٩٧] فالقرآن وحي من الله ﷻ نزل به جبريل ؑ على محمد ﷺ، فتلاه عليه فوعاه محمد ﷺ[٤]، **قال أبو يعلى** ؒ: « وكلام الله منزل على الحقيقة على قلب النبي ﷺ »[٥]، وقال الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ

(١) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ٢٧٢، الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة ص ٢٧٩.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ٦/ ٥٣٩-٥٤٠.

(٤) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٤٨٠، وفتح القدير للشوكاني ١/ ٦٤.

(٥) المعتمد في أصول الدين ص ٩٠، وانظر: فتاوى اللجنة الدائمة ٤/ ٢ رقم(٦١٣٧).

سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾[محمد:٢] والمنـزل على محمد ﷺ هو القرآن الكريم، والكتاب المبين، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[الكهف:١] والعبد هنا هو محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان:١] وقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[البقرة:٢٣] وكما قال: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم:١٠]، **وجاء التصريح بأن القرآن منـزل إليه ﷺ** في آيات كثيرة، منها؛ قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾[البقرة:٢٨٥] وقال تعالى: ﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[النساء:١٦٢] وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[المائدة:٦٧] وقال: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:١-٣][١].

٥ ـ **أن الرسول ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب؛ ثم لبث عمرا في قومه حتى** جاءه الوحي بالقرآن، فهذا دليل عظيم، وشاهد مهم أنه منـزل عليه، وأنه من الله لا من نفسه، ولا من غيره من الخلق[٢] قال الله ﷻ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾[يوسف:٣] أي كنت من قبل الوحي من الغافلين عن ذلك، لا تعلمه ولا شيئا منه[٣]، كما قال ﷻ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة ص ٢٧٦-٢٧٨، معارج القبول ٣٣٠-٣٣٢.
(٢) انظر: الصفدية ١/ ٩.
(٣) انظر: جامع البيان للطبري ٧/ ١٤٧، وبحر العلوم للسمرقندي ٢/ ١٤٩.

إِلَيْكَ﴾[القصص:٨٥-٨٧] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت:٤٧-٥١] وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥١- ٥٢] وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[هود:٤٩] قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يعني أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها... ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها»[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[يونس:١٥-١٦] **ويوضح هذه الآيات قول أبي سفيان** رضي الله عنه[2] لما سأله

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٤٩، وانظر: محاسن التأويل للقاسمي ٤/ ٣١٣.

(٢) الصحابي الجليل وصاحب الرأي والشرف: أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي، رأس قريش وقائدهم يوم أحد والخندق، أسلم قبل الفتح وحسن إسلامه، شهد الطائف وحنين واليرموك، وحديثه عن هرقل مشهور، ومن أبنائه يزيد ومعاوية رضي الله عنهما، توفي أبو سفيان بالمدينة وله نحوا من تسعين سنة =

هرقل[(١)]: «هل كنتم تتهمونه ـ أي محمدا ﷺ ـ بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيـان فقلت: لا! ـ وكان أبو سفيان إذ ذاك على الكفر، وزعيم المشركين ـ، فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[(٢)].

وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه[(٣)] للنجاشي[(٤)] ملك الحبشة: **[بعث الله فينا رسولا، نعرف صدقه ونسبه، وأمانته وعفافه]**[(٥)]، وقد بعث وأنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين[(٦)]، لا يعرف شيئا مما أنزل عليه، ولا يكتب ولا يقرأ، ولا يدرُسُ عليه السلام؛ فهذا دليل على أنه ﷺ لم يتقوله من عنده، ولا افتراه، وكونهم عاجزين عن معارضته أيضا دليل على أنه منزل، وأن الناس يعلمون صدقه ﷺ وأمانته منذ نشأ بينهم إلى حين بعثه الله عز وجل، لا ينتقدون عليه شيئا يغمصونه فيه، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[(٧)].

=

وصلى عليه عثمان رضي الله عنه. انظر: معجم الصحابة للبغوي ٣/ ٣٥٢-٣٦١، السير ٢/ ١٠٥-١٠٧، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ١٧٨-١٨٠.

(١) ملك الروم القيصر: واسمه هِرَقْل، ولقبه قيصر، خاف على مُلْكِه ونفسِه فلم يُسلِم، مع علمه بأن هذا الدين حق، وأن هذا الرسول حق. انظر: النهاية في غريب الحديث ٥/ ٢٦٠، الفتح ١/ ٤٤.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدأ الوحي، باب/ ...، ح(٧)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب/ كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، ح(١٧٧٣).

(٣) هو السيد الشهيد: أبو المساكين جعفر ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم رسول الله ﷺ، وأشبه الناس به ﷺ خَلقا وخُلقا، هاجر الهجرتين إلى الحبشة، وهاجر منها إلى المدينة، فوافى المسلمين وهم قافلون من خيبر، ومكث في المدينة أشهرا، ثم بعثه رسول الله ﷺ أميرا في غزوة مؤتة، فاستشهد سنة ٧هـ.انظر: معجم الصحابة للبغوي١/ ٤٣٤-٤٣٦، السير ١/ ٢٠٦-٢١٧ الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٤) ملك الحبشة: أصحمة بن أبحر النِجَّاشي، وأصحمة بالعربية معناه عطية، والنجاشي لقب لملك الحبشة، أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يهاجر فكان تابعيا، وكان ردءا للمسلمين في ملكه، ولما توفي النجاشي صلى عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه صلاة الغائب، قيل توفي سنة تسع وقيل قبل ذلك. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ١/ ١١٩-١٢٠، الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ١٠٩، النهاية في غريب الحديث لابن الجزري ٥/ ٢٢.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٩١، ح(٢٢٨٦٥).

(٦) انظر: صحيح الإمام البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب/ مبعث النبي ﷺ، ح(٣٨٥١).

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤١٠، وإظهار الحق لخليل الرحمن الهندي ٢/ ١٠٢.

٦ ـ **من أظهر الأدلة على كون القرآن منزلاً على محمد ﷺ، شهادة الله بذلك:** قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾[النساء:١٦٣] ثم قال بعدها: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:١٦٣-١٦٦]، **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله في هذه الآيات: « إثبات نبوته ﷺ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين، وأهل الكتاب، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾ أي وإن كفر به مَن كفر... فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ولهذا قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان...، وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ أي: تصدق ما جاءك وأوحي إليك، وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى لك بذلك »[(١)]. **فالله ﷻ وملائكته الكرام شهدوا** بأن هذا الكتاب، وهو المنزل الذي يقرؤه المسلمون، ويكتبونه في مصاحفهم، أنزله الله على محمد ﷺ[(٢)].

٧ ـ **ثبت بالنقل المتواتر**، المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف، أن محمدا ﷺ كان يقول: إن القرآن أنزل عليه، وإنّه كلام الله، ولم يدّع ذلك أحد، فلم يقل أحد غيره: إن القرآن أنزل عليه، فهذا دليل على أنه منزل عليه ﷺ، لا على غيره[(٣)]. **قال الموفق ابن قدامة** رحمه الله: « إن القرآن العظيم... المنزل على قلب سيد المرسلين، هو هذا الكتاب العزيز المبين، المكتوب في المصاحف... فمن اعتقد أنه هو القرآن فقد أصاب، وهُدي إلى الصراط المستقيم، واعتقد معتقد المسلمين، ومن زعم أن هذا الكتاب غير القرآن... وأن القرآن لا ينزل، ولا يقرأ، ولا يسمع، ولا يتلى...، فهذا زنديق رادّ على رب العالمين، وعلى رسوله الصادق الأمين، مخالف لجميع المسلمين، ناكب عن الطريق

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٨٩، وانظر: الفتح ١٣/ ٤٧١.

(٢) انظر: رسالة في القرآن وكلام الله للموفق ص ١٥٤ ـ ١٥٥، ضمن مجلة البحوث العدد ٦١.

(٣) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ١٨، شرح الأصبهانية ص ٥٠٢، ٦٣٧.

المستقيم»[١].

فالأدلة في هذا الباب كثيرة جدا، والقرآن كله من الفاتحة إلى الخاتمة شاهد بأنه كلام الله منزلاً على محمد ﷺ، هذا معتقد أهل السنة والجماعة يشهدون بما شهد به الله ﷻ من كون القرآن أنزل بعلمه ﷻ على نبيه محمد ﷺ[٢].

ويتبين كون القرآن منزلاً أكثر إذا عرفنا كيف كان يأتيه ﷺ الوحيُ بالقرآن، وهذا ما أبينه في المطلب الثاني.

---

(١) رسالة في القرآن وكلام الله للموفق ص١٥٢-١٥٥.

(٢) انظر الآيات الدالة على نزول القرآن على محمد ﷺ في كتاب الحجة في بيان المحجة ص٢٧١-٢٨٠ ومعارج القبول ١/ ٣٢٩-٣٣٣.

المطلب الثاني: كيف كان النبي ﷺ يتلقى الوحيَ بالقرآن.

أجمع علماء السلف ومتبعوهم من الخلف أن النبي ﷺ أخذ القرآن من جبريل عليه السلام عن طريق الوحي، وأنه ﷺ سمع القرآن بواسطته في اليقظة لا مناما، ولا إلهاماً(١).

كما أجمعوا أن محمدا ﷺ لم يتقوله من عنده نظما كقول الشعراء، أو نثرا كقول البلغاء، ولم يقله تخمينا كقول السفهاء، ولا ظنا كقول الكهان والبلهاء، وإنما تلقى القرآن لفظا ومعنى من الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[الحاقة:٤٠-٤٣]، فهذا فيه دليل أن القرآن ليس بقول شاعر، وليس بقول كاهن، بل هو كلام الله جل جلاله، منزل منه تعالى، ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقال بعدها: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[الحاقة:٤٤-٤٨] فهذا القرآن هو كلامه تعالى، وأُضيف إلى محمد ﷺ باعتبار البلاغ والأداء، ولم يكن لمحمد ﷺ، ولا لغيره أن يتقول هذا القرآن، ولا يستطيعونه،(٢) قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥] وقال بعدها: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[الشعراء:٢١٠-٢١٢] وقال بعدها بآيات: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ۝ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء:٢٢١-٢٢٦].

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٢٧١، وانظر: المطلب الأول من هذا المبحث.

(٢) انظر: المجموع ٢/ ١٣٧.

ونفى الله ﷻ عن نبيه ﷺ الجنونَ، وبين أنه إنما يتلقاه من جبريل ﵇، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير:٢٢-٢٧] «فأضاف الرسول البشري إلينا، وسلب عنه الجنون، وأثبت له ﷺ رؤية جبرائيل، ونفى عنه البخل والتهمة»(١) وأعاد القول في أن يكون القرآن قول أحد غير الله ﷻ، لا شيطانٍ ولا غيره، بل هو ذكر من الله لعباده، كما هو نص الآيات السابقة.

وصفة الوحي إلى نبينا ﷺ توافق صفة الوحي إلى من تقدمه من النبيين(٢) كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[النساء:١٦٣] فالذي جاء به ﷺ من القرآن إنما هو عن طريق الوحي، كما كان يأتي الوحيُ الأنبياءَ السابقين(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الشورى:٥١-٥٢] قال الحافظ ابن كثير ﵀: «هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ وهو أنه ﷻ تارة يقذف في روع النبي شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله ﷻ ...، ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى ﵇...، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ كما ينزل جبريل ﵇، وغيره من الملائكة على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ»(٤).

فالوحي يكون بواسطة الرسول الملائكي إلى الرسول الإنسي، ونبينا ﷺ تلقى القرآن بواسطة الرسول الملكي، ولم يتلقاه مباشرة من الله ﷻ، وأن هذا الرسول الملكي هو جبريل ﵇، ولم يأته الوحي بالقرآن عن طريق المنام ولا الإلهام، وإنما كان وحيا

---

(١) المجموع ٤/ ٣٨٨.

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤/ ٣٦٦، والفتح ١/ ١٥، ٢٦-٢٧.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ١/ ١٦٤، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ٢/ ٢١٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٢١-١٢٢، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٢٩٧، فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن ٨/ ٣٩٢، محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ١٨١.

جليا من غير شك ولا إيهام(١).

وإذا ثبت أن الرسول ﷺ إنما كان يتلقى الوحي بواسطة جبريل، فيحسن أن أذكر كيف كان يتلقاه من جبريل عليه السلام، وأذكر صور تلقيه الوحي فأقول ـ وبالله أستعين ـ.

الصورة الأولى: أن يأتيه جبريل عليه السلام بالوحي، وهو على صورته وخلقته التي خلقها الله جل جلاله عليه؛ فيراه النبي ﷺ ويسمع منه(٢).

ويدل لهذه الصورة قول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم:٨-٩] قالت: [**ذاك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنما أتى هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق**](٣). ويؤكد قولها قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[التكوير:٢٣]، وقوله جل جلاله في سياق الآية نفسها: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم:٣-١٤] فمن سياق هذه الآيات يتبين أن المراد بالذي رآه النبي ﷺ هو جبريل عليه السلام(٤) ويوضح هذا المراد ما رواه مسروق(٥) قال قلت: [يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني! ألم يقل الله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[التكوير:٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً

---

(١) انظر: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٧/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٢) انظر: زاد المعاد لابن القيم ١/ ٨٠، والفتح ١/ ٢٧، ٣٢.

(٣) رواه البخاري؛كتاب بدأ الخلق، باب/ إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء...، ح(٣٢٣٥)، ومسلم؛ كتاب الإيمان، باب/ معنى قول الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، ح(٢٩٠ في الباب).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٤٩، أضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٢٩٨، وفي الآيات تفسير آخر روي عن ابن عباس وغيره أنه ﷺ رأى ربه جل جلاله، وانظر هذا في المراجع السابقة، وإنما أشرت إلى الصحيح والذي عليه الأئمة وهو أن المراد بهذه الآيات رؤيته لجبريل عليه السلام.

(٥) الثقة الفقيه العابد: أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي، مخضرم،كان من الفرسان الشجعان، ومن رواة أحاديث خير الأنام، مات سنة (٦٢) وقيل (٦٣) من الهجرة. انظر: تاريخ بغداد ١٣/ ٢٣٢، السير ٤/ ٦٣-٦٩، تقريب التهذيب ص٤٦٠.

أُخْرَىٰ ﴾[النجم:١٣]؟؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: [**إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء، ساداً عِظَم خَلقِه ما بين السماء إلى الأرض**]، ثم قالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[الشورى:٥١]](١).

وقال أبو هريرة ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَد رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[النجم:١٣] قال: [**رأى جبريل**](٢)(٣).

وقال الحافظ ابن كثير ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ « إن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل ﷺ، وتدلى إليه فاقترب منه، وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة، بعد ما جاءه جبريل ﷺ أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ، ثم فتر الوحي...، حتى تبدى له جبريل ﷺ بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترب منه، وأوحى إليه عن الله ﷻ ما أمره به »(٤).

قال جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ، وهو يحدث عن فترة الوحي، قال في حديثه: [**بينا أنا أمشي، إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت زملوني، فأنزل الله ـ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾[المدثر:١-٥] فحمي الوحي، وتتابع**](٥).

---

(١) رواه مسلم؛ كتاب الإيمان، باب/ معنى قول الله ﷻ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، ح(١٧٧)، وروى نحوه البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب/ إذا قال أحدكم آمين...، ح(٣٢٣٥)، كلاهما عن عائشة ﷺ.

(٢) رواه مسلم؛كتاب الإيمان، باب/ معنى قول الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، ح(١٧٥).

(٤) وقال بعض الصحابة أن النبي ﷺ رأى ربه، وأن هذه الآية دليل على ذلك ومنهم ابن عباس ﷺ، وثبت عنه ذلك.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٤٨.

(٥) رواه البخاري، كتاب بدأ الوحي ح(٤).

فملك الوحي جبريل ﷺ ظهر للرسول ﷺ في صورته الحقيقة الملكية مرتين، فأوحى إليه ما أمره الله ﷻ أن يوحي إلى نبيه، ولندرة هذه الصورة، حيث إنها لم تحصل إلا مرتين، فإنها لم تذكر في صور الوحي عند بعضهم(١).

الصورة الثانية: أن يأتيه جبريل ﷺ بالوحي، بصورة خفية فلا يُرى، ويظهر عليه ﷺ حالة شديدة، فيثقل جسمه، ويتغشاه العرق، ويظهر عليه أثر التغير، ويَسمع عند مجيء المَلَك بالوحي صوتا شديدا كوقع الجرس إذا صلصل في أُذن سامعه، وهذه أشد الحالات عليه ﷺ، فإذا انجلى عنه، وسُري عنه وجد ما أُوحي إليه حاضرا، ولكل ما سمع واعيا، وله حافظا وذاكرا(٢).

والدليل على هذا:

أما الثقل والشدة فيدل له قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾[المزمل:٥] ومعلوم أن القول هو القرآن، فالقرآن ثقيل ثوابه، وثقيل في تكاليفه، ووقت نزوله من عظمته، وكل ذلك ثابت للقرآن الكريم(٣)، وقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤] وقوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[البقرة:٩٧]، وقال زيد بن ثابت(٤) ﷺ: **[فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن تُرَضَّ فخذي، ثم سُرِّيَ عنه]**(٥)، وقالت عائشة ﷺ: **[إن كان ليُوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فتضرب بجرانها]**(٦).

---

(١) انظر: الفتح ١/ ٢٧.

(٢) انظر: زاد المعاد ١/ ٧٩-٨٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣٥، أضواء البيان ٨/ ٣٧١.

(٤) هو الصحابي الفرضي: أبو سعيد زيد بن ثابت بن الضحاك النجاري الأنصاري الخزرجي، شهد المشاهد بعد أحد وذلك لصغر سنه، وكان من كتاب الوحي، وأمره النبي ﷺ أن يتعلم لغة اليهود، فتعلمها في عشرين يوما، وهو الذي جمع المصحف في خلافة الصديق وعثمان بأمرهما، وكان من قراء الصحابة، توفي بالمدينة. انظر: معجم الصحابة للبغوي ٢/ ٤٦١-٤٧٥، أسد الغابة ٢/ ١٢٦-١٢٧، الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٥٦١-٥٦٢.

(٥) رواه البخاري؛ كتاب الجهاد والسير، باب/ قول الله ﷻ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ...﴾، ح(٢٨٣٢).

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١١٨، ح(٢٥٣٨٠)، والحاكم في مستدركه؛ كتاب التفسير، تفسير سورة

وربما سُمع مع هذه الشدة لرسول الله ﷺ غطيط كغطيط النائم، كما في حديث يعلى بن أمية[(١)] قال: [...فإذا رسول الله ﷺ محمر الوجه وهو يغط، ثم سري عنه...][(٢)].

وأما أنه ﷺ كان ينزل منه العرق: فيدل له قول عائشة ﵂: [إن كان لينزل على رسول الله ﷺ في الغداة الباردة، ثم تفيض جبهته عرقا][(٣)]. وقالت أيضا ـ في حديث الإفك ـ: [ولشأني كان أحقر في نفسي مِن أن يتكلم الله ﷻ فيّ بأمر يُتلى... قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[(٤)] عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان من العرق في اليوم الشاتِ، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: [أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك]، قالت: فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ [النور:١١-٢٠] عشر آيات][(٥)].

= المزمل، ح(٣٨٦٥)، وقال الذهبي: (صحيح) كما في التلخيص بحاشية المستدرك ٢/ ٥٤٩، وكذا قال الألباني في تحقيقه على فقه السيرة ص ٩٥، والجران: باطن عنق الناقة. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ٢٦٣.

(١) هو: يعلى بن أمية بن أبي عبيدة التميمي، حليف قريش، ويقال: بن منية وهي أمه، صحابي مشهور، مات سنة بضع وأربعين، روى له أصحاب الكتب. انظر: الإصابة ٣/ ٦٦٨، التقريب ص٥٣٨.

(٢) رواه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب/ كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ح(١٥٣٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب/ ما يباح للمحرم...، ح(١١٨٠)، قال البدر العيني: (قوله: وهو يغط، الواو فيه للحال، ويَغِط بفتح الياء، وكسر الغين المعجمة، بعدها طاء مهملة، أي: يَنفُخ، وهو من الغطيط، وهو صوت النَفَس المتردد من النائم، ويقال: الغطيط؛ صوت به بحوحة، وهو كغطيط النائم، أي: شخيره، وصوته الذي يردده في حلقه ومع نفسه، وسبب ذلك شدة الوحي، وثقله) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٧/ ٤٤-٤٥.

(٣) رواه البخاري؛ كتاب بدأ الوحي، باب/ ...، ح(٢) بنحوه، ومسلم بلفظه؛ في كتاب الفضائل، باب/ عرق النبي ﷺ في البرد، وحين يأتيه الوحي، ح(٢٣٣٣).

(٤) البُرَحاء: هو الحمى، وشدة الأذى. انظر: مختار الصحاح ص ٤٦.

(٥) رواه البخاري؛ كتاب الشهادات، باب/ تعديل النساء بعضهن بعضا، ح(٢٦٦١)، ومسلم؛ كتاب التوبة، باب/ في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ح(٢٧٧٠).

وكونه ﷺ **يظهر عليه أثر التغير**، يدل له ما رواه عبادة بن الصامت(١) ﷺ قال: [**كان نبي الله ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي، كُرب لذلك، وتربَّد وجهه**]، وقال أيضا: [**كان النبي ﷺ إذا أُنزل عليه الوحيُ نكس رأسه، ونكس أصحابُه رؤوسهم، فلما أُتِلي عنه، رفع رأسه**](٢).

فنزول القرآن على رسول الله ﷺ بهذه الصورة، كان ثقيلا عليه كما ذكر الله ﷻ في القرآن.

وأما كونه ﷺ **يغفى إغفاءة** كما رواه أنس ﷺ قال: [**بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ آنفا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:١-٣]...](٣).

فالمراد بالإغفاءة الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، وهي شبيهة بالنوم وليست كذلك، وبذا يفسر الإغماءة أيضا، ويوضح هذا المراد قول عائشة ﷺ السابق: [**فلما سُري عنه**] أي حالة الوحي، وأيضا قال أنس ﷺ: [**ثم رفع رأسه**] ولم يقل: ثم استيقظ(٤).

وهاتان الصورتان قطعاً ورد نزول القرآن الكريم بهما على النبي ﷺ، وما سواهما من الصور فغير صريح، بل ينبغي الجزم بأن القرآن نزل كله على هاتين الصورتين المذكورتين، وإن كانت الصورة الأولى لم تحصل إلا مرتين، إلا أن الصورة الثانية هي الكثيرة الغالبة، وهي الحالة التي يكون فيها جبريل على صورته الملكية، ويأتي النبي ﷺ بصورة خفية يسمع منه ويعي.

---

(١) هو الصحابي الجليل: أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أحد النقباء، شهد بدرا وما بعدها، وكان طويل القامة، متين الديانة، من حفاظ الصحابة، توفي بالرملة ﷺ. انظر: أسد الغابة ٣/ ٥٦-٥٧، الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٢٦٨-٢٦٩،تقريب التهذيب ص٢٣٥.

(٢) رواه مسلم؛ كتاب الفضائل، باب/ عرق النبي ﷺ في البرد، وحين يأتيه الوحي، ح(٢٣٣٤)، (٢٣٣٥)، وأتلي: بمعنى أُجْلِيَ.

(٣) رواه مسلم؛ كتاب الصلاة، باب/ حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، ح(٤٠٠).

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٦٥-٦٦.

وهناك صور أخرى للوحي، لكن ليس فيها ذكر لنزول القرآن، إما لأنها جاءت في مورد الأحاديث القدسية، أو الأحاديث النبوية[1]، ومن هذه الصور ـ إضافة إلى الصورتين السابقتين ـ ما يأتي:

٣ ـ الرؤيا المنامية.

٤ ـ الإلهام.

٥ ـ التكليم بلا واسطة، كما حصل في ليلة الإسراء والمعراج[2].

وذكر السيوطي أن من كيفيات الوحي تكليم الله لنبيه إما في اليقظة، وإما في المنام، قال: « وليس في القرآن من هذا النوع شيء ـ فيما أعلم ـ »[3] ثم ذكر ما قد يفهم منه تكليم الله بالقرآن إما يقظة أو مناما، وكل ما ذكره غير صريح في الدلالة، فالحق ما قاله من أنه لم ينزل القرآن مناما، وهو الصواب كما تقدم[4].

قال الحافظ ابن حجر ﵀: « القرآن إنما نزل بالوحي الذي يأتيه به الملك لا بالمنام، ولا بالإلهام»[5].

٦ ـ النفث في الروع؛ كما في الحديث المشهور: **[إن روح القدس ـ وفي رواية: جبريل ـ نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب]**[6].

---

(١) انظر: المدخل لدراسة علوم القرآن الكريم لمحمد أبي شهبة ص٦٠-٦١.

(٢) انظر: الفتح ١/ ٢٧، زاد المعاد ١/ ٨٠، وقال ابن القيم ﵀: « كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملَك، كما كلم اللهُ موسى ابن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء».

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٢٩.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٦٥-٦٦، المدخل لدراسة علوم القرآن الكريم لمحمد أبي شهبة ص٦٠.

(٥) الفتح ٨/ ٦٢٣.

(٦) رواه الحاكم في مستدركه، كتاب البيوع، ح(٢١٣٦) بنحوه، والبغوي في شرح السنة بلفظه؛ كتاب الرقاق، باب/ التوكل على الله ﷻ، ح(٤١١٢)، وغيرهما، وقال الألباني: « صحيح جاء من طرق» كما في تحقيقه على فقه السيرة ص٩٦، وانظر: بداية السول في تفضيل الرسول للعز بن عبد السلام، تحقيق

وهذه قد ترجع إلى الصورة الثانية أو السابعة، بأن يأتيه في إحدى الكيفيتين وينفث في روعه ـ والله تعالى أعلم ـ[١].

٧ ـ **أن يتمثل له الملك رجلا**، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقوله له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا[٢]. ويدل له حديث عمر رضي الله عنه المشهور، وفيه: **[يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم]**[٣].

ويدل لهذه الصورة أيضا حديث الحارث بن هشام[٤] رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: **[أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيُفصَم[٥] عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني، فأعي ما يقول]**[٦].

فرسول الله ﷺ تلقى القرآن وجبريل عليه السلام على حالته الملكية، ورسول الله ﷺ يجد منه ثقلا شديداً، كما هو نص حديث الحارث بن هشام رضي الله عنه، ولا توجد رواية صريحة تفيد نزول جبريل بشيء من القرآن الكريم على غير الصورة المَلَكِيَّة، ولكن ظاهر حديث الحارث ابن هشام يدل على أنه قد يأتيه بالقرآن الكريم وجبريل على غير

= الألباني ص٥٩، وروعي: أي نفْسِي، وخلدي. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٧٧.

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٢٩.

(٢) انظر: زاد المعاد ١/ ٧٩، المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٨١.

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب/ سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان...، ح(٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم، كتاب الإيمان، باب/ بيان الإيمان..، ح(١) عن عمر رضي الله عنه.

(٤) هو الصحابي الجليل: أبو عبد الرحمن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم القرشي، من مسلمة الفتح، ومن أشراف قريش، استشهد بالشام في خلافة عمر رضي الله عنه. انظر: معجم الصحابة للبغوي ٢/ ٤٧-٤٩، الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٩٣-٢٩٤، تقريب التهذيب ص ٨٨.

(٥) فيفصم: قال الحافظ: « بفتح أوله، وسكون الفاء، وكسر المهملة، أي: يَقلع ويَتجلى ما يغشاني، ويُروى بضم أوله من الرباعي، وفي رواية لأبي ذر بضم أوله، وفتح الصاد على البناء للمجهول » الفتح ١/ ٢٨، إذا فيها ثلاث لغات: ١ ـ فَيَفْصِم. ٢ ـ فيُفْصِم. ٣ ـ فيُفْصَم.

(٦) رواه البخاري؛ كتاب بدأ الوحي، باب/ ...، ح(٢)، ومسلم؛ كتاب الفضائل، باب/ عرق النبي ﷺ في البرد...، ح(٢٣٣٣).

صورته الملكية، وقد ورد أنه جاء على صورة بشر بالوحي لكنه من قبيل الوحي بالسنة، لا الوحي المتلو المتعبد به الذي هو كلام الله ﷻ[(١)].

ويؤكد أن نزول القرآن الكريم كان عن طريق جبريل ﷺ على النبي ﷺ قوله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤] وقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٩٧] فقلبه ﷺ منشغل بنزول القرآن عليه، فيشتد عليه لذلك، «وظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ من غير سماع قراءة...، ولكنه بين في مواضع أخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه؛ فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى تنزيله على قلبه»[(٢)]؛ فجبريل رسول من رسل الله ملكي ينزل بالذكر وهو القرآن على قلب النبي ﷺ فيعيه ويحفظه، وفي الآيتين بيان محل الوحي الذي ينزل من الله ﷻ بواسطة جبريل ﷺ، وأنه على قلبه ﷺ[(٣)]، **ومما يؤكد أن القرآن كان ينزل عليه وجبريل ليس على صورة رجل الشدة التي كان يلقاها حين نزول الوحي**، كما في حديث يعلى بن أمية أنه قال لعمر ﷺ: [**أرني النبي ﷺ حين يوحى إليه، قال: فبينما النبي ﷺ بالجعرانة**[(٤)] **ومعه نفرٌ من أصحابه، جاءه رجل فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو مُتَضَمِّخٌ بطيب؟ فسكت النبي ﷺ ساعة، فجاءه الوحي. فأشار عمر إلى يعلى، فجاء يعلى وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أُظل به فأدخل رأسه فإذا رسول الله ﷺ محمر الوجه وهو يَغِطُّ، ثم سُري عنه...**][(٥)]، ويؤكد هذا أنه ﷺ في حالة

---

(١) انظر: المدخل لدراسة علوم القرآن الكريم لمحمد أبي شهبة ص٦٠-٦٢، وقد رأي ﷺ أن القرآن لم ينزل به جبريل وهو على صورة بشر.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ١/ ٦٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣٢.

(٤) الجعرانة: بسكون العين المهملة، وتخفيف الراء (جُعْرَانة)، وقد تكسر، وتشدد الراء (جِعِرَّانة)، وهي: موضع قريب من مكة، وهي في الحل، وميقات للحرم. انظر: معجم البلدان ٢/ ١٦٥-١٦٦، عمدة القاري ١٣٥٣٢-٥٣٣.

(٥) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: نزل القرآن بلسان...، ح(٤٩٨٥)، وفي الحديث أن وحي السنة قد ينزل بالصورة الثانية، وإن كان الأغلب فيها نزول القرآن، قال ابن المنير: «لعله ـ أي البخاري ـ قصد

نزول جبريل عليه السلام عليه بالقرآن كان يحرك لسانه كالمسترجع لما يلقى عليه، حتى لا ينفلت ما يلقى على قلبه منه، فأنزل الله ﷻ عليه قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة:١٦-١٩].

ولم يختلف السلف أن المخاطب بذلك النبي ﷺ في شأن نزول الوحي[١]، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾[طه:١١٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما **[كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يحرك شفتيه إذا أنزل عليه، فأنزل الله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ قال: علينا أن نجمعه في صدرك، ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أن تقرأه، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ يقول: إذا أنزل عليه، ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ فاستمع، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ علينا أن نبينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله]**[٢].

فالشدة التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنه كانت في الحالة التي يأتي فيها جبريل عليه السلام على غير الصورة البشرية بل على صورة ملكية خفية[٣].

فالنبي ﷺ كان يأتيه الملك بالوحي القرآني، ولم يكن معلمه بشرا، ولم يكن الذي جاءه خيالا، فإن آثار الوحي ظاهرة للناظر إليه ﷺ في حالة التلقي، من الإغفاءة، والعرق، والثقل، ولم يكن الذي يأتيه من تنميق المقال كحال فلاسفة اليونان، وإنما كان يأتيه جبريل عليه السلام بكلام الله الكبير المتعال[٤].

= التنبيه على أن الوحي بالقرآن والسنة كان على صفة واحدة، ولسان واحد». الفتح ٨/ ٦٢٧، أو لعل هذه الشدة حصلت له لكون الملك نزل بالقرآن بقوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦]، كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح ٣/ ٤٦١،٤٦٣.

(١) انظر: الفتح ٨/ ٥٤٨.

(٢) رواه البخاري؛ كتاب بدأ الوحي، ح(٥)، وانظر: ح(٤٩٢٨، ٤٩٢٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب/ كم أقام النبي ﷺ بمكة والمدينة، ح(٢٣٥٠)، وانظر: لمعنى حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم الفتح ٨/ ٥٤٩-٥٥١.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٢٩٨-٢٩٩، المدخل لدراسة علوم القرآن الكريم ص ٦١.

(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي ص٩٦.

وكان نزول الوحي على النبي ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة سنة منها في مكة، وعشر سنوات في المدينة النبوية، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: [**بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين**][١]. وقالت عائشة وابن عباس رضي الله عنهم: [**لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشر سنين**][٢]، ويمكن أن يجمع بين القولين: بأن من ذكر العشرين فقد ألغى الكسر، ولم يعتبر بالمدد التي هي: الرؤيا الصالحة، وانقطاع الوحي، فتكون عشرين سنة، ومن قال: ثلاث وعشرون، لم يلتفت إلى مدة انقطاع الوحي، واعتبر الرؤيا الصالحة أيضا ـ والله تعالى أعلم ـ[٣].

فجبريل عليه السلام يأتي بالوحي المتلو الذي هو القرآن، والوحي غير المتلو، فتارة ينزل جبريل عليه السلام بالمعنى الذي فهمه من أمر الرب ﷻ ونهيه، كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان؛ اجمع جندك للقتال، فإن قال الرسول: يقول الملك لا تترك الجند تتفرق، وحثهم على المقاتلة، فإنه لا ينسب إلى كذب، ولا إلى تقصير في أداء الرسالة.

وقسم آخر: قال الله لجبريل، فنزل جبريل بكلام الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتابا ويسلمه إلى أمين، ويقول: اقرأه على فلان، فهو لا يغير منه كلمة، ولا حرفا.

فالقرآن هو من القسم الثاني، والقسم الأول هو السنة[٤]، وبهذا يتبين أن القرآن الكريم نزل على محمد الصادق الأمين، بواسطة جبريل الروح الأمين، وهذا كله يؤكد نزول القرآن الكريم من الله رب العالمين، وإذا تيقن نزول القرآن الكريم على نبينا ﷺ، فحان أوان الشروع في بيان نزول القرآن الكريم وكيفيته في المبحث الثاني.

---

(١) رواه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب/ هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ح(٣٩٠٢)، (٣٩٠٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب/ كم أقام النبي ﷺ بمكة والمدينة، ح(٢٣٥١)، وانظر: زاد المعاد ١/ ٧٨، الفتح١/ ٣٧، مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ١/ ٥٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري؛ كتاب فضائل القرآن، باب/ كيف نزل الوحي،ح(٤٩٧٨، ٤٩٧٩).

(٣) انظر: الفتح ٨/ ٦٢٠.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٢٧-١٢٨، المدخل لدراسة القرآن الكريم ص٦٤.

المبحث الثاني: نزول القرآن

المطلب الأول: سماع جبريل[(١)] عليه السلام القرآن.

من المعتقدات السلفية، الثابتة بالكتاب وسنة خير البرية، أن القرآن الكريم كلام رب العالمين، نزل به جبريل عليه السلام، على محمد ﷺ، وجبريلُ سمع القرآنَ الذي هو كلام الله من الله تعالى، وبلّغه إلى رسول الله ﷺ.

وجبريل عليه السلام هو الملك المختص بالوحي، وله صفات حميدة، وخِلْقَة شديدة، مع أمانة عظيمة.

ومما ورد في صفاته:

١ ـ أنه ينـزل بإذن الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:٩٧] وقال: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[مريم:٦٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما: [قال النبي ﷺ لجبريل: [**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟**] فنـزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ... ﴾][(٢)].

٢ ـ أنه الروح القدس؛ والقدس: الطهر، قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[النحل:١٠٢] **والمعنى**: أن الذي نزّل عليك القرآن يا محمد من الله تعالى هو الروح المطهر، فروح القدس هو جبريل عليه السلام باتفاق العلماء[(٣)]، وفي البخاري: [**يا حسان**

---

(١) وجبريل عليه السلام في اسمه لغات كثيرة، ومعناه عبد الله. انظر: زاد المسير لابن الجوزي١/ ١١٨-١١٩ والإجماع في التفسير لمحمد بن عبد العزيز الخضيري ص١٧٩-١٨٢.

(٢) رواه البخاري؛ كتاب التفسير، تفسير سورة كهيعص، ح(٤٧٣١)، وانظر: محاسن التأويل ٥/ ٨٧.

(٣) صحيح البخاري ص٩٨٥، المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٤٢١، تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨٦، وشرح الواسطية للفوزان ص٩٤، والإجماع في التفسير للخضيري ص ٣٣٦-٣٣٨.

أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس] وفي رواية: **[هاجهم وجبريل معك]**(١). وقال حسان(٢) ﷺ:

وجبريل رسولُ الله فينا وروح القُدْسِ ليس له كِفاء(٣)

٣ ـ أنه الروح الأمين: قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء:١٩١-١٩٣] والروح الأمين هو جبريل ﷺ بالإجماع(٤)، و« في قوله: (الأمين) دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به، لا يزيد فيه، ولا ينقص، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة »(٥).

وفي (نزل) قراءتان؛ الأولى: بالتخفيف، ورفع الروح ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾(٦)، والمعنى: جبريلُ الروحُ الأمينُ هو الذي نزل بالقرآن على محمد ﷺ.

والثانية: بالتشديد ونصب الروح ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ بمعنى: أن الله نزل بالقرآن الروحَ الأمين، وهو جبريل ﷺ، **قال ابن جرير** رحمه الله: « والصواب: أنهما قراءتان..، فبأيتهما قرأ القاري فمصيب، وذلك أن الروح الأمين إذا نزل على محمد ﷺ بالقرآن، لم ينـزل به إلا بأمر الله إياه بالنـزول، ولن يجهل أن ذلك

---

(١) رواهما البخاري؛ في كتاب الأدب، باب/ هجاء المشركين، ح(٦١٥٢، ٦١٥٣)، ومسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب/ فضائل حسان ابن ثابت، ح(٢٤٨٥، ٢٤٨٦).

(٢) سيد الشعراء الصحابي الجليل: أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام النجاري الخزرجي الأنصاري، شاعر رسول الله ﷺ، المؤيد بروح القدس، كان يوضع له منبر في المسجد فينافح عن رسول الله ﷺ، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، توفي سنة ٥٤هـ، وقيل غير ذلك. انظر: أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٤٨٢-٤٨٤، السير ٢/ ٥١٢-٥٢٣، الإصابة ١/ ٣٢٦، وانظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/ ٣٣٥-٣٤٣ المطبوع بهامش الإصابة.

(٣) أخرجه مسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب/ فضائل حسان، ح(٢٤٩٠)، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي ١/ ١١٨.

(٤) انظر: الإجماع في التفسير للخضيري ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٥) المجموع ١٢/ ١١٨، وانظر: ١٢/ ٣٨.

(٦) هذه قراءة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبوجعفر، وحفص عن عاصم، والقراءة الثانية: للباقين. انظر: القراءات العشر المتواترة في هامش القرآن الكريم، إعداد/ محمد كريم راجح.

كذلك ذو إيمان بالله، وأن الله إذا أنزله به نزل»[(١)].

٤ ـ أنه ذو القوة الشديدة: كما قال الله ﷻ: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾[النجم:٥-٦] والقوى: جمع قوة، ويبينه قوله ﷻ: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[التكوير:٢٠]، و(**ذو مرة**) ذو قوة، وهيئة حسنة، وجسم حسن، وهذه الأوصاف على الصحيح لجبريل عليه السلام[(٢)] بل المعلم الشديد القوي بالإجماع هو جبريل عليه السلام[(٣)].

ومما يدل على قوته، وعظيم خلقته، قول ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﷻ: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم:٩-١٠] قال عن النبي ﷺ: **[أنه رأى جبريل له ستمائة جناح]**[(٤)]، وفي حديث جابر رضي الله عنه مرفوعا: **[فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض]**[(٥)].

ومما يدل على مِرَّتِه أن الله ﷻ أقدره على التشكل فيأتي بصورة رجل، كما في حديث عمر رضي الله عنه المشهور، وغيره[(٦)].

٥ ـ أنه مكين مطاع: كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[التكوير:١٩-٢١] **والمكين:** المتمكن ذو القَدر والمنزلة، ومطاع أي: تطيعه الملائكة في السماوات، وهذه الطاعة لمكانته، والمكانة لأمانته[(٧)].

---

(١) جامع البيان ٩/ ٤٧٥، وانظر: معالم التنـزيل للبغوي ٦/ ١٢٨.

(٢) انظر: معالم التنـزيل للبغوي ٧/ ٤٠٠، المحرر الوجيز لا بن عطية ٥/ ١٩٦-١٩٧.

(٣) انظر: الإجماع في التفسير للخضيري ص ٣٩٩-٤٠٢.

(٤) رواه البخاري؛ كتاب بدأ الخلق، باب/ إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء...، ح(٣٢٣٢).

(٥) رواه البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب/ ...،ح(٤)، ومسلم؛ كتاب الإيمان، باب/ بدء الوحي إلى رسول الله، ح(١٦١).

(٦) انظر: صحيح البخاري؛ كتاب الإيمان، باب/ سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان...، ح(٥٠)، و صحيح مسلم؛ كتاب الإيمان، باب/ بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، ح(٨).

(٧) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب ص ٤٧٤، زاد المسير لابن الجوزي ٩/ ٤٣، تبصير الرحمن وتيسير المنان للمهايمي ٢/ ٣٩١.

وتفيد الآية: أن جبريل ﷺ ينقل القول كما يسمعه لأنه رسول كريم كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فلا يغير من الرسالة شيئا بإرادته لأنه كريم، ولا يتأتى منه التغيير من غير إرادة منه لأنه وصف بأنه ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ فلا يقع منه النقص في البلاغ، أما لو كان الرسول ضعيفا فلربما وقع منه النقص لضعفه دون إرادة منه، فجبريل ﷺ أمين على وحي الله ﷻ ورسالته[١]؛ و«لما كان جبرائيل هو الذي جاء بالرسالة، وهو صاحب الوحي، وهو غيب عن الناس، لم يروه بأبصارهم، ولم يسمعوا كلامه بآذانهم، وزعم زاعمون أن الذي يأتيه شيطان يعلمه ما يقول، أو أنه إنما يعلمه إياه بعض الإنس، أخبر الله العباد أن الرسول الذي جاء به، ونعته أحسن النعت، وبين حاله أحسن البيان...، ثم وصفه بالصفات التي تنفي كل عيب، من القوة والمكنة[٢]، والأمانة والقرب من الله سبحانه، فلما استقر حال الرسول الملكي، بين أنه من جهته، وأنه لا يجيء إلا بالخير»[٣].

وإذا كانت هذه هي أوصاف الرسول الملكي الذي يأتي بالقرآن، أنه قوي أمين، ومكين مطاع، قادر على أداء الأمانة، وبلاغ الرسالة، وسماع كلام الله ﷻ وتبليغه، تيقنا أنه يقول كما سمع مبلغا كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[التكوير:١٩] و«ليس القرآن كلام جبريل، ولا كلام محمد، بل هو كلام رب العالمين، وهذا متفق عليه بين الصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين»[٤]، و«لا يجوز إضافة هذا الكلام المسموع الذي هو القرآن إلى غير الله بوجه من الوجوه، إلا على سبيل التبليغ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾»[٥].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥/ ٤٤٤، تبصير الرحمن للمهايمي ٢/ ٣٩٠-٣٩١، محاسن التأويل للقاسمي ٧/ ٢٧٢، أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٢) الصواب: المكانة، ولكنها في المطبوع كما ذكرت.

(٣) المجموع ٤/ ٣٨٩.

(٤) المجموع ١٢/ ٥٥٤.

(٥) المجموع ١٢/ ٤١٦.

فإذا قرأه المبلغ سواء كان جبريل ﷺ، أو محمد ﷺ، أو غيرهما ممن يبلغون دين الله وكتابه، يبقى الكلام كلام الله، وتكون الإضافة باعتبار البلاغ، وإلا فإن التبليغ لا يخرج الكلام عن كونه كلام من قاله مبتدءا آمرا وناهيا ومخبرا، وليس على الرسل إلا البلاغ المبين(١).

وقد تلقى جبريلُ ﷺ الوحيَ من الله ﷻ بالقرآن، ولم يأخذ جبريلُ القرآنَ من غير الله تعالى، لا من اللوح المحفوظ، ولا من السفرة الكرام البررة، ولا من بيت العزة في السماء الدنيا، ويدل لهذا الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة المستفيضة، وإجماع سلف الأمة.

فمن الكتاب:

١ ـ قول الله ﷻ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[النحل:١٠٢] ففيه بيانٌ لنزول جبريل بالقرآن من الله تعالى، وهذا مقتضى الآية، « وإذا كان روح القدس نزل به من الله، علم أنه سمعه منه، ولم يؤلفه هو، وهذا بيان من الله أن القرآن الذي هو باللسان العربي المبين، سمعه روح القدس من الله، ونزل به منه »(٢).

٢ ـ قوله ﷻ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٤] فأخبر فيها ـ وفي غيرها من الآيات ـ أن القرآن نزل منه ﷻ ، وأنه نزل به جبريل ﷺ منه، وجبريل الروح الأمين سمعه من الله، وبلغه إلى رسول الله ﷺ(٣).

٣ ـ قال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام:١١٤] وقال ـ في غير ما آية ـ: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر:١]

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٧١-٧٢.
(٢) المجموع ١٢/ ١٢٤، وانظر: المجموع ١٢/ ١١٨، ١٢٣، ٥١٩، ٥٥٤.
(٣) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ١٨٢، المجموع ١٢/ ٥١٩، ٥٥٤.

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الواقعة:٨٠]؛ **ففي هذه الآيات**: إثبات أن القرآن منـزل من الله، وهذا يلزم أن يكون جبريل ﷺ أخذ منه القرآن، وفيها بطلان لقول من يقول: إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ، أوغيره، وبطلان قول من يقول: إنما أُلهمه جبريل فعبر عن القرآن[(١)]؛ فـ« ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد ﷺ واسطة »[(٢)].

والدليل من السنة:

١ ـ ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : [**إذا تكلم الله تعالى بالوحي، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك، حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريلُ ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، الحق**][(٣)]. **فهذا فيه** أن جبريل ﷺ يسمع الوحي من الله ﷻ، ولهذا أورده الإمام أبو داود تحت باب: (في القرآن)[(٤)]، وابن خزيمة[(٥)] في باب: « من صفة تكلم الله ﷻ بالوحي »[(٦)].

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ١/ ٣٠٣، المجموع ١٢/ ١٢٠، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٥٣٦.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٢.

(٣) روى البخاري معلقا موقوفا نحوه من قول ابن مسعود ﷺ، كما في صحيحه؛كتاب التوحيد، باب/ قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ ﴾...، ص١٥٦٩، وأبو داود في سننه؛ كتاب السنة، باب/ في القرآن، ح(٤٧٣٨)، وغيره، قال الألباني: «إسناد صحيح على شرط الشيخين» كما في السلسلة الصحيحة ٣/ ٢٣٨ ح(١٢٩٣) وقال: «والموقوف وإن كان أصح من المرفوع...، فإنه لا يعل المرفوع، لأنه لا يقال من قبل الرأي، كما هو ظاهر، لا سيما وله شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا بنحوه»، وحديث أبي هريرة ﷺ المشار إليه أخرجه البخاري؛ كتاب التفسير، تفسير سورة الحجر، ح(٤٧٠١).

(٤) انظر: سنن أبي داود ٥/ ٦٨-٧٠.

(٥) هو إمام الأئمة الحافظ الحجة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة السلمي النيسابوري، ولد سنة ٢٢٣، وعنى في صغره بالحديث والفقه، فحاز فيهما السبق، وأخذ من خلق، وأخذ عنه كثيرون منهم الشيخان في غير الصحيحين، وكان لا يهتم بأمور الدنيا ولا يفرق بين العشرة والعشرين، مع السخاء والجود، مهتما بالعلم والحفظ، حتى قيل: إنه يحفظ المسائل الفقهية من حديثه كما يحفظ القارئ السورة، ومن مؤلفاته السنية كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب، توفي ﷺ سنة ٣١١هـ. انظر: الجرح والتعديل ٧/ ١٩٦، السير ١٤/ ٣٦٥-٣٨٢، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٠٩-١١٩.

(٦) انظر: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة ص ١٤٥.

فالملائكة وفيهم جبريل ﷺ يسمعون صوت الرب ﷻ بالوحي، قويا له صلصلة، فيصعقون من عظمته، وشدته، فهذا فيه أن جبريل سمع الوحي من الله ﷻ[(١)].

٢ ـ ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : [**إن الله ﷻ إذا أحب عبدا نادى جبريلَ؛ إن الله قد أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض...**]. **ففي الحديث التنصيص** على نداء الله ﷻ لجبريل، وأنه سمع كلام الرب ﷻ، ولهذا بوب له البخاري ﷺ بعنوان: « باب: كلام الرب مع جبريل، ونداء الله الملائكة »[(٢)]؛ لأنه إذا ثبت سماع جبريل لكلام الله ﷻ فإن القرآن من كلام الله تعالى، فإذا ثبت العام فإن الخاص داخل فيه.

٣ ـ قالت عائشة ﷺ في قصة الإفك: [**ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينـزل في براءتي وحيا يُتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يُتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فأنزل الله تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾[النور:١١-٢٠] **العشر الآيات**][(٣)].

فالأثر وقول عائشة ﷺ يدل على سماع جبريل لكلام الله ﷻ ، ونزوله به، ولهذا أورده الإمام البخاري تحت باب: « قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥] »[(٤)].

والدليل من الإجماع:

١ ـ قال الإمام أبو جعفر الطحاوي ﷺ: « ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام

---

(١) انظر: تعليق الشيخ محمد خليل هراس على الحديث في حاشية كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ١٤٦.

(٢) صحيح البخاري؛ كتاب التوحيد، ص١٥٧٠، وانظر: المختار في أصول السنة لأبي علي الحسن بن أحمد ابن البنا الحنبلي ص ١٠١.

(٣) رواه البخاري؛ كتاب التوحيد، باب/ قول الله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾، ح(٧٥٠٠)، ومسلم بطوله؛ كتاب التوبة، باب/ في حديث الإفك...، ح(٢٧٧٠).

(٤) انظر: صحيح الإمام البخاري، كتاب التوحيد، ص(١٥٧١-١٥٧٣).

رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين ﷺ، وهو كلام الله تعالى »[١].

٢ ـ قال الإمام أبو عثمان الصابوني رحمه الله: « ويشهد أصحاب الحديث، ويعتقدون أن القرآن كلام الله، وكتابه، وخطابه، ووحيه، وتنـزيله غير مخلوق، ومن قال: بخلقه، واعتقده، فهو كافر عندهم، والقرآن الذي هو كلام الله، ووحيه هو الذي ينـزل به جبريل على الرسول ﷺ »[٢].

٣ ـ قال قوام السنة الأصبهاني: « كلام الله تعالى مدرك مسموع بحاسة الأذن، فتارة يسمع من الله تعالى، وتارة يسمع من التالي، فالذي يسمعه من الله تعالى مَن يتولى خطابه بنفسه بلا واسطة، ولا ترجمان»[٣]. وقال بعدها بأبواب: « باب: في بيان أن القرآن وحي من الله ﷻ، جاء به جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ »[٤].

٤ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وجبريل سمعه ـ أي القرآن ـ من الله، وسمعه محمد ﷺ من جبريل»[٥]، وقال: « والنبي ﷺ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل عليه به، وجبريل سمعه من الله تعالى، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة...، ولم يقل أحد من السلف: إن النبي ﷺ سمعه من الله... »[٦].

٥ ـ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: « والمنقول عن السلف اتفاقهم على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله، وبلغه جبريل إلى محمد ﷺ، وبلغه ﷺ إلى أمته »[٧].

٦ ـ قال ابن مانع[٨] رحمه الله: « اعلم أن مذهب السلف الصالح في "القرآن" أنه

---

(١) العقيدة الطحاوية ص ٥٧-٦٠، بتعليق الشيخ الألباني.

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٣٠.

(٣) الحجة في بيان المحجة ١/ ٢٨٤.

(٤) الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٠٢.

(٥) المجموع ١٢/ ٥٥٤.

(٦) المجموع ١٢/ ٢٩٨.

(٧) الفتح ١٣/ ٤٧١.

(٨) هو العلامة الشيخ: محمد بن عبد العزيز بن محمد بن مانع الوهيبي التميمي، ولد بعنيزة سنة ١٣٠٠هـ، ورحل لطلب العلم، حتى استقر في الأزهر، وأخذ عن الشيخ محمد الذهبي، وجمال الدين القاسمي،

كلام الله، منـزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله به صدقا، وسمعه منه جبريل حقا، وبلّغه محمداً وحياً»[(١)].

وبهذا يتبين أنه من المتفق عليه بين السلف الصالح أن جبريل عليه السلام تلقى القرآن من الله سماعا، وأخذه بلفظه ومعناه.

وفي تلقي جبريل عليه السلام الوحيَ من الله ﷻ دون واسطة إعظام للقرآن، وتكريم لشأنه، وشأن من أنزل عليه، وتنبيه إلى العناية به، وأهميته، فالله تعالى المرسِل المتكلم بالقرآن، وجبريل عليه السلام الرسول الملكي مرسَلٌ بالرسالة العظيمة وهي الوحي، لينـزله على محمد ﷺ الرسول البشري المرسَل بالفرقان.

وإذا تبين أن جبريل إنما تلقى القرآن سماعا من الله ﷻ، ثم نزل به إلى النبي ﷺ، فيحسن الآن الشروع في بيان تنـزلات القرآن الكريم، وهذا ما أوضحه في المطلب الثاني.

=

ومحمود شكري الألوسي وأكثر من ملازمته، وقرأ عليه كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم رجع إلى عنيزة، ثم دعي إلى البحرين لمكافحة التنصير وأقام بها أربع سنوات، ثم تولى القضاء في قطر والخطابة والتدريس مدة أربع وعشرين سنة، ثم دعاه الملك عبد العزيز للتدريس في الحرم المكي فدرس فيه، ثم عين مديرا للمعارف في مكة، وولي رئاسة هيئة التمييز، وكان خيرا حاثا على نشر الكتب السلفية، له مؤلفات كثيرة، منها: حاشية على دليل الطالب، القول السديد فيما يجب لله على العبيد، شرح على العقيدة السفارينية "الكواكب الدرية لشرح الدرة المرضية"، توفي في بيروت بعد أن سافر إليها للعلاج سنة ١٣٨٥هـ، ودفن بالدوحة. انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢٠٩، المستدرك على معجم المؤلفين ص٦٨٢، مقدمة شرح العقيدة السفارينية.

(١) شرح العقيدة السفارينية للشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع ص٧٦.

المطلب الثاني: كيفية نـزول القرآن.

من عقائد السلف أن جبريل ﷺ سمع القرآن من الله ﷻ، ثم نزل بأمر الله ﷻ به على النبي ﷺ، وهذا النـزول للقرآن الكريم متفق عليه، وقد تم هذا النـزول نجوما مفرقا على مدى عقدين من الزمن فأكثر، ويُسمى هذا التنـزل بـ"**نزول القرآن منجما**"، وهناك نزولٌ آخر ورد عن السلف، ودل عليه ظاهر القرآن، وهو "**نزوله جملة إلى السماء الدنيا**".

ومعرفة تنـزلات القرآن مهمّة، فالإيمان بكونه منـزلا باب للإيمان، وأشار إلى هذا أمير المؤمنين في الحديث البخاري ﷺ حيث ابتدأ «صحيحه ببدء الوحي ونزوله، فأخبر عن صفة نزول العلم والإيمان على الرسول ﷺ أولا، ثم أتبعه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار بما جاء به، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي»[1] فمعرفة نزول القرآن طريق الإيمان.

ولبيان تنـزلات القرآن الكريم، أقسم هذا المطلب إلى مسألتين.

المسألة الأولى: نزول القرآن الكريم جملة إلى السماء الدنيا.

أنزل الله ﷻ القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في الليلة المباركة، ليلة القدر، في شهر رمضان، وكذلك إبتداء إنزاله إلى النبي ﷺ كان في شهر رمضان[2].

ومن الأدلة على هذا:

١ ـ الآيات الثلاث: وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[الدخان:٣]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[القدر:١] وقوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾[البقرة:١٨٥] ففيها أن نزول القرآن كان في ليلة وصفت بأنها مباركة، وهي

---

(١) المجموع ٢/ ٤.

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة لقوام السنة ١/ ٢٧٨، المجموع ١٦/ ٣٠٧.

ليلة القدر، وهذه الليلة في شهر رمضان[١].

وهذا «نص في أن القرآن نزل في شهر رمضان...، ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ، ليلة القدر، جملة واحدة، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا»[٢].

فظاهر هذه الآيات أن نزول القرآن كان جملة واحدة، وهذا نزول غير النـزول على النبي ﷺ الذي هو منجم على سنين.

٢ ـ قال ﷺ : **[أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان]**[٣]. وهذا ـ والله أعلم ـ: نزول الملك بالقرآن من اللوح المحفوظ، إلى سماء الدنيا[٤].

٣ ـ قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[القدر:١] قال: **[أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بموقع النجوم، وكان الله ينـزله على رسوله ﷺ بعضه إثر بعض]**[٥].

٤ ـ وعن ابن عباس ﷺ قال: **[أنزل الله القرآنَ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئا أوحاه ـ أو أن يُحدث منه في الأرض شيئا أحدثـه ـ]**[٦].

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢/ ١٥٠-١٥١، التسهيل لعلوم التنـزيل لابن جزي ٤/ ٣٤، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ١٣٧، ٥٢٩، فتح البيان لصديق حسن ١٠/ ٤٠٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٩٩.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند، من حديث واثلة بن الأسقع، ٤/ ١٠٧، ح(١٧١٠٩)، والطبري في التفسير ٢/ ١٥٠، وقال الألباني: «هذا إسناد حسن رجاله ثقات» كما في السلسلة الصحيحة ٤/ ١٠٤، ح(١٥٧٥)، وروى نحوه الطبري في التفسير ٢/ ١٥٠، من حديث ابن عباس موقوفا، وروى الحديث غيرهما. انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢١٦، الدر المنثور ١/ ٤٥٦.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٢١٦.

(٥) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، سورة القدر، ح(١١٦٢٥)، ورواه الحاكم في مستدركه؛ كتاب التفسير، ح(٢٨٧٨)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي كما في التلخيص في حاشية المستدرك.

(٦) رواه النسائي في فضائل القرآن ص ٥٩، والحاكم في مستدركه ؛كتاب التفسير، سورة القدر، ح(٢٨٧٧)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي كما في التلخيص.

والآثار في هذا عن ابن عباس ﷺ كثيرة، يعضد بعضها بعضا، وهي وإن كانت موقوفة في جملتها فإن لها حكم الرفع إلى النبي ﷺ، لأن هذا مما لا مجال للرأي فيه، وهو خبر متعلق بالقرآن فلا يكون من الإسرائيليات، خصوصا أنه يؤكد هذا القول بالتفصيل والتحديد، فيحمل هذا على السماع، وأن هذا التنـزيل ثابت.

وهذا التنـزيل لم ينكره ـ بحسب ما أعلم ـ أحد من السلف السابقين[1]، حتى

---

(١) وقد نسب بعض المصنفين إنكار هذا التنـزيل إلى بعض السلف، وهم:

١ ـ **الشعبي**: عامر بن شراحيل أبو عمرو، ثقة مشهور، فقيه فاضل، مات بعد المائة، وله نحو من ثمانين سنة، روى له الجماعة. انظر: السير ٤/ ٢٩٤، تقريب التهذيب ص٢٣٠.

٢ ـ **محمد بن إسحاق** بن يَسار القرشي المدني، إمام المغازي، صدوق يدلس، ورمي بالتشيع والقدر، مات سنة (١٥٠هـ)، وقيل بعدها، روى له أصحاب السنن، ومسلم في المتابعات، والبخاري تعليقا. انظر: السير ٧/ ٣٣، تقريب التهذيب ص٤٠٣.

أما محمد بن إسحاق المدني فقد نسب الإنكار إليه الرازي في تفسيره (٥/ ٨٥) دون أن يذكر دليلا، فلا يحتاج إلى رد، ويكفي أنه لم يذكر دليلا على هذه النسبة.

وأما الشعبي: فقد نَسب إليه الإنكار عامةُمن ألف في علوم القرآن، خصوصا من جاء بعد أبي شامة، وعدوا قوله قولا ثالثا في المسألة (انظر: النكت والعيون للماوردي ٣/ ٣٧٠، المرشد الوجيز لأبي شامة ص ٢٠، البرهان للزركشي ١/ ٢٢٨، الإتقان للسيوطي ١/ ١١٨).

والجواب عن هذا من أوجه: ١ ـ أنه ثبت عن الشعبي بالسند الصحيح القول بإثبات النـزول جملة إلى السماء الدنيا حيث قال: «بلغنا أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا» كما رواه ابن جرير (الإمام المفسر) في تفسيره (٢/ ١٥١، ١٢/ ٦٥٢) قال: حدثنا ابن علية (ثقة حافظ) عن داود (ثقة متقن) عن الشعبي به. ٢ ـ أن ما روي عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أنه قال: «نزل أول القرآن في ليلة القدر» كما في تفسير الطبري (١٢/ ٦٥١) قال: ثنا عمرو بن عاصم الكلابي (صدوق) قال: ثنا المعتمر بن سليمان التيمي (ثقة) قال ثنا عمران أبو العوام: «صدوق يَهِم اتهم برأي الخوارج» قال: ثنا داود بن أبي هند، عن الشعبي به. فهذا في إسناده نظر، ولا يقوى على معارضة ما صح أولا، ثم لو صح فليس فيه معارضة لما ثبت عنه أولا، كما أن الطبري ذكره في تفسيره (١٢/ ٦٥١) بعد قوله: «أنزل هذا القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا...، وبنحو الذي قلنا... قال أهل التأويل، ومن ذلك» ثم سرده، ولم يذكر بين الأثرين تعارضا، بل ذكرهما تحت قول واحد. ٣ ـ أن الرواية الثانية لو صحت عنه فهي تحمل على أنها تفسير للآية، وليست إنكارا لنـزول القرآن جملة إلى سماء الدنيا، قال الحافظ ـ بعد أن ذكر نزول القـرآن جملة إلى السمـاء الدنيا، ونزوله مفرقا على النبي ﷺ ـ: «وهذا كله مطابق لقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ ولقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾...، فأُنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا، ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين ـ أي من رمضان ـ إلى الأرض أول ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ »، =

قال القرطبي: «ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر جملة واحدة فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا...، وقول مقاتل[1] هذا خلاف ما نقل من الإجماع: أن القرآن أنزل جملة واحدة ـ والله أعلم ـ»[2].

والحكمة في هذا النزول:

أ ـ تعظيم شأن القرآن، ففي هذا النـزول «تفخيم لأمره، وأمر من أنزل عليه،

=

(الفتح ٨/ ٦٢١). ٤ ـ **قول الماوردي وغيره أن**: القول الثاني: ابتداء إنزاله في ليلة القدر، وأن هذا قول الشعبي، إن كانوا يقصدون أنه تفسير ثان للآيات فنعم، وإن كانوا يقصدون أنه ينكر النـزول الأول فلا، قال أبو شامة في قول الشعبي إنه: «إشارة إلى ابتداء إنزال القرآن على النبي ﷺ...، وهذا وإن كان الأمر فيه كذلك إلا أن تفسير الآية به بعيد»، (المرشد الوجيز ص٢٠). ٥ ـ أن ما رواه عبد بن حميد وأبو عبيد وابن أبي شيبة وابن الضريس عن داود بن أبي هند قال: «قلت لعامر الشعبي: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، فهل كان نزل عليه في سائر السنة إلا ما في رمضان، قال: بلى ولكن جبريل كان يعارض محمدا ما أنزل في السنة في رمضان، فيحكم الله ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وينسخ ما ينسخ، وينسيه ما شاء» (الفتح ٨/ ٦٢١، الدر المنثور ١/ ٤٥٨)، فهذا لا يخالف النـزول جملة، قال الحافظ: «والمعتمد أن جبريل كان يعارض النبي ﷺ في رمضان بما ينـزل به عليه في طول السنة، كذا جزم به الشعبي، فيما أخرجه عنه أبو عبيد وابن أبي شيبة بإسناد صحيح» (الفتح ٨/ ٦٢١)، ويوضحه ما ذكره أبو القاسم البغوي بسنده عن الشعبي أنه قال: «إن جبريل كان يعارض النبي ﷺ بما أنزل عليه في سائر السنة في شهر رمضان» (المرشد الوجيز ص٢٢)، فهذا يؤكد أن تفسيره بهذه الصورة لآية النـزول هو مما فهمه من عموم الآيات، لا أنه ينكر النـزول جملة إلى السماء الدنيا، وإنما فهم من العرضات أنها من الإنزال الذي يُحكم الله في الآيات. ٦ ـ لهذا كله عَدَّ السخاوي الشعبي مع القائلين بنـزوله جملة واحدة إلى السماء الدنيا ثم نزوله مفرقا، كما في جمال القراء له (١/ ٢٠)، وذلك لعدم التعارض بين هذه الآثار المروية عنه حيث إن لكل وجهة. ٧ ـ أن الشهرة في إثبات مثل هذا الأمر إلى الشعبي لا تكفي، بل لا بد من نص قطعي، خصوصا مع شدة حرص السلف لالتزامهم بظاهر النصوص، وحرصهم على الإتباع. ولذلك لا أذكر الأدلة التي استُدل بها، ولا أضيع الوقت في ردها، خصوصا أنها لم تثبت عنه نصا، وإنما هو قيل عليه ظنا ـ والله تعالى أعلم ـ.

(١) هو المفسر المشهور: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي، اختلف العلماء فيه، فمنهم من كذبه وهجره، ومنهم من أحسن فيه الظن، ورمي بالتجسيم، قال البخاري: «مقاتل لاشيء البتة». انظر: السير ٧/ ٢٠١-٢٠٢، التقريب ص٤٧٦، معجم المفسرين لعادل نويهض٢/ ٦٨٢-٦٨٣.

وقول مقاتل الذي ذكره القرطبي هو: أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ كل عام في ليلة القدر إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى السفرة من اللوح المحفوظ في عشرين شهرا، ونزل به جبريل في عشرين سنة. انظر: المرشد الوجيز لأبي شامة ص١٨، الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٩٩.

وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب، المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم»[١].

ب ـ أن الله ﷻ جمع للقرآن نزولين: جملة إلى السماء الدنيا، ومفرقا على نبيه المجتبى، فبهذا باين بينه وبين الكتب المنزلة السابقة، فشارك الكتب المنزلة في صفة وتميز عنها في الأخرى، وهذه ميزة للقرآن سواء قيل بنزول الكتب السابقة جملة أو مفرقة، إذ لم تجتمع الصفتان إلا للقرآن الكريم[٢].

ج ـ أن في نزول القرآن جملة إلى سماء الدنيا إعلامًا لأهل السموات ببعثة محمد ﷺ[٣].

المسألة الثانية: نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ منجما.

وهذا معروف ومشهور بين السلف والخلف[٤]، ودل عليه الكتاب والسنة، ومن هذه الأدلة:

١ ـ قول الله ﷻ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[الفرقان:٣٢] ومراد الكفار بهذا السؤال: أن ينزل القرآن على محمد ﷺ مرة واحدة، ودفعة كاملة، كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة، فبين الله ﷻ الحكمة من تنجيمه، وتنزيله الآي بعد الآي، والشيء بعد الشيء، بحسب الوقائع والأحكام، وأنه كان تثبيتا لفؤاده ﷺ[٥].

٢ ـ قول الله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

---

(١) المرشد الوجيز ص٢٤، وانظر: الإتقان ١/ ١١٩.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: المرشد الوجيز ص٢٥، الإتقان ١/ ١١٩-١٢٠، وهل كان هذا الإنزال قبل البعثة أم بعدها؟ ذكر فيه أبو شامة القولين، ويظهر أنه مال إلى الأول، وقال: «وإن كان قبلها ففائدته أظهر وأكثر...، كما أعلم الله ﷻ الملائكة قبل خلق آدم»، وقال السيوطي: «والظاهر الثاني»، ولا يترتب على هذا كبير خلاف ـ والله أعلم ـ.

(٤) انظر: البرهان للزركشي ١/ ٢٢٨، الفتح ٨/ ٦٢٠-٦٢١، الإتقان للسيوطي ١/ ١١٦.

(٥) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٣٨٦-٣٨٧، معالم التنزيل للبغوي ٦/ ٨٣، زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٨٨.

[الإسراء:١٠٦] و﴿ فَرَقْنه ﴾[(١)] بالتخفيف: أحكمناه، وأما قراءة التشديد ﴿ فَرَّقْناه ﴾[(٢)] فبمعنى: نزلناه شيئا بعد شيء، آية بعد آية، ويؤكد هذه القراءة آخر الآية ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ أي فرقنا تنـزيله، وأنزلناه شيئا بعد شيء[(٣)].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الواقعة:٧٥-٨٠] و﴿ مَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ قيل فيها: نجوم السماء، وقيل: نجوم القرآن، وسميت نجوما لنـزولها متفرقة، ومواقعها: نزولها، حيث أنزل القرآن على رسول الله ﷺ نجوما متفرقة[(٤)].

٤ ـ قد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: **[إن أول ما نزل صدر سورة "اقرأ"]**[(٥)]، وعن جابر رضي الله عنه: **[فأنزل الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾[المدثر:١-٥]]**[(٦)] والآثار في ذلك كثيرة[(٧)].

٥ ـ قول عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا: **[لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينـزل عليه القرآن، وبالمدينة عشر سنين]**[(٨)]. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: « ويؤخذ من هذا

---

(١) هذه قراءة عامة أهل الأمصار، انظر: جامع البيان للطبري ٨/ ١٦١.

(٢) هذه القراءة رُوي عن ابن عباس، كما في جامع البيان للطبري الموضع السابق، وليست من القراءات العشر المتواترة. انظر: القراءات العشر المتواترة لمحمد كريم راجح بحاشية القرآن الكريم ص٢٩٣.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ٨/ ١٦١-١٦٣، معالم التنـزيل للبغوي ٥/ ١٣٥-١٣٦، المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٤٩١.

(٤) انظر: جامع البيان للطبري ١١/ ٦٥٧، معالم التنـزيل للبغوي ٣/ ١٨١، زاد المسير ٨/ ١٥١،تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩٩، الفتح ١٣/ ٤٧٢.

(٥) هو جزء من حديث طويل رواه البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب/ ...، ح(٣)، ومسلم؛ كتاب الإيمان، باب/ بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ح(١٦٠).

(٦) هو جزء من حديث رواه البخاري؛ كتاب بدء الوحي، باب/ ...، ح(٤)، ومسلم؛ كتاب الإيمان، باب/ بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ح(١٦١).

(٧) انظر: المدخل لدراسة علوم القرآن الكريم لأبي شهبة ص ٥٤.

(٨) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ح(٤٩٧٨، ٤٩٧٩).

الحديث... أنه ـ أي القرآن ـ نزل مفرقا، ولم ينـزل جملة واحدة»[(١)].

٦ ـ واقع نزول القرآن الكريم يدل على ذلك؛ فالسور المكية نزلت قبل المدنية، والمكية بعضها قبل بعض، وهكذا المدنية، فالآيات إنما كانت تنـزل بإذن الله تعالى على حسب الوقائع والأحداث.

والحكمة في نزول القرآن منجما مفرقا هي:

أ ـ تثبيت فؤاد النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[الفرقان:٣٢] والمعنى: أنزلناه مفرقا تثبيتا لقلبك، وهذه من أجل الحكم، وأعظمها[(٢)].

ومن تثبيت قلبه ﷺ، تسليته وأصحابه بكثرة نزول الوحي، حتى لا ييأس، ويرتفع عنه الحزن والهم الذي يجده بسبب الكفار والمنافقين[(٣)]، ومنه تسليته ﷺ بذكر قصص الأنبياء السابقين، كما قال الله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود:١٢٠].

ب ـ تيسير حفظه وفهمه على الرسول ﷺ وأصحابه، إذ أنهم كانوا أمة أمية، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾[الأعراف:١٥٧] وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة:٢].

ج ـ فضح قبائح المشركين والمنافقين، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا

---

(١) الفتح ٨/ ٦٢٠، وظاهر الحديث يدل على أن النبي ﷺ مكث بكمة عشر سنين داعيا، والصحيح أنه مكث ثلاث عشرة سنة، وإنما ذكر الصحابيان العقد مع إلغاء الكسر، وهذا أسلوب معروف عند العرب، وقيل غير ذلك، ولكن هذه أرجحها وأبينها. انظر: الفتح ٨/ ٦٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للطبري ٩/ ٣٨٦-٣٨٧، المدخل لدراسة علوم القرآن الكريم لأبي شهبة ص٦٥.

(٣) انظر: المرشد الوجيز ص ٢٨، الفتح ٨/ ٦٢٥.

تَحْذَرُونَ ﴾[التوبة:٦٤].

د ـ **التحدي والإعجاز**، فكان المشركون يسألون أسئلة للتعجيز ويأتيهم الجواب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[الفرقان:٣٢-٣٣]، فالقرآن « لما نزل منجما مفرقا وتحداهم النبي ﷺ من أول الأمر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن، فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى، فثبت بهذا الطريق أن القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة »[١].

هـ ـ **التدرج في التشريع**، حيث كانوا على عادات وأمور، فكان من الرحمة بهم التدرج ليقبلوه، ويسهل عملهم به[٢]، قال الله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء:١٠٦] قالت عائشة ﵂ : **[إنما نزل أول ما نزل منه سورةٌ من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أولَ شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنى أبدا. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب** ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[القمر:٤٦] **وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده]**[٣].

وإذا ثبت أن القرآن أنزله الله ﷻ لحكم بالغة إلى السماء الدنيا جملة واحدة، وأنزلها على النبي ﷺ بواسطة جبريل على فترات لحكم باهرة، وفضائل جامعة، فالحق أنه لا تعارض بين النـزولين، فكأن الأول: لأهل السماء إعلاما وإيذانا ببدء شمس الرسالة المحمدية، **والثاني:** لأهل الأرض إنذارا وإعذارا، وتبشيرا وتيسيرا برسالة الإسلام العلية السنية.

---

(١) إظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندي ٢/ ١٠٣.

(٢) انظر: إظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندي ٢/ ١٠٢، ومناهل العرفان للزرقاني ١/ ٦١-٦٣.

(٣) رواه البخاري؛ كتاب فضائل القرآن، باب/ تأليف القرآن، ح(٤٩٩٣).

فإنزال القرآن إلى سماء الدنيا نزول خاص، وتنـزيله إلى الأرض نزول آخر، والقرآن موجود في اللوح المحفوظ، قال ابن القيم رحمه الله: «والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ، قبل خلق السماوات والأرض..وأجمع الصحابة والتابعون، وجميع أهل السنة، والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة، فهو مكتوب في أم الكتاب»(١)، ولا تنافيَ بين هذا، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[القدر:١] أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث»، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله،كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾[البروج:٢١-٢٢]...؛ **فإن كونه مكتوبا في اللوح المحفوظ**، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك، وإذا كان قد أنزله مكتوبا إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر، فقد كتبه كله قبل أن ينـزله... فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف ـ وهو حق ـ فإذا كان ما يخلقه بائنا عنه قد كتبه قبل أن يخلقه، فكيف يستبعد أن يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم»(٢).

فإذا لا إشكال بين نزول القرآن جملة، وبين نزوله مفرقا، ولا يترتب عليه محذور، كيف وهو مأثور، وإنما يحصل المحذور فيما إذا اعتَقَدَ معتقدٌ بأن القرآن لم يسمعه جبريل من رب العزة جل جلاله، وأنه أخذه من اللوح محفوظا، أو ألهمه الله إلهاما، وثبت نزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا، وهذا لا يدل على نفي سماع جبريل عليه السلام للقرآن من رب العزة عز وجل، قال أبو حامد الإسفرائيني(٣): «مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق فهو كافر،

---

(١) شفاء العليل ١/ ١٢٠.

(٢) المجموع ١٢/ ١٢٦-١٢٧، وانظر منه: ١٥/ ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) هو: أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفرائيني شيخ الشافعية ببغداد، توفي ٤٠٦هـ. انظر السير ١٧/ ١٩٣، شذرات الذهب ٣/ ١٧٨.

والقرآن حمله جبريل مسموعا من الله ﷻ، والنبي ﷺ سمعه من جبريل، والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ، وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا، وفيما بين الدفتين، وما في صدورنا، مسموعا، ومكتوبا، ومحفوظا»[١].

ولا يقول أحد من السلف أن جبريل عليه السلام أخذ القرآن من اللوح المحفوظ أو غيره، وذلك لأن هذا القول مبني على القول بخلق القرآن، وقد مضى أن السلف قاطبة مجمعون أن القرآن كلام الله تعالى حقيقة غير مخلوق.

والقول بأن جبريل عليه السلام أخذ القرآن من اللوح أو غيره، قول الخلقية[٢]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن قال: إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء، فهو مفتر على الله، مكذب لكتاب الله، متبع لغير سبيل المؤمنين»[٣].

وفساد قول من قال بأن جبريل أخذه من اللوح أو غيره بينٌ، فهذه «المقالة مبنية على أصل فاسد، وهو القول بخلق القرآن، وهذه مقالة الجهمية، والمعتزلة ومن نحا نحوهم، وهذه المقالة الخاطئة حقيقتها إنكار أن يكون الله متكلما حقيقة»[٤].

وبَعْدُ، فقد تبين أن جبريل عليه السلام سمع القرآن من الله تعالى ونزله به على محمد ﷺ، ولا ينافي هذا نزول القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ووجوده في بيت العزة، ومما يؤكد هذا المعنى، معرفة معنى الإنزال عند السلف، وهذا ما سأبينه في المبحث الآتي.

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٣٠٦، حيث نقل هذا عن أبي الحسن الكرجي، وهو بسنده عن الإسفرائيني.
(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١٢٠.
(٣) المجموع ١٢/ ٥٢٠.
(٤) الجواب الواضح المستقيم في كيفية إنزال القرآن الكريم، للشيخ محمد بن إبراهيم ص ٢.

المبحث الثالث: معنى إنزال الله القرآن عند السلف

سبق إثبات أن القرآن كلام الله ﷻ منـزل على محمد ﷺ بواسطة جبريل ؑ، وأن القرآن نزل جملة إلى السماء الدنيا، ونزل على محمد ﷺ منجما.

« **ومسألة القرآن** لها طرفان، **أحدهما**: تكلم الله به، وهو أعظم الطرفين. **والثاني**: تنـزيله إلى خلقه، والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول »[1] ومضى ما يدل على تحقيق الأول وإثباته، وكذلك كونه منـزلا على محمد ﷺ بواسطة جبريل ؑ.

وإن العقيدة السلفية في النـزول هي القول بالحقيقة دون المجاز، والعمل بظاهر النصوص دون التأويل، ولمعرفة معنى النـزول قسمت هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: معنى النـزول لغة:

لمعرفة معنى النزول لا بدّ من إيراد المعنى اللغوي، حيث إن القرآن نزل بلغة العرب، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٥] وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢] وقال: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الزمر:٢٨] وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[طه:١١٣].

وأصل مادة (نزل) يدل على الهبوط من علو إلى سفل، وكل ما ورد من المعاني روعي فيه هذا المعنى، « فالنون، والزاي، واللام: كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء

---

(١) المجموع ١٢/ ٢٧٤، دقائق التفسير ١٢/ ١٨٧.

ووقوعه»[(١)]، قال الراغب[(٢)]: «فالنـزول في الأصل هو انحطاط من علو»[(٣)].

ومادة (نزل) وردت في اللغة بتصريفات كثيرة منها: نَزَل، وأَنْزَل، وتَنَزَّل، ونَزَّل...[(٤)] وغير ذلك، ووردت في القرآن الكريم بتصريفات مختلفة، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾[الشعراء:١٩٣] وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:١] وقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[النساء:١١٦] وقال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾[الشعراء:٢١٠].

فنَزَل، ونَزَّل، وأَنْزَل، وتَنَزَّل بمعنى، يدل كل على معنى النـزول[(٥)]، ومن ذلك قولهم: «نزل عن دابته نزولا، ونزل المطر من السماء نزولا»[(٦)].

و«الـمَنْزِل موضع النـزول، والمنـزلة مثله، وهي أيضا المكانة»[(٧)] والنُّزُل ما يُعد للضيف من الزاد[(٨)]، ومنه قول الله تعالى عن أصحاب الجنة: ﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا ﴾[السجدة:١٩] وقال عن نزل أصحاب النار: ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾[الواقعة:٩٣] والنازلة: الشدة، وجمعها نوازل[(٩)].

---

(١) مقاييس اللغة ص ١٠٢٢.

(٢) هو اللغوي المشهور: أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، وله مؤلفات أدبية، ولفتات لغوية منها: المفردات في غريب القرآن، وكتاب في التفسير لم يكمله، والذريعة إلى مكارم الشريعة، توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر: هدية العارفين ٥/ ٣١١، معجم المؤلفين لعمر كحالة ٤/ ٥٩، معجم المفسرين لعادل نويهض ١/ ١٥٨-١٥٩.

(٣) المفردات للراغب ص ٤٩٠.

(٤) ولما كانت التصريفات لـ (النـزول) مختلفة، فقد فرق بعضهم بين الإنزال والتنـزيل، فقال: الأول للنـزول دفعة واحدة، والثاني للنـزول شيئا فشيئا، وقيل إنها قاعدة مطردة، وقيل: إنها قاعدة أغلبية. انظر: مقاييس اللغة ص ١٠٢٣، المفردات للراغب ص٤٩١، تاج العروس للزبيدي ٨/ ١٣٣، تفسير الجلالين كلان ص ٤٦، هدي الفرقان في علوم القرآن د/ غازي عناية ١/ ٩٨-١٠٨.

(٥) انظر: تاج العروس للزبيدي ٨/ ١٣٣ مادة: (نزل).

(٦) مقاييس اللغة ص ١٠٢٢-١٠٢٣، مادة: (نزل). وانظر: كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ص ٣٦٧.

(٧) المصباح المنير ص ٦٠١ مادة: (نزل).

(٨) انظر: العين للخليل بن أحمد ص ٣٦٧، المفردات ص ٤٩١ مادة: (نزل).

(٩) انظر: المفردات ص ٤٩١.

ونزل يتعدى بالحرف، فيقال: **نزلت** منه، ويتعدى بالهمزة، **فيقال**: أنزلته، ويتعدى بالتضعيف، **فيقال**: نزَّلته[(١)].

وحيثما ورد لفظ النـزول فإن فيه مراعاة للمعنى اللغوى الأصلي، وهو: الهبوط من علو إلى سفل، وما يذكره بعض اللغويين مما قد يظن أنه ليس فيه ملحظ لمعنى الهبوط فهو قصور، **والصواب هو ما** ذكره شيخ الإسلام رحمه الله من أن كل ما استعمل فيه لفظ النـزول فإن معنى الهبوط ملحوظ فيه، وذلك حيث قال: « والضيافة سميت نزلا لأن العادة أن الضيف يكون راكبا فينـزل في مكان يؤتى إليه بضيافته فيه، فسميت نزلا لأجل نزوله، ونزل ببني فلان ضيف، ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[المؤمنون:٢٩][(٢)] لأنه كان راكبا في السفينة، **وسميت المواضع** التي ينزل بها المسافرون منازل؛ لأنهم يكونون ركبانا فينـزلون، والمشاة تبع للركبان، **وتسمى** المساكن منازل »[(٣)].

فإذا عرف المعنى اللغوي لكلمة "النزول"، فيحسن الآن الشروع في معنى نزول القرآن الكريم عند السلف.

---

(١) انظر: المصباح المنير ص ٦٠٠.

(٢) قرأ شعبة عن عاصم: (**مَنْزِلا**) بفتح الميم، وكسر الزاي، وقرأ الباقون: (**مُنْزَلا**) بضم الميم، وفتح الزاي. انظر: المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر ص ٢٦٨، القراءات العشر المتواترة المطبوع بهامش القرآن الكريم إعداد/ محمد كريم راجح ص ٣٤٤.

(٣) المجموع ١٢/ ٢٥٣.

المطلب الثاني: معنى إنزال القرآن عند السلف.

القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وتبين أن النـزول في اللغة التي نزل بها القرآن معناه الهبوط من علو إلى سفل، وهذا هو المعنى الذي أجمع عليه السلف، وهو القول بنـزول القرآن الكريم حقيقة دون مجاز، والقول بظاهر ما دل عليه الشرع دون تأويل، وسبق ذكر الأدلة الدالة على نزول القرآن الكريم.

و« الصحابة والتابعون لهم بإحسان على أن القرآن والتوراة والإنجيل، وغير ذلك من كلام الله هو كلام الله الذي تكلم به، وأن الله أنزله »[(١)]، ومعلوم أن نزول التوراة والإنجيل كان حقيقة، فكذا إنزال القرآن الكريم، ولهذا قرن الله تعالى بين هذه الكتب وأنه أنزلها، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾[آل عمران:١-٤].

قال الراغب: « وإنزال الله تعالى نعمه ونقمه على الخلق: إعطاؤهم إياها، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن، وإما بإنزال أسبابه »[(٢)].

والآيات المصرحة بلفظ الإنزال والتنـزيل كثيرة، وظاهرها دال على كون القرآن منـزّلاً من الله تعالى حقيقة.

ولفظ الإنزال في القرآن قد ورد مطلقا ومقيدا، وكثير من الناس فسروا التنـزيل في مواضع من القرآن بغير معناه المعروف[(٣)]، لاشتباه المعنى في تلك المواضع[(٤)]، والسلف فطنوا لهذا الفرق، وعلموا أن الإنزال في كل موضع بحسبه.

---

(١) الجواب الصحيح ٤/ ٣٣٢، وانظر: الغنية لأبي سعيد النيسابوري ص ١٠٧.

(٢) المفردات للراغب ص ٤٩٠، وانظر: تاج العروس ٨/ ١٣٣.

(٣) وسيأتي ذكر شيء من تفسيراتهم للنـزول في الفصل الثاني من الباب الثاني.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٤، محاسن التأويل للقاسمي ٧/ ٣٩.

ولفظ الإنزال ورد في القرآن على ثلاثة أنواع(١):

النوع الأول: نزول مقيد بأنه من الله ﷻ؛ وهذا النوع مختص بنـزول القرآن، فلم يرد إلا فيه(٢)، «ولم يخبر عن شيء أنه منـزل من الله إلا كلامه بخلاف نزول الملائكة، والمطر، والحديد، وغير ذلك»(٣).

وهذا النوع ذِكره كثير، قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢] وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الواقعة:٨٠، والحاقة:٤٣] وقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت:١-٢] و«**التنـزيل بمعنى الـمُنَـزَّل**، تسمية للمفعول باسم المصدر»(٤).

وهذا التنصيص بأنه منـزل من الله ﷻ دليل على أنه كلامه منـزل منه، لا من مخلوق من المخلوقات، و« قد دل استقراء القرآن العظيم، على أن الله ـ جل وعلا ـ، إذا ذكر تنـزيله لكتابه، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى، المتضمنة صفاته العليا...، ولا يخفى أن ذكره ـ جل وعلا ـ هذه الأسماء الحسنى العظيمة، بعد ذكره تنـزيل هذا القرآن العظيم، يدل بإيضاح على عظمة القرآن العظيم، وجلال شأنه، وأهمية نزوله ـ والعلم عند الله تعالى ـ »(٥).

وكون القرآن من الله فيه بيان أنه كلام الله، وأن له منـزلة عالية(٦)، قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف:١-٤] فالقرآن عالي المنـزلة، ونزوله كان من علو.

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ١١٨، ٢٤٧، ١٥/ ٢٢١.
(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٤٧.
(٣) المجموع ١٢/ ٢٩٧.
(٤) المجموع ١٢/ ٢٤٨.
(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٧/ ٢٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٢٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٤٢.

وقد يَرِدُ نزول القرآن مطلقا، كقول الله تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:١٠٥] وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد:١٦] فيحمل هذا المطلق على المقيد.

والسلف مطبقون على نزول القرآن من الله، والله تعالى في العلو، فيكون نـزول جبريل بالقرآن من العلو إلى الدنيا[١]، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[الأنعام:١١٤].

النوع الثاني: نزول مقيد بأنه من السماء[٢]، والسماء اسم جنس لكل ما علا[٣]، وقد ورد نزول أشياء من السماء.

ومنه نزول المطر من السماء كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[البقرة:٢٢]، ومعلوم أن المطر ينـزل من السحاب وهو في السمو قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾[الواقعة:٦٩]، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ [النبأ:١٤] والمزن والمعصرات: السحب[٤].

وورد إنزال العذاب من السماء، وهو العلو، قال الله ﷻ : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[البقرة:٥٩]، والرجز العذاب[٥].

وورد في إنزال الملائكة من السماء، ومكانهم العلو، قال ﷻ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء:٩٥].

وكذا ورد النزول من العلو في ذكر "المائدة" قال ـ عز مِن قائل ـ ﴿ إِذْ قَالَ

(١) انظر: المجموع ٨/ ٢٦-٢٧.
(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١١٨.
(٣) انظر: مقاييس اللغة ص ٤٩٠، المجموع ١٢/ ٢٤٨، المصباح المنير ص ٢٩٠.
(٤) انظر: المفردات للراغب الأصبهاني ص ٣٣٩، ٤٦٩.
(٥) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٣٤٦.

ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:١٠٢].

النوع الثالث: الإنزال المطلق؛ من غير قيد، وإنما فيه ذكر كونه منزلا دون بيان الجهة المُنَزَّلة منه(١).

ومن هذا الإطلاق إنزال الحديد، قال ﷻ: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[الحديد:٢٥].

وورد النـزول مطلقا دون بيان مكان المنـزل في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الفتح:٤].

ومن الإنزال المطلق، قوله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾[الزمر:٦].

والإنزال المطلق يفسر بحسب السياق، أو بما يبينه في المواضع الأخرى، قال شيخ الإسلام رحمه الله بعد أن ذكر اختلاف الناس في معنى النـزول في هذه المواضع المطلقة: «ولا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة، فإن الأنعام تنزل من بطون أمهاتها، ومن أصلاب آبائها تأتي بطون أمهاتها، ويقال للرجل: قد أنزل الماء، وإذا أنزل وجب عليه الغسل، مع أن الرجل غالب إنزاله وهو على جَنْب إما وقت الجماع، وإما بالاحتلام، فكيف بالأنعام التي غالب إنزالها مع قيامها على رجليها، وارتفاعها على ظهور الإناث.

ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات، فلم يقل: أنزل النبات، ولا أنزل المرعى، وإنما استعمل فيما يخلق في محل عال، وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام»(٢).

وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ

(١) المجموع ١٢/ ١١٨.
(٢) المجموع ١٢/ ٢٥٤.

وَرِيشًا ﴾[الأعراف:٢٦] بعد أن ذكر الخلاف في معنى نزولها: «**والقرآن مقصوده** جنس اللباس الذي يلبس على البدن وفي البيوت...، فامتن سبحانه عليهم بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث، وهذا ـ والله أعلم ـ معنى إنزاله، فإنه ينـزله من ظهور الأنعام، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرِياش، فقد أنزلها عليهم، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب فهي لدفع الحر والبرد، وأعظم من القطن والكتان...، فإذا كان اللباس والرياش ينـزل من ظهور الأنعام، وكسوة الأنعام منـزلة من الأصلاب والبطون...، فهو منـزل من الجهتين، فإنه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بنو آدم حتى ينـزل»[(١)].

ثم قال: «فقد تبين أنه ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النـزول المعروف، وهذا هو اللائق بالقرآن فإنه نزل بلغة العرب، ولا تعرف العرب نزولا إلا بهذا المعنى، ولو أريد به غير هذا المعنى لكان خطابا بغير لغتها، ثم هو ـ أي التأويل والتفسير الخاطئ لمعنى النـزول ـ استعمال اللفظ المعروف له معنى في معنى آخر بلا بيان، وهذا لا يجوز بما ذكرنا، وبهذا يحصل مقصود القرآن ـ واللغة ـ الذي أخبر الله تعالى أنه بينه وجعله هدى للناس»[(٢)].

و«كون القرآن عربيا أمر ظاهر، لا يحتاج إلى الإخبار...، والرب تعالى اختص بجعله عربيا فإنه هو الذي تكلم به وأنزله، فجعله قرآنا عربيا بفعل قام بنفسه، وهو تكلم به، واختاره لأن يتكلم به عربيا... وأنزله به»[(٣)].

وبهذا يتبين أن جبريل نزل بالقرآن حقيقة، أنزله جملة إلى سماء الدنيا، وأنزله على محمد ﷺ منجما، وهذان النزولان حقيقة على ظاهره، كما أنّ وجوده حقيقة.

---

(١) المجموع ١٢/ ٢٥٥-٢٥٧.
(٢) المجموع ١٢/ ٢٥٧.
(٣) المجموع ٨/ ٢٨-٢٩.

وأما وجودات القرآن الكريم فهي:

١ ـ **وجود في اللوح المحفوظ**؛ ولم يرد فيه لفظ النـزول، فالأولى أن يعبر بلفظ الوجود والثبوت، إذ أن الله كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة، ومن ذلك القرآن، **فوجوده في اللوح ثابت**[(١)]، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾[الواقعة:٧٧-٨٠]، الآيات، وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[الزخرف:٤]، ونزول القرآن إلى السماء الدنيا ثابت، ونزوله على محمد ﷺ حق، ولا تنافي بين كون القرآن موجودًا في اللوح المحفوظ، وكون جبريل سمعه من الله، وأنزل به على محمد ﷺ[(٢)].

٢ ـ **وجوده في أيدي السفرة الكرام البررة**: وهم الملائكة، قال تعالى عن القرآن: ﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾[عبس:١٣-١٦].

٣ ـ **وجوده في السماء الدنيا**: في بيت العزة، وقد سبق بيان الأدلة على ذلك، وهذا سمي تنـزيلا بنص القرآن، كما سبق[(٣)].

« ولا تنافي بين كونه موجودا في اللوح المحفوظ وغيره...؛ فإن كونه مكتوبا في اللوح المحفوظ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة، لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل، أو بعد ذلك، وإذ كان قد أنزله مكتوبا إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر، فقد كتبه كله قبل أن ينـزله »[(٤)].

٤ ـ **وجوده في الدنيا بعد نزوله على محمد ﷺ**، وهو معلوم مشاهد، ومقروء متلو، لا ينكره إلا مكابر، ولا يجحده إلا خاسر، فكم من حافظ قد حفظه، وكم من كاتب قد كتبه، وهو كلام الله المنزل على محمد ﷺ[(٥)].

---

(١) انظر: معالم التنـزيل للبغوي ٧/ ٢٠٥، زاد المسير ٧/ ٣٠٢.

(٢) انظر: المجموع ١٥/ ١١٨.

(٣) انظر: المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٤) المجموع ١٢/ ١٢٦-١٢٧، وكون القرآن موجودًا في اللوح المحفوظ وفي السماء الدنيا، ومنـزّلا على محمد ﷺ حقيقة، كما لو أن مَلِكًا ـ ولله المثل الأعلى ـ أمر بشيء فكتب، ثم حفظ في السجلات، ثم أرسله مع رسول إلى شخص معني بالبلاغ فبلغ، فأي تناف في هذا ؟.

(٥) سبقت الإشارة إلى أنه كلام الله وإن قرأه القراء، وكتبه الكتاب في المبحث الأول، من الفصل الأول، وأما كونه =

ومن الحكمة في تعدد وجود القرآن، «مرة في اللوح، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي ﷺ، في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن، وزيادة للإيمان، وباعث على الثقة فيه، لأن الكلام إذا سُجِّل في سجلات متعددة، وصحت له وجودات كثيرة، كان ذلك أنفى للريب عنه، وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به، مما لو سُجل في سجل واحد، أو كان له وجود واحد»[1]، ـ والله تعالى أعلم ـ.

وبهذا ظهر أن القرآن منزل حقيقة، وموجود حقيقة، ومن أعظم الأسباب لوجوده هو أن يتعبد به العباد، ويتقرب به إلى الله تعالى أهل البلاد، الحاضر منهم والباد، وهذا ما يكون الحديث عنه في الفصل الثالث.

= موجودًا في مصاحف المسلمين فسيأتي بيانه في الفصل الرابع من هذا الباب ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(١) مناهل العرفان للزرقاني ١/ ٤٨.

الفصل الثالث

بيان أن القرآن الكريم متعبد به

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى التعبد بالقرآن الكريم، وفيه مطلبان.

المبحث الثاني: صور التعبد بالقرآن الكريم، وفيه ثلاثة مطالب.

المبحث الأول: معنى التعبد بالقرآن الكريم

المطلب الأول: في تعريف التعبد لغة واصطلاحا:

التعبد في اللغة مصدر من: تَعَبَّدَ، يَتَعَبَّدُ، تَعَبُّداً، وأصل (عَبَدَ) يدل على لينٍ وذُلٍ، ولهذا قيل: بعير مُعَبَّدٌ، أي ذلول، ومنه: طريق مُعَبَّدٌ، أي مسلوك مُذَلَّلٌ، ومنه العبد المملوك فإنه مُذَلَّلٌ لسيده[١].

فالتَّعَبُّدُ: التذلل، والخضوع، والانقياد، قال الله تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الشعراء:٢٢] أي: جعلتهم عبيدا لك، مسخرين بأمرك، مذللين لأمورك[٢]، ولهذا يقال تَعَبَّدَ الرجل إذا تنسك[٣].

والعبودية: إظهار التذلل، **والعبادة**: الطاعة، والخضوع، **والعبادة أبلغ من العبودية**، لأنها غاية التذلل[٤].

وعَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً لا يقال إلا لمن يَعْبُدُ الله تعالى، و« العَبْدُ يراد به الـمُعَبَّدُ الذي عَبَّدَهُ اللهُ، فَذَلَّلَهُ ودبره وصرفه، وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار... فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلِّب قلوبهم، ومصرِّف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه،

---

(١) انظر: المقاييس لابن فارس ص٧٢٨-٧٢٩، المفردات للراغب ص ٣٢٣، القاموس المحيط ١/ ٤٣٢.

(٢) انظر: جامع البيان ٩/ ٤٣٨، محاسن التأويل للقاسمي ٥/ ٣٦٤.

(٣) انظر: القاموس المحيط ١/ ٤٣٢، المصباح المنير ص ٣٨٩، المعجم الوسيط ٢/ ٥٩٧.

(٤) انظر: المفردات ص ٣٢٢، القاموس المحيط ١/ ٤٣١، مجمع بحار الأنوار ٣/ ٥١٢، المعجم الوسيط ٢/ ٥٧٩.

وسواء علموا ذلك أو جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك، واعترفوا به »[١].

والفارق بين العبادة العامة والخاصة: أن كل العباد داخلون تحت العبادة العامة بالقهر والغلبة، وأفعال الرب ﷻ، وأما العبادة الخاصة فهو الاعتراف بالألوهية لله تبارك وتعالى، وأنه وحده المستحق للعبادة[٢].

وأما تعريف العبادة في الشرع: فقد عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية ﷀ بتعريف جامع ومانع، حيث قال: « العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة »[٣].

فكل ما شرعه الله فهو محبوب لله ﷻ سواء كان أمرا أو ندبا، وكل ما نهى عنه فلأن الله تعالى يحب من عبده تركها فنهى عنها وكرهها، والدين الذي شرعه الله وأحبه هو الإسلام كله بأعماله الظاهرة والباطنة، وبالأقوال الظاهرة والباطنة.

والمسلم يكون في عبادة مدة حياته، إذا أخلص لله، واحتسب ما عند الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣][٤].

وكل ما لم يشرعه الله ـ ولو تعبد به العباد ـ فإنه ليس من العبادة في شيء لأن الله لا يرضى من عباده البدع، والتشريع من عند أنفسهم، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾[الشورى:٢١].

قال الشيخ حافظ حكمي ﷀ ناظما تعريف شيخ الإسلام:

ثم العبادة هي اسم جامع ... لكل ما يَرضى الإلهُ السامع
وفي الحديث مخها الدعاء ... خوف توكل كذا الرجاء

---

(١) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٧-٢٨، وانظر: المفردات للراغب ص ٣٢٢، ومعارج القبول ٢/ ٥٣٩.
(٢) انظر: العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٨-٣١.
(٣) الفتاوى الكبرى ٢/ ٣٦١، العبودية له أيضا ص ١٩.
(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير ٥/ ٤٢٠، روح المعاني للألوسي ٤/ ٣١٢.

ورغبة ورهبة خشوع وخشية إنابة خضوع
والاستعاذة والاستعانة كذا استغاثة به سبحانه
والذبح والنذر وغير ذلك فافهم هديت أوضح المسالك[١].

«فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذِّكْرُ، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنِعَمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله»[٢].

وكلمة الشهادة: لا إله إلا الله، تعني إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وأنه لا معبود بحق سواه ﷻ، **والشطر الثاني منها:** محمد رسول الله، تعنى أن الله لا يُعبد إلا بما شرعه وبما بعث به محمد ﷺ، وهذه هي العبادة التي يحبها الله ويرضاها، لا العبادات البدعية والشركية.

ولا تكون العبادة مقبولة إلا إذا وجد فيها شرطان: إخلاص الدين لله تعالى، وتجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، وليس للعبادة قوامة إلا بهذين الأمرين:

١ ـ **الإخلاص وهو:** قصد وجه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[البينة:٥].

٢ ـ **الصدق في العمل والمتابعة وهو:** بذل العبد جهده في امتثال الأمر، وترك النهي، على وفق ما جاء عن النبي ﷺ، وإذا اجتمع في العبد النية الخالصة الصالحة،

---

(١) سلم الوصول إلى علم الأصول في توحيد الله واتباع الرسول ص ٢٤-٢٥.

(٢) العبودية ص ١٩، وانظر: مجموع رسائل الجامي ص ٩٠.

والعزيمة الصادقة، فقد أوجد الأمر الذي هو شرط في صدور العبادة وتحصيلها، وما عليه إلا بذل الجهد في تحصيل المتابعة إذ هو شرط في قبولها(١).

وقال الشيخ حافظ الحكمي ﵀: «ثم اعلم أنها لا تقبل الأعمال الظاهرة ما لم يساعدها عمل القلب، **ومناط العبادة هي**: غاية الحب مع غاية الذل»(٢). ولهذا قيل العبادة الحقة الكاملة: هي غاية الذل لله تعالى مع غاية المحبة له ﷻ(٣).

«ومن خضع لإنسان مع بغضه له، لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن له عابدا، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله»(٤).

و«**كمال العبد** في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازدادَ كمالُه، وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يَخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق، بل من أضلهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٨] »(٥).

وقال المقريزي ﵀(٦): «**واعلم أن للعبادة أربعَ قواعدَ، وهي: التحقق** بما يحبه

(١) انظر: معارج القبول ٢/ ٥٤٣-٥٤٦.

(٢) معارج القبول ٢/ ٥٤١.

(٣) انظر: العبودية ص ٢٤، مجموع رسائل الجامي ص ٩٠.

(٤) العبودية ص ٢٥.

(٥) العبودية ص ٥٧.

(٦) هو العلامة المؤرخ: تقي الدين أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد ابن تميم المقريزي، بعلبكي الأصل، مصري المولد والوفاة، ولد سنة ٧٦٦هـ، نشأ صالحا، وحفظ العلم شابا، وكان عاملا بالسنة، مجانبا للبدعة، وكان مهتما بالتأريخ، ومن مؤلفاته ـ وهي كثيرة ـ: البيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد، وتجريد التوحيد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ في التاريخ ـ، وغيرها من

الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب، واللسان، والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب العبادة حقا هم أصحابها»[(١)].

ومما يدل على أهمية العبادة، وعظيم شأنها، أن الله ﷻ لم يخلق الخلق إلا من أجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] فبين الله تعالى أنه خلق الخلق« لهذه الحكمة، وهي عبادته تعالى، بما أمر على لسان رسوله، إذ لا يتم صلاح، ولا تنال سعادة في الدارين، إلا بها»[(٢)].

فالعبادة هي الغاية المحبوبة لله تعالى، والمرضية له، والتي خلق الخلق لأجلها[(٣)]، **ومن أعظم ما يتعبد به الإنسانُ لربه، ويتقرب إليه، التعبد بالقرآن الكريم، الذي هو كلام الرحمن الرحيم**، ودل على ذلك الأدلة الكثيرة، وسأبينها في المطلب التالي.

= المصنفات، توفي ؒ سنة ٨٤٥هـ. انظر: شذرات الذهب ٧/ ٢٥٤-٢٥٥، هدية العارفين ١/ ١٢٧، معجم المؤلفين ٢/ ١١-١٢.

(١) تجريد التوحيد المفيد ص ١١٧، وانظر: مدارج السالكين ١/ ١١٣.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٣٤٩، وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ٧/ ١٨١.

(٣) انظر: العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٩.

المطلب الثاني: الأدلة على كون القرآن متعبدا به.

مما لا شك فيه أن تشريع العبادة محض حق لله تعالى، كما أن صرفها محض حق لله تعالى، فكما لا يُشَرِّعُ غيره، فكذلك لا يُعبَدُ غيره، ومما شرع لعباده أن يتقربوا إليه تعالى بالقرآن الكريم، والقرآن الكريم تعبدنا الله ﷻ باعتقاد أنه كلامه، واعتقاد ما فيه، والعمل بما يحويه، وتعبدنا الله بألفاظ القرآن وتلاوتها.

وقد امتن الله على عباده أن بعث إليهم رسولا يقرئ الناسَ القرآنَ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران:١٦٤] وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: [**إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء**(١)**، تقرؤه نائما ويقظان**](٢).

وهذا الكتاب المتلو تعبدنا الله به، ومن الأدلة على ذلك:

١ ـ **أمرُ الله ﷻ ورسولِه ﷺ إيانا بقراءته:** قال الله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ وقال: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾[المزمل:٢٠] وقال ﷺ : [**من قرأ عشر آيات لم يكتب من الغافلين**](٣)، وقال ﷺ : [**من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بألف آية كتب من المقنطرين**](٤). والله ورسوله

(١) أي أنه محفوظ في الصدور، فلا يتأثر بمر الدهور، ولا يتغير بالعوامل على مر العصور.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة، باب/ الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ح(٢٨٦٥).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب فضائل القرآن، ح(٢٠٤١)، عن أبي هريرة ﷺ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي كما في التلخيص في حاشية المستدرك، ورواه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب/ فضل من قرأ عشر آيات، ح(٣٤٤٢) من رواية تميم الداري ﷺ، وانظر: السلسلة الصحيحة ٢/ ٢٤٢.

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب/ تحزيب القرآن، ح(١٣٩٨) وفيه: (من قام) بدل (قرأ)، وابن خزيمة في صحيحه ١/ ١٢٥، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان(٢٥٦٣) وغيرهم، وأورده الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٤٢).

لا يأمران إلا بما فيه قربة وعبادة، فدل هذا على أن قراءة القرآن عبادة عظيمة.

٢ ـ **الأمر بتلاوته والعمل بما فيه**: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[فاطر:٢٩-٣٠] فتلاوة القرآن تجارة لا خسارة فيها، وأجرها كامل لا نقص فيه، بل يزيده ربنا، ففضل الله واسع، وهو شكور غفور بنا[(١)]. وقال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[العنكبوت:٤٥] وقال: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾[الكهف:٢٧] وقال: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[المزمل:٤]، «**وتلاوة الكتاب**: هي اتباعه، والعمل به، كما قال ابن مسعود ﷺ في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾[البقرة:١٢١] قال: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويؤمنون بمتشابهه، ويعملون بمحكمه»[(٢)(٣)].

٣ ـ **أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ إيانا بالاستماع إليه حال قراءته**، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤] قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين به، المصدقين بكتابه، الذين القرآنُ لهم هدى ورحمة: ﴿ إِذَا قُرِئَ ﴾ عليكم أيها المؤمنون ﴿ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ ﴾ يقول: اصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه، ﴿ وَأَنصِتُواْ ﴾ إليه، لتعقلوه، وتتدبروه، ولا تلغوا فيه، فلا تعقلوه، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، يقول: ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١٠/ ٤١٠، زاد المسير لابن الجوزي٦/ ٤٨٦-٤٨٧.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١/ ٥٦٧.

(٣) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥٦.

(٤) جامع البيان ٦/ ١٦١، وانظر: محاسن التأويل للقاسمي ٣/ ٦٨٦-٦٨٧.

حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾[الأحقاف:٢٩].

٤ ـ الحث على تدبره: قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢] وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾[محمد:٢٤] وقال: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون:٦٨] والمراد بالقول هنا القرآن الذي أنزل إليهم(١).

٥ ـ أنه من الذكر الذي يذكر الله ﷻ به، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧] فهو من الذكر الذي سهله الله، وهونه على العباد، وبين فيه الآيات، وما به يُتعظ(٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩] وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[الرعد:٢٨] والمراد بالذكر هنا العموم، وقيل القرآن، لأنه آية بينة تسكن القلوب، وتثبت اليقين، والمؤمنون يعلمون أنها أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين(٣).

٦ ـ قراءته والاجتماع عليه سبب لنـزول السكينة والرحمة: كما قال ﷺ : **[ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده...]**(٤)، قال البخاري ؒ في صحيحه: باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن(٥).

٧ ـ أنه كلام الله، وأفضل ما يتقرب به إلى الله كلامه: قال خباب ؓ : **[فإنك**

---

(١) انظر: المجموع ١٦/ ٥-٦.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير ١١/ ٥٥٥-٥٥٦، تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٧/ ٢٣٢.

(٣) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٤/ ٤٤٨، تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٤/ ١٠٨.

(٤) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ؓ، كتاب الذكر والدعاء، باب/ فضل الاجتماع على تلاوة القرآن...، ح(٢٦٩٩).

(٥) كتاب فضائل القرآن ص١٠٩١، وذكر تحته حديث أسيد بن حضير وفيه: **[تلك الملائكة دنت لصوتك]**.

لن تتقرب إلى الله بشيء أحب إليه مما خرج منه][1]، قال الحافظ ابن رجب[2] رحمه الله: « ومن أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من النوافل: كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم »[3].

وتدل المجالات الكثيرة على أن القرآن يتعبد به، وهذا ما أبينه في المبحث التالي.

---

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص٢٤، ح(٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٨٩، وروى نحوه عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعا الحاكم في مستدركه، كتاب فضائل القرآن، أخبار في فضائل القرآن جملة، ح(٢٠٣٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، وروى المرفوع أيضا الترمذي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب/ ...، ح(٣٠٧٩)، وقال الألباني عن الحديث المرفوع: ضعيف، كما في السلسلة الضعيفة ٤/ ٤٢٥.

(٢) هو الحافظ الكبير: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي، زين الدين أبو الفرج المحدث الفقيه، له مصنفات كثيرة، ومنها: فتح الباري شرح صحيح البخاري ولم يكمله، وله الذيل على طبقات الحنابلة، توفي سنة ٧٩٥هـ. انظر: معجم المؤلفين ٥/ ١١٨.

(٣) جامع العلوم والحكم ص ٣٦٤.

المبحث الثاني: صور التعبد بالقرآن الكريم

المطلب الأول: التعبد بقراءته، وتدبره، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: التعبد بقراءة القرآن الكريم.

لا ريب أن المقصود الأعظم من نزول القرآن الكريم، هو التعبد بأحكامه للرحمن الرحيم، وإقامة حدوده، وكذلك إقامة حروفه، قال البغوي[(١)] رحمه الله: «ثم إن الناس كما أنهم متعبدون باتباع أحكام القرآن، وحفظ حدوده، **فهم متعبدون بتلاوته، وحفظ حروفه**»[(٢)].

والأدلة على ذلك كثيرة:

١ ـ **أن الله تعالى جعل قراءة الحرف منه بعشر حسنات**، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: [**من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**][(٣)].

ومعلوم أن الحسنة بعشر أمثالها، وبيان فضل تلاوة القرآن لكون العشر

---

(١) البغوي هو: محي السنة الحافظ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء الشافعي، صاحب التفسير المعروف، توفي ٥١٦هـ. طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٧٥، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤٥٦.

(٢) معالم التنـزيل ١/ ٣٧، وانظر: جامع البيان لابن جرير٥/ ٤٢٦-٤٢٧.

(٣) رواه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب/ ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن.، ح(٣٠٧٥)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه...، ويروى من غير هذا الوجه»، ورواه الدارمي في سننه موقوفا، كتاب فضائل القرآن، باب/ فضل من قرأ القرآن، ح(٣٣٠٨)، وقال الألباني: «صحيح» كما في تعليقه على مشكاة المصابيح١/ ٦٥٩، ح(٢١٣٧)، وانظر السلسلة الصحيحة له ٢/ ٢٦٣، ح(٦٦٠).

حسنات هنا ليست مخصوصة في أن يأتي بالكلمة محصورة بكمالها، بل تحصل بحرف منها[١]، ولعل التفضيل واقع من جهة كون قراءة الحرف منه بعشر حسنات في العشر المعلومة فتكون بمائة، والله تعالى أعلم[٢].

وقال ﷺ : **[يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منـزلتك عند آخر آية تقرؤها]**[٣].

٢ ـ الإخبار بنـزول السكينة عند قراءة القرآن الكريم: عن البراء بن عازب ؓ قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط بشطنين[٤]، فتغشته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه يَنفِر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: **[تلك السكينة تنـزلت للقرآن]**[٥].

٣ ـ مثل قارئ القرآن كذي الرائحة العطرة، لأنه يزكو بالقراءة: قال النبي ﷺ : **[مثل المؤمن الذي يقرأ القرآنَ، مثل الأترجة؛ ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة؛ لا ريح لها، وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة؛ ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن**

---

(١) انظر: فتاوى ابن الصلاح ص ١٥٠.

(٢) ولحافظ كتاب الله تعالى آداب مهمة ينبغي عليه مراعاتها، ومن أهمها: ١ ـ الإخلاص لله تعالى. ٢ ـ الإكثار من قراءته. ٣ ـ الورع والتقوى. ٤ ـ الاهتمام بما حفظ وتعلم معناه. ٥ ـ العمل بما علم وحفظ. انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٥١-٦٣، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ١١٣-١٢٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٧-١٩، مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٦٣) ص ١٨-٢٦.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب/ كيف يستحب الترتيل في القراءة، ح(١٤٦٤)، والترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب/ ...، ح (٢٩١٥)، وقال: (حسن صحيح)، ورواه ابن ماجة، كتاب الأدب، ح(٣٧٨٠)، ورواه الحاكم، كتاب فضائل القرآن، باب/ أخبار فضائل القرآن جملة، ح(٢٠٣٠)، وقال الذهبي في تلخيصه: «صحيح»، وقال الشيخ الألباني: «إسناده حسن»، كما في تعليقه على مشكاة المصابيح، ح(٢١٣٤).

(٤) الشَّطَن: الحبل، وقيل هو الطويل منه، وإنما ربطه بحبلين لقوة الفرس وشدته. انظر: المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث لأبي موسى الأصفهاني ٢/ ١٩٩، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٤٧٥.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب/ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، ح(٤٨٣٩)، ومسلم واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين، باب/ نزول السكينة لقراءة القرآن، ح(٧٩٥).

كمثل الحنظلة؛ ليس لها ريح، وطعمها مر](١).

٤ ـ ترتيب الثواب للماهر، وللمتعتع فيه: فعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: [الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران](٢).

٥ ـ غبطة أهل القرآن: عن عبد الله بن عمر ﷺ: عن النبي ﷺ قال: [لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآنَ، فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو يُنفِقُه آناء الليل، وآناء النهار](٣). فالمؤمن الحق يغبط أهل القرآن، على قيامهم بالقرآن حقا، وتوفيق الله لهم فضلا، ويتمنى أن يكون مثلهم عملا.

والبصر نعمة ينبغي للإنسان استخدامها فيما يرضي الرب تعالى، ومن ذلك تلاوة القرآن في المصحف، والمحافظة على النعم التي وهبنا الله ﷻ يكون باستعمال هذه النعم فيما يرضي الرب ﷻ(٤).

٦ ـ معلوم فضل الذكر، إلا أن قراءة القرآن أفضل منه: وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ الإجماع، ونقله عن علماء الإسلام، على أن قراءة القرآن أفضل من مطلق الذكر(٥)، ولا ريب أن جنس التلاوة أفضل من جنس الأذكار، وجنس الأذكار أفضل من جنس الدعاء(٦).

وأعظم ما يتعبد به في قراءة القرآن ما توقف الأمر الشرعي الواجب على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ فضل القرآن على سائر الكلام، ح(٥٠٢٠)، ومسلم واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين، باب/ فضيلة حافظ القرآن، ح(٧٩٧)، كلاهما عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب/ فضل الماهر في القرآن...، ح(٧٩٨)، وأخرجه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة عبس، ح(٤٩٣٧) بلفظ: [مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده، وهو عليه شديد فله أجران].

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ اغتباط صاحب القرآن، ح(٥٠٢٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب/ فضل من يقوم بالقرآن...،ح(٨١٥).

(٤) انظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك ٢/ ٤٦.

(٥) انظر: المجموع ٢٣/ ٥٧.

(٦) انظر: الفتاوى الكبرى ١/ ٢٣٣، الإقناع للشربيني ١/ ١٠٥، فتاوى ابن الصلاح ص ١٥٠.

صحته، مثل القراءة في الصلاة(١)، لقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: **[من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه]**(٢).

٧ ـ ومن إقامة حروف القرآن الاستماع إليه، فهو عبادة عظيمة، ومنافعه كثيرة: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[المائدة:٨٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء:١٠٧-١٠٩].

والمؤمنون الصادقون إذا سمعوا اللغو يعرضون عنه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص:٥٥]، ويقبلون على السماع الشرعي الذي هو استماع القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجن:١-٢]، وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[الأحقاف:٢٩]، فقراءة القرآن والاستماع إليه كرامة أكرم الله بها الإنس، غير أن المؤمنين من الجن يقرؤونه كما يستمعون إليه(٣).

وقال في صفات المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[الزمر:١٨]، وقال آمراً المؤمنين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٤)؛

---

(١) انظر: المجموع ٣/ ٤٢٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب/ التواضع، ح(٦٥٠٢).

(٣) انظر: فتاوى ابن الصلاح ص ٢٣٤.

(٤) **وللقراءة آداب جليلة**، منها: ١ ـ أن يكون حال قراءته على أكمل حال. ٢ ـ الاستياك وتطهير الفم. ٣ ـ الاستعاذة والبسملة في أول القراءة. ٤ ـ الترسل في القراءة وعدم الإسراع. ٥ ـ تحسين الصوت بالقرآن الكريم. ٦ ـ التدبر فيما يقرأ. ٧ ـ الوقوف على آيات الرغبة والرهبة سائلا ومستعيذا. ٦ ـ البكاء عند قراءة القرآن. ٧ ـ إذا نسي شيئا أن يقول: (أُنسيت، أو نُسِّيت). ٨ ـ يقرأ ما دام قلبه مؤتلفا بالقرآن. =

فالاستماع للقرآن مستحب، والعمل به واجب[(١)]، وشرع الله ﷻ لعباده قراءة القرآن، والاستماع له، والاجتماع لسماعه، وكان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ، والباقون يستمعون[(٢)].

ولاستماع كلام رب البرية، آثار سنية، ومنها: ١ـ غشيان الرحمة. ٢ـ نزول السكينة. ٣ـ حضور الملائكة. ٤ـ ذكر الله لهم في الملأ الأعلى. ٥ـ زيادة الإيمان.

وهذه الأمور تولد في المتبعين ثلاثة آثار، وكانت ظاهرة في الصحابة ﭫ وهي:

١ـ خشوع القلب. ٢ـ دمع العين. ٣ـ اقشعرار الجلد.

وهذه الثلاثة هي الموجودة في أصحاب رسول الله ﷺ، ومدحهم الله بذلك، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[الزمر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[الأنفال:٢-٤][(٣)].

وعائشة ﭬ، لما قيل لها: إن قوما إذا سمعوا القرآن يصعقون؟ قالت: **[إن القرآن أكرم أن يُنْزَفَ عنه عقول الرجال، ولكنه كما قال: ﴿ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[الزمر:٢٣]]**[(٤)].

انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص٦٣ وما بعدها، الجامع في أحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٢-٢٥، البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٥٣١ وما بعدها، مجلة البحوث الإسلامية، العدد(٦٤)، ص ٢٦-٣٤، أدب القارئ والقراءة للدكتور/ عبد العزيز الجربوع.

(١) انظر: المجموع ١٥/ ٣٩٠، مختصر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية للبعلي ص ٥٩١.

(٢) انظر: المجموع ٣/ ٢٥، ٤٢٦، ١١/ ٥٨، ٥٥٨، اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٦٣٣.

(٣) انظر: مقدمة الكلام على مسألة السماع لابن القيم ص ٤٥.

(٤) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن، باب/ القارئ يُصعق عند قراءة القرآن...، ح(٣١)، وانظر: جمال القراء

ووجد في التابعين آثار ثلاثة: ١ـ الاضطراب. ٢ـ الاختلاج[(١)]. ٣ ـ الإغماء أو الموت. فأنكر بعض السلف ذلك، وجمهور الأئمة والسلف لا ينكرون ذلك؛ لأن السبب إذا لم يكن محظورا ـ وهو قراءة القرآن ـ كان صاحبه فيما تولد عنه من الإغماء والاختلاج والاضطراب معذورا، لكن سبب هذه الآثار فيهم قوة الوارد على قلوبهم، وضعف قلوبهم عن حمله[(٢)].

وهذا يدلك على وسطية الصحابة وأنهم كانوا بين الخوف والرجاء، بخلاف من جاء بعدهم فغلب عليهم إما الخوف فتولد منه الإغماء أو الموت عند القراءة، أو غلب عليهم الرجاء فتولد عنه الاضطراب عند القراءة، بخلاف الصحابة فإنهم جمعوا الخوف والرجاء، فسلموا من الاضطراب والإغماء.

٨ ـ ذم المعرضين عن سماع القرآن، لكونهم تركوا عبادة وقربة[(٣)]: قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[لقمان:٧].

والناس منقسمون في سماع القرآن على أربعة أصناف[(٤)]:

الصنف الأول: معرض ممتنع عن سماعه، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦].

الصنف الثاني: يسمع الصوت، ولا يفقه المعنى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن

= لعلم الدين السخاوي ١/ ١١١.

(١) المراد **بالاضطراب**: هو الفرح مع اضطراب الجسم وذلك عند سماع شيء عن المحبوب، **والاختلاج** هو دخول شيء من الخوف على القلب وظهور ذلك على البدن برعشة أو عدم توازن في الجسم ـ والله أعلم ـ. انظر: الكليات ص٦٤، لسان العرب لابن منظور ٨/ ١٣٥.

(٢) انظر: المجموع ١١/ ٥٩٠-٥٩١، مختصر الفتاوى للبعلي ص٥٩٢، الكلام على مسألة السماع لابن القيم ص ٤٦-٤٧.

(٣) انظر: المجموع ١١/ ٥٥٩، ٥٨٨.

(٤) انظر: المجموع ١٦/ ٨-١٤.

يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[محمد:١٦]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنفال:٢٠-٢١].

الصنف الثالث: يسمع الصوت، ويفقه المعنى، ولا يقبله، قال الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾[النساء:٤٦] وقال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٧٥].

الصنف الرابع: يسمع الصوت، ويفقه المعنى، ويقبله، ويعمل به، وهؤلاء هم المؤمنون، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[المائدة:٨٣].

وأما أن يقرأ الإنسانُ القرآنَ ويهدي ثوابه إلى آخر: فهذا لم يُذكر في الكتاب العظيم، ولا في هدي الرسول الكريم، والذي دل عليه الكتاب والسنة، أن القراءة عبادة متعلقة بالعبد نفسه، ولا يتعداه إلى غيره، وكون ثواب قراءة القرآن المبين، لا يصل إلى الآخرين، **عليه دلائل منها:**

١ـ **أنه ﷺ أرشد الأمة إلى الدعاء للميت**، والصلاة عليه، والاستغفار له، والصدقة عنه، ولم يرشد إلى قراءة القرآن فدل ذلك على أنه ليس بمشروع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مُقَعِّدًا: «فإن ذلك ـ أي القراءة على القبر ـ لو كان مشروعا لسنه رسول الله لأمته»[(١)].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٧٤٢، وهذا تأصيل من شيخ الإسلام رحمه الله على أن ما لم يشرعه الله فلا يجوز التعبد به، وهو له قول في وصول ثواب قراءة القرآن إلى الغير، إلا أن هذه القاعدة التي ذكرها هي قاعدة جامعة مانعة، وسيأتي ذكر قوله رحمه الله ص ٤٩٨.

٢ ـ قراءة القرآن أيسر شيء على العبد وجودا، وأسهله عملا، ويستطيعه أغلب الناس، ولم يرشد إليه أعلم الناس، فدل أنه ليس بسائغ شرعا.

٣ ـ أرشد النبي ﷺ أمته إلى كل خير يعلمه لهم، كما قال ﷺ : [**أيها الناس إنه ليس من شيء يقربكم من الجنة، ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم من النار، ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه**](١). ولو كانت القراءة للغير من الخير المقرب إلى الله ﷻ لأرشد إليه أفضل الخلق محمد رسول الله ﷺ.

٤ ـ بلغ النبي ﷺ الدين كاملا، قال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[المائدة:٦٧] قالت عائشة ﷺ [**من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب، والله يقول**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾](٢).

قال الحافظ ابن كثير ﷺ: « وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبة يوم حجة الوداع، وقد كان هناك أصحابه... »(٣).

وقال القرطبي ﷺ: « فدلت الآية على ردّ قول من قال: إن النبي ﷺ كتم شيئا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، وهم الرافضة. **ودلت على أنه ﷺ لم يُسِر إلى أحد** شيئا من أمر الدين، لأن المعنى: بلِّغ جميع ما أنزل إليك ظاهرا، ولولا هذا ما كان في قوله ﷻ : ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فائدة،... وهذا تأديب للنبي ﷺ، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته، وقد علم الله من أمر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، باب/ ما ذكر عن نبنا في الزهد، ح(٣٤٣٣٢)، والحاكم في مستدركه، كتاب البيوع، ح(٢١٣٦)، والبغوي في شرح السنة، كتاب الرقاق، باب/ التوكل على الله ﷻ ، ح(٤١١٠، ٤١١١)، وقال المحقق ـ بعد أن ذكر من رواه ـ: « فيتقوى الحديث ويصح ».

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة، ح(٤٦١٢)، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب/ معنى قول الله ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾، ح(١٧٧)، واللفظ للبخاري.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧٧.

نبيه أنه لا يكتم شيئا من وحيه »(١).

ولو كانت القراءة للغير من الدين لبلغه رسول الله ﷺ.

٥ ـ أنه ﷺ حذر من البدع المحدثات، قال ﷺ: [من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ](٢) وقال: **[من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد]**(٣). وكان النبي ﷺ يقول في خطبته يوم الجمعة: **[أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة ـ وكل ضلالة في النار ـ]**(٤).

ولم يثبت قراءة القرآن للغير فيما نقل لنا عن النبي ﷺ، ولم يعرف من حال أصحابه إهداء ثواب القراءة، فالحق في الاتباع، لا في الابتداع(٥).

٦ ـ ظاهر العموم المنفي في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾[النجم:٣٦-٤١] **فظاهر هذا العموم يدل على عدم وصول ثواب القراءة للغير.**

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: « أي كما لا يحمل عليه وزر غيره،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٥٧، وانظر: فتح البيان لصديق حسن ٣/ ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري معلقا مجزوما به، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب/ إذا اجتهد العامل...، وأخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب/ نقض الأحكام الباطلة، ورد الأمور المحدثات، ح(١٧١٨)، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب/ إذا اصطلحوا على صلح جور فالأمر مردود، ح(٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب/ نقض الأحكام الباطلة، ورد الأمور المحدثات، ح(١٧١٨)، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب/ تخفيف الصلاة والخطبة، ح(٨٦٧) عن جابر رضي الله عنه، والزيادة بين المعقوفتين رواها النسائي في سننه، كتاب الجمعة، باب/ كيفية الخطبة، ح(١٤٠٣) من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواها في السنن الكبرى، كتاب صلاة العيدين، باب/ كيف الخطبة، ح(١٧٩٩) من رواية جابر رضي الله عنه، وقال الشيخ ابن باز عن إسناد النسائي في المجتبى: « إسناد صحيح » كما في فتاوى وتنبيهات ص٥١٥، وقال الألباني عن هذه الزيادة: « وسندها صحيح، ومن أنكرها فقد وَهِم » كما في تحقيقه لمشكاة المصابيح ١/ ٥١.

(٥) انظر: فتاوى وتنبيهات للشيخ ابن باز رحمه الله ص ٥١٥، وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب/ الشيخ أحمد الدويش ٩/ ٤٢-٤٤، الفتوى رقم (٢٢٣٢)، وانظر ٩/ ٣٨-٤١، الفتوى رقم(١٣٣٣).

كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي ﵀، ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم، ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته، ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ﷺ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، وباب القربات يُقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها، ومنصوص من الشارع عليهما »[(١)].

وقال السيوطي: « استُدِل به على عدم دخول النيابة في العبادات عن الحي والميت، واستدل به الشافعي على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات »[(٢)].

فدلت الآية أنه ليس للإنسان إلا ما عمله بنفسه، وسعى فيه بجهده، فيراه إن خيرا كاملا موافا، غير منقوص جزاء وفاقا.

ولا ريب أنه يدخل في هذا العموم السعي الذي كان متسببا فيه، كالصدقة الجارية التي تكون بعد موته، والولد الصالح من كسبه، والعلم الذي نشره وورَّثه، ويبقى النص عاما في عدم وصول ثواب الأعمال إلى الغير، إلا ما خصه الدليل[(٣)].

٧ ـ أن السلف كانوا أحرص الناس على فعل الخير، وعلى إيصاله للغير، ومن ذلك جهدهم في بلاغ دين الله ﷻ للبشر، وإيصاله إلى أصقاع الأرض حتى انتشر، فكيف يتركون أمرَ خيرٍ ميسور؟؟ لو كان بينهم معتبرا من الأمر المبرور!؟ فما تركوه إلا لعدم مشروعيته عندهم[(٤)]، قال شيخ الإسلام ﵀: « ولم يكن من عادة السلف إذا صلوا تطوعا، أو صاموا تطوعا، أو حجوا تطوعا، أو قرؤوا القرآن يهدون ثواب ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٥٨، وانظر: محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٣٧٨، نيل الأوطار ٤/ ١٤٢-١٤٣.

(٢) الإكليل ص ٢٥١.

(٣) انظر: الفتاوى للعز ابن عبد السلام ٢/ ٢٤، فتح القدير للشوكاني ٥/ ١٤٢، شرح الزبيدي على الإحياء ١٠/ ٣٦٩، وستأتي الردود على أدلة المستدلين لوصول ثواب القراءة إلى الميت، في الفصل الثالث، من الباب الثاني.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٥٨، محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٣٧٨.

إلى أموات المسلمين، فلا ينبغي العدول عن طريق السلف فإنه أفضل وأكمل»[(١)].

وسئلت **اللجنة الدائمة** عن ثواب قراءة القرآن وهل يصل إلى الميت؟

فأجابت: «لم يثبت عن النبي ﷺ فيما نعلم، أنه قرأ القرآن ووهب ثوابه للأموات من أقربائه، أو من غيرهم، ولو كان ثوابه يصل إليهم لحرص عليه، وبينه لأمته لينفعوا به موتاهم، فإنه ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وقد سار الخلفاء الراشدون من بعده، وسائر أصحابه على هديه في ذلك ﷺ، ولا نعلم أن أحدا منهم أهدى ثواب القرآن لغيره، والخير كل الخير في اتباع هديه ﷺ، وهدي خلفائه الراشدين، وسائر الصحابة ﷺ، والشر في اتباع البدع ومحدثات الأمور...، وعلى هذا لا تجوز قراءة القرآن للميت، ولا يصل إليه ثواب هذه القراءة، بل ذلك بدعة. **أما أنواع القربات الأخرى** فما دل دليل صحيح على وصول ثوابه إلى الميت وجب قبوله، كالصدقة عنه، والدعاء له، والحج عنه، وما لم يثبت فيه دليل فهو غير مشروع، حتى يقوم عليه الدليل.

وعلى هذا لا تجوز قراءة القرآن للميت ولا يصل إليه ثواب هذه القراءة في أصح قولي العلماء، بل ذلك بدعة، وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[(٢)].

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله عن قراءة القرآن للأموات: «**هذا العمل وأمثاله لا أصل له، ولم يحفظ فيه عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه ﷺ أنهم كانوا يقرؤون للموتى**، بل قال النبي ﷺ: [**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**]...، أما الصدقة للموتى، والدعاء لهم فهو ينفعهم ويصل إليهم بإجماع المسلمين، وبالله التوفيق والله المستعان»[(٣)].

---

(١) المجموع ٤/ ٤٤٨، ولشيخ الإسلام فتوى أخرى يرى فيها جواز إهداء ثواب القراءة، وأن إهداء الثواب للغير جائز، وهكذا تلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ، والعبرة بالدليل، وأما ما استدل به المجيزون فسيأتي في الفصل الثالث من الباب الثاني مع الجواب عنه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة، جمع وترتيب/ الشيخ أحمد الدويش ٩/ ٤٢-٤٤، الفتوى رقم (٢٢٣٢).

(٣) فتاوى وتنبيهات ص ٥١٥، وانظر: السيف القاطع للنـزاع في العقيدة والعبادات للشيخ محمد المرزوق

وأما قراءة القرآن عند القبور، كما يفعله المتبعون لمحدثات الأمور، فلم يرد عن النبي ﷺ فيه شيء، ولا هو معروف عند السلف، بل هو من الأمور المحدثة في الخلف، ولو كان خيرا لسبقونا إليه[1].

وكذلك تعيين مكان معين غير ما عينه الشارع لقراءة القرآن ليس مشروعا باتفاق العلماء، حتى لو نذر أن يقرأ في مسجد بعينه غير المساجد الثلاثة لم يتعين، وله أن يفعل ذلك في غيره[2].

والقرآن أنزل للأحياء ليعملوا به، ومن أعظم وسائل العمل به التدبر في معانيه، والغوص في مبانيه، وهذا ما أبينه في المسألة الآتية.

المسألة الثانية: التعبد بتدبر القرآن الكريم.

وإذا كان المسلم يتعبد لله تعالى بقراءة القرآن الكريم، فإن تعبده يكون على أكمل وجه وأتمه لو كان هذا التعبد بتدبر وحضور قلب، وخشوع وخضوع، ولهذا أمر الله ﷻ أهل العقل بتدبره، وأهل السمع بالاستماع إليه، وأمر الله الخلق بالتفكر فيه والتذكر، والفهم والتبصر، والإبصار والإصغاء، والتأثر وجلا وبكاء[3].

ومن الأدلة على وجوب التدبر في القرآن الكريم:

١ ـ ذم الله تعالى الذين لا يتدبرون القرآن الكريم فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النساء:٨٢] قال الحسن البصري[4] ﵀: « ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن

= الفلاتي ص١٣٨-١٣٩.

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٧٤٢-٧٤٤، وسيأتي تفصيل هذه المسألة في الفصل الثالث من الباب الثاني.

(٢) انظر: المجموع ٣١/ ٤١، مختصر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية للبعلي ص ٣٩٣.

(٣) انظر: المجموع ٢/ ٦.

(٤) هو الإمام الزاهد: أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري الأنصاري مولاهم، واسم أبيه يَسار، وسمع ـ وله يومئذ أربع عشرة سنة ـ عثمانَ ﵁ وهو يخطب على المنبر، وروى عن جمع من الصحابة، وكان يرسل كثيرا، مات سنة ١١٠هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٧/ ١١٤، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣ـ =

يعلم فيماذا نزلت، وماذا عني بها»[(١)]، وقال أيضا: «نزل القرآن ليُتدبر، ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد:٢٤] فالأفضل في وقت قراءة القرآن: جمع القلب، والهمة على تدبره، وتفهمه حتى كأن الله يخاطبك، ولا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وإن القلوب النجسة مصروفة عنه، ممنوعة من فهمه، وينبغي على العبد أن يديم النظر في آيات القرآن، ويديم التفكر، لعل الله أن يرزقه القبول[(٣)].

٢ ـ ندب الله عباده إلى تفهمه وتدبره[(٤)]: قال الله ﷻ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون:٦٨] وقال: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[ص:٢٩] فالمؤمن دائم التفكر في معاني القرآن، والتدبر لألفاظه، والاستغناء بمعانيه وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئا من كلام الناس عرضه على القرآن، فإن زكاه قبِلَه، وإلا رده[(٥)].

ولا يجعل همه فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، فيدخل على نفسه الوسوسة في إخراج الحروف، وتفخيمها، وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب عن فهم مراد الرب من كلامه[(٦)].

٣ ـ أمرنا الله تعالى بالتفكر في آياته؛ فقال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[يونس:٢٤] وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

=
٥٨٨، تقريب التهذيب ص ٩٩.

(١) أورده القرطبي في جامعه ١/ ٢٦، وانظر: المجموع ١٥/ ١٠٨.

(٢) انظر: مدارج السالكين ١/ ٤٨٥.

(٣) انظر: لمعرفة أهمية التفكر في الآيات والتدبر: الرسالة التبوكية لابن القيم ص ٢٠٣ وما بعدها.

(٤) انظر: المجموع ٥/ ١٥٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢.

(٥) انظر: المجموع ١٦/ ٥٠.

(٦) انظر: المصدر السابق، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٢٣، إغاثة اللهفان ١/ ١٢٥-١٢٧.

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤] **فالتفكر في آيات الكتاب هو:** أن يستحضر ما فيها من أحكام وأمور، وما يؤدي إلى الخير، وما يحذر من الشر، وأنتج ذلك عملا بالمأمورات، وتركا للمحظورات(١).

وأنفع ما في القراءة تدبر القرآن الكريم، فإن فيه «أسباب الخير، والشر جميعا مفصلة، مبينة، ثم السنة، فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما، حتى كأنك تعاين ذلك عيانا»(٢).

٤ ـ أخبر أن القرآن مفصل ليُفقَّه فيه، وذم من لا يفقهه(٣)، قال تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[الأنعام:٢٢٨] وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[الإسراء:٤٦] وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف:٥٧] **والله تعالى ذكره**، وتقدست أسماؤه، أحكم الحكماء، وأحلم الحلماء، فكان معلوما أن بيانه أبين البيان، وأفضل الكلام، وأن قدْر فضل بيانه ـ جل ذِكرُه ـ على بيان جميع خلقه كفضله على جميع عباده.

وقد خاطبنا جل ذكره بما يفهمه المخاطَب، وبلسان عربي مبين(٤).

٥ ـ أمر الله عباده أن يتذكروا ما في القرآن: قال الله ﷻ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾[عبس:١١-١٦]، وقال الله ـ عز مِن قائل ـ: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤] وقال: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:٦٣] وقال: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾[البقرة:٢٣١].

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ١/ ١٩٣، ١٨٧.
(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص ١٩.
(٣) انظر: المجموع ٥/ ١٥٨.
(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير ١/ ٢٩.

وقارئ القرآن قد ورد في فضائل قراءته أحاديث كثيرة جدا، ويتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود إذا فهم معانيه، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته[١].

٦ ـ **أخبر أن القرآن مذكِّر، ولا يكون كذلك إلا بالتدبر؛** قال ﷻ: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق:٤٥] وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ [الإسراء:٤١] وقال: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور:١] ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله ﷻ قراءة القرآن بالتدبر والتذكر[٢].

وقال في صفات المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[الفرقان:٧٣].

قال شيخ الإسلام ؒ: «والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه، والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين»[٣]. وقال: «وكذلك إذا كان قد حفظ القرآن، أو بعضه، وهو لا يفهم معانيه، فتعلمه لما يفهم من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه»[٤].

٧ ـ **أخبر الله سبحانه أنه يسره ليُذكر:** قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠] والقرآن يسير فهمه، سهل تعلمه وتدبره، والتفكر فيه، والسلف الصالح لما تدبروه وفهموه وعقلوه كانوا خير أمة أخرجت للناس، والسلف قد فهموا القرآن، وعلى متبعيهم أن يتبعوهم في هذا الفهم، **ومن الأدلة على كون السلف فهموا القرآن:**

أ ـ أن العادة توجب اعتناءهم بالمنـزل لفظا ومعنى، كما أن كل أصحاب فن يهتمون بمعاني ما كتبوه، لا بمجرد ما سطروه.

ب ـ أن الله حضهم على تدبره، وهم أشد الناس امتثالا للأوامر، واجتنابا

---

(١) فتح البيان لصديق حسن ١/ ٢٠.
(٢) انظر: مدارج السالكين ٣/ ١٧.
(٣) المجموع ٢٣/ ٥٥.
(٤) المجموع ٢٣/ ٥٦.

للنواهي، بل حض المخالفين للقرآن بتدبره، فإذا علم أنه يمكنهم تدبره وتفهمه، فتدبره وتفهمه من قبل متبعيه أيسر، وأبين وأسهل.

ت ـ أن الله أنزله عربيا، ليعقله الناس، والسلف كانوا من العرب الفصحاء، ولا يكون تعقله إلا بتدبره وتعلمه.

ث ـ أن الله ذم من لا يفهم القرآن، فلو كان السلف لا يفقهونه لكانوا مخاطبين بالذم.

ج ـ أن الله ذم من لم يكن حظه من سماع القرآن إلا سماع الصوت، دون فهم المعنى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة:١٧١]، وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[الأنفال:٢٠-٢٢]، ومن قال إن السلف لم يفهموا القرآن، فقد جعلهم بمنـزلة من يسمع ولا يعقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ح ـ أن الصحابة فسروا ما احتاج إليه التابعون من القرآن، والتابعون فسروه لمن بعدهم، فكيف يقال: إنه صعب لا يفهم، ولا يفسر[1].

٨ ـ **أوعد الله المعرضين عنه بالنار**؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾[هود:١٧] وهذا عام، **وشبه المعرض عنه بالحُمُر**، قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾[المدثر:٤٩-٥٠] فيكفي **المعرض** عنه أنه من حمير النار، لأنه أعرض عن تدبر القرآن، **والمعرض عنه يحمل يوم القيامة حملا شاقا لا يستطيع حمله**[2]، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾[طه:٩٩-١٠١].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله **مبينا فوائد التدبر في القرآن الكريم**: « وأما التأمل في

---

(١) انظر: هذه الوجوه في المجموع ٥/ ١٥٧-١٥٩، ١٣/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) انظر: أضواء البيان للشيخ الأمين ١/ ٥.

القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره، وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته، بلا فهم ولا تدبر...، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتهما وأسبابهما، وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة، والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها،وتعرفه النفس وصفاتها،ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تُعرِّفُه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان،والطريق الموصلة إليه،وما للمستجيب لدعوته من الإهانة، والعذاب بعد الوصول إليه، فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها»(١).

ولما كان السلف من العلماء بمعاني القرآن الكريم، وكلامه المبين، كانوا به عاملين، وإليه متحاكمين، ويتبين هذا في المطلب التالي.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٨٥-٤٨٦، وانظر: التبيان في إقسام القرآن له ص ١٤٣.

المطلب الثاني: التعبد بالعمل به والتحاكم إليه، وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: التعبد بالعمل بالقرآن الكريم.

إن مما لا شك فيه، ولا ريب يعتريه، أن القرآن الكريم إنما أنزله الله ﷻ ليعمل به العباد، ويتقربوا إليه بما شرع لهم فيه، وقد جاءت أدلة كثيرة تحث على العمل بالقرآن الكريم، ومن ذلك:

١ ـ **أَمْرُ الله تعالى لنا بتلاوته، قال الله ﷻ**: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[البقرة:١٢١]

وسواء كان المراد **بالكتاب** القرآن الكريم فيكون المخاطب هو أمة محمد ﷺ، أو كان المراد **بالكتاب** هو التوراة، فإن فيه بيان وجوب اتباع المنزل والعمل به، وبيان خسارة من رده ولم يعمل به. **والتلاوة من الإتباع، والعمل به**، تقول تلا الشيءُ الشيءَ إذا تبعه، وتلاوة الكتاب هي: اتباعه والعمل به(١)، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: **[يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه]**(٢).

وقال ﷺ : **[لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآنَ، فهو يتلوه آناء الله، وآناء النهار، فسمعه جارٌ له، فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو يُهلِكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل]**.

٢ ـ **أَمْرُ الله ﷻ باتباع القرآن**، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير ١/ ٥٦٦-٥٦٩، العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥٦، الفتح ١٣/ ٥١٧.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، من سورة البقرة، ح(٣٠٥٤)وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي كما في التلخيص المطبوع بهامش المستدرك ٢/ ٢٩٢، ورواه ابن جرير في تفسيره ١/ ٥٦٧، ح(١٨٨٥) ورواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة ١/ ٣٩٦، ح(٣٨٦).

لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[الزمر:٥٥-٥٦] وقال مبينا صفات عباده المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر:١٧-١٨] والمراد **بالقول** ما جاء به النبي ﷺ من الوحي(١)، والقرآن أحسن الحديث، «ولا ريب أن القرآن فيه الخبر، والأمر، والحسن، والأحسن، واتباع القول إنما هو بمقتضاه، ومقتضاه فيه حسن وأحسن»(٢).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ قال: «أي: يفهمونه ويعملون بما فيه»(٣).

وكان أبو عبد الرحمن السلمي(٤) رحمه الله: «إذا ختم عليه الخاتمُ القرآنَ أجلسه بين يديه، ووضع يده على رأسه، وقال: يا هذا اتق الله، فما أعرفُ أحدا خيرا منك إن عملت بالذي علمت»(٥).

٣ ـ ذم الله ﷻ التالين للكتاب الذين لا يعملون به، قال ﷻ : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[البقرة:٧٨] قال مجاهد(٦) رحمه الله: «إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٦/ ٣٠.

(٢) المجموع ١٦/ ٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٨، وانظر: ٤/ ٦٠.

(٤) هو الإمام المقرئ: أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن رُبَيِّعة السلمي الكوفي، مشهور بكنيته، ولد في حياة النبي ﷺ وتفقه على الصحابة الكبار، وتعلم على الأئمة الأخيار، حتى أصبح من قراء الأمصار، ثقة ثبت، توفي بعد السبعين. انظر: طبقات ابن سعد ٦/ ٢١٢-٢١٤، سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٧-٢٧٢، تقريب التهذيب ص٢٤٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٨-٩ وقد نقلها القرطبي عن كتاب أبي بكر الأنباري "الرد على من خالف مصحف عثمان".

(٦) هو إمام التفسير، والعالم النحرير: مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومي، تعلم على يدي حبر الأمة ابن عباس، وتخرج عليه، توفي سنة بضع وأربعين ومائة، أخرج له أصحاب الكتب. انظر: التقريب ص٤٥٣.

موسى شيئا، ولكنهم يتخرصون الكذب، يتخرصون الأباطيل كذبا وزورا»(١).

وقال ـ عز مِنْ قائل ـ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠١]. وكتاب الله قيل التوراة ونبذهم لها كان بكفرهم برسول الله محمد ﷺ المصدق لما معهم، وإذا قيل إن المراد بكتاب الله القرآن، فنبذهم له لكونهم لم يتلقوه بالقبول(٢).

٤ ـ الوعد الحسن لمن اتبع في عمله هدى القرآن، والوعيد الشديد لمن خالفه:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[طه:١٢٣-١٢٦] قال ابن عباس ﷺ: **[من قرأ القرآن، واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ قال: فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة]**(٣).

وعن أنس ﷺ أنه سمع عمر ﷺ الغدَ، حين بايع المسلمون أبا بكر ﷺ واستوى على منبر رسول الله ﷺ تشهد قبل أبي بكر، فقال: **[أما بعد فاختار الله لرسوله ﷺ الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم، فخُذُوا به تهتدوا، كما هدى الله به رسولَه]**(٤). وفي لفظ: **[فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نورا**

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير ١/ ٤١٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١١٧.

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ١/ ١٢٠، ومحاسن التأويل للقاسمي ١/ ٣٣٧.

(٣) رواه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة طه، ح(٣٤٣٨)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي كما في التلخيص ٢/ ٤١٣، ولم يذكر قوله (فضمن الله...)، وإنما رواه ابن جرير في تفسيره ٨/ ٤٦٩، ح(٢٤٤٠٠)، وروي مرفوعا، لكنه لا يصح ففيه (ضعف) كما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٦٩، ونسبه للطبراني.

(٤) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ح(٧٢٦٩).

تهتدون به بما هدى الله به محمدا ﷺ][(١)].

٥ ـ إطاعة ما جاء من الوحي والعمل به نجاة: قال رسول الله ﷺ : **[إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما، فقال: إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأَدلجوا فانطلقوا على مَهْلِهِم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثلُ من أطاعني، فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني، وكذب بما جئت به من الحق]**[(٢)].

٦ ـ أن العمل به والتعبد بذلك هو دأب وعمل السلف الصالح، قال أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله: «حدثنا من كان يُقرؤنا من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يقترؤون من رسول الله ﷺ عشر آيات، ولا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العمل والعلم، **فإنا علِمنا العلم والعمل**»[(٣)].

ومعلوم أنه يجب على كل مسلم تصديق النبي ﷺ فيما أخبر به عن الله تعالى مما جاء في القرآن وفي السنة الثابتة عنه، كما كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والتابعون لهم، فإن هؤلاء هم الذين تلقوا عنه القرآن والسنة، وكانوا يتلقون عنه ما في ذلك من العلم والعمل[(٤)]، «**ولا ريب أن** استماع كتاب الله، والإيمان به، وتحريم حرامه، وتحليل حلاله، والعمل بمحكمه، والإيمان بمتشابهه، **واجب على كل أحد**»[(٥)].

ولأجل العمل وحفظ ما في القرآن من الأحكام التعبدية ظل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب/ الاستخلاف، ح(٧٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب/ الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ح(٧٢٨٣)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب/ شفقته على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، ح(٢٢٨٣)، كلاهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وانظر معنى الحديث في الفتح ١١/ ٣٢٣-٣٢٤.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب/ في تعليم القرآن كم آية، ح(٢٩٩٢٩)، وعبد الرزاق في مصنفه، ورواه ابن سعد في طبقاته ٦/ ٢١٢، وانظر: المجموع ٥/ ١٥٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٣.

(٤) انظر: المجموع ٥/ ١٥٦.

(٥) المجموع ١٥/ ٣٩٠-٣٩١.

في تعلم البقرة ثماني سنين(١).

فمجرد حفظ الكتاب لا يوجب العمل، فالقرآن يقرؤه المنافق والمؤمن، والأمي الذي لا يعلم الكتاب إلا أماني، قال الحسن البصري رحمه الله: «العلم علمان: علم في القلب، وعلم على اللسان، فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان حجة الله على عباده»(٢).

٧ ـ معلوم اعتناء السلف بالعمل بالقرآن الكريم من وجوه:

أ. أن العادة المعروفة من حرص النبي ﷺ على أمته، تجعله معلما لهم المعنى، ومزكيا لهم ليعملوا به و بمقتضاه، فبعثته تحقيق لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[البقرة:١٢٩] فاستجاب الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، وبعث محمدا ﷺ بذلك، وامتن الله به علينا، ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة:١٥١]. **ومعلوم حرص النبي** ﷺ في تعريف معاني القرآن لِتُمْتَثَل، وأنه أعظم من رغبته ﷺ في تعريفهم حروفه، فإن الحروف لا يَحصل بها المقصود، بل اللفظ مراد به المعنى(٣).

ب. أن السلف الصالح من الصحابة وتابعيهم، كانوا حريصين على العمل بالقرآن الكريم، والجبلة البشرية في اهتمام كل قوم بكتابهم معلومة، فكيف بأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، لا شك أن اعتناءهم بالقرآن المنـزل عليهم كان اعتناء

---

(١) روى خبر حفظ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لسورة البقرة، الإمامُ مالك في موطئه بلاغا، كتاب القرآن، باب/ ما جاء في القرآن، ١/ ١٧٨، وانظر: المجموع ٥/ ١٥٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٠، وذكر ابن سعد في طبقاته ٤/ ١٢٢ عن عبد الله بن جعفر الرقي، قال: حدثنا أبو المليح، عن ميمون [أن ابن عمر تعلم سورة البقرة في أربع سنين]، وانظر: تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي ١/ ١٦٢.

(٢) انظر: المجموع ١٨/ ٣٠٤، وقد روى الأثر عن الحسن جمع منهم: الدارمي في سننه، المقدمة، باب/ التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، ح(٣٦٤)، وروي عن الحسن مرسلا عن النبي ﷺ ولا يصح كما ذكره في العلل المتناهية ابن الجوزي ١/ ٨٢-٨٣، وذكره البيهقي في شعب الإيمان٢/ ٢٩٤ بسنده من قول الفضيل بن عياض رحمه الله.

(٣) انظر: المجموع ٥/ ١٥٧.

باللفظ من حيث تلاوته وحفظه، واعتناء بالمعنى من حيث فهمه والعمل به[١]، قال أبو الدرداء[٢] رضي الله عنه موصيًا أهل الكوفة: **[أقرئهم السلام، ومرهم فليعطوا القرآن بخزائمهم[٣]، فإنه يحمل على القصد والسهولة، ويجنبهم الجَوْر والحزونة]**[٤]. وقال جندب بن عبد الله[٥] رضي الله عنه : **[وعليكم بالقرآن، فإنه هدى النهار، ونور الليل المظلم، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة...]**[٦]. **وقال أبو موسى الأشعري**[٧] رضي الله عنه : **[إن هذا القرآن كائن لكم ذكرا، وكائن لكم أجرا، وكائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآنَ، ولا يتبعنكم القرآنُ، فإنه من يَتبع القرآنَ يهبط به على رياض الجنة، ومن يتبعْه القرآنُ، يَزُخُّ**[٨] **في قفاه حتى يقذفه في نار جهنم]**[٩].

ت. أن الله تعالى ذم من لم يكن حظه من السماع إلا سماع الصوت، دون فهم المعنى، والعمل به[١٠]، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) هو: عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، مشهور بكنيته: أبو الدرداء، صحابي جليل شهد أحدا وما بعدها، وهو من عُبَّادِ الصحابة وحكمائهم، مات في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: الإصابة ٣/ ٤٥، التقريب ص٣٧٠.

(٣) قال الإمام عبد الرزاق الصنعاني: « **يعني بخزائمهم:** اجعلوا القرآن مثل الخزام في أنف أحدكم، فاتبعوه واعملوا به ». المصنف٣/ ٣٦٨، والخزام: حلقة يشد بها الزمام، ويكون في أنف الناقة. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد ٢/ ٥.

(٤) رواه أبو عبيد في كتابه فضائل القرآن، باب/ فضل الحض على القرآن...، ح(٩)، ورواه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب/ تعليم القرآن وفضله، ح(٥٩٩٦).

(٥) هو: جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي، أبو عبد الله العلقي، صحابي مشهور، روى له أصحاب الكتب، مات بعد الستين. انظر: الإصابة ١/ ٢٤٨، التقريب ص٨٢.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب/ في التمسك بالقرآن، ح(٣٠٠٠٩)، وأبو عبيد في فضائل القرآن، باب/ فضل الحض على القرآن...، ح(١٩).

(٧) هو: عبد الله بن قيس بن سليم أبو موسى الأشعري، صحابي مشهور، أوتي مزمارا من مزامير آل داود في القراءة، مات سنة خمسين، وقيل بعدها. انظر: الإصابة ٢/ ٣٥٩، التقريب ص٢٦٠.

(٨) أي: يُدفَعُ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٢٩٨.

(٩) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب/ في التمسك بالقرآن، ح(٣٠٠١٤)، وأبو عبيد في فضائل القرآن، باب/ فضل اتباع القرآن، ح(١).

(١٠) انظر: المجموع ٥/ ١٥٨.

يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[البقرة:١٧١] وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الجمعة:٥]، وقد حمل البخاري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة:٧٩] على أنه العمل(١)، وأن المراد: لا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ الآية(٢)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: « وحاصل هذا... أن معنى لا يمس القرآن، لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، وأيقن بأنه من عند الله، فهو المطهر من الكفر، ولا يحمله بحقه إلا المطهر من الجهل والشك، لا الغافل عنه الذي لا يعمل به، فيكون كالحمار الذي يحمل ما لا يدريه »(٣)، وقال أبو بكر الوراق(٤) رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة:٧٩]: « لا يُوفق للعمل به إلا السعداء »(٥). **وأختم هذه المسألة بطيب المسك** من كلام النبي ﷺ، حيث بين حال المؤمنين وغيرهم مع القرآن، فقال: [**المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة(٦) طعمها طيب، وريحها طيب**](٧). قوله [**ويعمل به**]: هذه مفسرة للمراد، وأن التمثيل وقع بالذي يقرأ القرآن، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي،

---

(١) وهذا على قول في الآية، قال الفراء رحمه الله: « والمشهور المعروف أنه المس، وهو اللمس، والكتاب: إما القرآن، أو اللوح المحفوظ ». انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩٩، المحرر الوجيز ٥/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٢) صحيح الإمام البخاري، كتاب التوحيد، باب/ قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ ﴾ ص ١٥٣٨.

(٣) الفتح ١٣/ ٥١٨.

(٤) هو: أبو بكر محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي المستملي الوراق، توفي ٣٧٨هـ. انظر: السير ١٦ / ٣٨٨، شذرات الذهب ٣/ ٩٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ١٤٦.

(٦) الأُتْرُجَّة: بضم الهمزة، والتاء الفوقانية الساكنة، والراء المهملة المضمومة، والجيم المعجمة المشددة المضمومة: ثمرة نبتة معروفة من الفصيلة البرتقالية، وهو ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره ذهبي اللون، ذكي الرائحة، يعرف بالشام باسم "تُرُنْج"، وله فوائد طبية طيبة، قال فيها بعض الحكماء: في العاجل ريحان، ومنظره مفرح، وقشره طيب الرائحة، ولحمه فاكهة، وحماضه أُدْمٌ، وحبه ترياق، وفيه دهن. انظر: زاد المعاد (الطب النبوي) لابن القيم ٤/ ٢٨٤-٢٨٥، وقاموس الغذاء والتداوي بالنباتات ص ١٠-١١.

(٧) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ إثم من راءى بقراءة القرآن...، ح(٥٠٥٩).

لا مطلق التلاوة(١)، وبهذا يُعلم أن أعظم ما يتقرب به إلى الله ﷻ، التعبد بالوحي، وهذا من تعظيم القرآن(٢)، ومن أعظم الأعمال والطاعات المتربة إلى رب البريات، التعبد بتعلم القرآن، وتعليمه، وهذا ما أوضحه في المسألة التالية.

المسألة الثانية: التعبد بتعلم القرآن الكريم وتعليمه.

إن العمل بالقرآن الكريم عبادة عظيمة، ومن وسائل العمل بالقرآن الكريم ـ بل هو في ذاته عبادة ـ تعلم القرآن الكريم وتعليمه، قال النبي الكريم ﷺ: **[خيركم من تعلم القرآن وعلمه]**(٣)، وقال ﷺ: **[إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه]**(٤). **فأشرف العلم القرآن الكريم**، إذ شرف العلم بشرف معلومه، وتعليمه لغيره عمل، وتحصيل نفع متعد، فيكون من تعلمه وعلمه لغيره أشرف ممن تعلم غير القرآن وعلمه، ولا شك أن تعلم القرآن وتعليمه قرينان يكمل أحدهما الآخر، وفي التعلم والتعليم جمع بين النفع القاصر، والنفع المتعدي، ولهذا كان أفضل، ويكون معلمه من جملة من عناه ﷻ بقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣](٥)، وقال ﷺ: **[أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطحانَ، أو العقيق(٦)، فيأخذ ناقتين كَوْمَاوَيْنِ(٧) في غير إثم ولا قطع رحمٍ؟ قالوا: كلنا يا رسول الله**

(١) انظر: الفتح ٨/ ٦٨٤-٦٨٥.

(٢) تنبيه: وليس من تعظيمه جعله في أغلفة، وأربطة، وجعله محلاة بالذهب والفضة ولا القيام له إذا أدخل، فالقيام للمصحف على وجه التعبد «لا نعلم... ـ فيه ـ شيئا مأثورا عن السلف...، والأفضل للناس اتباع السلف في كل شيء». مختصر الفتاوى المصرية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية للبعلي ص ٢٦٥.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ح(٥٠٢٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ح(٥٠٢٨).

(٥) انظر: الفتح ٨/ ٦٩٤.

(٦) بُطْحان: بضم المعجمة، وسكون الطاء المهملة، واد في المدينة، من جهة العوالي، وفي المدينة ثلاثة وديان: هي بطحان، وقناة، والعقيق، وهي: الواد المبارك في المدينة النبوية من جهته الجنوبية الغربية وتسير إلى الناحية الغربية ثم شمالا. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ١/ ٥٢٩، ٤/ ١٥٦.

(٧) كوماوين: تثنية (كوماء)، وهي الناقة الضخمة السنام، ويقال: بعير (أكوم). انظر: المصباح المنير للفيومي ص ٥٤٥.

نحب ذلك، قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل][١]، وقال ﷺ : [الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، له أجران][٢]، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: [عليكم بالقرآن فتعلموه، وعلموه أبناءكم، فإنكم عنه تُسألون، وبه تجزون، وكفى به واعظا لمن عقل][٣]، وما أسعد العامل بالقرآن، في يوم يشيب فيه الولدان، قال ﷺ: [يؤتى بالقرآن يوم القيامة، وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران... تحاجان عن صاحبهما][٤]، وكم رفع الله ﷻ بهذا القرآن أقواما إذ حفظوه وعملوا به، كما جاء أن نافع بن عبد الحارث الخزاعي[٥]: لقي عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه بعسفان[٦]، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: [من استعملت على أهل الوادي - أي مكة -؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولىً؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: [إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين][٧]. فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب/ فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، ح(٨٠٣)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة عبس، ح(٤٩٣٧)، ومسلم واللفظ له، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب/ فضل الماهر في القرآن والذي يتعتع فيه، ح(٧٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن، باب/ فضل تعلم القرآن، ح(١٢) واللفظ له، والدارمي في سننه، المقدمة، باب/ من لم ير كتابة الحديث، ح(٤٧٦).

(٤) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب/ فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، ح(٨٠٥) عن النواس ابن سمعان رضي الله عنه.

(٥) هو: نافع بن عبد الحارث ويقال نافع بن الحارث بن حبالة الخزاعي من كبار الصحابة وفضلائهم، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على مكة. انظر: الإصابة ٣/ ٥٤٥.

(٦) عُسْفَان: بضم أوله وسكون ثانيه، وآخره نون: اسم منطقة بين مكة والمدينة، وهي أقرب إلى مكة، ولا زالت تسمى إلى هذا العصر بعسفان. انظر: معجم البلدان للحموي ٤/ ١٣٧.

(٧) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب/ فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه...، ح(٨١٧).

من مظانه، وتعلم ذلك، وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران:٨١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران:٧٧] ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: « فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنـزل عليهم، وإقبالهم على الدنيا، وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله، **فعلينا أيها المسلمون** أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنـزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الحديد:١٦-١٧] ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم »[1].

وقد قام السلف الصالح بتعلم القرآن الكريم، وتعليمه على أكمل وجه، ويدل لهذا ما يأتي:

أولا: اعتناء النبي ﷺ بأمته، وتعليمهم إياهم ما يحتاجونه فيما يتعلق بالقرآن الكريم؛ فكان ﷺ يقرئ أمته القرآن ويعلمهم السور، كما في حديث عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعا: [**كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن**][2]. **ويسمع من أصحابه** كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب/ الأخذ باليدين، ح(٦٢٦٥)، من رواية ابن مسعود رضي الله عنه، ومسلم

قال: قال لي النبي ﷺ : [**اقرأ علي القرآنَ**]. قلت: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: [**نعم**](١). **وله ﷺ عرضة في كل رمضان مع جبريل الأمين يدارسه القرآن**، كما في حديث أبي هريرة(٢) وعائشة(٣) رضي الله عنهما: [**أن جبريل كان يعرض على النبي ﷺ القرآنَ كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه...**].

ثانيا: اعتناء السلف بألفاظ القرآن ومعانيه، دليل على تعلمهم وتعليمهم، ولقد وصلنا القرآن غضا طريا كما أنزل، وذلك لشدة عنايتهم بالقرآن الكريم، صدرا وسطرا، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : [**لو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه**](٤). فالتعاون على البر والتقوى مطلوب بين المؤمنين، ومن أَجَلِّ ذلك تعلُّم وتعلِيم القرآن المبين(٥)، ومن تعلم القرآن وعمل به، وجب أن يحكِّمه، وأن يتحاكم إليه، وهذا ما أذكره في المسألة الآتية.

المسألة الثالثة: التعبد بالتحاكم إلى القرآن الكريم.

إذا كان المسلم يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بتعلم القرآن الكريم وتعليمه، ويتقرب إلى الله تعالى بالعمل به، فهو يتقرب إلى الله ﷻ بإقامة أحكام القرآن الكريم وحدوده، بل هو من أعظم العمل بالقرآن الكريم، ويجب «أن يعلم جميع المسلمين

= واللفظ له، كتاب الصلاة، باب/ التشهد في الصلاة، ح(٤٠٣)، من رواية ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ قول المقرئ للقارئ حسبك، ح(٥٠٥٠)، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب/ فضل استماع القرآن...، ح(٨٠٠).

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ، ح(٤٩٩٨).

(٣) وحديث عائشة رضي الله عنها رواه البخاري معلقا، كتاب فضائل القرآن، باب/ كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ.

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ القراء من أصحاب رسول الله ﷺ، ح(٥٠٠٢)، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب/ من فضائل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ح(٢٤٦٣).

(٥) وهنا مسألة اختلف فيها الفقهاء وهي: **مسألة الإجارة على تعليم القرآن الكريم**، فقد أجازها الجمهور، ومنعها الحنفية، وينظر فيها المراجع الآتية: الفتح ٤/ ٥٣٠، ٥٣٥، حاشية الدسوقي ٢/ ٣٠٩، الفواكه الدواني ٢/ ١١٤، فتاوى وتنبيهات للشيخ ابن باز ص ٥١٦.

أفرادا وحكاما أن كتاب الله إنما أنزل ليعمل به، ويُحَكَّمَ ويتحاكم إليه، فهو مصدرنا في التشريع، وإليه مرجعنا في الحكم، والعمل»(١).

والمسلمون مأمورون أعظم الأمر باتباع أحكام القرآن، وإقامة شرائعه، وتنفيذ ما ورد فيه من الأوامر والنواهي، والله أرسل محمدا ﷺ هاديا وبشيرا ونذيرا، وحاكما بين الناس بما أنزل عليه، ولقد قال له بعض أصحابه: [أنشدك الله إلا قضيت بيننا بكتاب الله] وقال الآخر: [اقض بيننا بكتاب الله] فقال ﷺ : **[والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله]**(٢).

والقرآن والسنة مصدرا الشريعة الإسلامية، ويجب التحاكم إليهما في القضية، العامة منها والشخصية(٣).

والأدلة على وجوب العمل بما جاء في الوحي أكثر من أن تحصر، ومن هذه الأدلة:

١ - **أَمْرُ الله ﷻ باتباع ما جاء فيه:** قال الله ﷻ : ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:١-٣] فالكتاب المنزل هو القرآن الكريم، وأمرنا أن لا نتحرج منه، ولا من الحكم به، ومن خرج عما جاء به الرسول إلى غيره، فقد عدل عن حكم الله إلى حكم غيره فصار وليا له(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٥] قال الحافظ ابن كثير ؒ: «فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يرغب سبحانه عباده في كتابه، ويأمرهم بتدبره، والعمل به، والدعوة إليه، ووَصَفَه بالبركة لمن اتبعه،

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد(٦٣) من كلام سماحة المفتي الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ص ٣٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب/ هل يأمر الإمام رجلا فيضرب الحد غائبا عنه، ح(٦٨٥٩، ٦٨٦٠)، ورواه مسلم، كتاب الحدود، باب/ من اعترف على نفسه، ح(١٦٩٧، ١٦٩٨) كلاهما من رواية أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٣) انظر: أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣١٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٠٠.

وعمل به في الدنيا والآخرة، لأنه حبل الله المتين»[١].

وقال تعالى في صفات المؤمنين المتبعين للنبي ﷺ: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧] فأوجب الله رحمته امتنانا منه سبحانه على المتقين المتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ، ومن صفاتهم أنهم متبعون للقرآن وهو النور المنـزل[٢].

وقال ﷻ آمرا نبيه ﷺ: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[الأنعام:٥٠] وقال بعدها بآيات: ﴿ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾[الأنعام:٥٦-٥٧] وقال: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام:١٠٦] فأمر الله رسوله ﷺ والخطاب لمن اتبع طريقته ضمنا، أن يقتدوا بالوحي، وأن يعملوا به، فإن الوحي من الله الذي لا إله إلا هو، وهو الخبير بأحوال عباده، العالم بشئونهم[٣].

وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[الجاثية:١٨-١٩] فالله ﷻ أنزل على نبيه ﷺ «شريعة كاملة، لم تسمُ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١٩٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٥١، ٢٥٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١٦٣.

إليها شريعة من الشرائع قبلها، ولن يأتي أحد من بعده بخير منها، ولا مثلها... شرع الله هذه الشريعة الكاملة للناس كافة، وفي كل زمان ومكان... ونسخت ـ هذه الشريعة ـ جميع الشرائع، ولم تكن خاصة بأمة دون أمة، ولا بعصر دون عصر »(١).

٢ ـ أمر الله ﷻ أن نحكم بما جاء في المنـزل: قال تعالى عن حال الرُسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤] وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[المائدة:٤٥] وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[المائدة:٤٧] **وهذه الآيات الثلاث**، وإن نزلت في أهل الكتاب، فهي ليست خاصة بهم على التحقيق في الجواب، وأنها عامة لكل حاكم بغير ما أنزل الوهاب، اعتبارا بعموم اللفظ لا بالنظر إلى خصوص الأسباب، والله أعلم بالصواب(٢).

---

(١) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين للشيخ أحمد محمد شاكر ص ٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٣/ ١٣٨-١٣٩، **والذي عليه جمهور الأمة، وعلماء هذه الملة، من السلف ومن اتبعهم بإحسان من الخلف**، أن هذه الآيات وإن نزلت جميعها في الكفار، كما في صحيح الإمام مسلم [كتاب الحدود، باب/ رجم اليهود...، ح(١٧٠٠)، إلا أنها عامة في اللفظ، وهذا العموم ليس على إطلاقه في حق المقر بالشرع، المعترف بالمنـزل، **وأنه يكون حينئذٍ كفرا دون كفر**، كما جاء ذلك مرويا عن ابن عباس ﷺ ولا يعرف له مخالف من الصحابة، **والتفصيل الذي عليه أهل السنة، هو سبيل الخلاص لما عليه الأمة، من الحروب والفتنة، بين الحكام والمحكومين، وهذا التفصيل هو:** أن من حكم بغير ما أنزل الله جاحدا له، أو معتقدا عدم وجوبه، أو معتقدا عدم صلاحيته، أو معتقدا أنه كالقوانين الوضعية،... فمعتقد هذا كافر كفرا أكبر يخرجه عن ملة الإسلام، كائنا من كان من الأنام. **ومن حكم بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده لوجوب الحكم به**، إلا أنه لهوى في نفسه، أو خوفا على جاهه، أو جورا لمال يطلبه، حكم بغير ما أنزل باريه، فإنه ظالم لنفسه، مرديها الهوى، وموردها الردى، ويكون فاسقا، وظالما، وكافرا كفرا أصغر، وينصح ويرشد، ويعلم الرجوع والنوبة، والأوبة قبل فوات التوبة. **وأما أن الحاكم بغير ما أنزل الله ـ من المسلمين ـ يكون كافرا مطلقا**، ويخرج عن الإسلام أبدا، فهذا ما عليه الخوارج الأصاغر والأكابر، ومن وافقهم في هذا العصر من أهل المنابر، وعدم التفصيل في حد ذاته حكم بغير ما أنزل الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. انظر المصادر الآتية: جامع البيان لابن جرير ٤/ ٥٩٢-٥٩٧، معالم التنـزيل للبغوي ٣/ ٦١، زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٤٤-٤٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ١٢٤، الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٨٧-٩٠، فتح القدير للشوكاني ٢/ ٥٣-٥٦، فتح المجيد بتحقيق الفريان ص٤٦١-٤٦٣، فتح البيان لصديق حسن ٢/ ٢٩-٣٣ وفيه كلام نفيس، محاسن التأويل للقاسمي

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ وقال بعدها: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ وقال بعدها: أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة:٤٨-٥٠] فأمر الله محمدا ﷺ أن يحكم بين الناس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم، بما أنزل الله لهذه الأمة، وأن لا ينصرف إلى الآراء التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله، وأن لا يترك الحق الذي أمره الله به، إلى أهواء الجهلة[(١)].

وقال ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[النساء:١٠٥] وقال: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الأنعام:١١٤-١١٥] **فرسول الله ﷺ لا يحكم بغير المنزل**، فإن المنزل كله صدق فيما يقول ويخبر، وعدل فيما يحكم ويأمر، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل بلا امتراء[(٢)].

٣ ـ أخبر الله تعالى أن من اتبع هداه لا يضل، ولا يشقى، لا في دنياه، ولا في أخراه:

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة:٣٨] وقال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه:١٢٣]

= ٣/ ١٢٨-١٣١، تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢٩٦، أضواء البيان للشنقيطي ٢/ ٧٩-٨١، إمداد القاري بشرح كتاب التفسير من صحيح البخاري لشيخنا عبيد بن عبد الله الجابري ٢/ ٤٢-٥٠، وانظر: فتاوى وتنبيهات للشيخ ابن باز ص ١١٩-١٣٢، مجموعة فتاوى سماحة الشيخ ابن باز ٣/ ٩٩٠ -٩٩٢، مجلة الفرقان العدد (٩٤)، فتاوى اللجنة الدائمة رقم(٥٧٤١) رسالة د/ خالد العنبري "الحكم بغير ما أنزل الله".

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٦٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١٦٧-١٦٨.

فمن أقبل على البينات والآيات، والرسل وما جاؤوا به من الشرعيات، لاخوف عليهم فيما يستقبلونه من أمور الآخرة، ولا حزن يعتريهم لما فاتهم من أمور الدنيا الفانية(١).

قال علي ﷺ: [**إنها ستكون فتن ـ والمخرج منها ـ كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشد فآمنا به، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم**](٢).

٤ ـ اتباع حكم القرآن طريق السلامة والأمان: قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٥-١٦] فطريق النجاة والسلامة، ومنهاج الاستقامة، في النور المهداة، ويكون به النجاة من المهالك، وبه أوضح الله لنا المسالك، وبامتثال أوامره نحصل أحب الأمور، وباجتناب نواهيه يصرف الله عنا المحذور(٣).

والكتاب هو الحاكم بين الناس شرعا ودينا، وينصر اللهُ القائمَ به نصرا، ويعلي منـزلته وقدره في الدنيا والآخرة، والسلطان إذا قام بأمر الله كان سعيدا مجاهدا في سبيل الله، فإن الله نصر الكتاب بأمر من عنده، وانتقم ممن خرج عن حكم الكتاب(٤)، **قال ابن القيم** ﷺ:

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير ١/ ٢٨٤-٢٨٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٨٢.

(٢) رواه الترمذي مرفوعا في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب/ ما جاء في فضل القرآن، ح(٣٠٧٠) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال». وكذا قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٨/ ٢٢١، وقال الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية ص ٦٨: «هذا حديث جميل المعنى، ولكن إسناده ضعيف...، ولعل أصله موقوف على علي ﷺ فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي ﷺ».

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٣٤.

(٤) انظر: المجموع ٢٨/ ٣٧.

« وما دعا إليه الرسول ﷺ هو حياة القلوب، ونجاة النفوس، ونور البصائر، وما يدعو إليه مخالفوه فهو موت القلوب، وهلاك النفوس، وعَمَى البصائر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال:٢٤] »[١].

٥ ـ التهديد الشديد، والوعيد الأكيد، لمن اتبع غير القرآن المجيد: قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[البقرة:١٢٠]؛ فليست اليهود ولا النصارى براضية عنك يا محمد، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، وما بعثك الله به هو الهدى، هو الدين المستقيم الصحيح، الكامل الشامل[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة:١٤٥] فهذا تحذير من الله تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾[الرعد:٣٧] فكما أنزل الكتب السابقة على النبيين، أنزل القرآن المبين، على أشرف المرسلين، محكما معربا، فليس له، ولا لمتبعيه أن يتبعوا الآراء الفاسدة، والزبالات الكاسدة، بعد مجيء العلم الحق، وهذه الآية فيها وعيد لأهل العلم عن أن يتبعوا سبل أهل الضلالة، بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية، والمحجة المحمدية[٤]، وكذلك الشرور متلازم للحكم بغير ما أنزل الله

---

(١) الكلام على مسألة السماع ص ١٠٠.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير ١/ ٥٦٥-٥٦٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٦٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٩٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٥١٨.

كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: [وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله](١).

٦ ـ المتبع لحكم القرآن، متبع للحق المنزل من الرحمن، وبهذا الإتباع يكفِّرُ الله سيئات الإنسان، ويصلح شأنه ويكون بأمان، ومن لم يتبعه فهو متبع للباطل وللشيطان: قال الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾[محمد:١-٣].

٧ ـ أخبر الله تعالى أن المعرضين عن اتباع أحكام القرآن، هم الكفار والمنافقون، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [البقرة:١٧٠] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[لقمان:٢١] وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[المائدة:١٠٤] أي إذا دُعِيَ الكفارُ والمنافقون إلى دين الله، وشرعه وما أوجبه، وترك ما حرمه، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق، والمسالك، والأوضاع المخالفة لشرع الله(٢).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[آل عمران:٢٣]، وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب/ العقوبات، ح(٤٠١٩)، ولفظه: **[يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: ....، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم]**، قال الشيخ الألباني: «صحيح» وقال: «أليس هذا من أعلام نبوته ﷺ الدالة على صدقه، وأنه وحي من ربه، بلى وربي». صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤٦٨، ح(٧٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١٠٨.

صُدُودًا ﴾[النساء:٦١] قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: « هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله، وسنة رسوله» **ثم ذكر سبب النزول، وقال بعده:** « والآية أعم من ذلك كله، **فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا** »[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[النور:٤٧-٤٨]، وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥] فأقسم تعالى بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، وما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهرا وباطنا[2].

فهذه الآيات الكثيرة آيات محكمة صريحة، مبيّنة، فيها عبرة، وعظة، لو تفكر متفكر، وتأمل متأمل، فالله وعد المذعنين به خيرا، وأوعد المخالفين له نكالا[3]، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨-٥٩] وقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[فصلت:٤٤].

والله أسأل أن يوفق ولاة أمر المسلمين، لتحكيم شرع الله المبين، وأن يجعلنا جميعا للحق مذعنين، وبه فرحين، وهذه الآيات فيها حث على الحكم بالمنزل، والتقرب إلى الله بذلك، ومن وسائل التقرب إلى الله تعالى بالقرآن الكريم، التقرب إليه بالاستشفاء به، وهذا ما أبينه في المطلب الآتي.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٥١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٥٢٠.

(٣) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين للشيخ أحمد محمد شاكر ص ١٥.

المطلب الثالث: التعبد بالتداوي به، ودفع الضر به.

التداوي المقصود به طلب الاستشفاء بالقرآن الكريم، وأما كيف يكون التداوي بالقرآن الكريم عبادة؟ وكم يدفع الله عن العبد به من الضر؟؛ **فهذا الأمر يتضح بأوجه:**

أ ـ أن التداوي بالقرآن الكريم مشتمل على القراءة، وقراءة القرآن في حد ذاته عبادة، وكونه قد نوى أمرا آخر زائدا على القراءة لا يفسد أجر القراءة، لكونه نوى أمرا مشروعا[(١)].

ب ـ أن الله أخبر أن القرآن شفاء فمن اتخذه علاجا ودواء، فقد امتثل الخبر، وصدق ما جاء في الأثر، والعبادة هو امتثال الأمر، واجتناب النهي.

ت ـ أن التداوي بالقرآن الكريم لا بدّ فيه من إيمان صادق، ويقين تام، مع تضرع وخشوع، وخضوع، وذلة، وسؤال لله تعالى أن يشفي المريض، فهذه كلها عبادات مستقلة فكيف إذا اجتمعن؟ لا شك ولا ريب أنها تكون حينئذ عبادة عظيمة، وقربة كبيرة إلى المولى ﷻ.

ث ـ أن التداوي بالقرآن الكريم من باب الدعاء، ومن باب سؤال الله ﷻ بما جاء في كتابه من الأدعية المشروعة، والأذكار المأثورة، فكان ذلك التداوي عبادة، فالتعبد بالتداوي بالقرآن لأن «الله أخبر عنه بأنه هدى وشفاء، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى...، من باب المندوب إليه، المرغب فيه»[(٢)].

ج ـ ومما يدل على أن القرآن يتعبد بالتداوي به، قول الله ﷻ :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا

---

(١) ويشهد لهذا قول الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[البقرة: ١٩٨] فالحج عبادة لا يفسدها طلب الرزق وهو مباح.

(٢) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الوهاب ص ٢١٣.

خَسَارًا ﴾[الإسراء:٨٢] و(مِنْ) هنا لبيان الجنس، فإن القرآن كله شفاء[١]، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾[فصلت:٤٤] فالحكم العام أن القرآن شفاء للأدواء.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس:٥٧] وكونه شفاء لما في الصدور لا يعني التخصيص فإن «ذكر بعض أفراد العام الموافق له في الحكم لا يقتضي التخصيص، عند الجمهور»[٢]؛ **فلا شك ولا ريب أن العلاج بالقرآن الكريم**، وبما ثبت عن النبي الكريم ﷺ هو علاج نافع، ودواء ناجع، والقرآن شفاء تام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة.

وليس كل أحد مؤهل للاستشفاء بالقرآن، لكن إذا أحسن العليل التداوي به، وعالج به مرضه، بصدق وإيمان[٣]، وقبول وإذعان، واعتقاد جازم من غير ريب ولا نكران، لم يقاومه الداءُ أبدا، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الأرض الصلب لقطعها، ولو نزل على الجبال الصم لصدعها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[الرعد:٣١] **والمعنى**: لو أن كتابا سارت بإنزاله الجبال، أو تصدعت به الأرض، أو خوطبت به الأموات فأُحيُوا بتلاوته، لكان هذا القرآن «لكونه غاية في الهداية، والتذكير، ونهاية في الإنذار، والتخويف، وعلى هذا التقدير فالقصد بيان عظم شأن القرآن»[٤].

وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر:٢١]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم ٤/ ٣٥٢، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص ٤، محاسن التأويل للقاسمي ٤/ ٦١٧.

(٢) المدخل لابن بدران ص ١٢٠، وانظر: نيل الأوطار ١/ ٤٠٦.

(٣) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص ١٣.

(٤) محاسن التأويل للقاسمي ٤/ ٤٥٠، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٥١٥.

وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[العنكبوت:٥١].

قال ابن القيم رحمه الله: « فمن لم يشفه القرآن، فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله »[(١)]، **ولا ريب أن القرآن طب القلوب**، وشفاء الصدور، وأنه أرشد إلى ما يصلح الأبدان، وإلى أصول طبها وقواعده، ومن ذلك: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة المؤذية، ولو أحسن العبد التداوي بالقرآن لرأى لذلك تأثيرا عجيبا[(٢)]، و« **الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله** هو الطب الروحاني، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عز هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجسماني »[(٣)].

ومما أرشد إليه القرآن الكريم دعاء الرب العظيم، الذي يشفي من الأسقام، ويجيب المضطرين من الأنام، وهذا أسلوب قرآنيّ، ينبغي الاعتناء به على وجه جليّ، قال الله ﷻ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر:٦٠] وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾[البقرة:١٨٦] وقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾[الشعراء:٨٠][(٤)]، **وما أكثر الأدعية النافعة** في القرآن الكريم حتى كأن لكل شخص عليل ما يناسبه من الدعاء الناجع الكثير، ومن ذلك الدعاء بالذرية الصالحة، قال تعالى: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الصافات:١٠٠]، ولمن يضيق صدره حرجا أن يقول: ﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾[طه:٢٥-٢٦]، ولمن يجد شيئا من الجان أن يقول: ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾[المؤمنون:٩٧-٩٨] وهكذا فما أعظم أن يدعو الإنسان بما علمه إياه الرحمن، فيجد حاجته في الآن،

(١) زاد المعاد لابن القيم ٤/ ٣٥٢، وما سبق من الكلام فهو مقتبس من كلامه رحمه الله.
(٢) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٣٦، محاسن التأويل للقاسمي ٢/ ٦١٧-٦١٩.
(٣) الفتح ١٠/ ٢٠٧ من كلام ابن التين رحمه الله.
(٤) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص ٧-٨.

والاستجابة من غير توان، بإذن الله الواحد الديان.

قال العلامة ابن القيم ﷺ: «والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذ نزل، وهو سلاح المؤمن...، وله مع البلاء ثلاث مقامات:

إحداها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثانية: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفا.

الثالثة: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه»(١).

وليُعلم أن التعبد بالتداوى بالقرآن الكريم أمر شرعه الله ﷻ، وشرعه رسوله ﷺ، ولكن التداوي بالقرآن الكريم **له جهتان:**

الأولى: جهة التعبد؛ فمجرد قراءة القرآن عبادة، فكيف إن كان بتدبر وخشوع ويقين، وهذا لا بد من ملاحظته حتى حال التداوي به، مع مراعاة صحة وسيلته وجوازه شرعا، فلا يجوز التداوي به بطرق لم يُشرع كتعليقه مثلا.

الثانية: جهة التداوي؛ وهذه من الأمور المباحة، المتعلقة بالمعاملات والعادات، كحال الأطباء، فيجوز له أن يقصد آيات معينة، وبقدر معين حسب ما يرى أنه يشفي ويكفي، خصوصا أن النبي ﷺ قال: [**اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**](٢).

فدل هذا على جواز الرقية بالقرآن وغيره بشرط عدم الإتيان بالشرك، وكونه ليس بمحرم، وكون الوسيلة المستخدمة مباحة(٣).

---

(١) الجواب الكافي ص ٧.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب/ لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، ح(٢٢٠٠).

(٣) انظر: شرح معاني الآثار للطحاوي ٤/ ٣٢٩، الفتح ١٠/ ٢٠٦، وقال ابن حجر (الفتح ١٠/ ٢٢٤) في بيان من كره الرقية الشرعية: «وأما الرقية فتمسك بهذا الحديث من كره الرقى والكي من بين سائر

فإذا ثبت أن القرآن يستشفى به،فإني أذكر بعض الطرق الشرعية للاستشفاء بالقرآن الكريم زيادة على ما مضى:

١ ـ التعبد بالرقية بالقرآن الكريم:

الرُّقْيَةُ: الراء والقاف والحرف المعتل، وجمعه (**الرُّقى**)، يقال: (**رَقَي**) بالفتح في الماضي، (**يَرقِي**) بالكسر في المستقبل، و(**رقِيت**) بالكسر (**أُرْقِيه**)، إذا قرأت عليه، و(**استرقى**) طلب الرقية، وهي المعروفة بالقراءة على المريض والنفث عليه، ومن معانيها العَوْذَة يُتعوذ بها، وتسمى العزائم[(١)].

ويمكن أن تعرّف الرقية الشرعية بأنها: قراءة شيء من القرآن أو الأدعية الصحيحة على المريض بقصد طلب الشفاء له[(٢)].

ومما يدل على جواز الرقية بالقرآن:

١ ـ حديث عائشة ﵂ : [**أن رسول الله ﷺ دخل عليها، وامرأة تعالجها أو ترقيها، فقال: عالجيها بكتاب الله**][(٣)]. قال العلامة الألباني ﵀: «في الحديث مشروعية الرقية بكتاب الله تعالى ونحوه مما ثبت عن النبي ﷺ من الرقى...، وأما غير ذلك من الرقى فلا تشرع، لاسيما ما كان منها مكتوبا بالحروف المقطعة، والرموز المغلقة، التي ليس لها معنى سليم ظاهر»[(٤)].

=

الأدوية»، فانظر يا رعاك الله كيف جعل الرقية من باب الأدوية مما يدلك على صحة ما ذكرت، وقال الإمام عبد العزيز ابن باز ﵀: «**إن التداوي بالقرآن الكريم والسدر ونحوه، من الأدوية المباحة ليس من باب البدع، بل هو من باب التداوي...، وبهذا يعلم أن التداوي بالسدر، وبالقراءة في الماء..ليس فيه محذور من جهة الشرع، إذا كانت القراءة سليمة، وكان الدواء مباحا، والله ولي التوفيق**». فتاوى وتنبيهات لابن باز ص ٢٥٦.

(١) انظر: مقاييس اللغة ص ٤١٦-٤١٧، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٢٥٤، تيسير العزيز الحميد ص ١٦٥، حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص ٨٢.

(٢) انظر: الفتح ٤/ ٤٥٣، معجم ألفاظ العقيدة لعامر فالح ص ١٩٨.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان (٦٠٦٦)، وانظر: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي ص٣٤٣-٣٤٤ح(١٤١٩)، وقال الألباني في الصحيحة ح(١٩٣١): «صحيح».

(٤) السلسلة الصحيحة ٤/ ٥٦٦.

ويحتمل أن يكون المعنى كما قال أبو حاتم: «أراد: عالجيها بما يبيحه كتاب الله، لأن القوم كانوا يرقون في الجاهلية بأشياء فيها شرك، فزجرهم بهذه اللفظة عن الرقى إلا بما يبيحه كتاب الله دون ما يكون شركا»(١). وهذا أبين لأنه موافق لقوله ﷺ: [**لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**].

٢ ـ حديث عائشة ﵂: [**أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه ـ في المرض الذي مات فيه ـ بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسه لبركتها**](٢).

٣ ـ حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه [**أن ناسا من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك. فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا؛ فجعلوا لهم قطيعا من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسألوه، فضحك، وقال: وما أدراك أنها رقية؟ خذوها، واضربوا لي بسهم**](٣).

ويستفاد من الحديث أن الرقية وإن كان فيها جهة تعبد وهي ثبوت وسيلة استعماله التي هي القراءة، إلا أن فيها جهة التداوي ألا ترى أنه اشترط الأجر في الرقية بالقرآن(٤)، ولا يجوز اشتراط الأجر بالقراءة المجردة، وإنما جاز أخذ الأجرة على القراءة للرقية، لكونها من أمور المعاملات، المتعلقة بأحوال الناس وعاداتهم، ولهذا قال الإمام البخاري ﵀: «باب: الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب»(٥)، وفي صحيح

---

(١) انظر: الإحسان ٧/ ٦٣٣.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب/ الرقى بالقرآن والمعوذات، ح(٥٧٣٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب/ الرقى بفاتحة الكتاب، ح(٥٧٣٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب/ جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن، ح(٢٢٠١).

(٤) وفي أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن الكريم خلاف مشهور، فالجمهور على جوازه لكونه ورد به الأدلة الصحيحة الصريحة، ولكونه من باب التطبب، وقال قوم، يجوز إذا لم يشترط، وقال الحنفية بعدم الجواز لكونه قراءة محضة وهي عبادة؟. انظر: الفتح ٤/ ٤٥٣، ١٠/ ٢٠٩.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الطب، ص ١٢٣١.

مسلم: «باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار»(١).

٤ ـ حديث جابر رضي الله عنه قال: [**نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب، وإنك نهيت عن الرقى، قال: فعرضوها عليه، فقال: ما أرى بأسا، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**](٢).

وقد أجمع العلماء على أن الرقية جائزة بثلاثة شروط:

الأول: أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته، أو كلام رسوله ﷺ.

الثاني: أن تكون باللسان العربي، أو بما يُعرف معناه من غيره.

الثالث: أن يُعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بقدرة الله تعالى، وأن الرقية سبب من الأسباب(٣).

قال الشيخ حافظ حكمي رحمه الله:

ثم الرقى من حمة أوعين فإن تكن من خالص الوحيين

فذاك من هدي النبي وشرعته وذاك لا اختلاف في سنيته (٤)

قال رحمه الله في شرح هذه الأبيات: «فإن تكن أي: الرقى، من خالص الوحيين، الكتاب والسنة...، من الوحي الخالص، بأن لا يدخل فيه غيره من شعوذة المشعوذين، ولا يكون بغير اللغة العربية، بل يتلو الآيات على وجهها، والأحاديث كما رويت، وعلى

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام، ص ٩٠٤.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الطب، باب/ استحباب الرقية من العين...، ح(٢١٩٩).

(٣) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد ٢/ ١٩٠، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث لأبي موسى الأصفهاني ١/ ٧٩٢، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٢٥٥، الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي ١/ ٢٧٤، فتح الباري ١٠/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧، أحكام العزائم والرقى لعبد الرحمن بن سليمان الأهدل اليمني ص ٤٤-٤٥، تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الله ص١٦٥-١٦٦، معارج القبول للشيخ حافظ حكمي ٢/ ٦٣٧.

(٤) سلم الوصول ص٢٨-٢٩.

ما تُلقيت عن النبي ﷺ بلا همز، ولا رمز،... فالرقى من الكتاب والسنة هو من هدي النبي ﷺ الذي كان عليه هو وأصحابه، والتابعون بإحسان،... و ـ هذا القدر من الرقية ـ لا اختلاف في سنيتها، بين أهل العلم، إذ قد ثبت ذلك من فعل النبي ﷺ وقوله، وتقريره، فرقاه جبريل ﷺ، ورقى هو ﷺ أصحابَه، وأمر بها، وأقر عليها »(١).

وأما كيفية الرقية الشرعية، فالذي يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن الأمر فيها واسع مادام أنها من باب التطبب، إذا ثبت أصل مشروعيتها وهو الرقية، وثبتت صحة وسيلة هذا التطبب وهي قراءة شيء من القرآن الكريم.

وأذكر باختصار بعض الصور الواردة في الرقية الشرعية، ومنها:

أ ـ الرقية وحدها، بقراءة شيء من القرآن الكريم، أو ما ورد شرعا، أو صح معنى(٢).

ب ـ النفث(٣) **مع الرقية**، ويدل لهذه الصورة قول عائشة ﷺ: [**أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[الفلق:١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[الناس:١](٤) **ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات**](٥).

ج ـ التفل(٦) **مع الرقية**؛ ويستدل لهذه الكيفية بحديث أبي سعيد الخدري ﷺ في قصة اللديغ، وفيه: [**فانطلق فجعل يتفل ويقرأ الحمد لله رب العالمين**] وأقره الرسول ﷺ

---

(١) معارج القبول ٢/ ٦٣٠.

(٢) انظر: رقية النبي ﷺ في صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب/ دعاء العائد للمريض، ح(٥٦٧٥)، وباب/ رقية النبي ﷺ، ح(٥٧٤٢) وليس فيهما أي شيء غير الرقية.

(٣) النفث: نفخ يسير مع نزر ريق، وهو دون التفل، وقيل: النفث ما كان فيه نفخ بلا ريق. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥/ ٨٨، المصباح المنير للفيومي ص٦١٥.

(٤) المراد أنه ﷺ قرأ السور الثلاث كاملة وإنما هذا من باب تسمية السورة ببعض آياتها.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب/ فضل المعوذات، ح(٥٠١٧).

(٦) التفل: نفخ مع ريق، وهو شبيه بالبزاق وأقل منه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ١٩٢، والمصباح المنير ص٧٦.

على هذا، وفي رواية لمسلم: [**فجعل يقرأ أم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ الرجل**][١].

د ـ خلط بعض التراب مع الريق في الرقية[٢]، وهذا ورد في القروح والجروح ونحوه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى الإنسانُ الشيءَ منه، أو كانت به قَرحة أو جرح، قال: [**بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، ليُشفَى به سقيمُنا بإذن ربنا**][٣].

هـ ـ الرقية مع مسح الجسد باليد: وذلك بأن يضع يده على محل الوجع، أو أن يمسح بيديه على جسده[٤]، كما جاء ذلك مصرحا في حديث عائشة رضي الله عنها: [**أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما** ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:١] و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾[الفلق:١] و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾[الناس:١][٥] **ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات**]. وعن عائشة رضي الله عنها: [**أن النبي ﷺ كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى...**][٦].

و ـ الرقية في الماء ثم شربه أو استعماله؛ بأن يقرأ في إناء به ماء، وينفث فيه، ثم يغتسل به المريض، أو يصب عليه، أو يشربه، أو يمسح به، ويستدل لهذا بما جاء عن علي رضي الله عنه قال: [لدغت النبيَّ ﷺ عقربٌ وهو يصلي، فلما فرغ، قال: [**لعن الله العقرب، لا تدع مصليا ولا غيره، ثم دعا بماء وملح فجعل يمسح عليها ويقرأ:** ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون:١]، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾[الفلق:١] و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب/ جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، ح(٢٢٠١).

(٢) وهو أن ينفث على الإصبع بشيء من الريق ثم يأخذ به شيء من التراب ويمسح به على الموضع. انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ١٤/ ١٨٣-١٨٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب/ رقية النبي ﷺ، ح(٥٧٤٥)، ومسلم واللفظ له، كتاب السلام، باب/ استحباب الرقية من العين...، ح(٢١٩٤).

(٤) انظر: الفتح ١٠/ ٢٠٧.

(٥) المراد أنه ﷺ قرأ السور الثلاث كاملة وإنما هذا من باب تسمية السورة ببعض آياتها.

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب/ مسح الراقي الوجع بيده اليمنى، ح(٥٧٥٠)، ومسلم، كتاب السلام، باب/ استحباب رقية المريض، ح(٢١٩١).

﴿ٱلنَّاسِ﴾[الناس:١][(١)][(٢)].

وجاء عن النبي ﷺ [أنه دخل على ثابت بن قيس[(٣)] ﷺ وهو مريض، فقال: [**اكشف البأس، رب الناس، عن ثابت بن قيس بن شماس**] ثم أخذ ترابا من بطحان فجعله في قدح، ثم نفث عليه بماء، وصبه عليه][(٤)].

قال ابن القيم ﷺ مبينا كيفية تداويه بالقرآن الكريم: «لقد مرّ بي وقت في مكة سقمت فيه، ولا أجد طبيبا، ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرا عجيبا، آخذ شربة من ماء زمزم وأقرأُ عليها مرارا، ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع فأنتفع به غاية الانتفاع، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي أَلَماً، فكان كثير منهم يبرأ سريعا»[(٥)].

وقال العلامة ابن باز ﷺ: «**التداوي بالقرآن الكريم والسدر ونحوه من**

---

(١) المراد أنه ﷺ قرأ السور الثلاث كاملة وإنما هذا من باب تسمية السورة ببعض آياتها.

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الصلاة، باب/ ما جاء في قتل الحية والعقرب في الصلاة، ح(١٢٤٦) بدون ذكر الماء والملح، من رواية عائشة ﷺ، وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير، واللفظ له ٢/ ٢٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١١١: «رواه الطبراني وإسناده حسن»، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الطب، باب/ في رقية العقرب ما هي؟، ح(٢٣٥٥٣)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، ح(٥٤٨).

(٣) هو: ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي خطيب الأنصار، قتل في غزوة اليمامة ﷺ. انظر: الإصابة ١/ ١٩٥.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب/ ما جاء في الرقى، ح(٣٨٨٥)، ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة باب/ بأي اليدين يمسح المريض؟، ح(٦٠٣٧)، ورواه مرسلا، ح(١٠١٨) وقال محققه: «إسناده حسن»، وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان، كتاب الطب، باب/ ذكر الخبر المدحض قول، ح(٦٠٣٧)، وانظر: موارد الظمآن للهيثمي، كتاب الطب، باب/ في الرقى، ح(١٤١٨)، وذكره الحافظ في الفتح وسكت عنه، وقال الشيخ ابن باز: «ثبت في سنن أبي داود» كما في فتاوى وتنبيهات لابن باز ص٢١٥، واستشهد به الألباني في السلسلة الصحيحة، ح(١٥٢٦)، وضعف سنده في ضعيف أبي داود، ح(٣٨٨٥) ص٣١٢، والحديث لو فرض ضعف سنده إلا أن له شواهد، فمن حيث الدعاء الذي في أوله فله شواهد كثيرة، ومن حيث النفث في الماء فالذي قبله يشهد له، ولم يبق إلا لفظة [قيس بن شماس] وهو ليس مقصودا لذاته، وأما موضع الاحتجاج من الحديث فثابت بشواهده ـ والله تعالى أعلم ـ.

(٥) زاد المعاد ٤/ ١٧٨، وانظر: مدارج السالكين ١/ ٦٩.

الأدوية المباحة ليس من باب البدع، بل هو من باب التداوي...، وبهذا يعلم أن التداوي بالسدر، وبالقراءة في الماء وصبه على المريض ليس فيه محذور من جهة الشرع، إذا كانت القراءة سليمة، والدواء مباحا، والله ولي التوفيق»[(١)].

ز ـ كتابة بعض الآيات من القرآن بالمداد ثم محوها وشربها وغسل البدن بها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [إذا عسر على المرأة ولادتها فيكتب هاتين الآيتين والكلمات في صفحة، ثم تغسل فتسقى منها: بسم الله، لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[الأحقاف:٣٥]][(٢)].

وسئل الإمام أحمد عن الرجل يكتب القرآن في شيء ثم يغسله ويشربه؟ قال: أرجو أن لا يكون به بأس[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ويجوز أن يكتب للمصاب وغيره من المرضى شيء من كتاب الله وذكره بالمداد المباح، ويغسل ويسقى، كما نص على ذلك أحمد وغيره...»[(٤)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن، وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه»[(٥)].

---

(١) فتاوى وتنبيهات لابن باز ص ٢٥٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الطب، باب/ الرخصة في القرآن يكتب لمن سقاه، ح(٢٣٥٠٨)، وأورده البغوي بصيغة التمريض في شرح السنة ١٢/ ١٦٦، وقد استشهد به الإمام أحمد وابن القيم وغيرهما كما في زاد المعاد ٤/ ٣٥٧، والحديث رجاله كلهم ثقات، إلا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى فمتكلم فيه من قبل حفظه، وخصوصا في روايته عن عطاء، وهذه الرواية ليست عن عطاء بل هي نازلة الإسناد. انظر: شرح علل الترمذي لابن رجب ١/ ١٢٩-١٣٤، تقريب التهذيب ص ٤٢٧.

(٣) مسائل الإمام أحمد لأبي داود ص ٢٦٠.

(٤) المجموع ١٩/ ٦٤ وما بعدها، وانظر: ١٢/ ٥٩٩.

(٥) زاد المعاد ٤/ ٣٥٨-٣٥٩.

وغسالة الألواح التي يكتب فيها القرآن «كان من قبلنا من السلف منهم من يستشفي بغسالته»[١]. وما دامت الرقية من باب التطبب فلا محظور في هذه الصورة شرعا ـ والله تعالى أعلم ـ خصوصا بعد علمِنا أن قراءته مشروعة للتطبب، وكتابته مشروعة مطلقا، وشرب الماء للاستشفاء مشروع، والاغتسال به مشروع، فلا دليل على المنع، والله أعلم بالصواب.

والرقية وإن كانت جائزة إلا أن طلبها خلاف الأولى، وخلاف الكمال[٢]، ويدل لهذا قول النبي ﷺ [**سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب**]، قالوا: من هم يا رسول الله! قال: [**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**][٣].

وليس النفي واقعا على الرقية نفسها لأن منها ما هو جائز ـ كما سبق بالشروط المذكورة ـ، ولكن النفي وقع على طلب الرقية، وأنه ليس من صفات الكمّل من الرجال، والمتوكلين حقا على الرب المتعال[٤].

وأما إذا كانت الرقية مشتملة على شركيات، أو طلاسم لا نعرف معانيها، أو اعتقاد أنها تنفع وتضر بذاتها، فهذا محرم، وقد تكون الطلاسم شركا ولا يدري الراقي، وكذلك لا يجوز الرقية بالقرآن وغيره من الطلاسم مجموعا، فهذا خلط للحق بالباطل، فيمنع منه، و« تلك الرقى المنهي عنها التي يستعملها المعزم[٥] وغيره ممن يدعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يَجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم، والتعوذ بمردتهم»[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٣، وانظر: أحكام العزائم والرقى لعبد الرحمن الأهدل ص ٤٧.

(٢) انظر: الفتح ١٠/ ٢٢٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب/ من لم يرق، ح(٥٧٥٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب/ الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، ح(٢١٨) عن ابن عباس ﷺ.

(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ١٠٨-١٠٩.

(٥) المعزم هو: الراقي.

(٦) الفتح ١٠/ ٢٠٧ من كلام ابن التين ﷺ، وانظر: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدا لله بن محمد ابن عبد الوهاب ص ١٠٨-١٠٩.

وعلى هذا يحمل ما جاء من النهي عن الرقى على وجه العموم، وأنه مخصوص منه الرقية الشرعية التي توفرت فيها الشروط المرعية.

ومن الأحاديث الدالة على النهي عن الرقية - أي إذا كانت غير شرعية - قوله ﷺ: [إن الرقى والتمائم والتولة(١) شرك](٢).

وقال عوف بن مالك الأشجعي(٣) ﷺ: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك! فقال: **[اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك]**(٤).

وهذا الحديث فيه التصريح بأن الأصل في الرقى الجواز، وأنه من قبيل الطب، فما كان منه نافعا، وليس فيه محذور شرعي فهو جائز - والله تعالى أعلم -، ولهذا لما ذكر الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام بعض الأحاديث التي تدل على النهي بالاستشفاء بالقرآن، قال: «وقد جاءت أحاديث بالاستشفاء بالقرآن، والتماس بركته هي أعلى من هذه الأحاديث»(٥).

فالرقية بالقرآن الكريم من المنافع العظيمة، والعبادات الجليلة التي يمكن أن يقوم بها المرء، فيرقي نفسه، ويفيد غيره، ومن ذلك قراءة المعوذات، والفاتحة، وغير

---

(١) وفي رواية الحاكم زيادة: «وما التولة، قال: هو الذي يهيج الرجال» ٤/ ٤١٧ ح(٨٢٩٠) وفي ٤/ ٢١٧ ح(٧٥٠٤) قالوا: «وما التولة يا أبا عبد الرحمن؟ قال: التولية ما يهيج النساء» وهذا يؤكد أن التولية شيء يصنع لتحبيب الرجل إلى زوجته أو العكس. انظر: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدا الله ص ١٦٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ح(٣٦١٥)/١/ ٣٨١، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب/ في تعليق التمائم، ح(٣٨٨٣)، وابن ماجة في سننه، كتاب الطب، باب/ تعليق التمائم، ح(٣٥٣٠)، والحاكم في مستدركه، كتاب الرقى والتمائم، ح(٨٢٩٠) وقال: «حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، كما في التلخيص، وذكره الحافظ ابن حجر وذكر تصحيح الحاكم وسكت عليه، كما في الفتح ١٠/ ٢٠٦، وقال الشيخ الألباني في الحديث: «صحيح»، كما في صحيح سنن أبي داود ٢/ ٤٦٨، ح(٣٨٨٣)، وقال الشيخ ابن باز: «لا بأس بإسناده» كما في فتاوى وتنبيهات ص ٢١٥.

(٣) هو: عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي ﷺ أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو محمد شهد الفتح، وكان معه راية أشجع، آخى النبي بينه وبين أبي الدرداء، توفي ٧٣هـ. انظر: الإصابة ٣/ ٤٣.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب/ لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، ح(٢٢٠٠).

(٥) فضائل القرآن، ص ٢٣١.

ذلك، ولا يلزم قراءة شيء من هذا بعدد معين، وإنما هو بحسب الوسع، وبحسب ما علم به من النفع، والأصل قد ورد جوازه، وأما العدد فهو من باب التطبب فيدخل فيما يظنه الراقي أنه يكفي ويشفي، وقد أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالرقية عموما، ولم يقيد بعدد معين جميع الرقى، ولا بسورة معينة، وما ورد من تعيين بعض السُّوَر فإنما هو من قبيل بعض صور العام، ولا يعني ذلك التخصيص، ـ والله تعالى أعلم ـ.

٢ ـ ومما أرشد إليه القرآن الكريم؛ مما يمكن أن يتعبد به وجعله وسيلة لدفع الضر من الوقوع، أو رفعه بعد الوقوع المحافظة على الأذكار:

ومن ذلك التحصن بأذكار الصباح والمساء، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلاً ﴾[الأحزاب:٤١-٤٢]، وقال: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾[غافر:٥٥] والبكرة والإبكار: الصباح، وأول النهار، والأصيل والعشي: من العصر إلى المغرب أي آخر النهار(١)، وقيل من الظهر إلى المغرب(٢).

وورد عن النبي الكريم ﷺ أذكار بعد الصلوات، وحين النوم فعن عائشة ﵂: [**أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما** ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:١] و ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾[الفلق:١] و﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾[الناس:١](٣)، **ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات**].

وقصة أبي هريرة ﵁ مع الشيطان معروفة، إذ قال له: [**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي:** ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[البقرة:٢٥٥](٤) **حتى تختمها، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ:**

---

(١) انظر: المفردات للراغب الأصبهاني ص ٦٧-٦٨، ٣٣٨، لسان العرب لابن منظور ١١/ ١٧، ٤/ ٧٨، ١٥/ ٦٠.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤/ ٢٤٢.

(٣) المراد أنه ﷺ قرأ السور الثلاث كاملة وإنما هذا من باب تسمية السورة ببعض آياتها.

(٤) المراد قراءتها إلى آخر الآية.

صدقك وهو كذوب][١].

وقال ﷺ : **[الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه]**[٢].

فالمحافظة على الأوراد، سبب للحفظ من الشرور والحساد، «ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات، أو الأدعية التي يستشفى بها، ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل، وتأثيره. **فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل**، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية الحسية»[٣].

والله أسأل أن يدخلنا جنته، وأن يكرمنا برؤيته، وأن يحفظنا من الآثام، ومن سيء الأسقام، والحمد لله القدوس السلام.

٣ـ ومما يستشفى به، ويتعبد به لله تعالى، وأرشد وهدى إليه القرآن الكريم: **امتثال أوامره، واجتناب نواهيه**؛ فإن في ذلك حفظا عظيما للصحة، وإبعادا للبدن والروح من الدنس والنجس، وما أمر الله بشيء إلا وفيه صلاح العبد، ولا نهى عن شيء إلا وفي فعله فساد العبد[٤]؛ فحرم لحم الخنـزير؛ لأنه رجس، وأحل الطيبات حفاظا على البدن، وهكذا، وما سبب كثير من الأمراض في الناس اليوم إلا بسبب بعدهم عن **امتثال** الأوامر، واجتناب النواهي ـ والله تعالى أعلم ـ.

٤ـ التمائم من القرآن الكريم: وأما التمائم[٥] **من القرآن فاختلف فيها العلماء،**

---

(١) أخرجه البخاري معلقا مجزوما به، كتاب بدء الخلق، باب/ صفة إبليس وجنوده، ح(٣٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ من لم ير بأسا أن يقول: ....، ح(٥٠٤٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين...، باب/ فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة...، ح(٨٠٧).

(٣) الجواب الكافي لابن القيم ص ٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٦٤.

(٥) التمائم: جمع (تَمِيمَة) وهي: خرزات كانت العرب تعلقها على أولادها يتقون بها العين في زعمهم، وسميت (تمائم) لكونهم يعتقدون أنها تمام الدواء والشفاء، وكل ما علق بقصد طلب الشفاء فهو تميمة. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ١٩٨، حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص ٨٢، المعجم الوسيط ١/ ٨٩، معجم ألفاظ العقيدة لعامر فالح ص ٩٨. **ولم يختلف العلماء على أن التمائم من غير**

والذي يدل عليه الكتاب والسنة، وعمل سلف الأمة، أنه لا يجوز أن يستشفى بالتمائم من القرآن، وذلك لما يلي:

١ـ أن كتابة التمائم من القرآن لم يثبت عن النبي ﷺ، ولو كان هذا سائغا شرعا، ونافعا كونا، لأرشد إليه المصطفى ﷺ[(١)]، وهو الرؤوف بأمته، المشفق على مريضهم، المهتم بأحوالهم ﷺ.

٢ـ أنه لم يثبت عن الخلفاء الراشدين، الذين أمرنا بالإقتداء بهم في الدين، ولم يثبت بطريق صحيح عن أصحابه الغر الميامين، ولا عن التابعين[(٢)]، قال التابعي الجليل إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي[(٣)] رحمه الله: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»[(٤)].

قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم[(٥)] رحمه الله: «وليس في كتاب الله تعالى، ولا سنة رسوله ﷺ ما يدل على إجازة شيء من القرآن، ولا ثبت عن أحد من الصحابة المقتدى بهم تجويزه، ولا فِعله، مع توفر الدواعي إليه»[(٦)].

= القرآن شرك، وإنما خلافهم في المعلق من القرآن الكريم، هل هو جائز أم لا؟ انظر: شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٥٨، الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي ١/ ٢٧٤، كتاب التوحيد للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ص ٢٣، وقرة عيون الموحدين للشيخ عبد الرحمن بن حسن ص ٥٩، فتاوى وتنبيهات للشيخ ابن باز ص ٢١٤.

(١) انظر: حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص ٨٦.

(٢) وسأذكر بعض ما ورد عنهم ولم يصح، في الفصل الثالث، من الباب الثاني، حين يستدل المجيزون بها، وهناك أبين عدم ثبوتها.

(٣) هو: إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران الكوفي، من كبار التابعين، أخذ عن تلاميذ ابن مسعود وغيره، أخرج له أصحاب الكتب، مات سنة ٩٦هـ. انظر: التقريب ص٣٥.

(٤) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن، باب/ الاسترقاء بالقرآن...، ح(٦٠)، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الطب، باب/ في تعليق التمائم والرقى، ح(٢٣٤٦٧).

(٥) هو: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني، أبو عبد الله، الفقيه السلفي، من أعيان علماء نجد، وله مؤلفات في نصرة التوحيد، مثل: حاشية على كتاب التوحيد، وجمع فتاوى شيخ الإسلام، توفي سنة ١٣٩٢هـ. انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٣٣٦.

(٦) حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص ٨٦.

٣ ـ أن النهي عام يشمل القرآن وغير القرآن، قال ﷺ: [**من تعلق شيئا وكل إليه**][(١)]. فلفظ الإخبار عام، ولم يخص هذا العموم فيبقى حكم التمائم على العموم، لعدم ورود دليل التخصيص[(٢)]، وقيل لعبد الله بن عكيم[(٣)] ﷺ وهو مريض، لو تعلقت شيئا؟ فقال: أتعلق شيئا!؟ وقد قال رسول الله ﷺ : [**من تعلق شيئا وكل إليه**]. وهذا عام. وقال ﷺ : [**من تعلق تميمة فقد أشرك**][(٤)]. فـ « الصحابة الذين رووا الحديث فهموا العموم »[(٥)]، وفهمهم أولى من فهمنا، قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله: « النهي عام، وأما تخصيصه بغير تمائم القرآن، فتخصيص بغير مخصص »[(٦)].

٤ ـ لا شك أن منع التمائم من القرآن وغيره[(٧)]، فيه سد لباب الذرائع، وهو باب عظيم معمول به في الشرع، وقد حمى النبي ﷺ جناب التوحيد، فمنع من الألفاظ الموهمة والمؤدية إلى الشرك، فكيف يجيز ما يكون ذريعة إلى الشرك؟ ووسيلة إليه!؟.

قال الشيخ حافظ رحمه الله: «ولا شك أن منع ذلك أسد لذريعة الاعتقاد المحظور، لا سيما في زماننا هذا، فإنه إذا كرهه أكثر الصحابة والتابعين في تلك العصور الشريفة المقدسة، والإيمان في قلوبهم أكبر من الجبال، فلأن يكره في وقتنا هذا، وقت الفتن والمحن أولى وأجدر بذلك... ومن ذلك أنهم يكتبون في التعاويذ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، ح(١٨٩٨٨) ٤/ ٣١٠، ورواه الترمذي في جامعه، كتاب الطب، باب/ ما جاء في كراهية التعليق، ح(٢١٥٢)، والحاكم في مستدركه، كتاب الطب، ح(٧٥٠٣)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وسكت عنه الشيخ الألباني كما في تعليقه على المشكاة ح(٤٥٥٦)، ٢/ ١٢٨٥، وصححه في صحيح الترمذي ٢/ ١٦٩١.

(٢) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان ابن عبد الوهاب ص ١٦٨.

(٣) هو المخضرم: عبد الله بن عكيم بالتصغير، أبو معبد الجهني الكوفي، سمع كتاب النبي ﷺ إلى جهينة، مات في إمرة الحجاج. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢/ ٣٦٨، معجم الصحابة للبغوي ٤/ ١٦٧، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٢٣٥، تقريب التهذيب ص ٢٥٦.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، ح(١٧٥٥٨)، ٤/ ١٥٦، والحاكم في مستدركه، كتاب الطب، ح(٧٥١٣)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة، ح(٤٩٢).

(٥) انظر: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان ابن عبد الوهاب ص ١٦٨.

(٦) انظر: حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص ٨٥.

(٧) انظر: حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص ٨٦.

آية أو سورة أو بسملة أو نحو ذلك، ثم يضعون تحتها من الطلاسم الشيطانية ما لا يعرفه إلا من اطلع على كتبهم...»[(١)].

٥ـ أنه لم يشرع أصل هذه الوسيلة وهي الكتابة للتعليق، ولابد حين الاستشفاء بالقرآن الكريم، ورود وسيلته عن النبي الكريم ﷺ، ولم يثبت عنه شيء، فلا يثبت تعليقه، وأما قياسه على الرقية، فلا يصح، لأنه قياس في مقابل نص عام، ولا يصح القياس مع النص[(٢)]، **وأيضا لا يصح القياس في العبادات**[(٣)].

٦ ـ أن في تعليق التمائم من القرآن الكريم فيه نوع إهانة، إذ يدخل المعلِّقُ مع المعلَّقِ من القرآن الكريم، إلى أماكن ينبغي صون القرآن منها، وقد يحمله وهو على غير طهارة، وهذا فيه نوع امتهان ينبغي أن يرفع عنه القرآن[(٤)]، قال ابن عون[(٥)]: «كان إبراهيم[(٦)] يكره المعاذة للصبيان، ويقول: إنهم يدخلون به الخلاء»[(٧)]، وقال القرطبي رحمه الله: «ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه، ثم يدخل به في الخلاء...»[(٨)].

٧ ـ في تعليق التمائم نوع تعلق بها، وقد سبق بيان بعض الأحاديث الدالة على أن من علق شيئا وكل إليه، و ما هذا النهي إلا لأنه ينافي التوكل والإخلاص[(٩)].

---

(١) معارج القبول ٢/ ٦٣٨-٦٣٩.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان ابن عبد الوهاب ص ١٦٨.

(٣) انظر: بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٤١٣.

(٤) انظر: فتاوى ابن الصلاح ص ٢٥١، حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص ٨٦، فتاوى وتنبيهات للشيخ ابن باز ص ٢١٤.

(٥) هو: عبد الله بن عون بن أرطبان، أبو عون البصري، ثقة ثبت فاضل، من أقران أيوب في العلم والعمل والسن، أخرج له أصحاب الكتب، مات سنة ١٥٠هـ. انظر: التقريب ص٢٥٩.

(٦) هو: إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي، من كبار التابعين، وقد سبق ذكر ترجمته.

(٧) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الطب، باب/ في تعليق التمائم والرقى، ح(٢٣٤٧٦).

(٨) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٥، ثم قال: «إلا أن يكون في غلاف من أدَم أو فضة أو غيره، فيكون كأنه في صدرك» وهذا لا يخفى أنه قياس مع الفارق إذ ما كان في القلب فهو غير مكتوب بل هو محفوظ يستذكر، والمعلق مكتوب، ثم المعلق يمكن تركه، وما في الحفظ لا يمكن تركه، ـ فالله أعلم ـ أنه لا يدخل به الخلاء سواء كان في شيء أو من غير شيء، إذ وجود القرآن في شيء لا يخرجه عن قرآنيته، مادام أنه ظاهر.

(٩) انظر: حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص ٨٦.

وبهذا تبين أن القرآن يتعبد به عند السلف بوسائل مختلفة منها قراءته وتدبره، وتعليمه وتعلمه، والتحاكم إليه، والتداوي به، وهذا القرآن الذي يتعبد به هو الموجود في مصاحف المسلمين، وهذا ما سيكون الحديث عنه في الفصل الرابع.

الفصل الرابع

بيان أن القرآن الكريم هو الموجود في المصحف

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: بيان المراد بالمصحف، وفيه ثلاثة مطالب.

المبحث الثاني: ما يخالف المصحف هل يقال عنه قرآن؟

المبحث الثالث: بيان منزلة الترجمة والتفسير من القرآن.

المبحث الرابع: وجوب تعظيم المصحف.

المبحث الأول: بيان المراد بالمصحف

المطلب الأول: تعريف المصحف لغة واصطلاحا.

قد بينت فيما مضى أن القرآن يتعبد به، وبصور شتى، ومنها قراءته وتلاوته، والتدبر فيه، وهذا الذي يؤجر المسلم على قراءته وتلاوته هو الموجود في المصحف، ولذا ينبغي علينا أن نعرف المصحف لغة واصطلاحا، وأبين هذا في مسألتين:

المسألة الأولى: معنى المصحف لغة:

(المِصْحَف) بضم الميم وهو الأشهر، وفتحها، وكسرها لغة فيه[(١)]، و(المُصحف) بالضم مُفْعَلٌ من الصُّحُف؛ أي جُعِلَت فيه الصحف، فهو من أُصْحِفَ إذا جمعت فيه الصحف، والصُّحُف والصحائف جمع صحيفة، وهي الأوراق المكتوبة[(٢)]، قال الله تعالى: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[الأعلى:١٩] وقال: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[البينة:٢-٣] فالقرآن صحف مطهرة لأن فيها كتبًا قيمة، زيادة لتضمنها ما في الكتب السابقة[(٣)].

فالمصحف: الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين، كأنه أُصحِف، والفتح لغة لبني تميم، والضم لغة قيس، والكسر لغة حكي فيه[(٤)]، و(المَصحف) بالفتح:

---

(١) انظر: المطالع للبعلي ص٢٦، المصباح المنير ص ٣٣٤، القاموس المحيط ٣/ ٢١٧، مجمع بحار الأنوار ٣/ ٢٩٩.

(٢) انظر: المفردات للراغب ص ٢٧٩، طلبة الطلبة لأبي حفص عمر النسفي ص ١٤١، والقاموس المحيط ٣/ ٢١٧، مختار الصحاح ص ٣٥٧.

(٣) انظر: المفردات للراغب ص ٢٧٩، المجموع المغيث ٢/ ٢٥٤.

(٤) انظر: لسان العرب ٧/ ٢٩١، الأوائل للعسكري ص ١٠٣.

موضع الصُّحف، و(المِصحف) بالكسر: آلة الصُّحف[١].

و(المصحف) جمع مصاحف[٢]، **وسميت آيات القرآن المكتوب في مكان مجموع بالمصحف**، لأنه مجموع من الصحف في مجلد[٣].

وأصل مادة (**صحف**) الصاد، والحاء، والفاء أصل صحيح يدل على انبساطٍ في الشيء، وسعةٍ، **ووجه تسمية المصحف مصحفا**، ذلك لكونه مبسوطا مكتوبا فيها الآيات كلها، مجموعة في سورها، محفوظة في ثناياها.

والتصحيف: قراءة المصحف وروايته على غير ما هو عليه لاشتباه حروفه، وقيل: تغيير اللفظ حتى يتغير المعنى المراد من الوضع[٤].

ووردت لفظة الصحف في التنزيل، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[طه:١٣٣] أي الكتب السابقة[٥]. وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[الأعلى:١٨-١٩] وقال: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾[النجم:٣٦-٣٧] أي: التوراة، وصحف إبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام[٦]، وقال: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾[عبس:١٣-١٤] أي صحف آيات التنزيل وسوره[٧].

فالقرآن مكتوب مبسوط في هذه الأوراق المجموعة في صحف، وصار المصحف علما عليه، هذا من الناحية اللغوية، وبيان وجه الاشتقاق، وأما معنى المصحف اصطلاحا فأورده في المسألة الثانية.

---

(١) انظر: المجموع المغيث للأصفهاني ٢/ ٢٥٤.

(٢) انظر: المفردات للراغب ص ٢٧٩، المعجم الوسيط ١/ ٥٠٨.

(٣)انظر: المعجم الوسيط ١/ ٥٠٨، رحلة المصحف الشريف ص٤٣.

(٤) انظر: التعاريف للمناوي ١/ ١٧٩.

(٥) محاسن التأويل للقاسمي ٥/ ١٣٥.

(٦) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٧٨.

(٧) انظر: الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤، محاسن التأويل للقاسمي ٧/ ٢٦٠.

المسألة الثانية: معنى المصحف اصطلاحا:

لمعرفة المراد بالمصحف عند المسلمين إذا أطلقوه، أورد بعض ما ذكره أهل العلم وأوردوه، ثم استخلص التعريف مما قالوه.

قال القاضي عياض: «المكتوب في المصحف بأيدي المسلمين مما جمعه الدفتان من أول الفاتحة إلى آخر الناس، كلام الله تعالى، ووحيه المنزل على محمد ﷺ»[(١)]، **وقيل**: «المصحف الإمام؛ هو هذا المصحف الذي بين يدي المسلمين...، وعليه الاتفاق»[(٢)]، **وقيل**: «المصحف: هو اسم للمكتوب من كلام الله بين الدفتين[(٣)]»[(٤)]، **وقيل**: «المصحف: اسم للورق المكتوب فيه القرآن، فلا خفاء أنه يتناول الأوراق بجميع جوانبها، حتى ما فيها من البياض»[(٥)]، **وقيل**: المصحف: الكتاب[(٦)]، **وقيل**: «المصحف: الصحف التي ضمت القرآن الكريم»[(٧)].

وبعد سرد بعض ما ذكره العلماء من تعريفات للمصحف، أستطيع أن أقول: إن المصحف إذا أطلق في العرف، وعلى الخصوص عند السلف الصالحين، فمرادهم بهذا الاصطلاح: **كتاب الله المنـزل على محمد ﷺ الموجود بين الدفتين، المفتتحة بسورة الفاتحة، والمختتمة بسورة الناس.**

ولعل هذا التعريف يكون جامعا ومانعا؛

فبقيد (كتاب الله المنـزل) خرج كتاب اللوح المحفوظ، وغيرها من كتب الله التي لم تُنـزل، **وبقيد** (المنـزل على محمد ﷺ) خرج المنـزل على غيره، **وبقيد** (الموجود

(١) كشاف القناع ١/ ٤٣٣.

(٢) قواطع الأدلة للسمعاني ١/ ٣٦-٣٧.

(٣) الدَّف الجنب من كل شيء، والجمع دُفوف، كفِلسٍ وفُلوس، وقد يؤنث بالهاء، ومنه دفتا المصحف: للوجهين من الجانبين.

(٤) حواشي الشرواني ١/ ١٤٦.

(٥) حواشي البجيرمي ١/ ٤٧.

(٦) انظر: مجمع بحار الأنوار ٣/ ٢٩٩.

(٧) معجم لغة الفقهاء ص ٤٠٢.

بين الدفتين) خرج ما نسخ من القرآن الكريم، وإن كان منـزلا عليه ﷺ، **وبقيد** (المنـزل الموجود) خرج ما ليس منـزلا موجودا، كالحبر، والورق نفسه، فهذا وإن كان موجودا إلا أنه غير منـزل، ولا يقصدونه حين إطلاقهم لفظة المصحف، والدفتان والأوراق وإن كان فيها القرآن إلا أنه ليس هو القرآن، وهذا معلوم للعيان، ومشاهد لكل ذي لب فهمان، **وبقيد** (المفتتحة بسورة الفاتحة والمختتمة بسورة الناس) خرج المكتوب من القرآن الكريم أجزاءً، كجزءِ عم، والأرباع، فهي وإن كانت تسمى مصحفا فهي بقيد كقولهم: العشرة الأجزاء الأخيرة من المصحف، أو الجزء الأخير من المصحف، والله أعلم بالصواب.

ولا يطلق المصحف إلا على المجموع المكتوب من كلام الله تعالى في موضع واحد، وأما القرآن، فيطلق على السورة الواحدة منه، بل على الآية الواحدة[١]، ويقال في المكتوب من كلام الله في فضة وغيرها قرآنٌ، لأن اسم المصحف لا يتناولها[٢]، فلا يقال عنها مصحف.

والمصحف إذا لم يكن فيه الآية أو الآيتين لا يخرج عن كونه مصحفا، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله فيمن اشترى مصحفا فوجده ينقص الآية أو الآيتين: «ليس هذا عيبا، ولا يخلو المصحف من هذا»[٣].

والمصحف لفظ معروف في زمن الأصحاب، وعَلَم مشهور على كلام الله الموجود في الكتاب؛ ففي قصة المرأة التي أتت ابن مسعود، أنها قالت: [**لقد قرأت ما بين لوحي المصحف**][٤]، والمراد: ما يجعل المصحف فيه، وكانوا يكتبون المصحف في

---

(١) انظر: الإحكام للآمدي ١/ ٦٣.

(٢) انظر: كشاف القناع ١/ ١٣٥.

(٣) الفروع لابن مفلح ٤/ ٧٩، ومراد الإمام أحمد رحمه الله أنه ما من كاتب إلا ويطرأ عليه الخطأ والنسيان، فيسقط منه الآي من غير قصد منه، ويعرف ذلك القراء والحفاظ من أمة محمد ﷺ، ولا يعني ذلك أنه حرف، ولا يعني ذلك أن المكتوب خرج من كونه مصحفا ـ والله أعلم ـ.

(٤) صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب/ تحريم فعل الواصلة...، ح(٢١٢٥).

الرِّق، ويجعلون له دفتين من خشب[(١)].

وعن علي ﷺ: [أنه كره أن يكتب القرآن في المصاحف الصغار][(٢)] وعن عبد الله بن مسعود ﷺ: [أنه كره التعشير في المصحف][(٣)].

وأما تصغير المصحف كقول بعضهم: (مُصَيْحِف) فهذا كرهه بعض السلف[(٤)]، وعن مجاهد: [أنه كره أن يقول: مُصَيْحِف][(٥)].

وقيل لا يحرم لأن التصغير إنما هو من حيث الإطلاق على الخط، والورق، لا من حيث كونه كلام الله تعالى[(٦)].

ووجه تسمية المصحف مصحفا لأن القرآن كله مكتوب فيه بإتقان، من غير زيادة ولا نقصان، وجمعت الصحائف إلى بعضها كجمع الأجزاء إلى بعضها، ولهذا كان الرجل إذا أتقن شيئا في الحفظ سموه مصحفا[(٧)].

وهل المصحف هو المكتوب فقط؟ أم هو المكتوب والمداد والورق؟

الذي يظهر أن لفظ "المصحف" مجمل، وأنه ينبغي التفصيل في مثل هذا، لأنه قد يطلق المصحف ويراد به المكتوب فقط، وهو الأشهر عرفا، والأكثر استعمالا، وهو المراد إذا قيل إن القرآن في المصحف مطلقا، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «الواجب أن يطلق ما أطلقه الكتاب والسنة، كقوله تعالى...، ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ

---

(١) انظر: الفتح ١٠/ ٣٨٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلاة، باب/ من كره أن يكتب القرآن في الشيء الصغير، ح(٨٥٥٢)، وانظر: ح(٨٥٥٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلاة، باب/ التعشير في المصحف، ح(٨٥٣٦)، وانظر: ح(٨٥٥٨).

(٤) انظر: حاشية الشرواني ١/ ١٤٦.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلاة، باب/ من كره أن يكتب القرآن في الشيء الصغير، ح(٨٥٥٧).

(٦) انظر: حواشي الشرواني ١/ ١٤٦، ويمكن الجمع بأن يقال: إن ذلك مكروه، ولا يحرم إذا قصد الورق وحجمها، ويحرم اتفاقا إذا قصد المكتوب لأنه كلام الله ﷻ.

(٧) السير ٧/ ١٦٦.

مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾[الطور:١-٣] وقوله: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[البينة:٢-٣]...، فمن قال: القرآن في المصاحف والصدور فقد صدق، ومن قال فيها حفظه وكتابته فقد صدق، ومن قال: القرآن مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور فقد صدق، ومن قال: إن المداد أو الورق، أو صفة العبد، أو فعله، أو حفظه وصوته قديم، أو غير مخلوق فهو مخطئ ضال، ومن قال: إن ما في المصحف ليس هو كلام الله...، فهو أيضا مخطئ ضال...، **وأما القرآن** فهو نفسه مكتوب في المصاحف»[١]، **وفي المغني**[٢] أنه لو حلف بالمصحف فهو يمين، لأن الحالف إنما قصد المكتوب فيه وهو القرآن[٣].

وقد يطلق المصحف ويراد به الأوراق المجموعة التي كتب فيها القرآن الكريم، فالمثبت في المصحف ينعقد به يمينه لأنه انصرف إلى المكتوب، وإن حلف بالمصحف ففيه نظر لأنه يشمل المكتوب وغيره[٤].

والمصحف اسم للقرآن الكريم المنـزل على النبي الكريم ﷺ فناسب الآن أن أذكر أسماء المصحف.

---

(١) المجموع ١٢/ ٥٦٤-٥٦٥.

(٢) ١٣/ ٤٦١.

(٣) وانظر: مغني المحتاج ٤/ ٣٢٢.

(٤) انظر: روضة الطالبين ٨/ ١٤.

المطلب الثاني: ذكر أسماء المصحف.

ذكرت ما يدل على تسمية المصحف وأنه إذا أطلق فالمراد به كلام الله ﷻ المنزل على محمد ﷺ الموجود بين الدفتين، المبتدأ بالفاتحة، والمختتم بسورة الناس(١)، وعلى هذا فإن أسماء المصحف، أو أسماء ما هو موجود في الصحف كثيرة، وأوصافه أكثر.

وكثرة الأسماء الحسنة، والصفات الحميدة تدل على شرف هذا الكتاب، وعظمته، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى(٢)، وأيضا أسماء كلام الله الموجود في المصحف ليست من قبيل الأسماء الجامدة، بل هي من الأسماء المشتقة الدالة على المعاني الجميلة والجليلة، إذ الاسم الذي يدل على معنى، أكمل من الاسم الجامد الدال على مسماه، وهذه الأسماء في دلالتها على ما في المصحف من كلام الله ﷻ مترادفة، وفي دلالتها على المعاني الجميلة والصفات الحميدة للقرآن متباينة(٣)، وهنا أورد أسماء المصحف مع الدليل، والله أسأل التوفيق والسداد(٤).

---

(١) وقد يطلق المصحف على غير القرآن لكن هذا نادر، وهو وإن أطلق فالمراد به ما كتب في الصحف، ولا يلزم أن يكون كلام الله ﷻ، ومن ذلك قول أبي العالية عن كتاب دانيال: «أنا قرأت ذلك المصحف». انظر: الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ٥/ ٢٨١، البداية والنهاية ١/ ٢/ ٤٢٢، ومن إطلاق المصحف على الكتب الباطلة ما ذكره القرطبي في الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ١/ ٢٠٠ «وكتبوا في هذا المصحف»، «ومن أفضح ما كتبوا في هذا المصحف» فسمى ما كتبه علماء أهل الكتاب بالمصحف لكونه مكتوبا في صحف، والله تعالى أعلم، ومن ذلك تسمية أبي معشر البلخي لكتابه في النجوم ونحوه بمصحف القمر، كما في الرد على المنطقيين ص٢٨٧، ومن ذلك ما ألفه كمال جنبلاط أحد رؤوس الضلال من الدروز، وسمى تأليفه: "المصحف المنفرد بذاته"!؟. انظر: الحركات الباطنية للخطيب ص٣١٥.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب للنووي ٨/ ٣، الثمر الداني شرح رسالة القيرواني ١/ ٨٧، أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣١٦ ضمن مجموعة المتون العلمية.

(٣) انظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠١-١٠٢، المجموع ٥/ ١٦٠، ١٣/ ٩.

(٤) وأكثر من توسع في هذا الباب بحسب إطلاعي هو الشيخ/ صالح بن إبراهيم البليهي في كتابه: الهدى والبيان في أسماء القرآن، إلا أنه لا يشير إلى المراجع إلا نادرا، وسلك في الكتاب المسلك الوعظي، مع حسن جمع لهذه الأسماء، وليت طالب علم متخصص في العقيدة يقوم ببحث حول أسماء القرآن وأوصافه ودلالاتها العقدية، فإنه نافع ـ والله تعالى أعلم ـ.

١. **المصحف**؛ وقد ذكرت الأدلة من الآيات التي تشير إلى ذلك، والأقوال المأثورة، على هذه التسمية المشهورة، في المطلب السابق(١).

٢. **القرآن**(٢)؛ قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾[البقرة:١٨٥] وقال: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام:١٩] وقال: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩] وغيرها من الآيات الكثيرة الدالة على تسمية كلام الله الموجود في المصحف بالقرآن(٣)، وسمي القرآن قرآنا لكونه مجموعا

---

(١) وتسمية المصحف بمصحف عثمان ﷺ فالمراد رسمه وجمعه، فهذه الإضافة لكونه جمعه في مصحف واحد، وعصم الله بجمعه الأمة من الاختلاف، وحفظ الله بأمره الأمة من الإتلاف، فنسأل الله أن يجزيه خير الجزاء، وأن يكرمه كما أكرم كتابه، ومن هذا الباب تسمية بعض المصاحف بالمواضع التي كتبت فيها أو بأسماء ناشريها، كقولهم: مصحف المدينة، أو مصحف الحرمين...، فمقصودهم المصحف الذي كتب في كذا...، ـ والله تعالى أعلم ـ.

وما ذكره ابن الأثير في الكامل ٣/ ٨، وصاحب كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ص ٦٢، من أنه كان لأبي موسى مصحف يقال له: لباب القلوب، فلا أعلمه مسندا، وإنما ذكرا هذا بدون إسناد، فهذا لا يثبت، ما دام لم يرد مسندا، وإن ثبت فهو محمول على أن هذه تسمية اجتهادية لا نصية، ـ والله أعلم ـ.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير ١/ ٦٧، التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠١، المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي١/ ٢٣، وذكر بعضهم كما في مغني المحتاج ٤/ ٣٢٢ أنه يسمى "قرآن الله" ولا أعلم دليلا عليه من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ، ولكن قد يراد بهذه اللفظة المقروء من كلام الله فيكون بهذا المعنى الإخبار عنه صحيحا، وأما التسمية فهو لله ولرسوله ﷺ وليس لأحد أن يسمي صفة من صفات الله بما يفهمه هو وإن كان المعنى صحيحا ـ والله أعلم ـ، وأما تسمية القرآن بـ "القرآن العثماني" كما ذكره المسمى "بطيب تيزني"، فهذا من ضلالات أهل الضلال، وتلبيسات أهل البدعة والانحلال، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله التوفيق في الأقوال والأعمال.

وأما تسمية الكتب السابقة قرآنا فهذا قد ورد، لكن ليس المراد منه هذا القرآن المقروء المنزل على محمد ﷺ، وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: [**خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه**...]، رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب/ قول الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾، ح(٣٤١٧)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «ولفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور قد يراد به الكتب المعينة، ويراد به الجنس **فيعبر بلفظ القرآن عن الزبور** وغيره». الجواب الصحيح ٥/ ١٥٦، وأما تسمية الخطبة والصلاة قرآنا فلا أعلم أحدا ذكره إلا النووي ﷺ، كما في روضة الطالبين ٨/ ١٤.

(٣) قد وردت تسمية كلام الله ﷻ المنزل على محمد ﷺ بالقرآن في سبعين موضعا، في كتاب الله.

في مكان، السور بعضها إلى بعض، ومؤكدا بعضها بعضا[١]. وهذا القرآن الموجود في المصحف[٢]، قد وصف بأوصاف جميلة، ونعوت حميدة، منها:

أ- أنه هاد إلى أقوم الطرق، بشير لمتبعيه، نذير لمخالفيه[٣]، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٩] وقال: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام:١٩] فالقرآن يهدي ويبشر وينذر[٤].

ب- أنه بينات واضحات، ودلائل قاطعات، وبراهين ساطعات، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[البقرة:١٨٥] قال شيخ الإسلام ﵀: «فالفرقان يحصل به التمييز بين المشتبهات، ومن لم يحصل له الفرقان كان في اشتباه وحيرة، والهدى التام لا يكون إلا مع الفرقان، فلهذا قال أولا: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ثم قال: ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾...، فالهدى مثل أن يؤمر بسلوك الطريق إلى الله، كما يؤمر قاصد الحج بسلوك طريق مكة مع دليل يوصله، والبينات ما يدل ويبين أن ذلك هو الطريق»[٥].

ت- أنه لا يفترى من دون الله، قال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس:٣٧] وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[النمل:٦] وقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾[الإنسان:٢٣].

---

(١) وهل هو مهموز أم لا، وهل هو مشتق أم لا، سبق الإشارة إليه في التمهيد ص ١٩، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٣/ ٨٣-٨٥.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٨٤.

(٣) انظر: النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٦٤١ ـ ٦٤٢، أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣١٧.

(٤) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٥) النبوات ٢/ ٦٤٢.

ث- أنه في اللوح المحفوظ، وذلك في السماء العلى، قال ﷻ: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾[البروج:٢١-٢٢].

ج- أنه مبين، وواضح لكل ذي عينين، وجلي لكل ذي بصيرة من الثقلين، قال ﷻ: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾[الحجر:١].

ح- أنه عظيم[1]، قال ـ عز من قائلٍ ـ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[الحجر:٨٧].

خ- أنه حكيم، قال الله تعالى: ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[يس، الآيات١-٣].

د- أنه مجيد[2] قال ﷻ: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾[ق، الآية ١] وقال: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾[البروج، الآيتين ٢١ ـ ٢٢] فوصف القرآن بالمجادة وهي الرفعة والعلو[3].

ذ- أنه كريم[4]، قال ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾[الواقعة:٧٧] «أي أكرمه الله وعزه، ورفع قدره، على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحرا أو كهانة، أو كذبا، وقيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق، ومعالي الأمور، وقيل لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارؤه...»[5].

ر- أنه وقاية لمن عمل به من الشرور، ووقاية لقارئه من أهل الفسق والفجور، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[الإسراء:٤٥].

ز- أنه شفاء للمؤمنين، قال الرب ﷻ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ

(١) انظر: أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣١٦.

(٢) انظر: أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣١٦.

(٣) انظر: المفردات للراغب الأصبهاني ص ٤٦٦، لسان العرب لابن منظور ٣/ ٣٩٥.

(٤) انظر: أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣١٧.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٥/ ١٩٩.

وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[الإسراء: ٨٢].

س- أنه متحدى به[١]، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء:٨٨].

ش- أن فيه كل مثل يحتاج إليه الناس، بما في ذلك قصص الأولين للعظة والاستئناس، وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾[الإسراء:٨٩] وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾[الكهف:٥٤].

ص- أنه ميسر للذكر، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧][٢].

ض- أنه قرآن عربي[٣]، قال ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢] وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[طه:١١٣] وقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الزمر:٢٨].

ط- أنه يقص[٤]؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[النمل:٧٦].

ظ- أنه لو فرض نزوله على الجبال لخشعت ولتصدعت، قال ﷻ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر:٢١][٥].

---

(١) وهذا ما يأتي الحديث عنه في الفصل الخامس من هذا الباب.

(٢) وفي ثلاث مواضع أخرى من السورة نفسها.

(٣) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٤) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٥) وهذه الصفة ذكرها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في أصول التفسير ص ٣١٧.

٣. **الفرقان**(١)؛ فهو مفرق بين الحق والباطل، بما احتواه من الدلائل، وبما فيه من الشمائل، وما ذكر فيه من خبر الأواخر والأوائل، قال الله ﷻ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان:١] وقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[آل عمران:٣-٤] وقال: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء:١٠٦] والفرقان يحصل به معرفة الفارق بين الحق والباطل(٢)، وقال ابن جرير رحمه الله: « وأما تأويل اسمه الذي هو "فرقان" فإن تفسير أهل التفسير جاء في ذلك بألفاظ مختلفة، هي في المعاني مؤتلفة »(٣). ثم قال بعد أن ذكر ما ورد من الأقوال: « فقد تبين أن القرآن سمي "فرقانا" لفصله ـ بحججه، وأدلته، وحدود فرائضه، وسائر معاني حكمه ـ بين المحق والمبطل، وفرقانه بينهما بنصره المحق، وتخذيله المبطل، حكما وقضاء »(٤).

٤. **الكتاب**(٥)؛ وهو إذا أطلق فالمراد به من كتب الله ما هو مكتوب في المصحف من كلام الله، وقد يقيد فيقال: **كتاب الله**، وهو الكتاب الذي أرسل الله به محمدا ﷺ، قال ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:١-٢] « والكتاب القرآن، ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل...، فقد أبعد النجعة، وأغرق في النـزع، وتكلف ما لا علم له به »(٦)،

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير ١/ ٦٧، المحرر الوجيز ١/ ٥٦، التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٠١، المجموع ١٣/ ٧، ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٢٦، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٣، أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣١٧.

(٢) انظر: المجموع ١٣/ ٨.

(٣)جامع البيان لابن جرير ١/ ٦٩، ثم ذكر ما جاء عن المفسرين في بيان معنى الفرقان.

(٤)جامع البيان لابن جرير ١/ ٧٠.

(٥) انظر: المجموع ١٤/ ١، شفاء العليل لابن القيم ١/ ١٢١، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٣، وقد ورد الكتاب اسما ووصفا لما في المصحف من كلام رب العالمين قرابة ثمانين مرة.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٣٩.

« ولفظ الكتاب يتضمن من كونه مكتوبا مضموما ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءا مظهرا باديا »[(١)]. وقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران:١-٣] **والكتاب (قال جماهير المفسرين:** هو القرآن »[(٢)]. وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٠١] وقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٢٩]، **ووصف هذا الكتاب المنـزل** على محمد ﷺ الموجود بين دفتي المصحف بأوصاف تدل على عظمته، وسمو مكانته، ومن هذه الأوصاف:

أ- أنه هدى للمتقين، قال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١]، وهو كتاب يهدي به اللهُ من اتبعه، قال ﷻ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٥-١٦].

ب- أنه كتاب الله[(٣)]، قال تعالى: ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾[البقرة:١٠١]، وقال: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾[النساء:٢٤].

ت- أنه يُتلى ويُعلَّم، قال الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[البقرة:١٥١].

ث- أنه يوعظ به، قال ـ عزّ مِن قائلٍ ـ : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾[البقرة:٢٣١].

---

(١) المجموع ١٣/ ٣٤٣.

(٢) المجموع ١٣/ ٧.

(٣) انظر: المجموع ٢/ ١٩٢.

ج- أنه كتاب منزل من الله، قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[السجدة:١].

ح- أنه منزل بالحق، قال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:١٧٦] وقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[آل عمران:٣] وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[النساء:١٠٥].

خ- أنه منزل على الرسول محمد ﷺ، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾[النساء:١٣٦] وقال: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:٢].

د- أنه كتاب مبين، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة:١٥] وقال: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[يوسف:١].

ذ- أنه كتاب مبارك(١) قال ﷻ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾[الأنعام:٩٢].

ر- أنه كتاب حكيم، ومحكم، قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يونس:١] وقال: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١].

ز- أنه كتاب عزيز، قال الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤١-٤٢].

س- أنه كتاب قيِّم، قال ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا ﴾[الكهف:١-٢].

ش- أنه مصدق لما قبله من الكتب، قال الله ﷻ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[الأنعام:٩٢] وقال: ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[يونس:٣٧].

(١) أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣١٧.

ص- أنه كتاب متشابه لا اختلاف فيه، قال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[الزمر:٢٣].

ض- أنه كتاب مفصل، قال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا ﴾[الأنعام:١١٤] وقال: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[الأعراف:٥٢] وقال: ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[فصلت:٣].

ط- أنه كتاب يخرج به من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴾[إبراهيم:١-٢].

ظ- أنه كتاب ينطق بالحق[١]؛ قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٩ ﴾[الجاثية:٢٨-٢٩].

ع- أنه كتاب يفتي الأمة[٢]؛ قال ﷻ: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[النساء:١٢٧] «أي يفتيكم أيضا»[٣].

غ- أنه كتاب فيه بيان كل ما يحتاج إليه البشرية لسعادة دينهم ودنياهم، قال ﷻ: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[النحل:٨٩].

٥. **الهدى**[٤]؛ فالقرآن هدى في نفسه، وهاد لغيره، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ

---

(١) انظر: المجموع ١٤/ ٢، وهذا على قول في تفسير الآية.

(٢) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٣) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٤) انظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠١، المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٣، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس:٥٧] وقال: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه:١٢٣-١٢٤]. وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[الفتح:٢٨] وقال: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾[الجن:١٣]، وهم إنما سمعوا القرآن.

٦. **النور**(١)؛ فالقرآن نور يستضاء به في الظلمات، ويعمل به في أصعب الظروف والملمات، وكيف لا يكون نورا وهو كلام رب الأرض والسماء؟ قال ﷻ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة:١٥] وقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن:٨] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٧٤] فالنور المبين المنزل هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ(٢)، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[الشورى:٥٢].

٧. **الروح**(٣) قال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[الشورى:٥٢].

٨. **الشفاء**(٤)، وكلام الله المنزل على محمد ﷺ الموجود بين دفتي المصحف شفاء للقلوب من أمراضها المعنوية والحسية، وشفاء للأبدان من أمراضها، قال تعالى:

---

(١) انظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠١، المجموع ١٤/ ١، ١٥/ ٧٣، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٣، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير ٤/ ٣٧٧، المجموع ١٥/ ٨٠.

(٣) انظر: جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.

(٤) انظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠١، المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٣، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣، شرح كتاب التوحيد ص ٢١٢.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس:٥٧] وقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾[فصلت:٤٤] وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء:٨٢].

٩. **البيان**(١)؛ فكلام الله المحفوظ الموجود بين دفتي المصحف هو بيان من الله ﷻ لعباده بما يريده منهم، وما ينهاهم عنه، وهو بينات في نفسه، قال ﷻ: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾[آل عمران:١٣٨].

١٠. **البينات**؛ أي الواضحات في نفسها الموضحات للحق، والدلائل الجليات للخلق، قال تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[البقرة:١٥٩].

١١. **الآيات**؛ وكل سور القرآن مشتمل على آيات، وهذه الآيات علامات واضحات، وبينات جليات، على أن المنـزل الموجود في المصحف هو كلام رب البريات، ولا يستطيع أحد الإتيان بمثلها من الآيات، وأنها دلائل موضحات، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[البقرة:٩٩] وقد تضاف إلى الله كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[البقرة:٢٥٢] وقال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[الأحزاب:٣٤] وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام:٣٧] «فنبههم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله ﷺ وهو الكتاب الذي يتضمن بيان كل شيء»(٢)، فالقرآن آيات في نفسه، وآية للنبي ﷺ.

١٢. **الموعظة**(٣)؛ فينتفع بها المبتغين الحق، والغافلين من الخلق، قال ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(١) انظر: المجموع ١/١٤، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان ١/ ٣٤٣، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٥.

(٢) شفاء العليل لابن القيم ١/ ١١٩.

(٣) انظر: المجموع ١/١٤، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان

ﵟٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْﵞ[يونس:٥٧].

١٣. **الرحمة**(١)؛ فهو رحمة للمتبعين له، ورحمة للمقبلين عليه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس:٥٧].

١٤. **البصائر**(٢)؛ فهو مبصِّر لغيره، وواضح في نفسه، قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٣] وقال: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[الأنعام:١٠٤].

١٥. **البلاغ**(٣)؛ قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾[إبراهيم:٥٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٦].

١٦. **التنزيل**(٤)؛ قال ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء:١٩٢].

١٧. **المنُزل**(٥) قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[الأنعام:١١٤].

١٨. **الصراط المستقيم**(٦)؛ قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

= للسيوطي ١/ ١٤٣.

(١) انظر: المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٣، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

(٢) انظر: المجموع ١٤/ ١، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.

(٣) انظر: المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٦، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٦.

(٤) انظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠١، المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.

(٥) انظر: المجموع ١٤/ ١.

(٦) انظر: المجموع ٥/ ١٦٠، ١٤/ ٣، ١، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٧] إنه القرآن[١]. وفي قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام:١٥٣].

١٩. **الذِّكْرُ**[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩]، وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[الأنبياء ٥٠] «وهذا الاسم محتمل أن يكون المراد به، أنه ذِكر من الله جل ذِكرُه، ذَكرَ به عباده، ويحتمل أنه ذِكرٌ وشرفٌ وفخرٌ لمن آمن به، وصدق بما فيه»[٣]، وقد يضاف الاسم فيقال: **ذكر الرحمن**، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[الزخرف:٣٦] «وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزله على نبيه ﷺ»[٤]، وقد يضاف فيسمى ذكر الرحمن، وذكر مبارك، وذو الذكر[٥].

٢٠. **الذكرى**[٦]؛ قال الله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:١-٢].

٢١. **التذكرة**[٧]؛ قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[عبس:١٢] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[الحاقة:٤٨].

٢٢. **البشرى**[٨]؛ قال ﷻ: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٩٧].

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ١٠٤، زاد المسير لابن الجوزي ١/ ١٥.

(٢) انظر: جامع البيان ١/ ٦٧، المجموع ١٤/ ١، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣، مختصر التحرير ٢/ ١٨٣.

(٣) جامع البيان لابن جرير ١/ ٧٠، بتصرف يسير.

(٤) انظر: المجموع ١/ ٨٣.

(٥) انظر: التبيان في إقسام القرآن لابن القيم ص ٨٠.

(٦) انظر: المجموع ١٤/ ١،

(٧) انظر: المجموع ١٤/ ١، التبيان في إقسام القرآن ص ٨٠، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٥.

(٨) انظر: البرهان للزركشي ١/ ٣٤٦، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٥.

٢٣. **البشير**[(١)]، قال ﷻ: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾[فصلت:٣-٤].

٢٤. **المهيمن**[(٢)]؛ قال الله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ ﴾[المائدة:٤٨] قال ابن عباس ﷺ: «المهيمن: الأمين، القرآن أمين على كل كتاب قبله»[(٣)].

٢٥. **المصدق**[(٤)]؛ قال تعالى: ﴿ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾[آل عمران:٣] والمصدق للكتب السابقة هو القرآن[(٥)]، وقال: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾[يوسف:١١١] وفي الحديث: **[القرآن شافع مشفع، وماحِل[(٦)] مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره؛ ساقه إلى النار]**[(٧)].

٢٦. **التبيان**[(٨)]؛ قال ﷻ: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾[النحل:٨٩]

---

(١) انظر: جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٥.

(٢) انظر: المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

(٣) ذكره البخاري معلقا مجزوما به، كتاب فضائل القرآن، باب/ كيف نزل الوحي...، ص ١٠٨٤، وانظر: الفتح ٨/ ١١٩.

(٤) انظر: المجموع ١٤/ ١.

(٥) انظر: جامع البيان للطبري ٣/ ١٦٧.

(٦) ومعناه: أي خصم عادل، أو ساع مصدق، انظر: كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٩٥.

(٧) أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان، كتاب العلم، باب/ ذكر البيان بأن القرآن من جعله إمامَه بالعمل...، ح(١٢٤)، ورواه الحاكم في المستدرك من رواية معقل بن يسار ﷺ، كتاب فضائل القرآن، باب/ ذكر فضائل السور وآي متفرقة، ح(٢٠٨٧)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الهيثمي: «ورجال حديث جابر المرفوع ثقات» كما في مجمع الزوائد ١/ ١٧١، وقال العلامة الألباني: «صحيح» كما في صحيح الجامع الصغير، ح(٤٣١٩)، وانظر السلسلة الصحيحة، ح(٢٠١٩)، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ أنه من رواية أبي موسى الأشعري ﷺ، ولم أجده، وذكر أن فيه: (شافعا مشفعا، وشاهدا مصدقا).

(٨) انظر: المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣.

والمعنى: «لم نفرط فيه من شيء، بل أخبرناكم بكل ما كان، وما هو كائن إجمالا وتفصيلا»[١].

٢٧. **المفصل**[٢]؛ قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾[الأنعام:١١٤] وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[يوسف:١١١].

٢٨. **الفَصْل**[٣] قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾[الطارق:١٣].

٢٩. **كلام الله**[٤]؛ قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[التوبة:٦].

٣٠. **الكريم**[٥]؛ قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[الواقعة الآية ٧٧].

٣١. **المجيد**[٦]؛ قال الله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾[ق:١-٢].

٣٢. **العزيز**[٧]؛ قال ﷻ : ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾[فصلت:٤١].

٣٣. **المبين**[٨] قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[الدخان:١-٢].

٣٤. **العلي**[٩]؛ قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف:٤].

٣٥. **المبارك**[١٠]؛ قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾[الأنبياء:٥٠]،

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ١/ ١١٩،١١٧.

(٢) انظر: المجموع ١٤/ ١.

(٣) انظر: البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤.

(٤) انظر: المجموع ٢/ ١٩٢، ١٤/ ٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٣، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

(٥) انظر: المجموع ١٤/ ١،، التبيان في إقسام القرآن لابن القيم ص ١٤٠ .البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤.

(٦) انظر: المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٦.

(٧) انظر: المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٦، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

(٨) انظر: الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

(٩) انظر: المجموع ١٤/ ٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

(١٠) انظر: المجموع ١٤/ ١، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

وقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾[ص:٢٩].

٣٦. **القيم**[١]؛ فهو ذو قيمة، وهو قيم على غيره من الكتب، قال ﷻ: ﴿ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا ﴾[الكهف:١-٢] وقال: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[البينة:٢-٣].

٣٧. **حبل الله**[٢]؛ قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[آل عمران:١٠٣] وفي الحديث: [**ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله ﷻ، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة**][٣].

٣٨. **المتشابه**[٤]؛ حيث يشبه بعضه بعضا، ويؤكد بعضه بعضا، ولا اختلاف فيه، قال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾[الزمر:٢٣].

٣٩. **المثاني**[٥]؛ كما في الآية السابقة، وإنما سمي مثاني؛ لأنه يكرر فيه الأمثال، والخبر، والعبر[٦]، «وعلى هذا القرآن كله مثانٍ»[٧].

٤٠. **الحكيم**[٨]؛ قال ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[لقمان:١-٢].

٤١. **المحكم**[٩]؛ قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١].

٤٢. **الحكمة**[١٠]؛ قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝

---

(١) انظر: المجموع ١٤/ ٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.
(٢) انظر: المجموع ١٤/ ١، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب/ من فضائل علي، ح(٢٤٠٨).
(٤) انظر: المجموع ١٤/ ١، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٦، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.
(٥) انظر: المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.
(٦) انظر: جامع البيان لابن جرير ١/ ٧١.
(٧) جامع البيان لابن جرير ١/ ٧١.
(٨) انظر: المجموع ١٤/ ١، جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٣، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.
(٩) المجموع ١٤/ ٢.
(١٠) انظر: المجموع ١٤/ ٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٣.

حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ ﴾[القمر:٥].

٤٣. **الحُكم**[(١)]؛ قال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾[الرعد:٣٧].

٤٤. **البرهان**[(٢)]؛ قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[النساء:١٧٤] قيل: هو القرآن[(٣)].

٤٥. **العلم**[(٤)]؛ قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[آل عمران:٦١].

٤٦. **الحق**[(٥)]؛ قال ﷻ: ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾[البقرة:٩١].

٤٧. **الوحي**[(٦)]؛ قال ﷻ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[الإسراء:٨٦] وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾[الأنبياء:٤٥].

٤٨. **النبأ العظيم**[(٧)]؛ ولا ريب أن القرآن خبر عظيم، وعظيم حقا، قال ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾[ص:٦٧] وقال: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[النبأ:١-٢].

٤٩. **النذير**[(٨)] قال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[فصلت:٢-٣] وقال: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام:١٩].

٥٠. **أحسن الحديث**[(٩)]، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا ﴾[الزمر:٢٣].

---

(١) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٢) انظر: المجموع ١٤/ ٢. وذكر أنه أحد القولين في تفسير الآية.

(٣) انظر: معالم التنـزيل للبغوي ٢/ ٣١٥.

(٤) انظر: المجموع ١٤/ ٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥.

(٥) انظر: المجموع ١٤/ ٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥.

(٦) انظر: المجموع ١٤/ ٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.

(٧) انظر: لمجموع ١٤/ ٢، وذكر أنه على قول في الآية، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.

(٨) انظر: المجموع ١٤/ ٢، وذكر أنه قول في تفسير الآية.

(٩) انظر: المجموع ١٤/ ٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٤، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.

٥١. **أحسن القصص**(١)، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[يوسف:٣].

٥٢. **الشافع**(٢).

٥٣. **المشفع**(٣)، وجاء أن القرآن شافع في حديث عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعا: [**الصيام والقرآن يشفعان يوم القيامة...**](٤). وجاء في حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعا: [**القرآن شافع مشفع**].

٥٤. **الشاهد**(٥) قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[هود:١٧] قيل الشاهد: القرآن(٦)؛ فالقرآن يشهد على الناس بالموافقة أو المخالفة لأوامره.

٥٥. **الحجة**(٧)، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: [...**القرآن حجة لك أو عليك**](٨).

٥٦. **القول**(٩)، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾[القصص:٥١-٥٣].

٥٧. **العروة الوثقى**(١٠) قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا

---

(١) انظر: المجموع ١٤/ ٢ وذكر أن هذا الاسم على قول.

(٢) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٣) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، ح(٦٦٢٦)، وغيره، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال الطبراني رجال الصحيح»، كما في مجمع الزوائد ٣/ ١٨١، وقال العلامة الألباني: «ورواه أحمد والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا» كما في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٦١٢، ح(١٩٦٣).

(٥) انظر: المجموع ١٥/ ٧٢.

(٦) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٨٦، ٨٨، محاسن التأويل للقاسمي ٤/ ٢٩٥.

(٧) انظر: المجموع ١٤/ ٢.

(٨) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب/ فضل الوضوء، ح(٢٢٣)، من رواية أبي مالك الأشعري ﷺ.

(٩) انظر: البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٤.

(١٠) انظر: البرهان للزركشي ١/ ٣٤٥.

وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[لقمان:٢١-٢٢].

٥٨. **القصص**(١)؛ قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾.

٥٩. **الصدق**(٢)، قال ﷻ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[الزمر:٣٢-٣٣].

٦٠. **العدل**(٣)، قال ـ عز من قائلٍ ـ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾.

هذه هي الأسماء التي ذكرها أهل العلم للقرآن الكريم، وينبغي في معرفة وسرد أسماء القرآن تتبع الآيات، والسنن المأثورات، دون الاجتهادات والقياسات(٤)،

---

(١) انظر: جمال القراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٣٢، البرهان للزركشي ١/ ٣٤٦.

(٢) انظر: البرهان للزركشي ١/ ٣٤٦، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٥.

(٣) انظر: البرهان للزركشي ١/ ٣٤٦، الإتقان للسيوطي ١/ ١٤٥.

(٤) ومن التسميات التي لم تثبت للقرآن الكريم، تسميته بـ:

أ - تسميته بـ (آلــم)!!، وهذا ذكره ابن جرير الطبري ؒ مسندا عن قتادة ومجاهد وابن جريج، أنهم قالوا: (ألم) اسم من أسماء القرآن. قال ابن جرير ؒ: «الذين قالوا: إن (ألم) اسم من أسماء القرآن فلقولهم ذلك وجهان: أحدهما: أن يكونوا أرادوا أن (ألم) اسم للقرآن، كما الفرقان اسم له...، والآخر منهما: أن يكونوا أرادوا أنه اسم من أسماء السورة التي تعرف به، كما تعرف سائر الأشياء بأسمائها التي هي لها أمارات تعرف بها؛ فيفهم السامع من القائل يقول: قرأت اليوم (آلمص) و(ن)، أي السور التي قرأها من سور القرآن». جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ١/ ١٢١-١٢٢، والذي يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن تسمية القرآن بهذا لا يصح، وذلك من وجوه: أ ـ أن هذا لم يثبت مرفوعا عن النبي ﷺ. ب ـ أن هذا لم يثبت موقوفا على الصحابة أيضا. ج ـ أن هذا لا يدل عليه سياق الآية. د ـ أن الأسماء المعظمة لا تكون من الأسماء الجامدة التي لا تدل على معاني، بل تكون أسماء مع كونها تحمل في دلالاتها المعاني الحسنة الجميلة، و(آلم) على القول باسميتها فهي جامدة. د ـ أن مقصودهم بالتسمية هنا الإشارة والدلالة على القرآن لا العلمية المطلقة.

ب - **جونة المسك**، وقد روي هذه اللفظة عن حبيب العجمي أبو محمد كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٩/ ٢٥٧، وذكر محققه أنه منقطع لا يصح عن التابعي حبيب، والجونة التى يعد فيها الطيب ويحفظ، كما في النهاية لابن الأثير ١/ ٣١٩.

ج - **تسميته بالزبر**، وقد ذكر هذه التسمية السيوطي حيث قال في وصف الصديق ؓ: «وهو الذي جمع

فتسمية القرآن أمر ليس لكل أحد، بل هو أمر ينبغي الوقوف فيه على الشرع، والاسم هو ما به يشار إلى الشيء؛ فيقال: هذا كتاب، وهذا هدى، بحيث تكون العلمية فيه متميزة، وهذا بخلاف الوصف؛ فإنه مما يوصف به الشيء، وقد لا يكون علما، وقد يكون اللفظ اسما ووصفا، وهذا هو الغالب في الأسماء المعظمة، كأسماء الله ﷻ وأسماء القرآن.

وهذه الأسماء الواردة للقرآن كل اسم يدل على معنى من صفاته، ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر، فأسماء كتابه: القرآن، والفرقان، والكتاب، والهدى، والبيان، والشفاء، والنور، ونحو ذلك، هي بهذه المنـزلة(١).

وهذه الأسماء التي ذكرتها هي لكلام الله ﷻ الموجود في المصحف، حين الإطلاق دون غيرها من كلام الله ﷻ، وأبين الآن الأدلة الدالة على أن ما في المصحف هو القرآن في المطلب التالي.

= القرآن في صحف وأول الناس من سمى المصحف الزبرا» كما في تاريخ الخلفاء ص ٤٤٤، **ومعنى الزُبر**: «من قولك: زَبَرت الكتاب أزبُره إذا أتقنت كتابته». كما في النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٩٣، لكن مراد السيوطي ـ والله أعلم ـ أنه يريد بالزبر: المصحف، وإنما أتى بلفظ الزبر للبيت، ومما يدل على هذا الترجيح أنه قال في تاريخه ص ٢٧ عن الصديق ﷺ (وأول من سمى المصحف مصحفا).

د - **أما تسمية المصحف بالزبور** ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[الأنبياء:١٠٥] قيل: المراد بالزبور: القرآن، وقيل الكتب قبل التوراة، وقيل ـ وهو الذي رجحه ابن جرير ـ أنه اسم جنس يشمل كل كتاب.

هـ - **تسميته بالإنجيل**، وقد يحتجون بما جاء عن قتادة ﷺ أنه قال في صفة هذه الأمة، في الكتب السابقة، وأنه مكتوب فيها: [أناجيلهم في صدورهم] ذكره القرطبي في تفسيره ٤/ ٦، والحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٢٤٩، ولم يذكر من خرجه، ولم أجده مرفوعا إلا عند الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٨٩، من رواية ابن مسعود ﷺ، وهذا المراد به الجنس وهو الكتاب الذي أنزل إليهم، كما قال شيخ الإسلام ﷺ: «ولفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور قد يراد به الكتب المعينة، ويراد به الجنس فيعبر بلفظ القرآن عن الزبور وغيره...، والمراد به قرآنه، وهو الزبور، ليس المراد به القرآن الذي لم ينـزل إلا على محمد ﷺ، وكذلك ما جاء في صفة أمة محمد ﷺ أناجيلهم في صدورهم فسمى الكتب التي يقرؤونها وهي القرآن أناجيل، وكذلك في التوراة إني سأقيم لبني إسرائيل نبيا من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى فسمى الكتاب الثاني توراة». الجواب الصحيح ٥/ ١٥٦، وقال السيوطي كما في الإتقان ١/ ١٤٩ ـ بعد أن أورد أثر جابر وغيره ـ: «ومع هذا لا يجوز الآن أن يطلق عليه ذلك»، أي لا يجوز تسمية القرآن توراة ولا إنجيلا.

(١) انظر: المجموع ٧/ ١٨٥-١٨٦.

المطلب الثالث: الدليل على أن ما في المصحف هو القرآن.

والاستدلال لهذا يكاد يكون من باب تحصيل الحاصل، لأنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن ما في المصحف هو القرآن، وهذه ضرورة يجدها كل منصف ومتبع للحق.

وكتابة القرآن في مصحف واحد لم يكن قد تم في عهد النبي ﷺ، لأن القرآن كان ينـزل شيئا فشيئا، وكانت الآية تنسخ بعد نزولها، فلاحتمال النسخ، أو زيادة النـزول لم يكن جمع في مصحف واحد، وإنما كان مكتوبا في مختلف الوسائل المتاحة في ذاك العصر، ولما توفي النبي ﷺ وانقطع الوحي، قام الصحابة ﷺ بجمعها[(١)] في عهد الصديق ﷺ في صحف، ثم نسخت في عهد عثمان ﷺ في مصحف واحد عدة نسخ وأرسلت إلى الأمصار، واشتهرت هذه المصاحف في الديار[(٢)].

وقد دل الكتاب والآثار والإجماع والمعقول على أن ما في المصحف هو القرآن:

فمن القرآن:

١ ـ قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩] «أي: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل ما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه»[(٣)]، **وفيها**: دلالة على حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان[(٤)]، وأن الموجود بين الدفتين هو المحفوظ بأمر الله ـ تعالى ـ، وعلى هذا كان إجماع الصحابة واتفاقهم، فالقرآن محفوظ «عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقصان، ونحو ذلك، فالقرآن العظيم المحفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر واحد

---

(١) انظر: المجموع ٢١/ ٣١٨.

(٢) انظر: شرح السنة للبغوي ٤/ ٥١٩، وفتح البيان لصديق حسن ٥/ ١٦٩، وسيأتي الحديث عن كتابة القرآن الكريم، في الفصل الثالث من الباب الثالث.

(٣) جامع البيان ٧/ ٤٩٣.

(٤) انظر: المرشد الوجيز في علوم الكتاب العزيز ص ٦٨، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٦٠، وانظر: الفصول في الأصول ٢/ ٢١٦.

من جميع الخلق من الإنس والجن أن يزيد فيه أو ينقص منه حرفا واحدا، أو كلمة واحدة، وهذا مختص بالكتاب العزيز بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها تلك الأشياء، ولما تولى الله حفظ هذا الكتاب بقي مصونا إلى الأبد، محروسا من الزيادة والنقصان وغيرهما»[١].

٢ ـ قول الله ﷻ: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١] وفيها دلالة على بدعة وضلال وكفر من ادعى أن ما في المصحف ليس هو القرآن كله، لأن معنى أحكمت آياته: منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها أو ينقصوا منها، أو يعارضوا بمثلها[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴾[القيامة:١٧] «وقد أعلم الله تعالى في القرآن بأنه مجموع في الصحف في قوله ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾[البينة:٢]، وكان القرآن مكتوبا في الصحف، لكن كانت مفرقة، فجمعها أبوبكر في مكان واحد، ثم كانت بعده محفوظة إلى أن أمر عثمان ﷺ بالنسخ منها فنسخ منها عدة مصاحف، وأرسل بها إلى الأمصار»[٣]. **ففي الآية إشارة إلى أن جمع القرآن في المصحف على هذا** النحو الموجود هو برعاية الله تعالى، وهو من حفظه له[٤].

وأما الأدلة من الآثار فهي كثيرة منها:

١ ـ قول النبي ﷺ: [**لا تسافروا بالقرآن فإني لا آمن أن يناله العدو**]، وفي رواية: [**أنه كان ينهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو**][٥]. قال النووي رحمه الله: «فيه النهي عن المسافرة بالمصحف إلى أرض الكفار للعلة المذكورة في الحديث»[٦]. وهذا يدل على أن ما في المصحف هو القرآن، من غير زيادة ولا نقصان.

---

(١) فتح البيان لصديق حسن ٥/ ١٦٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٦٠، محاسن التأويل ٤/ ٢٨٦.

(٣) الفتح ٨/ ٦٣٠.

(٤) انظر: تكملة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم ٨/ ٣٦٨.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب/ النهي أن يسافر بالقرآن...، ح(١٨٦٩) من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٦) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ١٣.

٢ ـ حديث: [**لا يمس القرآن إلا طاهر**][١] ففيه دليل على أن ما في المصحف هو القرآن[٢]، فإن الله يقول: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة:٧٧-٧٩] فلما نهى رسول الله ﷺ عن مس القرآن إلا طاهرا تيقنا أن الموجود في المصحف هو القرآن الذي لا يمسه إلا المطهرون.

٣ ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: [**ما ترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين**][٣]. وقد ذكر هذا الحديث الإمام البخاري رحمه الله تحت باب: «من قال لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين»[٤]. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «أي ما في المصحف،... وهذه الترجمة للرد على من زعم أن كثيرا من القرآن ذهب لذهاب حملته»[٥]، **وفي رواية**: «لم يَدَعْ إلا ما في هذا المصحف، أي: لم يدع من القرآن ما يتلى إلا ما هو داخل المصحف الموجود»[٦].

٤ ـ قال سمرة بن جندب[٧] رضي الله عنه: [**عُرِض القرآن على رسول الله ﷺ عرضات، فيقولون: إن قراءتنا هذه هي العرضة الأخيرة**][٨]. ومعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم إنما أثبتوا ما كان في العرضة الأخيرة في هذا المصحف، وهذا دليل بين أن القرآن المحكم تلاوته موجود كله في المصحف الذي جمعه الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) رواه مالك في الموطأ مرسلا، كتاب القرآن، باب/ الأمر بالوضوء لمن مس القرآن، ح(١)، وابن حبان في صحيحه، كتاب أخباره ﷺ، باب/ كتب النبي ﷺ، ح(٦٥٢٥)موصولا عن أبي بكر بن محمد بن حزم عن أبيه عن جده موصولا، وانظر: موارد الظمآن ١/ ٢٠٣، ح ٧٩٣، و إرواء الغليل للشيخ الألباني ١/ ١٥٨، ح(١٢٢)وقال: «صحيح» وذكر طرق الحديث، وأوفى البحث حقه.

(٢) انظر: المجموع للنووي ٢٠/ ٢٦٢.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ من قال لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين، ح(٥٠١٩).

(٤) انظر: صحيح البخاري ص ١٠٩٢.

(٥) الفتح ٨/ ٦٨٣.

(٦) الفتح ٨/ ٦٨٣.

(٧) هو الصحابي الجليل: سمرة بن جندب بن هلال بن جريج أبو سليمان، كان من حلفاء الأنصار، توفي قبل الستين. انظر الإصابة ٢/ ٧٩.

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، أحاديث نزول القرآن، ح(٢٩٠٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري بعضه، وبعض على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وقال الذهبي كما في التلخيص: «صحيح»، وقال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن» كما في الفتح ٨/ ٦٦١.

قال عبيدة السلماني[١] رحمه الله: «إن الذي جمع عليه عثمان الناس يوافق العرضة الأخيرة»[٢]، وقال أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله: «كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان، وزيد بن ثابت، والمهاجرين والأنصار واحدة، كانوا يقرؤون قراءة العامة، وهي القراءة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه»[٣].

٥ ـ قال عمر رضي الله عنه في فرضية رجم الشيخ والشيخة إذا زنيا: [**لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي**][٤]. ففي قول عمر رضي الله عنه دلالة على ثبوت حكم الرجم وأنه إنما لم يثبتها آية لا هو ولا الصديق قبله، ولا الخليفتان بعده لعلمهم أنها نسخت تلاوة، وترك عمر رضي الله عنه كتابتها في المصحف دليل على أنه قد رأى ذلك[٥]، والصحابة وافقوه عليه.

٦ ـ عن شداد[٦] قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه : [**لينتزعن هذا القرآن من بين أظهركم؟ قال، قلت: يا أبا عبد الرحمن! كيف ينتزع وقد أثبتناه في صدورنا، وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يسري عليه في ليلة فلا يبقى في قلب عبد منه، ولا مصحف منه شيء، ويصبح الناس فقراء كالبهائم، ثم قرأ عبد الله:** ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[الإسراء:٨٦]][٧].

وإذا ثبت أن الذي يُرفع هو هذا الموجود في المصاحف علمنا أنه هو الموحى المتلو، وهو المحفوظ في الصدور والسطور إلى هذا العصر، وحتى يشاء الله تعالى رفعه.

---

(١) هو التابعي المخضرم: عبيدة بن عمرو السلماني المرادي، أبو عمرو الكوفي، فقيه ثبت، أخرجه له أصحاب الكتب، توفي قبل السبعين. انظر: التقريب ص ٣٢٠.

(٢) انظر: الفتح ٨/ ٦٦١.

(٣) شرح السنة للبغوي ٤/ ٥٢٥.

(٤) أخرجه البخاري معلقا مجزوما به، كتاب الأحكام، باب/ الشهادة تكون عند الحاكم...، ص ١٥٠٣، وأخرجه مالك في الموطأ موصولا، كتاب الحدود، باب/ ما جاء في الرجم، ح(١٠).

(٥) انظر: مختصر التحرير ٢/ ١٢٩، والفصول في الأصول ٢/ ٢٥٧، ٢٥٩.

(٦) هو: شداد بن معقل الكوفي، صدوق، له ذكر في البخاري، تابعي كبير. انظر: التقريب ص ٢٠٦.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣/ ٣٦٢ ح(٥٩٨٠)، ورواه الدارمي في سننه، ح(٤٢٧،٤٢٦).

٧ ـ قالت امرأة لابن مسعود ﷺ لما ذكر لعن الواشمات والمستوشمات: [**لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته؟ فقال: والله لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه...**][(١)]. أي أنها قرأت ما بين دفتي المصحف من أول القرآن وآخره على وجه الاستيعاب، وأرادت بهذا التأكيد أنها قرأت القرآن كله[(٢)]، وهذا يؤكد أن القرآن عندهم ما كان بين اللوحين، وهو المصحف.

وأما الدليل من الإجماع:

فقد ذكره غير واحد من أهل العلم الراسخين، الذين يستنار بأقوالهم في الدين، وأذكر بعضهم لا على سبيل الحصر، وإنما أفعل ذلك تنبيها باليسير على الكثير، وتنبيها بالبعض على الكل:

أجمع الصحابة على أن ما في هذا المصحف هو القرآن، وما عدا ذلك فهو إما منسوخ حكما وتلاوة، أو منسوخ تلاوة لا حكما، وقد حكى عنهم الإجماع أئمة جهابذة، وعلماء نقاد، واتفاقهم ﷺ كان « سببا لبقاء القرآن في الأمة رحمة من الله ﷻ على عباده، وتحقيقا لوعده في حفظه »[(٣)].

وأما ما حكي من الخلاف اليسير فيما بينهم على مصحف عثمان ﷺ فالظاهر أنه كان في أول الأمر، كما كان التردد منهم في كتابته في صحف أيام أبي بكر ﷺ ثم استقر الإجماع بينهم وبعدهم على أن ما في المصحف هو القرآن المحفوظ، وهو القرآن المتلو، المحكم الباقي، وسيبقى إلى أن يشاء الله ثم يرفعه[(٤)]، وأما القراءات المروية التي تروى عنهم صحيحة، ولا توافق المصحف، فهذا « وقع من بعضهم قبل أن يبلغهم مصحف

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب/ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾، ح(٤٨٨٦)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب/ تحريم فعل الواصلة...، ح(٢١٢٥)، وأبو داود، كتاب الترجل، باب/ في صلة الشعر، ح(٤١٦٩).

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود لشمس الحق عظيم آبادي ١١/ ١٥١.

(٣) شرح السنة للبغوي ٤/ ٥٢٣.

(٤) انظر: الفتح ٨/ ٦١٦.

عثمان المجمع عليه، المحذوف منه كل منسوخ، وأما بعد ظهور مصحف عثمان فلا يظن بأحد منهم أنه خالف فيه »(١).

وأشرع الآن في ذكر بعض أقوال أهل العلم الذين نقلوا أن القرآن هو الموجود في مصاحف المسلمين، وحكوا الإجماع في هذه المسألة:

١. قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله: « ما بين الدفتين كله قرآن »(٢). وهذا يؤكد أن ما في المصحف هو القرآن.

٢. قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله: « أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على هذا المصحف »(٣). يعني المصحف الذي كتب في عهد عثمان رضي الله عنه، وأرسل إلى الأمصار، وأنه هو المشهور المجمع عليه بينهم.

٣. قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: « وأجمع العلماء على أن ما في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا، هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه...، وإنما حل مصحف عثمان هذا المحل لإجماع الصحابة، وسائر الأمة عليه، ولم يجمعوا على ما سواه »(٤).

٤. قال ابن حزم رحمه الله: « واتفقوا أنه لا يكتب في المصحف متصلا بالقرآن ما ليس من القرآن »(٥). وهذا فيه بيان جلي أن ما في المصحف هو القرآن.

٥. قال البيهقي رحمه الله: « والأصل ما استقرت عليه القراءة في السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ، بعد ما عارضه به جبرائيل عليه السلام في تلك السنة مرتين، ثم اجتمعت الصحابة على إثباته بين الدفتين »(٦).

---

(١) المجموع ٦/ ١٠٩، وانظر: التمهيد لابن عبد البر ٤/ ٢٧٩، المجموع ٢٠/ ٣٥، الفصول في الأصول ٢/ ٢٥٣.

(٢) انظر: المبسوط للسرخسي ١/ ١٦، المجموع للنووي ٣/ ٢٨١.

(٣) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٢٨١.

(٤) التمهيد لابن عبد البر ٤/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٥) مراتب الإجماع لابن حزم ص ١٧٤.

(٦) السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٨٥.

٦. قال الإمام البغوي رحمه الله: «فجمع الله تعالى الأمة بحسن اختيار الصحابة على مصحف واحد هو آخر العرضات من رسول الله ﷺ، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمر بكتابته جمعا بعد ما كان مفرقا في الرقاع بمشورة الصحابة حين استحر القتل بقراء القرآن يوم اليمامة، فخافوا ذهاب كثير من القرآن بذهاب حملته، فأمر بجمعه في مصحف واحد، ليكون أصلا للمسلمين، فيرجعون إليه، ويعتمدون عليه، فأمر عثمان بنسخه في المصاحف، وجمع القوم عليه، وأمر بتحريق ما سواه، قطعا لمواد الخلاف، فكان ما يخالف الخط المتفق عليه في حكم المنسوخ، والمرفوع، كسائر ما نسخ ورفع منه باتفاق الصحابة. **والمكتوب بين اللوحين هو المحفوظ من الله** تعالى للعباد، وهو الإمام للأمة، فليس لأحد أن يعدو في اللفظ إلى ما هو خارج من رسم الكتابة»[(١)].

٧. قال الإمام السمعاني[(٢)] رحمه الله: «وكتاب الله هو المنقول إلينا بطريق التواتر، على وجه يوجب العلم المقطوع الذي لا يخامره شك ولا شبهة، وهو المثبت بين الدفتين»، وقال: «وقد دل اتفاق المسلمين على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى»[(٣)].

٨. قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني[(٤)] رحمه الله: «إن جميع القرآن الذي أنزله الله تعالى، وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ويرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان رضي الله عنه وأنه لم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه، وأن بيان الرسول ﷺ كان بجميعه بيانا شائعا ذائعا، وواقعا على طريقة واحدة، ووجه تقوم به الحجة، وينقطع به العذر، وأن الخلف نقله عن السلف على هذه السبيل... وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله سبحانه، ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من

---

(١) شرح السنة للبغوي ٤/ ٥١١، وانظر: الفتح ٨/ ٦٧٤.

(٢) هو الإمام السني: منصور بن محمد بن عبد الجبار التيمي السمعاني المروزي، الحنفي ثم الشافعي، أبو المظفر، من مؤلفاته: تفسير القرآن، وقواطع الأدلة في أصول الفقه، توفي ٤٨٩ هـ. انظر السير ١٩/ ١١٤، شذرات الذهب ٣/ ٣٩٣.

(٣) قواطع الأدلة ١/ ٣٣، ٣٧.

(٤) هو رأس المتكلمين المشهور: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني الأشعري، وهو من أكثر الناس كلاما وتصنيفا في الكلام، وله مؤلفات كثيرة، توفي سنة ٤٠٣ هـ. انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٤٢٦.

ذلك مؤخر، ولا أخر مقدم، وأن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آي كل سورة، ومواضعها، وعرفت مواقعها، كما ضبطت نفس القرآن، وذات التلاوة»[(١)].

٩. قال الأصولي السرخسي الحنفي[(٢)] رحمه الله: «اعلم بأن الكتاب هو القرآن المنـزل على رسول الله ﷺ، المكتوب في دِفات المصاحف...، وإنما اعتبرنا الإثبات في دِفات المصاحف، لأن الصحابة رضي الله عنهم إنما أثبتوا القرآن في دِفات المصاحف لتحقيق النقل المتواتر فيه، ولهذا أمروا بتجريد القرآن في المصاحف»[(٣)].

١٠. قال الفقيه أبو يعلى رحمه الله: «ودعاء القنوت ليس من القرآن، خلافا لقوم في قولهم هو من القرآن، والدلالة عليه: أنه لو كان من القرآن لأثبتته الصحابة بين الدِفتين، فلما لم يثبتوا ذلك دل على أنه ليس من القرآن بإجماع الصحابة»[(٤)].

١١. قال العلامة النووي رحمه الله: «ونحن نعلم بالضرورة أن الصحابة الذين كتبوا المصاحف، نقلوا إلينا ما كتبوه بين لوحي المصحف، كلام الله الذي أنزله إلى نبيه، لم يكتبوا فيه ما ليس من كلام الله»[(٥)].

١٢. قال العلامة ابن قدامة رحمه الله: «فإنه ـ أي القرآن ـ بين دِفتي المصحف بإجماع المسلمين»[(٦)].

١٣. قال العلامة القرطبي رحمه الله: «والقرآن الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة رضي الله عنهم لو أنكر بعضه منكر كان كافرا، حكمه حكم المرتد، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه»[(٧)]، وقال في قراءة ما لم يثبت في المصحف: «إنه نُسِخَ، إذ لم يثبت

---

(١) المرشد الوجيز لأبي شامة ص ٤٥-٤٦.

(٢) هو: الفقيه الأصولي الحنفي: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة أبو بكر السرخسي، وكان من المجتهدين في المذهب الحنفي، وبرع فيه، ألف كتابه الكبير: المبسوط في الفقه وهو في السجن، توفي سنة ٤٣٨ هـ. انظر: الفوائد البهية ص ١٥٨.

(٣) المحرر في أصول الفقه للسرخسي ١/ ٢١٠.

(٤) المعتمد في أصول الدين ص ٢٥٨.

(٥) نصب الراية للزيلعي ١/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٦) المجموع لشيخ الإسلام ابن تيمية ٩/ ٣٩٩.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٦٠.

نقله في المصحف، ولا تواتر»[١].

١٤. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والقرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ هو هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون، ويكتبونه في مصاحفهم...، وهذا القرآن في المصاحف»[٢]، **وقال:** «والقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ هو ما بين الدفتين»[٣]، **وقال:** «والقرآن الذي بين لوحي المصحف متواتر، فإن هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة، ونقلوها قرآنا عن النبي ﷺ، وهي متواترة من عهد الصحابة رضي الله عنهم، نعلم علما ضروريا أنها ما غيرت»[٤]، **وقال:** «أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة وسائر السور المكتوبة في المصحف قرآن، وأن من جحد شيئا منه كفر، وما نقل عن ابن مسعود في الفاتحة والمعوذتين باطل ليس بصحيح عنه[٥] قال ابن حزم في أول كتابه المجاز: هذا كذب على ابن مسعود موضوع»[٦].

١٥. قال العلامة ابن القيم رحمه الله في معرض حديثه في إثبات القياس بما فعله الصحابة: «وكذلك اتفاقهم على كتابة المصحف، وجمع القرآن فيه، وكذلك اتفاقهم على جمع الناس على مصحف واحد»[٧] وقال: «وثبوت القرآن وكونه في المصاحف أمر معلوم، ومشاهد أن نفس القرآن أثبت في المصاحف»[٨].

١٦. قال العلامة بدر الدين بن بهادر الزركشي الشافعي[٩] رحمه الله: «وأجمعوا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٩٦.

(٢) المجموع ٣/ ٤٠١.

(٣) المجموع ٣/ ٤٠٣.

(٤) المجموع ١٢/ ٥٦٩، وانظر: ١٢/ ٥٦، ٢٦٣، ١٣٨، ٥٣٧، الرد على المنطقيين ص ٤٥٢، مختصر الفتاوى المصرية للبعلي ص ٥١.

(٥) سيأتي مزيد بيان لما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه في الرد على الروافض في الباب الرابع.

(٦) المجموع ٣/ ٣٥٠، وانظر: الغرة المنيفة لأبي حفص عمر الغزنوي ص ٤٢.

(٧) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦١.

(٨) دقائق التفسير ٢/ ١٩٦ بتصرف يسير.

(٩) هو الفقيه الأصولي المحدث: محمد بن بهادر بدر الدين الزركشي المصري الشافعي، أخذ عن الأسنوي وغيره، وصار مقدما في الفقه الشافعي، وله مشاركات في علوم شتى، له البحر المحيط في أصول الفقه، =

على أن ما بين دفتي المصحف كلام الله تعالى»[١].

١٧. قال العلامة الفقيه البعلي[٢] رحمه الله: «والكتاب كتاب الله تعالى، وهو القرآن المكتوب في المصحف»[٣].

١٨. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله المقطوع به، المكتوب بأمر النبي ﷺ»[٤]، **وقال**: «وفيه اهتمام الصحابة وأهل القرون الأول بالقرآن، والمنع من الزيادة في المصحف، وكذا من النقص»[٥].

وفي هذا القدر من نقل الإجماع كفاية لمن اعتبر، وتذكير لمن ادّكر، فكيف وقد عضد هذا الإجماعَ الكتابُ والخبر، فدل على أن ما في المصحف هو القرآن المنـزل على محمد ﷺ المتلو المتعبد به.

وأما دليل المعقول فمن وجوه:

الوجه الأول: أنه لما كان القرآن محفوظا بحفظ الله، فإن كل ما في المصحف هو القرآن المحفوظ، و«كل ما روي من القرآن، ولا نجده في مصحفنا فهو مما كان قرآنا ونسخ»[٦].

الوجه الثاني: أن المصحف منقول بالتواتر، محفوظ في الصدور، ولو عدمت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة، لكونهم يحفظون كتابهم، فالتواتر ثابت في نقل القرآن، فلا يرد عليه الغلط والخطأ مطلقا، فكل ما ليس في المصحف فهو ليس بقرآن متلو، فما «نقل آحادا فليس بقرآن، وذلك لأنا قاطعون بأن العادة تقضي بأن مثل هذا

= والمنثور في القواعد الفقهية، توفي سنة ٧٩٤ هـ. انظر: معجم المؤلفين ٩/ ١٢١.

(١) المنثور في القواعد للزركشي ٣/ ١٢٢.

(٢) هو الفقيه العلامة: محمد بن علي البعلي بدر الدين أبو عبد الله الحنبلي، وله جهود كثيرة في الاهتمام بعلوم شيخ الإسلام، ومن مؤلفاته: مختصر الفتاوى المصرية، توفي سنة ٧٧٧ هـ. انظر: رفع النقاب عن تراجم الأصحاب لابن ضويان ص ٣٢٩.

(٣) المطالع للبعلي ص ٣٩٩.

(٤) الفتح ٨/ ٦٤٦-٦٤٧.

(٥) الفتح ١٢/ ١٦١.

(٦) مختصر التحرير ١/ ١٠٠.

الكتاب الذي يكون هاديا للخلق... يمتنع أن لا يتواتر في تفاصيله، أي في أصله وأجزائه، ووضعه وترتيبه ومحله، إذ الدواعي تتوفر على نقله إلى أن يصير شائعا مستفيضا متواترا، فما لم يبلغ حد التواتر يقطع بأنه ليس من القرآن»[(١)].

الوجه الثالث: أنه لا يعقل أن يكتب الصحابة المصحف، ويتركوا شيئا من القرآن، وقد كان قصدهم، ومرامهم جمع القرآن، ولما جمعوا ما جمعوا بين الدفتين علمنا أن ذلك لكونه قرآنا، ولو لم يكن شيء منه قرآنا لما كتبوه، لكون ذلك يحمل على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا[(٢)].

الوجه الرابع: أن هذا المصحف المعروف موجود الآن منه ملايين النسخ، وليس بينها خِلاف ولو في كلمة واحدة منه، فهذا دليل عقلي قطعي على حفظ الله ﷻ لكتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه هو الموجود بين الدِفتين، منذ عهد الخلفاء الراشدين ﷺ وإلى زماننا هذا، بل وحتى قيام الساعة[(٣)].

الوجه الخامس: أنه لا يصح أن يكون شيء من القرآن غير موجود في المصحف، «لأنه لو جاز أن يكون قرآنا غير ما في المصحف لجاز أن يكون لبعض ما في أيدينا من القرآن منسوخا بما ليس في أيدينا منه»[(٤)].

الوجه السادس: وجود الآيات في رسم المصحف، ووجودها بين دفاتها، وكتابتها في زمن الصحابة، ونقلها إلينا عبر القرون، هو أعظم دليل، وأبين حجة، في إثبات القرآنية للآيات المكتوبة في المصحف، وأن ما سواها ليست كذلك[(٥)].

فإذا ثبت أن ما في المصحف هو القرآن، فهنا يرد مسائل:

---

(١) شرح مختصر ابن الحاجب للأصفهاني ١/ ٤٦١، وانظر: المجموع ١٢/ ١٠٠، ١٥/ ٢٥٥.

(٢) انظر: إعانة الطالبين ١/ ١٣٩.

(٣) انظر: السير ٢/ ٤٤١.

(٤) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٣١٦.

(٥) انظر: إرشاد الفحول ص ٦٤ بتصرف.

المسألة الأولى: هل البسملة آية من القرآن إذ كتبت في المصحف؟

اتفق العلماء الربانيون، والأئمة المرضيون على أن البسملة بعض آية في كتاب الله ﷻ في سورة النمل، واتفقوا على أنها ليست بآية في أول براءة، ولا تكتب في أولها، كما ثبت ذلك عن الصحابة المهديين، ومن بعدهم.

واختلفوا فيما سوى ذلك من المواطن، أعني هل هي آية من الفاتحة وغيرها من السور، أم أنها كتبت للتبرك، وكررت للتنبيه على الفصل بين السور.

قال النووي رحمه الله: «وأجمعت الأمة على أنه لا يكفر من أثبتها ولا من نفاها لاختلاف العلماء فيها، بخلاف ما لو نفى حرفاً مجمعاً عليه، أو أثبت ما لم يقل به أحد، فإنه يكفر بالإجماع، وهذا في البسملة التي في أوائل السور غير براءة، وأما البسملة في أثناء سورة النمل ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[النمل:٣٠] فقرآن بالإجماع، فمن جحد منها حرفاً كفر بالإجماع»، **ثم ذكر** حجج من نفى البسملة في غير سورة النمل، ورد عليها، ثم استدل للقائلين بقرآنيتها، فقال: «واحتج أصحابنا بأن الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على إثباتها في المصحف جميعا في أوائل السور، سوى براءة بخط المصحف، بخلاف الأعشار وتراجم السور، فإن العادة كتابتها بحمرة ونحوها، فلو لم تكن قرآناً لما استجازوا إثباتها بخط المصحف من غير تمييز، لأن **ذلك** يحمل على اعتقاد أنها قرآن، فيكونون مغررين بالمسلمين، حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا، فهذا مما لا يجوز اعتقاده في الصحابة رضي الله عنهم»، **ثم بين أن الصحابة ما كتبوا في المصحف إلا القرآن،** فقال: «ولأنهم قصدوا تجريد المصحف مما ليس بقرآن ولهذا لم يكتبوا التعوذ والتأمين مع أنه صح الأمر بهما»، ثم بين رحمه الله السبب في عدم تكفير من أنكر قرآنية البسملة في أوائل السور، فقال: «وأما قولهم لو كانت قرآناً لكفر جاحدها، فجوابه من وجهين:

أحدهما: أن يقلب عليهم، فيقال: لو لم تكن قرآناً لكفر مثبتها.

الثاني: أن الكفر لا يكون بالظنيات، بل بالقطعيات، والبسملة ظنية »[١].

ومثل هذا وأبين منه ما سطره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، حيث قال: « والعمدة التى اعتمدها المصنفون فى الجهر بها ووجوب قراءتها إنما هو كتابتها فى المصحف بقلم القرآن، وأن الصحابة جردوا القرآن عما ليس منه، والذين نازعوهم دفعوا هذه الحجة بلا حق، كقولهم القرآن لا يثبت إلا بقاطع، ولو كان هذا قاطعا لكفر مخالفه... معتمدين على هذه الحجة، وأنه لا يجوز إثبات القرآن إلا بالتواتر، ولا تواتر هنا فيجب القطع بنفي كونها من القرآن.

والتحقيق أن هذه الحجة مقابلة بمثلها، فيقال لهم بل يقطع بكونها من القرآن حيث كتبت، كما قطعتم بنفي كونها ليست منه، ومثل هذا النقل المتواتر عن الصحابة بأن ما بين اللوحين قرآن، فإن التفريق بين آية وآية يرفع الثقة بكون القرآن المكتوب بين لوحي المصحف كلام الله، ونحن نعلم بالاضطرار أن الصحابة الذين كتبوا المصاحف نقلوا إلينا أن ما كتبوه بين لوحي المصحف كلام الله الذي أنزله على نبيه، لم يكتبوا فيه ما ليس من كلام الله.

فإن قال المنازع: إن قطعتم بأن البسملة من القرآن حيث كتبت، فكفروا النافي! قيل له: وهذا يعارض حكمه إذا قطعتم بنفي كونها من القرآن، فكفروا منازعكم، وقد اتفقت الأمة على نفى التكفير فى هذا الباب، مع دعوى كثير من الطائفتين القطع بمذهبه، وذلك لأنه ليس كل ما كان قطعيا عند شخص يجب أن يكون قطعيا عند غيره، وليس كل ما ادعت طائفة أنه قطعي عندها يجب أن يكون قطعيا فى نفس الأمر، بل قد يقع الغلط في دعوى المدعي القطع في غير محل القطع، كما يغلط في سمعه وفهمه ونقله، وغير ذلك من أحواله، كما قد يغلط الحس الظاهر في مواضع، وحينئذ فيقال: **الأقوال في كونها من القرآن ثلاثة: طرفان ووسط؛**

الطرف الأول قول من يقول: إنها ليست من القرآن إلا في سورة النمل...

---

(١) المجموع للنووي ٣/ ٣٣٤-٣٤٠، وانظر: مراتب الإجماع لابن حزم ص ١٧٤.

الطرف المقابل له قول من يقول: إنها من كل سورة آية، أو بعض آية...

القول الوسط: إنها من القرآن حيث كتبت، وأنها مع ذلك ليست من السور، بل كتبت آية في أول كل سورة، وكذلك تتلى آية منفردة في أول كل سورة، كما تلاها النبي ﷺ حين أنزلت عليه سورة: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾[الكوثر:١](١) ... ـ وهذا ـ قول سائر من حقق القول فى هذه المسألة وتوسط فيها جمعا من مقتضى الأدلة، وكتابتها سطرا مفصولا عن السورة، ويؤيد ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: **[كان رسول الله ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تنـزل عليه ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾(٢)](٣)»(٤).**

وبهذا يتبين أن البسملة حيث كتبت في المصحف فلكونها قرآنا، أما هل هي من الفاتحة أم لا؟ وهل يجهر بها في الصلاة؟ فهذا أمر آخر(٥)، والله ﷻ أعلم.

المسألة الثانية: حكم ترتيب آيات المصحف.

اختلف العلماء في ترتيب السور في المصحف هل هو باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم، أم بتوقيف من النبي ﷺ؟ وهذه مسألة لا ينبني عليها خلاف في مسألة عقدية، إلا أنهم اتفقوا على أن من أراد كتابة المصحف أنه يلزمه الترتيب الموجود في المصحف، الذي اتفق عليه الصحابة رضي الله عنهم، واتباع منهجهم متحتم، والسير على خطاهم مُتَأَكّدٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وترتيب السور بالاجتهاد لا بالنص في

---

(١) وحديث إنزال سورة الكوثر أخرجه الإمام مسلم، كتاب الصلاة، باب/ حجة من قال: البسملة آية...، ح(٤٠٠) من رواية أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب/ من جهر بها، ح(٧٨٨)، وقال الألباني: «صحيح» كما في صحيح سنن أبي داود ١/ ٢٢٣، ح(٧٨٨).

(٣) المجموع ٢٢/ ٤٣٢-٤٣٥، وانظر: ٣/ ٢٨٣، ١٣/ ٣٩٩، ٢٢/ ٢٣٨ وما بعدها، و ٢٧٦ وما بعدها، والقواعد النورانية ص ١٦-١٨، وبدائع الصنائع للكاساني ١/ ٢٠٤، أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٣، نصب الراية للزيلعي ١/ ٣٢٨، البحر الرائق ١/ ٣٣٠-٣٣١، الفتح ٨/ ٦٦٠، ٦٨٣، إرشاد الفحول للشوكاني ص ٦٤.

(٤) المجموع ٢٢/ ٤٣٢-٤٣٥.

(٥) انظر: المجموع للنووي ٣/ ٣٤١.

قول جمهور العلماء...، فيجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة ﭫ في كتابتها.

لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان ﭬ صار هذا مما سنه الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث أن لهم سنة يجب اتباعها»(١).

والحديث المشار إليه هو قوله ﷺ: [**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**](٢). فمهما يكن من أمر فإن الصحابة قد اتفقوا على هذا الترتيب في كتابة المصحف، ولا يجوز تغيير ما كتبوا بالتقديم والتأخير، لأن ذلك مخالف للإجماع.

وأما قراءة الآيات على الترتيب الموجود في السور في المصحف فهو أمر لازم، ليس لأحد أن يخالف في ترتيبها، لا قراءة، ولا كتابة، ومن فعل ذلك عامدا فقد خالف ما عليه الأمة، لأن ترتيب الآيات في مواضعها كتنـزيل الآية نفسها فالإيمان بها واجب، وعلى هذا اتفاق الأئمة، وهو اعتقاد الأمة.

عن عبد الله بن الزبير ﭬ أنه قال لعثمان ﭬ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾[البقرة:٢٤٠] قال: [**قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها؟ أو تَدَعُها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغير شيئا منه من مكانه**](٣).

---

(١) الفروع لابن مفلح ١/ ٤٢١، وهذا يدل على أن كتابتها في زمن الصحابة كان سائغا على حسب ما رأوه من الترتيب، لكن بعد الإجماع على ترتيبه في هذا المصحف، صار اتباع ذلك هو السنة، وخلافه غير سائغ، أعني كتابة المصحف على غير هذا الترتيب ـ والله أعلم ـ.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب/ في لزوم السنة، ح(٤٦٠٧)، وأخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب/ في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، ح(٢٦٧٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأخرجه غيرهما، وقال الألباني في إرواء الغليل ٨/ ١٠٧، ح(٢٤٥٥): «صحيح»، ثم أطال النفس في تخريج الحديث من مظانه الكثيرة.

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، ح(٤٥٣٠).

قال أبو محمد ابن حزم ﷺ: «ولا يضر كون الآية المنسوخة في ترتيب المصحف في الخط والتلاوة متقدمة في أول السورة، أو في سورة متقدمة في الترتيب، وتكون الناسخة لها في السورة، أو في سورة متأخرة في الترتيب، لأن القرآن لم ترتب آياته وسوره على حسب نزول ذلك، لكن كما شاء ذو الجلال والإكرام مُنَـزِّلُه...، ومرتبه الذي لم يَكِل ترتيبه إلى أحد دونه»[(١)].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر ﷺ: «أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها ﷺ»[(٢)].

وقال أبو بكر الجصاص[(٣)] ﷺ مبينا أن وضع الآيات في محالها أمر توقيفي: «وذلك أن سبيل العلم بمواضع الآي كهو بالآي نفسها... ألا ترى أنه غير جائز لأحد إزالة ترتيب آي القرآن، ولا نقل شيء منه عن مواضعه إلى غيره، فإن فاعل ذلك بمنـزلة من رام إزالته ورفعه»[(٤)].

وسُئِل الإمامُ أحمد ﷺ عمن يقرأ، أو يكتب من آخر السورة إلى أولها؟ فكرهها شديدا[(٥)].

والسبب ـ والله تعالى أعلم ـ في المنع من القراءة على غير الترتيب الموجود في المصحف هو أن تقديم آية على أخرى قد يؤدي إلى تغيير المعنى، بل وقد يؤدي إلى الكفر[(٦)].

فإذا كان لا يجوز أن يقرأ أو يكتب المصحف على غير الترتيب الموجود في المصحف، فكيف بمن يقرأ الآية نفسها منكوسة؟ لا شك أن هذا أشد جرما، وأشنع ذنبا[(٧)].

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٢/ ٥٠٥.

(٢) الفتح ٨/ ٦٥٦، وانظر: المجموع ٦/ ٦٢.

(٣) هو الفقيه الحنفي: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، برع في الفقه، وغيره من العلوم، ومن مؤلفاته: أحكام القرآن، توفي سنة ٣٧٠ هـ. انظر: الفوائد البهية ص ٢٧.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٠، وانظر: الفروع لابن مفلح ١/ ٤٢١.

(٥) الفروع لابن مفلح ١/ ٤٢١.

(٦) انظر: الفروع لابن مفلح ١/ ٤٢١-٤٢٢.

(٧) انظر: المصدر السابق.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفا في وجوبه، وتحريم مخالفته؛ فلا يجوز أن يقرأ: لله الحمد رب العالمين، بدلا من: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة:٢]...، وترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، هذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته، ولا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين، الرحمن الرحيم، بدلا من: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[الفاتحة:٣-٤]»[١].

المسألة الثالثة: التعاشير والتخاميس في المصحف.

كل ما في المصحف بخط المصحف فهو من كلام الله ﷻ المنـزل على محمد ﷺ، وأما ما كتب في المصحف من أسماء السور، والتعشير والتخميس، وكتابة أرقام الآيات، فهذه قطعا هي من وضع الكتاب والقراء، وهذا معلوم ضرورة[٢].

وكذلك ما يكتب في بعض المصاحف من تصديقات، ودعاء، ونحو ذلك فهذا قطعا ليس من القرآن، وليس هو المشار إليه بقول المسلمين: (المصحف)[٣].

وبهذا اتضح أن ما في المصحف هو كلام الله ﷻ، وأنهم حين يشيرون إلى المصحف فلا يعنون إلا القرآن، وأما ما يخالف المصحف من القراءات فهل هو قرآن؟ هذا ما أبينه في المبحث الآتي.

---

(١) أصول التفسير للشيخ ابن عثيمين ص ٣٢٦.

(٢) انظر: المجموع ١٣/ ١٠٥، مختصر التحرير ٢/ ١٨٧.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٥٧٦ وما بعدها، و ٥٨٦ وما بعدها، ٢٢/ ٢٧٨.

المبحث الثاني
ما يخالف المصحف هل يقال عنه قرآن؟

المطلب الأول: بيان المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء:١٩٦].

إن من العقائد السلفية المعلومة عند الخاصة والعامة أن القرآن الكريم كلام الله منـزل على محمد ﷺ، ولم ينـزل القرآن على أحد قبله.

وهذه الآية قد وردت في سورة الشعراء في معرض ذكر القرآن ونزوله، والامتنان بذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٧].

ويتبين من السياق أن المراد من هذه الآيات أن القرآن الكريم تنـزيل من الله ﷻ على محمد ﷺ نزل به جبريل على قلبه ﷺ، وأن القرآن نزل بلسان عربي واضح بين، وإن ذِكر هذا القرآن وخبره لموجود في الكتب السابقة، وقد علمه علماء بني إسرائيل[(١)].

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري ؒ: «وإنه لفي زبر الأولين: يعني في كتب الأولين، وخرج مخرج العموم، ومعناه الخصوص، وإنما هو: هذا القرآن لفي بعض زبر الأولين، يعني أن ذكره وخبره في بعض ما نزل من الكتب على بعض رسله»[(٢)].

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير ٩/ ٤٧٥-٤٧٦، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٤٧، محاسن التأويل ٥/ ٣٨٥، أضواء البيان ٦/ ٢٥٤.

(٢) جامع البيان ٩/ ٤٧٦.

وقال ابن حزم ﷺ في معرض رده على من جوز قراءة القرآن بغير العربية، مستدلين بهذه الآية: «لا حجة لهم في هذا، لأن القرآن المنـزل علينا، على لسان ـ أي لغة ـ نبينا ﷺ، لم ينـزل على الأولين، وإنما في زبر الأولين ذكره، والإقرار به فقط، ولو أنزل على غيره ﷺ لما كان آية له، ولا فضيلة له، وهذا لا يقوله مسلم»[١].

وقال الحافظ ابن كثير ﷺ: «وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبا في ملئه بالبشارة بأحمد ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف:٦] والزبر ههنا هي الكتب»[٢].

فالذي في زبر الأولين، وفي كتب الأقدمين، ليس هو نفس القرآن المنـزل على نبي الأمين محمد ﷺ، فإن هذا القرآن لم ينـزل على أحد قبله، ولكن في الكتب المتقدمة، ذكر القرآن وخبره، **ويدل لهذا ما يأتي**:

١ . أن القرآن لو نزل على أحد قبله لبطل اختصاص محمد ﷺ به[٣].

٢ . أن كل نبي نزل عليه كتاب مثل صحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل قد نسخ بعضه، بالدين والكتاب الذي جاء بعده، والقرآن محكم لا يُنسخ بل يَنسخ ما سبقه من الكتب.

٣ . أن أحدا من الأمم لم تقل بأن القرآن منـزل على نبيها، بل كل أمة متمسكة بالكتاب المنزل على نبيها.

٤ . أن محمدا ﷺ مذكور في الكتب السابقة ولم يقل أحد بأنّ المراد به نفسه ﷺ، إذ لم يكن قد خلق بعد ﷺ.

---

(١) المحلى لابن حزم ٣/ ٢٥٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٤٧.

(٣) انظر: المحلى لابن حزم ٣/ ٢٥٤.

٥. أن الله أخبر أن أفعال العباد في الزبر، وهذا لا يعني أن نفس الأفعال موجودة، وإنما المراد ذكرها وشأنها.

٦. أن الموجودات أنواع أربعة، وهي:

١. وجود عياني.

٢. وجود ذهني خيالي علمي.

٣. وجود لفظي لساني.

٤. وجود خطي بناني رسمي، **ووجود القرآن عندنا** هو من الأنواع الأربعة؛ **فهو موجود** عيانا يقرأ ويسمع، ويتلى، ويذكر، ويستشهد به، **وموجود** ذِهنيا وعلميا، فكل مسلم يعلم أن القرآن كلام الله، ويعرف شيئا عنه، **وموجود** لفظا ولسانا، فكم من حافظ يردده للحفظ، وكم من قارئ يردده للذكر، **وموجود** خطا ورسما، كما خَطَّه وكتبه ورسمه الكتاب في المصاحف[1].

وأما وجود القرآن في كتب الأولين فهو من النوع الثاني، أعني أن وجوده علمي فقط، وأن علماءهم علموا ذلك من غير شطط[2].

ومن هذا الباب ما جاء عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال في سورة الملك: **[فهي المانعة تمنع عذاب القبر، وهي في التوراة سورة "الملك" من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب]**[3]، أي نُوِّهَ بذكرها، وبُين فضلها، وأنه سمي كذلك في التوراة بهذا الاسم، والله أعلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: « فثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ "الزبر"...،

---

(١) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ٣٣٩-٣٤٠، مختصر الصواعق المرسلة ص٤٩٨.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٨٩، ٣٨٤-٣٨٥.

(٣) رواه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة الملك، ح(٣٨٣٩) وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ورواه البيهقي في شعب الإيمان من طريقه ٢/ ٤٩٤ ح(٢٥٠٩)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ح(١٤٧٥).

فالقرآن نفسه ليس عند بني إسرائيل ولكنْ ذكره، كما أن محمدا ﷺ نفسه ليس عندهم ولكن ذِكره، فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم، بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ، وفي المصاحف فإن نفس القرآن أُثبت فيها، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينا »[(١)].

وقال: « فإن القرآن لم ينـزل على أحد قبل محمد ﷺ لا لفظه، ولا جميع معانيه، ولكن أنزل الله ذكره، والخبر عنه، كما أنزل ذكر محمد والخبر عنه، فذِكر القرآن في زبر الأولين، كما أن ذِكر محمد ﷺ في زبر الأولين، وهو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، فالله ورسوله معلوم بالقلوب، مذكور بالألسن، مكتوب في المصحف، كما أن القرآن معلوم لمن قبلنا، مذكور لهم مكتوب عندهم، وإنما ذاك ذكره، والخبر عنه، وأما نحن فإن نفس القرآن نزل إلينا، ونفس القرآن مكتوب في مصاحفنا، كما أن نفس القرآن في الكتاب المكنون »[(٢)].

وبهذا يتبين أن وجود القرآن كان وجودا علميا في كتب الأولين لا يسمى قرآنا، وأما وجوده عينيا فهو موجود في مصاحف المسلمين، وهو الموجود بين الدفتين، وهو القرآن الكريم.

وأما ما خالف المصحف من الأحرف المروية، والقراءات المسندة فهل يقال عنها قرآن؟ هذا ما أبينه في المطلب الثاني.

(١) المجموع ١٢/ ٢٩٠، وانظر: دقائق التفسير ٢/ ١٩٥-١٩٦.
(٢) المجموع ١٢/ ٣٨٤، وانظر: ١٢/ ٢٤٠، ٥٦٥.

المطلب الثاني: ما يروى من الأحرف(١) هل يقال عنه قرآن؟.

ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال: [**إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه**](٢) ففي هذا الحديث بيان أن الأحرف منـزلة من الله ﷻ على نبيه ﷺ(٣).

وفي رواية عبد الله بن عباس ﷺ في الصحيحين أيضا: [**أقرأني جبريل ﷺ على حرف، فراجعته، فلم أَزَل أستزيده فيزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف**](٤).

قال الإمام محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري: «بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحدا، لا يختلف في حلال، ولا حرام»(٥).

---

(١) المراد بالأحرف في هذا العنوان الأحرف التي روي بها القرآن. والأحرف جمع حرف، ولها عدة معاني في اللغة وأقرب معانيها لما نحن بصدده: أن الأحرف جمع حرف، وهو: الوجه والطريق، قال ابن فارس: «الحاء والراء والفاء ثلاثة أصول: حَدُّ الشيء، والعدول، وتقدير الشيء، فأما الحد: فحرف كل شيء حده...» فيقال هو على حرف كذا أي على طريقة كذا. انظر: مقاييس اللغة ص ٢٥٥، لسان العرب ٩/ ٤١، المصباح المنير ص ١٣١.

وأما **الأحرف في اصطلاح أهل القراءة ففيه خلاف كبير**، وأمره ليس باليسير، حتى توقف في تعريفه جم غفير، واختلف المعرفون فيه على أقوال، وكثر فيه المقال، حتى وصل بهم الحال، أنهم اختلفوا على نيف وثلاثين قولا؟ ولعل أشهر هذه الأقوال في المراد بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم: ١ ـ أنها سبع لغات من لغات العرب ولهجاتهم. ٢ ـ أن المراد بها الأنواع التي يقع بها التغاير والاختلاف بسبب الإعراب والبناء وحروف الكلمة ونحوها. ٣ ـ أن المراد بها سبعة أصناف من المعاني والأحكام! وهي: الحلال والحرام، والأمر والزجر، والمحكم والمتشابه، والأمثال. ٤ ـ أن حقيقة العدد غير مراد ولكن المراد التيسير أن يقرأ كل بحسب ما أمكنه من لغته دون تحديد. انظر لهذه المسألة: المرشد الوجيز في علوم الكتاب العزيز ص ٧٧ وما بعدها، شرح النووي ٦/ ١٠٠، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٢ وما بعدها، الفتح ٨/ ٦٩٤، إرشاد الفحول للشوكاني ص ٦٣، مختصر التحرير ٢/ ١٨٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ أنزل القرآن على سبعة أحرف، ح(٤٩٩٢)، ومسلم، كتاب صلاة...، باب/ بيان أن القرآن على سبعة أحرف...، ح(٨١٨).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٦.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ أنزل القرآن على سبعة أحرف، ح(٤٩٩١)، ومسلم، كتاب صلاة..، باب/ بيان أن القرآن على سبعة أحرف...، ح(٨١٩).

(٥) ذكره مسلم عنه مسندا، وهو أحد رواة حديث الأحرف من طريق عمر وابن عباس ﷺ، انظر: صحيح الإمام مسلم ص ٣١٨.

وهذا فيه أن الأحرف إنما هي كما سمعه جبريل ﷺ وقرأه على الرسول ﷺ وأنها في أمر واحد لا تختلف من حيث المعنى.

قال البغوي رحمه الله: « ليس معنى هذه الحروف أن يقرأ كل فريق بما شاء مما يوافق لغته من غير توقيف، بل كل هذه الحروف منصوصة، وكلها كلام الله ﷻ، نزل بها الروح الأمين، على النبي ﷺ »(١).

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه **[أن النبي ﷺ كان عند أَضاة بني غِفار(٢) قال: فأتاه جبريل ﷺ، فقال: إن الله يأمرك أن تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القرآنَ على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين، فقال: اسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف. فقال: اسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا]**(٣).

وهذا الحديث أيضا فيه التأكيد على أن الأحرف منـزلة من الله ﷻ بدليل ذهاب جبريل وإتيانه، وأن الأمر ليس متروكا للقراء.

والأحاديث بمجموعها يدل على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وهذا لا خلاف فيه بين سلف الأمة، وعلماء الأمة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: « لا نزاع بين العلماء المعتبرين، أن الأحرف السبعة التي ذكر النبي ﷺ أن القرآن أنزل عليها ليست هي قراءات القراء السبعة المشهورة...، ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى، وتضاده، بل قد يكون معناها متفقا أو

---

(١) المرشد الوجيز في علوم الكتاب العزيز ص ١٣٤.

(٢) (أَضاة) بفتح الهمزة، وضاد معجمة بعدها ألف، وآخره تاء تأنيث، هو مستنقع ماء كالغدير، وجمعه (أضا) كعصاة وعصا، وهو موضع بالمدينة، ينسب إلى بني غفار؛ لأنهم نزلوا عنده. انظر: منة المنعم للمباركفوري ١/ ٥١٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة...، باب/ بيان أن القرآن على سبعة أحرف...، ح(٨٢١).

متقاربا...، وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر، لكن كلا المعنيين حق، وهذا اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض»(١).

وبعد بيان جهة الاتفاق أُبين قرآنية الأحرف من عدم قرآنيتها وذلك في مسألتين:

المسألة الأولى: ما يروى من الأحرف موافقا للمصحف.

لا ريب أن الأحرف التي توفرت فيها الشروط المرضية للقراءة الصحيحة أنها من القرآن(٢)، وهذه الشروط التي ذكرها أهل الفن هي:

١- أن تكون القراءة بها ثابتة من حيث الإسناد.

٢- أن تكون القراءة موافقة للرسم العثماني المجمع عليه من قبل الصحابة رضي الله عنهم(٣).

---

(١) المجموع ١٣/ ٣٩٠-٣٩١، وانظر: ١٣/ ٤٠١

(٢) **وهل المصحف الموجود مشتمل على الأحرف كلها؟ أم على بعضها؟** أم على حرف واحد منها؟ هذه الثلاثة الأقوال هي المشهورة، وعن العلماء مذكورة، وهذا يحتاج إلى بحث عميق، ونَفَسٍ دقيق، وصفحات كثيرة، ومباحث جزيلة، فالله أسأل أن يهيئ لهذا الأمر طالب علم يقوم به، والأظهر في هذه الأقوال أن المصحف الذي أمر بكتابته عثمان رضي الله عنه مشتمل على الأحرف التي لم تنسخ في العرضة الأخيرة، وأن كل حرف مخالف لهذا المصحف فهو منسوخ ككل آية لم تذكر في المصحف فهي منسوخة؛ إما تلاوة وحكما، أو تلاوة فقط، ولمزيد بيان انظر: الإحكام لابن حزم ٤/ ٥٥٤ وما بعدها، المرشد الوجيز لأبي شامة (فإنه ألفه أساسا لبيان الأحرف)، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٩، المجموع ١٣/ ٣٩٥، ٤١٠، الفتح ٨/ ٦٤٦-٦٤٧، مناهل العرفان للزرقاني ١/ ٣٩٩ وما بعدها، المدخل إلى علوم القرآن الكريم لمحمد أبي شهبة ص ١٩١ ـ ١٩٦، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ١/ ٦٦ وما بعدها، حديث الأحرف السبعة د/ عبد العزيز عبد الفتاح.

(٣) وينبغي التنبه إلى أن بعض أهل العلم يذكر أن في المصحف الذي كتبه عثمان رضي الله عنه أخطاء إملائية، بحسب ما عرف من القواعد الخطية، وهذا بين البطلان، وذلك من وجوه منها: ١ ـ أن هذه المصاحف كتبت على مرأى ومسمع من الصحابة، ولو كان فيها خطأ لما سكتوا عنه. ٢ ـ أن الصحابة أجمعوا على هذا المصحف، فكيف يجمعون على خطأ؟. ٣ ـ أن هذه المصاحف أرسلت إلى أمصار مشهورة، وبالعلوم معروفة، ولم يوجد إنكار مع وجود الصحابة الكرام فيها، والعلماء الأجلاء بها، من الحفاظ والخطاطين، وغيرهم من أهل العلوم المثتبين. ٤ ـ أنهم علموا بأن هذه الخطوط إنما جيء بها هكذا لغرض احتمال القراءة، أو غير ذلك. ٥ ـ أن الكتاب كانوا يكتبون القرآن بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كان ثمت خطأ في الكتابة لنُبهوا على ذلك من الذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو الله عز وجل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في المجموع (١٥/ ٢٥٢): و«المصاحف التي نسخت كانت مصاحف متعددة، =

٣- أن تكون القراءة موافقة لوجه من أوجه اللغة العربية.

قال الإمام ابن الجزري[(١)] رحمه الله:

فكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالا يحوي

وصح إسنادا هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان

وحيثما يختل ركن أثبت ... شذوذه، لو أنه في السبعة[(٢)]

وهكذا قال غيره من المختصين، ومن العلماء المتبحرين[(٣)].

وبهذا نستطيع أن نقول: إن الحرف أو الوجه الموافق للرسم، الذي ثبت سنده، وصح وجهه، هو من القرآن، لأن الصحابة لم يثبتوا إلا ما هو قرآن، **ولتأكيد هذا الكلام**، وتنويره بمقالات أهل العلم أنقل بعض عباراتهم، وما فيه من دلالاتهم، على أن الأحرف المروية الصحيحة هي من القرآن.

١- أن المهاجرين والأنصار، وجلة أهل الإسلام، الموجودين في عصر الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه اتفقوا على جمع ما في المصحف بما صح وثبت أنه قرآن، فما وافق هذا المصحف من القراءات الصحيحة كان قرآنا[(٤)].

= وهذا معروف مشهور، وهذا مما يبين غلط من قال في بعض الألفاظ: إنه غلط من الكاتب، أو نقل ذلك عن عثمان رضي الله عنه، فإن هذا ممتنع لوجوه». ثم ذكر بعض الوجوه التي سبقت. انظر: الجواب الصحيح ٣/ ٤٢٣، المجموع ١٥/ ٢٥٣-٢٥٦، الفروع لابن مفلح ١/ ٣٧١، مناهل العرفان ١/ ٣٦٩، ٣٧٣-٣٧٧، المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٣٠٧-٣١٧.

(١) هو شيخ القراء في زمانه: أبو الخير شمس الدين محمد بن محمد بن علي بن يوسف العمري الدمشقي الشيرازي الشافعي، المشهور بابن الجزري، ولد سنة ٧٥١ هـ، وتوفي ٨٣٣ هـ، ومن مؤلفاته المشهورة: طيبة النشر. انظر: الأعلام للزركلي ٧/ ٤٥.

(٢) طيبة النشر ص ٣.

(٣) انظر: جامع البيان ٢/ ٣٢٨، المرشد الوجيز في علوم الكتاب العزيز ص ١٣٨-١٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٥٨ وما بعدها، المجموع ٨،٦٤٨-٦٤٩، ١٥/ ٢٥٠، الإبانة عن معاني القراءات لمكي بن أبي طالب ص٥٧-٥٨، ١٠٠، منجد المقرئين ص ٢٢، الفتح ٨/ ٦٤٩، ٦٥٤، السيل الجرار ١/ ٢٣٩، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ١/ ١٣٩ وما بعدها.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٨-٣٩.

٢- قال ابن حزم ﷺ: « واتفقوا... أن كل ما في القرآن حق، وأن من زاد فيه حرفا من غير القراءات المروية المحفوظة، المنقولة نقل الكافة، أو نقص منه حرفا، أو بدل منه حرفا مكان حرف، وقد قامت عليه الحجة **أنه من القرآن** فتمادى في ذلك عالما بأنه بخلاف ما فعل، فإنه كافر »[١].

٣- قال القاضي عياض ﷺ عن المصحف: « فجميع ما فيه حق، وأن من نقص منه حرفا قاصدا لذلك، أو بدله بحرف آخر مكانه، **أو زاد فيه حرفا آخر، لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع عليه الإجماع، وأجمع عليه**، أنه ليس بقرآن عامدا لكل هذا؛ فهو كافر »[٢].

٤- قال أبو شامة المقدسي[٣] ﷺ: « **لا يقطع بالقراءة بأنها منـزلة من عند الله إلا إذا اتفقت الطرق** عن ذلك الإمام الذي قام بإمامة المصر بالقراءة، وأجمع أهل عصره، ومن بعدهم بإمامته في ذلك... بشرط أن لا يختل المعنى، ولا يتغير الإعراب ».[٤] **وقال أيضا: « ويحمل على اعتقاد ذلك ثبوت تلك القراءة بالنقل الصحيح** عن رسول الله ﷺ ولا يلتزم فيه تواتر، بل تكفي **الآحاد الصحيحة مع الاستفاضة، وموافقة خط المصحف**، بمعنى: أنها لا تنافيه عند[٥] المنكرين لها نقلا وتوجيها من حيث اللغة »[٦].

٥- قال ابن عطية ﷺ: « ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة،

(١) مراتب الإجماع لابن حزم ص ١٧٤، ولم يتعرض له شيخ الإسلام في نقد مراتب الإجماع لهذا بنقض مما يدل على صحة هذا النقل للإجماع.

(٢) كشاف القناع ١/ ٤٣٣.

(٣) هو المفسر المؤرخ الفقيه الشافعي: عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي المعروف بأبي شامة المقدسي، وله مؤلفات كثيرة، ومنها: المرشد الوجيز في علوم الكتاب العزيز، توفي سنة٦٦٥هـ. انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٦١.

(٤) الفتح ٨/ ٦٥٥.

(٥) في المطبوع: (عدم) ولعل ما أثبته هو الصواب.

(٦) المرشد الوجيز ص ١٧١.

وبها يصلى، لأنها ثبتت بالإجماع »[١]. فقوله: وبها يصلى، دليل على أن **ذلك** قرآن.

٦- قال العلامة القرطبي ﷺ: « وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة ـ يعني القراء المعروفين ـ مما رووه، ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات، فاستمر الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون، والفضلاء المحققون »[٢].

٧- قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: « والقراءة المعروفة بين المسلمين، **الموافقة للمصحف، تجوز القراءة بها** بلا نزاع بين الأئمة، ولا فرق بين الأئمة بين قراءة أبي جعفر[٣] ويعقوب[٤]....، ولم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها أن القراءة مختصة بالقراء السبعة »[٥]. ويتضح من هذا أن **القراءة** الثابتة الصحيحة من القرآن، من غير نكران، وأيضا القراءة لا تختص بالقراء السبعة المشهورين[٦]، **وقال أيضا**: « ليس لأحد

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٥.
(٣) هو المقرئ: يزيد بن القعقاع أبو جعفر المدني، ثقة، روى له أبو داود، توفي سنة ١٣٠هـ. انظر: التقريب ص ٥٥٤.
(٤) هو المقرئ: يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي مولاهم، أبو محمد المقرئ النحوي، توفي سنة ٢٠٥هـ. انظر: التقريب ص ٥٣٦.
(٥) المجموع ١٢/ ٥٦٩، وانظر منه: ١٣/ ٣٩٢.
(٦) والقراء السبعة هم:

١- نافع بن عبد الرحمن الليثي المدني قرأ على سبعين من التابعين، منهم أبو جعفر وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وقرأ الأعرج على ابن عباس وأبي هريرة وهما عن أبي ﷺ، توفي في المدينة سنة ١٦٩ هـ.
٢- ابن كثير هو أبو معبد عبد الله بن كثير، وهو تابعي قرأ على عبد الله بن السائب المخزومي عن عمر وأبي ابن كعب ﷺ، وتوفي سنة ١٢٠ هـ.
٣ـ أبو عمرو زبان بن العلا بن عمار، قرأ على جماعة منهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع والحسن البصري، وهو على حطان وأبي العالية، وأبو العالية على عمر بن الخطاب وأبي ﷺ، توفي سنة ١٥٤ هـ.
٤ ـ ابن عامر هو عبد الله بن عامر اليحصبي مقرئ دمشق وقاضيها، تابعي لقي واثلة بن الأسقع والنعمان بن بشير، قيل إنه قرأ على عثمان ﷺ، توفي بدمشق سنة ١١٨ هـ.
٥ ـ عاصم هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود بن بهدلة مولى بني خزيمة، أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي عن عثمان وعلي وأبي وابن مسعود وزيد بن ثابت ﷺ، توفي سنة ١٢٧ هـ. =

أن يقرأ قراءة بمجرد رأيه، بل القراءة سنة متبعة، وهم إذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب في المصحف الإمامي، وقد قرأ بعضهم بالياء، وبعضهم بالتاء لم يكن واحدا منهما خارجا عن المصحف... وقد بينا أن القراءتين كالآيتين، فزيادة القراءات كزيادة الآيات، لكن إذا كان الخط واحدا، واللفظ محتملا كان ذلك أخصر في الرسم»[١].

٨- قال ابن الحفيد[٢] رحمه الله: «ذهب جماهير العلماء من الخلف والسلف، وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها، لم يترك منها حرف»[٣].

٩- قال الشوكاني رحمه الله: «**والحاصل أن ما اشتمل عليه المصحف الشريف، واتفق عليه القراء المشهورون، فهو قرآن، وما اختلفوا فيه فإن احتمل رسم المصحف قراءة كل واحد من المختلفين مع مطابقتها للوجه الإعرابي، والمعنى العربي، فهي قرآن كلها**»[٤].

وبهذه النقول الجلية، والأقوال المرضية، يتأكد الاعتقاد بأن القراءات في القرآن الكريم هي من المصحف، وأنها من كلام الله ﷻ، فكل حرف روي موافقا للرسم مع صحة السند، وصحة الوجه الإعرابي، فهو قرآن.

وأما إذا اختل فيها شرط من هذه الشروط فهل يقال عنها قرآن أم لا؟ هذا ما أبينه في المسألة الثانية.

=

٦- حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات التيمي مولاهم، مقرئ الكوفة، قرأ على سليمان بن مهران الأعمش عن يحيى بن وثاب الأسدي عن علقمة بن قيس عن ابن مسعود رضي الله عنه، توفي سنة ١٥٦ هـ.

٧- الكسائي أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي، قرأ على حمزة وقرأ على محمد بن أبي ليلى وعيسى بن عمر عن عاصم، توفي سنة ١٨٩ هـ. انظر في تراجم القراء السبعة المشهورين: المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر لأبي حفص عمر بن قاسم الأنصاري ص ١٨-٢٥.

(١) المجموع ١٣/ ٣٩٩-٤٠٠.

(٢) هو: سيف الدين يحيى بن محمد بن سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الهروي، المعروف بابن الحفيد الحنفي الهروي، مفسر، متكلم، توفي سنة ٨٨٧ هـ. انظر: معجم المؤلفين ١٣/ ٢٢٨.

(٣) الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد ص ٤٣.

(٤) إرشاد الفحول ص ٦٣.

المسألة الثانية: ما يروى من الأحرف مخالفا للمصحف.

الأحرف المخالفة لشروط القراءة الصحيحة هي المعروفة عند القراء بالشواذ(١)، فكل قراءة لم تصح إسنادا، أو لم توافق رسم المصحف، أو خالفت أوجه الإعراب فلا تكون قراءة صحيحة(٢).

وعلى هذا فالصحيح - والله تعالى أعلم - أن ما ثبت من بعض الصحابة القراءة بها فلا يعدو أن يكون تفسيرا سمعه من النبي ﷺ أو رأيا في التفسير من نفسه(٣)، أو أنه ما علم بأن هذه القراءة نسخت، كما تنسخ بعض الآيات استقلالا(٤).

وعلى هذه الاحتمالات يحمل ما ثبت عنهم ﷺ خصوصا أنهم هم الذين أجمعوا أولا على أن القرآن هو الموجود في المصحف، وهم الذين أخبرونا أن القراءة سنة متبعة(٥)، لا اجتهاد فيها، وتبعهم على ذلك التابعون ومن جاء بعدهم ثانيا.

فعلى هذا لا يقال لما لا يثبت صحيحا موافقا للرسم العثماني قرآنا، كما لا يقال للأحاديث المروية عن النبي ﷺ مما لم يثبت أنها من الأحاديث المرفوعة، وإن كان يقال عنها حديثا فباعتبار أنها مروية فقط لا باعتبار واقع الأمر، وكذلك يقال للشواذ قراءات باعتبار الرواية لا باعتبار حقيقة الأمر، وثبوتها قرآنا، **وتبيينا لهذا الأمر المهم، أنقل بعض أقوال أهل العلم:**

١- قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله: «ما يروى من الحروف التي تخالف المصحف الذي عليه الإجماع، من الحروف التي أسانيدها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبَيٍّ رضي الله عنه... لم ينقلها أهلُ العلم على أن الصلاة بها تحل، ولا على أنها

---

(١) **والشاذ عندهم**: كل قراءة لم تتوفر فيها الشروط الثلاثة السابقة التي ذكرها علماء القراءات. انظر: المرشد الوجيز في علوم الكتاب العزيز ص ١٦٨ وما بعدها، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٥٨.

(٢) انظر: الإعلام والاهتمام بفتاوى شيخ الإسلام أبي يحيى زكريا بن محمد الأنصاري ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٢٩٢، الإحكام للآمدي ١/ ٢١٢، حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٥.

(٤) انظر: الإحكام لابن حزم ٤/ ٥٥٥، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٦١.

(٥) انظر: السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٨٥، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام ١/ ٩٤ وما بعدها.

معارض بها مصحف عثمان، لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا، والقرآنُ الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا، حكمه حكم المرتد يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه»[١].

٢- قال الحافظ ابن عبد البر ﵀: «وأما ما يروى من الأحرف **فلا يقطع بشيء منه على الله ﷻ أنه قرآن**، ولكنه يكون من باب الخبر...، ويبين لك هذا أن من دفع شيئا مما في مصحف عثمان كفر، ومن دفع ما جاء في هذه الآثار وشبهها من القراءات لم يكفر»[٢]. فانظر: كيف يتعلق حكم التكفير من عدمه فيمن أنكر قرآنية المعلوم الموافق للرسم، بخلاف من أنكر ما عدا ذلك.

٣- قال الحافظ البيهقي ﵀: «والأصل ما استقرت عليه القراءة في السنة التي تُوفي فيها رسول الله ﷺ بعد ما عارضه به جبريل ﵇ في تلك السنة مرتين، ثم اجتمعت الصحابة على إثباته بين الدفتين»[٣].

٤- قال الجويني[٤] ﵀: «وكل زيادة لا تحويها الأم، ولا تشمل عليها الدِّفتان، **فهي غير معدودة في القرآن**»[٥].

٥- قال الآمدي[٦] ﵀ فيما يروى من الأحرف التي لم توافق رسم المصحف: **«إن ذكر على أنه قرآن فهو خطأ»**[٧].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٦٠.

(٢) التمهيد لابن عبد البر ٤/ ٢٧٩.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٣٨٥.

(٤) هو المتكلم الأصولي الفقيه: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري الشافعي الأشعري، الملقب بإمام الحرمين، له تصانيف كثيرة، ومنها: الإرشاد إلى قواطع الأدلة وأصول الاعتقاد ألفه على طريقة المتكلمين، توفي سنة ٤٧٨ هـ. انظر: السير ١١/ ٢٥٥.

(٥) البرهان للجويني ص ٤٢٨.

(٦) هو الأصولي الأشعري: علي بن أبي علي بن محمد بن سالم سيف الدين الآمدي، شافعي المذهب، وكان من أذكياء العالم، ومن مؤلفاته: الأحكام السلطانية، توفي سنة ٦٣١ هـ. انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٣٠٦-٣٠٧.

(٧) الأحكام للآمدي ١/ ٢١٢.

٦- قال المازري[١] رحمه الله بعد ذكر رواية فيها قراءة : « يجب أن يعتقد في هذا الخبر وما في معناه، أن ذلك كان قرآنا ثم نسخ، ولم يعلم من خالف النسخ، فبقي على النسخ. قال: ولعل هذا وقع من بعضهم قبل أن يبلغهم مصحف عثمان المجمع عليه، المحذوف منه كل منسوخ »[٢]. فهذا القول يبين أن ما خالف المصحف إذا صح فهو منسوخ تلاوته لترك الصحابة هذه القراءة، وهم لا يتركون شيئا من القرآن من عند أنفسهم.

٧- قال النووي رحمه الله: « ولا يقرأ بالشواذ في الصلاة »[٣]. وهذا يدل على أنها ليست من القرآن، ولو كانت هذه القراءة من القرآن لصحت الصلاة بها.

٨-نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله: بعد أن شرح قول عمر رضي الله عنه في رجم الشيخ والشيخة إذا زنيا، قول بعض الشراح، قال: « وفيه اهتمام الصحابة، وأهل القرون الأول بالقرآن، والمنع من الزيادة في المصحف، وكذا منع النقص بطريق الأولى، لأن الزيادة إنما تمنع لئلا يضاف إلى القرآن ما ليس منه، فاطراح بعضه أشد، قال: وهذا يشعر بأن كل ما نقل عن السلف كأبيّ بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما من زيادةٍ ليست في الإمام إنما هي على سبيل التفسير، ونحوه. **قال: ويحتمل أن يكون ذلك كان في أول الأمر، ثم استقر الإجماع على ما في الإمام، وبقيت تلك الروايات تُنقل لا على أنها ثبتت في المصحف**»[٤].

٩- قال الخراز[٥] رحمه الله:

وبعده جرَّده الإمام ... في مصحف ليقتدي الأنام
ولا يكون بعده اضطراب ... وكان فيما قد رأى صواب

(١) هو الحافظ الفقيه المتكلم: محمد بن علي بن عمر التميمي المازري المالكي، ولد وتوفي في إفريقية (تونس)، من مؤلفاته: المعلم بفوائد مسلم، توفي سنة ٥٣٦ هـ. انظر: الديباج المذهب لابن فرحون ص ٣٧٤.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ١٠٩.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ١٠٦

(٤) الفتح ١٢/ ١٦١.

(٥) هو المقرئ: محمد بن محمد بن إبراهيم الأموي الخراز، من أهل فاس، أصله أندلسي، من مصنفاته: الغوالي لحل بدء الأمالي، توفي سنة ٧١٨ هـ. انظر: معجم المؤلفين ١١/ ١٧٦.

وقصة اختلافهم شهيرة كقصة اليمامة العسيرة
فينبغي لأجل ذا أن نقتفي مرسُوم ما أصَّلَه في المصحف
ونقتدي بفعله وما رأى في جعله لمن يخطُّ ملجأ[(١)].

فكل قراءة لم تثبت لا يقال لها قرآن لأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩] وقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة:١٧-١٩] ونحوه من الآيات مقتضية لبقاء رسم القرآن ونظمه بعد وفاة النبي ﷺ[(٢)].

وههنا أحكام تتعلق بهذه المسألة فيما إذا قلنا إن هذه القراءة من القرآن الكريم أم لا، وهي:

أ- أنه يلزم الجميع اعتقاد أن ما ثبت من الأحرف أنه كلام الله الذي أنزله على رسوله، على نظامه وترتيبه، ولفظه ومعناه، وإذا نسخ ذلك ورفع ولم يكن في المصحف كذلك، فلا يلزمنا ذلك، إلا أن يقال بعد صحة السند: كان قرآنا فنسخ[(٣)].

ب- أنه يتعلق بها حكم جواز الصلاة، وأن بقراءتها تصح الصلاة، وأما ما ليس في المصحف فلا تصح الصلاة بها على الأصح من أقوال العلماء بل تُفسِدها.

ت- أنه يتقرب إلى الله تعالى بتلاوتها، ويطلب الثواب بقراءتها.

ث- أنه يلزمنا حفظها في المصاحف، وإثباتها في القرآن، ونقلها لفظا ومعنى[(٤)].

وأما حكم القراءة بما يخالف المصحف، فهذا ما سأجليه في المطلب الآتي.

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني ١/ ٣٧٩.

(٢) انظر: الفصول في الأصول ٢/ ٢٦٥-٢٦٦.

(٣) وبهذا يتضح ارتباط هذا المطلب بالعقيدة.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٥٧٠، ١٣/ ٣٩٤-٣٩٥، الفصول في الأصول ٢/ ٢٦٠.

المطلب الثالث: حكم القراءة بما يخالف المصحف(١).

الأصل في ثبوت الأحرف صحة النقل، واحتمال رسم المصحف لها، وموافقة الحرف لوجه من أوجه اللغة العربية، فالأحرف المروية الأصل فيها أنها منـزلة من الله ﷻ، وسُمعت من رسول الله ﷺ وليس الأمر متروكا للاجتهادات، ولا مدخل لإثبات الأحرف بالقياسات.

والأدلة قد دلت على وجوب الاتباع في القراءة وترك الابتداع فيها، ومن هذه الأدلة ما يأتي:

١-قال الله ﷻ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة:١٦-١٩] فإذا كان أفصح الخلق ﷺ مأمورًا باتباع القراءة، فكيف بغيره من الأمة؟ وهذا من الأدلة الواضحة على وجوب الاتباع في القراءة، وأن معرفة الأحرف والأوجه التي يقرأ بها القرآن سبيلها الاتّباع.

٢-قوله ﷻ: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء:١٠٥-١٠٦] فأنزل الله ﷻ القرآن الكريم، وفرقه على زمن النبوة، ليتمكن النبي ﷺ من قراءته على الناس على مهل فيتقنوه، ولينذر وليبشر به فيحفظوه.

٣-عن عمر ﷺ مرفوعا: **[إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه].**

---

(١) إذا كان ما تلي وقرئ بخلاف المصحف، أي من غير المتواترة، ولا توافق رسم المصحف، فيترتب على القراءة بها حكم عقدي وهو التبديع من عدمه، وحكم فقهي وهو صحة الصلاة من عدمها، وهذان الحكمان لا يوردان على من لم يعلم بالنسخ، وإنما هما في حق من تيقن النسخ بعد اجتماع الصحابة ﷺ على المصحف الإمام.

٤-عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لأُبَيٍّ ﷺ : **[إن الله ﷻ أمرني أن أقرأ عليك** ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[البينة:١] **قال: وسماني؟ قال: نعم. قال فبكى]**(١). قال أبو عبيد ﷺ: «المراد بالعرض على أبيّ ﷺ ليتعلم أبيّ منه القراءة، ويتثبت فيها، وليكون عرض القرآن سنـة..»(٢).

٥-قال زيد بن ثابت ﷺ : **[القراءة سنة]**(٣) قال البيهقي ﷺ بعد هذا الأثر: «وإنما أراد ـ والله أعلم ـ أن اتباع من قبلنا في الحروف، وفي القراءات سنة متبعة، لا تجوز مخالفة المصحف الذي هو إمام، ولا مخالفة القراءات التي هي مشهورة، وإن كان غير ذلك سائغا في اللغة، أو أظهر منها»(٤).

فهذه أدلة توقفك على أن معرفة القراءة تكون بالاتباع، وطريقها السماع والتلقي، ولهذا ينبغي لقارئ القرآن أن يكون مجوّدا الآي على حد قوله ﷻ : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾[المزمل:٤]، ومن تمام الترتيل اتباع المصحف في القراءة، **وأما قراءة ما يخالف المصحف ففيها مسألتان:**

المسألة الأولى: قراءة القرآن مُنَكَّساً.

أما قراءة القرآن بتقديم سورة على سورة فهذا فيه خلاف يسير، والصحيح جوازه دون تعسير، وذلك أنه جاء عن حذيفة ﷺ قال: **[صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عـند المائة، ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلا...]**(٥). **فهذا فيه عدم مراعاة الترتيب في قراءة السور**، إلا أنه قد يقال إن

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب/ مناقب أبي بن كعب ﷺ، ح(٣٨٠٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب/ من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار ﷺ، ح(٧٩٩).

(٢) الفتح ٧/ ١٢٧.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ٢/ ٢٦٠، (٦٣)، والطبراني في الكبير ٥/ ١٣٣، ح(٤٨٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٨٥، وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٢/ ١١٥.

(٤) السنن الكبرى ٢/ ٣٨٥.

(٥) رواه مسلم، كتاب صلاة...، باب/ استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، ح(٧٧٢).

ذلك في القراءة دون الكتابة، وأيضا إنما كان ذلك قبل الترتيب المجمع عليه[١] في عهد الخلفاء الراشدين، والصحابة المرضيين، ونحن أمرنا باتباع سنتهم، قال ﷺ: **[فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور]**.

وأمرنا باتباع سبيل الصحابة عموما، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[النساء:١١٤].

قال النووي ؒ: «قال العلماء: الأولى أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة، ثم البقرة، ثم آل عمران، ثم ما بعدها على الترتيب، وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها...، ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جُعل هكذا لحكمة»[٢].

وأما كتابة القرآن فواجبة على هذا الترتيب الوارد عن الخلفاء الراشدين ﭫ، والذي أجمع عليه الأمة من بعدهم[٣].

وأما ترتيب آيات السور وقراءتها على الترتيب الموجود في المصحف فهو أمر لازم، وحتم واجب، ولهذا حرم أهل العلم تنكيس الآيات، لأن «ترتيب آيات السور منـزل منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم، لأن ترتيب

---

(١) وهل ترتيب السور توقيفي أو اجتهادي، اختلف فيه أهل العلم، وأرجح الأقوال، وأعدلها: أن ترتيب السور منها ما هو توقيفي ومنها ما هو اجتهادي، وقد سبق وأن أشرت إلى هذه المسألة في ص٣٢٨، وانظر: الإتقان للسيوطي ١/ ١٧٦-١٧٩، المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٢٨٥-٢٩٧.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص ٩٩.

(٣) والدليل على ذلك ما يأتي في الفصل الثالث، من الباب الثالث من أن إتباع الرسم واجب، وأن مخالفة خطوطهم غير سائغ؛ فكيف بمخالفة ترتيبهم؟. وانظر: إعانة الطالبين ١/ ٦٨، المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٣٠٧-٣١١، وقد طبعت ترجمة ألمانية للقرآن كتب فيها المصحف غير الترتيب المعروف، بل رتبت على حسب النـزول والتأريخ!!، كما في: مناهل العرفان ٢/ ١١٧، وقد وقفت على جزء (عم) مطبوع، طبعه بعض الروافض، فإذا هو منكوس في الترتيب، فقدموا سورة الناس أولا ثم الفلق، ثم الإخلاص، وهكذا!!؟؟.

الآيات مأمور بها نصا»[1].

وهذا المنع لأنه لم يثبت ذلك عن النبي ﷺ، ولا عن صحبه الكرام، ويخالف الإعجاز القرآني في الألفاظ والتركيب[2].

وقد حكى الإجماع في منع قراءة الآيات منكسة غير واحد من أهل العلم، وذكرهم السيوطي، وقال: «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك»[3].

بل صرح الفقهاء ـ رحمهم الله ـ بأن قراءة الآيات منكسة تبطل الصلاة[4]، وكذلك ينبغي إذا أراد أن يقرأ القرآن كله، لا ينبغي له أن يكرر سورة بعينها لغير حاجة التعليم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قراءة سورة الإخلاص «ينبغي عليه أن يقرأها كما في المصحف مرة واحدة، هكذا قال العلماء، لئلا يزاد على ما في المصحف، وأما إذا قرأها وحدها، أو مع بعض القرآن فإنه إذا قرأها ثلاث مرات عدلت القرآن»[5]؛ فينبغي لقارئ القرآن أن يتبع رسم المصحف في القراءة، ولا يخالف المرسوم في التلاوة، فيكون متبعا، لا مبتدعا، وأما **كتابة المصحف بغير الأحرف العربية**: فهي مندرجة تحت هذا الباب، وسيأتي لها مزيد تفصيل في هذا الكتاب[6].

المسألة الثانية: قراءة ما ثبت من الأحرف عن بعض الصحابة مخالفا للرسم.

روي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أحرف لا توجد في المصحف، وهذه الأحرف تخالف رسم المصحف، ولا يخلو الذي روي من أن يكون ممّا لا يثبت سندا، أو مما

(١) المجموع ١٣/ ٣٩٦.

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن ص ١٠٠.

(٣) الإتقان ١/ ١٧٢، وانظر: ما بعدها من الصفحات.

(٤) انظر: الثمر الداني شرح رسالة القيرواني ١/ ١١٦، الإقناع ١/ ١٠٥.

(٥) المجموع ١٧/ ٢١٣.

(٦) انظر: المطلب الأول، من الفصل الثالث، من الباب الثالث.

ثبت. فأما ما لم يثبت فليس الكلام فيه، لأنه قطعا ليس من القرآن، ولا يجوز أن يقرأ بها، ولا أن يذكر إلا على سبيل القطع بعدم الثبوت.

وأما ما ثبت سندا فهو أيضا ينقسم إلى قسمين:

قسم نجزم أنه منسوخ وذلك أنه روي قبل كتابة مصحف عثمان ﷺ ومع ذلك لم يكن في مصاحفهم، مثل ما ثبت عن عمر ﷺ أنه قال: [**إن الله قد بعث محمدا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها، ووعيناها، وعَقلناها، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف**](١)؛ **فقوله** ﷺ [**قرأناها ووعيناها...**] دليل على أنه كان وحيا متلوا من القرآن، وأكد ذلك بكون النبي ﷺ ومن معه من الصحابة عملوا بمقتضى هذا الحكم، وكونها نسخت تلاوتها ولا توجد في المصاحف، هذا فيه دليل على أنها منسوخة تلاوة، ولذلك لم تكتب في المصاحف، ومما يؤكد هذا المعنى قول أُبيّ بن كعب ﷺ : [**إن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها قرأنا: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالا من الله، والله عزيز حكيم**](٢). فهذا يؤكد النسخ، وهكذا ورد عن غيره من الصحابة أنهم قرؤوها(٣)، فيدل أنها نسخت بعد تلاوتهم لها ـ والله أعلم ـ(٤).

ويوضحه أكثر إنكار عمر ﷺ على أبي بن كعب ﷺ لما كان يقرأ بأحرف يراها عمر قد نسخت، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: **قال عمر** ﷺ: [**أُبَيٌّ أقرؤنا،**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب/ الاعتراف بالزنا، ح(٦٨٣٠)، ومسلم، كتاب الحدود، باب/ رجم الثيب في الزنا، ح(١٦٩١) واللفظ له.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الحدود، ح(٨٠٦٨)وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، ورواه ابن حبان في صحيحه ١٠/ ٢٧٣، ح(٤٤٢٨).

(٣) انظر: سنن الدارمي ٢/ ١٤٧، مستدرك الحاكم ح(٨٠٧٠)، (٨٠٧١)، (٨٠٧٢).

(٤) انظر: الفتح ١٢/ ١٤٧-١٤٨.

وإنا لندع من لَحْنِ أُبيّ، وأُبيٌّ يقول: أخذته من فِي رسولِ الله ﷺ فلا أتركه لشيء؟ وقد قال الله ﷻ: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[البقرة:١٠٦]](١)، قال **الحافظ** ابن حجر رحمه الله: «قوله: وقد قال الله تعالى الخ، هو مقول عمر محتجا به على أبي بن كعب، ومشيرا إلى أنه ربما قرأ ما نسخت تلاوته، لكونه لم يبلغه النسخ»(٢).

والمنسوخ لا يجوز أن يقرأ على أنه قرآن متلو، وذلك لكونه منسوخا تلاوة، ولكونه غير موجود في مصاحف المسلمين، وكل ما لا يوجد موافقا للمصحف المجمع عليه فلا يجوز أن يقرأ بها(٣) إلا إذا أراد العلم مما هو سبيل أهل الاختصاص، قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله فيما روي عن الإمام مالك رحمه الله من إجازته للأحرف المخالفة للمصحف: «ذلك محمول عند أهل العلم اليوم على القراءة في غير الصلاة على وجه التعليم، والوقوف على ما روي في ذلك من علم الخاصة»(٤).

وقسم ثبت كونه في بعض مصاحف الصحابة رضي الله عنهم وهذا لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون نسخ ولم يعلم به ذلك الصحابي رضي الله عنه، والأمر إذا نسخ ولم يعلم به المكلف فإنه يعمل باعتقاده الأول حتى يرد عليه الناسخ(٥)، وعلى هذا يحمل ما في مصاحف الصحابة مما يخالف المصحف المجمع عليه، وهو أنهم لم يعلموا بنسخ هذه الأوجه المروية إلا بعد اجتماع الصحابة على العرضة الأخيرة من القرآن الكريم، وأن ما عداها فهو مخالف للعرضة الأخيرة.

الثاني: أن ذلك كان تفسيرا من الصحابي رضي الله عنه، أو تفسيرا سمعه من النبي ﷺ، ولم ير ذلك الصحابي بأسا بكتابتها مع المصحف لعلمه بأن الناس يحفظون كلام الله

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، ح(٤٤٨١)، وفي كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ، ح (٥٠٠٥)، كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الفتح ٨/ ١٧، وانظر منه: ٨/ ٦٧١.

(٣) وسيأتي ذكر أقوال أهل العلم في المنع من قراءة ما يخالف المصحف مطلقا، سواء كان من المنسوخ، أو من الأحرف التي تخالف رسم المصحف.

(٤) التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٢٩٩، وانظر: ٨/ ٢٩٢.

(٥) انظر: روضة الناظر وجنة المناظر ١/ ١٨٢ وما بعدها.

ولا يلتبس عليهم الأمر، وأن القرآن محفوظ في الصدور، ومعلوم للعامة والخاصة.

وعلى كلٍ فقراءة ما خالف المصحف من الأحرف والأوجه المروية عن الصحابة ﷺ لا يجوز بعد إجماعهم على ما في المصحف الإمام، الذي يوافق العرضة الأخيرة، ويؤكد هذا التحريم كون التلاوة سنة متبعة، ولا تكون إلا بما كان عليه السلف متفقين، ولهذا حرقوا المصاحف التي كانت تخالف المصحف الأم وهو مصحف عثمان ﷺ، ومن قرأ بحرف شاذ يخالف المصحف، وخالف في ذلك جمهور القراء المعروفين فهو غير مصيب، وهذا مذهب أهل العلم الذين هم القدوة، ومذهب الراسخين في علم القرآن قديما وحديثا وفيهم أسوة، **وإليك تحريرا لهذا المنع أقوال أهل العلم ـ رحمهم الله ـ:**

١ – أن عثمان ﷺ بمحضر من الصحابة ﷺ قد حرق المصاحف الأخرى لما كان في بقائها نذير اختلاف، «أو كان فيها ما ليس من القرآن، أو ما نسخ منه، أو على غير نظمه، وقد سلم لذلك الصحابة كلهم»[(١)].

٢– أن أصحاب رسول الله أجمعوا في زمن عثمان ﷺ على ما بين الدفتين، واطرحوا ما عداه، وكان ذلك عن اتفاق منهم، وهذا معلوم لجميع الملة[(٢)].

٣– نقل الحافظ ابن عبد البر ﷺ أن الإمام مالكا ﷺ قال: «من قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود ﷺ أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يُصلَّ وراءه». قال أبو عمر: «وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك إلا قوم شواذ»[(٣)].

٤ – ذكر ابن حزم ﷺ أن عثمان ﷺ إنما نسخ المصاحف، وأرسل بها إلى الأمصار، لتكون مرجعا للقراء، ولم يغير شيئا من القرآن، وأمر بما وراء ذلك مما كتب في المصاحف أن تحرق فأحرقت، وأما المصاحف التي كانت عند حفصة فأرجعت، ولم تحرق، وهذا ينبيك أنها كانت مثلها، وليس فيها ما هو منسوخ، أو مخالف للقرآن فلم يحرقها[(٤)].

---

(١) العواصم من القواصم ص ٧٠، وانظر: طبقات الشافعية للسبكي ١٠/ ٢٩٠.

(٢) البرهان للجويني ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٣) التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٢٩٢، وانظر: ٤/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) الإحكام في الأحكام ٤/ ٥٥٤.

٥- ذكر الخطيب رحمه الله جزاء من كان يقرأ بالشواذ، حيث ذكر قصة ابن شنبوذ[(١)] فقال: « واشتهر ببغداد أمر رجل يعرف بابن شنبوذ يقرئ الناس، ويقرأ في المحراب بحروف يخالف فيها المصحف، مما يروى عن عبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب رضي الله عنه وغيرهما، مما كان يقرأ به قبل جمع المصحف الذي جمعه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويتبع الشواذ، فيقرأ بها، ويجادل حتى عظم أمره وفشى، وأنكره الناس، فوجه السلطان فقبض عليه...، **وأُحضِر القضاة والفقهاء والقراء**، وناظره الوزير بحضرتهم، فأقام على ما ذكر عنه، ونصره، **واستنـزله الوزير عن ذلك فأبى أن ينـزل عنه، أو يرجع عما يقرأ به من هذه الشواذ المنكرة التي تزيد على المصحف، أو تخالفه، فأنكر ذلك جميع من حضر المجلس وأشاروا بعقوبته، ومعاملته مما يضطره إلى الرجوع** »[(٢)].

٦- ويذكر ابن الجوزي رحمه الله في غير موضع في تفسيره بعد ما يذكر القراءات والأحرف المخالفة للمصحف، يقول: وما يخالف المصحف فلا أرى القراءة بها[(٣)].

٧- قال النووي رحمه الله: « وتجوز القراءات بالسبع، ولا تجوز بالشواذ »[(٤)].

٨-سئل ابن الصلاح رحمه الله عن القراءة بالشواذ، فقال: « لا تجوز القراءة من ذلك إلا بما تواتر نقله، واستفاض، وتلقته الأمة بالقبول، كهذه السبع، فإن الشرط في ذلك اليقين، والقطع، على ما تقرر في الأصول، فما لم يوجد فيه ذلك فممنوع منه كراهة، وممنوع منه في الصلاة، وخارج الصلاة »[(٥)]، وأفتى رحمه الله بتعزير من قرأ بالشواذ[(٦)].

٩- قال الآمدي رحمه الله: « فلو قلنا إن ما نقله ابن مسعود رضي الله عنه قرآن لزم ارتكاب

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن أيوب المقرئ المعروف بابن شنبوذ، وكان يقرأ بالشواذ، وضرب بسبب ذلك، توفي سنة ٣٢٨ هـ. انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٢٣١.

(٢) تاريخ بغداد ١/ ٢٨٠، وانظر: قصة تحريف المصحف المنسوب إلى ابن مسعود الذي أظهره الرافضة!!! في بغداد في البداية والنهاية ١١/ ٤١٢، وشذرات الذهب ٣/ ١٤٩-١٥٠.

(٣) انظر: زاد المسير ٨/ ٤٣٩، ٩/ ١٩٣.

(٤) المجموع للنووي ٢/ ١٨٨، وانظر: الإقناع للشربيني ١/ ١٠٥.

(٥) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٣٠.

(٦) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٣٢.

من عداه من الصحابة للحرام بالسكوت، ولو قلنا إنه ليس بقرآن، لم يلزم منه ذلك بالنسبة إلى الراوي، ولا بالنسبة إلى من عداه »(١).

١٠ - قال ابن قدامة رحمه الله: « فأما ما يخرج من مصحف عثمان كقراءة ابن مسعود وغيرها، فلا ينبغي أن يقرأ بها في الصلاة، لأن القرآن ثبت بطريق التواتر، وهذه لم تثبت التواتر بها، فلا يثبت كونها قرآنا، فإن قرأ بشيء منها، مما صحت به الرواية، واتصل إسنادها، ففيه روايتان؛ **إحداهما**: لا تصح صلاته لذلك. **والثانية**: تصح لأن الصحابة كانوا يصلون بقراءاتهم في عصر النبي ﷺ وبعده، وكانت صلاتهم صحيحة بغير شك ».(٢) ولا يخفى أن صلاتهم صحيحة لعدم النسخ، في ذلك الوقت في عهده ﷺ أو لعدم علمهم بالنسخ، كما صلى أهل قباء إلى بيت المقدس وجاءهم الخبر بتغيير القبلة ولم يعيدوا صلاتهم.

١١ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن أورد قصة الإنكار على ابن شنبوذ قال: « فإنما كان ذلك في القراءات الشاذة الخارجة عن المصحف »(٣).

١٢ - قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: « وما يذكر من قراءة ابن مسعود رضي الله عنه فالظاهر أنه رجع إلى قول عثمان رضي الله عنه وموافقيه، وقرأ بها عليه الجماعة »(٤).

١٣ - قال الحافظ ابن حجر رحمه الله، بعد أن أورد القراءات في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[النور:٢٧]، قال: « وأما اتفاق الناس على قراءتها بالسين

---

(١) الإحكام ١/ ٢١٤.

(٢) المغنى ١/ ٢٩٢، وانظر: المجموع ١٢/ ٥٧٠، الفروع لابن مفلح ١/ ٣٧١، كشاف القناع ١/ ٣٤٥.

(٣) المجموع ١٣/ ٣٩٣، وشيخ الإسلام اختار صحة الصلاة بها، وهو رواية عن الإمام أحمد، ولكن ابن قدامة اختار المنع، وانظر: المغني ١/ ٢٩٢، المجموع ١٣/ ٣٩٧. والراجح أن الصلاة مبنية على صحة قرآنية الآيات، ولا سبيل إلى ذلك إلا صحة السند، وموافقة الرسم، وموافقة وجه من أوجه اللغة، والشاذة تخالف إما من حيث السند، أو من حيث الرسم، أو من حيث اللغة، أو من جميع هذه الحيثيات، أو من جهتين، أومن جهة واحدة؛ فلم تصح الصلاة بها.

(٤) البداية والنهاية ٩/ ١٥٥، وانظر: طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٩٥.

فلموافقة خط المصحف الذي وقع عليه الاتفاق على عدم الخروج عما يوافقه، وكانت قراءة أبي من الأحرف التي تركت القراءة بها »[(١)].

١٤-ذكر الشوكاني عن النحاس أنه قال: « لا يقرأ بما خالف المصحف »[(٢)].

١٥-قال ابن عابدين[(٣)] رحمه الله: « والذي تجوز به الصلاة بالاتفاق، هو المضبوط في مصاحف الأئمة التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار... »[(٤)]. وقال: « والشرط في قرآنية الشيء - أي الآي - ثبوته في محله في المصحف »[(٥)]. **فهذه أقوال أهل العلم الذين** اتفقوا على النهي عن القراءات الشاذة المخالفة لمصحف عثمان رضي الله عنه للتلاوة، أو للصلاة[(٦)]، ونخلص من هذا: اتفاقهم على أن من قرأ بما يخالف المصحف بعد ما استقر الأمر أنه يعزر، وأن الصلاة لا تصح بها عند جمهور أهل العلم، - فضلا عن كونه قد أتى بما هو مبتدع في الدين - وكيف يتلو إنسان شيئا في ثبوته ونقله شك؟؟، ولو لم يكن ذلك الشك إلا لأنّ الصحابة رضي الله عنهم تركوا كتابتها لكان ذلك كافيا، والله أسأل أن يوفق المسلمين على المحافظة على كتابهم حفظا وتلاوة وعملا، وإذا تأكد لنا أن كل ما في المصحف فهو من كلام الله تعالى، فهل يجوز الحلف به أم لا؟ هذا ما أبينه في المطلب الآتي.

---

(١) الفتح ١١/ ١٠، وإنما قرأ بعضهم: ﴿تستأذنوا﴾ بالذال المعجمة بدلا عن السين المهملة، وهذه قراءة أبي رضي الله عنه المتروكة، وهما بمعنى واحد، فكلاهما بمعنى: طلب الإذن، إلا أن الاستئناس أدق منه.

(٢) فتح القدير ٤/ ٣٦١.

(٣) هو الفقيه الماتريدي الصوفي الحنفي: محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي، ولد بدمشق، وله مصنفات كثيرة، منها: رد المحتار على الدر المختار المشهور "بحاشية ابن عابدين"، توفي سنة ١٢٥٢هـ. انظر: معجم المؤلفين ٩/ ٧٧.

(٤) حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٦.

(٥) حاشية ابن عابدين ١/ ٤٩١ بتصرف.

(٦) انظر: الدر النضيد في مجموعة ابن الحفيد ص ٤٤.

المطلب الرابع: الحلف بالمصحف.

وأبحث هذه المسألة من حيث إنّ علماء أهل السنة والجماعة اعتقدوا أن ما في المصحف هو كلام الله ﷻ وصفة من صفات الله ﷻ، فعلى هذا ذكروا الحلف به.

ومعلوم أن الحلف من العبد لا يجوز أن يكون إلا بالله ﷻ أو بأسمائه، أو بصفة من صفاته، قال الإمام البخاري رحمه الله: «باب: الحلِف بعزة الله وصفاته وكلامه»(١) فصنيع الإمام البخاري رحمه الله يدل على أن الحلف يكون بالله وبأسمائه وصفاته، ومنها كلامه ﷻ(٢)، ويدل له ما ذكره البخاري من قول النبي ﷺ: [**لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه؛ فتقول: قَطْ قَطْ وعزتك...**](٣)، ففيه التصريح بالحلف بعزة الله ﷻ وهي صفة من صفات الله ﷻ، والفقهاء ـ رحمهم الله ـ متفقون على أن اليمين تنعقد بالله وذاته وصفاته العلية(٤).

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «لا يجوز الحلف بغير الله ﷻ في شيء من الأشياء، ولا على حال من الأحوال، وهذا أمر مجمع عليه»(٥).

وقال الإمام البغوي رحمه الله: «**اليمين إنما تنعقد بالله، أو باسم من أسماء الله، أو بصفة من صفات ذاته**، واليمين به أن يقول: والذي لا إله غيره، والذي أعبده...، واليمين بأسمائه، كقوله: واللهِ، والرحمنِ، والرحيمِ، والخالقِ، والبارئ، والرزاقِ، والرب، والسميعِ، والبصير...، واليمين بصفات الذات، كقوله: وعظمة الله، وجلال الله، وعزة الله، وقدرة الله، وكبرياء الله، وعِلم الله، وكلام الله، فهذا كله يمين»(٦).

---

(١) صحيح الإمام البخاري ص ١٤٠٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٤، الفتح ١١/ ٥٥٤.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب/ ١٢، ح(٦٦٦١) من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) انظر: المغني ٩/ ٣٨٥، الفتح ١١/ ٥٤٠، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٥/ ١٣٣.

(٥) التمهيد ١٤/ ٣٦٦، وانظر: صحيح ابن حبان ١٠/ ٢٠١، شرح الزرقاني ٣/ ٨٨، عون المعبود لشمس الحق العظيم آبادي ٩/ ٥٥، سبل السلام للصنعاني ٤/ ١٠١.

(٦) شرح السنة ١٠/ ٤-٥، وانظر: الأم للشافعي ٧/ ١٠٥، السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٤١، المغني ١٣/ ٤٥٢-٤٥٥.

وأما الحلف بغير الله ﷻ فمنهي عنه في الشرع، وقد جاءت الأحاديث الدالة على ذلك، ومنها قوله ﷺ: **[من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت]**(١)، وقال ﷺ: **[من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك]**(٢).

فبان بهذا أن الحلف بغير الله معصية، وقد يكون شركا،(٣) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فان اعتقد في المحلوف به من التعظيم ما يعتقده في الله حرم الحلف به، وكان بذلك الاعتقاد كافرا، وعليه يُنَزَّلُ الحديث المذكور، وأما إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم المحلوف به على ما يليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك»(٤)، وما ورد في السنة مما فيه الحلف بغير الله ﷻ(٥)، فهو إما قبل النهي، أو أن اللفظ يحتمل، أو أنه لم يصح(٦).

وأما ما ورد في القرآن الكريم من القسم بغير الله ﷻ فقد ورد فيه جوابان كلاهما صحيحان، ولعله من باب التفسير المترادف، وهما:

١ - أن ذلك خاص بالله ﷻ فله أن يحلف بما شاء، وبما يشاء، وليس لأحد من خلقه ذلك، وكون الله يقسم بذلك إنما هو لكونه سبحانه لا يسأل عما يفعل، ولأجل بيان عظمة المحلوف به، أو بيان شرفه، وعلو منـزلته، أو لأهميته.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب/ لا تحلفوا بآبائكم، ح(٦٦٤٦)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب/ النهي عن الحلف بغير الله تعالى، ح(١٦٤٦)، كلاهما عن ابن عمر ﷺ عن أبيه.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب/ في كراهية الحلف بالآباء، ح(٣٢٥١)، والترمذي واللفظ له، كتاب الأيمان والنذور، باب/ ...، ح(١٥٧٤)، وقال: «حديث حسن»، وابن حبان في صحيحه، كتاب الأيمان، باب/ذكر الزجر عن أن يحلف المرء بشيء سوى الله ﷻ، ح(٤٣٤٣)، والحاكم في مستدركه، كتاب الأيمان والنذور، ح (٧٨١٤)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وقال الذهبي: «صحيح»، والحديث من مسند ابن عمر ﷺ، وقال الشيخ الألباني: «صحيح». انظر: إرواء الغليل ٨/ ١٨٩.

(٣) انظر: المحلى لابن حزم ٧/ ٣٠، المغني لابن قدامة ١٣/ ٤٣٦.

(٤) الفتح ١١/ ٥٤٠.

(٥) ومما ورد **[أفلح وأبيه إن صدق]** مسلم، ح(١١)، وأن الصحابة كان أحدهم **[يحلف بأبيه]** البخاري، ح(٦٦٤٦)، ونحو ذلك فيكون توجيهه على ما ذكرته ـ والله أعلم ـ.

(٦) انظر: الأم للشافعي ٧/ ١٠٦، السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٩، شرح مشكل الآثار ٢/ ٢٨٩-٢٩٥، الفتح ١١/ ٥٤٤.

٢- أن فيه إضمارا وحذفا، فمثلا في قوله ﷻ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾[الشمس:١] يكون التقدير: ورب الشمس، ونحوه[١]. فليس في التمسك بما ورد في القرآن حجة على الحلف بغير الله، بعد ثبوت السنة الصحيحة الصريحة[٢].

فالحلف بغير الله ممنوع، لأنه قد يكون شركا، أو وسيلة إلى الشرك، ومن كان حالفا فليحلف بالله ﷻ الذي يجب أن يعظم وحده تعظيم إجلال، ورغبة ورهبة، وخوف ومحبة.

والسلف متفقون على أن ما في المصحف كله من الفاتحة إلى الناس هو من كلام الله ﷻ، وكلامه صفة من صفاته، فهم لم يختلفوا في كون القرآن صفة لله ﷻ، وإنما اختلفوا في الحلف بالمصحف الذي هو كلام الله ﷻ من حيث الجواز وعدمه، لكون ذلك لم يكن معروفا في زمن النبي ﷺ فبناء على عدم ورود الحلف بالمصحف عن رسول الله ﷺ اختلف الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في الحلف بالمصحف على قولين مشهورين:

القول الأول: المنع من الحلف بالمصحف[٣]. قالوا: لعدم

---

(١) انظر: شرح السنة للبغوي ١٠/ ٦، المغني لابن قدامة ١٣/ ٤٣٨، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٥، الفتح ١١/ ٥٤٢، ٥٤٤.

(٢) وكنت في الحرم في درس أحد الشيوخ الفضلاء، وكان يتكلم عن الحلف بغير الله، وأنه منهي عنه، فقال عالم من علماء الرافضة بجواري: إن من حلف بغير الله فقد اقتدى بالله، كما في القرآن. فقلت: وهل كل ما يجوز لله يجوز للعبد أن يفعله، فمن صفات الله في القرآن العظمة والكبرياء، فهل للعبد أن يتصف بهما، فلم يحر جوابا، وذكرت بعد ذلك ما ثبت في السنة، فسكت.

(٣) انظر: مصنف عبد الرزاق حيث نسب هذا القول إلى قتادة ٨/ ٥٦٩، وذكر غير واحد أن المروي عن قتادة جواز الحلف به، والقول بالمنع منسوب إلى الحنفية، كما في المغني وغيره، إلا أن الذي عليه المذهب الحنفي جواز الحلف بالمصحف إذا قصد كلام الله ﷻ، قال ابن عابدين نقلا عن الفتاوى الهندية عن الحلف بالمصحف: «وبه نأخذ، ونأمر، ونعتقد»، وقال محمد بن مقاتل الرازي: «إنه ـ أي الحلف بالمصحف ـ يمين، وبه أخذ جمهور مشايخنا، فهذا مؤيد لكونه صفة تعورف الحلف بها كعزة الله، وجلاله». حاشية ابن عابدين ٣/ ٧١٢-٧١٣، لكن أشد من أنكر الحلف بالمصحف هم المالكية، وذلك لعدم الورود، ـ وإن كان المتأخرون منهم جوزوه ـ، قال القرطبي: «وقال ابن العربي: هو بدعة، ما ذكرها أحد قط من الصحابة». الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٢٨، و يأتي أنه ورد عن ابن مسعود الحلف بالقرآن، فالمصحف هو القرآن.

الـورود(١)، ولأن في المصحف الورق والحبر، وهذه لا تجوز الحلف بها(٢).

القول الثاني: جواز ذلك(٣). واستدلوا بأدلة منها:

١- أنه ورد ذلك عن بعض الصحابة(٤).

٢- ولأن اليمين جائز بصفات الله ﷻ، والقرآن الموجود بين الدفتين من كلامه ﷻ، فالحلف به وإن لم يرد نصا فهو جائز لعموم الأدلة، كما لو حلف إنسان بصفة من صفات الله ﷻ، ولم يرد الحلف بهذه الصفة عن النبي ﷺ فلا يمنع منه، فكذلك الحلف بالمصحف.

٣- أن الحالف بالمصحف لا يريد بحلفه إلا كلام الله ﷻ المكتوب بين الدفتين، ولا يريد الورق والحبر، وإلا فإنها موجودة في كل كتاب فلِمَ لم يُحلف بها، فاختصاص الحلف بالمصحف لكون المراد المكتوب الذي هو كلام الله ﷻ.

قال ابن قدامة رحمه الله: «وإن حلف بالمصحف انعقدت يمينه...، ولم يكره ذلك إمامنا وإسحاقُ، لأن الحالف بالمصحف إنما قصد الحلف بالمكتوب فيه، وهو القرآن، فإنه بين دفتي المصحف بإجماع المسلمين»(٥).

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة ١٣/ ٤٦٠، الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٢٨.

(٢) انظر: الفتح ١١/ ٥٤٤.

(٣) انظر: المغني لابن قدامة ١٣/ ٤٦٠، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ١٧٥.

(٤) ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: [**من كفر بحرف من القرآن فقد كفر به أجمع، ومن حلف بالقرآن فعليه بكل آية منه يمين**] رواه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الأيمان والنذور، باب/ الحلف بالقرآن والحكم فيه، ٨/ ٤٧٢، والبيهقي في سننه، كتاب الأيمان، باب/ ما جاء في الحلف بصفات الله ١٠/ ٤٣، فهذا فيه الحلف بالقرآن، فإذاً ورد الحلف به عن الصحابي ولا يُعلم له مخالف، وإذا ثبت هذا فإن المخالف يطالب بالفرق بين المكتوب منه في مصاحف المسلمين، والمقروء المحفوظ منه!؟ وإلا فليجوز الحلف بالمصحف كما جوز الحلف بالقرآن. انظر: المغني لابن قدامة ١٣/ ٤٧٥، نيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٢٢٦، وقال الشافعي رحمه الله: «وأخبرنا مطرف بن مازن بإسناد لا أعرفه: أن ابن الزبير أمر بأن يُحلف على المصحف. قال الشافعي: ورأيت مطرفا بصنعاء يُحلّف على المصحف» الأم ٧/ ٧١. وانظر: السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٧٨، وفيه زيادة: «وقد كان من حكام الآفاق من يستحلف على المصحف».

(٥) المغني لابن قدامة ١٣/ ٤٦١، كشاف القناع ٦/ ٢٣١، منار السبيل ٢/ ٣٨٣.

وقال ابن مفلح[١] ﷺ: «وإن حلف بكلام الله تعالى، أو بالمصحف، أو بالقرآن، فهي يمين... لأن القرآن كلام الله تعالى، وصفة من صفات ذاته[٢]، فتنعقد اليمين به، ولم يكره أحمد الحلف بالمصحف، لأن الحالف إنما قصد المكتوب فيه وهو القرآن، فإنه عبارة عما بين دفتي المصحف بالإجماع»[٣].

وأما لو قال: بحق المصحف، فليس بحلف، لأن حق المصحف تعظيمه، والعمل به، وقراءته، وهذه أفعال متعلقة بالعبد، فلا يجوز الحلف بها ـ والله تعالى أعلم ـ[٤]، فالحلف بكلام الله ﷻ الذي في المصحف هو حلف بصفة من صفاته فلذا كان جائزا عند جمهور أهل العلم، ومن منع منهم، فإنما منع ذلك لعدم الورود فقط، لا لشيء آخر[٥]، ولا يجوز أن يُحلف على غير القرآن سواء كان تفسيرا أو غير ذلك، وآن الأوان للشروع في بيان منـزلة الترجمات والتفاسير من القرآن، وهذا ما أفعله في المبحث الآتي.

---

(١) هو الفقيه الأصولي: محمد بن مفلح بن محمد المقدسي الدمشقي الصالحي، المعروف بابن مفلح، وله مؤلفات كثيرة، منها: الفروع، والمقنع في الفقه، توفي سنة ٧٦٣ هـ. انظر: رفع النقاب لابن ضويان ص٣٢٤.

(٢) التفصيل في كون القرآن صفة ذاتية باعتبار، وصفة فعلية باعتبار هو الذي يشفي العليل، انظر ما سبق: ص٧٢.

(٣) المبدع لابن مفلح٩/ ٢٥٩، وانظر: روضة الطالبين للنووي ٨/ ١٤، الفروع لابن مفلح ٦/ ٣٠٣، فتاوى أركان الإسلام للشيخ ابن عثيمين ص١٥٧.

(٤) انظر: المحلى لابن حزم ٨/ ٨٢، حاشية ابن عابدين ٣/ ٧١٣.

(٥) ويدعي أهل البدع أن ما في المصحف ليس هو كلام الله ﷻ فلذا منعوا الحلف به من هذا الباب، وسيأتي كلامهم في الباب الثاني ص ٣٤٥/ / .

المبحث الثالث
بيان منزلة الترجمة والتفسير من القرآن

قبل الشروع في هذا أنبه على علاقة هذين المطلبين بالمسائل العقدية، وهي: أن الترجمة والتفسير هل يصح أن يقال عنهما قرآن أم لا؟ ولا شك أن هذه مسألة عقدية، يترتب عليها تبديع وتكفير.

المطلب الأول: هل الترجمة اللفظية من القرآن الكريم؟

قبل البدء في الجواب على هذا السؤال، لا بد أن نعرف معنى الترجمة، وما المراد بالترجمة اللفظية، ثم يتبين حكمها من حيث نسبتها إلى القرآن الكريم أو عدمها، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

الترجمة في اللغة: تدل على أحد معانٍ أربعة، ويُعَين المراد منها بالقرينة، وهي:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يبلغه، ومنه قول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[1] أي أنه بعد كبر السن احتاج إلى من يبلغه الكلام حتى يسمع.

ثانيها: تفسير الكلام بلغته التي جاء بها، وذلك «إذا بينه ووضحه»[2]، ومنه قول ابن مسعود ﷺ: [**نعم تُرجمان القرآن ابن عباس**][3].

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ١١٩.

(٢) المصباح المنير ص ٧٤.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة، ح(٦٢٩١)، وقال: «حديث صحيح على شرط

ثالثها: تفسير الكلام بلغة غير لغته، «ومنه قولهم: ترجم كلامه، إذا فسره بلسان آخر»[١].

رابعها: «نقل الكلام من لغة إلى أخرى»[٢]، ومنه التَّـرْجُمَان «بالضم والفتح، من يترجم الكلام»[٣]، أي بترتيبه ونسقه، دون النظر إلى معناه[٤].

وبهذا يتضح أن للترجمة معان عدة[٥]، وتطلق الترجمة ـ في عرف المترجمين على وجه الخصوص ـ ويراد بها المعنيان الأخيران، فالترجمة إما أن تكون تفسيرا للكلام بلغة أخرى، والمقصود من هذه الترجمة مراعاة المعنى دون اللفظ، وإما أن تكون بنقل الكلام إلى لغة أخرى، وتكون مراعاة الألفاظ فيها هي المرادة.

وتفسير القرآن الكريم، وتوضيحه وبيانه أمر جائز بالاتفاق[٦] ما دام التفسير مبنيا على المنهج الصحيح للتفسير[٧]، فإن كان هذا التوضيح والبيان بالعربية سميت تفسيرا للقرآن، وإن كان التوضيح والبيان بغير اللغة العربية فهذه هي ترجمة تفسير القرآن، ويسمى الترجمة المعنوية أو ترجمة معاني القرآن[٨].

= الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص، ورواه الطبراني مرفوعا كما في مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٦)وقال الهيثمي: «وفيه عبد الله بن خراش، وهو ضعيف».

(١) لسان العرب ٥/ ١٦٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ١٨٦.

(٣) انظر: مجمع بحار الأنوار للفتني الهندي١/ ٢٦١.

(٤) وهذا المعنى لم يذكره ابن منظور في اللسان، انظر: ٥/ ١٦٢-١٦٣، وانظر: المصباح المنير ص ٧٤.

(٥) انظر هذه المعاني في: نقض المنطق ص ٩٧-٩٩، مناهل العرفان ٢/ ١٢٠ وما بعدها، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣١٢ فما بعدها.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٧،٢١-٢٨.

(٧) والمنهج الصحيح في التفسير سيأتي ذكره، في المطلب الثاني من هذا المبحث.

(٨) وهذا هو الواجب على المفسرين وجهات الطبع في بلاد المسلمين، أن يكتبوا فوق ما ترجم وإن كان معه قرآن بالرسم العثماني أن هذا ترجمة لمعاني القرآن الكريم، أو ترجمة لتفسير القرآن الكريم، وهذا أمر في غاية من الأهمية، ويتضح لك هذا بقراءة هذا المطلب. وانظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص٣١٦، **وكذلك يجب توافر شروط مهمة في المترجم والترجمة** حتى تؤدي الغرض المطلوب على أكمل وجه، وأصح أسلوب، وأقرب مراد، وهي شروط معروفة، وفي مظانها معلومة. انظر: الرد على المنطقيين ص ٤٨، مناهل العرفان ٢/ ١٢٣، ١٤٤ وما بعدها.

وعلى هذا تنقسم الترجمة إلى قسمين: ترجمة لفظية، أو حرفية، وترجمة معنوية،أو تفسيرية[١].

ويمكن أن تعرف الترجمة الحرفية بأنها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى، مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم.

وأما الترجمة التفسيرية فهي: شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، دون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، ودون الإحاطة بجميع معانيه المرادة منه.

وهذه الترجمة إنما هي عبارة عن تفسير القرآن الكريم بغير اللغة العربية، وهذه هي التي جوزها أهل العلم، ومن قال بالمنع فكلامه محمول على الترجمة اللفظية أو الحرفية[٢].

والترجمة الحرفية للقرآن، إما أن تكون ترجمة بالمثل، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل، **أما الترجمة الحرفية بالمثل:** فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه

---

(١) **والفرق بين الترجمتين اللفظية الحرفية والتفسيرية يتضح بهذا المثال:** فلو أراد مترجم أن يترجم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:٢٩] ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في العنق، وعن مدها غاية المد، مثل هذا التعبير في اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدي المعنى الذي قصده القرآن، بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذي ينهى عنه القرآن، ويقول في نفسه: إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذي نهى عنه القرآن؛ لأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية منه، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة، المعنى الذي أراده القرآن، وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ. **أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية،** فإنه يأتي بالنهي عن التبذير والتقتير، مصوَّرين بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها، ويناسب إلْفَ من يتكلم بها، من هذا يتبين أن الغرض الذي أراده الله من هذه الآية يكون مفهومًا بكل سهولة ووضوح في الترجمة التفسيرية، دون الترجمة الحرفية، وانظر: البحر المحيط ١/ ٤٤٨.

وجعل شيخ الإسلام رحمه الله **الترجمة والتفسير على ثلاث طبقات:** ١ ـ ترجمة مجرد اللفظ، ولا يعني أن الترجمة لفظية، ولكنها مترادفة من حيث الدلالة في اللغتين على معنى واحد، ولا يعني مساواتها للقرآن من كل الوجوه. ٢ ـ ترجمة المعنى وبيانه. ٣ ـ بيان صحة المعنى بالأدلة والأقيسة، ليتحقق ذلك المعنى المراد تفهيمه. انظر: نقض المنطق ص ٩٧-٩٨.

وأما الفروق بين التفسير والترجمة فهي جلية، وخشية الإطالة أحيل إلى موضع القضية، فانظر: مناهل العرفان ٢/ ١٢٤ وما بعدها.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣١٦ ـ ٣١٨، مجلة البحوث العلمية العدد ١٢، بحث: أحمد عوض الله ص ٣٠٥.

حذوا بحذو، بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته، وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعاني المقيدة بكيفياتها البلاغية وأحكامها التشريعية، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز؛ **وذلك لأن القرآن نزل لغرضين أساسيين:**

أولهما: كونه آية دالة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وذلك بكونه معجزًا للبشر، لا يقدرون على الإتيان بمثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك، **وهذا الغرض** وهو كونه آية على صدق النبي ﷺ لا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقـًا؛ فإن القرآن ـ وإن كان الإعجاز في جملته لعدة معانٍ كالإخبار بالغيب، واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل، وغير ذلك مما عُدَّ من وجوه إعجازه[(١)] ـ إنما يدور الإعجاز الساري في كل آية منه على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقـًا، فإن اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة، ولكن لكل لغة خواصها، إذًا لو ترجم القرآن ترجمة حرفية ـ وهذا محال ـ لضاعت خواص القرآن البلاغية، ولنزل من مرتبته المعجزة، إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر، ولفات هذا المقصد العظيم الذي نزل القرآن من أجله على محمد ﷺ، ولهذا فإنه لا يقدر أحد من المترجمين على أن ينقل القرآن إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى إلى العربية[(٢)].

وثانيهما: هداية الناس لما فيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم، وهذا الغرض وهو: كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم في الدارين، يكون باستنباط الأحكام والإرشادات منه، وهذا يرجع إلى المعاني الأصلية التي يشترك في تفاهمها وأدائها كل الناس، وتقوى عليها جميع اللغات، وهذا النوع من المعاني يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه، والبعض الآخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعاني الثانوية،

---

(١) وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الخامس من هذا الباب.

(٢) انظر: البحر المحيط ١/ ٤٤٨.

الأحكام منه، والبعض الآخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعاني الثانوية، ونجد هذا كثيرًا من استنباطات الأئمة المجتهدين؛ وهذه المعاني الثانوية لازمة للقرآن الكريم، والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعاني الأولية، فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعاني الثانوية، وبهذا يضيع كثير من المعاني الثانوية المقصودة في القرآن. فكيف ـ بعد هذا ـ تكون الترجمة الحرفية صحيحة؟![1].

ومما تقدم يُعلم: أن الترجمة الحرفية للقرآن، لا يمكن أن تقوم مقام الأصل في تحصيل كل ما يقصد منه؛ لما يترتب عليه من ضياع الغرض الأول برمته، وفوات شطر من الغرض الثاني.

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن حذوا بحذو بقدر طاقة المترجم، وما فقه من لغته، وهذا أمر ممكن، وهو إن جاز في كلام البشر، لا يجوز بالنسبة لكتاب الله العزيز؛ لأن فيه من فاعله إهدارًا لنظم القرآن، وإخلالاً بمعناه، وانتهاكًا لحرمته، فضلاً عن كونه فعلاً لا تدعو إليه ضرورة.

وبهذا يتضح أن الترجمة اللفظية أو الترجمة الحرفية غير ممكنة أصلا، وممنوعة شرعا، وما قام به بعض المترجمين من ادعاء بأن هذه التراجم هي ترجمة لفظية أو حرفية فهو مجرد ادعاء باطل، وبينه وبين الحقيقة حائل، لأنه غير ممكن وهو مما يقال عنه: إنه محال بكل حال[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بل يجب أن يعلم أصلا عظيما: ...أن **القرآن له بهذا اللفظ والنظم العربي اختصاص لا يمكن أن يماثله في ذلك شيء أصلا**، أعني خاصة في اللفظ، وخاصة فيما دل عليه من المعنى، ولهذا لو فسر القرآن ولو ترجم فالتفسير والترجمة قد يأتي بأصل المعنى أو يقربه، **وأما الإتيان بلفظ يبين المعنى**

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي ٢/ ٦٦ وما بعدها.

(٢) انظر: الموافقات للشاطبي ٢/ ٦٤، ٦٦، ٦٨، مناهل العرفان ٢/ ١٢٢، ١٥٥، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣١٤.

القرآن المنزل، ولكن يجوز ترجمته كما يجوز تفسيره، وإن لم تجز قراءته بألفاظ التفسير وهي إليه أقرب من ألفاظ الترجمة بلغة أخرى»[١].

والترجمة على أي حالة كانت، اللفظية منها فضلا عن التفسيرية لا يقال عنها قرآن، ولا يمكن أن يقارب كلام المنان، والدليل على ذلك ـ من النص والإجماع ـ ما يأتي:

١ - لأن الله ﷻ نفى عن القرآن أن يكون أعجميا، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[فصلت:٤٤] فالقرآن منزل عربيا، والعجمي ليس كذلك، فدل أن الترجمة ليست قرآنا[٢]، قال ابن العربي المالكي رحمه الله: «وهذا يبطل قول أبي حنيفة في قوله: إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية فيه بالفارسية جائز[٣]، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟﴾ كذا، لنفي أن يكون للعجمة إليه طريق، فكيف يصرف إلى ما نهى الله عنه، فأخبر أنه لم ينزل به... وأوضحنا أن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآنا، ولا بيانا، ولا اقتضى إعجازا»[٤]، وقال القرطبي رحمه الله في الآية: «دليل على أن القرآن عربي، وأنه أنزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميا، وأنه إذا نُقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآنا»[٥].

---

(١) الفتاوى الكبرى ٥/ ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) انظر: حاشية ترشيح المستفيدين ١/ ٥٢، نقلا عن مناهل العرفان ٢/ ١٧٤.

(٣) أي في الصلاة، وهذا نقل عن أبي حنيفة، وسيأتي تفصيل حكم الصلاة بالترجمة القرآنية.

(٤) أحكام القرآن ٤/ ٨٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٤٠، وهذا الاستدلال واضح جلي، وهذه الآية ـ وما بعدها من الأدلة ـ تدل على بطلان ما ذكره الجصاص في كتابه أحكام القرآن ٣/ ٥٠٩ حيث قال: (وهذا يدل على أن نقله إلى لغة العجم لا يخرجه ذلك من أن يكون قرآنا). وهذا قول ساقط، مبني على اعتقاد سابق، وهو: أن كلام الله ﷻ واحد إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بأي لغة أخرى كان مسمى بتلك اللغة، ولا يخرج التعبير بتلك اللغة عن كونه معنى واحدا، وإن اختلف اللفظ والمعنى!!؟ وهذا القول هو قول الكلابية والأشاعرة والماتريدية، وسيأتي بيانه والرد عليه في الفصل الأول من الباب الثاني. وبهذا تعلم أن ما ذكره الشيخ مناع القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن ص ٣٢٠ بأن «الأحناف وإن جوزوا الصلاة بالأعجمية إلا أنهم متفقون على أنها ليست بقرآن» على إطلاقها غير صحيح، فهذا الجصاص

٢- أن هذا القرآن أنزل عربيا، كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الزمر:٢٧-٢٨] ومعلوم أن الترجمة لا يصح أن توصف بأنها عربية[(١)]، ولا توصف بأنها سليمة لا اعوجاج فيها، لأن المترجم ربما أخطأ في أشياء كثيرة منها، أو نسي أو غفل، أو جهل، فكيف يقال أنّها قرآن؟!.

٣- قال الله ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٢٣-٢٤] فإن اعتبر الترجمة اللفظية أو غيرها مثل القرآن فلقد أتى البشر بشيء مثله!!؟ مع أن النفي منصب على سورة من مثله، فكيف بمثل القرآن كله؟ فلا بد أن يكون أشد نفيا، وأبعد استطاعة، وهذا يدل دلالة قوية، أن الترجمة إنما هي من كلام البشرية، تبين وتوضح بغير العربية كلام الله ﷻ المنزل على خير البرية، محمد بن عبد الله ﷺ من غير مرية، ولا ريبة[(٢)].

٤- ولأن القرآن اسم للفظ والمعنى جميعا، «ولهذا إذا فسره المفسر، وترجمه المترجم لم يقل لتفسيره وترجمته: إنه قرآن»[(٣)]؛ لأنه «ليس القرآن عندنا بمجرد معناه فقط، بل بلفظه المخصوص، ومعناه، وأسلوبه الذي أعجز الأولين والآخرين، فعلى هذا المعنى: إن تُرْجِمَ بلسان آخر، أو عبر عن معناه بغير لفظه، وأسلوبه، خرج عن كونه قرآنا»[(٤)]، فالترجمة موضّحة للمعنى فقط، وليس مثل اللفظ والمعنى قط، فالترجمة ليست مطابقة تماما للفظ والمعنى، بل هي دالّة على بعض ما دل عليه كلام الله ﷻ.

=
من أئمتهم، وقد عرفت قوله، وهو ممن يشار إليه بالبنان، ويذكر بمديح اللسان، ولكنه لعله يقصد المتقدمين من الأحناف فيكون كلامه مستقيما، وقوله صوابا سليما.

(١) انظر: البحر المحيط ١/ ٤٤٧.

(٢) انظر: البحر المحيط ١/ ٤٤٧، مناهل العرفان ٢/ ١٥٦-١٥٩.

(٣) المجموع ٦/ ٥٤٢، وانظر: ٦/ ٦٥، الجواب الصحيح ٤/ ٣٤١.

(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٢٦، وانظر منه ص ٢٧٨.

٥- أن القرآن معجز، والترجمة تخل بإعجازه، والإعجاز مختص بنظمه العربي، ومعناه الشرعي[١].

٦- أن عامة العلماء أجازوا الترجمة بغير العربية، ولم يقل أحد ممن يعتبر قوله: إن الترجمة هي قرآن بلغة كذا وكذا، وكون هذه الترجمة دالة على معاني القرآن، وأنها تأخذ بعض أحكام القرآن من حيث كونها معاني دالة عليه، لا يقتضي تناول اسم القرآن لهذه الترجمة، «كما أن "القيمة" إذا أخرجت من الزكاة عن الإبل، والبقر، والغنم لم تُسم إبلا، ولا بقرا، ولا غنما، بل تسمى باسمها كائنة ما كانت.

٧- وكذلك لفظ "التكبير" في الصلاة، إذا عدل عنه إلى لفظ التسبيح ونحوه وقيل: إن الصلاة تنعقد بذلك، كما يقوله أبو حنيفة ﵀ لم يقل: إن ذلك لفظ تكبير، فكذلك إذا قدر أنا ترجمنا القرآن ترجمة جائزة لم يقل: إن الترجمة "قرآن"، ولم نسمها قرآنا»[٢]. فترجمة القرآن إذاً ليست بقرآن أبدا.

٨- أن علماء السلف ومن سار على دربهم من الخلف متفقون على أن ترجمة القرآن ليست بقرآن، وإنما هو من قبيل تفسير القرآن بلغة قوم غير العرب[٣].

٩- أن المسلمين يترجمون أحاديث رسول الله ﷺ ولا يقولون إن هذا حديث رسول الله ﷺ، وإنما يقولون هذا معنى حديث رسول الله ﷺ، وهذه ترجمة ما دل عليه حديث رسول الله ﷺ، وكذلك حينما يترجم المترجم كلام ملك أو وزير لا يقال إن هذا كلامه وإنما يقول هذا معنى كلامه، وهذا ما يدل عليه كلامه، وهذا بالنسبة إلى كلام البشر فكيف بكلام خالق البشر.

١٠- أن العلماء ـ رحمهم الله ـ أجمعوا على منع رواية القرآن بالمعنى المرادف للفظ المنـزل، وذلك لأنه يخل بلفظه، واللفظ مراد كما المعنى مراد، وجوزوا رواية

---

(١) انظر: حواشي الشرواني ٢/ ٤٤ بتصرف، إعانة الطالبين ١/ ٦٨.

(٢) المجموع ٦/ ٥٤٣، وانظر: نقض المنطق ص ٩٨.

(٣) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ٥٥، ٥٦، الفروع لابن مفلح ١، ٣٦٧، حاشية الدسوقي ١/ ١٢٥، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين لمصطفى صبري ٣/ ٣٥١.

أحاديث رسول الله ﷺ بالمعنى لأنه ليس مرادا من حيث الإعجاز(١)، فيدل هذا على أن الترجمة هي من قبيل الرواية وإنما جازت لكونها نقلا لبعض معنى القرآن إلى لغة أخرى، وأنها ليست من قبيل الرواية.

١١- أن العلماء المعتبرين من لدن السلف الصالحين، والخلف المتبعين، يقولون: بمنع الجنب المحدث من مس المصحف، ولم يقل أحد منهم بتحريم مس الترجمة أيا كانت(٢).

١٢- قال أهل العلم: إن الرجل لو حلف أنه لا يقرأ قرآنا فقرأ الترجمة أنه لا يحنث، كما لو قرأ التفسير، فهذا يدل أن الترجمة ليست بقرآن، وإنما هي معنى ما دل عليه كلام الله ﷻ(٣).

١٣- «أجمع العلماء على أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة، ويمنع فاعل ذلك أشد المنع، لأن قراءته بغيرها من قبيل التصرف في قراءة القرآن بما يخرجه عن إعجازه، بل بما يوجب الركاكة»(٤).

١٤- اتفق العلماء على أن القراءة في الصلاة بغير العربية تحرم مطلقا، لكونه ليس قرآنا، إذ لا بد في التلاوة التعبدية للقرآن من اللفظ والمعنى، فيمنع منها، ولكن لو قرأ بغير العربية، فهل تصح صلاته، فيه قولان مشهوران، وعن أهل العلم معروفان(٥).

القول الأول: أن الصلاة باطلة بكل حال، إذا قرأ الترجمة لكون ذلك من الكلام، ولم يأت بركن من أركان الصلاة، وهي قراءة القرآن، وعلى وجه الخصوص أم

---

(١) انظر: مناهل العرفان ٢/ ١٦٤ بتصرف.

(٢) انظر: الفروع لابن مفلح ١/ ٣٦٧، حاشية الدسوقي ١/ ١٢٥.

(٣) انظر: الفروع لابن مفلح ١/ ٣٦٧، حاشية الدسوقي ١/ ١٢٥.

(٤) مجلة الأزهر ٣/ ٣٢ وما بعدها، نقلا عن مناهل العرفان ٤/ ١٧٦، ولقد روج لفكرة صحة القراءة بالأعجمية العقلانيون المعاصرون. انظر: موقف العقل ١/ ٤١-٤٢.

(٥) انظر: مجلة الأزهر ٣/ ٣٢ وما بعدها، نقلا عن مناهل العرفان ٤/ ١٧٦.

القرآن"الفاتحة"، ولكونه تكلم في الصلاة بما لا يشرع له، وهذا قول جمهور العلماء[(١)].

القول الثاني: التفصيل في ذلك، إن قرأ وهو قادر على قراءة القرآن بطلت صلاته، وإلا فلا، وقالوا: إن قرأ من الآيات التي فيها الأذكار والأدعية لم تبطل وإلا بطلت، وقيل: لا تبطل بكل حال، وهذا القول نسب إلى أبي حنيفة، واضطرب فيه أقوال الحنفية[(٢)].

١٥- أن القول بأن تسمية الترجمة ترجمة لفظية أو معنوية هو من قبيل الاختلاف في الألفاظ، ليس بصحيح لما تقدم من المعاني، وأيضا لو سلم له فإنه يؤدي إلى اعتقاد ما ليس بقرآن قرآنا، وهذه مفسدة عظيمة، فكيف يفتح هذا الباب الذي تأتي منه هذه المفسدة الكبرى، فقد ثبت بتقادم الأزمان، أنه يصبح الترجمة اللفظية قرآنا عند كثير من جهلة المسلمين، لما رأوا أنه مكتوب على الترجمة مثلا: القرآن الكريم باللغة الفارسية!؟ أو القرآن الكريم باللغة الهندية!؟ وإلى آخر ذلك، فماذا سيكون اعتقاد الجهال بعد عشرات السنين في هذا الكتاب؟؟ ألا يعتقدون بأن هذا قرآن باللغة الإنجليزية، وهذا قرآن بالفارسية؟ ولقد ثبت واقعا كما جاء في مجلة الأزهر: «أن أهالي جاوه[(٣)] المسلمين، يقرؤون الترجمة الإفرنجية، ويُقرؤونها أولادهم،ويعتقدون أن ما يقرؤون هو القرآن الصحيح»!![(٤)].

وبعد سرد هذه الأدلة، لا يبقى أدنى شك في أن الترجمة وإن كانت لفظية ـ على

---

(١) انظر: المحلى لابن حزم ٣/ ٢٥٤ وقد فسّق من قرأ القرآن في الصلاة بغير العربية ونسبه إلى التحريف، وانظر ٨/ ٤١١ من الكتاب نفسه، والجواب الصحيح ٢/ ٥٥، ٢/ ٦٧، المجموع ٢/ ١٨٨، الفروع لابن مفلح ١/ ٣٦٧، حاشية الدسوقي ١/ ١٢٥، مجلة الأزهر ٣/ ٣٢ وما بعدها، نقلا عن مناهل العرفان ٤/ ١٧٦.

(٢) انظر: أصول السرخسي ص ٢٨١، حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٥، وهذا القول نقل عن أبي حنيفة رحمه الله أنه رجع عنه، ومن لم يبلغه رجوعه قيده بالضرورة. انظر: البحر المحيط للزركشي ١/ ٤٤٨.

(٣) جاوة جزيرة في الجنوب الشرقي من قارة آسيا، وهي من أكبر الجزر التي تكونت منها إندونيسيا الحالية. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٢٤٢.

(٤) مناهل العرفان ٢/ ١٦١، نقلا عن ملحق لمجلة الأزهر.

فرض صحتها ـ لا تكون قرآنا أبدا، وأختم البحث بنقل فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية هذا نصها: « **س: ترجمة القرآن أو بعض آياته إلى لغة أجنبية أو أعجمية بقصد نشر الدعوة الإسلامية الحقة في بلاد غير المسلمين، هل في هذا العمل ما يخالف الشرع والدين؟**.

ج: ترجمة القرآن أو بعض آياته والتعبير عن جميع المعاني المقصود إليها من ذلك غير ممكن، ترجمته أو بعضه ترجمة حرفية غير جائز لما فيها من إحالة المعاني وتحريفها.

أما ترجمة الإنسان ما فهمه من معنى آية أو أكثر وتعبيره عما فهمه من أحكامه وآدابه بلغة إنجليزية، أو فرنسية، أو فارسية، مثلاً لينشر ما فهمه من القرآن، ويدعو الناس إليه فهو جائز، كما يفسر الإنسان ما فهمه من القرآن، أو آيات منه باللغة العربية، وذلك بشرط أن يكون أهلاً لتفسير القرآن، وعنده قدرة على التعبير عمّا فهمه من الأحكام والآداب بدقة، فمن لم تكن لديه وسائل تعينه على فهم القرآن، أو لم يكن لديه اقتدار على التعبير عنه بلغة عربية أو غير عربية تعبيرًا دقيقـًا فلا يجوز له التعرض لذلك، خشية أن يحرف كلام الله عن مواضعه فينعكس عليه قصده، ويصير قصده المعروف منكرًا، وإرادته الإحسان إساءة »(١).

وهذا نص فتوى أخرى متعلقة بهذا المبحث: « **س**: هل يمكن أن يترجم القرآن إلى اللغة الفرنسية مثلاً، ويقرؤه الكفار، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة:٧٧-٧٩]، ومكتوب على عنوان هذا الكتاب: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ ﴾[النساء:١٢٦-١٢٧].

ج: لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة مماثلة في دقة تعبيره وعلو أسلوبه وجمال سبكه وإحكام نظمه، وتقوم مقامه في إعجازه، وتحقيق جميع مقاصده من إفادة الأحكام والآداب، والإبانة عن العبر والمعاني الأصلية والثانوية، ونحو ذلك مما هو من خواصه

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ٤/ ١٦٢-١٦٣، الفتوى رقم (٨٣٣).

ومزاياه المستمدة من كمال بلاغته وفصاحته، ومن حاول ذلك فمثله كمثل من يحاول أن يصعد إلى السماء بلا أجهزة ولا سلم، أو يحاول أن يطير في الجو بلا أجنحة ولا آلات.

ويمكن أن يعبر العالم عمَّا فهمه من معاني القرآن حسب وسعه وطاقته بلغة أخرى ليبيّن لأهلها ما أدركه فكره من هداية القرآن، وما استنبطه من أحكامه، أو وقف عليه من عبره ومواعظه، **لكن لا يعتبر شرحه لتلك الآيات بغير اللغة العربية قرآنـًا، ولا ينـزل منزلته من جميع النواحي، بل هو نظير تفسير القرآن باللغة العربية في تقريب المعاني، والمساعدة على الاعتبار، واستنباط الأحكام، ولا يسمَّى ذلك التفسير قرآناً**، وعلى هذا يجوز للجُنب والكفار مس ترجمة معاني القرآن بغير اللغة العربية، كما يجوز مسُّهم تفسيره باللغة العربية»[1].

وإذا تبين أن الترجمة ليست من القرآن الكريم لأنها بيان لمعاني القرآن الكريم بلغة غير العربية؛ فهل يقال عن التفسير إنه قرآن؟ هذا ما أبينه في المطلب التالي.

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ٤/ ١٦٣-١٦٤، الفتوى رقم(١٦٠١)، وانظر: ما بعدها من الفتاوى، وانظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد ١٠، بحث: محمد النبهان ص ٣٢٧.

المطلب الثاني: هل يقال إن التفسير من القرآن؟

التفسير لغة: تفعيل من الفَسْرِ، وهو البيان، تقول: فَسَرْتُ الشيءَ (بالتخفيف كضربت) أُفْسِرُهُ فَسْرًا، وفَسَّرْتُهُ (بالتشديد كعَلمتُه) أُفَسِّرُهُ تَفْسِيرًا إذا بينته، فالتفسير البيان والتوضيح والإظهار والكشف، ومما جاء فيه التفسير بمعنى البيان والتوضيح قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان:٣٣] أي أحسن بيانا وتوضيحا وظهورا(١).

وأصل الفَسْرِ: نظر الطبيب إلى الماء ليعرف العلة.وقيل هو من فَسرتُ الفرس إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها(٢).

وقيل هو مقلوب من سَفَرَ كجَذَبَ وجَبَذَ، تقول: سَفَرَ إذا كشف وجهه، ومنه أَسْفَرَ الصبحُ إذا أضاء(٣).

والتفسير يمكن أن يعرف بتعريف مختصر مفيد بأنه: علم يبحث عن معاني ألفاظ القرآن الكريم، ودلالتها على مراد الله ﷻ(٤).

وللتفسير طرق مشهورة، ومدارس معروفة، وأحسن الطرق وأوجبها في الإتباع، طريقة التفسير بالمأثور، وهو أن يفسر القرآن بالقرآن، والقرآن بما صح في السنة، والقرآن بما ثبت عن الصحابة والتابعين، والقرآن بما جاء في لغة العرب(٥).

ومن أشهر ما كتب من التفاسير بهذه الطريقة: تفسير إمام المفسرين ابن جرير الطبري، وتفسير الإمام البغوي، وتفسير الحافظ ابن كثير، وتفسير الدر المنثور للسيوطي.

---

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٨٨، المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٢١٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ١٦٣.

(٣) انظر: الفتح ٨/ ٥، البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ١٦٢-١٦٣، مناهل العرفان ٢/ ٤.

(٤) انظر: الفتح ٨/ ٥، البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ١٦٣-١٦٤، مناهل العرفان ٢/ ٤.

(٥) انظر: الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٦٩، مقدمة ابن خلدون ص ٧٨٥، تفسير ابن كثير ١/ ٣-٥، إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ١٤٦، مناهل العرفان ٢/ ١٤ وما بعدها.

وأما التفاسير الأخرى التي هي عن الجادة شطت، ولغير الأثر اتبعت، فهي كلها بعيدة عن الصواب، ومنها: التفسير الإشاري، والتفسير بالرأي[(١)].

وأما التفسير الباطني الذي سلكه أهل الأهواء من الزنادقة، والمنافقين، فهو أشبه بالخرافات في الدين من أن يقال عنها تفسير للقرآن المبين.

ولا شك أن التفسير باب صعب مرتقاه، عسير مناله، ولهذا يجب التبحر في علوم الشريعة، قبل القيام بتفسير هذا الكتاب الذي فيه تفصيل كل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين، وأما التفسير بالرأي فمحرم، كما جاء ذلك عن الصحابة والتابعين، ومن صار على دربهم من العلماء الربانيين[(٢)].

وعلى كل فإن التفسير بالمأثور ـ فضلا عن غيرها ـ لا يمكن أن يقال عنها قرآن، وقد سبق أن بيَّنْتُ في المطلب السابق أن الترجمة لا يصح أن تسمى قرآنا، ولا تكون أبدا فرقانًا، ولا تأخذ حكم القرآن من جميع نواحيه.

والتفسير الذي هو تبيين معاني كتاب الله ﷻ بلغته العربية، كذلك لا يصح أن يسمى قرآنا، وذلك للأدلة السابقة.

ويمكن أن أضيف بأن التفسير إنما صيغ للدلالة على معاني القرآن الكريم، ولم تُصغ من أجل محاكاة القرآن أو مماثلتها.

والتفاسير لا تغني عن القرآن الكريم بوجه من الوجوه، لا في الصلاة، ولا في التلاوة، ولا في الدلالة على المعاني العظيمة المرادة من كتاب الله ﷻ، ولهذا تجد بين التفاسير اختلافا، بينما القرآن الكريم لا اختلاف بين جميع نسخه في المشرق كانت أو في المغرب، لأن القرآن محفوظ، والتفاسير معروضة لابتكارات البشر العلمية، وانتخاباتهم ومداركهم العقلية.

---

(١) والتفسير الإشاري، أو التفسير بالرأي إنما يكون مقبولا بشرطين، ذكرهما العلماء. انظر: ص٩٣٨.

(٢) انظر: فتاوى ابن الصلاح ص ١٥٢، تفسير ابن كثير ١/ ٦-٧، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٥ وما بعدها، الإقناع للشربيني ١/ ١٠٥، كشاف القناع ١/ ٤٣٣.

والسلف الصالح يعتقدون بأن كلام الله ﷻ القرآن لفظه ومعناه من الله ﷻ، ويعتقدون جازمين بأن التفاسير ليست من القرآن المتلو، وإن كانت شارحة لمراده ومبينة لمراميه، خلافا لمزاعم أهل البدع الحلولية القائلين بأن كل كلام في الوجود هو عين كلام الله ﷻ، وهذا قول ساقط، لا يقول به إلا كل لاقط[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والتفسير ليس قرآنا متلوا، وكذلك الترجمة»[٢]، **وقال أيضا:** «اتفق المسلمون على جواز مس المحدث لكتب التفسير، واتفقوا على أنه لا تجوز الصلاة بتفسيره»[٣].

وإذا تبين أن الترجمة والتفسير لا تتعلق بهما أحكام القرآن مطلقا، وعلى وجه الخصوص من حيث التعظيم والتوقير، فأبين الآن ما يجب على المسلم من تعظيم المصحف في المبحث الآتي.

---

(١) وسيأتي بيان عقيدة الحلولية في القرآن الكريم، والرد عليهم في الفصل الأول من الباب الثاني.

(٢) الجواب الصحيح ٢/ ٥٦، حاشية الدسوقي ١/ ١٢٥.

(٣) المجموع ٦/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣، وانظر: نقض المنطق ص ٩٨ وما بعدها.

المبحث الرابع: وجوب تعظيم المصحف

المطلب الأول: الدليل على وجوب تعظيمه.

تعظيم المصحف واجب بالاتفاق، وهو قول السلف بلا شقاق، وذلك لكون ما في المصحف هو كلام الله ﷻ[1] ودال على أوامره ونواهيه، ومحابِّه ومراضيه[2]، ولم يختلف السلف الكرام، وهم أهل الإكرام للمصحف الذي فيه كلام الله القدوس السلام، وإنما اختلفوا فيما هو من باب التعظيم، أو ليس منه[3].

وتعظيم المصحف يكون بما ورد في الشرع، لا بما يرد على العقل « لأن ما طريقه التقرب إذا لم يكن للقياس فيه مدخل لا يستحب فعله، وإن كان فيه تعظيم إلا بتوقيف »[4].

والنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية تدل على وجوب تعظيم كلام الله ﷻ، وتعظيم المصحف الذي فيه كلام الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج:٣٢] « والشعائر جمع شعيرة، وهي كل شيء لله تعالى، فيه أمر، أشعر به وأعلم »[5]، والمصحف فيه أوامر الله ﷻ، وفيه إعلام بما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه.

---

(١) انظر: مختصر الفتاوى ص ٢٦٥.

(٢) انظر: المغني لابن قدامة ١/ ٩٨، طبقات الشافعية ٨/ ٢١٩، ٢٣٣.

(٣) انظر: المجموع ٢٠/ ٢٨٨، الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر الهيتمي ص١٩٨-١٩٩، ٢٩١، ضمن الجامع لألفاظ الكفر للشيخ د/ محمد الخميس.

(٤) كشاف القناع ١/ ١٣٧.

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ١٢١.

ومن صور التعظيم عدم تمكين الكافر من مسه، فإنه فاقد الطهارة كلها، متلبس بالنجاسة كلها، ولكنه يعطى بعض آيات الكتاب، لدعوته إلى الصواب، أو إذا رجي إسلامه، وذلك من غير تمكينه من المصحف واستلامه، أو يكون بإعطائه معاني القرآن الكريم وتفسيره وترجمته[١].

ومن تعظيم المصحف منع قراءته على الجنب، لأن الواجب والكمال في التعظيم كمال الطهارة حال المس والقراءة، والجنب فاقد للطهارتين الكبرى والصغرى، ولقد ثبت عن علي رضي الله عنه أنه قال: [**كان رسول الله ﷺ يقرئنا القرآن على كل حال ما لم يكن جنبا**][٢] «وبه قال غير واحد من أهل العلم أصحاب النبي ﷺ والتابعين»[٣].

قال القرطبي رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ﴾ [النساء:٤٣] «وإذا كان لا يجوز له ـ أي الجنب ـ اللبث في المسجد فأحرى أن لا يجوز له مس المصحف، ولا القراءة فيه، إذ هو أعظم حرمة»[٤].

وكذلك يحرم على الحائض والنفساء قراءة القرآن[٥]، لقول ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: [**لا يقرأ الجنب، والحائض شيئا من القرآن**][٦]، وبه قال أكثر أهل العلم من السلف والخلف «من أصحاب النبي ﷺ، والتابعين ومن بعدهم»[٧].

---

(١) انظر: المهذب لأبي إسحاق الشيرازي ١/ ٢٥، وحاشية البجيرمي ١/ ٤٧.

(٢) رواه الترمذي، أبواب الطهارة، باب: ما جاء في الرجل يقرأ القرآن على كل حال ما لم يكن جنبا، ح(١٤٦)، وقال حديث حسن صحيح، ورواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب: في الجنب يقرأ القرآن، ح(٢٢٩)، ورواه النسائي، كتاب الطهارة، باب: حجب الجنب من قراءة القرآن، ح(٢٢٦)، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب: ما جاء في قراءة القرآن على غير طهارة، ح(٥٩٤).

(٣) جامع الترمذي ١/ ٤٥٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ١٣٦.

(٥) انظر: المبسوط ٣/ ١٥٢، البحر الرائق ١/ ٢١١، المهذب ١/ ٣٨.

(٦) رواه الترمذي، كتاب الطهارة، باب: ما جاء في الجنب والحائض أنهما لا يقرآن القرآن، ح(١٣١)، وابن ماجة، كتاب الطهارة، باب: ما جاء في قراءة القرآن على غير طهارة، ح(٥٩٦) واللفظ له، وقال الشيخ الألباني(ضعيف) انظر: الإرواء ١/ ٢٠٦ ح (١٩٢).

(٧) جامع الترمذي ١/ ٤١٠، وفي جواز قراءة القرآن ومس المصحف للجنب والحائض خلاف يسير، حيث أن الظاهرية قالوا بجواز مسه، ولكن هذا القول لم يكن عليه السلف، كما هو مبين من كلام الترمذي رحمه الله.

وأما المحدث حدثا أصغر فهو فاقد للطهارة الصغرى فيكون أيضا ناقصا لكمال الطهارة، واختلف العلماء في حكم مسه المصحف على قولين[(١)] مشهورين:

الأول: يمنع من ذلك؛ ومن تعليلاتهم وأدلتهم أنهم قالوا: لأنه يخل بالتعظيم.

الثاني: يباح له ذلك، لأن المؤمن لا ينجس، ولأن ذلك لا يخل بالتعظيم.

وهذا يدل على اتفاقهم على وجوب تعظيم المصحف، وذلك لكونه كلام الله ﷻ، وخلافهم بعد ذلك في آحاد صور التعظيم أنها من التعظيم أولا، لا يضر، لأنهم جميعا متفقون على تعظيم المصحف، وتكريمه، وكون مسه بدون طهارة من التكريم أم لا، يعد هذا خلافا فقهيا[(٢)]، لكن الراجح هو ما عليه جماهير السلف والخلف من وجوب كمال الطهارة لمس المصحف.

قال شيخ الإسلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الواقعة:٧٧-٨٠] « هذا مسوق لبيان شرف القرآن وعلوه وحفظه، وذلك بالأمر الذي قد ثبت واستقر أبلغ منه بما يحدث ويكون، نعم الوجه في هذا ـ والله أعلم ـ أن القرآن الذي في اللوح المحفوظ هو القرآن الذي في المصحف، كما أن الذي في هذا المصحف هو الذي في هذا المصحف بعينه، سواء كان المحل ورقا أو أديما أو حجرا أو لخافا، فإذا كان من حكم الكتاب الذي في السماء أن لا يمسه إلا المطهرون، وجب أن يكون الكتاب الذي في الأرض كذلك؛ لأن حرمته كحرمته ـ أو يكون الكتاب اسم جنس يعم كل ما فيه القرآن، سواء كان في

---

(١) انظر هذين القولين المشهورين بأدلتها في المراجع الآتية: أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٥٥٥، المغني ١/ ٩٨، شرح العمدة ١/ ٣٨٢،١٤١ ـ ٣٨٦، المجموع ٢٣/ ٥٧، تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩٨-٢٩٩، الإنصاف ١/ ٢٢٣، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ١٤٦-١٤٧، حاشية البجيرمي ١/ ٤٧، كشاف القناع ١/ ١٣٥، فتح القدير للشوكاني ٥/ ٢٠٣.

(٢) ومن أحسن ما كتب حول الأحكام الفقهية المتعلقة بالقرآن الكريم الأطروحة العلمية للدكتور: أحمد سالم ملحم، وهو بعنوان: "فيض الرحمن في الأحكام الفقهية المتعلقة بالقرآن" مطبوع، وفيه بعض الأخطاء العقدية.

السماء أو في الأرض»[١].

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «ولم يختلف فقهاء الأمصار بالمدينة والعراق والشام أن المصحف لا يمسه إلا طاهر على وضوء وهو قول مالك والشافعي وأبي حنيفة والثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي ثور وأبي عبيد وهؤلاء أئمة الفقه والحديث في أعصارهم وروي ذلك عن سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وطاووس والحسن والشعبي والقاسم بن محمد وعطاء قال إسحاق بن راهويه: لا يقرأ أحد في المصحف إلا وهو متوضئ»[٢].

وقال المباركفوري رحمه الله: «القول الراجح عندي قول أكثر الفقهاء وهو الذي يقتضيه تعظيم القرآن وإكرامه، والمتبادر من لفظ الطاهر في هذا الحديث هو المتوضئ، وهو الفرد الكامل للطاهر، والله تعالى أعلم»[٣].

ويجب تعظيم ما في المصحف لأن لهذه الآيات المعجزات حرمة[٤]، وقد «اتفق المسلمون على أن من استخف بالمصحف مثل أن يلقيه في الحش أو يركضه برجله إهانة له أنه كافر مباح الدم»[٥]، **ولشدة اهتمام العلماء بتعظيم المصحف يمثلون بالاستهزاء** به على الاستهزاء المكفِّر الذي يدل على أن من تعمده كان كافرا، وذلك بإلقاء المصحف بقاذورة، لأنه صريح في الاستخفاف بكلام الله تعالى[٦].

ولو عظم المصحف بغلاف من حرير، أو كيس من حرير جاز ذلك؛ لأن هذا من تعظيمه، وإن كان الحرير محرما لبسه إلا أن «وضع المصحف فيه إنما هو جعله لباسا للمصحف ووعاء له ليصان ويحفظ، وما شرع له الكسوة من شعائر الله جاز أن

(١) شرح العمدة ١/ ٣٨٤.

(٢) التمهيد ١٧/ ٣٩٧.

(٣) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ١/ ٤٥٦.

(٤) انظر: المجموع ١٥/ ١٠٢.

(٥) المجموع ٨/ ٤٢٥، وانظر: طبقات الشافعية ٨/ ٢٣٣ من قول العز ابن عبد السلام، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٧١٩.

(٦) انظر: مغني المحتاج ٤/ ١٣٦، دليل الطالب ١/ ١٠٤.

يكسى الحرير كالكعبة، وأولى؛ ولأن لباس الحرير إنما يكره للآدميين لما فيه من العظمة والسرف، وهذا أمر مطلوب لكتاب الله وبيته، والفرق بين هذا وبين الزخرفة أن الكسوة فيها منفعة للبيت والمصحف، فإذا حصلت بأشرف الثياب كان ذلك تعظيما لحرمات الله بخلاف الزخرفة فإنه لا منفعة فيها »(١).

فكل ما هو من التعظيم شرعا وعرفا فينبغي الأخذ به مادام لا يخالف العرفُ الشرعَ، ومن ذلك تعظيمه بوضعه في الأماكن التي تصان، وحفظه عن الأماكن المهانة.

ومن تعظيم المصحف ألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب علما كان أو غيره.

ومن حرمة المصحف ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب، فإن هذا من الجفاء، ومن ذلك وضع أوراقه وصحائفه منثورا على الأرض كالسُّفر ونحوها(٢).

ومن تعظيمه أن لا يتوسد، ولا يعتمد عليه ولا يرمى عند المناولة، وأن يكون له موضع يصان فيه؛ فلا يكون ممتهنا(٣).

ومن تعظيم المصحف منع تصغير هذا الاسم المعظم وهو **(المصحف)** وذلك لأن تصغيره يوهم النقص، ومن أجاز من السلف التصغير فلكونه من حيث الخط، لا من حيث كونه كلام الله تعالى(٤).

ومن تعظيم المصحف كتابته بخط واضح يقرأ، وأما كتابته بخط لا يقرأ فهذا مظنة لإهانته فيمنع منه، قال إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي: « كان يقال: عظموا القرآن، يعني كبروا المصاحف »(٥)، ولهذا كره السلف تصغير المصحف، خطا وكتابة،

---

(١) شرح العمدة ٤/ ٣٠٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن١/ ٢٨، الفروع١/ ١٥٨، شرح تنوير الأبصار١/ ١٧٧، كشاف القناع ١/ ١٣٦.

(٣) انظر: السنن الكبرى ٣/ ١٧١ (٤٨٩٠)، الجامع للقرطبي ١/ ٢٤، المبدع٣/ ٨١، الفروع١/ ١٥٨، الفتح ١/ ٦٨٨ (٤٨٠)، كشاف القناع ١/ ١٣٦، شرح تنوير الأبصار ١/ ١٧٧.

(٤) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٤٠، إعلام الموقعين ٣/ ١٧٩، حواشي الشيرواني ١/ ١٤٦.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الصلاة، باب: من كره أن يكتب القرآن في الشيء الصغير، برقم (٨٥٥٣)، وذكر آثارا أخرى، وانظر: المصنف لعبد الرزاق ٤/ ٣٢٣، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٤.

وقالوا: « ينبغي أن يكتبه بأحسن خط، وأبينه على أحسن ورقة، وأبيضه، بأفخم قلم، وأبرق سواد، ويفرج السطور، ويضخم الحروف »[١].

ومن تعظيم المصحف أنه يعتبر مشاعا ليس لأحد أن يتملكه على وجه المالية، ولهذا اختلف السلف في قطع يد السارق لو سرق مصحفا، فقال الشافعي وأبو ثور وأبو يوسف: تُقْطَعُ اليد به، وقال أبو حنيفة وأحمد: لا تُقْطَع به[٢].

ولهذه العلة اختلفوا في بيع المصحف، وقالوا: إن تعظيمه واجب وفي بيعه نوع ابتذال له[٣].

وكل ما يخالف التعظيم فإنه يحرم بالشرع، ونص عليه السلف ـ رحمهم الله ـ، ومن ذلك أنه يحرم تمزيق المصحف لأنه ازدراء به[٤].

وأما القيام للمصحف إذا أدخل على قوم في مجلس فلم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة الكرام، قال شيخ الإسلام: « لا نعلم في القيام للمصحف شيئا مأثورا عن السلف »[٥]، وجوزه بعضهم وقالوا هو كجواز القيام للعالِم، قالوا فالمصحف أولى بالقيام[٦].

ومعلوم أن القيام للعالِم مختلفٌ فيه[٧] لعدم ورود نص صريح فيه، فلا يقاس المصحف على العالِم لعدم وجود النص فيه صراحة، فكيف يثبت حكم بحكم مختلف فيه قياسا؟.

ثم القيام للعالِم قد يكون من باب العادة، كما هو الحال عند الناس في القيام لكبارهم

(١) حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٨٦، وانظر: مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٤٠، والمصنف لعبد الرزاق ٤/ ٣٢٣.

(٢) انظر الأقوال وأدلتها في: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٧٠، المجموع ٣١/ ٢١٢، الكافي ٢/ ٨، المبدع ٤/ ١٢-١٣، كشاف القناع ٦/ ١٣٠.

(٣) انظر: الروض المربع ٢/ ٢٩.

(٤) انظر: إعانة الطالبين ١/ ٦٨.

(٥) مختصر الفتاوى ص ٢٥٦، المجموع ٢٣/ ٦٥.

(٦) انظر: الدر النضيد في مجموعة ابن الحفيد ص ٤٧، إعانة الطالبين ١/ ٦٩.

(٧) انظر: فتح الباري ١١/ ٥٢ وما بعدها، عون المعبود ١٤/ ٨٥ وما بعدها.

وعظمائهم؟ وأما القيام للمصحف فلا يكون إلا عبادة ولا تثبت العبادة إلا بنص(١).

وهل تحلية المصحف من التعظيم؟ قال أبو الحسن علي بن محمد الزاغوني(٢): «يحرم كتبه بذهب لأنه من زخرفة المصاحف ويؤمر بحكه...»(٣).

وقال شيخ الإسلام: «هذه الزخارف الظاهرة ـ أي تحلية المصحف وزخرفة المساجد ـ التي لم تشرع، ويصحبها من الرياء والكبر والاشتغال عن المشروع ما يفسد حال صاحبها»(٤).

وهو لم ينقل من فعل الصحابة، مع أنهم أشد الناس تعظيما لكتاب الله ﷻ، وتوقيرا لكلامه، وتبجيلا للمصحف، بل المنقول عنهم كراهية تحلية المصاحف(٥).

وأما حرق المصحف لضرورة أو حاجة فجائز، لأن في حرقه حفظا له عن الإهانة، وفي تركه مع عدم الحاجة إليه ـ لكونها كتبت خطأ أو محرفة ـ إهانة لها من حيث إنها قد تداس أو غير ذلك، ولذلك حرق عثمان رضي الله عنه المصاحف التي كانت عند الصحابة، وفيها ما هو منسوخ، وما هو تفسير، وجمعهم على المصحف الذي توفي رسول الله ﷺ وهو الباقي المحكم من القرآن وهذا بإجماع الصحابة.

قال علي رضي الله عنه: **[يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم حرّاق المصاحف فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ]**، وقال: «لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان»(٦).

---

(١) انظر: كشاف القناع ١/ ١٣٨، وكذلك نقله ابن الحفيد عن العز بن عبد السلام، كما في الدر النضيد ص٤٨.

(٢) هو العلامة شيخ الحنابلة: علي بن عبد الله بن نصر بن عبيد الله بن الزاغوني البغدادي، صاحب التصانيف، توفي سنة ٥٢٧هـ. انظر: السير ١٩/ ٦٠٥.

(٣) كشاف القناع١/ ١٣٧، وانظر: المهذب١/ ١٥٨، فتاوى ابن الصلاح ص٨٢٣، الجامع لأحكام القرآن١/ ٢٤، والفروع١/ ١٥٩، الكافي ١/ ٣١٠.

(٤) الاقتضاء ١/ ٢٩٦، بتصرف.

(٥) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٦٢، ٦/ ١٤٩، سنن سعيد بن منصور ٢/ ٤٨٥ (١٦٤)، الفتح ٢/ ٥٣٤، التلخيص الحبير ٢/ ١٧٧، خلاصة البدر المنير لابن الملقن ١/ ٣٠٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٠، وانظر: علل الدارقطني ٣/ ٢٢٩، الفتح ٨/ ٦٣٧، تحفة الأحوذي ٨/ ٤١١.

قال ابن بطال[١] رحمه الله: «وفي أمر عثمان بتحريق المصحف والمصاحف حين جمع القرآن، جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى، وأن ذلك إكرام لها، وصيانة عن الوطء بالأقدام وطرحها في ضياع من الأرض»[٢]، وقال ابن الجوزي: «ذلك لتعظيمه وصيانته»[٣]. ومن **هذا يعلم** أن حرق المصحف لغير حاجة شرعية، مخالف للتعظيم، بل يكون إهانة له[٤]، وإذا أمكن أن لا يبقى للكلام أثر بالمحو ونحوه فهو حسن[٥]، **وأما دفنه** إذا بلي فليس فيه شيء ثابت عن الصحابة والتابعين، ولكن جوزه بعض الحنفية وقالوا: إن ذلك من تعظيم كلام الله تعالى[٦]، ولكن الإحراق أو المحو أولى لأنه يتأكد به عدم الإهانة، وحتى لا تكون بالدفن عرضة للدوس بالأقدام[٧].

وبهذا القدر كفاية لمن اعتبر، على أن السلف مهتمون بتعظيم المصحف كما قد مر، **وأعظم تعظيم للمصحف** قراءته، والعمل به[٨]، ومن تعظيمه صونه عن الأماكن النجسة، وهذا ما أبينه في المطلب الآتي.

---

(١) هو المحدث الفقيه المالكي: محمد بن بطال بن وهب بن عبد الأعلى التميمي، رحل من الأندلس إلى مكة وأخذ عن ابن الأعرابي وغيره، وكان كثير الرواية والدراية، توفي بلورقة في الأندلس سنة ٣٦٦هـ. انظر: الديباج المذهب ص٤١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٠، وانظر: الفروع ١/ ١٦٠، تحفة الأحوذي ٨/ ٤١١، فتاوى الدين الخالص ١/ ١٧٤.

(٣) كشاف القناع ١/ ١٣٧.

(٤) انظر: حواشي الشيرواني ١/ ١٥٦.

(٥) انظر: الفتح ٨/ ٦٧٣.

(٦) انظر: حاشية ابن عابدين ٦/ ٤٢٢، شرح تنوير الأبصار ١/ ١٧٧.

(٧) انظر: تاريخ بغداد ٦/ ١١٤.

(٨) وقد سبق الكلام على هذه المسائل في المبحث الثاني من الفصل الثالث.

المطلب الثاني: حكم الدخول بالمصحف في الأماكن النجسة.

الدخول بالمصحف إلى الأماكن القذرة **والنجسة خلاف التعظيم الذي أمرنا الله به فيما يتعلق بحرماته، قال** ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠]، **ولا شك أن من أعظم حرمات الله** ﷻ **ما يتعلق بذاته وأسمائه وصفاته، وأحكامه وشرعه.**

ولهذا فلا يدخل بالمصحف إلى الحشوش، والحمامات، وأماكن القذارة، ولا يجوز أن يدخل في أماكن اللهو واللعب فهذا فيه نوع توهين له، إلا إذا كان هناك ضرورة كخوفه من ضياعه[(١)]، فلا «يحمل في الخلاء ذكر الله تعالى... من قرآن، أو غيره... تعظيما له...، وتحريم إدخال المصحف ونحوه، الخلاء من غير ضرورة إجلالا له، وتكريما»[(٢)].

«ويحرم كتب شيء من القرآن والحديث... بمتنجس»[(٣)].

وأما إن كان على موضع من بدنه نجاسة، فإنه لا يجوز له مس المصحف بهذا الموضع، حتى لا يلامس النجاسة المصحف[(٤)].

وإلقاء المصحف في القاذورات لا يكون من مؤمن، بل يكون فاعل ذلك كافرا بهذا الفعل إجماعا، إذا كان متعمدا[(٥)].

ومن الأماكن التي هي مظنة النجاسة بلاد الكفار، إذ هم لا يتطهرون، وهم كما قال ﷻ عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[الحج:٢٨] فلهذا لا

---

(١) انظر: المنهج القويم للهيثمي ص ٦٤، إعانة الطالبين ١/ ١٠٩، التاج والإكليل ٦/ ٢٦٩، كشاف القناع ١/ ٥٩، سبل السلام ١/ ٧٣، نيل الأوطار ١/ ٩٠.

(٢) مغني المحتاج ١/ ٤٠.

(٣) حاشية البجيرمي ١/ ٤٩.

(٤) انظر: حلية العلماء ١/ ١٥٨، الكافي ١/ ٤٨.

(٥) انظر: طبقات الشافعية ١/ ١٢٨.

يمكنون من المصحف، «ويحرم بيع المصحف لكافر، ولا يصح، لما فيه من الإهانة»[(١)]، ويخشى أن يمتهنوه، وأن يسيئوا استخدامه.

ولهذا لا يجوز السفر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن تناله أيديهم، كما قال ابن عمر ﷺ: [**إن رسول الله ﷺ نهى أن يُسافر بالقرآن إلى أرض العدو**][(٢)].

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «أجمع الفقهاء أن لا يسافر بالمصحف في السرايا، والعسكر الصغير المخوف عليه، واختلف في الكبير المأمون عليه...، واستدل به ـ أي بالحديث السابق ـ على منع بيع المصحف من الكافر، لوجود المعنى المذكور فيه، وهو التمكن من الاستهانة به، ولا خلاف في تحريم ذلك»[(٣)]؛ فدل هذا على أن السفر بالمصحف إلى أرض العدو محرم إذا خُشي على المصحف[(٤)]، ومن ذلك الأماكن التي فيها الغلبة للكفار، والبلاد بلاد كفر وشرك، فإن حمل المصحف إلى مثل هذه البلدان والدخول إليها مظنة لأن يقع بأيدي المشركين، وهذا منهي عنه، ويشتد إذا كانوا أهل حرب، فإنهم أشد بغضا للمسلمين، ولكتابهم؛ فيهينون كتاب الله ﷻ[(٥)].

ولأن حمل المصحف إلى بلاد الكفار قضية مهمة، ـ خصوصا في العصر الحاضر من أجل الدعوة، وتسهيل مهمة الداعية ـ أنقل هذه الفتوى من فتاوى اللجنة الدائمة، **وهذا مفادها: «هل يجوز حمل المصحف إلى بلاد الكفر؟**.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد: حمل المسلم المصحف ـ القرآن الكريم ـ إلى بلاد الكفر من المسائل التي اختلف الفقهاء في حكمها: فقال جماعة منهم بجواز حمله إلى بلادهم، وقال آخرون بمنع ذلك، لنهي النبي ﷺ

---

(١) إعانة الطالبين ٤/ ٢٨٢، وانظر: المهذب ١/ ٢٦٧، وحاشية ابن عابدين ١/ ١٧٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب/ كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، ح(٢٩٩٠)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه بأيديهم، ح(١٨٦٩)، وزاد مسلم: [**مخافة أن يناله العدو**].

(٣) الفتح ٦/ ١٥٦.

(٤) انظر: المبسوط ١٠/ ٢٩، البحر الرائق ٥/ ٨٣، المغني ١/ ٢٠٤، ١٣/ ٢٥١.

(٥) انظر: المغني ١/ ٩٩، فتاوى الدين الخالص ٢/ ١٠١-١٠٢.

عن السفر به إلى بلادهم خشية أن يمتهنوه، أو يحرفوه، أو يشبهوا على المسلمين فيه...، وقال آخرون يجوز حمله إلى بلادهم للبلاغ وإقامة الحجة عليهم، وللتحفيظ والتفهم لأحكامه عند الحاجة إذا كان للمسلمين قوة، أو سلطان، أو ما يقوم مقامهما من العهود والمواثيق، ونحو ذلك مما يكفل حفظه ويرجى معه التمكن من الانتفاع به في البلاغ والحفظ والدراسة، ويؤيد ذلك ما ورد في آخر حديث النهي عن السفر به إلى بلادهم من التعليل، وهذا الأخير هو الأرجح، لحصول المصلحة مع انتفاء المفسدة التي خشيها النبي ﷺ »[(١)].

وبهذا يتبين أن امتهان المصحف بأي وجه محرم، وأن تعظيم المصحف واجب، ومن تعظيمه اعتقاد أنه آية من آيات نبينا محمد ﷺ ومعجزة من معجزاته، وهذا ما سأجليه في الفصل الآتي.

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ٤/ ٤٢-٤٣، بتصرف يسير.

الفصل الخامس

بيان أن القرآن آية لنبينا محمد ﷺ

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الآية، وكون القرآن معجزا، وفيه ثلاثة مطالب.

المبحث الثاني: أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مطالب.

المبحث الأول: تعريف الآية، وكون القرآن معجزًا

المطلب الأول: تعريف الآية لغة واصطلاحا، وإطلاقاتها القرآنية.

أولا: تعريف الآية لغة.

الآية لغة معناها العلامة، تقول هذه آية مأياة، أي: علامة مَعْلَمَة[(١)]، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[يس:٣٣] أي علامة معلمة لهم تدل على ألوهية الرب عزوجل، وأنه المعبود بحق، وأن البعث كائن لا محالة[(٢)].

وتطلق الآية ويراد بها الجماعة من الناس كما قال الشاعر:

خرجنا من النقبين لا حيَّ مثلنا ... بآياتنا نزجي المَطِيّ المَطافِلا[(٣)]

وقيل منه آي القرآن «لأنها جماعة حروفٍ، والجمع: آيٌ»[(٤)]، ويجمع على (آيايٌ) و (آياتٌ)[(٥)]، وجمع الجمع (آياءٌ)[(٦)]، وقيل: «سميت الآية من القرآن آية لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام»[(٧)]، وقيل الآية من القرآن علامة مفضية إلى غيرها كأعلام الطريق تهدي السبيل[(٨)]، وقيل: «سميت آية لأنها عجب، يعجز البشر عن

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ص ١٠٢-١٠٣، ومفردات القرآن ص ٤١، مختار الصحاح ص ٣٧، لسان العرب ١/ ٢٨٢، القاموس المحيط ٤/ ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم ١/ ٧.

(٢) انظر: فتح البيان ٨/ ٢٠.

(٣) انظر: مقاييس اللغة ص ١٠٣، لسان العرب ١/ ٢٨٢، والأبيات من نظم برج بن مسهر.

(٤) انظر: مقاييس اللغة ص ١٠٣، مختار الصحاح ص ٣٧، لسان العرب ١/ ٢٨٢، تفسير القرآن العظيم ١/ ٧.

(٥) انظر: مختار الصحاح ص ٣٧، القاموس المحيط ٤/ ٣٢٢.

(٦) انظر: لسان العرب ١/ ٢٨١، ٢٨٣، القاموس المحيط ٤/ ٣٢٢.

(٧) لسان العرب ١/ ٢٨٢.

(٨) انظر: لسان العرب ١/ ٢٨٢.

التكلم بمثلها»(١).

والظاهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن الآية في القرآن تجمع هذه المعاني كلها، ولا تضاد بينها، فإن الآية في القرآن إما أن تكون علامة على التوحيد، أو البعث، أو النبوة، أو الأحكام، وهي هادية إلى الإيمان بهذه الأمور، وهي في نفسها مجموعة حروف وكلمات تامة المعنى، عجيبة المبنى، فهي آية بمعنى الكلمة، تامة جامعة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الآية هي العلامة، وهي ما تستلزم بنفسها لما هي آية عليه، من غير توسط... كالشعاع فإنه آية للشمس، والدخان للنار...، فيعلم من ثبوت الآية ثبوت لازمها»(٢)، «والآية مثل العلامة والدلالة»(٣).

فكلامه رحمه الله يبين أن الآية وهي العلامة تدل بنفسها لما هي سيقت له، ونصبت من أجله، فالقرآن آية للنبي ﷺ، بمعنى أنه عجب، وآية له بمعنى أنه في نفسه تام لا يحتاج إلى آية أخرى، وآية لكونه دالاً على التوحيد والمعاد والنبوات، وآية لكونه هاديا للبشر، وهو آية للنبي ﷺ.

ثانيا: تعريف الآية اصطلاحا.

وليس المراد من التعريف آياتُ القرآن التي منها السور، بل المراد بالآية آيات الأنبياء، **والسلف الصالح** ـ رحمهم الله تعالى ـ كانوا يعرفون آيات النبي ﷺ ومنها القرآن، بهذا الاسم وهو الآية، ولفظ الآيات كثير في القرآن(٤)، وجاء المتأخرون باصطلاح المعجزة بدلا عن ذلك، مع أن الاصطلاح الذي دل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف أدل على المعنى، وأوضح في المبنى، فكان بالاتباع أولى؛ **لأنه** «ليس في الكتاب والسنة تعليق هذا الحكم بهذا الوصف، بل ولا ذُكِر خرق العادة، ولا لفظ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٨.

(٢) المجموع ٢/ ٧٤.

(٣) المجموع ٢/ ١٧٩.

(٤) انظر: الجواب الصحيح ٥/ ٤١٤، ٤١٩.

المعجز، وإنما فيه آيات وبراهين»[١]، ولهذا اخترت اسم الآية بدلا عن المعجزة، والمعجزة أعم من الآية لأنها تشمل كل خارق.

قال شيخ الاسلام رحمه الله: «اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره، ويسمونها: الآيات»[٢]، وإن كان في العرف الغالب إذا قيل آية فالمتبادر هو آيات سور القرآن، والآية ليست مختصة بالقرآن دون غيره[٣].

وكلام أهل العلم في تعريف الآية دائر حول هذه المعاني:

الآيات؛ هي الأدلة المستلزمة للصدق[٤]، **وقيل**: «حدها أن تدل على المطلوب»[٥]، **وقيل** الآية هي: الحجة[٦]، **وقيل** الآية هي: المعجزة، بل المعجزة أخص منها، وقالوا في تعريف المعجزة، هي: الأمر الخارق للعادة، داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوى النبوة[٧].

والذي يظهر أن التعريف الجامع والمانع هو أن يقال:

الآية هي العلامة المستلزمة للصدق، الخارجة عن قدرة المكلفين، وهذا التعريف جامع لأنه يجمع جميع أنواع الآيات، سواء كانت دالة على التوحيد، أو التي تدل على صدق النبي، أو التي تدل على حكم الله ﷻ، **وأيضا هو مانع**: لأن الخوارق التي يظهرها الشياطين والكهنة والسحرة والمشعوذون ليست من الآيات في شيء، لأنها من الأمور التي يمكن لآحاد المكلفين من الإنس والجن أن يفعلوها، بخلاف الآيات الآفاقية

---

(١) النبوات ص ٥٩.
(٢) المجموع ١١/ ٣١١.
(٣) انظر: الفصول في الأصول ٢/ ٢٥٧.
(٤) انظر: مفردات القرآن للراغب الأصبهاني ص ٤١، النبوات ص ٥٨، ١٨٦، ٣١٥.
(٥) النبوات ص ٣٠٩.
(٦) انظر: المجموع ١٢/ ١٧.
(٧) التعريفات للجرجاني: ص ٢١٩.

والأرضية، والآيات المتلوة، فإن البشر لا يقدرون على الإتيان بمثلها، **فالإعلام بالغيوب**، والإتيان بالشرائع التي تُصلح أحوال البشر، وإحياء الموتى، وشق القمر، وقلب العصا حية، كل ذلك مستلزمة للصدق الذي من أجله جيء بها، ولا يقدر عليها البشر، «فآية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة، بمعنى أنها ليست معتادة للآدميين»(١).

والآية إما أن تكون من جنس العلم كالقرآن، أو القوة كفلق البحر، أو الغنى النافي للافتقار، و«صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى...، وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده، فإنه الغني الذي أحاط بكل شيء علما، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين»(٢).

فكل ما كان من هذه الأمور خارجًا عن وسع الإنسان فهي آية، وقد أُمِر النبي ﷺ أن يتبرأ من هذه الثلاثة، كما قال ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[الأنعام:٥٠] فهو ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يقدر على خزائن الله، ولا هو ملَك غني عن الأكل والمال(٣).

وأمر الآيات إلى الله ﷻ، وهو الذي ينـزل الآيات متى شاء، ويريها متى شاء ﷻ.

والآيات المعجزات، التي هي الحجج الباهرات، تارة تعلم بالأخبار المتواترات، وإن لم نشاهدها بالأعين الباصرات، ولم نشاهد آثارها المَعْلَمات، كعصا موسى ﵇ وناقة صالح ﵇، وتارة تشاهد بالعيان كالقرآن، وتارة تشاهد بآثارها الدالة عليها، كإهلاك الله لعاد وثمود وإبقاء آثارهما(٤).

ثالثا: إطلاقاتها القرآنية؛ سبق أن عرفت الآية تعريفا جامعا عاما شمل أنواعا من الآيات، فلزم أن أبين أنواع الآيات الواردة في المنـزل من البينات:

---

(١) النبوات ص ٣٠، وانظر: النبوات ص ٤٧٢.
(٢) المجموع ١١/ ٣١٢.
(٣) انظر: المجموع ١١/ ٣١٣.
(٤) انظر: النبوات ص ١٨٧.

إن لفظ الآية أطلق في القرآن الكريم على الآيات المتلوة التي هي كلام الله ﷻ، وهو غير مخلوق، كما سبق[١]، وأطلقت على الآيات المخلوقة[٢]، ومن الأمثلة على إطلاقاتها على الآيات المتلوة قوله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:١٠٦] فالمراد بالآية هنا الآيات المتلوة التي هي من كلام الله ﷻ، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت:٥٠-٥١] فبين الله ﷻ أن أعظم الآيات هو هذا القرآن المتلو، الذي هو كلام الرحمن، رحم به الخلق؛ فبين لهم ما فيه صلاحهم، وما فيه سبب لإيمانهم، وحصولهم على رحمة ربهم.

ومثال إطلاقها على الآيات المخلوقة، قوله ﷻ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[البقرة:٢٥٩]، وقوله ﷻ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾[الأعراف:٧٣]، وهذه خارجة عن قدرة المكلفين، وهي آيات بينات للمبصرين، شاهدة على صدق ما دعا إليه الأنبياء والمرسلون، وهي مخلوقة لله رب العالمين.

وتطلق الآية في القرآن الكريم على أنها آية لله تعالى، وتارة آية للرسل، وتارة آية للشرع، فتكون إطلاقاتها على ثلاثة أضرب بحسب دلالتها وما سيقت من أجله:

١ ـ ما يدل على وحدانية الله ﷻ، فهي آية لله تارة، وكل حادث فهو من آيات الله الدالة عليه، ودلالتها على الله دلالة تامة وكاملة[٣]، فالله ﷻ جعل هذه الآيات «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، والله قد أخبر في كتابه أنه يجعل في هذه المصنوعات آيات»[٤]، كما قال ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِى

(١) انظر: الفصل الأول من الباب الأول.

(٢) انظر: المجموع ٢/ ٢١٥، والنبوات ص ٤٤٧.

(٣) انظر: النبوات ص ١٥٨، ٢٧٨، ٣٢١.

(٤) المجموع ٢/ ١٧٩.

خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:١٦٣-١٦٤] فآيات الله تدل على نفسه، وصفاته سبحانه وتعالى، كما نطق بذلك كتابه(١).

٢ ـ ما سيق من أجل الدلالة على صدق النبي، فـ «آيات الأنبياء كما قد عرف هي مستلزمة لثبوت النبوة»(٢)، وما يدل على النبوة فهو آية وبرهان عليها(٣)، ومن الأمثلة على هذا قوله ﷺ مخبرا عن عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[آل عمران:٤٩-٥٠].

٣ ـ ما سيق للدلالة على أمر الله وشرعه، وبيان أحكامه ودينه، والقرآن أغلبه لبيان هذا الأمر، وهو أبين من أن يضرب له الأمثلة.

ويطلق في القرآن اسم الآية على المتلوة منها والمشاهدة(٤)، وهذه باعتبار معرفتها ترد على نوعين:

الأول: الآيات المتلوة؛ وهي الكتب الإلهية التي أنزلت على الرسل، حيث فيها الشرائع المحكمة، والهدايات المتقنة، ومن أجلّها القرآن الكريم، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[البقرة:٩٩]، وقال ﷻ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ

(١) انظر: المجموع ٢/ ١٨٠.
(٢) النبوات ص ٤٠٤، وانظر منه: ص ٣٨١.
(٣) انظر: النبوات ص ٣٠.
(٤) انظر: المجموع ١٤/ ١٩٠

نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[البقرة:٢٥٢] فآيات القرآن من الآيات المتلوة التي حفظها الله ﷻ آية بينة، وحجة قاطعة متلوة.

الثاني: الآيات المشاهدة، وهي ما سوى المتلوة، وهي كثيرة في القرآن، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٠-٢٥] فهذه كلها آيات مشاهدة لكل ذي بصر وبصيرة.

وقد توصف الآيات في القرآن بأنها كبرى، وآيات أخرى أصغر منها:

فلله تعالى آية كبيرة، وصغيرة[(١)]، قال ﷻ عن نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[النجم:١٨]، وقال عن نبيه موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾[طه:٢٣] وقال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[النازعات:٢٠] وقال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾[الزخرف:٤٨].

وتطلق الآية مضافة إلى الله، وتارة غير مضافة؛ فمن المضاف إلى الله ﷻ ما ورد في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾[البقرة:٢٣١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[آل عمران:٤].

ومما جاء غير مضاف ما ورد في قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[آل عمران:٥٨].

---

(١) انظر: النبوات ص ٣٢٢.

وأما إطلاق الآية على المعاني المختلفة في القرآن فهذا كثير، وإن كان جلها، ومدارها على معنى الآية اللغوي، وهو العلامة، فمما أطلق لفظ الآية عليه: والمراد بها **العلامة**، قوله ﷻ: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[آل عمران:٩٧] أي: «بمعنى: فيه علامات بينات»[١].

وأطلقت الآية على الآية من السورة: فسور القرآن مكونة من آيات؛ لأنها مجموعة أحرف وكلمات، تامة المباني، مرتبطة المعاني، وإذا أطلقت الآية فالمتبادر إلى الذهن في عرف الاستعمال الآيات من السور[٢]، ومما ورد إطلاق الآي على آيات سور القرآن الكريم، ما جاء في قوله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[البقرة:١٠٦] وفي قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[النحل:١٠١]، فالمراد بالآية في الموضعين ما نزل من القرآن مما فيه أمر ونهي، ثم نسخت، فبين الله وجه الحكمة من النسخ فيها[٣].

وأطلق لفظ الآية على الحق، وعلى البينات، وعلى السلطان، وعلى البرهان، وعلى الفرقان، وعلى الحجة، وعلى الشاهد[٤]، **وتطلق لفظ الآية على الأمر العجب**[٥]، **وعلى العبرة، وعلى الأمارة**[٦]، وهذه كلها ترجع في بعض معانيها إلى العلامة، ولا شك أن من أعظم ما أنزل من أجله القرآن كونه حجة، وبينة، وبرهانا، وسلطانا لنبينا محمد ﷺ، وأشرع الآن في بيان ذلك.

---

(١) جامع البيان ٣/ ٣٥٧.

(٢) انظر: الفصول في الأصول ٢/ ٢٥٧.

(٣) انظر: معالم التنـزيل ١/ ١٣٣.

(٤) انظر: موقف العقل والعلم والعالم ١/ ٤٩.

(٥) انظر: النبوات ص ٢٩٠.

(٦) انظر: لسان العرب ١/ ٢٨٢.

المطلب الثاني: الدليل على كون القرآن آية.

من عقيدة السلف أن القرآن الكريم آية لنبينا محمد ﷺ، ودليل على نبوته، بل هو أعظم الآيات الدالة على صدق نبوته ﷺ، فالقرآن آية الرسول ﷺ، وبرهانه على صدقه، ونبوته(١)، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ـ قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد:٩] فهذه الآيات المنـزلة هي المتلوة من القرآن، وهي آيات للنبي ﷺ، «والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب على معارضته، فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم»(٢).

٢ ـ أوضَحَ الله ﷻ أن هذه الآيات المتلوة دليل على أن محمدا ﷺ مرسل من ربه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة:٢٥٢] وقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[الجاثية:٦] وقال: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[آل عمران:٥٨] وهذه الآيات من القرآن، «والقرآن نفسه هو قول الله، وفيه شهادة الله، بما أخبر به الرسول، وإنزاله على محمد، **وإتيان محمد به هو آية**، وبرهان، وذلك من فعل الله، إذ كان البشر لا يقدرون على مثله، لا يقدر عليه أحد من الأنبياء، ولا الأولياء، ولا السحرة، ولا غيرهم»(٣).

---

(١) انظر: أصول السرخسي ص ٢٨٢، المستصفى للغزالي ص ١١٥، المجموع ١٧/ ٤٥.

(٢) النبوات ص ١٨٨-١٨٩.

(٣) الجواب الصحيح ٤/ ٤٠٨.

٣ ـ أخبر الله ﷻ أن من لم يؤمن بهذه الآيات المتلوة فهو مُكَذِّبٌ بأعظم آية للرحمن، دالة على صدق نبيه محمد ﷺ وهو القرآن، كما قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[الأنعام:٤-٥] وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنعام:٢٤] لما ثبت أن القرآن آية دالة على صدق نبوة محمد ﷺ ما كان من الكفار إلا الإعراض بالدعاوى الباطلة وقولهم: إن هذا إلا أساطير الأولين، مع أن هذا القرآن مختص بالنبي ﷺ، لا يمكن لأحد أن يأتي به غيره، وكان ذلك برهانا بينا على أن الله أنزله، وأنه نزل بعلم الله[(١)].

٤ ـ لما أرد الكفار المعاندون للنبي ﷺ الآيات، وطلبوها بصريح العبارات، أتاهم الجواب بهذه الآيات البينات، مبينا أن القرآن من أعظم الدلائل الواضحات، الدالة على صدق نبوة محمد ﷺ، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، وقال الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۝٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[الرعد:٢٧-٣١]

(١) انظر: المجموع ١٥/ ١٠٧.

فالقرآن فيه آيات بينات، واشتماله على ذلك بين لمن تأمله، « فإن مدلول الآيات سواء سميت معجزات، أو غيرها، هو الخبر الصادق بنبوة النبي، ومدلولها إخبار الله، وشهادته بأنه نبي، وأن الله أرسله، فقول الله: محمد رسول الله، وقوله: إني رسول الله إليكم، وقول كل مؤمن: إنه رسول الله، **كل ذلك خبر عن رسالته، وهذا هو مدلول الآيات**، وقد يكون مدلول الآيات، نفس النبوة التي هي مخبر هذا الخبر، ويكون الدليل مثل خبر من الأخبار، وهذا من جنس الأول، فما دل على نفس النبوة دل على صدق المخبر بها، وما دل على صدق المخبر بها دل عليها، وأما نفس إخبار الرب بالنبوة وإعلامه بها، وشهادته بها قولا وعملا، فهو إخبار منه بها، وهو الصادق في خبره، فإخباره هو دليل عليها، فإنه لا يقول الا الحق، ولا يخبر الا بالصدق »[(١)].

٥ ـ بين الله ﷻ، أن القرآن آية يشهد بذلك العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، الذين لا يكتمون خبر الله، « فبين أن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، فإنه من أعظم الآيات البينة، الدالة على صدق من جاء به، وقد اجتمع فيه من الآيات ما لم يجتمع في غيره، فإنه هو الدعوة، والحجة، وهو الدليل، والمدلول عليه، والحكم، وهو الدعوى، وهو البينة على الدعوى، وهو الشاهد والمشهود به »[(٢)]، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء:١٩٦-١٩٧] وإذا لم يتعظ الناس بآيات القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، فلا يتعظون بشيء غيره، ولو جاءهم ما جاء، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾[الروم:٥٨] فالقرآن آيات متنوعة؛ آيات تدل على الله، وآيات للنبي ﷺ، وآيات تدل على ما أراد الله، فهي آيات من وجوه متعددة[(٣)].

٦ ـ نبه الله ﷻ « على أعظم الآيات، وأدلها على صدق رسول الله ﷺ، وهو

---

(١) النبوات ص ٣٤٥.

(٢) المجموع ١٤/ ١٩٠.

(٣) انظر: النبوات ص ٢٦٤، ٢٨٨.

الكتاب الذي يتضمن بيان كل شيء، ولم يفرط فيه من شيء»[1]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام:٣٧] وقال: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت:٥٠-٥١] قال الحافظ ابن كثير ﷺ: « يقول تعالى مخبرا عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات يعنون ـ أنها ـ ترشدهم إلى أن محمدا رسول الله، كما أتى صالح ﷺ بناقته، قال الله تعالى: قل يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم لأن هذا سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك...، ثم قال تعالى ـ مبينا كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد رسول الله ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، **الذي هو أعظم من كل معجزة**، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه ـ فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء:١٩٦-١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[طه:١٠٣]»[2].

٧ ـ أن الله أقام الحجة بهذا القرآن، فدل على أنه آية كافية للإنذار، كما قال ﷻ:

---

(١) شفاء العليل ١/ ١١٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤١٨، وانظر: زاد المسير ٦/ ٢٧٩.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩] فالحجة قائمة بهذه الآية العظيمة، التي أنزلت على النبي ﷺ، سواء علمها الناس، أم تجاهلوها، فمن «يقول من الكفار: إن معجزات الأنبياء غير معلومة له، وهذا لكونهم لم يعلموا السبب الموجب للعلم بذلك، والحجة قائمة عليهم، تواتر عندهم، أم لا»[1].

٨ ـ وثبت كون القرآن آية لمحمد ﷺ من جهة أنه لا يقدر أحد على الإتيان بهذا القرآن إلا الله، وكونه آية متحدى به[2].

٩ ـ يظهر كون القرآن آية وبرهانا لمحمد ﷺ، وأنه من خصائصه ﷺ، حيث أنزلت عليه[3]، لكون الموافق والمخالف يعلم، بل و«علمت الخاصةُ، والعامة من عامة الأمم، علما متواترا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن، وتواترت بذلك الأخبار، أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء، والملوك، والفلاسفة، وغيرهم»[4].

١٠ ـ أنه ﷺ لم يكن يعلم قبل الوحي شيئا، ثم جاء بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنـزيل من حكيم حميد، دل ذلك على أنه آية له على نبوته، وهو أمي لا يقرأ، ولا يكتب، ولم يتعلم من أحد[5]، قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[الشورى:٥٢-٥٣]، وقال: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[يوسف:١-٣].

---

(١) المجموع ٩/ ١٠٤.

(٢) انظر: المجموع ١٥/ ١٠٧، الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٢.

(٣) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٣٠٢، المجموع ١٥/ ١٠٦

(٤) الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٢.

(٥) انظر: هداية الحيارى ص ٦٠، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤١٧.

١١ ـ أن النبي ﷺ أخبر بأن القرآن آيته، كما قال ﷺ : [**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مِثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**]، وهو يقصد القرآن(١).

١٢ ـ أنه ﷺ أشار إلى أن الابتلاء والامتحان واقع بنـزول الوحي عليه، وهذا يدل على أن ذلك آية وحجة على الخلق، قال ﷺ مخبرا عن ربه: [**إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظانَ**]. «أي: لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل...، لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظا ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم»(٢).

وبهذا يعلم أن القرآن آية لنبينا محمد ﷺ، مختص به دون غيره، وهو آية وحجة، وهاد، ودليل، ومُتحدًّى به الخلائق أن يأتوا بمثله، وهو معجز في نفسه، وهذا ما أبينه في المطلب التالي.

---

(١) انظر: الفتح ٨/ ٦٢٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤١٧.

المطلب الثالث: الدليل على كون القرآن معجِز.

القرآن الكريم آية ظاهرة، وحجة دامغة، وعبرة واضحة لكل من أراد الوصول إلى صدق دعوى النبي ﷺ، وصدق ما دعا إليه، وكان كل نبي يبعث إلى قوم يكون معه آية تدل على نبوته، وتختص آيته بأعلى ما وصل إليه المرسَل إليهم من العلوم والتطور، والنبوغ فيه والظهور، فلما كان قوم عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ قد بلغوا في الطب مبلغا كبيرا، وقطع الناس في هذا الفن شأنا كبيرا، كانت آيته ومعجزته من جنس طبهم بما يخرق عادتهم، ويعجز عن إتيان مثله علماؤهم وعامتهم، وكان قوم نبينا محمد ﷺ وهم العرب، قد بلغوا في الفصاحة مجدها، وفي تنسيق الكلام شأوه، كانت آية محمد ﷺ من جنس هذه الفصاحة والبلاغة بما أعجز بلغاءهم، وأبلس عقلاءهم، وأخرس خاصتهم وعامتهم، ولكي أبين أن القرآن معجز سأورد أولا معنى المعجز، ثم أبين أدلة إعجاز القرآن الكريم.

أولا: معنى المعجِز.

المعجز اسم فاعل من أعجز الشيء يعجزه: إذا أعياه، وضعف عنه، وأعجزه الشيءُ: إذا فاته، وأعجزتُ زيدا: وجدته عاجزا، عن طلبه وإدراكه، ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الشورى:٣١] أي لا تعجزون الله تعالى إذا أراد عذابكم وبعثكم، والمراد أنهم لا يعجزون ربهم في شيء[(١)].

وعجَّزته تعجيزا: جعلته عاجزا، ويقال عاجَزَ فلانا: إذا ذهب فلم يوصل إليه، ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾[سبأ:٣٨][(٢)] والمعنى: ظانين أنهم يعجزوننا فلا نصل إليهم؛ لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون[(٣)].

والمعجِـَز (بالكسر على النادر، والفتح على القياس) مصدر، والمعجِـَزة (بفتح

---

(١) انظر: أضواء البيان ٦/ ١٦٩.

(٢) انظر: مقاييس اللغة ص ٧٣٩، المصباح المنير ص ٣٩٣، لسان العرب ٩/ ٥٨.

(٣) المفردات للراغب ص ٣٢٦.

الجيم، وكسرها، وبالهاء، وحذفها) مفعلة من العجز، فالمعجز والمعجزة مأخوذ من **العجز**؛ وهو الضعف والتأخر عن الشيء[(١)].

قال ابن فارس[(٢)] رحمه الله: «العين، والجيم، والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما: على الضَّعف، والآخر: على مؤخَّر الشيء»[(٣)]، وعلى هذا فالمعجز هو: الذي أعيا غيره، وأضعفه عن مجاراته، بحيث أصبح عاجزا ضعيفا لا يجاري.

والإعجاز في الكلام معناه: أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق[(٤)]، فإعجاز القرآن: ارتقاؤه إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته[(٥)]، والمقصود من الإعجاز بيان وحدانية الله، وأنه الرب المستحق للعبادة، وبيان صدق المرسَل، وبيان ما يجب للمرسِل.

ثانيا: بيان الأدلة التي تدل على أن القرآن معجز.

قد دل أمور عدة على أن القرآن آية معجزة، وحجة ساطعة، من وجوه متعددة، وهي:

١ - **أن الله تحدى الخلق أن يأتوا بمثله:** حيث دعا الله المعارضين لدعوة النبي ﷺ والمخالفين له والشاكين في نبوته، واستحثهم على أن يعارضوه، فعجزوا جميعا عن ذلك جملة وتفصيلا، فلما لم يستطع أحد نقضه، ومعارضته، ولن يستطيع، تيقنا أن القرآن معجز، وأن نبوة نبينا محمد ﷺ حق[(٦)] وقد كان هذا التحدي على مراحل عدة[(٧)]، وهي:

---

(١) المفردات للراغب ص ٣٢٥، لسان العرب ٩/ ٥٨.

(٢) هو اللغوي النحوي: أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين الرازي، لغوي مشهور، له مصنفات في اللغة، ومن أهمها: مقاييس اللغة، توفي سنة ٣٩٥هـ. انظر: السير ١٧/ ١٠٣، ومقدمة الشيخ عبد السلام هارون على مقاييس اللغة ص١١.

(٣) مقاييس اللغة ص ٧٣٨.

(٤) انظر: التعريفات للجرجاني ص ٣١.

(٥) انظر: الكليات ص ١٤٩.

(٦) انظر: إعجاز القرآن للخطابي ص ٢١-٢٢، إعجاز القرآن للباقلاني ص٤٢، الفرق بين الفرق ص ٢٥١ الأصبهانية ص ٤٧١، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٠-٦٢، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٢٣.

(٧) انظر: أحكام القرآن للشيخ ابن عثيمين ص ١١٦، جمع عبد الكريم المقرن.

أ- **تحدّيه إيّاهم بالإتيان بمثل القرآن:** لما نزل القرآن الكريم، على النبي ﷺ ادعى الكفار أن هذا أساطير الأولين، وأنه مفترى على الله، وليس هذا القرآن من عند الله، فتحداهم رب العالمين أن يأتوا بمثله إن كان هذا بقدرتهم، فقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:٨٨] وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[الطور:٣٣-٣٤] وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص:٤٨-٥٠] وكانت الدواعي على معارضته تامة من العرب وغيرهم، ولم يستطيعوا، فتبين عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، وهذا تعجيز لجميع الخلق[(١)].

ب- **تحدّيه إيّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثله:** لما ادعوا أن القرآن من افتراء محمد ﷺ، وهم من العرب البلغاء، والشعراء الفصحاء، وعجزوا عن التحدي الأول، فطلبهم أن يأتوا بعشر سور مثله، حيث قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[هود:١٣-١٤] فتحداهم بالإتيان بعشر سور مثله مفتريات، هم ومن معهم، فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور مثله، وظهر عجزهم، كان في مضمون تحديه أنه لا يقدر أحد على الإتيان بمثله من دون الله[(٢)]، وعلم القاصي والداني أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، وإنما هو منزل

---

(١) انظر: إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٨، الانتصار للعمراني ١/ ١٠٤، المجموع ١٢/ ٥٤٢، ١٧/ ٤٥ النبوات ص ٣٤٩، الجواب الصحيح ٥/ ٤١٠.

(٢) انظر: المجموع ١٥/ ١٠٦، الإعلام والاهتمام بفتاوى شيخ الإسلام أبي يحيى زكريا بن محمد الأنصاري ص٣٢٦.

من الله ﷻ، «ولا يقدر محمد ﷺ نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر»[(١)]، فعلم أنه من عند الله ﷻ.

ت- تحدّيه إيّاهم بأن يأتوا بسورة من مثله: لما عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور من مثل القرآن، وعلموا أنه لا يمكن محاكاته، ولا مجاراته، وبطلت دعواهم في أن القرآن من عند محمد ﷺ قالوا: القرآن مفترّى محمّدٍ، وقالوا معلمه بشر، فقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[يونس:٣٧-٣٨] وهذا كان في مكة، «فأخبر أن هذا القرآن ما كان ليُفتَرى من دون الله، وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفي... لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله...، فهذا تعجيز لجميع الخلق»[(٢)] ثم لما هاجر إلى المدينة، وسمع أهل الكتاب القرآن، وكابروا عن الإيمان، تحدى الله ﷻ الخلائق كافة، مشركهم وكتابيهم ومُنافِقهم، فجعل التحدي باقيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا التحدي عام في كل زمان ومكان، ولكل شاك وحيران، قال ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٢٣-٢٤] وقوله: فأتوا، الفاء جواب الشرط، وهو أمر معناه التعجيز[(٣)]، والمراد: ائتوا بسورة من مثل القرآن حقا وصدقا، لا باطل فيه، ولا كذب، مثله في البيان والفصاحة، وعلو الشأن، بلسان عربي مبين[(٤)].

---

(١) الجواب الصحيح ٥/ ٤٣١.

(٢) المجموع ١٣/ ٢٨٢.

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني ١/ ٦٤.

(٤) انظر: جامع البيان ١/ ٢٠١، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٠، الفتح ٨/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣، محاسن التأويل ١/ ٢٦٢.

ولم تقع المعارضة من أحد من الكفرة لا في أيام النبوة، ولا بعدها، لا من العرب ولا من غيرهم(١)، مع قوة عداوة الكفار له، وشدة حرصهم على عدم ظهوره، وقوتهم في البلاغة والفصاحة(٢)، ولن يطيق الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله أبدا(٣)، لأن آيات الرسل لا يقدر عليها لا جن ولا إنس، بل هي خارقة لعادة كل من أرسل النبي إليه، فكيف وآية محمد ﷺ هي كلام رب العالمين، الذي لا نظير لكلامه، كما لا نظير لذاته، ولا يمكن أحدا أن يعارضها بمثلها(٤).

---

(١) **فإن قيل: لا يُسلم أن القرآن لم يعارض! بل عورض، ولم يُنقل، أو نُقِل فأخفي فالجواب عليه من وجوه:** **الأول**: أنه يقال له ولجميع المرتابين في القرآن هذا لا يستقيم، لأنه يمكن أن يقلب بأن معجزات الأنبياء السابقين كموسى وعيسى أيضا عورضت، ولم ينقل، فلما كان هذا باطلا في إيراده على معجزتها فكذلك هو باطل في إيراده على معجزة نبينا ﷺ. **الثاني**: أنه لو عورض لما آمن به مخالفوه. **الثالث**: أنهم لو كانوا يستطيعون معارضته لعارضوه؛ لأن ذلك أيسر من الاقتتال الذي وقع منهم للمسلمين. **الرابع**: أنه لم يقع، ونقول ولن يقع، وإن كنت في شك فأت بسورة من مثله نظما ومعنى.(انظر: الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٢٥١ وما بعدها). **الخامس**: أن هذا لو وقع لنقل، كما نقل ما وقع من المعارضات، وباءت هذه المحاولات بالفشل الذريع، والعجز السريع، حيث أظهروا أنهم خواء، وعن مجاراة القرآن في عماء، **قال الحافظ ابن كثير**رحمه الله في تفسيره ١/ ٦٢: «وقد روينا عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يُسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة! فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ ففكر ساعة، ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليَّ مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبر! يا وبر! ـ دويبة صغيرة ـ، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر فقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟!، فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني لأعلم أنك تكذب»، وانظر: الجواب الصحيح ٥/ ٤٣٢، **ومن هؤلاء المحاولين المكذبين** ابن الراوندي، وأبو العلاء المعري كما في تلبيس إبليس ص ١٢١-١٢٢، وكذلك الطبيب الكندي حاول أن يؤلف آية كآيات القرآن، كما ذكر ذلك القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٣.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ١/ ٤٢٧، الأصبهانية ص ٦٢٥، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٢٤، فتح البيان ١/ ٨٧.

(٣) انظر: الجواب الصحيح ١/ ٤٢٦، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٠، فتح القدير للشوكاني ١/ ٦٥.

(٤) انظر: جامع البيان ١/ ٢٠٢، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص٣٠١-٣٠٢، الانتصار للعمراني ١/ ١٠٢، المحرر الوجيز١/ ١٠٦، النبوات ص ٢١٥، الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨-٤٣٥، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦١، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٢٨، نظم الدرر ١/ ١٥٩-١٧٠، فتح البيان ١/ ٨٧-٨٨.

قال **أبو جعفر ابن جرير الطبري** رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «وهذا من الله عز وجل احتجاج لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه من العرب، ومنافقيهم، وكفار أهل الكتاب وضلالهم... إياهم يخاطب بهذه الآيات، وضرباءهم، قال الله ـ جل ثناؤه ـ: وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابين في شك، ـ وهو الريب ـ مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ من النور، والبرهان، وآيات الفرقان أنه من عندي، وأنّي الذي أنزلته إليه، فلم تؤمنوا به، ولم تصدقوه فيما يقول، فأتوا بحجة تدفع حجته، لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه النبوة أن يأتي ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق، ومن حجة محمد ﷺ على صدقه، وبرهانه على نبوته، وأن ما جاء به من عندي عجز جميعكم، وجميع من تستعينون به من أعوانكم، وأنصاركم عن أن تأتوا بسورة من مثله، وإذا عجزتم عن ذلك، ـ وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والدراية ـ فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز، كما كان برهان من سلف من رسلي وأنبيائي على صدقه وحجته على نبوته من الآيات ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقي، فيتقرر حينئذ عندكم أن محمدا لم يتقوَّله، ولم يختلقه؛ لأن ذلك لو كان منه اختلاقا وتقولا لم تعجزوا وجميع خلقي عن الإتيان بمثله؛ لأن محمدا ﷺ لم يعدُ أن يكون بشرا مثلكم، وفي مثل حالكم في الجسم، وبسطة الخلق، وذرابة اللسان، فيمكن أن يظن به اقتدار على ما عجزتم عنه، أو يتوهم منكم عجز عما اقتدر عليه»[1].

والسلف يعتقدون أن القرآن نفسه معجز، ولو لم يظهر فيه التحدي، وذلك لكونه دالا على الله، وعلى نبوة محمد ﷺ وعلى الشرع المحكم المنيع[2].

٢- **إخباره بالغيوب**: ومما يدل على أن القرآن معجِز أنه يخبر بالغيب الذي لا يُطَّلع عليه[3]، «والخوارق ثلاثة أنواع: منها ما هو من جنس الغَنَاء عن الحاجات البشرية، ومنها ما هو من جنس العلم الخارج عن قوى البشر، ومنها ما هو من جنس

---

(١) جامع البيان ١/ ٢٠٠-٢٠١، وانظر منه ١/ ٢٠٣، وانظر: أصول السرخسي ص ٢٧٨.

(٢) انظر: النبوات ص ٢٠٠، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٢.

(٣) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٣٠٢.

المقدورات الخارجة عن قدرة البشر»[(١)].

والقرآن قد بلغ في العلم ما هو خارج عن قدرات البشر، وقواهم، حيث فيه الغيوب الماضية، بأحسن أسلوب، وأدق عبارة، وأصح سيرة، والغيوب الحاضرة في زمن نزول الوحي، كأنها فلق الصبح، والغيوب المستقبلية الشيء الكثير الذي وقع بعد وفاة النبي ﷺ، أو بعد قرون، يدل على أنه لا يمكن أن يكون من وضع البشر، وأن القرآن ـ لا ريب ـ معجزة خالدة.

ومن الغيوب الماضية التي أخبر الله ﷻ عنها، ما ذكره عن قصة مريم، ثم قال ﷻ بعدها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران:٤٤] وقال ﷻ بعد أن حكى قصة نوح ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود:٤٩] وقال ﷻ لما أخبر بقصة موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص:٤٤-٤٦] فأكد أن هذا الإخبار الذي جاءه في قصة موسى بالتفصيل الذي لم يُعهد، إنما هو من قبيل الغيب، إذ لم يكن شاهدا، ولا حاضرا، ولم يكن دارسا، ولا متعلما.

ومن الغيوب التي أخبر عنها القرآن، ووقعت في زمن النبوة، وفي حياة النبي ﷺ، ما جاء في إخبار الله ﷻ من غلبة الروم على الفرس، قال الله ﷻ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن

(١) الصفدية ١/ ١٨٣.

قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم:١-٦] وذلك أنه وقعت معركة بين الفرس والروم، فغلبت الفرس الروم، وقال المشركون من أهل مكة للمسلمين: إن الفرس غلبوا أهل الكتاب، وسنغلبكم إذا وقع بيننا وبينكم القتال، فأخبر الله ﷻ أن الروم ستغلب الفرس في سنوات، وأن المسلمين سيُنصرون في سنوات، وقد حصل الأمران: فانتصر الروم على الفرس في بضع سنوات، ثم هاجر المسلمون إلى المدينة وحصل بينهم وبين المشركين قتال فانتصر المسلمون في بدر، فتحقق وعد الله الذي لا يُخلَف للصادقين من المؤمنين(١).

ومن الغيوب المستقبلية التي وقعت بعد وفاة النبي ﷺ - وهي كثيرة - إخباره بأن أمر محمد ﷺ سيظهر، مع أنهم كانوا في مكة، وهم خائفون على أنفسهم، وقد ظهر دين الله في الأرض، كما قال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[الفتح:٢٨] وقد أظهر الله دينه على جميع الأديان، في مدة يسيرة، فكُسِّرت الأكاسرة، وقُصِّر قيصر، وأصبحت دولة الإسلام ورايتها في أرجاء المعمورة شرقا وغربا(٢).

٣-**تطابق أخباره**(٣): ومما يدل على كون القرآن معجزا، تطابق أخباره مع الواقع، سواء الماضية منها، أو المستقبلية، وهذا التطابق موجود في الأحكام بلا نكران، مسوق في سائر آيات القرآن، قال الله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢] فأمر الله بتدبر آيات القرآن، لما فيه من التوافق في الأخبار، والتناسق في الأحكام، وأمرهم بتفهم معانيه المحكمة، وألفاظه البليغة، وأخبر أنه لا اضطراب فيه ولا اختلاف، ولا تعارض؛ لأنه تنـزيل من حكيم

---

(١) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص ٣٥١.

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص ٣٥٣.

(٣) انظر: الصفدية ١/ ٢١٩.

حميد، فهو حق من حق، فلما سلم من ذلك علم أنه من عند الله[(١)].

٤- **حفظ الله له**: ومما يدل على أن القرآن معجز، بقاؤه مئين من السنين، «مع كثرة الأمة، وتفرقها في مشارق الأرض ومغاربها، والكتاب بعد هذا محفوظ، وكذلك الشريعة محفوظة، فهذا أمر خارق»[(٢)] خارج عن مقدور النبي ﷺ، وعن مقدور البشر، فدل على أنه معجز من رب البشر، وأنه آية لمن اعتبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩] **قال القرطبي**[(٣)] رحمه الله: «أخبرنا الله تعالى في هذه الآية أنه أنزله، وأنه تولى حفظه، وهذا كتاب الله محفوظ بحفظه، لا يقدر أحد على تغيير كلمة واحدة من لفظه، على كثرة من سعى في تغييره»[(٤)].

فحفظ الله الكتاب، على مضي قرون متطاولة، ولا يمكن أحد تغيير القرآن، مع كونه محفوظا في الصدور، منقولا بالتواتر في السطور، واتفاق علماء الإسلام عليه، دليل على كونه معجزة من الله، والسلف كانوا يختلفون في بعض الأحكام، وينكر بعضهم على بعض، «فعلم بذلك أن ما كان مشهورا في الأمة عن النبي ﷺ ولم ينكره أحد من علمائها كانت الأمة متفقة على نقله، **كنقلهم للقرآن**، والشرائع الظاهرة»[(٥)].

٥- **كونه خارجا عن قدرات الثقلين**: إن كل منصف يقرأ القرآن الكريم يدرك أنه خارج عن قدرات المخلوقين النفسانية، والطبيعية، فلا يستطيعون الإتيان بمثله، ومن ادعى أن ذلك يمكن فهذه دعوى عارية عن الدليل، إذ مرت القرون الماضية،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٢٩، وانظر: رسالة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

(٢) الصفدية ١/ ٢٢٣، وانظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص٣٩ - ٤٠، الجواب الصحيح ٣/ ١٥، منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز للشنقيطي ص ٢٧٧ (١٠/ ٢٧٧ مع التفسير).

(٣) هو المفسر المحدث: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فروح الأنصاري الأندلسي أبو عبد الله القرطبي، رحل إلى المشرق، وسكن مصر، وتوفي في أسيوط، متبحرا في العلوم، ومن مصنفاته: الجامع لأحكام القرآن، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر: الديباج المذهب ص٤٠٦، معجم المفسرين لعادل نويهض ٢/ ٤٧٩.

(٤) الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٤٠، وانظر منه: ص ١٨٩، ١٩٣-١٩٤، الجواب الصحيح ٣/ ٣٩، ٣/ ١٤، ٢١، ٢٧، ٤٢٣، النبوات ص ٣٥٦

(٥) الجواب الصحيح ٦/ ٣٥٧، وانظر منه: ٥/ ٤٣٢، ٤٢٧ الفتح ٨/ ٦٢٤.

وغبرت الأمم السالفة، ولم يمكن ذلك، وهو لن يكون حتى في المستقبل، ومن كان في شك فليدع عصابته البلغاء، المتكلمين بلغة القرآن، ليعارضوا سورة من مثله ـ ولو أقصر سورة ـ[(١)]، وما دمتم عاجزين عن ذلك، تحقق القطع بأنه ليس بمقدور المخلوقين، لا محمد ﷺ، ولا غيره، وتحقق على القطع أنه ليس يقدر عليه أحد من الإنس والجان، وعلم أنه كلام الملك الديان[(٢)].

٦-**أن الذي يبلغه للناس أمي لا يقرأ، ولا يكتب، ولم يتعلم:** وهذا يؤكد أن القرآن معجزة من الله لمحمد ﷺ، وآية من آياته الدالة على ألوهيته، وصدق دعوى نبيه ﷺ في نبوته، قال الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف:١٥٧-١٥٨].

فهو ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك جاءهم بهذه الأوامر المصلحة، والأخبار السارة، والآيات المحكمة، فهذا دليل على أنه معجزة من الله ﷻ، قال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة:٢]، وقال ﷻ : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[العنكبوت:٤٨].

---

(١) والصحيح من عقيدة السلف أن التحدي وقع في آخر الأمر بأقصر سورة، ولو كسورة العصر، أو الكوثر، وأن القرآن كله معجز، سواء في ذلك السور القصار، أو الطوال، وأن التحدي معلق بأي سورة منه، من حيث اللفظ والتركيب، ومن حيث المعنى البديع العجيب. انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٢.

(٢) الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٢١٩، وانظر: الصفدية ١/ ٢٣٦.

٧-أنه معجز بوجوه إعجاز أكثر من أن يحصيها عدد، أو يحيط بها أحد: وهذه الوجوه كل واحدة منها على حدة تدل على أن القرآن معجِز للبشر، فكيف إذا اجتمعت هذه الوجوه.

وعد بعضهم هذه الوجوه، وكل واحد ذكر ما ظهر له منها، وإلا فهي متنوعة متعددة، وكون بعض العلماء يذكر أربعة أوجه، أو خمسة، أو ستة، أو عشرة لا يعني ذلك حصرها فيها، **وأذكر بعضها على سبيل الاختصار**:

فمنها: حسن تأليفه، والتئام كلمه مع الإيجاز والبلاغة، **ومنها**: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظما ونثرا، حتى حارت فيه عقولهم، **ومنها**: ما اشتمل عليه من الأخبار الغيبية، **ومنها**: الشرع المحكم الذي جاء به، **ومنها**: أن قارئه لا يمل من ترداده، ولا يمج من سماعه، **ومنها**: جمعه لعلوم ومعارف شتى، فلا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي فوائده[(١)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: « **وكون القرآن أنه معجزة، ليس هو من جهة فصاحته،** وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وملائكته، وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية...، وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن، هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له »[(٢)].

---

(١) انظر: الجواب الصحيح ١/ ٣٧١، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٢٩، ٣٤٧، الفتح ٨/ ٦٢٣-٦٢٤، محاسن التأويل ١/ ١٧٤-١٧٥، أبجد العلوم ٢/ ١٠.

(٢) الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨-٤٢٩، وانظر منه: ٥/ ٤١١، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٠.

فإعجاز القرآن ليس مختصا بنوع من العلوم، أو فن من الفنون، والإعجاز « لا يختص به شيء من القرآن دون شيء، ولا سورة دون سورة، ولا نمط منه دون آخر، بل ماهيته المعجزة له...، لأنه كيفما تصور الإعجاز به فماهيته هي الدالة على ذلك، فإلى أي نحو منه مِلت دلّك ذلك على صدق رسول الله ﷺ »[(١)]؛ **فإعجاز القرآن في عظمة القرآن**، وكونه كلام الرحمن، فعظمته مكتسبة من الموصوف به وهو الله ﷻ، فكل يوم يزداد فيه العلماء بصيرة، ويجتمع عليه طلاب الحق ليستهدوا منه طريقا، وما زال العلم يكتشف من حقائق القرآن كل جديد، وصدق الله إذ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾[فصلت:٥٣-٥٤].

ومما يظهر فيه جليا إعجاز القرآن، إعجازه في نظمه، وبلاغته، وعلمه وتشريعه، فالقرآن معجز بنفسه، ولو لم يظهر فيه صورة التحدي[(٢)]، وسيأتي تفصيل هذه الأوجه الثلاثة في المبحث الآتي.

---

(١) الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٧٦-٣٧٧.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق ص ٢٥١، الأصبهانية ص ٦٢٥،٥٢٣، العين والأثر ص ٦٧،٦٥.

المبحث الثاني: أوجه الإعجاز في القرآن الكريم

المطلب الأول: كون القرآن معجزا لفظا و تركيبا[١].

وكون القرآن الكريم معجزا لفظا أي من حيث اختياره للألفاظ ذات الدلالة على المعاني التي تجذب القلوب، وتشدي الأسماع، وتطرب النفس، فهو باهر في ألفاظه وأسلوبه[٢].

ومما يبين إعجاز القرآن في ألفاظه أن المفسرين لا يستطيعون أن يعبروا عن ألفاظه بلفظ مرادف يؤدي جميع معانيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقل أن يعبر عن لفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أساليب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل ـ في قوله تعالى ـ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾[الطور:٩]، إن المور: هو الحركة، كان قريبا إذ المور حركة خفيفة سريعة»[٣].

ولتعرف إعجاز لفظه، انظر إلى إيجاز لفظه، وتشبيهه الشيء بالشيء، وما فيه من: «استعارة المعاني البديعة، وتلاؤم الحروف والكلمات، والفواصل والمقاطع في الآيات، وتجانس الصيغ والألفاظ، وتعريف القصص والأحوال، وتضمين الحِكم والأسرار، والمبالغة في الأمر والنهي، وحسن بيان المقاصد والأغراض، وتمهيد المصالح والأسباب...، **أما إيجاز اللفظ مع تمام المعنى**؛ فهو أبلغ أقسام الإيجاز، ولهذا

---

(١) انظر: إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٩ وما بعدها، دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٤٠ وما بعدها، أصول السرخسي ص ٢٨١، الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨، الأصبهانية ص ٦٢٤-٦٢٥، الفروع ١/ ٣٦٧.

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٩٠، مناهل العرفان ٢/ ٣٢٥.

(٣) المجموع ١٣/ ٣٤١.

قيل: **الإعجاز في الإيجاز نهاية إعجاز**، وهذا المعنى موجود في القرآن»[(١)]، إما على سبيل الحذف، نحو: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾[يوسف:٨٢]، أو على سبيل الاختصار، نحو: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٩][(٢)].

ولقد « مايز القرآنُ كلامَ النبي، وكلامَ العرب: فصاحتُه الرائقة، وبلاغته الموفقة، وجزالته الفائقة، حتى تسمع الكلمة الواحدة منه تجمع معاني كثيرة، مع عذوبة إيرادها، وجزالة مساقها، وصحة معانيها، مثل قوله ﷻ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[الأعراف:١٩٩]، وهذه الآية بما تضمنت من الأحكام، وتفسير الحلال والحرام، والإعراض عن أهل الجهل والاجترام، والأمر بالتزام أخلاق الكرام، تدل دلالة قاطعة على أنها كلام العزيز العلام، مع ما هي عليه من اللفظ الجزل الرصين، الذي يروع قلوب العارفين، ويثلج قلوب القارئين والسامعين »[(٣)].

ومن إعجازه في اللفظ أنه ليس فيه كلمة لا معنى له، فضلا عن التراكيب، وأما الأحرف المقطعة فـ « ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها »[(٤)]، ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي، والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي بالصريح في أماكن، وجاء منها على حرف واحد: كـ (ص، ن، ق)، وحرفين: مثل (حم)، وثلاثة:

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي١/ ٦٩.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز١/ ٦٩.

(٣) الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٣٠، وانظر: مقدمة ابن خلدون ص ١٠٩٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨، نقله ابن كثير عن الرازي، وقال الرازي: وهو قول لمحققين من أهل العلم، وحكاه القرطبي عن الفراء، وقطرب، وقرره الزمخشري المعتزلي في كشافه، وإليه ذهب شيخ الاسلام ابن تيمية، والمزي، وهو ترجيح الحافظ ابن كثير رحمه الله. انظر: الموضع السابق من تفسيره، ثم لا يطلب لهذه الأحرف معانٍ، لأن الأحرف لا معاني لها في لغة العرب؛ فالبحث عن معانيها عبث.

مثل (الم)، وأربعة: مثل(المر، المص)، وخمسة: مثل (كهيعص، حمعسق)، لأن أساليب كلام العرب على هذا، من كلماتهم ما هو على حرف، وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة لا أكثر من ذلك، «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه، وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١-٢]، ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾[آل عمران:١-٣]، ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الأعراف:١-٢]، ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١]، ﴿ طسٓمٓ ۝ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾[القصص:١-٢]، ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[غافر:١ ٢]، ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[الشورى:١-٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم»(١).

فهذه الأحرف التي منها القرآن الكريم، بلسان عربي مبين، «فيها إشارة إلى بعد الإعجاز؛ لأن القرآن المنـزل مؤلف منها، والبشر فيها ـ أي في هذه الأحرف الهجائية ـ سواء، والتفاوت موجود في دلالتها بعد التأليف»(٢).

هذه بعض الحِكم من إيراد هذه الأحرف في أوائل السور، «ولا شك أن هذه الحروف لم ينـزلها ﷻ عبثا، ولا سدى، ومن قال من الجهلة: إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية!! فقد أخطأ خطأ كبيرا، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا آمنا به كل من عند

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨.
(٢) مقدمة ابن خلدون ص٨٥١.

ربنا، ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين»[١].

ومن الإعجاز في لفظه: الأمثال الموجودة في القرآن منها أجناس، وهي محيطة ببلاغة ألفاظها، وبراعة النظم فيها[٢].

وأما كون القرآن معجزا تركيبا أي من حيثية ما فيه من السياق والسباق، واللواحق والأواخر، وكون المعنى في ألفاظ معدودة، ولها معانٍ غير معدودة، وقد يقول البعض: إنّه معجز من جهة النظم، والتأليف، ومن ذلك أن كل آية لها معنى تام، وإن كان لها ارتباط بما بعدها، وبما قبلها، بتناسق عجيب، وترتيب بديع، وكأن السورة كلها آية واحدة[٣].

ومن دلائل إعجازه في الأسلوب والتركيب أنه مخالف لجميع ما اعتاده العرب من خطاباتهم، فهم كانوا يكتبون شعرا، ونثرا، وخطابة، ورسالة، والكلام المسجوع، وكل نوع منها عندهم على نمط خاص، فجاء القرآن بأسلوب باهر لم يعهدوه، وبطريقة عالية لم يعرفوها، فلا هو بالشعر، ولا هو بالنثر، ولا هو خطابي، ولا هو شبيه رسائلهم، ولا هو مسجوع، بل فيه كل هذا وبتركيب فريد، وأسلوب جديد، فبهرهم ذلك، وقهرهم عن تحديه[٤].

وأما تناسب القرآن فشيء عجب، والإعجاز فيه لا يحسَب، إذ كل آية لها مناسبة لما بعدها، و بما قبلها، وكذلك تناسب السور، ولم ينكر أحد من أهل العلم تناسب الآيات، وإنما الذي وقع فيه النـزاع هو التناسب في السور ـ بناء على اختلافهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٧، وانظر: المستصفى للغزالي ص ٨٥، إرشاد الفحول ص٦٥.

(٢) انظر: المجموع ١٤/ ٦٤، ١٧/ ٤٥.

(٣) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص٣٥٠، أصول السرخسي ص٢٨١، الفتح ٢/ ٣٠١، محاسن التأويل ١/ ١٧٤، ٧/ ٣٨، فتح البيان ٩/ ٣١٠، أضواء البيان ٤/ ٤.

(٤) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص ٣٥٠، الجواب الصحيح ٥/ ٤٣٣، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص٣٣٣-٣٣٤، معترك الأقران ١/ ٢٣، محاسن التأويل ١/ ١٧٤.

في ترتيبها هل هو توقيفي أم لا؟ ـ، والصواب أن التناسب بينها: يُبيِّن حسن تركيب آيات القرآن، وترتيب سوره، إلا أن المبالغة فيه، والتكلف، والتعسف مذموم لعدم وروده عن السلف الصالح[١]، وما ظهر تناسبه، ولم يكن فيه مخالفة لما عليه السلف الصالح فهو مقبول، ولو لم يكن غير منقول، قال ابن العربي المالكي الفقيه[٢] رحمه الله: **« ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني، منظمة المباني، علم عظيم »**[٣].

فمن تأمل لطائف نظم الآيات والسور، وبدائع ترتيبها، علم أن القرآن معجز بأسلوبه وتركيبه[٤]، **ويكشف الإعجاز في اللفظ والتركيب أمران: الأول:** « نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، **والثاني:** نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب، والأول أقرب تناولا، وأسهل ذوقا، فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط، ورهبة مع انبساط، لا تحصل عند سماع غيره »[٥]، فانظر إلى قصة الخضر مع موسى، وكيف سيق « مع اللفظ الوجيز الفصيح، والكلام الجزل الصحيح، الذي لا يمله سامع، ولا يطمع في معارضته طامع »[٦].

---

(١) انظر: إعجاز القرآن للخطابي ص ٣٤ وما بعدها، وفتح القدير ١/ ٩٠، وقد أنكر **علم التناسب** بحجة عدم الورود، ومعلوم أن ما فهم من القرآن بالتدبر، ولم يكن مخالفا لما فهمه السلف فهو مما يفتح الله على الإنسان في كتاب الله ﷻ، فلا ينكر، والله تعالى أعلم، وقد أثبت التناسب جمع من المفسرين بل جلهم، وانظر إلى الذين ألفوا في علم التناسب ليظهر لك حقيقة ما قلته.

(٢) هو المفسر الفقيه المالكي الأشعري: محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافري الأندلسي، المعروف بابن العربي (معرفا بأل)، ولد بالأندلس ورحل منها لطلب العلم، ورجع إلى الأندلس، وتوفي فيها، من مؤلفاته المشهورة: أحكام القرآن، قانون التأويل في التفسير سار فيه على طريقة المتكلمين، توفي سنة ٥٤٣هـ. انظر: السير ٢٠/ ١٩٧.

(٣) ذكره البقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور١/ ٧، وانظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٩٤ وما بعدها.

(٤) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٨٠، نظم الدرر ١/ ٩، ونقل مثل هذا عن الزركشي كما في ص ٨ من المجلد نفسه، وانظر: تبصير الرحمن وتيسير المنان للمياهمي ١/ ٣.

(٥) نظم الدرر ١/ ١١، وانظر: مقدمة أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص ١٥.

(٦) الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٤٤.

وكل آيات القرآن أمثلة في ذلك، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:٩٠] فلما سمع هذا النظم البديع، والتركيب العجيب، قال: الوليد بن المغيرة، ـ وهو من ألد أعداء الاسلام مخاطبا قومه الكفار ـ: « والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته »(١).

وقوله ﷻ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص:٧] ، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[سبأ:٥١]، فمثل هذه الآيات التي هي الغاية في الجزالة، والبالغة في الحسن من حيث التركيب، وأداء المعنى، بأفضل تعبير، وأخصر تنظيم وتركيب، هو من خصائص كلام الله ﷻ ، وهو كثير في القرآن، بل كل القرآن مبني على حسن التركيب، والترتيب(٢).

وقوله ﷻ : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٩] وكانت العرب تقول: القتل أنفى للقتل، وبين هذا الكلام وبين قوله ﷻ: القصاص حياة، تفاوت في البلاغة والإيجاز، فإن الآية تضمنت معنى كلام العرب وزيادة: الإبانة عن الفداء لذكر القصاص، والإبانة عن الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة، وبعده عن التكلف، وسلامته من تكرار اللفظ، وأوجز في العبارة، فإن الآية عشرة أحرف، والمقولة أربعة عشر حرفا(٣).

ومن **عجائب** تركيبه ما ذكره القرطبي ؒ في قوله ﷻ إخبارا عن عيسى أنه قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة:١١٨] **قال:**

---

(١) رواه البيهقي مرسلا في الاعتقاد ص٣٥٧-٣٥٨، وانظر: جامع البيان ١٢/ ٣٠٩ حيث أورده موصولا.

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص ٣٤٩-٣٥٠، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٣١.

(٣) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص ٣٤٩.

«**ولم يقل**: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره، والتفويض لحكمه، ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه، وذلك مستحيل، فالتقدير: إن تبقهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك، وإن تهدِهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده، الحكيم فيما تفعله، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، وقد قرأ جماعة فإنك أنت الغفور الرحيم وليست من المصحف...، **وطعن على القرآن من قال** إن قوله: إنك أنت العزيز الحكيم ليس بمشاكل، لقوله وإن تغفر لهم؛ لأن الذي يشاكل المغفرة فإنك أنت الغفور الرحيم. **والجواب**: أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله، ومتى نقل إلى الذي نقله إليه ضعف معناه، فإنه ينفرد الغفور الرحيم بالشرط الثاني ـ وهو إن تغفر لهم ـ، فلا يكون له بالشرط الأول ـ وهو إن تعذبهم ـ تعلق، وهو على ما أنزله الله ﷻ، واجتمع على قراءته المسلمون، ومقرون بالشرطين كليهما أولها وآخرهما إذ تلخيصه: إن تعذبهم فإنك أنت عزيز حكيم، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، في الأمرين كليهما من التعذيب والغفران، فكان العزيز الحكيم أَليق بهذا المكان لعمومه؛ فإنه يجمع الشرطين، ولم يصلح الغفور الرحيم إذ لم يحتمل من العموم ما احتمله العزيز الحكيم، وما شهد بتعظيم الله تعالى، وعدله، والثناء عليه في الآية كلها، والشرطين المذكورين أولى، وأثبت معنىً في الآية مما يصلح لبعض الكلام دون بعض»[(١)].

فإذا ثبت أن القرآن الكريم في حُسن ألفاظه وجميل تراكيبه معجز، دلنا ذلك على أن الآية الواحدة آية، وفي بعضها كذلك، وإن كان التحدي واقعا في سورة منه[(٢)]، **ومعتقد السلف هو أن الإعجاز واقع في القرآن الكريم من حيث المعنى واللفظ** فالكل من عند الله ﷻ كما سبق[(٣)]، والتحدي وقع بألفاظ القرآن ومعناه[(٤)]، **والقرآن كله**

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٤٤، بتصرف يسير.

(٢) انظر: الفروع لابن مفلح ١/ ٣٦٧، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٥٣.

(٣) انظر: الفصل الأول من الباب الأول.

(٤) انظر: الفروع لابن مفلح ١/ ٣٦٧

مفيد، وليس فيه حشو بلا فائدة، أو فضلة يستغنى عنها، فهو كله دليل على الإعجاز، إذ لا حشو فيه، ولا خلل[١].

ومما يدل على بلاغة القرآن في التركيب أنه ثلاثون جزءا ومع ذلك ليس فيه شيء من التراكيب المستهجنة، أو التراكيب الأعجمية، قال القرطبي ﷺ: «أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية»[٢]، ومما يدل على إعجاز القرآن في تركيبه: الالتئام بين الآيات حينما يتحدث عن الموضوع، وهو ما يسمى بالوحدة الموضوعية، فالقرآن عند ما يتحدث عن موضوعٍ ما يبهر الأبصار، ويخطف القلوب، ويشد الآذان[٣]، **قال الخطابي**[٤] ﷺ: «قلت في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك: صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما، ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور»[٥]، ومن الدلائل على هذا قراءة المسلمين كل يوم سورة الفاتحة كرات ومرات ومع ذلك هي من ألذ ما تكون على النفوس، وأعذب ما تكون على الألسن.

والسلف منعوا من القراءة المنكسة للقرآن الكريم، وما ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ إلا لأنه يذهب بعض أنواع الإعجاز، ويزيل حكمة الترتيب[٦]، **ولكون اللفظ والتركيب**

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٢٧، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ص١٨، الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٧٦، أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص ٦٥، والكتاب المذكور، عنوانه ليس كذلك، بل ذكر السيوطي نفسه في مقدمته ص ٦٧ أنه سماه "تناسق الدرر في تناسب السور"، وكذلك ذكره محققه المذكور ص ٥٩،٦٣، ولكنه مع ذلك آثر تغيير اسم الكتاب، بحجة عدم صلاحيته لهذا العصر!!!.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٨، وانظر: الإحكام للآمدي ١/ ٧٩، ٢١٩، ٢٢٠، المستصفى ص ٨٤-٨٥، إرشاد الفحول ص ٦٦.

(٣) انظر: مقدمة الدكتور/ عبد القادر عطا، لمقدمة أسرار القرآن للسيوطي ص ١٧.

(٤) هو المحدث العلامة: حمد بن محمد الخطابي البستي، أبو سليمان، له مؤلفات كثيرة، منها: معالم السنن وهو شرح على سنن أبي داود، توفي سنة ٣٨٨هـ. انظر: السير ١٧/ ٢٣.

(٥) إعجاز القرآن للخطابي ص٧٠.

(٦) انظر: المجموع ٢/ ١٨٩.

معجزًا منع السلف من كتابة القرآن الكريم بغير العربية، لأن ذلك صارف للإعجاز، فلو كتب بغير العربية لأوهم الركاكة، ولأخل بالنظم، وأدى إلى تشويش الفهم[(١)].

وأما إنكار الإعجاز في اللفظ، فهذا قول غير مأثور، وعن السلف غير مسطور، بل من قال به فقوله «في نفسه مستسمج، مستهجر بالتأمل في نظم القرآن، وجزالته وفصاحته، وعرضه على كل نظم عرف من أساليب كلام العرب، وكل كلام فصيح عرف من كلامهم، ثم امتيازه عن الكل بروائه، وبهائه، وطلاوته، وحلاوته، وإعرافه، وابتنائه، إعجاز ظاهر لكل ذي لب من الناس»[(٢)].

وأما تكرار اللفظ بعينه عقيب الأول فليس في القرآن منه شيء، «وإنما في سورة الرحمن خطابه بذلك بعد كل آية، لم يذكر متواليا، و هذا النمط أرفع من الأول، وكذلك قصص القرآن ليس فيها تكرار[(٣)]، كما ظنه بعضهم، و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[الكافرون:١]، ليس فيها لفظ تكرار، إلا قوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾[الكافرون:٣، ٥]، وهو مع الفصل بينهما بجملة. **وقد شبهوا ما في سورة الرحمن،** بقول القائل ـ لمن أحسن إليه، و تابع عليه بالأيادي، وهو ينكرها، ويكفرها ـ: ألم تك فقيرا فأغنيتك؟، أفتنكر هذا!!، ألم تك عريانا فكسوتك؟، أفتنكر هذا!!، ألم تك خاملا فعرَّفتك؟، ونحو ذلك. **وكذلك ما يقوله بعضهم:** إنه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ فليس في القرآن من هذا شيء، و لا يُذكر فيه لفظ زائد إلا لمعنى زائد، وإن كان في ضمن ذلك التوكيد، وما يجيء من زيادة اللفظ، فالمعنى أزيد من المعنى بدونه، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى، وقوة اللفظ لقوة المعنى، والضم أقوى»[(٤)].

---

(١) انظر: إعجاز القرآن للخطابي ص٢٩، إعانة الطالبين١/ ٦٨، وسيأتي في الفصل الثالث من الباب الثالث بيان كتابة القرآن.

(٢) قواطع الأدلة ص ٢٩، وانظر: المحرر الوجيز ١/ ٥٢-٥٣.

(٣) انظر: نظم الدرر ١/ ١٤، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٢٣-٣٢٤، إظهار الحق ٢/ ١٠٤، محاسن التأويل ١/ ١٥٨، ١٦٤-١٦٥.

(٤) المجموع ١٦/ ٥٣٦-٥٣٧، بتصرف يسير.

وأرجو بهذا أن يكون قد ظهر شيء من وجه الإعجاز في اللفظ والتركيب، وأن يكون ظهر بهذا المزايا الظاهرة، والبدائع الراقية، في فصاحة ألفاظ القرآن الكريم، وعلو تركيبه، وهذا قد يدخل في البلاغة من حيث إنّه أحد أقسام علوم البلاغة، إذ هي مبنيّة على ثلاثة أنواع من العلوم، وهي: علم المعاني(١)، وهو الذي ذكرته في اللفظ والتركيب، والثاني: علم البيان(٢)، والثالث: علم البديع(٣)، وهذان العلمان يظهر إعجاز القرآن فيهما بجلاء، وأجلي ذلك في المطلب الآتي.

(١) علم المعاني هو أحد العلوم البلاغية في العربية، **ويقولون في تعريفه أنه**: علم يعرف به أحوال اللفظ العربي المطابق للحال. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص١.

(٢) وهو نوع من أنواع علوم البلاغة، ويعرف بأنه: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص٩.

(٣) انظر: تلخيص المفتاح للقزويني ص ٦١٨-٦١٩، ضمن مجموع أمهات المتون، ومائة المعاني والبيان لابن الشحنة الحلبي ص ٦٠٩، ضمن المجموع المذكور، وخلاصة تلخيص المفتاح ص ١ (مخطوط)، لكاتب هذه السطور، ستره الله بالستور، **ويعرف البديع بأنه**: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص١١.

المطلب الثاني: كون القرآن معجزا بلاغة وبيانا.

إن من علوم البلاغة: ما يعرف بعلم البيان، وهو: إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، في وضوح الدلالة عليه، وهو ثلاثة أنواع[(١)]، وهي: الكناية[(٢)]، والاستعارة[(٣)]، والتشبيه[(٤)]، ومن علوم البلاغة، علم البديع: الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام من حيث المطابقة (الطباق)[(٥)]، والمجانسة (الجناس)[(٦)]، وهذان العلمان في القرآن الكريم منهما ما يشبع العلماء، ويتعب الجهلاء، ولا يحصى إلا بعناء.

ومن ذلك بلاغة القرآن في البيان، فالقرآن معجز «من جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى»[(٧)].

ومن الأمثلة في علو بيانه، وإعجازه في فصاحته وتبيانه: أن الأصمعي[(٨)] سمع جارية من العرب، فتعجب من فصاحتها، فقالت: وهل بعد قول الله تعالى فصاحة، حيث قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٩]، فإنه جمع في آية واحدة

---

(١) وقد يقسم تقسيما آخر، لأن هذا من قبيل الاصطلاح، انظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ١٠٦.

(٢) المقصود بهذا المصطلح: لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادته معه. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص١١.

(٣) المقصود بالاستعارة هو: أستعمال لفظ لمعنى غير الظاهر لمشابهة بينهما. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص١٠.

(٤) المقصود بالتشبيه هو: الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى، نحو: زيد أسد. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص٩.

(٥) المراد بالمطابقة هو: دلالة اللفظ على تمام ما وضع له؛ فهذه هي: **الدلالة الوضعية**، وتختص بالمطابقة. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص٩.

(٦) انظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٧٦ وما بعدها، والمصادر السابقة، **والمجانسة هي**: التشابه في اللفظ، وهو أنواع. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص١٤.

(٧) الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٥٥.

(٨) هو إمام العربية السني، حجة الأدب: عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع أبو سعيد الأصمعي البصري اللغوي، أحد الأعلام، الشاعر المعروف بين الأنام، توفي سنة ٢١٦هـ، وقيل غير ذلك. انظر: السير ١٠/ ١٧٥، التقريب ص٣٠٥.

بين: أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين[١].

وكذلك قوله ﷻ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الحجر:٩٤] سمعها أعرابي فسجد، فقيل له: لم سجدت!؟، فقال: سجدت لفصاحته[٢].

ولما نزلت قوله ﷻ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩] قال أبو جهل ـ وهو من أشد الأعداء على محمد خير الأنبياء ـ: إن رب محمد لفصيح.

وقال القرطبي رحمه الله: «ولا يظن جاهل أنا نستدل على فصاحته بكلام هؤلاء الأعراب، كلا، لو كان ذلك لكانت الحجة أضعف من السراب، بل نعلم: أنه معجز بفصاحته، علم ضرورة تحصل لنا عند سماعه، وقراءته، والبلغاء إذا وقفوا عليه، وسمعوه، لذلك العلم مضطرون، بحيث لا يرتابون، ولا يشكون، كيف والعربي الفصيح إذا سمع قوله تعالى...، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٠] ومثل هذا كثير قضى من هذه البلاغة، والجزالة، ومتانة هذه المعاني العجب، وعلم أن مثل هذا لا يقدر عليه أحد من العجم ولا من العرب»[٣].

وهذا رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وكلامه مغاير عن القرآن، يعرف ذلك كل فهمان، ولو لم يكن حافظا لكلام الرحمن، فانظر إلى أحاديثه ﷺ في وصف الجنان واسمع إلى هذه الآية الموجزة في البيان، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾[الزخرف:٧١]، وقوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن

---

(١) انظر: الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٣١، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٥٥.

(٢) انظر: الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٣١.

(٣) انظر: الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٣١، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٥٥، فتح القدير ٢/ ٤.

﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة:١٧] « فهذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأقل حروفا، على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية، لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال التصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف، وبهذا قامت الحجة »(١).

وقال أنيس الغفاري(٢) رضي الله عنه، في بيان إعجاز القرآن(٣)، ـ لما ذهب إلى مكة وسمع القرآن من النبي ﷺ بأمر من أخيه أبي ذر(٤) رضي الله عنه : « قال: لقيت رجلا بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، ـ وكان أنيس أحد الشعراء ـ، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون »(٥).

ومن البيان الذي في القرآن الكنايات الجميلة، كما قال الشاطبي(٦) رحمه الله: « ومنها تحسين العبارة بالكناية، ونحوها، في المواطن التي يحتاج فيها إلى ذكر ما يستحيا من ذكره، في عادتنا، كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النساء:٤٣] حتى إذا وضح السبيل في مقطع الحق، وحضر وقت التصريح بما ينبغي التصريح فيه، فلا بد منه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[البقرة:٢٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٥٦.

(٢) هو الصحابي الجليل: أُنيس بن جنادة بن سفيان الغفاري، أخو أبو ذر رضي الله عنه، وأكبر منه، ذهب إلى مكة ليستخبر أمر النبي ﷺ، فلما رجع أسلم مع أخيه أبي ذر. انظر: الإصابة ١/ ٧٦.

(٣) انظر: الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٣٥.

(٤) هو الصحابي المجاهد العابد: جندب بن جنادة الغفاري، أسلم قديما، ثم قدم على النبي ﷺ ومعه قومه، وهم مسلمون، وله روايات كثيرة في الكتب، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: التقريب ص٥٦٢.

(٥) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، ح(٢٤٧٣) من رواية أبي ذر رضي الله عنه، وهو حديث طويل فيه قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه.

(٦) هو الأصولي المتقن، والفقيه المتفنن: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي أبو إسحاق الشاطبي، رغب في السنة، ودعا إليها، ونابذ عنها، من مؤلفاته النافعة: الموافقات والاعتصام، توفي سنة ٧٩٠هـ. انظر: معجم المؤلفين١/ ١١٨.

﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾[الأحزاب:٥٣]»[1].

ومن الكنايات الجميلة قوله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[البقرة:٢٢٢] فكنى عن موضع إتيان الحاجة بالمحيض، وعن كيفية الإتيان بموضع الحرث، مع إباحة أي كيفية في ذلك، دون إخلال أو تفسخ.

ومن البيان الذي في القرآن: **الاستعارات البليغة**، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾[الكهف:٧٧].

ومن البيان الذي في القرآن التشبيه الفصيح[2]: و تشبيه الشيء بالشيء، نحو: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[النور:٣٩] ، ونحو قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[البقرة:١٩][3].

والكناية، والاستعارة، والتشبيه إذا كانت مع حسن بديع كان أبلغ في التبديع، ولهذا تجد أن هذا البيان في القرآن يكون في غاية البديع.

ومن البلاغة في البديع، وهو كثير[4]: ما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[المائدة:٤٤]، وهذا من الطباق، ونحو: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[الممتحنة:١٠]، وهذا من الطباق العكسي.

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي ١/ ٣٧٧-٣٧٨.

(٢) انظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٨٠ وما بعدها، دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٥٤، الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز ١/ ٦٩.

(٤) انظر: إعجاز القرآن للخطابي ص ٥١، وما بعدها.

وقوله ﷻ: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[القصص:٧٣]، وهذا لف ونشر[1].

ومن الجناس اللفظي قوله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾[الروم:٥٥].

فجميع أنواع علم البيان والبديع للقرآن الكريم منهما الحظ الكامل، والسبق الشامل، فلا تكاد تجد آية تخلو من البلاغة إما من حيث علم المعاني، أو من حيث علم البيان، أو من حيث علم البديع، بل وتجد في كثير من آياتها أنواعا مختلفة من البلاغة؛ والبلاغة هي: «بلوغ غاية المطلوب، أو غاية الممكن، من المعاني بأتم ما يكون من البيان، فيجمع صاحبها بين تكميل المعاني المقصودة، وبين تبيينها بأحسن وجه»[2]، وهذا كله موجود في القرآن، لا ينكره إلا من طمست بصيرته فأصبح كالعميان، ولا حول ولا قوة إلا بالله الرحيم الرحمن.

وتبلغ هذه البلاغة كنهها إذا كان المضمون عالي المقاصد، شريف المطالب، وهذا يتبين ببيان إعجاز القرآن الكريم علما وتشريعا.

---

(١) المقصود بمصطلح اللف والنشر في البلاغة هو: ذكر متعدد على التفصيل، أو الإجمال، ثم ما لكل واحد من غير تعيين لكونه معلوما. انظر: خلاصة تلخيص المفتاح ص١٢.

(٢) منهاج السنة ٨/ ٥٤، وانظر: إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٤، ٢٦، النكت في إعجاز القرآن للرماني ص١٠١.

المطلب الثالث: كون القرآن معجزا علما وتشريعا.

أما علوم القرآن فلا حصر لها، ولا عد يمكن أن يحاط بها، وذلك لأنه كلام الحكيم العليم، الذي يعلم ما يكون وما كان، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ومن أشهر علومه: وأبين دلائله على الإعجاز، إخباره بالغيبيات[(١)]، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[الفتح:٢٧] فأخبر عن دخولهم المسجد الحرام حال كونهم آمنين، ومؤدين عمرتهم محلقين أو مقصرين، ونفى عنهم الخوف أثناء ذلك تأكيدا على أن الأمن ليس بسبب قوتهم فحسب، بل بدفع الله عدوهم، وقهره إياهم[(٢)].

ومن الغيوب المستقبلية التي أخبر عنها، قال ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾[فصلت:٥٣-٥٤][(٣)].

ومن ذلك ما تضمنه من الأخبار عن الغيوب الماضية، والقرون السالفة، والشرائع الغابرة، وقد سئل النبي ﷺ عن أمور عدة، وجاء الجواب عنها في القرآن ببيان على حدة، مثل سؤالهم عن الروح، وعن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، وعن عيسى ابن مريم...[(٤)].

قال القرطبي رحمه الله: «وفي كتاب الله من هذا القبيل ما يحتاج استقصاؤه إلى

---

(١) الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٨١، وما بعدها.

(٢) انظر: إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٢، النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ١١٠ وما بعدها، الجواب الصحيح ٦/ ٥١-٥٢، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٣٧.

(٣) انظر: الجواب الصحيح ١/ ٤٣، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٤٠.

(٤) انظر: الانتصار للعمراني ١/ ١٠٢، الصفدية ١/ ١٤٢، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦١، الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٤٣، مقدمة الجواب الصحيح ١/ ٤٣-٤٦.

تكثير وتطويل، وحسبك ما تضمنه من كشف أسرار المنافقين، وفضيحة اليهود والضالين، فلقد يقضي الناظر فيها من ذلك العجب العجاب، ويتحقق أنه من عند الله من غير شك ولا ارتياب»(١).

وأما المعجزات العلمية الطبية منها وغيرها: مما تحدث عنه القرآن الكريم لا قصدا بل لسياقة غرض آخر، واكتشف أمر ذلك في العصر الحديث فأمر في غاية الإتقان، والوصف والإمعان، فتوصيف الجنين وهو في بطن أمه، لم يكن بالدقة التي تكلم عنها القرآن معروفا فيما غبر من الأزمان، وهو الآن مع التقدم لم يزد شيئا على ما في القرآن(٢).

وخلاصة الكلام: إن القرآن الكريم فيه علم الأولين والآخرين، وعلم كل ما يسعد الإنسان في الدنيا والدين(٣).

وأما إعجازه في التشريع: فيظهر بالنظر لما جاء به من التوحيد والأحكام، وكيف أن فيه مصالح الأنام، وما يحصل من التهذيب في الأرواح والشفاء من الأسقام، وإذا أكثرت «النظر في القرآن والأخبار، يحصل لك العلم الضروري، بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة، واعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات، وتأثيرها في تصفية القلوب...، يحصل لك علم ضروري، لا تتمارى فيه»(٤).

ففي تشريعاته أنواع من القواعد الأصلية، والفوائد الفرعية، والمحاسن الأدبية، التي تنـزل عليها الوقائع البشرية، وما يحتاجون فيها من الأحكام العملية، فالدين

---

(١) الإعلام بما في دين اليهود والنصارى من الأوهام ص ٣٤٢، وانظر: الجواب الصحيح ٥/ ٧١-٧٢.

(٢) ألفت في ذلك رسائل كثيرة، **ولكن ينبغي التنبه إلى عدم إخضاع القرآن الكريم للتجارب والنظريات**، والنظر فيه مجردا عن ذلك كله، فما ظهر بيانه، وتأكد شأنه وإعلانه، يبين تبعا، ولا يكون ذلك قصدا، انظر منها مثلا: القرآن معجزة المعجزات لأحمد ديدات، القرآن وإعجازه العلمي لمحمد إسماعيل، القرآن يتحدى لأحمد عز الدين، الإعجاز العلمي، مجلة الحكمة العدد ١٩.

(٣) انظر: الموافقات ٣/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٤) شرح الأصبهانية ص ٥٢٣، نقلا عن الغزالي، وانظر: إعجاز القرآن للخطابي ص٢٧، ٧٠، الجواب الصحيح ٦/ ٤٤، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦١.

منضبط بقواعد عامة، وأصول جامعة مانعة شاملة، ولله الحمد والمنة، ولم يفرط في الكتاب من شيء[(١)].

فالقرآن كله صدق وعدل، صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام، فكله حق وهدى، ليس فيه مجازفة ولا هوى، ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم، من الأكاذيب، والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، ولا يستعذب كلامهم إلا بشوائبها[(٢)].

وكون القرآن معجزا علما وتشريعا فهذا الوجه يظهر لكل أحد: العرب، والعجم، بخلاف الإعجاز البلاغي؛ فإنه لا يظهر إلا للعربي الفصيح، المتمرس لعلم العربية على الوجه الصحيح[(٣)].

« **فثبت من الأمور المذكورة أن القرآن معجز** وكلام الله، وكيف لا، وحسن الكلام يكون لأجل ثلاثة أشياء: أن تكون ألفاظه فصيحة، وأن يكون نظمه مرغوبا، وأن يكون مضمونه حسنا، وهذه الأمور الثلاثة متحققة في القرآن، بلا ريب »[(٤)].

وهذا كله على وفق ما ثبت عن السلف، والمتبعين لهم من الخلف، أما قول المخالفين للسلف الصالح في القرآن الكريم فأورده في الباب التالي، وهو الذي سيكون الحديث عنه إن شاء الله، والحقيقة أنّ ذلك الاختلاف الواقع من الخلف في القرآن الكريم لا يعني نفي الإعجاز، بل فيه عين الإعجاز إذا أخبر أن الناس لا يزالون مختلفين، فكذلك وقع الأمر في أمر الدين، ولنتبين عقائد المخالفين للسنة في القرآن الكريم في الباب التالي.

---

(١) انظر: قواطع الأدلة ص٢٩، الجواب الصحيح ٥/ ٤٣٤، الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٧٧، ٣٧٩، أبجد العلوم ٢/ ١٠، مجلة البحوث العلمية العدد ٩، ص ١١، وما بعدها.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٦١.

(٣) انظر: أصول السرخسي ص ٢٨١، معترك الأقران ١/ ١٤-١٧.

(٤) إظهار الحق ٢/ ١٠٠-١٠١.

الباب الثاني

حقيقة القرآن الكريم في نظر المخالفين والرد عليهم

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: اختلافهم في تعريف القرآن الكريم.

الفصل الثاني: قول المخالفين في نزول القرآن على نبينا محمد ﷺ.

الفصل الثالث: قول المخالفين في التعبد بالقرآن الكريم.

الفصل الرابع: قول المخالفين في كون القرآن آية لنبينا محمد ﷺ.

الفصل الأول

اختلافهم في تعريف القرآن الكريم

وفيه مباحث:

المبحث الأول: القول الفيض.

المبحث الثاني: القول بالحلول.

المبحث الثالث: القول بخلق القرآن.

المبحث الرابع: القول بأن القرآن عبارة، أو حكاية عن كلام الله.

المبحث الخامس: القول بأزلية القرآن.

المبحث السادس: القول بأن الله تكلم بعد أن لم يكن متكلما، ومن ذلك القرآن.

المبحث السابع: القول بالتوقف في القرآن.

المبحث الثامن: إبتداع مسألة اللفظ بالقرآن.

قبل الخوض في مباحث هذا الفصل، وذكر ما فيها من الأقوال، أبين خمسة أمور:

الأمر الأول: اضطراب المخالفين للسلف في القرآن الكريم.

وهنا أبين أن النزاع الذي وقع في كلام الله ﷻ هو نزاع كبير، حتى قيل إن علم العقيدة سمي بعلم الكلام لأن صفة الكلام أول مسألة وقع فيها النـزاع[١]، وإن كان هذا الاسم من قبل المخالفين، لا من السلف المتبعين، إلا أنه يدل على عظم الخلاف الذي وقع في كلام الله رب العالمين، وهذا النـزاع أساسه اختلافهم في القرآن الكريم، ما هو؟ وما هو حقيقته، وهل هو كلام الله؟ أم لا؟.

واضطراب أهل البدع ظاهر في مسألة الكلام، وقد نشأ هذا الاضطراب بسبب اختلافهم في القرآن الكريم، فعندهم أن كلام الله ﷻ إما أن يكون قائما به، ثم إن كان قائما به هل هو صفة ذاتية تكلم الله به أزلا أم لا؟، وهل تكلم بمشيئته واختياره أم لا؟، أم تكلم بعد أن لم يكن قادرا؟ أو إنّ كلامه يكون مخلوقا بائنا عنه، أو لا يكون هذا، ولا هذا، بل هو فيض في النفس[٢]، وهل هو بحرف وصوت أم لا؟ فهذا الاضطراب الكثير يذكره كثير من المصنفين دون أن يشير إلى عقيدة السلف الصالح في القرآن الكريم[٣]، قال شيخ الإسلام رحمه الله في مسألة كلام الله ﷻ: «والناس فيها مضطربون، وقد بلغوا فيها إلى تسعة أقوال، وعامة الكتب المصنفة في الكلام وأصول الدين لم يذكر أصحابها إلا بعض هذه الأقوال، إذ لم يعرفوا غير ما ذكروه...، وأكثرهم لا يعرفون قول السلف»[٤].

---

(١) والصحيح أن علم الكلام ليس هو علم العقيدة وعلم أصول الدين قطعا، وسيأتي تعريفه في الفصل الخامس من الباب الرابع.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٣/ ٣١١، لباب العقول ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) سبق أن بينت عقيدة السلف الصالح في القرآن الكريم بالتفصيل، انظر الباب الأول، الفصل الأول.

(٤) منهاج السنة النبوية ٢/ ٣٥٨-٣٥٩، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٢.

الأمر الثاني: عدد الأقوال المختلفة في القرآن الكريم.

من شدة اضطراب الناس، لم يضبط كثير من المصنفين عدد الأقوال في هذه المسألة المختلفة فيها عند الخلف، ولشدة غموض الاختلاف ووجوه تداخل الأقوال، لا يصور فيها فصل المقال، فيقع الإخلال، فمنهم من يذكر قولين، ومنهم من يذكر ثلاثة، ومنهم من يذكر أربعة، ومنهم من يذكر خمسة، ومنهم من يذكر سبعة أقوال[(١)].

الأمر الثالث: طريقة عد هذه الأقوال.

إنّ أوسع ما وجدنا في ذكر المذاهب في مسألة الكلام مَنْ ذكر فيها تسعة أقوال[(٢)]، على وجه التفصيل والبسط في المقال، وهي باختصار[(٣)]:

١-كلام الله ليس بائنا عن الله، ولا قائما بذات الله، وهو فيض على النفوس، وهو المشهور عن الفلاسفة[(٤)].

٢-كلام الله بائن عن الله، وليس قائما بذات الله، ويتكلم بمشيئته، وهو مخلوق بحروفه وأصواته، وهو المعروف عن الجهمية والمعتزلة[(٥)].

٣-كلام الله ليس بائنا عن الله، بل هو قائم بذات الله، وأنه معنى (كلام) واحد، وهو الكلام النفسي، ويختلف بحسب متعلقاته إن أمرا فأمر، وإن نهيا فنهي...، وكلامه ليس بحرف ولا صوت، ولا يتكلم متى شاء، بل هو متكلم أزلا فقط، وهو الذي يدندن حوله الكلابية والأشاعرة، والماتريدية[(٦)] بشطط[(٧)].

---

(١) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٥٩، الصفدية ٢/ ٤٠-٤١.

(٢) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٥٨، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٢.

(٣) لأن ذكر هذه الأقوال والرد عليها ستأتي في مباحثها في هذا الفصل.

(٤) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٥٩، المجموع ١٢/ ١٦٣، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٣.

(٥) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٥٩-٣٦٠، المجموع ١٢/ ١٦٣، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٣، إيثار الحق ص١١٩.

(٦) هم أتباع أبي منصور الماتريدي، وهم كالأشاعرة يثبتون لله ﷻ الصفات العقلية التي هي: العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والحياة والكلام، ويزيدون صفة التكوين، وأما الصفات الخبرية؛ فإنهم ينفونها، وهم في كثير من أبواب الأسماء والصفات ـ خصوصا المتأخرون منهم ـ قريبين من الجهمية. انظر: معجم ألفاظ العقيدة ص٣٥٣، ورسالة الشيخ شمس الأفغاني في الماتريدية.

(٧) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٦٠، المجموع ١٢/ ١٦٥، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٣.

٤- كلام الله ليس بائنا عن الله، بل هو قائم بذات الله، وإنّه بحروف وأصوات أزلية، ولا يتكلم متى شاء، وهذا قول طائفة من أهل الكلام، ويُذكر عن السالمية(١).

٥- كلام الله ليس بائنا عن الله، بل هو قائم بذات الله، وإنّه بحروف وأصوات، لكنه تكلم بعد أن لم يكن متكلما، وكلامه حادث في ذاته، وهو المنقول عن الكرامية(٢)، والهشامية(٣).

٦- كلام الله يرجع إلى ما يحدث من علمه وإرادته القائم بذاته، ثم منهم من يقول: لم يزل ذاك حادثا في ذاته، كقول أبي البركات صاحب المعتبر(٤)، ومنهم من لا يقول بذلك، كالرازي(٥).

٧- كلام الله يتضمن معنى قائما بذاته، وهو ما خلقه في غيره، ثم منهم من يقول: المعنى كلام نفسي، وهذا قول ابن رشد(٦)،

---

(١) انظر: منهاج السنة ٢/ ١٦٠، المجموع ١٢/ ١٦٦، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٣.

(٢) هم أتباع محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥هـ، وقد اشتهروا بالتشبيه في صفات الله ﷻ. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص١٠٨، معجم ألفاظ العقيدة ص٣٣٣.

(٣) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٦١، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٣، **والهشامية**: فرقة من غلاة الشيعة أصحاب الهشامين: هشام بن الحكم الرافضي، وهشام بن سالم الجواليقي، ومقالتهما في التشبيه مشهورة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص ١٨٤.

(٤) هو الطبيب الفيلسوف: هبة الله بن علي بن ملكا البغدادي، أبو البركات البلدي، كان يهوديا ثم أسلم أواخر عمره، وكان يخدم الملوك بطبه، ومن مؤلفاته: المعتبر في الحكمة، ورسالة في العقل، توفى سنة ٥٤٧هـ. انظر: السير ٢٠/ ٤١٩، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٢/ ١٧٣١.

(٥) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٦٢، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٣. **والرازي هو المتكلم إمام الأشعرية**: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن القرشي التيمي أبو عبد الله الرازي الشافعي، مشهور بابن خطيب الري، ولقب بسلطان المتكلمين!!، كان متصلا بالملوك وله منهم عطايا، وله باع في العلوم الفلسفية والمنطقية، ودخل الخلوات الصوفية، لكنه قليل البضاعة في السنة النبوية، له مصنفات مشهورة، وبنثر المنطق مملوءة، ومنها: المباحث المشرقية، والمطالب العالية وغيرها، وفي وصيته ما يدل على أنه رجع إلى طريقة الكتاب والسنة وترك ما عليه أهل الكلام. انظر: ميزان الاعتدال٣/ ٣٤٠، لسان الميزان٤/ ٤٩٨، مقدمة محقق المباحث المشرقية.

(٦) هو الفيلسوف الطبيب: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، أبو الوليد الحفيد، وهو فقيه مالكي، ولد بقرطبة ونشأ بها، وولي قضاءها، وكان من مناصري الفلاسفة، وله مؤلفات كثيرة، منها: بداية المجتهد، وتهافت التهافت، ومناهج الأدلة، توفي سنة ٥٩٥هـ. انظر: السير ١٩/ ٥٠١.

والماتريدي(١)، ومنهم من يقول: المعنى فيض، كقول المتفلسفة، وهذا قول الباطنية متشيعهم وصوفيهم، ويقولون: إن القديم حل في المحدث(٢).

٨- كلام الله مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه من الأشعرية(٣)، وهو قول لابن عربي الطائي الحلولي(٤).

٩- كلام الله ليس بائنا عن الله، بل هو قائم بذات الله، وهو حروف متعاقبة، وأصوات مسموعة، يتكلم متى شاء، وكيف شاء، إذا شاء، وأن نوع الكلام أزلي، وآحاده متكلم به ربنا متى شاء، مع من شاء، وهذا هو قول السلف قاطبة(٥).

فهذا محصل أقوال الفرق في كلام الله ﷻ على التفصيل(٦).

ويمكن أن تكون الأقوال سبعة(٧): وذلك باعتبار أن القول (السادس والثامن) يرجعان إلى القول (الثالث).

---

(١) هو المتكلم الكبير: محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي السمرقندي، سلك طريقة التأويل في صفات الرب الجليل، وله مصنفات مشهورة، منها: تأويلات القرآن، وتأويلات أهل السنة!!، توفي سنة ٣٣٣هـ. انظر: الفوائد البهية ص١٩٥، هدية العارفين ٢/ ٣٦.

(٢) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٦٢،المجموع ١٢/ ١٦٧، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٤، إيثار الحق على الخلق ص١١٩، وانظر: قول ابن رشد في منا هج الأدلة له ص٧٣.

(٣) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٦٣، المجموع ١٢/ ١٦٧، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٤.

(٤) انظر: كتاب اصطلاح الصوفية له ص ١٥(العموم). و **ابن عربي هو الحلولي الصوفي الأكبر**: محمد بن علي بن أحمد أبو بكر الطائي الأندلسي المعروف بابن عربي (نكرة)، يلقب بالشيخ الأكبر!!، وهو متكلم فلسفي صوفي، كفره أئمة الإسلام، لأقواله الشنيعة، وكتاباته السيئة، التي ملئها حلولا واتحادا، رحل إلى مصر، وسكنها، ثم كُفر وهرب إلى الشام، واستقر بها، وله رسائل كثيرة، منها: فصوص الحكم!!، الفتوحات المكية!!، وغيرها، توفي بالشام سنة ٦٣٨هـ. انظر: السير٢٣/ ٤٨، ميزان الاعتدال ٣/ ٦٥٩.

(٥) انظر: الفصل الأول، من الباب الأول، وانظر: منهاج السنة ٢/ ٣٦٢، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٤.

(٦) ولم يذكر من ذكر الأقوال حتى على وجه التفصيل: الواقفة، واللفظية، وإن عُد القولان كانت الأقوال: أحد عشر، ولكن لعلهم لم يعدوها، لكون قول كلّ منهما تابعا وناتجا عن تلك الآراء ـ والله أعلم ـ، وسيأتي الرد عليهما تفصيلا.

(٧) انظر: المجموع ١٢/ ١٦٢، مختصر الصواعق المرسلة٢/ ٢٨٦وما بعدها، ومعارج القبول١/ ٤٨١.

ويمكن أن تكون ستة أقوال[١] باعتبارين:

١- أن الأقوال (الخمس الأول) مع قول أهل السنة (التاسع) هو قول الطوائف الكبار، وما عداها من الأقوال فأقوال لآحاد من الناس.

٢- أن يقال: إن القول (السادس والثامن) يرجعان إلى القول (الثالث): وهو أن الكلام القائم بالذات ليس مخلوقا، وأما القرآن الموجود فهو مخلوق، وهذا مؤدى القولين، وأن القول (السابع) يرجع أيضا إلى القول (الثالث)، وهو القول بالكلام النفسي، فعلى هذا يكون أيضا ستة أقوال[٢].

ويمكن أن تكون ثلاثة أقوال، باعتبار النظر إلى المتكلّم من حيث لزوم كون لكلام قائما به أم لا، وباعتبار شهرتها[٣]، وهي:

١- أنه قائم به، وليس بمخلوق.

٢- أنه ليس قائما به، بل بائن عنه مخلوق.

٣- أنه لا هذا ولا هذا.

ويمكن أن تكون ثلاثة أقوال باعتبار النظر إلى المتكلّم من حيث تكلُّمه بمشيئته واختياره أم لا:

١- أنه يتكلم بكلام أزلي قائم به لا بمشيئته.

٢- أنه يتكلم بمشيئته واختياره.

٣- أنه لا هذا، ولا هذا.

ويمكن أن تكون ثلاثة أقوال باعتبار الكلام، ما هو:

١- أنه اسم للفظ والمعنى جميعا.

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٤٢.

(٢) وإنما ذكرت هذا الجمع حتى يتبين وجه الاختلاف في العد، لأن من أسباب الاختلاف فيه: الجهل، أو الغفلة، أو ذكر الأقوال متداخلة، وهذا الأخير هو الذي صار عليه شيخ الإسلام، حيث يذكر في بعض المواضع تسعة أقوال على التفصيل، وفي بعضها سبعة، وفي بعضها ستة، فلا يظنن ظان أن هذا عنده من الاضطراب.

(٣) انظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات لشيخنا أ.د/ أحمد بن عطية الغامدي ص١٩٧.

٢- أنه اسم للَّفظ فقط بشرط دلالته على المعنى.

٣- أنه اسم للمعنى دون اللفظ الموضوع له[(١)].

ويمكن أن تكون الأقوال ثلاثة، باعتبار المتكلم من هو:

١- أنه من فعل الكلام، وقدر عليه، ولو في غيره.

٢- أن المتكلم من قام به الكلام.

٣- أن المتكلم من قام به الكلام وكان قادرا[(٢)].

ويمكن أن تعد الأقوال بالنسبة إلى مرجعها إلى قولين، من حيث الجملة:

١- أن كلام الله ليس بمخلوق (بهذا الاعتبار إجمالا).

٢- أن كلام الله مخلوق (بهذا الاعتبار إجمالا)، وكل من الأقوال التسعة سيدخل من حيث الإجمال تحت هذين القولين، لكن الإجمال في موضع التفصيل يورد الاشتباه، ولذا كان الأفضل والأليق في نسبة الأقوال وردِّها هو التفصيل، والله تعالى وحده الهادي إلى سواء السبيل.

الأمر الرابع: سبب ضلال الفرق ومنشأ نزاعهم.

هناك عدة أسباب، لاختلاف أصحاب المقالات في هذا الباب، أعني في اختلافهم في كلام الوهاب، وهي:

١- **من أسباب ضلالهم، ومنشأ نزاعهم ما أحدثوه من طريقة بدعية في الاستدلال** على وجود الله وربوبيته، ومعرفته، **وهو ما يسمى بطريقة الحدوث والإمكان**[(٣)]، وذلك أن مسألة حدوث العالم، وإثبات الصانع، استدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الكلام[(٤)] على ذلك بأن ما لا تخلو عن الحوادث فهو حادث، والكلام إذا كان حادثا فهو مخلوق، كما هو قول الجهمية والمعتزلة، ومن وافقهم، وأما من خالفهم

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٢٢.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٢٢.

(٣) انظر: الصفدية ١/ ٦٦.

(٤) إشارة إلى الكلابية والأشعرية والماتريدية ونحوهم.

من أهل الكلام، اضطروا ـ لأنهم وافقوهم في أصل القول بالحدوث والإمكان ـ أن يقولوا: إن الكلام ليس بحادث، بل هو أزلي، ولم يهتدوا إلى الفرق في المسألة، وهو القول بأزلية الكلام من حيث كونه متكلما، وأن آحاده في وقت معين، فنشأ النـزاع والتفرق[(١)]، فهذه «الطريقة هي التي ولّدت بين المسلمين اختلافهم في القرآن، وكلام الله ﷻ، حتى صار كثير من الناس ـ أو أكثرهم ـ في ذلك إما حائرا، وإما مخطئا مبتدعا، وكفر بعضهم بعضا بسبب ذلك»[(٢)].

٢- **من أسباب ضلالهم كلامهم في الدين بناء على القواعد المنطقية**، والفلسفة اليونانية والهندية، مما أورثهم شبها كثيرة، ضلوا بسببها عن قواعد الشرع، والتزموا قواعدهم البدعية، قال شيخ الإسلام ؒ: «فإن قيل ما منشأ هذا النـزاع، والاشتباه، والتفرق، والاختلاف؟ قيل: منشأه هو الكلام المذموم الذي ذمه السلف، وعابوه، وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل: فيه ما يوافق العقل والسمع، وفيه ما يخالف العقل والسمع، فيأخذ هؤلاء جانب النفي المشتمل على نفي الحق والباطل، وهؤلاء جانب الإثبات المشتمل على إثبات حق وباطل»[(٣)].

٣- **من أسباب ضلالهم تقصيرهم في معرفة الحق**: «أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، وما كان عليه السلف، ومعرفة المعقول الصريح...، وهؤلاء المتنازعون أجمعوا على أصل فاسد، ثم تفرقوا، فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق، هي عين صفة المخلوق، ثم قال هؤلاء: وصفة المخلوق مخلوقة، فصفة الرب مخلوقة؟ فقال هؤلاء: صفة الرب قديمة، فصفة المخلوق قديمة، ثم احتاج كل منهما إلى اضطراد أصله، فخرجوا إلى أقوال ظاهرة الفساد: خرج النفاة إلى أن الله لم يتكلم بالقرآن...، وأنه لم يناد موسى ؑ بنفسه بنداء يسمعه منه موسى ؑ...، وخرج هؤلاء إلى أن ما يقوم بالعباد، ويتصفون به يكون قديما أزليا»[(٤)]، وأحيانا تجد

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ١٤٠، ٥٩٢، ٢١٣، النبوات ٢٣٠، الصفدية ١/ ١٢٨-١٢٩.

(٢) الصفدية ٢/ ٤٠.

(٣) المجموع ١٢/ ١٤٠، وانظر: الكلام على مسألة السماع لابن القيم ص ١٧٥.

(٤) المجموع ١٢/ ٨٢-٨٣، وانظر: منهاج السنة ٥/ ٤٣٢-٤٣٣، شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٨-٩.

المتنازعين طائفتين، ومع «كل واحدة من الطائفتين جزء من الحق، وجزء من الباطل»[(١)]، ولو صُفِّيَتِ الأقوال من الأخطاء، وصُفِّيَ ما فيه من الحق، لظهر الحق في كل مسألة على صورة جلية، وطريقة مرضية[(٢)].

٤- **من أسباب ضلالهم استعمالهم للألفاظ المجملة:** «وأئمة السنة كأحمد بن حنبل، وغيره، كانوا إذا ذَكَرَتْ لهم أهلُ البدعِ الألفاظَ المجملة: كلفظ الجسم، والجوهر، والحيز[(٣)]، ونحوها، لم يوافقوهم، لا على إطلاق الإثبات، ولا على إطلاق النفي، **وأهل البدع بالعكس ابتدعوا** ألفاظا ومعاني، إما في النفي، وإما في الإثبات، وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم!! الذي يجب اعتقاده، والبناء عليه! ثم نظروا في الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أريد بها!! فجعلوا بدعهم أصلا محكما، وما جاء به الرسول ﷺ فرعا، ومشكلا: إذا لم يوافقه»[(٤)].

الأمر الخامس: وصف المخالفين في هذا الباب.

إن أهل البدع في كتاب الله من المحرفين الغالين، والمنتحلين المبطلين، ومن المؤولين الجاهلين، عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مخالفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين[(٥)]، الذين حق عليهم قول رب العالمين، ويصدق

---

(١) منا هج الأدلة لابن رشد ص٧٤، وانظر: شرح الأصبهانية ص ٣٣٦.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٣٣٥-٣٣٧.

(٣) هذه ألفاظ محدثة، أحدثها الجهمية، ولهم فيها اصطلاح خاص، فالجسم عندهم: جوهر قابل للأبعاد الثلاثة، وقيل: هو المركب المؤلف من الجوهر (التعريفات للجرجاني ص٧٦)، والجوهر: الماهية، وهي منحصر في خمسة: هيولى، وصورة، وجسم، ونفس، وعقل (التعريفات ص٧٩)، والحيز هو: الفراغ المتوهم الذي يشغله شيء كالجسم (التعريفات ص٩٤).

(٤) المجموع ١٧/ ٣٠٦، وانظر منه: ١٢/ ٢١٣.

(٥) انظر: الرد على الجهمية ص ٦، المجموع ٤/ ٢١٧-٢١٨، النبوات ص ٢١٧.

عليهم عموم آيات القرآن المبين، قال ﷻ: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾[الحجر:٩٠-٩١] قيل المقتسمون: هم الذين تفرقوا في كتبهم، إذ آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، قال ابن جرير ﷺ: « والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله ﷻ، أمر نبيه ﷺ أن يُعلم قومه الذين عضَّهوا[١] القرآن ففرقوه، أنه نذير لهم من سخط الله تعالى، وعقوبته، أن يحل بهم على كفرهم بربهم، وتكذيبهم نبيهم، ما حل على المقتسمين من قبلهم، ومنهم »[٢]، ثم ذكر أن المراد بالمقتسمين إما: اليهود، وإما النصارى، وإما المشركون، ثم رجح العموم، وأنها فيهم وفي من اتصف بحالهم، فقال: « فإذا لم يكن في التنـزيل دلالة على أنه عنى به أحد الفرق الثلاث[٣] دون الآخرين، ولا في خبر عن الرسول ﷺ، ولا في فطرة عقل، **وكان ظاهر الآية محتملا ما وصفت، وجب أن يكون مقتضيا بأن كل من اقتسم كتاب الله بتكذيب بعض، وتصديق بعض** »[٤]. كان من المقتسمين.

وبعد هذه المقدمات، أذكر المقالات، مع إيراد شبههم، والرد عليها - وبالله تعالى التوفيق -.

---

(١) أي: جعلوه قطعا مجزءاً، وهو من (العِضَة) والأصل(عِضوة) والجمع (عِضون). انظر: المصباح المنير للفيومي ص ٤١٥.

(٢) جامع البيان ٧/ ٥٤٥.

(٣) في النسخ المطبوعة من التفسير: (أحد الفرق الثلاثة)، والتصويب من عندي، ويمكن أن يكون ما في المطبوع صحيحا بتعسف، وهو أن يقال إن في الكلام تقديما وتأخيرا، ولفظه: أحد الثلاثة الفرق.

(٤) جامع البيان ٧/ ٥٤٥، وانظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٥٨، الفتح ٨/ ٢٣٢، إمداد القاري بشرح كتاب التفسير من صحيح البخاري٢/ ٣٩٢-٣٩٣.

المبحث الأول: القول بالفيض

قبل الكلام عن القائلين بالفيض أبين أمورا، وهي:

أولا: معنى الفيض لغة.

الفيض (بالمعجمات) مأخوذ من فاض الماء، تقول: فاض الماء فيضا، وفيوضة، وفيوضا، وفياضا، وفيضوضة؛ إذا زاد، وسال منصبا، وجرى من مكانه إلى آخر.

وفاضت عينه فيضا: إذا سالت، قال ﷻ: ﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ [المائدة:٨٣].

ومنه: أفاض القوم من عرفة، كقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة:١٩٩]، وأرض ذات فيوض: إذا كان فيها ماء يفيض[١]. فهذا يفيد من حيث اللغة أن الفيض يكون بلا إرادة.

ثانيا: الفيض عند القائلين به واصطلاحهم فيه.

الفيض عند القائلين به هو: «عبارة عن التجليات الأسمائية الموجبة لظهور ما يقتضيه استعدادات تلك الأعيان في الخارج»[٢]، ومعنى التجليات الأسمائية: الاستعدادات العيانية والروحانية، فهو يعني استعداد في البدن، واستعداد في الخارج.

« والفيض: إنما يستعمل في إلقاء الله تعالى، وأما ما يلقيه الشيطان؛ فإنه يسمى بالوسوسة...، والفيض الإلهي ينقسم إلى الفيض الأقدس!!، والفيض المقدس!!

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ص٨٢٤، المفردات للراغب ص٣٩٠، المصباح المنير ص٤٨٥، لسان العرب١٠/ ٣٦٦ وما بعدها.

(٢) انظر: التعريفات للجرجاني ص ١٦٩.

وبالأول تحصل الأعيان، واستعداداتها الأصلية في العلم، وبالثاني: تحصل تلك الأعيان في الخارج مع لوازمها» !!![1].

فـ «كلام الله اسم لما يفيض على قلب النبي من العقل الفعال، أو غيره»[2]، وهذا الفيض يكون من «النفس الكلية وهو اللوح المحفوظ»[3] فلا يكون حينئذ لكلام الله ﷻ «صوت معهود، ولا حرف من الحروف المعلومة، ولكن كلام كل جنس مما يشاكله، وعلى حسب ما يليق بشأنه، **ويعطيه استعداد القبول الروحانية الإلهية السارية في كل وجود**»[4]، وهذا الذي يسمونه بالفيض قد يعبرون عنه بما يسمونه النور الذي يقذف في القلب، والفيض الذي يدرك بالمجاهدة، كما يقول الغزالي[5] في طوره الفلسفي الصوفي وهو يتحدث عن أهمية المجاهدة الصوفية وكيفيتها، فمن «لازَم التقوى، ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة، والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية، تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي، يقذف في قلبه، بسبب المجاهدة»[6]، ويقول: «والإقبال بالكلية على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي، عن شوائب المجادلات، **وهي رحمة من الله ﷻ تفيض على من يتعرض لنفحاتها، بقدر الرزق، وبحسب التعرض، وبحسب قبول المحل**، وطهارة

---

(٥) الكليات لأبي البقاء الكفوي الفيلسوف المتكلم الماتريدي ص٦٩١-٦٩٢.

(٢) المجموع ١٢/ ٣٥٢، وانظر: ١٢/ ٥٥٦.

(٣) كتاب اصطلاح الصوفية لابن عربي الوجودي ص ١١ (الورقاء)، وانظر: المدينة الفاضلة للفارابي ص ٢٤ وما بعدها، حيث يقرر نفس هذه الفكرة الفيوضية التي هي عن العلم في عمية، وقريب من هذا قول الغزالي الذي يصرح بأن النائم يدرك من الغيوب ما سيكون، إما صريحا، أو على صورة مثال، وأن هذا النوم هو نموذج من خاصية النبوة!!، انظر: المنقذ من الضلال ص ١٤٦، وهذا هو عين رأي ابن سينا حيث يرى الفيض وأنه يمكن ويكتسب. انظر: مقدمة محمد السليماني لقانون التأويل ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٤) أيام الشأن لابن عربي الطائي ص ٤.

(٥) هو المتكلم الأصولي الصوفي: محمد بن محمد بن أحمد الطوسي أبو حامد الغزالي، دخل في جميع العلوم، وله باع فيها، ولم يقر له على مذهب قرار، وصنف في التصوف وعلم الكلام، ومن تصانيفه المشهورة: تهافت الفلاسفة، والإحياء، توفي سنة ٥٠٥هـ. انظر: السير ١٩/ ٣٢٢.

(٦) إحياء علوم الدين للغزالي ١/ ١٥٢.

القلب، وذلك البحر الذي لا يدرك غوره، ولا يبلغ ساحله»[١].

ويقول ابن عربي الطائي مبينا كيفية تلقي النبي الوحي: «لكن معارج الأنبياء بالنور الأصلي، ومعارج الأولياء بما يفيض من النور الأصلي»[٢].

كما يقول إن تعلم القرآن يمكن أن يكون من غير معلم إذا صَفَتِ النفس[٣]. وهو يعني أنه يمكن تلقيه عن طريق الفيض.

ثالثا: سبب القول بالفيض.

القول بالفيض نظرية قديمة عند الفلاسفة المتألهة، ومن رام الجمع بين الشريعة والفلسفة من المنتسبين إلى الإسلام فإنهم قالوا بهذه النظرية تبعا لأشياخهم، ويمكن إرجاع سبب القول بالفيض في مسألة الكلام عند فلاسفة المسلمين إلى أمرين:

الأول: أنهم يرون أن الله ﷻ الذي يسمونه بالعقل الأول، أو الفلك الأول، لم يصدر عنه شيء، وإنما فاض عنه الفلك الثاني كفيض العلة عن المعلول، كما يخرج الشعاع من الشمس، من غير إرادة، ولا مشيئة، وهكذا حتى العقل الذي يسمونه العقل الفعال ـ الذي عندهم هو المدبر للكون ـ ويصدر عنه أفعال هي: الخلق والتدبير من غير إرادة منه، فكذلك العلوم تفيض منه، ومن العلوم الكلام، سواء كانت عند الأنبياء، أو الأذكياء، أو الأصفياء، وذلك باستعداد المحل، دون إرادة من العقل الفعال[٤].

فهم يرون أن الأفعال تصدر عن العقل الفعال من غير إرادة منه، فكذلك الكلام يفيض منه من غير إرادة واختيار منه، بل يقولون: إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد[٥].

الثاني: أنه لما كان لهذه الفلسفة مكانة في قلوبهم، وهي تخالف الشرع بقواعدها

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٥٩، وقال شيخ الإسلام ـ نقلا عن الغزالي ـ: «إن الواحد من أهل الرياضة قد يسمع كلام الله، كما سمعه موسى بن عمران». انظر: المجموع ٦/ ٥٤٠.

(٢) رسالة الأنوار لابن عربي الطائي ص١٥، وانظر: الكتب: لابن عربي الطائي ص٤٣.

(٣) انظر: الإسفار عن نتائج الأسفار لابن عربي الطائي ص ١٦.

(٤) انظر: شرح القصيدة النونية ١/ ١٤٦.

(٥) انظر: المجموع ١٢/ ٤٢، موسوعة الفلسفة ٢/ ١٠٥.

وآراءها، فراموا وتظاهروا بمصانعة الشرع، والجمع بينهما ولو بطريق مبتدع، فجاؤوا بشيء جديد، و« غرضهم هو التوفيق بين الفلسفة والدين؛ لأن كلا منهما حق في زعمهم!!، والحق لا يتناقض، ولكنهم في حقيقة أمرهم كانوا زنادقة ملحدين، ولهذا تراهم يجعلون مبادئ الفلسفة هي الأصل، ويحاولون أن يجروا الدين إليها، ويخضعوه لقواعدها »(١).

رابعا: القائلون بالفيض.

إن الفلاسفة « ليس لله تعالى ـ عندهم ـ كلامٌ أنزله إلى الأرض بواسطة الملك؛ فإنه تعالى ما قال شيئا، ولا يقول، ولا يجوز عليه الكلام عندهم.

ومن تقرب منهم إلى الإسلام يقول: الكتب المنزلة فيض فاض من العقل الفعال على النفس المستعدة الفاضلة الزكية، فتصوَّر النبيُّ تلك المعاني، وتشكلت في نفسه، بحيث يتوهمها أصواتا... ولا حقيقة لشيء من ذلك »(٢).

فالقول بالفيض هو المشهور عن الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، كالفارابي(٣)، ورئيسهم وحامل رايتهم ابن سينا(٤)، وغيرهم(٥)، يقول ابن سينا في رسالته العرشية: « فوصفه بكونه متكلما لا يرجع إلى ترديد العبارات، ولا إلى أحاديث النفس، والفكرة المتخيلة المختلفة التي العبارات دلائل عليها، بل فيضان العلوم منه على لوح قلب النبي ﷺ بواسطة القلم النقاش، الذي يعبر عنه بالعقل الفعال، والملك المقرب!! »(٦).

---

(١) شرح القصيدة النونية للشيخ محمد خليل هراس ١/ ١٤٦.

(٢) كيد الشيطان لابن الجوزي ص٨١.

(٣) هو معلم الفلسفة الثاني: محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي، وكان له علم بالطب والموسيقى، أوتي ذكاء، وسافر البلدان، ونشر الفلسفة بين أهل القرآن، من مؤلفاته: المدينة الفاضلة، المدخل إلى صناعة الموسيقى، وغيرها، توفي سنة ٣٣٩هـ. انظر: السير ١٥/ ٤١٦.

(٤) هو الشيخ الرئيس في المنطق والفلسفة على التخصيص: الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا أبو علي البلخي، مشارك في أنواع من العلوم، كان باطنيا فلسفيا، تصانيفه كثيرة، منها: القانون في الطب، تقاسيم الحكمة، توفي سنة ٤٢٨هـ. انظر:السير ١٧/ ٥٣١.

(٥) انظر: المجموع ٤/ ٩٩.

(٦) نقلا عن شرح القصيدة النونية للشيخ محمد خليل هراس ١/ ١٤٦-١٤٧.

فابن سينا، والفيلسوف الفارابي من قبله، والطوسي الرافضي(١) من بعده، وابن سبعين(٢)، «قولهم: إن كلام الله فيض فاض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات و تصديقات بحسب ما قبلته منه»(٣).

قال ابن القيم رحمه الله:

وأتى ابن سينا القرمطي مصانعا ... المسلمين بإفك ذي بهتان

فرآه فيضا فاض من عقل هو الـ ... ـفعال علة هذه الأكوان

حتى تلقاه زكي فاضل ... حسن التخيل جيد التبيان

فأتى به للعالمين خطابة ... ومواعظا عريت عن البرهان(٤)

فابن سينا يرى أن الوحي فيض فاض من العقل الفعال على النفوس، وأن هذا الفيض من غير إرادة منه، فإذا أصبحت النفس صافية كالمرآة تنعكس المعاني من العقل الفعال عليها، وتنطبع فيها، ثم إن نفس النبي تتلقى المعاني المجردة، وتجسمها وتنظمها في حروف وألفاظ بديعة، كالخطابة والمواعظ، ليست هي براهين عقلية!!(٥).

وابن سينا كغيره من الفلاسفة يرى أن الله ﷻ لا يصدر عنه فعل باختيار منه،

---

(١) هو الفيلسوف الرافضي: محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، مشارك في أنواع العلوم، وساعد التتار في دخول بغداد، وكان ممدودا من هولاكو بالمال، له قواعد العقائد، حواش على كليات قانون ابن سينا، هلك سنة ٦٧٢هـ. انظر: معجم المؤلفين ١١/ ٢٠٧.

(٢) انظر: منهاج السنة ٨/ ٥٥، المجموع ١٢/ ٣٥٣. وابن سبعين هو الصوفي الفلسفي: عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الإشبيلي، أبو محمد المشهور بابن سبعين، مشارك في فنون عدة، وانتحل التصوف مع الفلسفة، من تصانيفه الكثيرة: أسرار الحكمة المشرقية، توفي سنة ٦٦٩هـ. انظر: معجم المؤلفين٥/ ٩٠.

(٣) معارج القبول ١/ ٤٨٢، وانظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠٦، الجواب الصحيح ٥/ ٣٤٤، ٣/ ٣١١، منهاج السنة ٢/ ٣٥٩، ٣٦٢، ٤١٥، الرد على المنطقيين ص١٤٠-١٤١، ٢٧٧، ٢٨٢،٣٣٥ شرح الأصبهانية ص٤١٣، المجموع ٦/ ٥٤٠، ٧/ ٦٦١ وما بعدها، ١٢/ ١٤-٢٩، ٣٥٢، ١٥/ ٢٢٢، ٣٩٩، لباب العقول ص ٢٥٧.

(٤) النونية المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية١/ ١٤٥ مع شرح الشيخ محمد خليل هراس.

(٥) انظر: كتابه الشفاء، ص٣٨٠، وما بعدها، وشرح القصيدة النونية ١/ ١٤٦، معارج القبول ١/ ٤٨٨.

وإنما صدر عنه الأفلاك وغيرها بالفيض، فحتى فعله فيض، كما أن قوله عندهم فيض، فيقول ابن سينا: «فلتعلم أن جميع ما سواه هو فعله، وأنه صدر عنه لذاته»[(١)].

فإذا قالوا: إن الكلام فعل مع قولهم بالفيض، فيعنون أنه كما كان منه فعل بدون اختيار، وهو وجود هذه الأفلاك، فكذلك يكون منه وحي يستفاد بصفاء النفس، ويدرك بدون إرادة منه.

وقد قرن ابن القيم رحمه الله ابنَ رشدٍ بابنِ سينا[(٢)]، وذلك أنه يدافع عن مقولات الفلاسفة، وينافح عن مقالتهم الزائفة، ويقول بقولهم حذو القذة بالقذة، لكن بأسلوب متلبس بزي الشرع، وبمسميات لا يتنبه لها.

قال ابن رشد: «وقد يكون من كلام الله ما يلقيه الله إلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، بواسطة البراهين، وبهذه الحجة صح أن القرآن كلام الله»[(٣)]، فابن رشد يرى أن ما عرفه العلماء من العلوم، هو من الفيض الذي توصلوا إليه بواسطة صفاء النفس، ونقاء الذهن، وبهذا الاعتبار صح أن القرآن كلام الله أي باعتبار أنه فيض على نفس النبي ﷺ.

فالأمر عندهم لا يعني إثبات فعل لله ﷻ، باختياره ومشيئته، وكذلك كلامه تعالى إذ شبهوا الكلام بما يعتقدونه هم في الفعل، قال ابن رشد: «الكلام ليس شيئا أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه، وذلك فعل من جملة أفعال الفاعل...، ولهذا الفعل شرط آخر في الشاهد، وهو أن يكون بواسطة، وهو اللفظ، وإذا كان هذا هكذا، وجب أن يكون هذا الفعل من الله تعالى **في نفس من اصطفى من عباده بواسطة ما، إلا أنه ليس يجب أن يكون لفظا ولا بد مخلوقا له**، بل قد يكون بواسطة ملَكٍ، وقد يكون وحيا بغير واسطة لفظ يخلقه، **بل يفعل فعلا في السامع ينكشف له به ذلك المعنى، وقد يكون بواسطة لفظ يخلقه الله في سمع المختص**

---

(١) الرسالة العرشية له ص١٣، نقلا عن كتاب ابن تيمية السلفي للشيخ محمد خليل هراس ص١٥٤.

(٢) الصواعق المرسلة ٣/ ١٠٩٦.

(٣) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٣، وانظر: مجموع رسائل الجامي ص ٢٦١.

بكلامه سبحانه »[١].

ومما يدل على أن ابن رشد يرى الفيض الفلسفي في كلام الله ﷻ ، قوله في تعريف الوحي، حيث يقول: « الوحي هو: وقوع ذلك المعنى في نفس الموحى إليه بغير واسطة لفظ يخلقه، بل بانكشاف ذلك المعنى له بفعل يفعله في نفس المخاطب »[٢].

بل ويصرح بأن كلام الله ﷻ المسموع هو فيض عندهم، ليس بحرف، ولا صوت، بل هو انطباع في النفس، يقول ابن رشد مبينا كيفية الوحي: « بل بانكشاف ذلك المعنى له بفعل يفعله في نفس المخاطب، كما قال ﷻ : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم:٩-١٠]، ومن وراء حجاب: هو الكلام الذي يكون بواسطة ألفاظ يخلقها في نفس الذي اصطفاه بكلامه »[٣]. وصرح بأن الوحي من عند الله هو: « **كلامه ألقاه على لسان نبيه** »[٤]، فيكون النبي هو المرتب للحروف، والنظم بحسب خلقته هو، فتكون هذه الأحرف مخلوقة!!.

هذه أقوال الفلاسفة البحتة، وقد تأثر بهم من درس في مدارسهم، ونهج مناهجهم، ولو كان له مذهب آخر، فقد صار على درب الفلاسفة في القول بالفيض الصوفية الغلاة.

يقول ابن عربي الطائي مبينا وقت الفيض، وأنه يكون بعد أن يتحقق بأن الوجود واحد[٥]: « وهذا هو الاستعداد العزيز المطلوب، الذي لم يقدر عليه أكثر

(١) مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٢، فابن رشد يرى أن الكلام الذي فاض ليس بمخلوق، وأما اللفظ الدال عليه فهو مخلوق، وهذا هو عين كلام الأشعرية كما سيأتي وهو بأسلوب آخر، مع أنه يَرُدُّ عليهم، ولكن لعل ذلك الرد لكونهم فضحوا ما قال به الفلاسفة من أن ما أتى به الأنبياء محض تخييل!! والذي يقول عنه ابن رشد وأضرابه أنه أصلح للعامة!!!، وابن رشد يختلف عن الفلاسفة الصوفية من حيث إنّه وإن كان يرى الفيض إلا أنه يصرح بأن ألفاظ كلام الله مخلوقة، وأن ألفاظ القرآن مخلوقة!!، وإن كان معناه غير مخلوق!!، وأما أولئك فلا يصرحون.

(٢)مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٢-٧٣.

(٣) مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٢-٧٣.

(٤) مناهج الأدلة لابن رشد ص ١٢٣.

(٥) وابن عربي الطائي هو من القائلين بوحدة الوجود، وقد يكون له كلام يخالف الاتحادية، والحلولية، ويرد =

العقلاء، حتى أنكره بعضهم، أعني أنكر أن يكون له نتيجة، وأقر بها بعضهم، وسماها: **الفيض، والروح**، لكن عجزوا عن التوصل إليها لغلبة الفكر»(١). إذا عند هؤلاء أصحاب الفلسفة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود: «النبوة والرسالة فيض إلهي، واصطفاء رباني»(٢).

فإن قيل: هذا الذي فاض على النفس الزكية هل هو مخلوق أم لا؟ فإن الفلاسفة بحسب مدارسهم يختلفون في الجواب، ويفترقون كالمعتاد، على حسب أصولهم، ولم أقف على تصريح لهم في هذا، إلا أن منهم من يُخَرِّجُ قولُه أنه سيقول: لا مخلوق، ولا ليس بمخلوق، لقولهم بنفي النقيضين، ومنهم من يقول: بأن ما فاض كلام نفسي غير مخلوق، وما دل عليه من الأحرف فهو مخلوق(٣)، ومنهم من يقول بالحلول(٤).

ولهذا يقول ابن رشد مصرحا بمؤدى القول بالفيض: «**تبين لك أن القرآن الذي هو كلام الله قديم، وأن اللفظ الدال عليه مخلوق له سبحانه، لا لبشر**»(٥).

والقول بالفيض هو مذهب جمهور فلاسفة الصوفية كالغزالي، وهو رأي فلاسفة المتكلمة كالرازي، ومن القائلين به طائفة من الملاحدة الباطنية: متشيعهم ومتصوفهم(٦).

= عليهم، فيظن من لا يتروي أنه لا يقول بهذه المذاهب الهدامة، وهو إنما ينكر على تيك الطائفتين، لمخالفتها له في معتقد الوحدة، وهو غارق في وحدة الوجود حتى العظم.

(١) التراجم لابن عربي الطائي ص ١، و انظر: أخبار جلال الدين الرومي ص ٣١٢، **والرازي يرى في المباحث المشرقية هذا الرأي**، وهو أن النفس يمكن أن تكون مستعدة للفيض إذا صفت عن الأكدار!!!، انظر: المباحث المشرقية ٢/ ٤٣٣-٤٣٤.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة ٢/ ٤٢.

(٣) وهذا ما صرح به ابن رشد، وانظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢١٠، ٢١٤.

(٤) وهذا ما صرح به فلاسفة المتصوفة، كما ستراه في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٥) مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٣.

(٦) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٦٢، وهؤلاء يقولون بالفيض في بعض كتبهم.

خامسا: شبههم والرد عليها.

ولهم شبه في القول بالفيض في كلام الله ﷻ، وأن القرآن فيضٌ على محمد ﷺ، وأذكر هذه الشبه سواء كانت من فلاسفة الصوفية[(١)]، أم من الفلاسفة أنفسهم، ومن هذه الشبه:

الشبهة الأولى: قالوا بالفيض دون إثبات صفة قائمة بذات الرب ﷻ، أو صفة منفصلة عنه، لكونهم يرون في الصفات سلب النقيضين، فيقولون: أحكام الصفات لا سبيل للتعرض لها، لا نفيا، ولا إثباتا، فهم ينفون عنه قيام صفاته بذاته، وينفون عنه عدم ذلك!![(٢)] ويقولون: «التوحيد: إثبات الواحد من غير مشاركة في وصف، ولا نعت، ومنهم من قال: التوحيد: إثبات عين بلا وصف، ولا نعت»[(٣)]. ويقولون عن الصفات: «لا موجودة، ولا معدومة!!، ولا محدثة، ولا قديمة!!، ولكنها في القديم قديمة!!، وفي المحدث محدثة تعقل، ولا توجد بذاتها!!»[(٤)].

ويقول فيلسوفهم: «إن العقول تعرف الله من حيث كونه موجودا، ومن حيث السلب لا من حيث الإثبات»[(٥)].

وهذا عين ما قرره ابن سينا، من أن الله: «هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق»[(٦)]، «وليس له عندهم صفة ثبوتية تقوم به، ولا يفعل شيئا باختياره البتة،... ولا له كلام يقوم به»[(٧)].

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

١- أن لهم كلاما مناقضا لهذا المعتقد من حيث إثباتهم للأسماء وبعض

---

(١) وأما ما يتعلق بشبههم في القول بالحلول في مسألة الكلام، فأذكرها مع الرد عليها في المبحث التالي.

(٢) انظر: الجلالة لابن عربي الطائي ص١١.

(٣) الإعلام بإشارات أهل الإلهام لابن عربي الطائي ص٤.

(٤) الأزل لابن عربي الطائي ص٩.

(٥) رسالة ابن عربي الطائي للرازي ص٢.

(٦) ذكره ابن الجوزي كما في كيد الشيطان ص٨٠.

(٧) كيد الشيطان لابن الجوزي ص٨٠.

الصفات، كما يقول ابن عربي الطائي في "رسالة لا يعول عليها": « المعرفة بالله معرَّاة من الأسماء الإلهية، لا يعول عليها »[١]، ويقول: « تنـزيه الحق مطلقا عن صفات الخلق لا يعول عليه، فإنه يؤدي إلى نفي ما أثبته، ورفعه »[٢]. فمرة ينفون، ومرة يثبتون، ومرة لا، ولا!!!، فهؤلاء القوم من أشد الناس تناقضا[٣]، ويكفيهم ضلالا، تقلباتهم في معتقداتهم، وعدم ثباتهم في أقوالهم، أما أهل السنة من السلف والخلف فهم ثابتون على ما ورد من الكتاب، ومعتقدون بما جاء في السنة من الصواب.

٢- كذلك قولهم: بأن الله هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق هذا في حد ذاته وصف، وهم لا يثبتون الصفات، فكفاهم بهذا تناقضا.

٣- **كونهم لم يثبتوا الصفات، ولا نفوها**: يلزم منه العدم، إذ سلب النقيضين عدم، والعدم نفي محض، ليس فيه مدح، وأنقل الكلام الذي قرره الفيلسوف الصوفي ابن عربي الطائي فهو يصلح ردا عليه، وعلى أمثاله، إذ يقول: « ويلزمكم شناعة، وهو: أنكم نعتم الباري بالعدم، والعدم لا ينعت به، وهو محال على الله »[٤].

٤- **أن نفي النقيضين عدم محض**، وخيال مقدر في الذهن، ولا حقيقة له في الخارج، وهذا قول الملاحدة، المنكرين للرب ﷻ[٥].

٥- أن قيام الصفة في العبد المخلوق يعني أنها صفته، سواء اكتسبها بفيض، أو منام، فهذا يعني أن الله لم يتكلم، وليس القرآن كلام الله، وهذا يكفيهم ضلالا، ويتبين ضلالهم أكثر إذا علمنا أنهم يعلمون أن نفي الصفة عن محل، وإثباتها في محل آخر، يعني قيام تلك الصفة في المحل القائم به، إذ المعاني إنما تجب أحكامها بمن قامت به[٦]. ومع هذا الذي قرروه فإنهم ينعتون الباري بنفي النقيضين، وبنفي قيام صفة الكلام به

---

(١) ص٣.
(٢) لا يعول عليه لابن عربي الطائي ص٤.
(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢١٥، المجموع ١١/ ٦٠٦.
(٤) الأزل لابن عربي الطائي ص٣.
(٥) انظر: كيد الشيطان ص٨٠.
(٦) الأزل لابن عربي الطائي ص٤.

إلا على وجه لا اختيار له فيه، كما يفيض الماء في الوادي من غير اختيار منه.

٦- أن قيام صفة الكلام بالباري من غير مشيئة منه، فيه تشبيه له بالمخلوقات التي لا إرادة لها[(١)]، وتشبيه لصفته بالصفات التي تكون من غير إرادة، وهذا نقص وعيب، يجب نفيه عن الله ﷻ بلا ريب، فمثلا: الوجه يدل على الخجل إذا كان محمرا، وعلى الوجل والخوف إذا كان مصفرا، وذلك يكون من دون اختيار، فتشبيه صفة الكلام بأنه من غير اختيار كهذا تشبيه سيء، ومعلوم أن الله ﷻ إنما يكون منه الكلام اختيارا، ويسمعه من يشاء اختيارا، ويمنعه عمن يشاء اختيارا، فلا وجه إذاً للفيض في كلام الله ﷻ[(٢)]، ثم إن أساطين الفلاسفة «متفقون على إثبات الصفات، والأفعال الاختيارية له تعالى»[(٣)]، وإنما القول بنفي إرادته في أفعاله وأقواله، ونفي صفاته وأسماءه ناشئ من قول أرسطو ومن تبعه[(٤)].

٧- أن إثبات صفة الكلام لله ﷻ، والقول بأنه فيض، يشبه كلام القدرية، المثبتين لله ﷻ القدرة، وينفون عنه الاختيار في قدرة العبد، ويقولون: لا مشيئة نافذة لله ﷻ في أفعال العباد[(٥)].

الشبهة الثانية: من شبهاتهم في القول بالفيض: أنه لا يلزم من المتكلم أن يكون له كلام بصوت وحرف، كما يقول رئيسهم ابن عربي: «ليس الناطق من كلمك بصوته وحرفه!!، وإنما الناطق من كان في قوته أن يوصل إليك ما عنده من المعاني، ولا تقل على هذا: إن الوجود بذا الاعتبار ناطق! هذا فهمك، لا نطقه، **والذي قلناه نطقه!!!**»[(٦)].

والجواب:

١- أنه يلزم من هذا أن الأخرس إذا استطاع أن يوصل المعلومة إلى المتكلمين

---

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص٢٤١.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠١.

(٣) كيد الشيطان لنفسه قبل خلق آدم عليه السلام ص٧٧.

(٤) انظر: كيد الشيطان لابن الجوزي ص٧٦-٧٨.

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠١.

(٦) التراجم لابن عربي الطائي ص ٢٩.

بإشارة ونحوها: أنه متكلم!!، وإن تكلم عنه فلان وعلان!!.

٢- أن الكلام من غير صوت وحرف، هو الكلام النفسي، فكيف يفيض حينئذ، وهو نفسي لا يدرك، ولا يعرف؟؟.

٣- أين في الكتاب والسنة ما يدل على أن الله يتكلم بلا صوت ولا حرف؟؟، وأن هذا نطقه؟؟، بل الكتاب والسنة، والشرائع كلها تدل على أن الله متكلم بصوت وحرف[1].

٤- أن الذي يفيض على النفوس كل واحد يدرك أنه من جنس الخيال، الذي يكون في البال، أو في المنام مع الانشغال بالحال، وأما القرآن فهو كلام الله فوق البيان، الذي لا يشبه كلام العقلاء من ذوي الأسنان، فكيف يشبه بالهذيان، الذي يكون من جنس كلام الكهان.

٥- أن مما يدل على بطلان قولهم بالفيض: اختلافهم في تحديد المكان الذي يفيض منه هذا الكلام لو كان كذلك!!، فتارة يقولون: هو يفيض من العقل الفعال، وتارة يقولون: هو فيض من الأفلاك، ثم يختلفون في تحديد هذا الفلك، هل هو العاشر، أم هو...!! وقولهم بإثبات العقول العشرة أساسا باطل وضلال، لم يعرفه إلا الفلاسفة أهل الإلحاد والانحلال[2].

٦- أن الكلام الذي جاء في القرآن، لا يشبهه كلام إنس ولا جان، فكيف يكون هذيانا من الخيال؟؟، أم كيف يكون إدراكا من غير مقال.

الشبهة الثالثة: من شبهاتهم: ما يذكره ابن عربي الطائي الوجودي حيث يقول: «فأما كونه لا يزال ينـزل على قلوب العباد، لما قام الدليل على استحالة إقامة العرض زمانين[3]، وقام الدليل على استحالة انتقاله من محل إلى محل، وأن حفظ زيد لا ينتقل إلى

(١) ذكرت الأدلة على أن الله يتكلم بصوت وحرف، في الفصل الأول من الباب الأول.

(٢) انظر: الصفدية ١/ ٩، ٢/ ٢٥٢، المجموع ١٢/ ٤٢.

(٣) ويقولون في تعريف العرض: الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى محل يقوم به، كاللون المحتاج في وجوده إلى

عمرو، فعند ما تسمع الأذن الملقن يلقى الآية عليها: **أنزلها الله على قلبه فوعاها، فإن كان الملقن في شغل عاد الملقن فعاد الإنزال، فالقرآن لا يزال منـزلا أبدا، فلو قال إنسان: أنزل الله عليّ القرآن لم يكن كاذبا، فإن القرآن لا يزال يسافر إلى قلوب الحافظين له »**[(١)].

والجواب:

١- يكفي هذا القول عارا وشنارا، أنه يؤدي إلى أن كل واحد من آحاد الأمة سيزعم أن القرآن أنزل عليه، وأنه رسول يوحى إليه!!.

٢- أن انتقال العرض في ذات من محل إلى محل ليس بصواب، على ما ذكر هو في الجواب، ولكن نزول القرآن على نبينا ﷺ ليس هو انتقال عرض من مكان إلى مكان، بل هو كالعلم يتعلم، ويكتب، فالعلم لا يزال يكون عند فلان ثم يعلم آخر، ولا ينتقل علمه بحيث يصبح جاهلا، فالكلام لا ينتقل من محل إلى محل، إلا من حيث وسيلة الأداء، فتارة مكتوب، وتارة مسموع، وتارة مقروء، والكلام هو الكلام، لم يتغير بتغير الوسائل فدل على أنه لا ينتقل، ولا يكون ملازما للنـزول، وكيف يكون ينـزل ـ ولا يزال ينزل ـ وقد نزل على النبي ﷺ، وإنما العباد يتعلمون ما نزل، ويقرؤون ما نزل، و ليس في ذلك أي استحالة.

٣- إذا كان القرآن لا يزال ينـزل عند قراءة كل قارئ فأي اختصاص لمحمد ﷺ في نزوله عليه؟؟.

٤- أن هذا القول يلزم منه أن من أخطأ في التلاوة يكون المنـزل نزل خطأ!! وهذا معلوم بطلانه، فدل فساد اللازم على فساد الملزوم.

الشبهة الرابعة: ومن شبههم: **أنهم شبهوا صفة الكلام بالعلم** تماما، كما هو واضح من كلام الفلسفي المتكلم ابن رشد[(٢)].

=

محل يقوم به، والزمان: هو الوقت، ويعنون بقولهم: يستحيل وجود العرض في زمانين، أي: يستحيل أن يوجد كلام: (وهو عرض) في زمانين، زمن التكلم وزمن آخر. انظر: التعريفات للجرجاني ص١١٤، ١٤٨.

(١) الإسفار عن نتائج الأسفار لابن عربي الطائي ص١٦.

(٢) انظر: فصل المقال له ص٤٢.

والجواب:

١ - أن تشبيه الكلام بالعلم من كل وجه يعني أنه هو، ويلزم منه نفي الكلام، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

٢- يلزم من هذا أن كل من علَّمه الله شيئا أن يكون قد كلمه الله ﷻ، وهذا معلوم البطلان، وينكره كل ذي لب فهمان(١).

٣- أن القرآن ليس هو علم الله ﷻ بدليل أن من علم القرآن، وحفظه، فإنه لا يكون عالما بكل علم الله ﷻ، بل القرآن من علم الله، والكلام من العلم، ويكون بعلم(٢).

الشبهة الخامسة: أن الإيحاء عندهم هو الفيض، وهذا يعني أنه لا فرق بينهما!!(٣).

والجواب:

١ - أن الإيحاء إذا كان هو الكلام، يلزم منه أن الله ﷻ يكون كلم النحلة، لأنه قال: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل:٦٨]، وهذا لم يقل به أحد من السلف، ولا من الخلف.

٢- أن الإيحاء قد يكون بمعنى الأمر بالتزام ما أوحي ونُزِّل، كما قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١] فالإيحاء قد يكون بمعنى الإعلام بأي طريق كان، وليس مقصورا على الكلام، ولا الكلام من جنسه(٤).

٣- أن كلام الله ﷻ إذا كان هو إيحاء علميا، فما هو وجه تخصيص موسى بالتكليم، وقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تدل على أن الله ﷻ، أوحى إلى أنبيائه، لا بوحي مجرد هو إعلام، ولكن بوحي يكون بواسطة أو بلا واسطة فيه كلام،

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠١.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢١٥.

(٣) وهذا الذي دندن حوله ابن رشد، انظر كلامه حول هذه المسألة في مناهج الأدلة ص٧٢-٧٣، ١٢٣.

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠٣.

هو أمر ونهي[(١)]، ومن تلكم الأدلة، قوله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[النساء:١٦٣-١٦٤]، وقال: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾[البقرة:٢٥٣] وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[الأعراف:١٤٣-١٤٤] فهذه الآيات صريحة في أن الله يصطفي من يشاء فيكلمه، ومنهم كليمه موسى، وأما إذا كان المراد هو حدوث الأصوات في نفس المكلَّم فهذا يحصل لآحاد الناس فيسمعون في أنفسهم هتافات، ونداءات فيكونوا مشاركين إذاً مع كليم الله موسى في الإيحاء، فضلا عن الأنبياء[(٢)].

٤- أن قوله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[الشورى:٥١] « يقتضي أن التكليم من وراء حجاب نوعٌ غير الوحي، وأن المكلَّم بذلك محجوب أن يرى الله، لأن التكليم المسموع قد يكون من وراء حجاب، كموسى إذ سمع كلام الله، أو يكون كلاما بدون حجاب، كما جاء في الحديث: [**ليقفن أحدكم بين يدي الله، ليس بينه وبينه حجاب، ولا ترجمان يترجم له**][(٣)] **فلو كان الكلام المسموع هو شيئا قائما بالمستمع، لا وجود له في الخارج، لكان من جنس الوحي الذي لا يحسن أن يقال معه: من وراء حجاب، فإن**

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢١١.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢١٢.

(٣) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب: الصدقة قبل الرد، ح(١٤١٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة...، ح(١٠١٦)، كلاهما عن عدي بن حاتم ﷺ، واللفظ للبخاري.

صاحب هذا لم يسمع شيئا منفصلا عنه يمكن مشاهدة المتكلم به تارة، وحجب المستمع عنه أخرى»[١].

٥- أنهم لم يقيموا دليلا معقولا، ولا منقولا على هذه الدعوى، إلا مجرد أقوال مبنية مسبقا، على نتائج لمقدمات فاسدة[٢].

٦- أن من اطلع على أقوالهم في مسائل الاعتقاد يعرف بعدهم عن الدين وأنهم ليسوا أهلا للاعتماد، فالفلاسفة يقولون: بأن الرسول يأخذ من الخيال!!، وأن اللوح والقلم وجبريل صور في نفس النبي!!، وأن الله لا يعلم الجزئيات!!، وأن المعاد ليس على حقيقته، بل هو خيال!!، فمن اطلع على هذه العقائد التي صرحوا بها في كتبهم، تيقن بأن القوم لا علم لهم بالشرعيات، وأنهم فيه من أهل الترهات[٣].

٧- من الأدلة على بطلان قولهم: ما يلزم على قولهم من اللوازم الفاسدة، لأن من نفى أن يكون هناك كلام حقيقي من الله ﷻ لرسله، لزم منه نفي النبوة، ونفي نزول الملك بالوحي!![٤].

٨- مما يدل على شناعة أقوالهم وبعدهم عن هدي القرآن، أنهم يقولون: بأن القرآن جاء بالتخييل!!، وليس كل ما فيه حقيقة، بل ويقولون: إن هذا التخييل لمصلحة الجمهور عامة الناس!!، وأما الخواص فحقهم التأويل!![٥].

٩- مما يدل على بطلان قولهم هذا، أنهم جعلوا من أنفسهم عدلاء كالأنبياء، يمكنهم الإدراك من اللوح المحفوظ، ويسمونها النفس الفلكية، والاطّلاع على

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢١٣.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢١٦.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٨، ١٠/ ٢٠٦، الجواب الصحيح ٥/ ٣٤٤، ٣/ ٣١١، منهاج السنة ٢/ ٣٥٩، ٣٦٢، ٤١٥، الرد على المنطقيين ص ٢٧٧، شرح الأصبهانية ص٤١٣، المجموع ٦/ ٥٤٠، ٧/ ٦٦١ وما بعدها، ١٠/ ٢٣٢، ١٢/ ١٤-٢٩، ١٥/ ٢٢٢، ٣٩٩، لباب العقول ص ٢٥٧.

(٤) انظر: منهاج السنة ٢/ ٤١٥-٤٣٥، ٤١٦، الرد على المنطقيين ص ٤٤٤، ٤٨٦، الصفدية ٢/ ٢٢٧.

(٥) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤٣٣، الرد على المنطقيين ص ٢٧٧-٢٧٨، ٤٧١، المجموع ٢/ ٤٩، ١٢/ ٣٠.

الغيب!!، عن طريق العقل الفياض!![١].

فبعد هذا يتبين بجلاء أن من ادعى أنه يُفاض عليه، أو أن موسى سمع شيئا في نفسه، أنه ما أعطاه الاختصاص الذي أعطاه الله إياه، وهذا ليس هو بالتكليم الحقيقي الذي خص به موسى، بل ليس هو التكليم الحقيقي عند أحد من الأمم، ولا يعقل أحد في التكليم هذا، وإنما هذا من جنس المنامات، وغايته أن يكون من جنس الإيحاء، والإنسان قد يرى في منامه أن الله خاطبه بكلام كثير يسمعه، فإن كان هذا كلاما حقيقيّا لله، فما أكثر الكلام الحقيقي لله!!، وما أكثر تكليمه بكلام حقيقي لآحاد الناس!![٢].

قال شيخ الإسلام ﷺ: «وكما أن إخباره عن أمور الغيب يدل على نبوته، فإنه يدل على أن النبوة إنباء من الله، ليس ذلك كما يقوله بعض المتفلسفة، كابن سينا، وأمثاله: إنه فيض فاض عليه من النفس الفلكية، أو العقل الفعال، ويقولون: إن النفس أو العقل، هو اللوح المحفوظ، وأن من اتصلت نفسه به علم ما علمته الأنبياء!!!، ويقولون: النبوة مكتسبة؛ لأن هذه صفتها، ويقولون: إن سبب علمه بالغيب هو اتصال نفسه بالنفس الفلكية، وزعموا: أنها اللوح المحفوظ، وأن تحريكها للفلك هو سبب حدوث الحوادث في الأرض!!»[٣]. فهذا خلاصة قول هؤلاء أصحاب الفيوض!!، وهو أن المالك القادر لهذا الوجود، عندهم ليس من أهل الكلام والجود[٤].

والقول بالفيض يلزم منه أن كل ما يخطر بالفكر، ويتكلم به الإنسان بلسان الذكر أن يكون كلاما لله ﷻ، وهذا الذي التزمه الصوفية الغلاة، والقائلون بالحلول في كلام الله، وأبينه في المبحث الآتي.

---

(١) انظر: الرد على المنطقيين ص ٤٧٤-٤٧٥، الصفدية ١/ ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢١٣.

(٣) الجواب الصحيح ٥/ ٣٤٤.

(٤) انظر: الصفدية ٢/ ٦١، المجموع ١٢/ ٢٩.

المبحث الثاني: القول بالحلول في القرآن

ولتجلية هذه المسألة أذكر أمورا على سبيل التوضيح والتبيين، وهي:

أولا: معنى الحلول.

الحلول في اللغة مصدر من (حَلّ)، ومعناه في الأصل: فتح الشيء، قال ابن فارس رحمه الله: «الحاء، واللام له فروع كثيرة، ومسائل، وأصلها كلها عندي: فتح الشيء، لا يُشذ عنه، يقال: حللت العُقدة أحلها حلا»(١).

فحل بمعنى: فتحت عقده بعد ما كان مشدودا، ومسائله كثيرة، ومن هذا الباب: حل فلان في كذا أي نزل؛ «لأن المسافر يشُد ويعقد»(٢)، فينـزل في محلة كذا وكذا.

فمن معاني الحلول في اللغة النـزول، وإذا كان كذلك؛ فإن القرآن على هذا المعنى يصح أن يقال عنه: إنه حل في الأرض؛ لأنه نزل من رب العزة جل وعلا، وحل في مصاحف المسلمين؛ لأنه بكتابتها صار نازلا فيها، وحل في القلوب، إذا حفظ.

وليس في اللغة أن الحلول معناه أن يصير الشيئان شيئا واحدا، وإنما تأتي حل بمعنى نزل، وبمعنى البدلية أي: حل فلان مكان فلان حلولا، إذا نزل عنده أو مكانه(٣).

وحل الشيء في كذا إذا نزل فيه، فإن في لا تفيد الظرفية مطلقا، بل تكون في كل موضع بحسبه، فحرف "في" التي يسميها النحاة ظرفا، يستعمل في كل موضع بحسب المعنى المناسب لذلك الموضع(٤).

---

(١) مقاييس اللغة ص ٢٤٦، وانظر: المفردات للراغب ص ١٣٥، لسان العرب ٣/ ٣٠٠.

(٢) مقاييس اللغة ص ٢٤٦، وانظر: المفردات للراغب ص ١٣٥، لسان العرب ٣/ ٢٩٥.

(٣) انظر: المصباح المنير ص١٤٧، لسان العرب ٣/ ٢٩٥.

(٤) انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٥٩٤-٥٩٥، الجواب الصحيح ٤/ ٣٣٠، المجموع ١٢/ ٣٩٠.

ومعنى قول القائلين بالحلول في القرآن هو: أن الذي نسمعه هو صوت الخالق!!!، فصار صوت الخالق عند هؤلاء مكان صوت العبد، أو أن الصوتين: صوت الرب، وصوت العبد صارا واحدا(١).

ومن قال بهذا القول فإنه يسمى اتحاديا، وهو مذهب الحلولية، وأهل الوحدة(٢).

ثانيا: سبب القول بالحلول في مسألة القرآن الكريم.

لما نشأت الجهمية والمعتزلة القائلون بأن القرآن مخلوق، وكان من أسباب نشأتهم ظنهم أن المؤدي لهذا الكلام وهو العبد مخلوق فيكون المؤدى مخلوقا، فنظروا إلى الوسائط دون النظر إلى المقول والمتكلم به، ونشأ أقوام يردون عليهم بحق وباطل وقالوا: إن من قرأ القرآن فإن الصوت المسموع منه يكون هو صوت الرب، وذلك لأنهم نظروا إلى أن الكلام كلام الله، فظنوا أنه مادام كلام الله فيكون الصوت صوته، ولو أداه الوسائط، فأغفل الوسائط التي بها نسمع كلام الله، فكان سبب ضلال الفرقتين ضلالهم في عدم الفرق بين الكلام إذا سمع من المتكلم مباشرة، وإذا سمع بواسطة.

وكان هناك أقوام آخرون نشأ عندهم القول بالحلول، بناء على آراء فلسفية، وكشوفات صوفية، فهؤلاء أصل منشأ ضلالهم: القول بالحلول، أو القول بوحدة الوجود، أو القول بالاتحاد.

ثالثا: أقوال المتقولين بأن القرآن يحل في المخلوقين.

والقائلون بالحلول يمكن أن يقسموا إلى صنفين، مع ذكر أقوالهم:

القسم الأول: من قال بحلول صوت الرب في العبد، لاعتقاد أن الرب حل في العبد!!، أو اتحد به!!، أو لاعتقاد وحدة الوجود!!.

وهو قول الصوفية الحلولية، وأهل وحدة الوجود، والاتحادية، كابن سبعين،

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٧٩

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٥٩٤.

والفارابي، وابن عربي الطائي، والقونوي، ومن نحا نحوهم[١].

قال ابن عربي: « ومنهم من قال: من سمعه سمع كل شيء...، ومنهم من قال: من سمعه في شيء، ولم يسمعه في شيء، فما سمعه »[٢]، فما ثم متكلم إلا هو!!![٣] وقال: « ومنهم من قال: إنه سمعه يقرأ الكتب المنزلة، و الصحف، وكل كلام ظهر من العالم بلسان واحد، ومنهم من قال: سمعت الآذان عبارات محمد ﷺ، وسمع السمع كلام الحق ﷻ، ومنهم من قال: العبارات والدلالات للتوصل والكلام وراء ذلك، والسمع يتبع الكلام،فالسمع وراء ذلك كله »[٤]، وقال: « لا لسان يتميز، بل الألسنة كلها لسانه!!، فخطابه كله إليه منه!! »[٥] وسموا هذا توحيداً، فقالوا في تعريفه: « التوحيد: أنا، والمتكلم: الحق »[٦]، ويقول: « يجب على الإنسان استعمال الذكر المنسوب إلى الحق، وهو القرآن، وانظر: بأي لسان تتلوه فإن السكينة تنزل بالقرآن بحسب الألسنة »[٧].

ويرون أن الارتباط بين الرب و بين العبد لم يزل ولا يزال، فكل ما ظهر من المحدَث فهو من المحدِث، وعلى هذا فكلامه إذا ظهر فإنما هو قديم ظهر على لسان المحدَث، يقول ابن عربي: « إنما هو ارتباط محدَث بقديم، أو ممكن بواجب، أو واجب وجود بغير واجب الوجود بذاته ليس إلا »[٨].

ويقول شاعرهم وفيلسوفهم ابن عربي الطائي:

أنا القرآن والسبع المثاني ... وروح الروح لا روح الأواني

فؤادي عند معلوم مقيم ... أشاهده و عندكم لساني[٩]

---

(١) انظر: منهاج السنة ٨/ ٥٥.
(٢) الإعلام بإشارات أهل الإلهام لابن عربي ص٣.
(٣) انظر: الإعلام بإشارات أهل الإلهام لابن عربي ص٣.
(٤) الإعلام بإشارات أهل الإلهام لابن عربي ص٣.
(٥) الإعلام بإشارات أهل الإلهام لابن عربي ص٤.
(٦) الإعلام بإشارات أهل الإلهام لابن عربي ص٤.
(٧) التراجم لابن عربي ص٢٥.
(٨) الأزل لابن عربي ص٧.
(٩) الإسراء إلى مقام الأسرى لابن عربي ص ٤.

ويقول:

وكـذا الحيـاة وقدرتـي والذات ذاتـك أدعـــي
والقول قولــك و الإرا دة مثلـــه فَتَطَلَّـــع[(١)]

ولأنهم يرون: أن كل كلام في الوجود كلامه، ولا يرون أن ثم متكلّما مخصوصا، و لا ثم مخصوص بالكلام، بل عندهم يمكن لكل أحد أن يكون متكلِّماً ومُكلَّماً، قال ابن عربي: «ثم قال لي يا عبدي[(٢)]: لا تحد حد الكلام؛ فإنني المكلِّم والمكلَّم، ومني الكلام، فلا يحمل الكلام سواي»[(٣)].

وعندهم أن كل عارف يمكن أن يكون مخاطَباً بالواد المقدس، كما يقول شاعرهم:

خلعت نعلي بواد العلى و جئت بالباء لميعـــاد...
وقلت بالعلم لهم مُفْصِحاً أخاطب الحاضر والباد[(٤)]

ولهذا صرح بعض غلاتهم بصحة الصلاة لو قرأ فيه شيء من أبيات الشعر، بناء على قولهم الفاسد، بأن كل كلام في الوجود كلامه[(٥)].

---

(١) الإسراء إلى مقام الأسرى لابن عربي ص ٦٨.

(٢) وهذا صريح منه بأنه يرى الوحي، وأنه يوحى إليه!!.

(٣) الإسراء إلى مقام الأسرى لابن عربي ص ٥٣.

(٤) الإسراء إلى مقام الأسرى لابن عربي الطائي ص١٠-١١، وانظر منه: ص ٣٦، حيث يقول:

واعكف بشاطئ واد القدس مرتقبا واخلع نعليك تحظى بالمناجاة!!!

فالقوم بعد أن ادعوا الاتحاد والحلول مع الرب!!! ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ يريدون أن يثبتوا أنهم هم المرسِلون، وهم المرسَلين!!!، حتى تجتمع عندهم المتناقضات، وتظهر عندهم الكفريات، ولا يبقى في شك من أمرهم من لا يعرف الخبايا من مثل هذه المقالات، والحمد لله على الإسلام والسنة ونسأل الله الثبات.

(٥) وتمام الخبر: أن الملا جامي لما قدم قونية على أحفاد الجلال الرومي، تقدم أحد المريدين وصلى: فقال في الركعة الأولى أبياتا من المثنوي معناها: أتدري ما فعلتَ بفؤادي الجريح، أتدري؟ أريتني محياك، فعدتُ أعبد النار، وقرأ في الثانية وهو يجهر بها كذلك: أيا حمامة إن كنت قد أزمعت رحيلا من سطح قصر تلك الحورية، فخذي إليها ما أكتبه بدماء القلب هذا، فسأل أحدهم الجامي: أصحت الصلاة؟؟ فقال: إن كان المأموم مثلي والإمام مثل الجلبي حسام، فقد صحت، وانتهى الأمر. عبد الباقي كولبينارلي: المولوية بعد مولانا ص ٢١٨، نقلا عن كتاب أخبار جلال الدين الرومي ص٣٧٢-٣٧٣.

وربما يصرحون: بأن القرآن قديم في القديم، ومحدث في المحدثين، كما يقول ابن عربي في بيان الصفات: «ولكنها في القديم قديمة، وفي المحدَث محدثة، تعقل ولا توجد بذاتها»[١].

وإذا كان ليس ثم مكلِّم و مكلَّم، إذاً ليس ثم موحي، ولا ثم وحي، ولا موحى إليه، ولهذا صرح ابن عربي بأن القرآن من نظم العبد، وهو الرب بزعمه!! فيقول: «عبدي أَعْطَتْكَ القوافي زمامها، ورفعت لك المعاني معالمها، فجريت سابقاً في حضرة الناظم، والناثر!!! فقالوا: ما هذا رسول بل هو شاعر!!، عبدي: كشفت لك عن النور المبين، وأطلعتهم على علم اليقين، فقالوا: إن هذا إلا زبر الأولين!!»[٢].

ويقولون: «عبدي: بلغ عني، وقَوْلِيَ الحق، وخاطِب بلسان أهل الجمع والفرق، فأنا المتكلِّم، و أنت اللافظ، و أنت المبلِّغ، وأنا الحافظ»[٣].

وهم يرون الحلول؛ لأنهم لا يرون إثبات ذات الله ﷻ منفردا عن الخلق، بل يقولون: بالحلول ووحدة الوجود، يقول ابن عربي: «وكم قلت:

الرب عبد والعبد حق — يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك نفي — أو قلت رب، فما يُكلَّف»[٤].

وأصحاب هذا القول يرون أن أفعالهم، ومنها كلامهم، أفعال لله حقيقة ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ، وأن كلامهم كذلك، فكيف بما يتلونه من القرآن!!، يقول ابن عربي: «وكم قلت:

أنا مجبور، ولا فعل لي — فالذي أفعله باضطراري
والذي أسند فعلي له — ليس في أفعاله بالخيار

---

(١) الأزل لابن عربي ص ٩.
(٢) الإسراء إلى مقام الأسرى لابن عربي ص٧٣.
(٣)الإسراء إلى مقام الأسرى لابن عربي ص٧٦.
(٤) الجلالة لابن عربي الطائي ص١٢.

أنا إن قلت: أنا، قال:لا وهو إن قال: أنا، لم يغـار »[١].

وإن كان هذا الحلول لا يعولون عليه بحجة أنهم عارفون بالله، ويأخذون عن الله، و يسمعون عن الله، القديم من القديم!!، يقول ابن عربي: « السماع من الحق في الأشياء لا يعول عليه العارف!!»[٢]، فالقوم لا يرون السماع المقيد، بل يريدون السماع المطلق!!، وهو الذي كان من الله ﷻ لكليمه موسى، ولخليله ولنبيه محمد ﷺ في ليلة الإسراء.

وابن عربي يبين أن القرآن يحل في المحدثين، وهذا يعني أنه قائم بهم، وأن الصفات تنتقل من الرب الأول الخالق، إلى العبد المخلوق!!، فيقول: « نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل منها على قلب محمد ﷺ نجوما، وهذا سفر لا يزال أبدا، ما دام متلوا بالألسنة سرا وعلانية، وليلة القدر الباقية على الحقيقة في حق العبد هي نفسه إذا صفت وزكت »[٣].

ويقول مبينا لماذا كان معجزا، لأنه يسمع من الله!!!، فيقول: « معجزته القرآن، والجمعية إعجاز على أمر واحد لما هو الإنسان عليه من الحقائق المختلفة كالقرآن بالآيات المختلفة بما هو كلام الله مطلقا!!، وبما هو كلام الله، وحكاية الله فمن كونه كلام الله مطلقا هو معجز »[٤].

وهم زعموا أن المتكلم بالقرآن والتالي للقرآن هو العبد لكونهم اعتقدوا الحلول[٥].

واطرد الصوفية الغلاة من الحلولية، وأهل وحدة الوجود، قاعدتهم في أن المسموع هو كلام الله، **فادعوا أن كل مسموع من الكلام هو كلام الله!!** حتى قال ابن عربي الطائي الفيلسوف الصوفي: « الله قد أبان لنا أن هوية الحق سمع العبد!!، وبصره!! وجميع قواه!!، والعبد ما هو إلا بقواه، فما هو إلا بالحق، فظاهره صورة

---

(١) الجلالة لابن عربي ص١٢، وانظر: أخبار جلال الدين الرومي ص٣١٢.

(٢) لا يعول عليه لابن عربي ص٢.

(٣) الإسفار عن نتائج الأسفار لابن عربي ص١٥.

(٤) نقش الفصوص لابن عربي ص١٢.

(٥) انظر: الدر النضيد لابن الحفيد ص١٨٣.

خلقية محدودة، وباطنه هوية الحق غير محدودة للصورة...

ألا كل قول في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه
يعم به أسماع كل مكون ... فمنه إليه بدؤه وختامه
ولا سامع غير الذي كان قائلا ... فمندرج في الجهر منه اكتتامه
فتستره ألفاظنا بحروفها ... فما فيه من ضوء فذاك ظلامه[١].

فخلاصة قول هؤلاء: أنّ القرآن أو التوراة، أو الإنجيل حل في القراء، أو اتحد بهم، وأن كلام الخالق حل في المخلوق، واتحد به، وصار المحدَث هو المتكلم بكلام الخالق!![٢].

القسم الثاني: من قال **بحلول صوت الرب في العبد، وإغفال الوسائط**، وهم لا يعتقدون الحلول والاتحاد، وإنما كان ذلك لازم قولهم، أو من إغفال ما ترتب على عدم التفريق بين التلاوة والمتلو، وهم من المخالفين للسلف ـ ولا ريب ـ، وكانوا يقولون: إن التلاوة هي المتلو، وأن نفس ما تكلم الله به من الحروف والأصوات هي الأصوات المسموعة من القراء!!، حتى يجعل الصوت المسموع من **العبد** هو صوت الرب[٣].

وهذا نُسب إلى بعض أهل الحديث[٤]، ولكن لا يعرف أحد منهم يقول بمثل هذا القول، ولا يُشبه هذا القول قول أهل الحديث، المتمسكين بالآثار، لكن ربما ينقل بعضهم هذا من لوازم بعض النقولات عنهم في الأخبار، فيخطئ عليهم.

وهو قول لبعض السالمية، فإن منهم من يقول: «إن الله تعالى يقرأ على لسان كل قارئ، وأنهم إذا سمعوا القرآن من قارئ فإنما يسمعونه من الله!!!»[٥]، وهم وإن كانوا مختلفين فيما بينهم، فمنهم من يقول: إن صوت الرب قديم هو المسموع، ومنهم من يقول: إن الصوت القديم لا يُسمع، ومنهم من يقول: الصوت صوتان؛ صوت

(١) الفتوحات المكية ٤/ ١٤٠.
(٢) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ١٧٤.
(٣) انظر: المجموع ١٢/ ١٥٣، ٣٧٤.
(٤) شرح الأصبهانية ص٣٣٥.
(٥) انظر: المعتمد للفراء ص٢٢١.

قديم، وصوت محدَث!!!(١).

وهو لازم قول **المعتزلة**(٢)، وقد التزمه بعضهم كالعلاف، فإنه قال: «إن كلام الله يحل بالمخلوق...، واتبع على ذلك النظام»(٣).

وسبب نشوء القول بأن القرآن حين تلاوته يحل بالمخلوقين بين هؤلاء، هو عدم التفريق بين المسموع من كلام الله ﷻ منه مباشرة، وبين المسموع من كلام الله ﷻ بواسطة الملَك، أو الرسول، أو القارئ(٤).

ويوجد في هؤلاء المخالفين للسلف قليل من أتباع الأئمة المشهورين، وإن لم يكن قولهم الحلول، إلا أن هذا لازم قولهم، وإن لم يلتزموه، وهم قلة من أتباع المالكية والشافعية، والحنابلة(٥)، وهؤلاء ليسوا يريدون ما ذهب إليه الصوفية الغلاة من الحلولية والاتحادية، وإنما لأنهم ظنوا أنه لا فرق بين التلاوة والمتلو، واعتقدوا أن المسموع من القراء، كالمسموع الذي سمعه جبريل، وسمعه موسى من الرب بلا واسطة، فلم يفرقوا بين المسموعَين، فوقعوا في الخلف بغير مين.

وهؤلاء يسمون بالاقترانية، لقولهم إن صوت الرب مقترن بصوت العبد(٦).

رابعًا: شبهاتهم، والرد عليها.

أما قول من قال: بالحلول لمذهبه الفاسد، وهو اعتقاد الوحدة، أو حلول الرب في العبد!!، أو الاتحاد، فإن هؤلاء ليس عندهم إلا أصل باطل: وهو عدم الفرق بين الخالق والمخلوق!!، وهذه الشبهة أصلا: أعني شبهة الحلول والاتحاد لا يلتبس إلا على من أسلم عقله لغيره، واتبع هواه بغير هدى من الله، و إلا فإن الشرائع كلها قائمة

---

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص٣٣٦، الصفدية ١/ ١٥٣.

(٢) انظر: شرح الأصبهانية ص٤٢٥، وهم لم يلتزموا بهذا اللازم، لكن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

(٣) المعتمد لأبي يعلى الفراء، ص٢٧٦.

(٤) انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٣٣٧، المجموع ١٢/ ١٤٩، ١٧٤، ١٧/ ٨٤.

(٥) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ١٧٧.

(٦) انظر: المجموع ١٢/ ٥٩٤.

على الفرق بين الخالق والمخلوق، وبيان حق الخالق المالك، وما يجب من العبد تجاه مالكه وخالقه، فهذه شبهة واهية، وحكايتها تغني عن الرد عليها لشناعتها(١)، ولذلك سأورد شبهات القائلين بالحلول من غير أهل وحدة الوجود في مسألة الكلام ـ وإن كانوا يشتركون في بعض الشبهات ـ وسأختصر على أهم الشبهات(٢)، وهي التي فهمتها من كلامهم السابق، وهي:

الشبهة الأولى: أن الله هو المنطِق للمخلوقين بما شاء فهو المتكلم!!، وهذا يعني أن المتكلم هو القادر على أن يخلق الكلام!!(٣).

والجواب من وجوه:

١- إن المتكلم حقيقة من كان قادرا على الكلام، وكان الكلام قائما به؛ لأن الله إذا خلق حركة أو فعلا، وقدرة في محل، كان ذلك المحل هو الموصوف بتلكم الصفات، فذاك هو المتحرك، وهو القادر، وإن كان الله خالقا له ولأعراضه وصفاته، وهذا القول يلزم منه أن كل كلام في الوجود هو كلام الله ﷻ، وقد التزمته الطائفة الصوفية الغلاة، فحينئذ القرآن وغير القرآن سواء!!، ولا حول ولا قوة إلا بالله(٤).

٢- أن على هذا الكلام يكون حتى ما أنطقه الله ﷻ من الجمادات كلام الله!! فضلا عن كلام الإنسان!!، لأن الله هو المنطِق لها، كما هو المنطِق للإنسان، كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[النور:٢٤-٢٥] وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[سبأ:١٠]، فهو منطِق كل شيء، وخالقه، وخالق نطقه، وليس النـزاع ههنا، فإن جميع طوائف المسلمين تقر بأن الله منطق كل شيء، وإنما

---

(١) وأما شبهاتهم في حلول الرب في العبد فهي كثيرة، ولكنها لا تغني ولا تسمن من جوع.

(٢) وإنما لم أرد الإطالة لأن القائلين بالحلول من غير أهل الوحدة ليس لهم جماعة ظاهرة، إلا أن يكونوا أفرادا.

(٣) انظر: شرح الأصبهانية ص٤٢٧،٤٢٦.

(٤) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٧٢

النـزاع في تسمية الله ﷻ متكلما لكونه خلق الكلام في كل شيء[١].

٣- يلزم على هذا أن المنطِق للشيء إذا كان يسمى متكلما لكونه أنطقه، فإن الذي خلق الأفعال في العباد، يمكن أن يسمى بها!! ـ والعياذ بالله ـ لأنه هو الخالق لهذه الأشياء في عباده، فيمكن عند هؤلاء الأقوام أن يسمي مصليا!!، وصائما!!، وعابدا!! بل ويمكن أن يوصف بالأفعال القبيحة التي تقوم بالعباد؛ بزعم أن الله هو خالقها، وقد التزم الصوفية الغلاة بهذا كما هو ظاهر في كلامهم[٢].

٤- أنه يلزمهم على هذا الكلام أن كل ضمير في القرآن يعود على العبد عائد على الرب، فيلزم حينئذ أن فرعون لما قال: أنا رب العالمين، أن المتكلم بذلك هو الله!!!، فلم يأت فرعون بما ينكر عليه إذا!؟[٣]، وهذا وحده يكفي قائله شناعة وعارا، وفضيحة وبوارا وخسرانا، وقباحة وكفرانا.

٥- أنه لا فرق بين قولنا: نطق الشيء أي بنفسه، وأنطق الشيء أي غيره!!، وهذا معلوم بطلانه من حيث اللغة والعرف، فنطق زيد ليس كأنطق زيدا، ومن تكلم من نفسه، ليس كمن ألزم بالكلام، فبطل هذا الجمع منهم من غير ملام، وظهرت شناعة فهمهم للغة والعرف في الكلام[٤].

٦- أن الرسل حينما قالوا: إن الله أوحى إلينا، أو كلمنا، أو أمرنا، أن يكونوا هم الموحين، وهم المكلِّمين، وهم الآمرين!!!، وهم قالوا: إن الله نادى، وناجى، وقال، ولم يقولوا بأنا نحن الذين نادي، ونقول، ونناجي[٥].

٧- أنه يلزمهم أن من أخطأ من القراء، أن يكون الله هو المخطئ في القراءة!!

---

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص ٤٢٦، منهاج السنة ٢/ ٣٧٢ وحتى القدرية المخالفين في خلق أفعال العباد، إنما نزاعهم مع طوائف المسلمين في أفعال الأحياء المختارين، وليس نزاعهم فيما يفعله ويخلقه الله في الجمادات، وما لا إحساس لها.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٤٦٢.

(٣) انظر: شرح الأصبهانية ص ٤٢٧، منهاج السنة ٢/ ٣٧٢-٣٧٣.

(٤) انظر: شرح الأصبهانية ص ٤٢٧، الرد على البكري ١/ ٣٤٣.

(٥) انظر: منهاج السنة ٢/ ٣٧٣.

ـ والعياذ بالله ـ، ويلزم منه أن الله يغلط، وأنه يلحن[(١)].

٨- أن هذا الاعتقاد وهو حلول صوت الرب في العبد، هو عين اعتقاد النصارى الذين اعتقدوا أن كلمة الله (كن) حلت في عيسى، فبهذا حل فيه الرب ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ، وقد بين الأئمة ـ رحمهم الله ـ أن اعتقاد النصارى بالحلول باطل، فكيف يقتدي بهم من ينتسب إلى الإسلام[(٢)].

الشبهة الثانية: أن القرآن حل في المصحف، فكذلك حين قراءته يكون حالا في العبد!![(٣)]، وهذه الجواب عنها من وجوه:

١- أن قولكم حل القرآن في المصحف، ليس المراد منه أنه قائم في المصحف، فإن الناس ما زالوا يقولون: الشمس والقمر في الماء، أو في المرآة، ووجه فلان في المرآة، وكلام فلان في القرطاس، فهذا له معنى يفهمه العقلاء من الناس، يعلمون: أن المراد ظهرت الشمس والقمر في الماء، والوجه في المرآة، والكلام في المصحف، فالكلام يكون مكتوبا فيه، ومقروءا فيه، ومنظورا فيه، كما يقول عامة العقلاء: نظرت في كلام فلان، وقرأته، وتدبرته، وفهمته، ونحو ذلك، فهذا كقولهم رأيت وجه فلان في المرآة، والمقصود التفريق بين المسموع من الكلام مباشرة من المتكلم، والمسموع بواسطة قارئ، أو مكتوب في كتاب، فكل العقلاء يعلمون: أنّ الشمس لم تحل في الماء، ولا القمر، ولا الوجه في المرآة، وأن نفس ما تقوم به المعاني والأصوات لم تقم بالقرطاس، بل المرآة واسطة في رؤية الوجه، كما الورق واسطة في معرفة الكلام، فالمقصود أن النظر باشر ما في القرطاس من المداد المكتوب، والمقصود بالرؤية هو الكلام المكتوب، وليس المداد، والورق، فكما أن الوجه إذا رؤى في المرآة، لا يقال: إن نفس وجه زيد حل في المرآة، وإنما رؤى فيه، وكذلك الكلام نفسه ليس هو المداد المكتوب به، بل الكلام شيء وما به ظهر شيء آخر، ولهذا فرق الله بين المداد والكلام كما في قوله ﷻ:

---

(١) انظر: المعتمد للفراء ص ٢٢١.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٦٦-٦٧.

(٣) انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٥٩٣، الجواب الصحيح ٢/ ٣٣٢، المجموع ١٢/ ١٥٣.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[الكهف:١٠٩] فدل هذا على أن قول المسلمين: إن كلام الله ﷻ في المصحف، أنهم يعنون: أنه كلام الله حقيقة، لفظا ومعنى، ولا يعني ذلك أن الكلام انتقل من ذات الرب ﷻ وحل في المصحف، كما فهمه هؤلاء الحلولية[(١)].

٢- «إن الكلام له معنى في المتكلم يعبر عنه بلفظه، واللفظ يكتب في القرطاس، فالمكتوب في القرطاس هو اللفظ المطابق للمعنى، لا يكتب المعنى بدون كتابة اللفظ الذي كتب بالخط، ليعرف ما كتب»[(٢)]، ولا يقال: إن المكتوب هو اللفظ لا معنى له، و إلا لما كنا نفهم شيئا من المكتوب، فهذا دليل على أن المقصود بوجود كلام الله ﷻ في المصاحف، هو إثبات أن اللفظ المكتوب هو كلام الله ﷻ المطابق للمعنى الذي أراده الله ﷻ، وأوحاه إلى عبده لفظا ومعنى، يقال: لا ريب أن كلام المتكلم قائم به ـ وقد بينت هذا فيما سبق ـ، «ويقال مع ذلك، إنه مكتوب في القرطاس، ويقال: هذا هو كلام فلان بعينه، وهذا هو ذالك، ونحو ذلك من العبارات التي تبين أن هذا المكتوب في القرطاس، هو هذا الكلام الذي تكلم به المتكلم بعينه، لم يزد فيه، ولم ينقص، لم يكتب كلام غيره، ولا يريدون بذلك أن نفس الخط نفس الصوت، أو نفس المعنى، فإن هذا لا يقوله عاقل»[(٣)].

٣- أن من اعتقد أن القرآن يحل فيه لكونه قرأه، أو أن صوت الرب يكون صوته حين قراءته!!!، فهذا يلزمه أن يقول: إنه هو الرسول حين يقرأ الأحاديث النبوية، وأن الصوت الذي بلغ به الكلام أن يكون صوت النبي!!، وهذا معلوم الفساد، لا يقول به من عنده أدنى عقل، وإن قال ذلك بليد من الناس، أو ادعاه مدعٍ لأنكر عليه العامة والخاصة، ولقالوا: إن النبي ﷺ لا يحل في بدن غيره، وإنما أنت ذكرت وأوردت

---

(١) انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٥٩٤-٥٩٥، الجواب الصحيح ٤/ ٣٣٠-٣٣١.

(٢) الجواب الصحيح ٤/ ٣٣١.

(٣) الجواب الصحيح ٤/ ٣٣٢، المجموع ٢٠/ ١٨٤ وما بعدها من الصفحات.

حديث رسول الله ﷺ بصوتك وحركاتك[١]، فكيف بصوت الرب ﷻ وذاته.

٤- أن الناس متفقون على صحة إطلاق القول بأن كلام زيد في هذا الكتاب، والذي سمعناه هو كلام زيد، ولا يستجيز عاقل منهم إطلاق القول بأن زيدا نفسه في هذا المتكلم بكلامه، أو في هذا الورق[٢].

٥- أن الآيات الدالة على أن القرآن في الصدور، أو في السطور مثل قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾[الطور:٢-٣] وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾[الواقعة:٧٧-٧٨] وقوله ﷻ: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾[العنكبوت:٤٩]، ونحوها من الآيات، والأحاديث ينبغي أن تفهم على هذا، وهو: أن المراد أنّ فيه اللفظ الدال المطابق للمعنى، وليس المراد الحبر والورق، وصوت العبد المؤدى به الكلام، فإن هذه كلها مخلوقة، وكلام الله غير مخلوق، ثم إن هذه كلها لو لم تكن لما كان لكلام الله فناء، فلو أحرقت جميع المصاحف، وذهب جميع الناس، لكان كلام الله محفوظا بحفظ الله في الأرض وفي السماء، وكون القرآن في الصدور، أو في السطور لا يعني عند عاقل أن الله في الصدور أو في السطور، ولهذا لما قيل للإمام أحمد رحمه الله أن ههنا رجل يقول: بأن من قال: القرآن في الصدور، فقد قال بقول النصارى!!!، اشتد ذلك على الإمام أحمد رحمه الله وأنكره، وعد ذلك جهمية رابعة[٣]، وقال ابن قتيبة رحمه الله مبينا ما به يفرق الأئمة بين المسموع والأداء، والمكتوب وما به كتب، فيقول: « والقرآن لا يقوم بنفسه وحده، كما يقوم المأكول بنفسه وحده، وإنما يقوم بواحدة من أربع: كتابة، أو قراءة، أو حفظ، أو استماع، فهو بالعمل في الكتابة قائم، والعمل خط وهو مخلوق، والمكتوب قرآن وهو غير مخلوق، وهو بالعمل

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٢٩١، الفتاوى الكبرى ٥/ ١٥٠.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٩٢.

(٣) المجموع ١٢/ ٢٩٢، والجهميات في مسألة كلام رب البريات، أربعة اشتهرت في عهد الإمام أحمد أسكنه الله الجنات، وهي: ١-الجهمية الخلقية. ٢-الجهمية اللفظية. ٣-الجهمية الواقفة. ٤-الجهمية الحلولية. انظر: المجموع ١٢/ ٣٨٨.

في القراءة قائم، والعمل تحريك اللسان واللهوات بالقرآن وهو مخلوق، والمقروء قرآن وهو غير مخلوق، وهو بالاستماع قائم في السمع، والاستماع عمل وهو مخلوق[(١)]، والمسموع قرآن غير مخلوق، ومثل هذا وإن كان لا مثل للقرآن، إلا أنه تقريب منا لما ذكرناه إلى فهمك، مثل لون الإنسان: لا يقوم إلا بجسمه، ولا نقدر أن نقر اللون في وهمك حتى يكون متميزا - إلا بهذا الجسم -...، كذلك القرآن يقوم بتلك الخلال الأربع التي ذكرناها، ولا يستطيع أحد أن يتوهمه منفردا عنها»[(٢)]، وبهذا يتبين أن وجود القرآن في المصاحف والصدور لا يعني الحلول، وكذلك في حالة الاستماع لا يعني أن المستمع يسمعه من الله مباشرة بلا واسطة، فليس هناك حلول[(٣)].

٦- يلزم من قولكم أنّ القرآن حل في المصحف بمعنى أنه انتقل كلام الله القائم به إلى أن أصبح قائما بالمصحف، فهذا يلزم منه أن القرآن إذا احترق أن يكون كلام الله قد احترق!![(٤)]، وهذا لا يقول به عاقل، وإنما المعروف عند المسلمين أن المصاحف التي فيها كلام الله قد تحترق، وكلام الله باقٍ، والحفاظ قد يهلكون، وكلام الله باقٍ.

٧- أن الإشارة إلى ما في القرآن له جهتان ينبغي التنبه لهما: **الأولى**: كلام الله المكتوب فيه. **الثانية**: المداد، والخط، والورق الذي كتب فيه كلام الله ﷻ، **فالجهة الأولى**: كلام الله وهو غير مخلوق، **والجهة الثانية**: أفعال المخلوقين فهي مخلوقة، ولهذا لو كتب القرآن في مصحفين، بخطين مختلفين، يقال في كل منهما: إنه قرآن كريم، وإنه كتاب مجيد، وهذا كلام الله، وهذا كلام الله، والمشار إليه واحد، ولو كان في مصحفين، وهو كلام الله، ويقال: هذا خطه حسن، وهذا بخط النسخ، ولونه أحمر، والآخر خطه جيد، وكتب بالرقعة، ولونه أسود، فالمشار إليهما مختلف، ووقعت الإشارة هنا إلى ما هو مخلوق فاختلف، فإذا لم نميز بين المشار إليه في الحالتين، فإنه يوقع في عدم الفرق

(١) في المطبوع: وهو غير مخلوق!!، وهذا خطأ قطعا يتبين من السياق والمعنى.
(٢) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة ص٦٣.
(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٣٨٨-٣٨٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٠-٤١.

بين المختلفين، والجمع بين المتفرقين[(١)].

الشبهة الثالثة: قالوا: إن الله يتكلم بصوت، والقرآن كلام الله، فيكون المتكلم بالقرآن صوته صوت الله!![(٢)].

والجواب عن هذه الشبهة:

١- أن شخصا لو روى شعرا لأحد الشعراء لا يصح أن يقال: إن الشعر الذي أصبح وصفا لقائله أنه شعر الراوي له، فإذا كانت صفات المتكلمين من العباد لا تنتقل بعضها إلى بعض بالقراءة، أو الكتابة فكيف يقال: إن صفة الرب الخالق وهي صوته انتقلت إلى صفة العبد المخلوق فأصبح صوته صوته، لمجرد كونه تاليا وقارئا لكلام الله ﷻ[(٣)].

٢- أن أصوات العباد مختلفة فأي صوت يكون هو صوت الله؟!!، ثم هذا تكييف لصوت الله، والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

٣- أن الله تعالى تكلم بالقرآن، وبغيره من كلامه كتكليمه لموسى بن عمران بصوت، كما هو عقيدة أهل الحق من السلف، والمتبعين لهم من الخلف، وأن موسى سمع كلام الله ﷻ بصوت الرب، وأن جبريل سمع صوت الرب ﷻ، ونحن نتلو القرآن بأصواتنا، ولا يعني ذلك أن القرآن كلامنا، كما لا يعني أن المسموع صوت الله ﷻ ، إلا لما كان هناك فرق بين الكليم موسى، وبين غيره[(٤)].

٤- أن صوت الرب ﷻ لا يشبه أصوات المخلوقين، «وليس ذلك كأصوات العباد، لا صوت القارئ، ولا غيره، وأن الله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[الشورى:١١]، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فكما لا تشبه حياة الخالق، وعلمه، وقدرته علم المخلوق،

---

(١) انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٥٩٤-٥٩٥، المجموع ١٢/ ٥٥، ٢٨٤.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٦٤، ٣٢٣.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٢٦٤، ٢٨٨.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٧٦.

وقدرته، وحياته، فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوقين، ولا صوته أصوات المخلوقين(١).

٥- أن من قرأ الفاتحة من القرآن أو غيرها من السور، معلوم لدى الجميع ـ عدا هذه الفرقة الحلولية ـ أنه قرأ كلام الله ﷻ، والمسلمون يقولون: إن الكلام كلام الباري، والصوت صوت القارئ، فمن ضل وافترى أنه سمع صوت الله، فقد خالف صريح المعقول، وصحيح المنقول(٢).

٦- أن المسلمين مازالوا يقولون للقارئ إذا قرأ: فلان حسن الصوت، وفلان ليس كذلك، فدل على أن الصوت صوت العبد، وإن كان الكلام كلام الرب، بدليل أنهم يقولون: الصوت حسن، ولا يقولون: القرآن حسن، لأن القرآن كلام الله فهو حسن أبدا، وإنما اختلاف الأحكام باختلاف القراء(٣).

٧- يقال لهؤلاء الحلولية ومن وافقهم: هب أن القارئ لم تخلق نفسه، ولا وجدت لا أفعاله، ولا أصواته، فمن أين يلزم أن يكون الكلام نفسه الذي كان موجودا قبله يُعدم بعدمه!!!، ويحدث بحدوثه!!، فإشارته إن كان إلى الكلام الذي تلاه القارئ فهو كلام الله، وإن كانت إشارته بالخلق إلى ما يختص به هذا القارئ من أفعاله وأصواته، فالقرآن غني عن هذا القارئ، وموجود قبله، فلا يلزم من عدم هذا عدمه، وهذا معلوم بديهة(٤).

وهناك **بعض المنتسبين إلى السنة** لم يفرقوا بين التلاوة والمتلو، وإن كان يلزم من قولهم أن المسموع من المخلوقات هو صوت الرب، وأن القراءة هي المقروء، إلا أنهم لم يريدوا المذهب الحلولي الذي ذهب إليه المخالفون للسلف في هذه المسألة، والذين جعلوا التلاوة هي المتلو من المنتسبين للإمام أحمد ﵀، ويظنون أنهم متابعون له، إذ إنّه نهى عن اللفظية، فظنوا أن الإمام ﵀ يقصد بأنه لا فرق بين الفعل الذي يقوم به العبد، وصوته،

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٢٤٤.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١٧٢، ٢٦٣.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٢٨٤.

(٤) انظر: درء التعارض ١/ ٢٥٨-٢٥٩، المجموع ١٢/ ٢٨٥.

وبين الكلام الذي أداه العبد وسمع منه مبلغا، وتاليا، ويدلك أنهم أخطؤوا على الإمام ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: «كان المنصوص عن الإمام أحمد وأئمة السنة والحديث أنه لا يقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، ولا غير مخلوقة، ولا أن التلاوة هي المتلو مطلقا، ولا غير المتلو مطلقا؛ فإن اسم القول، والكلام قد يتناول هذا وهذا»[١] وقال: «هذا الذي يحكيه كثير من الناس عن الإمام أحمد وأصحابه أن صوت القارئين ومداد المصاحف قديم أزلي كذب مفترى، لم يقل ذلك أحمد، ولا أحد من علماء المسلمين،... وكلام أحمد، وكلام أئمة زمانه في أن من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع، قلت: فكيف بمن يقول لفظي قديم؟؟ فكيف بمن يقول صوتي غير مخلوق؟؟ فكيف بمن يقول صوتي قديم؟؟»[٢].

وهؤلاء المخطئون من أتباع الأئمة أنكروا لفظ الحلول في القرآن الكريم، وقالوا ـ مع قولهم بأن التلاوة هي المتلو ـ:إنما نقول ظهر القديم في المحدَث، لا حل فيه، وهذا يستلزم الحلول وإن لم يلتزموه، ولكن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم[٣].

وسبب الوقوع في الخطأ من بعض أتباع الأئمة في مسألة القرآن ـ مع حرصهم على السنة ـ يعود إلى سببين:

١- أنهم فهموا من بعض تخريجات أقوال الإمام ما ظنّوه أنّه مراده، فوقعوا في البدعة، كمن فهم من نَهْيِ الإمام أحمد عن قول: اللفظ بالقرآن غير مخلوق، أنه يقصد ـ والعياذ بالله ـ أن صوت العبد قديم، فهذا لم يقله أحد من الأئمة، المشهورين بالسنة، فضلا عن سلف الأمة.

٢- أن من هؤلاء من اتبع بعض أتباع الإمام حيث أخطأ، فصار الخطأ متبعا،

---

(١) المجموع ١٢/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) العقود الدرية في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٣٧-٢٣٨، وانظر: المجموع ١٢/ ٢٤٢، وفي مسألة "الكيلانية" جواب طويل حول من ادعى أن أصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة!!، ونسب ذلك إلى الإمام أحمد، انظر: المجموع١٢/ ٣٢٣.

(٣) انظر: الجواب الصحيح ٢/ ١٧٤-١٧٥.

كمن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، مما روي عن أبي طالب المشكاني ـ وإن كان هو رجع عن ذلك ـ ثم صار قوم على قوله[(١)] فهـذا يدل أن تعلقهم بالأئمة باطل، وأن الأئمة بريئون من هذه الأقوال المبتدعة، كيف لا وهم أئمة السنة، الشانؤون للبدعة.

قال شيخ الإسلام ﷺ: «كره أحمد بن حنبل الكلام في لفظ حلول القرآن في القلوب...، ومما يوضح هذا أن الشيء له وجود: في نفسه هو، وله وجود في المعلوم والأذهان، ووجود في اللفظ واللسان، ووجود في الخط والبنان ـ وقد يسمى ـ: وجود عيني، وعلمي، ولفظي، ورسمي، وذلك كالشمس مثلا: فلها تحقق في نفسها، وهي الشمس التي في السماء، ثم يتصور بالقلب الشمس، ثم ينطق اللسان بلفظ الشمس، ويكتب بالقلم الشمس، والمقصود بالكتابة مطابقة اللفظ، وباللفظ مطابقة العلم، وبالعلم مطابقة المعلوم، فإذا رأى الإنسان في كتاب خط الشمس، أو سمع قائلا يذكر قال: هذه الشمس قد جعلها الله سراجا وهاجا، وهذه الشمس تطلع من المشرق، وتغرب في المغرب، فهو يشير إلى ما سمعه من اللفظ، ورآه من الخط، وليس مراده نفس اللفظ، والخط؛ فإن ذلك ليس هو الشمس التي تطلع وتغرب، وإنما مراده ما يقصد بالخط، واللفظ، ويراد بهما وهو: المدلول المطابق لهما»[(٢)].

ومما يدل على فساد قول الحلولية في مسألة القرآن: اضطرابهم في هذه المسألة، فتارة قالوا: المسموع هو صوت القارئ من الله، ومنهم من قال: حل صوت الرب في العبد!!، ومنهم من يقول: ظهر صوت الرب في العبد!!، ومنهم من يقول المسموع كلام الله مطلقا، ولا يتكلم في الصوت المسموع بنفي أو إثبات، ومنهم من قال: الصوت المسموع غير مخلوق!!، ومنهم من قال: المسموع حين التلاوة صوتان: صوت العبد وهو مخلوق، وصوت الرب وهو غير مخلوق!![(٣)]، وهذا التناقض ملازم لكل

---

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص ٣٣٧، المجموع ٧/ ٦٦١، ٢٠/ ١٨٤.

(٢) الجواب الصحيح ٣/ ٣٣٩-٣٤٠.

(٣) انظر: الصفدية ٢/ ٥٩، المجموع ٧/ ٦٥٦-٦٥٧، ١٢/ ١٥٢، ٥٩٧.

من خالف السنة والكتاب، فإنه يكون مجانبا للصواب، ويحصل في قوله مثل هذا الاضطراب، ثبتنا الله على الرشاد، وهدانا لما فيه خير الدنيا والمعاد.

ويكفي القائلين بالحلول ضلالا وخسرانا، أنهم خالفوا جماهير المسلمين، وليس على قولهم أحد من السلف، بل ولا أناس معروفون بالعلم من الخلف، فـ « من قال نفس أصوات العباد، أو مدادهم، أو شيئا من ذلك قديم، فقد خالف أيضا قول السلف، وكان فساد قوله ظاهرا لكل أحد، وكان مبتدعا قولا لم يقله أحد من أئمة المسلمين، ولا قالته طائفة كبيرة من طوائف المسلمين، بل الأئمة الأربعة، وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك »[(١)].

ولهذا كان قولهم كفرا صريحا، فإن من اعتقد أن فعله هو محض فعل لله، وأن الرب هو المصلي وهو القارئ والتالي فإن هذا كفر بواح، ولهذا أنكر من أدرك من الأئمة هذا القول، كما جاء عن غير واحد منهم، فهذا إمام المسلمين في زمانه، حماد بن زيد سُئل عمن قال: كلام الناس ليس بمخلوق!! فقال: هذا كلام أهل الكفر، وهكذا نقل عن غيره[(٢)]، فصوت العبد مثل كلامه.

وإذا تبين هذا فأختم الكلام بدرة من درر أقوال شيخ الإسلام رحمه الله، حيث قال: « فالواجب على المسلم أن يلزَم سنة رسول الله ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل و إلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا؛ فإنّ مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن إتباع الظن، وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى...

والواجب أمْر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، ومنعهم من الخوض في

(١) المجموع ١٢/ ٥٤-٥٥.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٣٢٦.

التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف؛ فإنّ الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله.

والتفصيل المختصر أن نقول: من اعتقد أن المداد الذي في المصحف، وأصوات العباد قديمة أزلية، فهو ضال مخطئ، مخالف للكتاب، والسنة، وإجماع السابقين الأولين، وسائر علماء الإسلام، ولم يقل أحد قط من علماء المسلمين: إن ذلك قديم، لا من أصحاب الإمام أحمد، ولا من غيرهم، ومن نقل قدم ذلك عن أحد من علماء أصحاب الإمام أحمد، ونحوهم؛ فهو مخطئ في هذا النقل أو متعمد للكذب»[1].

فإذا كان القول بالحلول في مسألة القرآن الكريم باطلا، وذلك لكونهم نظروا إلى الكلام دون الأداة، والوسائط، فإن هناك أقواما نظروا إلى الوسائط دون الكلام فقالوا: بخلق القرآن، وهذا ما أجليه في المبحث الآتي.

(١) المجموع ١٢/ ٢٣٧-٢٣٨.

المبحث الثالث: القول بخلق القرآن

القول بخلق القرآن هو أشهر المسائل العلمية في باب الصفات، وباب ما يتعلق بالقرآن الكريم من المسائل العقدية، ولتجليتها أذكر أمورا، وهي:

أولا: معنى هذا القول.

معنى قول الجهمية والمعتزلة بأن القرآن الكريم مخلوق، يعني أن الله ﷻ لم يتكلم به، بل هو خلقٌ من المخلوقات قائم بنفسه!![(١)]، أو مخلوق خلقه الله في غيره[(٢)]، وهو حروف منظومة[(٣)].

ثانيا: سبب نشوء هذا القول.

ذكرت في مقدمة هذا الفصل أربعة أسباب من أجلها نشأ الخلاف الكبير بين أهل الملة في مسألة القرآن الكريم، إلا أن هناك أسبابا أخرى لكل نحلة، بسببها ظهرت في الملة هذه الأقوال المختلفة.

ومن **أسباب القول بخلق القرآن** أنهم استعملوا لفظة "غير" في الصفات، فقالوا: وما كان غير الله فهو مخلوق[(٤)]، ومعلوم أن السلف يعتقدون بأن صفات الله ﷻ داخلة في أسمائه الظاهرة، والمضمرة، فإذا قلت: عبدت الله، وإياه عبدت، فهذا الاسم لا يخرج عنه شيء من صفاته من علمه ورحمته وكلامه، وسائر صفاته، فعُلِم بهذا أن

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص١٩٣.

(٢) انظر: الصفدية ٢/ ٦٧، درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٤٩، المجموع ٧/ ٦٦٢، الفتح ١٣/ ٤٦٣.

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ص٥٢٨-٥٢٩، ونهاية الأقدام ص٣٨٨.

(٤) انظر: الصفدية ١/ ١٠٧، ١٠٨.

صفاتِه ﷻ ليست خارجة عن مسمى اسمه، والرب المعبود هو المتصف بصفات الكمال، المتسحق للإجلال والجلال.

وأما استعمال ألفاظ لم ترد في الشرع، فهو الذي يوقع في الإشكال، ويورد هذا المقال، فلفظ "غير" مشترك تدخل تارة فيه صفة الشيء، وتارة لا تدخل، ولما كان مجملا، كان تركه أولى، واتباع النص أجدى(١).

قال شيخ الإسلام ﵀: «وأحمد بن حنبل في محنته المشهورة، قالوا له: **ما تقول** في القرآن، و كلام الله، أهو الله؟ أم غير الله؟ عارضهم بالعلم، وقال لهم: **ما تقولون** في علم الله، أهو الله؟ أم غير الله؟»(٢).

وأجاب أيضا بأن «الرسل لم تنطق بواحد من الأمرين، فلا حجة لهم في كلام الله ورسوله، فإن الله لم يقل لكلامه: هو أنا، ولا قال: إنه غيري!، حتى يقول القائل: إذا كان قد جعل كلامه غيره وسواه، فقد أخبر أنه خالق لكل ما سواه!.

فإن كان الاحتجاج بالسمع، فلا حجة ـ لهم ـ فيه، وإن كان الاحتجاج بالعقل، فالمرجع في ذلك إلى المعاني لا إلى العبارات، فإن أراد المريد بقوله: هل كلامه، وعلمه غيره؟ أنه مباين له، فليس هو غيرا له بهذا الاعتبار، وإن أراد بذلك أن نفس الكلام، والعلم ليس هو العالم المتكلم، فهو غير له بهذا الاعتبار، وإذا كان اللفظ مجملا لم يجز إطلاقه على الوجه الذي يفهم المعنى الفاسد»(٣).

فالقائلون بأن القرآن مخلوق ليس معهم حجة، وكان سبب إظهارهم لهذا القول هو استعمالهم لقواعدهم الكلامية، وإعراضهم عن الألفاظ الشرعية، وخلط الحق بالباطل(٤).

---

(١) انظر: المجموع ٨/ ٤١٤، ١٢/ ٣٣٠.

(٢) وهذا النص المنقول عن الإمام أحمد قال عنه محقق الجواب الصحيح: إنه لم يجده بلفظه عن أحمد، وقال: وهو في الرد على الجهمية بلفظ آخر مختلف ص٣٠، قلت: وهو في محنة الإمام أحمد للحافظ تقي الدين المقدسي ص ٨٧، بلفظ قريب منه.

(٣) الجواب الصحيح ٥/ ١٨-١٩، وانظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص٣٠.

(٤) انظر: المجموع ٨/ ٢٨، الغنية في أصول الدين ص ١٥.

ومن أسباب ظهور هذا القول: أنهم لما ظنوا أن إثبات الصفات يلزم منه تعدد القدماء، نفوا الصفات، ومن جملة ذلك صفة الكلام، ومنه القرآن الكريم.

ومن أسباب نشوء هذا القول عند هؤلاء وأمثالهم، أنهم لما سمعوا القرآن من المخلوقين، ولم يفرقوا بين المسموع من الله مباشرة، وبين المسموع بواسطة العباد، ظنوا أنه مخلوق، لأنه يسمع من مخلوق!!(١).

ومن سبب انتشار هذا القول الذي بسببه امتحن الأئمة، فلأن ثلاثة من سلاطين بني العباس كانوا مناصرين لهذا القول بالسنان، والبيان، يقيمون المناظرات، ويهدّدون بالقتل والجلد الأئمة السادات، الذين خالفوهم في قولهم المخترع، فكانت قوة السلطان سببا في انتشار هذا القول المبتدع، وقديما قيل: الناس على دين ملوكهم، ولم يكن يُوَلَّى قاض، ولا صاحب أمر ونهي إلا إذا كان قائلا بخلق القرآن!!، فاجتمع على الناس قوة السلطان، ورغبتهم في الدنيا(٢).

ثالثًا: القائلون بخلق القرآن.

والقول بخلق القرآن الكريم هو قول الجهمية والمعتزلة القائلين بأن كلام الله بائن عنه، وأن القرآن مؤلف من هذه الأحرف، مخلوق،ثم بعد ذلك منهم من قال: خلقه الله في اللوح المحفوظ، ومنهم من قال: خلقه في جبريل، ومنهم من قال: خلقه في النبي ﷺ(٣)، والكلام عندهم هو: القدرة على التكلم، ويعنون به القدرة على خلق الكلام(٤).

ومنهم من قال: إن القرآن ذات قائمة بنفسها، وليس معنى من المعاني، ويعبرون عنه بأنه جسم(٥) وهم وإن اختلفوا في حقيقة الكلام، إلا أنهم جميعا قالوا:

---

(١) انظر: شرح الأصبهانية ١/ ٦٢-٦٣، المجموع ١٢/ ٢٠٠، ٢٨٣.

(٢) انظر: المجموع ١١/ ٤٧٨-٤٧٩.

(٣) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٥، الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد ص ١٥٥.

(٤) انظر: لباب العقول ص ٢٥٦، مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٣، وهو يرى أيضا وإن كان من المتفلسفة أن الكلام هو القدرة على التكلم وهو خلقه، المدخل لابن بدران ص٥٤.

(٥) انظر: مقالات الإسلاميين ص١٩٣، الجواب الصحيح ٤/ ٣٢٧، الفتح ١٣/ ٤٦٣، ويفهم هذا من استدلالهم بأن القرآن يأتي يوم القيامة يحاج عن صاحبه!!.

بأنه مخلوق[(١)]، وربما قالوا: **إن الله متكلم مجازا**، وربما حكوا الإجماع على أن الله متكلم وهم يعنون ذلك، وحقيقة قولهم: أنّ الله ليس بمتكلم، وربما قالوا: إن القرآن غير مختلق، وهم يعنون: أنه ليس مفترى مكذوب، ولا ريب أن هذا حق باتفاق المسلمين، وليس النـزاع فيه، وإنما النـزاع في كلام الله ﷻ هل هو مخلوق أم لا، والأول هو المشهور عن الجهمية[(٢)].

وهو قول الجهمية وفاقا، والمعتزلة قاطبة، وإن اختلفوا فيما بينهم من حيث إثبات خلق القرآن[(٣)]، خصوصا بعد عمرو بن عبيد[(٤)]، فإن عمروا لم يكن من الجهمية، وإنما كان متكلما في القدر، وحدث في المعتزلة نفي الصفات بعده، « ولهذا قال أحمد: فاتبعه ـ أي اتبع جهما ـ قوم من أصحاب عمرو بن عبيد وغيره »[(٥)].

وإنما اشتهرت هذه المقولة الشنيعة عن الجهمية، وعن أفراخهم المعتزلة، لكونهم أظهروها، ودعوا الناس إليها، وكان أول من أظهر هذه المقولة هو الجعد بن درهم[(٦)] والجهم بن صفوان[(٧)].

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة ص٥٢٨، المحيط بالتكليف ص٣٣١، العلم الشامخ ص١٢٨.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٩، شرح الطحاوية ١/ ١٨٦.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ص١٩١، تلبيس إبليس ص٣٤-٣٥، الفرق بين الفرق ص٤٥-٤٦، تبيين كذب المفتري ص١٥٠.

(٤) هو كبير المعتزلة وإمامهم: عمرو بن عبيد أبو عثمان البصري، وكان زاهدا، وتركت روايته لشناعة بدعته، اتهم بعض الصحابة، وكان يتكلم على معاوية ﷺ، ومن مؤلفاته: (الرد على القدرية: يريد السنة)، توفي بعد الأربعين ومائة. انظر: السير ٦/ ١٠٥.

(٥) شرح الأصبهانية ص ٤٢٩، المجموع ١٢/ ٣١١.

(٦) هو مؤسس التجهم: الجعد بن درهم، مؤدب مروان الحمار، وهو شيخ الجهم بن صفوان، وأول من ابتدع بأن الله: لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، قتله الأمير خالد بن عبد الله القسري لكفره. انظر: السير ٥/ ٤٣٣.

(٧) انظر: شرح الأصبهانية ص٤١٩، منهاج السنة ٢/ ٢٥١، درء التعارض ٢/ ٤٨، **والجهم هو رأس الجهمية الضلال**: جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي، الكاتب، كان صاحب ذكاء وجدال، وأنكر الأسماء والصفات كشيخه الجعد بن درهم، وبث القول بخلق القرآن، وادعى أن الله في كل مكان بذاته!، ولهذه الكفريات قيل: إن سلم بن أحوز قتله. انظر: السير ٦/ ٢٦.

وإن كان هناك فرق بين مقولة الجهمية والمعتزلة، وذلك من حيث اللفظ، وإلا فإن المعنى واحد: فالجهمية قالوا: إنه متكلم مجازا، والمعتزلة قالوا: إنه متكلم حقيقة، لأن المتكلم من فعل الكلام وخلقه!، فالمؤدى عند الفريقين واحد، وهو أن القرآن الكريم مخلوق!!![1].

وهذه المقولة ـ أعني مقولة خلق القرآن ـ هي أول مقولة ابتدعها مع نفي الصفات الجهمية، وتبعهم على ذلك المعتزلة الغوية[2].

ونافح عنها كبارهم، وأئمتهم، أحبارهم ورهبانهم، فبشر بن غياث المريسي[3] جرد القول بخلق القرآن، ودافع عن مقولته مناظرا أهل السنة والإحسان، وكذلك مثله أحمد المبتدع ابن أبي دؤاد، الذي سعى بهذه المقالة بين الحاضر والباد، ولم يرض منهم السكوت حتى أجبرهم على القول به بالأوتاد[4].

ونسب القول بخلق القرآن إلى الخوارج الأولين، كما ذكره أبو الحسن الأشعري في مقالاته[5] حيث قال: «والخوارج جميعا يقولون بخلق القرآن»، وليس للخوارج الأولين كتاب يمكن الرجوع إليه.

ومن فرقهم الظاهرة الباقية ـ هداها الله للصواب ـ فرقة الإباضية، وهي تقول بخلق القرآن، ولم يزل هناك بقية منهم يفتري هذه الفرية حتى هذا الزمان!![6].

والقول بخلق القرآن هو قول بعض المرجئة[7]، وبعض الروافض الأولين، وهو

---

(١) انظر: منهاج السنة ١/ ٣١٢، المجموع ١٢/ ٣٠٩، الرد على البكري ١/ ٣٤٢.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٤١٧.

(٣) هو المعتزلي المتكلم: بشر بن غياث بن أبي كريمة البغدادي المريسي، أخذ عن أبي يوسف، ثم شط عنه في الاعتقاد، وتكلم عليه أبو يوسف لخوضه في الكلام، وهو رأس التجهم في مسألة خلق القرآن، ومن مؤلفاته: التوحيد، توفي سنة ٢١٨هـ. انظر: السير ١٠/ ١٩٩.

(٤) انظر: معجم البلدان ٥/ ١٣٨.

(٥) ص ١٢٤، ١٥٣، وانظر الفتح ١٣/ ٤٦٣.

(٦) وهم الموجودون الآن في عمان، وفي بعض جبال الجزائر.

(٧) انظر: مقالات الإسلاميين ص١٥٣.

قول الروافض المتأخرين أجمعين، فإنهم جمعوا بين الرفض والاعتزال البدعيتين[(١)].

ومن القائلين به ابن عربي الطائي: لأنه يعتقد بأن الله لم يتكلم مع موسى[(٢)]، وأن موسى سمع كلام الله من الشجرة، وهذا يعني أن القرآن مخلوق، لأن نفي سماع موسى لكلام الله بأي حجة، يلزم منه القول بخلق القرآن، ولهذا ينقل قول عارفهم!!:

ألم تروا لكليم الله كيف بدا ... له الخطاب من الأشجار في القبس[(٣)]

ويزعم أن كلامه لا يُسمع إلا ممن كان له سمع بلا آلة[(٤)].

فهم ينفون السماع بالأُذُن، ويثبتون لأنفسهم سماعا ومشاهدة!! يقول ابن عربي الطائي: « المشاهدة والكلام معا لا يكون إلا في حضرة التمثل، فلا يعول عليه أكابر الرجال »[(٥)].

ومن القائلين بأن القرآن مخلوق لله ﷻ ـ والعياذ بالله ـ الفيلسوف ابن رشد، حيث قال: « القرآن الذي هو كلام الله قديم، وأن اللفظ الدال عليه مخلوق له سبحانه، لا لبشر، وبهذا باين لفظ القرآن الألفاظ التي ينطق بها في غير القرآن، أعني هذه الألفاظ ـ التي نتكلم بها ـ هي فعل لنا بإذن الله، وألفاظ القرآن هي خلق الله...، وأما الحروف التي في المصحف فإنما هي من صنعنا بإذن الله »[(٦)]، فهذا الكلام الذي ذكره هو مركب من قول المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق لله، ومن قول الأشاعرة المثبتين لكلام قديم قائم بذات الله، لكن هذا تدليس بين القولين، وتلبيس بين الرأيين، خصوصا أنه يرى الفيض، فيكون قوله مجموعة من الأقوال الثلاثة: أن كلام الله فيض، وأنه قائم به غير مخلوق، وأنه بائن عنه مخلوق!!؟.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ص٤٠، ١٠٩، منهاج السنة ٢/ ٣٦٩، ٣٧١، المجموع ٢/ ٢٥٦، ٣٦٨.

(٢) انظر: كتاب اصطلاح الصوفية لابن عربي الطائي ص ٩ (المحادثة).

(٣) الإسراء إلى مقام الأسرى لابن عربي الطائي ص٦٨.

(٤) انظر: الإعلام بإشارات أهل الإلهام لابن عربي الطائي ص٣.

(٥) لا يعول عليه لابن عربي الطائي ص٣.

(٦) مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٣.

ومن القائلين به الرازي: فإنه وإن كان من الأشاعرة إلا أنه أكد أن الخلاف بينهم وبين المعتزلة ليس في المعنى، وإنما هو في اللفظ، فيقول: « زعمت المعتزلة أن معناه ـ معنى: كونه متكلما ـ كونه تعالى، **موجدا لأصوات دالة على معانٍ مخصوصة في أجسام مخصوصة.**

واعلم أنا لا ننازعهم في المعنى؛ لأنا نعتقد أن جميع الحوادث واقعة بقدرة الله تعالى، ونسلم أن خلق الأصوات في الأجسام الجمادية والحيوانية جائز، **وإذا ثبت ذلك فقد ساعدتهم على المعنى،** وبقي ههنا النزاع: إطلاق اسم المتكلم هل يقع في اللغة لهذا المعنى أم لا، **وهذا البحث لغوي، لا حظ للنقل البتة فيه، والمتكلمون من الفريقين قد طولوا فيه، ولا فائدة فيه... فالحاصل أن الذي ذهبوا إليه فنحن من القائلين به إلا أنا أثبتنا أمرا آخر** »[1] ويقصد بالأمر الآخر هو الكلام النفسي القديم، ويقول: « واعلم أن الجمهور منا يعتقدون أن المعتزلة يوافقوننا في كونه تعالى متكلما، ويخالفوننا في قدم الكلام، **فأما نحن قد بينا أن الذي يقول به المعتزلة فنحن نقول به: من حيث المعنى** »[2].

وقد مال الرازي إلى قول المعتزلة بنفي الكلام القديم (غير مخلوق)، وإثبات الكلام الحادث (المخلوق)، كما يفهم من إيراده لشبه المعتزلة[3].

فتأمل ما في كلامه من الاعتزال، تعرف حقيقة أنه لا فرق في النتيجة بين قول الأشاعرة وهؤلاء المعتزلة في المآل، ولكنهم لا يصرحون بمثل هذه الأقوال، لشناعتها بين الناس، وإلا فإن الأشاعرة والماتريدية يقولون: بأن القرآن العربي مخلوق، ولكن لا

---

(١) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٥٠.

(٢) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٥، وهو الكلام نفسه الذي قاله الجويني: « هذه العبارات كلام الله، أنها خَلقه، ونحن لا ننكر أنها خَلْق الله، ولكن نمتنع من تسمية خالق الكلام متكلما به، فقد أطبقنا على المعنى، وتنازعنا بعد الاتفاق في تسميته » !!!. انظر: الإرشاد للجويني ص١١٧، فليس ثمة نـزاع بين الأشاعرة والمعتزلة في القرآن الكريم، وإنما النزاع بينهم هل يثبت الكلام النفسي لله ﷻ، أم لا؟؟. انظر: الفواكه الدواني ١/ ٥٦.

(٣) انظر: الأربعين للرازي ص ١٨٣-١٨٤.

يصرّحون بهذا للعوام، وإنما يأتون بطرق ملتوية، وألفاظ محتملة ـ كما سيأتي ـ[١].

وهؤلاء جميعا أعني القائلين بأن القرآن مخلوق، يسمون بالخلقية[٢].

رابعًا: شبهاتهم في القول بخلق القرآن، والرد عليها.

لهم شبهات عقلية، أنتجت هذه الآراء المخالفة للنصوص الشرعية، ثم لما رأوا أن هذا شنيع تمسكوا ببعض النصوص التي ظنوها توافق شبهاتهم، واستدلوا بها، فالأصل عند هؤلاء: الأدلة العقلية، ثم النظر في النصوص الشرعية، والتعلق بالمتشابهات دون النصوص المحكمات، ولذلك سأورد أولا: شبهاتهم العقلية، ثم شبهاتهم النقلية.

أولا: الشبهات العقلية لقولهم بأن القرآن مخلوق.

الشبهة الأولى: قالوا: إن القرآن متعلق بمشيئة الله ﷻ، وما كان متعلقا بمشيئة الله ﷻ، كان مخلوقا، ولا يمكن أن يكون كلام الله أزليا؛ لأنه قال في وقت معين: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[نوح:١]، فلو كان متكلما أزلا لوجب أن يقول ذلك أبدا، إذا كان الكلام لازما لذاته[٣].

الجواب عن هذا:

١ - أن قولكم بنفي الكلام الأزلي لكون ذلك يلزم منه أن يكون الله متكلما بما تكلم به أزلا، وأن ذلك يلزم منه الدوام أزلا وأبدا، يصح الاعتراض به على الأشاعرة القائلين بأزلية الكلام مطلقا[٤]، أما أهل السنة فإنهم قالوا: بأن الله متكلم أزلا، وأن آحاد كلامه يكون متى شاءه الله ﷻ، ووافقتم على هذا، لكن لما نظرتم إلى جهة كونه متكلما بمشيئته أنكرتم أن يكون متكلما، قائما به الكلام، وهذا باطل لا يستقيم، لأنه لا

(١) انظر: المبحث الآتي.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٥٩٤.

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٥٥٤، الأربعين للرازي ص١٨٣.

(٤) انظر: المجموع ٦/ ١٨٤.

يلزم ممن يتكلم في وقت دون وقت أن يكون كلامه مخلوقا، فهذه الشبهة لا تلزم أهل السنة ولله الحمد(١).

٢- أن أهل السنة يقولون: إن الله ﷻ متكلم بصفة ذاتية هي قائمة به ﷻ، وأنه تبارك وتعالى يتكلم بمشيئته فالكلام باعتبار اتصاف الرب ﷻ به يكون صفة ذات، وباعتبار كونه يتكلم بمشيئته يكون صفة فعل، وعلى هذا فلا يستقيم اعتراضهم على أهل السنة بخلق القرآن(٢).

٣- أن قولكم بنفي صفة الكلام عن الله ﷻ بهذه الحجة غير مستقيم لأنكم تنفون حتى الصفات الذاتية فكيف تحتجون بنفي الصفات الاختيارية لأنها ليست ذاتية، فإن المعتزلة لا تثبت لله ﷻ لا صفة ذاتية، ولا صفة فعلية اختيارية.

الشبهة الثانية: قالوا: الكلام لا يكون إلا من جوف، وفم، وشفتين، ولسان(٣).

ويجاب عن هذه الشبهة من أوجه:

١- أن هذا الكلام منكم يدل على أنكم شبهتم الله ﷻ بالمخلوقين، فتصورتم أن الكلام منه لا يكون إلا إذا كان فم وجوف وهواء!!، ونسيتم أو تناسيتم أن الله ﷻ ليس كمثله شيء في صفاته، كما لا مثل له في ذاته.

٢- ثم إن الكلام وجد ممن ليس له لسان ولا شفتين، ولا فم في المحسوس، قال الله ﷻ للسماوات والأرض: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت:١١]، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾[ص:١٨] «أتراها أنها يسبحن بجوف وفم، ولسان، وشفتين؟؟، ولكن الله أنطقها كيف شاء، وكذلك الله تكلم كيف شاء، من غير أن نقول: جوف ولا فم، ولا شفتين، ولا لسان»(٤).

---

(١) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٨٦-١٨٧.

(٢) انظر: الصفدية ٢/ ٨٨-٨٩، المجموع ٨/ ٢٩.

(٣) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص٤٤،٢٦، المجموع ٦/ ١٥٤.

(٤) الرد على الجهمية للإمام أحمد ص٤٤، المجموع ٦/ ١٥٤.

٣- ثبت في القرآن الكريم(١) أن الله ﷻ ينطق أعضاء الإنسان يوم القيامة، ومعلوم أنها لا جوف لها، ولا لسان، ولا شفتان، ولا فم، قال ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[فصلت:١٩-٢٣] فهذه الآيات جليات، في أن هناك كلام من غير جوف ولا لَهَوَات، وأن من ظن أنه لا يكون هناك كلام إلا مما له جوف ولسان، فهو مكذب للقرآن، ويكاد أن يكون داخلا تحت عموم الآية؛ لأنه ظن أن الله لا يتكلم إلا مشبها بآلة، كما ظن المشركون أن أعضاءهم لا يقدر الله على أن ينطقها،فكان جزاؤهم ما ذكر الله، فكيف بالذي يظن أن المنطِق للأشياء لا يتكلم؟؟(٢).

الشبهة الثالثة: قالوا: إن القرآن بائن من الله، وما كان بائنا فهو مخلوق(٣).

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

١- أن كلام المخلوق لا يكون مباينا عنه، فكيف يكون كلام الخالق مباينا عنه.

٢- قولكم بأن الكلام مباين عن الله يدل على أنكم ترون الكلام ذاتا قائمة بنفسها ـ وقد التزم به بعض فرق المعتزلة ـ، ويلزم من هذا أن يكون جميع صفات المعاني بائنا عن الله!!، فعلى هذا يلزم أن يكون علم الله بائنا عنه!، وقدرته كذلك!، وهذا معلوم البطلان، إذ عِلم الله قائم به، وقدرته قائمة به لا بغيره، فكذلك كلامه قائم به، لا بائنا عنه،

---

(١) وثبت في السنة النبوية كذلك أن النبي ﷺ كان يعرف في مكة حجرا يسلم عليه، وثبت أن الحصى سبح في يده، وأن جذع النخلة حنت له، وكل هذه لو لم يكن الإيمان بالغيب، لما فهم بالعقل المجرد، ولما أدرك، وهذه لا تخالف العقل، حتى يقال بردها، بزعم مخالفتها للعقل، وإنما هو شيء حارت فيه العقول، ولم تحلها العقول، وهذه من دلائل المعجزات. انظر: أعلام النبوة للماوردي ص١٣٧، وما بعدها.

(٢) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٧٩.

(٣) انظر: المجموع ٦/ ١٨٤.

وما كان قائما بغيره فهذه صفة تكون للقائم به، وأما أن الصفات ذوات، فهذا معلوم البطلان، عقلا ونقلا، إذ لا تجد علما قائما بنفسه، ولا قدرة قائمة بنفسها(١).

٣- أن عقيدة أهل السنة أن الكلام: «غير بائن من الله، وإنما هو موجود منه، وقائم به»(٢)، وأن كلام المخلوق إذا وجد في كتاب، أو قرأه آخر لا يكون بهذا بائنا عنه، فكيف يكون كلام الخالق بائنا عنه لمجرد أنكم رأيتم كلامه في الكتاب، أو سمعتموه من القراء؟؟(٣).

٤- معلوم أن المتكلم من قام به الكلام، والله أخبر أنه هو المتكلم، وأن القرآن قوله، فإذا كان قائما بغيره، فلا يكون قوله، ولا كلامه، وإنما يكون مخلوقه، كما أن كلامنا مخلوق له، ولا يقال: إنه كلام الله، فكذلك لا يقال: فيما يخلقه من الكلام في غيره، إنه كلام الله(٤).

٥- لا يعرف في لغة ولا عقل أن المتكلم من فعل الكلام ولو كان بائنا عنه، ويلزم من نفيكم لأن يكون الله متكلما نفي وجود الله ﷻ، إذ «نفي الصفة نفي للموصوف، كما أن نفي الفعل نفي الفاعل، وفي نفي الكلام نفي للمتكلم»(٥).

٦- أنه تعالى حي، والحي يصح اتصافه بالكلام، فلو لم يكن متكلما، لكان موصوفا بضده، وهو نقص، وهو محال على الله تعالى(٦).

٧- إجماع السلف على أنه تعالى متكلم، وأن كلامه قائم به(٧)، «ولا قال أحد منهم: إن القرآن، أو التوراة، أو الإنجيل لازمة لذاته أزلا وأبدا، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا قالوا: إن نفس ندائه لموسى، أو نفس الكلمة المعينة قديمة

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٥٢٧-٥٢٨.

(٢) المجموع ٦/ ١٨٤، نقلا عن ابن خفيف الشافعي رحمه الله.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٥٥٠.

(٤) انظر: الدر النضيد لابن الحفيد ص ١٥٥، المجموع ١٢/ ٥٥٠-٥٥١، ٥٦٠-٥٦١.

(٥) الفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٥٧، وانظر: منهاج السنة ٢/ ٣٧٣، شرح الطحاوية ١/ ١٨٨.

(٦) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٥٠.

(٧) انظر: ما سبق من ذكر أقوال السلف، ونقل عباراتهم، في الفصل الأول، من الباب الثاني.

أزلية، بل قالوا: لم يزل الله متكلما إذا شاء، فكلامه قديم، بمعنى: أنه لم يزل متكلما إذا شاء، وكلمات الله لا نهاية لها»[١].

٨- يلزم من قولكم: إن المتكلم من فعل الكلام ولو قام بغيره، أن يكون كل كلام في الوجود كلامه، وهذا باطل[٢].

الشبهة الرابعة: قالوا: إن إضافة الكلام إلى الله ﷻ إضافة تشريف، كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله!!!، وينسب إليه الكلام لأنه خالق له.

ويجاب عن هذا:

١- أن المضاف إلى الله ﷻ نوعان: إضافة معان، وإضافة أعيان، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهي مخلوقة كبيت الله، وعبد الله، وناقة الله، بخلاف إضافة المعاني، كعلم الله، وقدرة الله، وعزته، وجلاله، وعظمته، وكلامه، وحياته، فإن هذا كله من صفاته، فإضافتها من إضافة الصفة إلى الموصوف، ليس إلا[٣].

إذا قلتم بأن المضاف إلى الله تعالى لا يكون إلا من إضافة التشريف، لزم من ذلك أن حياة الله، وعلم الله، وذات الله، كل هذه مضافات هي من قبيل التشريف ليس إلا!!، وهذا معلوم بطلانه، ومعلوم ما يترتب عليه من إلحاد، وتعطيل لصفات الله ﷻ بل وتعطيل لذاته ﷻ.

٢- لو كان كل ما خلقه الله ﷻ من الأفعال تصح إضافته إليه، فإنه يكون على قولكم صائما، وقائما، ومصليا؟؟ وهذا يؤدي إلى الحلول، وهذا معلوم بطلانه، فدل على أن الإضافة في مسألة الكلام ليست لمجرد الخلق، بل لكونه متكلما به[٤].

---

(١) المجموع ١٢/ ٣٨.

(٢) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٨٠، وسبق بيان بطلان القول بأن كل كلام هو كلامه، في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٣) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٧٤-١٧٥، وانظر: الفصل الأول، من الباب الأول.

(٤) انظر: شرح الأصبهانية ص ١٤، منهاج السنة ١/ ٤٥٦، الرد على البكري ١/ ٣٤١.

الشبهة الخامسة: قالوا: إن "قال" بمعنى فعل، والقول يكون بمعنى الفعل، تقول العرب: قالت السماء فأمطرت، وقال الجدار هكذا إذا مال[(١)].

ورد هذه الشبهة بما يأتي:

١- ذكر لأبي عبيد القاسم بن سلام[(٢)] رحمه الله هذا، فقال: « هذه أغلوطة؛ لأنك إذا قلت: قالت السماء، ثم تسكت، لم يدر ما معنى قالت؟ حتى تقول: فأمطرت، وكذلك إذا قلت: أراد الجدار، ثم لم تبين ما معنى أراد، لم يدر ما معناه؟، وإذا قلت: قال الله، اكتفيت بقوله: قال، فـ"قال" مكتف لا يحتاج إلى شيء يستدل به على قال، كما احتجت إذا قال الجدار فمال، وإلا لم يكن لـ"قال الجدار" معنى، ومن قال هذا فليس شيء من الكفر إلا هو دونه، ومن قال هذا: فقد قال على الله ما لم يقله اليهود، والنصارى، ومذهبه التعطيل للخالق »[(٣)].

٢- أن هذا التشبيه كما ذكره الإمام أبو عبيد: كُفْرٌ لم يقله الأوائل، إذ شبهتم الله، وعطلتموه عن أوصاف الكمال، وقلتم إنه قال، كما قال الجدار، من الجمادات!!، أو قال، كما قالت السماء، وهي لا تسمع ولا تبصر!!، فشبهتم ربكم بالجمادات، وهذا تشبيه في حد ذاته وكفر برب البريات.

٣- قال ابن قتيبة رحمه الله: « أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر، ولا تُوكد بالتكرار؛ فتقول: أراد الحائط أن يسقط، ولا تقول أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة...، والله تعالى يقول: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾[النساء:١٦٤]؛ فوكد بالمصدر معنى الكلام، ونفى عنه المجاز، وقال: ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

---

(١) انظر: الغنية في أصول الدين ص١٠٤-١٠٥، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٠٦، ونسبه إلى قوم، الفتح ١٣/ ٤٦٢، وذكر أن أبا عبيدة نقل هذه الشبهة عن بشر المريسي.

(٢) هو إمام اللغة والسنة:القاسم بن سلاّم (بالتشديد) بن عبد الله، أبو عبيد، له مصنفات رائقة، وتدقيقات فائقة، في علوم متفرقة، ومنها: الأموال، وفضائل القرآن، وغريب الحديث، وغيرها، توفي سنة ٢٢٤هـ. انظر: السير١٠/ ٤٩٠.

(٣) خلق أفعال العباد ص ٢٢-٢٣، وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٠٩، الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٠٦، الفتح ١٣/ ٤٦٢.

فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠]؛ فوكد القول بالتكرار، ووكد المعنى بإنما»[١].

٤- أن القرآن إذا كان مخلوقا لله ﷻ، فكلامنا أيضا مخلوق لله ﷻ، فما الفرق حينئذ بين كلامنا المخلوق، وكلامه المخلوق، إذ تساويا في صفة الخلق؟؟.

ثانيا: أهم الشبهات النقلية للقائلين بخلق القرآن، والرد عليها:

استدلوا ببعض النصوص التي ظنوا أنها توافق مذهبهم الفاسد، فقالوا إن القرآن الكريم، والأحاديث، فيهما ما يدل على أن القرآن مخلوق، ومن أهم ما ذكروه:

أولا: استدلوا بعموم الآيات التي تدل على أن الله هو الخالق، وأنه خالق كل شيء[٢]، وهذه الآيات هي: قوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٠١] وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد:١٦]، وقوله:﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢] وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر:٦٢] وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[غافر:٦٢] قالوا: عموم هذه الآيات تدل على حدوث القرآن، وأنه تعالى خلقه، ولا دلالة تخرجه عن هذا العموم، فيجب دخوله فيه[٣].

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

١- أن تمسككم بهذه الآيات التي تدل على أن الله خالق كل شيء لا يصح لكم، ولا يستقيم على مذهبكم، لأنكم لا تقولون بعمومها، أو لستم أخرجتم أفعال العباد من هذا العموم؟؟ وقلتم بأنها ليست مخلوقة لله ﷻ، ثم عمدتم إلى صفات ربكم ﷻ وأدخلتموها تحت هذا العموم، أَوَ ليست صفاته من كمال ذاته؟ فكما أن ذاته لا تدخل تحت هذا العموم فكذلك صفاته، ومنها القرآن الذي هو كلامه[٤].

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١١١.

(٢)كتاب حجج القرآن ص٦٦، شفاء العليل ١/ ١٥٥،

(٣) انظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد ٧/ ٩٤.

(٤) انظر: الصفدية ٢/ ٧٢، شرح الطحاوية ١/ ١٧٨-١٧٩.

٢- هذه الآية عامة، ونوافقكم على هذا، ويلزمنا وإياكم العمل بعمومه، وأما أنتم فلم تقولوا بعمومه لما نفيتم أن يكون الله خالق أفعال العباد، وأما نفينا دخول القرآن تحت هذا العموم لا يعني ذلك التخصيص، لأنه أصلا ليس فردا من أفراده حتى يشمله، بخلاف أفعال العباد، قال ابن القيم رحمه الله: « فليس هاهنا تخصيص البتة، بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالقُ، وكل ما عداه مخلوق، وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه، إذ ليس إلا الخالق والمخلوق، والله وحده الخالق، وما سواه كله مخلوق »[1].

٣- أن "كل" هنا تفيد العموم بحسبه، فليس "كل" في كل موضع تفيد العموم المطلق، وإنما هي تفيد العموم النسبي، فقوله تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾[الأحقاف:٢٥] فهي دمرت كل شيء إلا ما أراده الله عز وجل، فلم تهدم مبانيهم، فهذه المباني لم تدخل تحت هذا العموم، فدل على أن المراد بالعموم هو العموم النسبي الذي دل عليه السياق، وهو أن هذه الريح لم تترك شيئا مما فيه الروح من المخالفين[2].

٤- أن المراد بالشيء ليس هو القرآن في تلكم العمومات، ولا يدخل تحتها القرآن الكريم، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: « إن الله في القرآن لم يسم كلامه شيئا، إنما سمى شيئا الذي كان يقوله، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾[النحل:٤٠] فالشيء ليس هو قوله، إنما الشيء الذي كان يقوله ـ « أي أن الشيء هو الذي تكلم الله عنه، لا هو نفس القول »ـ...، فكذلك إذا قال: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الزمر:٦٢]، لا يعني نفسه، ولا علمه، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة، ففي هذا دلالة، وبيان لمن عقل عن الله، فرحم الله من فكر، ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب و السنة، ولم يقل على الله إلا الحق »[3].

(١) شفاء العليل ١/ ١٥٥.

(٢) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص٣٣-٣٤، محنة الإمام أحمد للمقدسي ص٨٩، شرح الطحاوية ١/ ١٨١.

(٣) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص٣٣-٣٤.

٥- أن إدخالكم للقرآن في عموم: (كل شيء) يلزم منه أن علم الله شيء، وأن قدرته شيء، وأن حياته شيء...!!!، فتكون هذه الصفات كلها داخلة تحت هذا العموم!!، وهذا صريح الكفر، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا[(١)].

ثانيا: قالوا: إن القرآن الكريم جاء فيه ما يدل على أنه مجعول، وما كان مجعولا فهو مخلوق، لأن الجعل والفعل سواء، واستدلوا بالآيات التي فهموا منها ذلك[(٢)]، وهي قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴾[فصلت:٤٤] وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الزخرف:٣].

والجواب عن هذه الشبهة من أوجه:

١- أن "جَعَلَ" تكون بمعنى "خلق" إذا كانت متعدية إلى مفعول واحد، كقوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[البقرة:٢٢] وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[يونس:٥] أما إذا تعدت إلى مفعولين فلا تكون بمعنى "خلق" كما في الآيات التي تمسكتم بها، فلا حجة لكم فيها[(٣)]، وإنما هي في تلكم الآيات التي أوردتموها بمعنى صيره، وصرفه إلى اللغة العربية، وسماه به، فهو سبحانه تكلم بالقرآن بالعربية، وهو إن شاء تكلم بالعربية، وإن شاء جعل كلامه غير عربي[(٤)].

٢- ثم إذا أبيتم ذلك، وقلتم بأن جعل بمعنى خلق أبدا، فهل تقولون بأن الله مجعول؟؟، لأنه ورد في القرآن الكريم، أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[النحل:٩١] أتقولون: إن العباد خلقوا الله على أنفسهم كفيلا؟؟، أم تقولون: صيرنا الله وسميناه كفيلا؟؟، وأيضا: قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ

---

(١) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٧٩

(٢) انظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد ٧/ ٩٤، الكشاف للزمخشري ٣/ ٤٧٧، حجج القرآن ص٦٦، المعتمد لأبي يعلى الفراء ص١٩٤.

(٣) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص٢٨، المجموع ٨/ ٢٩، شرح الطحاوية ١/ ١٨٢.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٥٢٢، الفتح ١٣/ ٤٦٣.

عِضِينَ ﴾[الحجر:٩١] أفتقولون فيها: إن الكفار خلقوا القرآن أيضا، كما قلتم بأن الله خلق القرآن؟؟[١] أم ستقولون: إن المراد أنهم صيروا القرآن عضين؟[٢].

ثالثا: قالوا: إن القرآن الكريم جاء فيه ما يدل على أنه محدَث، والمحدث مخلوق، فدل هذا على أن القرآن الكريم مخلوق[٣] كما في قوله ﷻ: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنبياء:٢]، وقوله: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾[الشعراء:٥]، وقوله: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١]، « وما صادفه فعل بعد فعل يكون محدثا »[٤].

والجواب عن هذا من عدة نواحٍ:

١- أن هذه الآيات تدل على أن آحاد كلام الله ﷻ جديدة من حيث النزول الزماني، وأن بعض كلام الله قبل بعض، وهذا يؤكد صحة معتقد أهل السنة والجماعة أن القرآن الكريم كلام الله ﷻ، تكلم الله به، وسمعه جبريل، ثم نزل به إلى محمد ﷺ، ولم ينـزل مرة واحدة، فالكلام بعضه أجد من بعض من حيث الترتيب والنـزول.

٢- أن قولكم: إن كل محدَث فهو مخلوق، شيء اصطلحتم عليه من القواعد المنطقية، والأصول الفلسفية، وأما معتقد أهل السنة والجماعة فمأخوذ من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمحدث في الآية ليس هو المخلوق، ولكنه الذي أنزل جديدا[٥]، والمحدث في لغة العرب يطلق على الجديد لا على المخلوق مطلقا، ولما كان الرسول ﷺ لا يعلمه ثم علمه، كان بالنسبة له جديدا، وكذلك بالنسبة إلى الصحابة، وكذلك بالنسبة لنا، فكم نسمع من آية هي جديدة على أسماعنا، وحديثة، ولكنها من

---

(١) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص ٢٧.

(٢) انظر: محنة الإمام أحمد ص٨٤.

(٣) انظر: حجج القرآن ص٦٦.

(٤) حجج القرآن ص٦٦، وانظر: متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار المعتزلي ٢/٤٩٦، ٥٤٥، والتفسير الكبير ٢٢/ ١٤٠.

(٥) انظر: المجموع ١٢/ ٥٢٢.

كلام الله ﷻ، وموجودة قبل أن نوجد، ولم يغير سماعنا لها جديدا شيئا من وصفه كلام الله، وإنما تجدد عندنا السماع[(١)]، قال القرطبي ﷺ: «أي ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث، يريد في النـزول، وتلاوة جبريل على النبي ﷺ، فإنه كان ينـزل سورة بعد سورة، وآية بعد آية، كما كان ينـزله الله تعالى عليه في وقت دون وقت، لا أن القرآن مخلوق»[(٢)]، فهذا يؤكد اعتقاد السلف: أنّ الله يتكلم متى شاء، إذا شاء، وكيف شاء، وأنه تكلم بالقرآن، فكلام الله حادث الآحاد، لا النوع.

٣- أن قولكم أنه تكلم بصوت وحرف، وهذا محدث، والمحدث من صفات المخلوقين فيه تلبيس، إذ المحدث في لغة القرآن هو الجديد، والقديم في لغة القرآن هو ما تقدم على غيره، فإن أردتم أن القرآن محدث من حيث كونه بعد التوراة والإنجيل فهذا حق، وإن كنتم تريدون أنه محدث بمعنى مخلوق، فهذا باطل نرده، وإن قلتم: لا بد أن يكون قديما، قلنا: هو قديم بمعنى ليس بمخلوق، وأهل السنة لا يقولون إن الله «كلم موسى بكلام قديم، ولا بكلام مخلوق، بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء، ويسكت إذا شاء، كما أنه ﷻ خلق السماوات، والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وأنه سبحانه استوى إلى السماء وهي دخان، وأنه سبحانه يأتي في ظلل من الغمام والملائكة، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:٢٢] وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢][(٣)]...، وأمثال ذلك في القرآن والحديث كثير، يبين الله سبحانه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه، وأفعاله القائمة بنفسه»[(٤)].

رابعا: قالوا: إن القرآن صرح بأن موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية ٢/ ١٩٨، محاسن التأويل ٥/ ١٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٧٨.

(٣) ومثله قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠] وهذا أصرح في الدلالة على أن الله يقول "كن" فيكون الشيء.

(٤) المجموع ١٢/ ٥٢٩.

سمع كلام الله من الشجرة[١]، حيث قال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص:٣٠].

والجواب عن هذا ما يأتي:

١- أن الاستدلال بهذه الآية على أن كلام الله مخلوق من الادعاءات العرية، التي لا تلتبس إلا على من عري عن العلوم السنية الشرعية، فإن أول الآية دلّ على أنه نودي من بعد، فسمع موسى النداء من بعد من حافة الوادي، وكان هذا النداء في البقعة المباركة من الشجرة، أي من عند الشجرة، كما تقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت أو من الشجرة لابتداء الغاية، لا أن البيت أو الشجرة هي المتكلمة[٢].

٢- أن آخر الآية تبين أن المتكلم هو الله ﷻ، لأن موسى سمع الله يقول: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص:٣٠] فلو كان الكلام مخلوقا في الشجرة لكانت هي القائلة لموسى إني أنا ربك!!، وهذا باطل وما أدى إلى الباطل فهو باطل[٣].

٣- لو كان الكلام مخلوقا في الشجرة لما كان قول فرعون كفرا لما قال: أنا ربكم الأعلى؛ لأن هذا مخلوق من مخلوق، وذاك مخلوق من الشجرة المخلوقة، ولا فرق، وهذا يؤدي ويلزم منه عدم تكفير فرعون، ولهذا أنكر الأئمة هذا القول أشد الإنكار لعلمهم بهذه اللوازم الفاسدة.

٤- أن النداء والكلام الذي سمعه موسى لو كان من الشجرة مخلوقا لكان من يسمع الوحي من الملائكة أفضل منه، ولما كان لموسى أي مزية على الأنبياء الآخرين، بل لكان غيره أفضل منه في التكليم!!.

٥- أنه ثبت في القرآن الكريم من عدة أوجه أن الله كلم موسى بكلام سمعه من الله، وهذه الآيات كلها تدل على أن الكلام ليس مخلوقا، وأن القرآن

---

(١) انظر: متشابه القرآن ٢/ ٥٤٥، التفسير الكبير للرازي ٢٤/ ٢٤٤.

(٢) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٨٢-١٨٣.

(٣) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٨٣.

الكريم كلام الله[(١)] قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾[النساء:١٦٤] وقد: «أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازا، فإذا قال: تكليما، وجب أن يكون كلاما على الحقيقة التي تعقل...، فهو ـ أي المصدر ـ لرفع المجاز عن النسبة؛ لأنه قد نسب الكلام فيها إلى الله، فهو المتكلم حقيقة»[(٢)].

خامسا: تمسكوا بقول الله ﷻ في حق عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حيث قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾[النساء:١٧١] قالوا: وعيسى مخلوق، فكلامه مخلوق[(٣)].

والجواب من وجهين:

١ – أن المراد في هذه الآية بكلمته، كلمة: "كن" حيث ألقاها إلى مريم فكان عيسى، وليس عيسى هو "كن"، حتى يقال: إن الكلمة مخلوقة لأنها هي عيسى، وإن عيسى كان "بكن"، فـ"كن" من الله قول، وليس "كن" من الله مخلوقا[(٤)]، قال قتادة رحمه الله: «ليس الكلمة صار عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى»[(٥)]، وقال الحافظ ابن كثير[(٦)] رحمه الله في تفسير هذه الآية: «إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه، قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، كلمته ألقاها إلى مريم، أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام

---

(١) وقد سقت الآيات التي تدل على أن الله متكلم حقيقة في الفصل الأول من الباب الأول.

(٢) الفتح ١٣/ ٤٧٨، وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١١١.

(٣) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص٣٩-٤٠، تبيين كذب المفتري ص٣٥٣، الجواب الصحيح ٤/ ٦٧، شرح الأصبهانية ٤٣٠، المجموع ٤/ ٢١٩، الروح ١٩٦.

(٤) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص٤٠، شرح الأصبهانية ص٤٣٠، الجواب الصحيح ٤/ ٦٧، المجموع ٨/ ٤١٨، الروح لابن القيم ص١٩٦.

(٥) الجواب الصحيح ٢/ ١٦، وروى نحوه ابن جرير الطبري في تفسيره ٤/ ٣٧٤، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٩٠.

(٦) هو الحافظ المحدث المؤرخ المفسر الكبير: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير الدمشقي الشافعي، أبو الفداء عماد الدين، درس على الأئمة الفطاحل، كابن تيمية وابن القيم والذهبي، وبرع في علوم جمة، من مؤلفاته المشهورة: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، توفي سنة ٧٧٤هـ. انظر: الدرر الكامنة ١/ ٣٧٣، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣.

إلى مريم، فنخ فيها من روحه بإذن ربه ﷻ »[١].

٢- قلتم إن عيسى هو كن، وهو مخلوق، ومعلوم أن عيسى ولد وجرى عليه ما يجري على الآدميين من كونه مولودا، وصبيا، وغلاما، ويأكل ويشرب، وفي آخر الزمان يموت، فيلزمكم أن تقولوا: مثل ذلك في القرآن، وأنه ولد، وأنه يموت!![٢].

سادسا: قالوا: إن القرآن متعلق بقدر الله ﷻ، وما كان مقدورا فهو مخلوق[٣]، قال الله ﷻ: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[الأحزاب:٣٨].

رد الشبهة من أوجه:

١- إن أردتم أن كلام الله ﷻ مقدر بمعنى أن الله قدرها، فهذا حق، فإن كلام الله ﷻ مقدر، كما أن كل شيء مقدر، من الشرع وغيره، سواء كان متعلقا بالله ﷻ، أو متعلقا بالمخلوقين، فالقرآن نزل بقدر معين تكلم الله ﷻ به، وكذلك كان التوراة بقدر معين...

٢- أن التقدير يَرِد وقد يراد به المفعول، والآية ها هنا سيقت لبيان المأمور به المقدور، وهذا مخلوق، ولم تسق لبيان المصدر الذي يأتي بمعنى الفعل.

٣- أن المراد بالأمر في الآية المأمور به لا نفس كلام الله ﷻ الذي هو من صفاته، فإن مصدر "الأمر" يرد وقد يراد به الفعل، ويرد وقد يراد به المفعول[٤].

٤- أما إن كان مرادكم أن كلام الله له قدر معين، كما أن الخلق له قدر معين، فهذا ليس بصحيح، قال الإمام ابن أبي حاتم رحمه الله: « حدثنا أبي قال سمعت بعض أهل العلم يقول: قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩]، يدل على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لو كان مخلوقا، لكان له

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٩٠.
(٢) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد ص ٤٠، المجموع ٨/ ٤١٧-٤١٨، الروح ص ١٩٦.
(٣) انظر: المجموع ٨/ ٤١٢.
(٤) انظر: المجموع ٨/ ٤١٢.

قدر، وكانت له ـ نهاية ـ[١]، ولنفد كنفاد المخلوقين »[٢].

سابعا: قالوا: جاء في الحديث أن البقرة وآل عمران غمامتان، كما في قوله ﷺ: « اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان[٣]، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة »[٤]، ونحوها من الأحاديث، يدل على أن القرآن يجيء، ويأتي، ويكون غمامة!!، وما كان كذلك فإنه لا يكون إلا مخلوقا؛ ولا يوصف بالمجيء والإتيان، إلا المخلوق!![٥].

وجواب هذه الشبهة من وجوه:

١- أن ما ذكر من أن سورة البقرة وآل عمران تأتيان غمامتين، ونحوها من الأحاديث، فهذا ضرب مثل، وإلا « فإن الكلام لا يكون غمامة، ولا يُشبَّه بها »[٦]، وهذا من سعة لغة العرب إطلاق اسم الشيء والمراد ما ترتب عليه.

٢- أن المراد بهذا هو ثواب القراءة، كما جاء تفسير هذا عن الأئمة، كإمام أهل السنة والجماعة، وغيره[٧]، قال: أبو عبيد القاسم بن سلام ـ والسيف يومئذ يقطر من دماء أهل السنة في المحنة ـ المراد: ثوابهما[٨].

٣- قال الإمام ابن حبان البستي[٩] رحمه الله بعد ذكر حديث شفاعة القرآن

---

(١) وفي الفتح: (وكانت له عناية)، ولا يستقيم المعنى إلا بما أثبته.

(٢) الفتح ١٣/ ٤٥٤.

(٣) الغياية: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه، كالسحابة وغيرها. النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٠٣.

(٤) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين..، باب/ فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، ح(٨٠٤) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٥) انظر: أساس التقديس للرازي ص ٨١، المجموع ٥/ ٢٠٦، شرح حديث النـزول ص ٢٠٧.

(٦) أقاويل الثقات للكرمي ص ٢١٧.

(٧) انظر: المجموع ٨/ ٤٠٩، شرح الطحاوية ١/ ٩٤.

(٨) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٢٦.

(٩) هو العالم الحافظ: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي، أبو حاتم البستي، له مؤلفات في السنة =

لأهله: «هذا خبر يوهم لفظه مَن جهل صناعة العلم أن القرآن مجعول مربوب، وليس كذلك؛ لكن لفظه مما نقول في كتبنا: إن العرب في لغتها تُطلق اسم الشيء على سببه، كما تطلق اسم السبب على الشيء؛ فلما كان العمل بالقرآن قاد صاحبه إلى الجنة أطلق اسمُ ذلك الشيء الذي هو العملُ بالقرآن على سببه الذي هو القرآن، لا أن القرآن يكون مخلوقا»(١).

٤- أن الجزاء يكون على فعل الإنسان، والمكلف حينما يقرأ القرآن فإن القراءة فعل له، لا أن القرآن من أفعاله، فالذي يجازى به هو فعله نفسه، ولا يجازى بفعل غيره، وصفة غيره، ولهذا قال الإمام أحمد ﵀: «إن القرآن لا يجيء، - وإنما يكون المعنى - أنه قد جاء: «من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:١] فله كذا، وكذا»، ألا ترون من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لا يجيئه، بل يجيء ثوابه، لأنا نقرأ القرآن، فنقول لا يجيء، ولا يتغير من حال إلى حال»(٢)، فبين الإمام ﵀ أن الذي يجيء هو المخلوق من عمل العبد، وهو القراءة، لا المقروء نفسه، بدليل: أن من قرأ سورة كذا فله كذا، لا أن من قرأ السورة فهي له كذا، فالسورة نفسها لا تكون له، وإنما يكون له ثوابها(٣)، ولو كان المقصود السورة نفسها، لما كان للحث على القراءة من معنى، وأنت ترى أن النبي ﷺ حث على قراءتها، لا على الحصول على السورة نفسها فقال: **[اقرؤوا القرآن... اقرؤوا الزهراوين... اقرؤوا سورة البقرة]** ثم في آخر الحديث بيان لهذا حيث قال: إن أخذها بركة، أي أخذها بقراءتها والعمل بها، وكل هذه أفعال للعبد، وقال: تركها حسرة، لأن من لم يقرأها سيجد يوم القيامة أن من قرأها كانت قراءته له شفيعا، فيتحسر على ترك القراءة - والله أعلم -.

= مشهورة، ومشاركات في العلوم مشكورة، ومن مصنفاته: كتابه في السنن المشهور بصحيح ابن حبان، وتاريخ الثقات، توفي سنة ٣٥٤هـ. انظر: السير ١٦/ ٩٢.

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١/ ١٦٧، عند ح(١٢٤).

(٢) المجموع ٨/ ٤١٠.

(٣) انظر: المجموع ٨/ ٤١٠، ١٢/ ٧٩.

٥- أن قولكم: إن من وصف بالمجيء والإتيان لا يكون إلا مخلوقا باطل، بدليل أن الله ﷻ أخبر عن نفسه أنه يجيء ويأتي، قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾[الأنعام:١٥٨] وقال: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[الفجر:٢٢] ومعلوم أن هذه الأوصاف التي جاءت في حق الله ﷻ لا تدل على كون الله ﷻ مخلوقا بالاتفاق، فدل ذلك أن الوصف بالمجيء والإتيان لا يلزم منه أن يكون مخلوقا[1]، وهذا لو قيل بأن المراد بالشفاعة شفاعة السورة نفسها.

٦- قلتم محرفين في الآيات التي تدل على مجيء الرب ﷻ بأن المراد: جاء أمره، فلم لا يكون المراد في وصف القرآن بأنه يجيء أن يكون المراد: يجيء ثواب قراءته؟؟ والقراءة مخلوقة[2].

ومما يبين فساد قول المعتزلة في القرآن الكريم ما يلزمهم من اللوازم الفاسدة، من قولهم: إن القرآن مخلوق، والشناعات التي تترتّب على قولهم هي:

١- تضليل السلف، إذ كانت هذه المسألة من الدين ولم يبينها لنا الرسول الكريم ﷺ، ولا الصحابة ذوو العلم والتعظيم للقرآن الكريم؟؟، فيقال لهؤلاء المعتزلة: هل هذا شيء علمه رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده، أم لم يعلموه؟؟ فإن قلتم بالثاني ضللتم، وإن قلتم بالأول، قيل لكم: وهل دعوا الناس إليه، وعلموه الناس أم لا؟؟ فإن قلتم بالثاني تبين أن هذا ليس من الدين، وإن قلتم أنه لم يدعوا الناس إليه تبين ضلالكم في اتهام النبي ﷺ بكتمان الدين، وعدم بلاغه البلاغ المبين، وكان فيه اتهام للسلف الصالحين!![3]

٢- قال ابن بدران[4] رحمه الله: «وأما الجهمية فقد أجمع من أدركنا من أهل

---

(١) انظر: المجموع ٨/ ٤٠٨.

(٢) انظر: المجموع ٨/ ٤٠٩.

(٣) انظر: محنة الإمام أحمد للمقدسي ص ١٦٨-١٦٩.

(٤) هو الفقيه الأصولي السني: عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم الدومي الدمشقي المعروف بابن بدران، له مؤلفات في العلوم المختلفة، من مؤلفاته: المدخل، وجنة المناظر شرح روضة الناظر، توفي في دمشق سنة ١٣٤٦هـ. انظر: معجم المؤلفين ٥/ ٢٨٤.

العلم أنهم قالوا إن الجهمية افترقت ثلاث فرق: فقالت طائفة منهم: القرآن كلام الله، وهو مخلوق، وقالت طائفة: القرآن كلام الله، وسكتت، وهي الواقفة الملعونة، وقالت طائفة منهم: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، فهؤلاء كلهم جهمية كفار، يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا، وأجمع من أدركنا من أهل العلم على أن من هذه مقالته إن لم يتب، لم يناكح ولا يجوز قضاؤه ولا تؤكل ذبيحته»[(١)].

٣- أن في قولهم تشبيها لكلام الخالق بكلام المخلوق من حيث كون الكل مخلوقا!! «فقد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق، ففي مذهبكم قد كان في وقت من الأوقات، لا يتكلم حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم، كانوا لا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلاما، وقد جمعتم بين كفر وتشبيه»[(٢)].

٤- أن الأئمة أخبروا بأن من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، من حيث العموم، وأمروا بقتلهم وهجرهم، وتضليلهم، فهذا يدل على شناعة هذا القول، وخطورته في الدين[(٣)].

٥- يلزمكم على قولكم بأن كلام الله مخلوق له، أن يكون كلام المخلوقين كلاما له، وذلك لأنه مخلوق له ـ كما هو معتقد أهل السنة ـ فلا يكون حينئذ فرق بين كلام الرب، وكلام العبد![(٤)].

٦- أن إنكاركم كلام الله ﷻ حقيقة،وأنه متكلم أزلا، كما أنه متكلم إذا شاء، يلزم منه وصف الرب الكامل ﷻ بالنقص، إذ وصفتموه بأنه لا يستطيع أن يتكلم، لا

(١) المدخل لابن بدران ص ٥٤.

(٢) الرد على الجهمية للإمام أحمد ص ٤٦، وانظر: الصفدية ٢/ ٨٩.

(٣) انظر: خلق أفعال العباد ص ١٢١، وما بعدها حيث نقل الإمام البخاري ﷺ الاتفاق على كفر من قال: القرآن مخلوق، وانظر: تبيين كذب المفتري ص ١٥٩، المعتمد لأبي يعلى الفراء ص ٢٦٧، شرح الأصبهانية ص ٤٣٠ وما بعدها، المجموع ١٢/ ٥٢٤، الفتح ١٣/ ٤٧٨، المدخل لابن بدران ص ٥٤.

(٤) انظر: شرح الأصبهانية ص ٥٤٦، منهاج السنة ٢/ ٣٧٢، المجموع ١٧/ ٨٤.

أزلا، ولا أبدا!![(١)(٢)].

وبعد أن ذكرت أهم شبهات القوم مع الجواب عنها، وبعضا مما يدل على فساد مذهبهم، فإني قد تركت بعض شبهاتهم التي يشتركون فيها مع أفراخهم الأشاعرة والماتريدية، وسأبينها في المبحث الآتي.

(١) انظر: المجموع ٦/ ١٥٤-١٥٥.

(٢) تنبيه: ربما يقرأ المسلم في بعض الكتب، أو يسمع من بعض الخطباء والوعاظ ـ قاصدين هذا المعنى أو غير قاصدين ـ أنهم يقولون: قالت الآية!!، وصور القرآن، وصوت القرآن، ونحو ذلك: وهذه ليست بجيدة لأنها تشعر بقول المعتزلة لأن هذا الفعل لم تأت نسبته إلى القرآن الكريم، وإنما ينبغي حين النسبة والإضافة الاقتصار على ما ورد، وقريب من هذا قول بعضهم: رسم الله في كتابه!!، ونحو ذلك من العبارات، التي لم تأت في الآيات البينات، والأحاديث الثابتات، وهذا يشبه قول القائلين: بخلق القرآن، ولكنه تلميح لا تصريح، فينبغي التنبه ـ والله الهادي إلى سواء السبيل ـ.

المبحث الرابع

القول بأن القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله

إن القول بأن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله ﷻ هو من الأقوال المشهورة على ألسنة المخالفين للسلف، وليتبين هذا المبحث ويتجلى أبين أمورا، وهي:

أولا: معنى هذا القول.

الحكاية مأخوذة من قولك: «حكيتَ الشيء أحكيه حِكايةً، إذا أتيتَ بمثله على الصفة التي أتى بها غيرك، فأنت كالناقل، ومنه أتيت صنعته إذا أتيت بمثلها»(١)، فالحكاية مأخوذة من إحكام الشيء بعقدٍ أو تقرير، والثاني هو المراد هنا، والحكاية بالتقرير: أن تفعل مثل ما فعل الأول(٢).

وكان ابن كلاب(٣) وأصحابه يقولون: بأن القرآن حكاية عن كلام الله ﷻ(٤)، ثم جاء الأشعري ومن بعده فقالوا: بأن القرآن عبارة عن كلام الله ﷻ النفسي، وليس حكاية عنه(٥)؛ لأن الحكاية لا بد أن يكون فيها محكي في الأول، فعدلوا عن هذه اللفظة إلى لفظة العبارة، لأنها لا تحتاج إلى محكي في الأصل(٦).

---

(١) المصباح المنير ص ١٤٥.

(٢) انظر: مقاييس اللغة ص ٢٧٧.

(٣) هو رأس الكلابية ومؤسسها: عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، صاحب تصانيف في الرد على المعتزلة، وقيل له: كلاب، لكونه يجر الخصم إلى قوله بفصاحته!، وأصحابه هم الكلابية (وهو أقرب المتكلمين إلى السنة)، توفي في حدود ٢٤٠هـ. انظر: السير ١١/ ١٧٤.

(٤) انظر: التسعينية ٢/ ٤٣٨.

(٥) انظر: مختصر الصواعق المرسلة ص٤٧٥.

(٦) انظر: التسعينية ٢/ ٤٣٨، المجموع ١٢/ ٥٤٣.

وأما العبارة فمأخوذة من (عَبَّرَ) يُعبِّر، تعبيرا، وتقول: «عبَّرت عن فلان، تكلمت عنه، واللسان يعبر عما في الضمير: أي يُبيِّن»(١)، وقد يكون مأخوذا من التعبير، أعني تعبير الرؤيا(٢)، وذلك لأنه شيء في الخيال كالشيء في النفس، ثم يترجم عنه، ويبين عنه بالتعبير الذي يكون من المعبر، وهذا لصيق بقولهم: إن كلام الله ﷻ نفسي، يعبر عنه غيره كالأول.

فهذا القول يعني أن القرآن الكريم الموجود بين دفتي المصحف، المسموع من القراء، المتلو بالألسن، ليس هو كلام الله ﷻ، بل هو عبارة عنه، أو حكاية عنه، أي شيء يدل عليه، لا أنه هو نفسه كلام الله ﷻ الذي هو صفة من صفاته!!.

فأصحاب هذا القول يثبتون لله ﷻ في الظاهر كلاما، ويقولون: إنه صفة من صفات ذاته، ويعنون به «المعنى القائم بالذات، وهو غير مخلوق، وكتابه هو: المنظوم المؤلف العربي، وهو مخلوق!!»(٣).

ويصرحون بهذا القول، فيقولون في شرح قولهم "القرآن كلام الله" أي: «أن القرآن كلام الله الخ هذا مستفاد مما تقدم من أن صفات الله تعالى قديمة، وإنما ذكره لإفادة **أن القرآن يطلق على كلام الله الذي ليس بمخلوق، كما يطلق على اللفظ الدال عليه،** وإلا لم يحتج إلى قوله ليس بمخلوق إذ يصير حشوًا..،قوله كلام الله بدل، أو عطف بيان بذاته، احتراز من كلام الله بمعنى الحروف والأصوات فإنها ليست قائمة بذاته»(٤).

ويقولون: أنّ القرآن الكريم الموجود بين دفتي المصحف دالّ على كلام الله، وليس هو كلام الله، فعندهم لا يعرف لله كلام، وإنما يعرف الدال عليه، والذي يدل عليه يسمى: «العبارة، والكتابة، والإشارة، والدال يسمى قرآنا، وتوراة، وزبورا باعتبار النازل عليه...»، ـ وهذا الموجود في المصاحف، هو ـ كلام الله عبارة عن المعنى

---

(١) المصباح المنير ص ٣٩٠.
(٢) المفردات للراغب ص ٣٢٣.
(٣) المجموع ١٢/ ١٢٥.
(٤) حاشية العدوي ١/ ٨٠-٨١، وانظر منه ص ٦٥، والفواكه الدواني ١/ ٥٦.

النفسي، القائم بذاته المنـزه عن الأصوات، والحروف، والتقدم، والتأخر»[(١)].

وقد يقولون: إن كلام الله مسموع وهم يعنون أنه يفهم من دون حروف وأصوات، أو يعنون الدال على الكلام النفسي، لا أن الكلام النفسي يُسمع، فيقولون: القرآن الكريم كلام الله ويُسمع، ويعنون به ما ذكرت، يقول الجويني: «كلام الله تعالى مسموع في إطلاق المسلمين... والذي يجب القطع به، أن المسموع المدرك في وقتنا الأصوات، فإذا سمي كلام الله تعالى مسموعا، فالمعنيُّ به كونه مفهوما معلوما عن أصوات مدركة ومسموعة... ولو كان السامع لقراءة القارئ مدركا لنفس كلام الله تعالى، لما كان موسى صلوات الله عليه مخصصا بالتكليم»[(٢)].

وهذا الكلام يؤكد أن الأشاعرة لم يفرقوا بين كلام الله ﷻ المسموع منه مباشرة، وهو الذي اختص به موسى، ـ إذ سمع كلام الله بصوته، ومن غير واسطة ـ، وبين كلام الله ﷻ المسموع بواسطة جبريل، أو محمد ﷺ أو القرَّاء من الصحابة وغيرهم، إذ سمع النبي ﷺ من جبريل كلام الله بواسطة، وبصوت جبريل، فالكلام كلام الله لما سمع موسى ولما سمع محمد ﷺ، إلا أن الوسيلة والأداة مختلفتان، فمن سوى بينهما فقد جمع بين المفترقين، وهو الذي أدى إلى قول ليس عليه أثارة من الوحيين.

فتبين أنهم يقولون: بأن الله يوصف بأنه متكلم لكن بكلام نفسي، لا يعلم إلا بما يدل عليه، وأن هذا الكلام النفسي كلام أزلي، لا يكون بمشيئته وقدرته، وأن القرآن عبارة عن كلام الله ﷻ، ومقصودهم أن هذا المتلو ليس هو كلام الله ﷻ بل هو عبارة عنه[(٣)].

ثانيا: سبب ظهور هذا القول.

من أسباب ظهور هذا القول أن الكلابية ونحوهم وافقوا المعتزلة في دليل الحدوث، وقالوا: الذي يدل على وجود الله هو صحة حدوث الأجسام، وأن ما لا

---

(١) الفواكه الدواني ١/ ٥٤-٥٥.

(٢) الإرشاد للجويني ص ١٣٠.

(٣) انظر: إحياء الغزالي ١/ ١٧٥.

يخلو من حادث فهو حادث، فلما وافقوهم على هذا الأصل، ونشأ الخصام في مسألة القرآن الكريم، وخاصمت الكلابية والأشاعرة المعتزلةَ، فقالت المعتزلة: يلزم من إثبات الكلام القديم، أن هذه الأحرف من القرآن قديمة، وأن الصوت المسموع قديم، فقالت الأشاعرة: لا يلزم منه ذلك، لأنا نثبت كلاما قديما، وأن الله لا يتكلم بكلام يُسمع!!، ولا يكون حروفا!!، ولا يكون بصوت!!، وإنما كلامه نفسي، وهو واحد إن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا!!!، وما يكون في الأرض من كلام الله، أو في السماء للملائكة من خطاب الله، فإنما هو عبارة، أو حكاية عن كلام الله، **ولهذا قالوا: إن القرآن هو عبارة عن كلام الله ﷻ، أو حكاية عنه**[١].

وذلك **لأنهم قالوا** بأن الكلام النفسي قديم بناء على: «ما ثبت عندهم أن الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم، وقد وافقوا المعتزلة على أن الحوادث لا تقوم بالقديم، لزم من هذين الأصلين: أن يكون الكلام قديما»[٢]، فالقرآن الكريم قديم عندهم على معنى أنه قائم بذات الله تعالى، لا ينفك عنه، وأن القرآن الذي في المصحف عبارة عن القديم، ويطلقون عليه لفظ القرآن تجوزا، يقول صاحب الجوهرة:

ونزه القرآن: أي كلامه عن الحدوث، واحذر انتقامه[٣]

فإذا قالوا: إن القرآن الكريم قديم يعنون به الكلام النفسي، كما هو واضح من البيت المذكور، فعندهم أن ما بين دفتي المصحف محدث مخلوق؛ لأنه ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عن كلام الله؛ لأن المحدث في اصطلاح القوم هو المخلوق، وأما القديم فهو الكلام النفسي، وهو المراد عند إضافة الكلام إلى الله ﷻ عند أصحاب هذا القول.

---

(١) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٤، منهاج السنة ٣/ ٣٥٤، ٥/ ٤١٧، الفواكه الدواني ١/ ٥٥.

(٢) منهاج السنة ٣/ ٣٥٦.

(٣) جوهرة التوحيد ص ١٣، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر.

وما جاء في كلامهم أن القرآن الكريم ليس بمخلوق،[١] يعنون به الكلام النفسي، لا القرآن الكريم المنـزل على محمد ﷺ، فتنبه.

ومن أسباب قولهم هذا اعتقادهم أن كلام الله الحقيقي لا يكون إلا نفسيا، وأنه لا يكون منه كلام هو صوت وحرف، وقالوا: إن الكلام لا يتعلق بالمشيئة، وإنما كلامه قديم أزلي.

يقول أبو حامد الغزالي الأشعري في حقيقة الكلام ومعناه: «هو القائم بذات الله تعالى، وهو صفة قديمة من صفاته»[٢].

ثالثا: القائلون بهذا القول.

وهذا القول أول من أظهره، وقال به هو عبد الله بن سعيد بن كلاب[٣]، ذكر الحافظ ابن حجر[٤] رحمه الله أن الكلابية يقولون: «الكلام صفة واحدة، قديمة العين، لازمة لذات الله كالحياة، وأنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وتكليمه لمن كلمه، إنما هو خلق إدراك له يسمع به الكلام، ونداؤه لموسى لم يزل، لكنه أسمعه ذلك النداء، حين ناجاه، ويحكى عن أبي منصور الماتريدي من الحنفية نحوه، لكن قال: خلق صوتا، حين ناداه فأسمعه كلامه... وأخذ بقول ابن كلاب القلانسي والأشعري، وأتباعهما، وقالوا: إذا كان الكلام قديما لعينه لازما لذات الرب، وثبت أنه ليس بمخلوق، فالحروف ليست قديمة؛ لأنها متعاقبة، وما كان مسبوقا بغيره، لم يكن قديما، والكلام

---

(١) كما في بدأ الأمالي للفرغاني ص ٢٠، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر، حيث يقول الناظم: «وما القرآن مخلوقا تعالى كلام الرب عن جنس المقال». فمراده نفي الخلق عن الكلام النفسي لا عن القرآن الكريم!!.

(٢) المستصفى ص ٨٠، وانظر: الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٠.

(٣) انظر: منهاج السنة ٣/ ٣٥٣، ٣٦٩.

(٤) هو الحافظ المشهور، والمؤرخ الناقد: أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني الشافعي، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر، نشأ وتربى في مصر، ودرس فيها، ودرس، وله مؤلفات مزبورة، وفوق المائة معدودة، ومنها: فتح الباري وهو أعظم شرح للبخاري، والتهذيب، وغير ذلك، توفي سنة ٨٥٢هـ. انظر: معجم المؤلفين١/ ٢٠.

القديم معنى قائم بالذات، لا يتعدد!!، ولا يتجزأ، بل هو معنى واحد، إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن، أو بالعبرانية فهو توراة»[(١)].

فالمذهب بدأه ابن كلاب، ووافقه عليه صاحبه الحارث المحاسبي[(٢)]**، ثم تبعه على ذلك أبو الحسن الأشعري، وأبو منصور الماتريدي،** وأتباع الأشعري وهم المسمون بالأشعرية، وأتباع الماتريدي وهم المسمون بالماتريدية على هذا المذهب في مسألة الكلام، وهو: أن كلام الله ﷻ قائم بذاته، وأن كلامه لا يُسمع، وأنه ليس للرب صوت مسموع، ولا لكلامه حروف، وما يكون من الأصوات، ومن الأحرف فهي مخلوقة تدل على الكلام النفسي القديم الواحد، وأن الرب ﷻ لا يستطيع أن يتكلم باختياره ومشيئته، في وقت دون وقت[(٣)].

والجويني بعد أن حاور المعتزلة في رده الكلام الذي يكون بحرف وصوت برد غير مقنع، حار في تعريف الكلام، ثم قال: «الكلام هو القول القائم بالنفس، وإن رمنا تفصيلا، فهو القول القائم بالنفس، الذي تدل عليه العبارات، وما يصطلح عليه من الإشارات»[(٤)].

فجعل الجويني الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وجعل الأحرف، والمكتوب في مصاحف المسلمين دالا على ذلك الكلام القائم بالنفس!!، لا هو الكلام نفسه!!.

ونسب القول بالحكاية إلى المعتزلة أبو الحسن الأشعري رحمه الله حيث قال: «وأجمعت المعتزلة على أن قراءة القرآن غير المقروء، واختلفوا هل القراءة حكاية للقرآن أم لا؟، فمنهم من قال: هي حكاية»[(٥)].

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٦٣.

(٢) هو الصوفي المتكلم: الحارث بن أسد المحاسبي البصري أبو عبد الله، له رواية في الحديث، توفي ببغداد، وكان الإمام أحمد رحمه الله يحذّر منه، وله مؤلفات منها: التفكر والاعتبار، توفي سنة ٢٤٣هـ. انظر: السير ١٢/ ١١٠.

(٣) انظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني ص ١٠٥-١٠٦، المجموع ١٧/ ٥٦.

(٤) الإرشاد ص ١٠٨.

(٥) مقالات الإسلاميين ١/ ٢٢٥، وإذا صح ما نسبه الأشعري عن المعتزلة، فلعل هذا قول بعضهم، وتأكد =

ونسبه شيخ الإسلام رحمه الله إلى الجهمية، فقال إنهم: « يقولون: إن الله لا يتكلم، وليس له كلام، وإنما خلق شيئا فعبر عنه »[(١)].

رابعا: شبهاتهم التي استدلوا بها؛ والرد عليها.

أولا: شبهاتهم العقلية التي استدلوا بها، وهي كثيرة، لكن أذكر أهمها، وهي:

أ- قولهم: إن كلام الله نفسي، وأنه لا يتكلم بحروف وصوت، فهذا ما نقله محقق الأشعرية، ورافع لوائهم الرازيُّ، فيقول: « أما أصحابنا فقد اتفقوا على أن الله تعالى ليس بمتكلم بالكلام الذي هو الحروف والأصوات، بل زعموا، أنه متكلم بكلام النفس »[(٢)]، ويزعمون أن هذا الكلام النفسي ليس له علاقة بمشيئة الله تعالى، واختياره وقدرته[(٣)].

ويقولون دل على ذلك اللغة، كما تقوله العرب: « كان في نفسي كلام، وزورت في نفسي قولا »[(٤)]، ويدل على ذلك النثر والشعر، يقول الرازي: « الكلام في اللغة قد يطلق على الكلام النفسي في الجملة »[(٥)]، واستدلوا بقول الشاعر النصراني الأخطل[(٦)]، حيث قال:

= لي ذلك بعد ما وقفت على كلام شيخ الإسلام حيث نسب هذا القول إلى طائفة من المعتزلة. انظر: المجموع ١٢/ ٥٤٢، وبهذا يتبين أن الأشاعرة والماتريدية ـ حسب نقل إمامهم ـ على مذهب المعتزلة، فإن لم يكونوا صراحة على مذهبهم، فإنهم على مذهبهم في المآل. انظر: المعتمد للفراء ص ٨٩.

(١) المجموع ١٢/ ١٧٧، ومعلوم أن هناك فرقا بين قول الجهمية وهؤلاء؛ فإن هؤلاء يقولون بكلام قائم به وهو النفسي، والمعبر عنه الخلق، وأما الجهمية فلا يقولون بكلام قائم به، وإنما يقولون: بأن هناك من يعبر عنه، سواء قالوا: المعبر عنه مخلوق، أو يخلق الكلام معبرا.

(٢) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص٢٥٠، وانظر: الإرشاد للجويني ص١٢٤، العقائد النسفية ص ٢٩، ورسالة في التوحيد للبيجوري ص ٤٢، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر، أم البراهين للسنوسي ص ٤، والخريدة البهية في العقائد التوحيدية للدردير ص ٢٥، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

(٤) الإرشاد ص١١١.

(٥) الدر النضيد لابن الحفيد التفتازاني ص ١٥٦.

(٦) هو الشاعر النصراني: غياث بن غوث الأخطل بن الصلت التغلبي أبو مالك، وكان شاعرا مادحا للأمراء خصوصا الأمويين، وكان بينه وبين جرير والفرزدق تهاجٍ، وله ديوان شعر، توفي سنة ٩٠هـ. انظر: معجم المؤلفين ٨/ ٤٢.

إن الكلام لفي الفؤاد، وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا [(١)]

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

١ - **أن** هذا البيت لم يثبت بهذا اللفظ، والثابت إنما هو بلفظ: «إن البيان لفي الفؤاد»، ولم يقل الكلام، وبتقدير صحته لماذا لا تقولون: إنه مجاز، وأن ما ثبت في الكتاب والسنة المراد بهما الحقيقة!!؟[(٢)].

٢- أن هذا البيت من شاعر نصراني لا يحتج به على مخالفة القرآن والسنة، خصوصا بعد عِلْمِنَا أن عقيدة النصارى في الكلام باطلة، أم تقولون: يجب اطراح كلامه تعالى ورسوله، وسائر الخلق تصحيحا لكلامه، وحمل كلامهم على المجاز، صيانة لكلامه عن المجاز!![(٣)].

٣- أن هذا البيت يلزم منه أنه لا يكون كلام إلا إذا كان هناك لسان دال عليه، وهل تثبتون لله ﷻ لسانا حتى يكون دالا على ما في نفسه، أم تأخذون بأول البيت، وتتركون آخره!! أو نطرحه كليا؟؟؟، ثم كيف تقولون: إنه لا يكون كلام إلا بلسان، وقد سمع النبي ﷺ تسليم الحجر عليه، وتسبيح الحصى في يده، وتحذير الذراع المسمومة له[(٤)].

٤- أن اسم الكلام موضوع في اللغة لهذه الألفاظ المركبة من الأحرف، الدالة على المعاني، وأما قولكم إن الكلام في اللغة هو الكلام النفسي فلم تسبقوا إليه، ويكون في هذا تحريف للغة، بل لا يكون في اللغة الكلام كلاما إلا إذا كان مفيدا، واختلفوا في الإشارة[(٥)]، ولهذا قلتم: قد يكون، ولم تجزموا بذلك لعلمكم بخلافه، ثم إن أهل العرف - وهم أعلم منكم - يسمون الناطق متكلما، ومن عداه ساكتا، أو أخرسَ[(٦)].

---

(١) الإرشاد للجويني ص ١١١، الغنية ص ١٠٢، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٥٢.

(٢) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٩٩، العين والأثر ص٧٧، بل من أهل العلم من أنكر وروده في ديوانه مطلقا. انظر: العين والأثر ص ٨٥.

(٣) انظر: شرح الطحاوية ١/ ٢٠٠، العين والأثر ص٨٤.

(٤) العين والأثر ص ٨٦.

(٥) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص٢٥٢.

(٦) انظر: شرح الطحاوية ١/ ١٩٨، العين والأثر ص٨٢.

٥- أن هذا البيت معارض بنصوص القرآن والسنة.

٦- أنه مخالف لإجماع السلف[(١)]، ولم يقل بالكلام النفسي إلا الأشاعرة وشيوخهم من الكلابية، وإخوانهم من الماتريدية، قال الرازي: «أما المعنى الذي يقول به أصحابنا، فهو غير مجمع عليه، **بل لم يقل به أحد إلا أصحابنا**»[(٢)]، فشهد شاهد من أهلها، ثم الإجماع قائم على أن القرآن الكريم إذا أطلق فالمراد به اللفظ المنزل على نبينا محمد ﷺ المحتوي على المعاني، فالقرآن لفظ ومعنى، فـ« ليس القرآن عندنا بمجرد معناه فقط، بل بلفظه المخصوص، ومعناه، وأسلوبه الذي أعجز الأولين والآخرين»[(٣)].

٧- أن قولكم: إن العرب تقول: زورت في نفسي كلاما، فهذا حق، لأن الإنسان يزور في نفسه كلاما، لكن العرب لم تطلق هذه العبارة، بل جاءت العبارة مقيدة هكذا: «زورت في نفسي كلاما»، والخلاف في الكلام عند الإطلاق ما هو؟ وليس الكلام عند التقييد، وإلا فإن الكلام قد يقيد بأشياء أخرى، غير النفس، فلا حجة لكم في هذا، فالكلام ليس هو ما في النفس، لكن ما في النفس إذا زور يكون من قبيل حديث النفس، وإذا نطق به علمنا أنه كلام، وإلا فهو حديث النفس، وقد أجمع الفقهاء ـ رحمهم الله ـ على: «أن من تكلم في صلاته عامدا، وهو لا يريد إصلاح شيء من أمرها، أن صلاته فاسدة»[(٤)]، وأجمعوا على أن الكلام النفسي، وهي: «الفكرة في أمور الدنيا لا تفسد الصلاة»[(٥)]، فدل على أن الكلام النفسي إذا لم يسمع لا يكون كلاما عرفا وشرعا[(٦)].

---

(١) انظر: الفصل الثاني، من الباب الأول، وقد ذكر ابن القيم أن شيخ الإسلام رحمه الله رد الكلام النفسي من سبعين وجها، وهو كذلك كما في كتابه التسعينية، وغيرها. انظر: العين والأثر ص٧٧.

(٢) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص٢٥٢.

(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٢٦، وهذا كلام حق من القرطبي مع أنه من الأشاعرة، لكنه هنا وافق القول الحق، قول السلف، فرحمه الله وغفر لنا وله.

(٤) الإجماع لابن المنذر ص٨، وقال الخطابي: «فلو كان حديث النفس بمعنى الكلام، لكانت صلاته تبطل». انظر: شرح سنن أبي داود ٢/ ٤٥٧ بحاشية السندي.

(٥) مراتب الإجماع لابن حزم ص٢٩، ووافقه على ذلك شيخ الإسلام رحمه الله، وقال: واختلفوا فيها إذا كانت هي الأغلب. انظر: نقد مراتب الإجماع لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٩.

(٦) انظر: شرح الطحاوية ١/ ٢٠٠-٢٠١، وانظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات لشيخنا أ.د/ أحمد بن عطية الغامدي ص ٢٠١ وما بعدها.

٨- أن كبير المتكلمين، وإمام الأشعريين صرح بأن القول بالكلام النفسي لا يصح، حيث يقول الرازي: «إن قول من قال: إنه تعالى متكلم بكلام يقوم بذاته، وبمشيئته، واختياره، هو أصح الأقوال، نقلا وعقلا»(١)، فهذا يدل على فساد قولكم بالكلام النفسي الذي لا يتعلق بالمشيئة، وإنما يكون وارد النفس دون إرادة محكِمة لها، أو قدرة في دفعها، أو رفعها!!، وقد أورد الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه لتبويب البخاري: «باب: قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾[الفتح:١٥] قول ابن بطال حيث قال: أراد بهذه الترجمة، وأحاديثها، ما أراد في الأبواب قبلها أن كلام الله تعالى صفة قائمة به، وأنه لم يزل متكلما، ولا يزال». ثم قال الحافظ: «والذي يظهر أن غرضه أن كلام الله لا يختص بالقرآن؛ فإنه ليس نوعا واحدا...، وأنه وإن كان غير مخلوق، وهو صفة قائمة به؛ فإنه يلقيه على من يشاء من عباده، بحسب حاجتهم في الأحكام الشرعية، وغيرها من مصالحهم، وأحاديث الباب كالمصرحة بهذا المراد»(٢) فهذا كلام صريح منه رحمه الله أن كلام الله عز وجل أزلي النوع، وأن آحاده تكون إذا شاءه الله تبارك وتعالى، وقد دل على ذلك السمع، حيث وردت آيات كثيرة تدل على أن الله عز وجل يتكلم متى شاء، مع من شاء، «فالله تعالى أخبر أنه لما أتى موسى الشجرة ناداه، فناداه في ذلك الوقت، لم يناده في الأزل، وكذلك قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾[الأعراف:١١] وقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران:٥٩] وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] **إلى مواضع كثيرة من القرآن تبين أنه تكلم بالكلام المذكور في ذلك الوقت**»(٣).

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٦٣.

(٢) الفتح ١٣/ ٤٧٥.

(٣) منهاج السنة ٥/ ٤١٨-٤١٩.

٩- أن قولكم بالكلام النفسي يعني أن النبي ﷺ تحدى الناس بما هو مثل كلام رب العالمين، ولم يتحداهم بكلام الله، وهذا في حد ذاته غلط، إذ كيف يتصور أن يكون لكلام الله مثل، وهو سبحانه ينفي المثلية، كما قال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤]، فدل على أن ما تحداهم به الرسول ﷺ هو كلام الله حقيقة، لا مثله[(١)]، ثم كيف يكون التحدي بالكلام النفسي؟؟ وهو على زعمكم لا يُسمع، ولا يعرف؟، فدل ذلك على أن التحدي إنما تم بهذا الموجود بين الدفتين، وهو لا مثل له، لأنه كلام الله الذي لا مثل له، قال ابن أبي العز الحنفي: «فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه، وعبارته، وهو المتلو، المكتوب، المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا، **فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق**، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة؛ فإن حكاية الشيء: مِثلُه، وشبهه، وهذا تصريح بأن صفات الله تعالى محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية، لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجْزُهم؟؟، ويكون التالي - في زعمهم - قد حكى بصوت وحرف، ما ليس بصوت وحرف!!»[(٢)].

١٠- إذ قلتم بالكلام النفسي، وصرحتم بأن القرآن عبارة عن كلام الله ﷻ فيرد سؤال، وهو أن نسألكم أن القرآن عبارة من؟، من الذي عبر عما في نفس الله ﷻ؟؟، ومن الذي اطلع على ما في نفس الله ﷻ ؟؟، وفي جواب هذا اختلفتم، فمنكم من يقول: هو فهم خلقه الله في فكر من أراد له أن يعرف الكلام النفسي؟؟ ومنكم من يقول: وجد العبارةَ جبريلُ في اللوح المحفوظ، ويرد سؤال: مَن المعبر عنه في اللوح المحفوظ؟ أهو القلم؟ أم هو اللوح نفسه؟ ومنكم من يقول: إن المعبر هو جبريل!![(٣)] ومنكم من يقول: إن المعبر هو محمد ﷺ !!، ثم إنّ القرآن عبارة عن كلام الله ﷻ عندكم، فهل

(١) الغنية ص١٠٧، العين والأثر ص١٠٢.

(٢) شرح الطحاوية ١/ ٢٠٣.

(٣) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤١٧، شرح الأصبهانية ص ٣٣٧، أقاويل الثقات ص ٢٢٣.

هو عبارة عن كله؟ فهذا ممتنع، أم عن بعضه، فهذا ممتنع أيضا!![1].

١١- أنه إذا كان جبريل علم ما نفس الله ﷻ بدون خطاب، وإنما أُلهم إلهاما، ثم نزل بما أُلهم إلى محمد ﷺ يلزم منه أن يكون الذي أُلهم مباشرة من الله ﷻ أفضل من محمد ﷺ، لأن من ألهمه الله مباشرة كقوله ﷻ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[القصص:٧] يلزم أن تكون أم موسى أفضل لأنها ألهمت مباشرة، وأما الأنبياء فعلى هذا القول ألهموا بواسطة!!، ولهذا كان من نتائج هذا القول الفاسد أن ادعى أقوام أنهم أفضل من الأنبياء لأنهم يأخذون عن الله مباشرة!!![2].

١٢- أنكم أثبتم الكلام بـ(الكتاب، والسنة، والإجماع)[3]، وقلتم: إن الكلام ثبت بالسمع، كما قال صاحب الجوهرة:

حياته، كذا الكلام السمع ثم البصر، بذي أتانا السمع[4]

وقد دل الكتاب والسنة والإجماع على أن الله يتكلم بصوت وحرف، فلم التفريق بين المتماثلات ثبوتا ودلالة، فكما أنه ورد في السمع أنه متكلم، كذلك ورد أنه متكلم بصوت وحرف، ثم إن السلف على أن القرآن الموجود بين الدفتين ليس بمخلوق، والمعتزلة على أنه مخلوق، ثم « شأبدع الأشعري قولا ثالثا، وقضى بحدوث الحروف، وهو خرق الإجماع »[5]، فبهذا أنشأتم قولا ثالثا مخالفين للسلف، والخلف، خارقين للإجماع، فقلتم: إن هناك قرآنين: قديما وهو ما في نفس الرب!!، وحادثا وهو الموجود بين الدفتين!![6]، وهذا جمع بين النقيضين، وعلى اصطلاحكم: جمع بين القديم والمحدث!!.

---

(١) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤١٩، شرح الأصبهانية ص ٣٣٨، المجموع ١٢/ ٣٦٧، العين والأثر ص ٨٠.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١٢٨.

(٣) أم البراهين للسنوسي ص ٦، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر.

(٤) جوهرة التوحيد ص ١٢، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر.

(٥) انظر: نهاية الأقدام ص ٣١٣، نقله ردا من المعتزلة على الأشعرية، وهو رد سديد، والجواب عنه عليهم شديد.
تنبيه: الذي أظهر القول بحدوث الحروف هو ابن كلاب وتبعه على ذلك الأشعري، وأشاعه بين الناس.

(٦) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤٢٠.

١٣- أنكم أثبتم الكلام لكون ضده وهو الخرس من النقائص، وهي مستحيلة على الله ﷻ، ولا تليق به[١]، فكذلك وصف الله ﷻ بالكلام النفسي، وأن الذي يعبر عنه هو آخر، إما القلم، أو جبريل، أو غيرهما، هذا فيه وصف للرب ﷻ بالنقص، وهو مستحيل على الله ﷻ[٢]؛ لأن الذي يتكلم بكلام في نفسه؛ لأنه: (طفل، أو أخرس، أو خائف) معلوم أنه ناقص، والذي يعبر عنه آخر (كبير، أو ناطق، أو آمِن) ضرورة يكون أكمل منه، ومعلوم أن من كان له كلام في نفسه، واستطاع أن يعبر عنه أبلغ ممن لا يستطيع، ولهذا كان من الاعتراضات الوجيهة للمعتزلة على الأشاعرة لما قالت الأشاعرة للمعتزلة: إن نفيكم للكلام نقص وآفة، قالت المعتزلة: « لم قلت إن ضده نقص وآفة، بل **الذي نعده نقصا، وآفة في العرف هو: العجز عن التلفظ بالحروف** »[٣]، فهذا مبتدع يرد على قول مبتدع، وكلا القولين منهم ضلالة.

١٤- دل الكتاب من أوجه كثيرة على أن الله تكلم بصوت وحرف، قال أبو الفضائل الرازي[٤] في كتابه حجج القرآن: « حجج القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو مشتمل على فصول: الفصل الأول: في حجج من قال بأن كلام الله عز وجل صوت وحرف، وذلك في عشر آيات »[٥] ثم سرد الآيات الواردة في القرآن الكريم التي تدل على أن الله تكلم بصوت وحرف، ومنها: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[الأعراف:٢٢] وقال: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا ﴾[مريم:٥٢] والنداء من بعد، والمناجاة من قرب،

---

(١) العقائد النسفية ص ٢٩، وأم البراهين للسنوسي ص ٦، ورسالة في التوحيد للبيجوري ص ٤٢، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر.

(٢) انظر: العين والأثر ص٦٨.

(٣) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٥١، وانظر: منهاج السنة ٣/ ٣٦٠، شرح الطحاوية ١/ ١٩٨.

(٤) هو العالم الأديب المتكلم: أحمد بن محمد بن المختار الرازي، أبو الفضائل الحنفي، صاحب التصانيف، ومنها: حجج القرآن لجميع الملل والأديان، توفي سنة ٦٣١هـ. انظر: معجم المؤلفين ١/ ١٥٨.

(٥) ص ٦٤.

والنداء في اللغة ليس إلا الصوت[١]، وأما نفي الكلام بصوت وحرف، فيلزم منه نفي أن يكون الله متكلما، ومناديا، ومناجيا[٢].

١٥- ما هو المراد بقولكم: إن الكلام في النفس؟ أتقولون: إن المراد به هو ما يدور في الفكر، كما يقول الجويني: «وذهب أهل الحق إلى إثبات الكلام القائم بالنفس، وهو الفكر الذي يدور في الخلد»[٣] فإن كنتم فررتم من إنكار الصوت والحرف مخافة التشبيه، فقد وقعتم في تشبيه الخالق في كلامه بما يدور في خلد الإنسان وفكره!!، مما يريد أن يتكلم به، فإن كان الإنسان سويا، تكلم بما في نفسه بحرف وصوت، وإن كان به آفة احتاج أن يُرشد إلى ما في نفسه بإشارة، أو رمز، أو كتابة، دون أن يُسمَع منه مراده، وهذا تشبيه منكم الربِّ الكامل بالعبد الضعيف المحتاج الذي يحتاج إلى من يعبر عنه!!![٤]، وإن أنكرتم الصوت والحرف بحجة أن ذلك لا يكون إلا حادثا، فهذا صحيح لأن الصوت المعهود من المخلوقين، وإخراج الأحرف منهم لا يكون إلا مخلوقا، لكن كذلك ما يدور في خلدهم ونفوسهم لا يكون إلا حادثا في المشاهد!!، فكيف أثبتم الكلام النفسي الذي يرد عليه ما يرد على الحرف والصوت[٥]، فوجب أن يعتصم المسلم بما ثبت عقلا ونقلا من أن ما يكون صفة للخالق لا يكون مخلوقا حادثا سواء كان كلاما، أو غير ذلك، وما يكون من المخلوق لا يكون إلا مخلوقا حادثا، سواء كان كلاما أو أفعالا.

١٦- أن الجويني بعد صولات وجولات مع مخالفيه من المعتزلة تأكد له بأنه لا يمكنه رد قولهم إلا بإثبات كلام هو حرف وصوت، فدل هذا على أن الحق هو ما ذهب إليه السلف من أن الكلام هو المعنى واللفظ، قال الجويني: «فإن قال المخالف ـ وهو

---

(١) حجج القرآن ص ٦٤، منهاج السنة ٥/ ٤٢٣.

(٢) انظر: منهاج السنة ٣/ ٣٥٥.

(٣) الإرشاد ص ١٠٩.

(٤) انظر: العين والأثر ص ٨٦.

(٥) انظر: الحجة في بيان المحجة لقوام السنة١/ ٣٦٢.

يقصد المعتزلة ـ: الألفاظ المفيدة يسميها العقلاء كلاما على الإطلاق، ويقولون: سمعنا كلاما، ومرامهم ما أدركوه من العبارات. قلنا: الطريقة المرضية عندنا أن العبارات تسمى كلاما على الحقيقة، والكلام القائم بالنفس كلام، وفي الجمع بينهما ما يدرأ شغب المخالفين»(١)، ومثل هذا قول الرازي: «اعلم أن لفظة "الكلام" عند المحققين ـ منا ـ تقال: بالاشتراك على المعنى القائم بالنفس، وعلى الأصوات المتقطعة المسموعة»(٢)، والحق ما ذهب إليه أهل الحق من السلف، ومتبعيهم من الخلف، أن الكلام هو اللفظ والمعنى، ليس اللفظ دون المعنى، ولا المعنى دون اللفظ، إذ لو كان اللفظ هو الكلام دون المعنى للزم أن من أخطأ في لفظ القرآن فقرأه بصورة غير ما أنزل، أن يكون قرأ قرآنا؛ لأنه قرأ اللفظ المنزل لكنه لم يقرأه كما أنزل، ولو كان الكلام هو المعنى دون اللفظ، للزم أن يكون تفسير كلام الله ﷻ قرآنا وكلاما لله تعالى!!!.

١٧ - أن المعتزلة لما قالوا: بأن الله حي عالم قادر لنفسه أنكرتم عليهم ذلك(٣)، ثم أخذتم بقولهم فقلتم في الكلام إنه قائم بنفسه ـ وهذا حق، وزدتم عليه ـ، إنه كلام نفسي لا يسمع، وليس بحروف، وهذا منكم تناقض، إذ أثبتم الكلام ثم قلتم نفسي، كقولهم: إنه عالم، ثم قالوا عالم لنفسه، فالقولان سواء بسواء!!.

١٨ - أن أصحابكم مختلفون فيما بينهم في إثبات المراد بالكلام، يقول الأشعري أبو حامد الغزالي: «إن قوما جعلوا الكلام حقيقة في المعنى، مجازا في العبارة، وقوما عكسوا، وقوما قالوا: بالاشتراك، ونقل الثلاثة عن الأشعري»(٤)، فهذا خلاف في

---

(١) الإرشاد للجويني ص١١١، وانظر: المستصفى للغزالي ص٨٠؛ فإنه زعم أن الكلام اسم مشترك يطلق على اللفظ تارة، وعلى المعنى تارة أخرى، وهذا يبين اضطراب القوم، وإلا فإن الحق هو: أن الكلام يتضمن اللفظ والمعنى معا.

(٢) المحصول في أصول الفقه ١/ ١٧٧.

(٣) انظر: الإرشاد للجويني ص١١٦.

(٤) شرح الكوكب المنير ٢/ ١١، وانظر: المستصفى للغزالي ص ٨٠، شرح المواقف للجرجاني ٨/ ١١٣، ١١٦، وقال: «فالشيخ الأشعري لما قال: الكلام هو المعنى النفسي، فهم الأصحاب منه أن مراده مدلول اللفظ وحده، وهو القديم عنده...، وهذا الذي فهموه من كلام الشيخ له لوازم كثيرة فاسدة، كعدم

إثبات المراد بالكلام بين أصحاب المذهب الواحد، مما يدل على اضطرابهم(١).

ب- قالوا: « إن كلامه تعالى، يستحيل أن يكون من جنس الحرف والصوت، فبالضرورة يكون أمرا آخر »(٢)، وأنه إذا كان بحرف وصوت يكون مألوفا، أي ككلام البشر!!، فدل ذلك على أنه ليس بحرف ولا صوت!!، يقول راجزهم:

ثم الكلام ليس بالحـروف وليس بالترتيب كالـمألوف(٣)

وقالوا: الأصوات والحروف حادثة لا تقوم بالقديم(٤).

فالرد عليهم من أوجه:

١- أن هذه الاستحالة مركبة من القواعد المنطقية، والأصول الفلسفية، ومخالفة للنصوص الشرعية، فلا معول عليها، ثم « إن عنيتم استحالته بالإضافة إلى الشاهد، فسماع كلام بدون توسط صوت وحرف كذلك أيضا، وإن عنيتم استحالته مطلقا، فلا نسلم إذ الباري ﷻ على خلاف المشاهدة والمعقول في ذاته وصفاته، وقد وردت النصوص بما قلناه، فوجب القول به »(٥).

٢- أنه يلزم من هذا أنه ﷻ لا يوصف بالحياة لأنه يستحيل أن يوصف بجنس الحياة، ويستحيل أن يوصف بجنس القدرة، ويستحيل أن يوصف بجنس العلم!!!، وهذا معلوم بطلانه عندنا وعندكم، فلم يبق إلا التسليم بأنّه سبحانه متصف بالحياة

= **إكفار من أنكر كلامية ما بين دفتي المصحف، مع أنه علم من الدين ضرورة كونه كلام الله تعالى حقيقة، وكعدم المعارضة والتحدي بكلام الله تعالى الحقيقي، وكعدم كون المقروء المحفوظ كلامه حقيقة... »** .

(١) هذه بعض الردود في إبطال القول بالكلام النفسي، وقد بسط الكلام في هذه المسألة شيخ الإسلام في كتابه: التسعينية، حيث ردها من تسعين وجها.

(٢) الدر النضيد لابن الحفيد التفتازاني ص ١٥٦، وانظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر، فإنه ذكر أن موسى سمع كلام الله ﷻ بغير صوت، ولا حرف!!، والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص ١١٢.

(٣) الخريدة البهية في العقائد التوحيدية للدردير ص٢٥، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر، قطف الثمر ص٥١، الفواكه الدواني ١/ ٥٧.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٥٢٦، الفتح ١٣/ ٤٦٣ونسبه إلى الكلابية والأشعرية، الفواكه الدواني ١/ ٥٥.

(٥) العين والأثر ص ٧٨ ونسبه إلى الطوفي.

اللائقة به، وأن قدرته كذلك، وعلمه كذلك، وأن كلامه بلا تشبيه، وإن كان بحرف وصوت، فإنه لا يلزم من إثبات جنس الشيء التماثل فيه، فإثبات الكلام كإثبات العلم، كإثبات القدرة، ولا يلزم من إثبات الكلام بصوت أن يكون كأصوات العباد، ولا كنظم ألفاظهم بالألسنة واللهوات، ثم كيف يكون كلام الله ككلام البشر، وهو معجز البشر، فلا يستطيعون الإتيان بمثله أبدا، لأنه كلام الله حقا وصدقا.

٣- «يلزم منه أن الله لم يُسمع أحدا من ملائكته، ورسله كلامه، بل ألهمهم إياه، وحاصل الاحتجاج للنفي الرجوع إلى القياس على أصوات المخلوقين؛ لأنها التي عندنا أنها ذات مخارج، ولا يخفى ما فيه، إذ الصوت قد يكون من غير مخارج...، وصفات الخالق لا تقاس على صفة المخلوق، وإذاً... وجب الإيمان به»(١).

٤- أن الكلام يمكن أن يكون ممن لا مخارج معتادة له كالآدميين، كما نطقت السماوات والأرض، مستجيبة لله ﷻ، وكما نطق الحجر مسلما على رسول الله ﷺ، وسبح الحصى في يد بعض الصحابة(٢).

٥- أن القول بحدوث صوت الرب ﷻ ولفظ كلامه، شيء اصطلحتم عليه، وإلا فإن صفات الخالق ليست مخلوقة، وصفات المحدَث المخلوق مخلوقة، فالصفة تتبع الموصوف، فكلامنا بألفاظنا وأصواتنا مخلوقة، لأننا مخلوقون، فوجب أن يكون كلام الله ﷻ بصوته وحروفه ليس مخلوقا؛ لأنه ليس بمخلوق(٣).

٦- أن القول بأن كلام الله ليس بحرف يلزم منه أن القرآن الموجود في مصاحف المسلمين ليس كلام الله ﷻ، ولهذا قاله بعض أهل البدع: «ليس لله في الأرض كلام!!، وهل المصحف إلا ورق، وعفص، وزاج؟؟»(٤)، ومعلوم أن هذا

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٦٦ بتصرف، ثم الحافظ رحمه الله، مال بعد إثباته للصوت، إلى التفويض والتأويل!!، وانظر الرد عليه في التنبيه على المخالفات العقدية في الفتح ص ١٣٩.

(٢) وقد مر هذا في المبحث السابق من هذا الفصل، وانظر: قطف الثمر ص٥١، الفتح ١٣/ ٤٦٩.

(٣) انظر: الفتح ١٣/ ٤٦٣.

(٤) نقله قوام السنة في الحجة في بيان المحجة ١/ ٤٠٠-٤٠١.

تلبيس إذ أن هذه الأمور المشار إليها هي موجودة في غير المصحف، ولا يعني شيئا بالنسبة للمسلمين، وإنما الذي يهم أمر المسلمين، ويجدون في قلوبهم تعظيما له هو الكلام الموجود في المصحف[(١)]، فقولهم: «ليس في المصحف إلا ورق وعفص وزاج؟، فهو كقول القائل: هل الآدمي إلا لحم ودم؟؟ هيهات إن معنى الآدمي هو: الروح، فمن نظر إلى اللحم والدم، وقف مع الحس»[(٢)] وألغى إدراك الروح الموجود في الآدمي، وكذلك من ظن أن المراد بالمصحف هو الورق، وتناسى الكلام الموجود فيه، وهو كلام الله ﷻ، قال المزني صاحب الإمام الشافعي ـ رحمهما الله ـ: و« القرآن غير مخلوق، ـ دل على ذلك ـ الكتاب وسنة رسول الله ﷺ، وإجماع أمته»[(٣)]، ومازال الفقهاء يجيزون الحلف بالمصحف، بقولون: لأن فيه كلام الله ﷻ[(٤)]، ويمنعون غير الطاهر من مسه، ويقولون: لأن فيه القرآن، وهو كلام الله ﷻ[(٥)].

ت- هل الكلام النفسي يُسمع؟ اختلف في ذلك أقوال الأشاعرة والماتريدية[(٦)]، فالماتريدية على أنه لا يسمع، وإنما الذي يسمع هو الصوت المخلوق، وأما الأشاعرة فإنهم أيضا على أنه لا يُسمع، وإنما يُفْهم إما بإلهام، أو بإدراك، أو بإطلاع على اللوح المحفوظ!!، قال الرازي مبينا أن القرآن الذي هو عبارة عن الكلام الأزلي أنه مسموع الآن، وأما الكلام القديم فقال عنه: «هل يصح أن يكون مسموعا؟ هذا مما لم يقم عندي عليه دليل!؟» ثم قال متحيرا: «بل السمع لم يتعلق بالأصوات فجاز أن تكون علة صحة المسموعية هي: الصوتية فقط، وحينئذ لا يكون ذلك الكلام مسموعا»[(٧)]

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٤٠٠-٤٠١.

(٢) أقاويل الثقات ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) تبيين كذب المفتري ص٣٥١.

(٤) مغني المحتاج ٤/ ٣٢٢، البحر الرائق٤/ ٣١١، حاشية ابن عابدين ٣/ ٧١٣.

(٥) انظر ما تقدم في الفصل الرابع من الباب الأول.

(٦) انظر: اعتقاد أئمة السلف أهل الحديث ص٢٥٨.

(٧) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٨، وانظر: المجموع ٦/ ٥٣٩، حيث ذكر فيه أن القول بأن الكلام النفسي يُسمع هو قول طائفة منهم، بناء على قولهم: إن السمع يتعلق بكل موجود، أي إن كل ما كان موجودا فهو يُمكن أن يُسمع، ولو لم يكن صوتا وحرفا. انظر: شرح الأصبهانية ص ٣٣٧.

وإثباتهم أن موسى سمع كلام الله ﷻ يقصدون به أن الله تعالى: « خلق له فهما، أي يدرك به ما دل عليه كلامه القديم »[١]، أي: فهما في قلبه، وسمعا في أذنيه!!، سمع به كلاما ليس بحرف ولا صوت!![٢].

والجواب عن هذه الشبه بما يأتي:

١- أن هذا مترتب على إثبات الكلام النفسي، ولا دليل عليه، فيقال: أثبت العرش ثم انقش، فلما لم يثبت الكلام أنه نفسي فقط، دل على أن كلام الله ﷻ يسمع، وأنه بصوت وحرف بلا شطط.

٢- أن من الردود عليه ما ذكره شارح المحصل[٣] من أن « الحق الرجوع في أمثال هذه المسائل إلى السمع، والتوقف فيما لم يرد سمعا »[٤] وقد ورد في السمع أن جبريل عليه السلام يسمع كلام الله تعالى، وأن موسى سمع كلام الله ﷻ، وأن محمدا ﷺ سمع كلام الرب تعالى لما عرج به في ليلة الإسراء، فكيف يقال بعد هذا إن كلام الله لا يُسمع؟؟، يقول صاحب متن الشيبانية في العقيدة[٥] مثبتا السماع:

وخصص موسى ربُّنا بكلامه   على الطور ناداه وأسمعه الندا

٣- أنكم أثبتم نزول القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، وأن الله ﷻ هو المنـزل للقرآن[٦]، فكيف يكون كلاما نفسيا ثم ينـزل؟، إلا أن تؤبوا إلى عقيدة السلف، وتثبتوا سماع جبريل عليه السلام من رب العزة، ثم نزوله إلى محمد ﷺ، قال قوام السنة الأصبهاني: « قال أصحاب الحديث والسنة: إن القرآن المكتوب الموجود في

---

(١) حاشية العدوي ١/ ٧٩.

(٢) الفواكه الدواني ١/ ٥٥.

(٣) وهو الطوسي الرافضي، نصير البدعة في كتابه: تلخيص المحصل، وهو شرح وتعليق، مطبوع بهامش كتاب المحصل، ولا غرو أن يشرح المبتدع الرافضي كتاب رجل أشعري، مادام المشرب واحدا، وهو علم المنطق الذي ذمه السلف.

(٤) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٨، حاشية (٢).

(٥) ص ٣٧، ضمن مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر.

(٦) انظر: متن الشيبانية ص ٣٥-٣٦، مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر.

المصاحف، والمحفوظ الموجود في القلب، هو حقيقة كلام الله ﷻ، بخلاف ما زعم قوم: أنه عبارة عن حقيقة الكلام القائم بذات الله ﷻ ودلالة عليه، والذي هو في المصحف محدَث، وحروف مخلوقة، ومذهب علماء السنة وفقهائهم: أنه الذي تكلم الله به، وسمعه جبريل من الله، وأدى جبريل إلى النبي ﷺ، وتحدى به النبي ﷺ، وجعله الله ﷻ، دلالة على صدق نبوته ومعجزةً، وأدى النبي ﷺ إلى الصحابة ﷺ حسب ما سمعه من جبريل ﵇، ونقله السلف إلى الخلف قرنا بعد قرن »[(١)].

٤- إذا كان الكلام النفسي لا يسمع، فكيف يُستدل به على أن زيدا متكلم، وقائم به الكلام، إذ أن الأشاعرة يثبتون صفة الكلام بدليل أنهم يسمون المتكلم متكلما قائما به الكلام، لكون الكلام يسمع منه، يقول الجويني: « إن من سمع كلاما صادرا من متكلم استيقن كونه متكلما، من غير أن يخطر بباله كونه فاعلا لكلامه، أو مضطرا إليه »[(٢)] فاستشهد بهذا الدليل على أن المتكلم هو من يُسمع منه الكلام لا من يفعل الكلام، فإذا كان الرب ﷻ لم يُسمع منه الكلام فلا يكون متكلما على قولكم هذا.

٥- أن في نفي الصوت، وإثبات الكلام النفسي، نفيا لسماع موسى صوت الرب ﷻ، واختصاصه بكونه كليم الله، وفي ذلك نفي لكون جبريل سمع كلام الرب ﷻ، وفي ذلك نفي في كون محمد ﷺ سمع كلام الله ﷻ، وهذا كله يدل على بطلان الكلام النفسي الذي لا يُسمع.

٦- أنكم قلتم بأن موسى سمع كلام الله حقيقة، لا أن الله خلق كلاما فسمعه موسى، فإذا كان سماعه حقيقة، فليكن على حقيقته حقا، وهو أنه سمع صوت الرب حقيقة بلا كيف، وقلتم في تكليم موسى ردا على من أنكر الكلام الحقيقي: وأكده بالمصدر في الآية الشريفة للإشارة إلى أن التكليم على جهة الحقيقة؛ لأنه لا يؤكد بالمصدر إلا الحقيقة، لا المجاز[(٣)] فإذا قلتم بأنه لم يسمع كلام الرب، وإنما سمع ما دل

---

(١) الحجة في بيان المحجة ١/ ٤٠٠.

(٢) الإرشاد ص١١٢.

(٣) انظر: الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص ٣٨.

عليه، فهذا نوع مجاز!!، وإذا قلتم سمع صوتا مخلوقا، ولفظا حادثا، فهذا نوع مجاز!!، وقد نفت الآية المجاز باتفاقنا وإياكم.

٧- إن قلتم: إن موسى فهم الكلام النفسي من دون سماع[(١)]، فإنه يرد عليكم: قولكم إن الكلام النفسي واحد، فإذا كان موسى فهم الكلام النفسي وهو واحد، يلزم أن يكون علم جميع علم الله ﷻ وكلامه!!، حتى المنزل على محمد ﷺ، بل وحتى ما يكون إلى الأبد!![(٢)]. قال الحافظ أبو نصر السجزي[(٣)] ـ حاكيا مناظرة جرت بينه وبين بعض الأشعرية ـ: «فقلت لمخاطبي الأشعري: قد علمنا جميعا أن حقيقة السماع لكلام الله منه على أصلكم محال، وليس ههنا من تتقيه، وتخشى تشنيعه، وإنما مذهبك أن لله يُفهم من شاء كلامَه بلطيفة منه، حتى يصير عالما متيقنا بأن الذي فهمه كلام الله، والذي أريد أن ألزمك وارد على الفهم وروده على السماع، فدع التمويه، ودع المصانعة، ما تقول في موسى عليه السلام حيث كلمه الله؟ أفهم كلام الله مطلقا، أم مقيدا؟ فتلكأ قليلا، ثم قال: ما تريد بهذا؟ فقلت: دع إرادتي، وأجب بما عندك. فأبى!!، وقال: ما تريد بهذا؟، فقلت: أريد أنك إن قلت: إنه عليه السلام فهم كلام الله مطلقا، اقتضى أن لا يكون لله كلام من الأزل إلى الأبد، إلا وقد فهمه موسى، وهذا يؤول إلى الكفر؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[البقرة:٢٥٥]، ولو جاز ذلك لصار من فَهِم كلام الله عالما بالغيب، وبما في نفس الله تعالى وقد نفى الله تعالى ذلك، بما أخبر به عن عيسى عليه السلام أنه يقول: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[المائدة:١١٦]، **وإذا لم يجز إطلاقه، وألجئت إلى أن تقول: أفهمه الله ما شاء من كلامه، دخلت في التبعيض الذي هربت منه!!، وكفرت من قال به، ويكون مخالفك أسعد منك؛ لأنه قال بما اقتضاه النص الوارد من قبل الله ﷻ ، ومن قبل رسول الله ﷺ، وأنت**

---

(١) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي ص١١١.

(٢) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤١٩، المجموع ١٧/ ١٥٤، شرح الطحاوية ١/ ١٩٨، العين والأثر ص ٨٢.

(٣) هو الحافظ الكبير، شيخ السنة: عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزي، أبو نصر الوائلي، صنف وخرج، وكان قيما بالأصول والفروع، ومن مصنفاته: الإبانة، ورسالة في الحرف والصوت، توفي سنة ٤٦٩هـ. انظر: السير ١٧/ ٦٥٤.

أبيت أن تقبل ذلك، وادعيت أن الواجب المصير إلى حكم العقل في هذا الباب، وقد ردك العقل إلى موافقة النص خاسئا. فقال: هذا يحتاج إلى تأمل!!، وقطع الكلام»[١].

ث- قالوا: إن كلام الله واحد، أي الكلام النفسي، يقول الرازي: «مسألة: هذه الصفة القديمة المسماة بالكلام عند أصحابنا واحدة، خلافا لبعض أصحابنا، فإنهم أثبتوا خمس كلمات: الأمر، والنهي، والخبر، والاستخبار، والنداء»، وجمهور الأشاعرة ومن وافقهم «زعموا أن كلام الله تعالى، كان أمرا، ونهيا في الأزل»[٢].

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه متعددة:

١- أنكم مختلفون فيما بينكم في كون الكلام واحدا، أم لا، فمنكم من يقول: خمس كلمات، ومنكم من يقول: ثلاث كلمات: هي الخبر والأمر، والنهي[٣]، وبعضهم: يقول: إنه خبر، وأمر؛ لأن النهي أمر بالكف، فهو يدخل في الأمر، وبعضهم يقول: إنه خبر فقط، لأن الأمر والنهي إخبار عن ترتب الثواب، والعقاب على الفعل والترك[٤]، فهذا يدل على تناقض هذا الأمر، فهذا وحده كاف في رده.

٢- أن قولكم بوحدة الكلام، وأنه لا يتبعض، ولا يتجزأ، ولا يتعدد باطل؛ فهذه أسماء الله ﷻ معدودة، وهي قديمة، و« قد نص الشافعي على أن أسماء الله ﷻ غير مخلوقة، وقال أحمد: من قال: إن أسماء الله مخلوقة، فقد كفر»[٥] وأسماء الله تعالى في كتابه معدودة، إلا إذا قلتم: إنها دالة على أسماء الله، وليست هي أسماء الله!!، فكلامه ﷻ إذا كان معدودا مختلفا لا يلزم من ذلك أن يكون مخلوقا، كما أن أسماءه متعددة، ولا

---

(١) نقلا عن درء التعارض للإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ٢/ ٩٠-٩٢.

(٢) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٧، وانظر: الفرق بين الفرق ص ٢٥٧، الإرشاد للجويني ص ١١٩، ١٣١، نهاية الإقدام للشهرستاني ص ٢٩١، ٣٠٦، الغنية ص ١٠٦- ١٠٧، المستصفى للغزالي ص ٨٠، الفواكه الدواني ١/ ٥٤، الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٠، ونقله ابن بدران عن محمد بن يوسف السنوسي الأشعري، كما في المدخل ص ٥٠.

(٣) وهو قول عبد الله بن سعيد بن كلاب، ولكنه قال: ما كان في الأزل أمرا، ولا نهيا، ولا خبرا، ثم صار فيها لا يزال كذلك، انظر: الإرشاد للجويني ص ١١٩.

(٤) انظر: هذه الأقوال في: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٥) العين والأثر ص ٩٠.

يلزم من ذلك أنها مخلوقة.

٣- أن الإمام الشافعي أثبت أن هذا القرآن الموجود بين الدفتين هو كلام الله، وهو ليس بمخلوق[١]، ومعلوم أن هذا الموجود بين الدفتين ليس كلاما واحدا.

٤- قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[البقرة:١١٧]، وكن حرفان، ولا يخلو الأمر من أحد وجهين: إما أن يراد بقوله: كن، التكوين، وأنه ليس هناك قول، كما هو تأويل الماتريدية، أو يكون المراد بـ (كن) ظاهره، وأن الله إذا أراد شيئا وقضاه يقول له: كن فيكون، وكلمة (كن) حرفان فدل على بطلان الكلام الواحد، وبطلان الكلام النفسي، لأنه قال: كن فكان[٢].

٥- أنكم قضيتم بأن الكلام في الصفات إنما يكون من باب الشرع، كما يقول الجويني: «والقضاء بإثبات الصفات ليس من مدارك العقول، بل هو مسند إلى قضية الشرع، وموجب بالسمع»[٣] فهلا قلتم بأن الله ﷻ متكلم أزلا، ويتكلم إذا شاء، كما ورد بذلك السمع؛ لأن إثباتكم للكلام الواحد لا دليل عليه من الشرع، ولا موجب له من السمع.

٦- أن العباد كلهم يعلمون أن ما في التوراة والإنجيل والقرآن ليس هو معنى لكلام واحد، فلو ترجمت التوراة والإنجيل لم يكن معناهما هو معنى القرآن قطعا[٤]، فكيف يكون كلام الله معنى واحدا، يختلف بحسب المتعلقات؟؟، ثم إذا كان يختلف بحسب المتعلقات، فهل هذه المتعلقات هي متعلقة بالمكلفين، فيكون المغير لكلام الله هم المكلفون!!، ويكون كلام الله الواحد عرضة لأن يغيره المتعلقات التي قامت بالمكلفين!!!.

٧- أن القرآن نفسه وهو بالعربية ليست معانيه واحدة، بل ولا سورة منه، بل ولا آية، فهذه آية تدل على ما لا تدل عليه الآية الأخرى، فليس معنى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ

(١) المهذب لأبي إسحاق الشيرازي ٢/ ٣٢٢.
(٢) انظر: العين والأثر ص ٨٠.
(٣) الإرشاد ص١٣١.
(٤) انظر: الدرء ١/ ٢٦٧، منهاج السنة ٥/ ٤١٨، التنبيه على المخالفات العقدية في فتح الباري ص١٥٣.

أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:١] هو معنى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[المسد:١][(١)] فكيف بالسور، بل كيف بالقرآن كله؟؟.

٨- أنه يلزم من هذا القول أن هذا القرآن كان في الأصل معنى واحدا، ثم المعبر من المخلوقين جعله متعددا بحسب المتعلقات، سواء كان ذلك في اللوح، أو جبريل، أو محمد ﷺ، وكل هذا معلوم بطلانه، إذ مهما بلغ المخلوقون فإنهم لا يستطيعون أن يعبروا عن الله ﷻ كما ينبغي، ألا ترى المفسرين الذين يفسرون القرآن كيف يختلفون في تفسيرهم لآية واحدة، وهم يعبرون عن تفسير كلام الله ﷻ .

٩- قلتم: إن الكلام النفسي غير معلوم التصور، فكيف يعبر عنه؟؟؟، يقول الرازي: «فأما الكلام الذي يغاير هذه الحروف، والأصوات، ويغاير ماهية الأمر، والنهي، والخبر، فغير معلوم التصور، فكون القول بثبوته لله تعالى في الأزل محض الجهالة»[(٢)]، وهذا تناقض بين منكم.

١٠- ويلزم من قولكم بأن الأمر والنهي كان أزليا، أن يكون المعدوم من الخلق الذين لم يخلقوا بعد مكلفين، وهذا محال، فكيف يكلف المعدوم؟؟، أم كيف يوجه إليه الكلام، والخطاب، فقولكم بأنه متكلم أزلا بالأمر والنهي وهو واحد يلزم منه العبث على الله ﷻ وهو محال عليه، يقول الرازي رادا على أصحابه: «ثم منهم من يقول: المعدوم مأمور، على تقدير الوجود، وهذا في غاية البعد، لأن الجماد: إذا لم يجز أن يكون مأمورا، فالمعدوم ـ هو الذي هو نفيٌ محض ـ كيف يعقل أن يكون مأمورا؟؟»[(٣)].

١١- أن الكلام النفسي الذي أثبتموه لا دليل عندكم على أنه واحد، فأنتم أثبتم الكلام النفسي بكلام الشاعر النصراني، وهل الكلام النفسي يكون واحدا في النفس؟؟، أم أنه متعدد؟ لا ريب أن المعهود هو الثاني، ومعلوم أن الكلام النفسي

---

(١) انظر: الدرء ١/ ٢٦٧، منهاج السنة ٥/ ٤١٨، شرح الطحاوية ١/ ١٩٨.
(٢) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٦.
(٣) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٦.

مختلف من حيث ترداده في النفس، فبطل دعواكم أنه كلام واحد، لو صح أنه كلام نفسي، وما يكون في النفس فإنه يقتضي: «ترديد الخواطر، وتقليب الأفكار، والابتداء من مبدأ، والانتهاء إلى منتهى، وذلك كله محال»(١) بزعمكم لأنه مخالف للكلام الواحد، فبطلت دعوى في أن الكلام النفسي واحد.

١٢- قد اعترف حذاق الأشعرية على أن الكلام النفسي الواحد صعب تعريفه، وفي معرفته مشقة، فكيف يكون ذلك اعتقادا للناس أجمعين، ويكون دينا يدان به لرب العالمين، يقول إمام الأشعرية أبو حامد الغزالي: «وهو مع وحدته، متضمن لجميع معاني الكلام!!!... وفهم ذلك غامض!!»(٢).

١٣- اضطراب أصحاب هذا القول شيء عجيب، وعده أمر عصيب، ويكفي دلالة على فساد المذهب أن يكون أربابه متحيرين في المذهب(٣).

١٤- أنكم حكيتم الإجماع ـ وهو حق ـ على أن الموجود في مصاحف المسلمين هو كلام الله ﷻ، وأنكرتم على من خرق هذا الإجماع، فكيف تقولون بعد ذلك بأن كلام الله واحد، وليس بسور، ولا آيات؟؟، ذكر الجويني هذا في الإرشاد(٤) فقال: «ومما يستروحون إليه أن قالوا: قد أجمع المسلمون قبل ظهور هذا الخلاف على أن القرآن كلام الله سبحانه، واتفقوا على أنه سُور، وآيات، وحروف منتظمة، وكلمات، وهي مسموعة على التحقيق، ولها مفتتح، ومختتم، وهي معجزة رسول الله ﷺ، والآية على صدقه، ويستحيل أن يكون القديم ـ أي الكلام النفسي ـ معجزا...، ولو جاز تقدير كلام قديم قائم بالنفس أزلي معجزا، لجاز تقدير العلم القديم عند مثبتيه معجزا»!! ثم ذكر أن هذا لا يقول به حتى المعتزلة أنفسهم الحاكون لهذا الإجماع، ثم

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام لعبد الكريم الشهرستاني ص ٢٧٣، وهذا المنقول بين المعكوفتين، إنما هو من اعتراضات الفلاسفة على المتكلمين في إثباتهم الكلام النفسي!!.

(٢) المستصفى ص٨٠.

(٣) انظر: شرح الأصبهانية ص١٧٦.

(٤) ص ١٢٠-١٢١.

قال: «واستشعر الجبائي[١] ذلك، وأيقن أنه لو قال بهذا المذهب خرق إجماع الأمة»[٢]، ولا شك أن المعتزلة خرقت إجماع الأمة في ذلك، ولكن أن يكون هذا الخرق من المنتسبين إلى السنة!!!، فهذا أشنع وأفظع.

ج- قالوا: في معرض ردهم على الحلولية ومن سماهم بالحشوية: ولا يجوز أن يقال إن هذه الأحرف من القرآن الموجود في المصاحف هي كلام الله ﷻ الخالق، وإنما هذه تدل على كلام الله القديم، بدليل: أن المصاحف قد تحرق، وتذاب، ولا يجوز أن يكون كلام الله القديم مذابا محرقا، وإلا صح وصف شيء من صفات الله ﷻ بالفناء[٣].

والجواب من وجوه:

١- أن الرد على الحلولية القائلين بقدم المداد، وقدم صوت العبد، وقدم الورق صحيح، ولكن حشر أهل السنة باسم الحشوية معهم قبيح.

٢- أن أهل السنة لما قالوا: إن المكتوب هو كلام الله ﷻ حقيقة، لم يعنوا بذلك المداد والورق، فإن هذه آلات يظهر بها الكلام، كما أن المرآة آلة تظهر فيها الصورة، فإذا انكسرت الصورة فلا يقال: إن فلان المرئي فيه انكسر، فكذلك كلام الله ﷻ موجود في المصاحف، ولو أحرقت تلكم المصاحف، وهلك الحفاظ، لا يقال: إن كلام الله أحرق، وهلك!! وإنما يقال: الورق الذي فيه كلام الله، أو فلان الحافظ قد هلك، ومات، والفرق بين الشيء وما فيه ظهر واضح لمن تدبر بحسن نظر، وأراد الوصول إلى القول المعتبر.

٣- أن الله ﷻ في أكثر من آية صرح بأن هذا المسموع المنـزل هو كلامه، فالواجب التصديق بخبر العزيز الوهاب، والإذعان للفظ الكتاب، وعدم التأويل ليوافق المذهب المعتاد، وقد دل الكتاب في أكثر من موضع على أن هذا المسموع هو كلام الله ﷻ ،

---

(١) هو المعتزلي البصري: عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد أبو هاشم الجبائي، من أساطين الكلام، وله مصنفات في نصرة الاعتزال، توفي سنة ٣٢١هـ. انظر: السير ١٥/ ٦٣.

(٢) الإرشاد للجويني ص ١٢١ بتصرف.

(٣) انظر: الفتح ٨/ ٦٣٨، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٠-٤١، طبقات الشافعية ٨/ ٢٢٥ نقلا عن العز ابن عبد السلام.

قال أبو الفضائل أحمد الرازي: «الفصل الثاني في حجج القائلين بأن المسموع عين كلام الله تعالى لا العبارة عن الكلام»[1]، ثم ذكر الآيات، وهذه الآيات كثيرة، وأذكر منها: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، ومعلوم أنهم يسمعون كلام الله من المبلغ، وكون المبلغ صوته حادثا، وأداؤه مخلوقا، لا يلزم منه أن يكون المؤدى مخلوقا، وقال ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[التوبة:٦].

ح- لو كان الموجود في المصحف هو كلام الله ﷻ، لكان يلزم أن الشكل الذي أضيف إلى القرآن، والتنقيط من كلام الله ﷻ، فيكون العباد بهذا أضافوا شيئا إلى كلام الله ﷻ !!![2].

والجواب عن هذا من وجوه:

١- أن الكلام في النقط والحروف لم يثبت فيه شيء عن السلف، على وجه الإفراد لا نفيا ولا إثباتا، «فإن من قال: إن المداد الذي تنقط به الحروف، ويشكل به قديم؛ فهو ضال جاهل، ومن قال: إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن؛ فهو ضال مبتدع»[3].

٢- أن المسلم حينما يقول: هذا القرآن كلام الله: يدخل في ذلك حروفه بإعرابها، كما دخلت معانيه، ويقال ما بين اللوحين من سورة الفاتحة إلى سورة الناس كلام الله ﷻ[4].

٣- أن القرآن الكريم كان يقرأ منزلا معربا، معروف لديهم الباء والتاء والياء، والمرفوع والمنصوب والمجرور، فمن أخطأ في شيء من ذلك على خلاف الذي ورد، فلا شك أن هذا خطأ وليس هو المنزل سواء كان هذا اللحن أو الخطأ من الكتاب، أو

---

(١) كتاب حجج القرآن ص ٦٥.

(٢) وهذه البدعة أعني القول في النقط والشكل حدثت في القرن السادس، كما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله في المجموع ٣/ ٤٠٤.

(٣) المجموع ٣/ ٤٠٤.

(٤) المصدر السابق.

القراء، ومن أصاب ذلك فقد قرأ القرآن كما أنزل، وهو كلام الله ﷻ، ومن كتبه على الصواب سواء نقطه أو لم ينقطه، سواء أعربه أم لم يعربه، فهو كلام الله ﷻ؛ فإن العباد لم يدخلوا في كلام الله، إلا ما له صورة في الخط، لا من حيث هو كلام الله ﷻ المنـزل.

٤- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن كان المصحف منقوطا مشكولا، أُطلق على ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله، وإن كان غير منقوط، ولا مشكول: كالمصاحف القديمة التي كتبها الصحابة؛ كان أيضا ما بين اللوحين هو كلام الله ـ وذلك لأن الاعتبار هو بالمنـزل، وقد أنزل مقروءا، معربا، معروفا لديهم الفروقات بين الكلمات ـ؛ فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث، ونزاع لفظي لا حقيقة له، ولا يجوز أن يحدث في الدين ما ليس منه»[١].

٥- أن من اعترف بأن القرآن منـزل معروف لدى المسلمين من السلف هكذا كما هو في مصاحف المسلمين غير ملحن، ولا مهمل من حيث النطق، بل معروف لديهم الفرق بين الكلمات ولو لم تنقط، فإن التنقيط لم يزد فيه شيئا، وكذلك الإعراب؛ لأنه هكذا أنزل.

ثانيا: شبهاتهم النقلية؛ قد تمسك القائلون بالكلام النفسي، وأن القرآن حكاية عن كلام الله ﷻ بأدلة نقلية، منها:

أ- احتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ قالوا:فأثبت قول النفس![٢]، وقريب من هذا احتجاجهم بقول عمر رضي الله عنه: [**وكنت زورت في نفسي مقالة**] وفي رواية: [**هيأت في نفسي كلاما**][٣]، وهذا يعني: أن المتكلم هو من استقر في نفسه كلام، فإنه سماه كلاما قبل أن ينطق به!![٤].

والجواب عن هذا من عدة أوجه:

١- أن هذه الآية لو سقتموها كاملة لتبين أنها تشهد عليكم لا لكم، فإن الآية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الغنية لأبي سعيد النيسابوري ص ١٠٢.

(٣) روى نحوه البخاري، كتاب الحدود، باب/ رجم الحبلى في الزنى، ح(٦٨٣٠)، ولفظه: «وكنت زورت مقالة أعجبتني».

(٤) الغنية ص١٠٢.

وردت هكذا: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[المجادلة:٨] قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام، وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبيا لعذبنا الله بما نقول له في الباطن...»[1]، فالآية سيقت في بيان سوء مناجاة هؤلاء، والمناجاة لا تكون إلا بين اثنين فأكثر، فبعضهم يسمع كلام بعض، فأين الكلام النفسي؟؟، ثم المراد بهذا أنهم يظهرون الإسلام عند رسول الله ﷺ، ثم إذا رجعوا إلى بعضهم قال بعضهم لبعض: هل يعذبنا الله بهذا؟!! فليس في الآية إشارة للكلام النفسي، لا من قريب ولا من بعيد، ثم هم قالوا كلاما، ولهذا رتب الله على كلامهم هذا وفعلهم هذا عذاب جهنم، وإلا لو كان كلاما نفسيا فحسب لما أُخذوا عليه، كما هو معلوم من الشريعة السمحاء.

٢- قال تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[النساء:٦٣] فالله ﷻ أمر محمدا ﷺ أن يعرض عن المنافقين، وأن يعظهم في أنفسهم، أفتقولون: إنه يعظهم بكلام في نفس الرسول ﷺ، لا يسمعه الناس؟،أم ستقولون: إن المراد قل لهم مباشرة،لا بواسطة مبلغين!.

٣- أن الله ﷻ أخبر أن نبيه زكريا لا يكلم الناس ثلاثة أيام بلياليها، وأنه يشير إليهم بما يريد، ومعلوم أن الإشارة إلى ما يريده الإنسان تكون بعد ما دار في النفس من طلب أو خبر، ولم يعده ربنا ﷻ كلاما، وهذا دليل صريح في أن ما في النفس لا يكون كلاما، ولو كان مصاحبا ذلك بالإشارة، قال ﷻ عن نبيه زكريا: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[مريم:١٠][2].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٢٣.

(٢) انظر: العين والأثر ص٨١.

٤- أن الآية فيها قرينة ـ لو سلمنا جدلا أنّها تدلّ على الكلام النفسي ـ فإن القرينة هي التي دلت على ذلك، والقرينة هي، يقولون: في أنفسهم، فجاء القول مقيدا بالنفس، فكانت هذه قرينة على أن المراد ما في النفس، ولو لم يقيد لما فهم إلا صريح القول، الذي هو العبارة نفسها، لا ما في النفس(١).

٥- ومثل هذا يقال: في قول عمر ﷺ، فإنه لما زور في نفسه كلاما، لم نكن نعلم بذلك حتى أخبرنا، فدل أن الكلام لا يمكن أن يعرف إلا بعد التكلم الذي يكون بصوت وحرف.

ب- **وتمسكت المعتزلة والأشعرية** بالقول أن القرآن الكريم ليس كلام الله ﷻ حقيقة بآيتين في كتاب الله ﷻ قال أبو الفضائل الرازي: «حجة من قال بأن القرآن ليس بكلام الله عز وجل»(٢) ثم أَوْرَد الآيات من سورة الحاقة، وسورة التكوير، وهي قوله ﷻ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾[الحاقة:٣٨-٤٧]، قال العز بن عبد السلام(٣) في آية الحاقة: «وقول الرسول، صفة للرسول، ووصف الحادث حادث، يدل على الكلام القديم، فمن زعم أن قول الرسول قديم، فقد رد قول رب العالمين»(٤).

وقال ﷻ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

---

(١) انظر: العين والأثر ص٧٧.

(٢) كتاب حجج القرآن ص٦٧.

(٣) هو الفقيه الأصولي: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي، أبو محمد، ولد بدمشق وتفقه على ابن عساكر، ثم سكن مصر، وبرع في المذهب الشافعي، وأفتى ودرس، توفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ. انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٢٠٩، معجم المؤلفين٥/ ٢٤٩.

(٤) طبقات الشافعية ٨/ ٢٢٤.

لِّلْعَالَمِينَ ﴾[التكوير:١٥-٢٧] قال العز ابن عبد السلام ـ ردا على من يثبت لله كلاما هو حرف وصوت، وأن القرآن في المصحف كلام الله ـ: « فالقرآن مركب من حرف وصوت، ثم يزعم أنه في المصحف، وليس في المصحف إلا حرف مجرد لا صوت معه »(١).

والجواب من وجوه:

١- أن الآيتين بينت أن الرسولين إنما هما مبلِّغان لكلام الله ﷻ، وأن المبلَّغ كلام الله لفظا ومعنى، لأنه لو كان اللفظ لفظهما لكان عندنا لفظان، فأي اللفظين عبارة عن كلام الله، فإنه مرة نسب إلى الرسول الملكي، ومرة إلى الرسول البشري!!، فعلم من هذا أن النسبة ليست نسبة إضافة كلام إلى متكلم، وإنما هو نسبة كلام إلى مبلغ، ولهذا لم يقل في الآيتين: إنه قول ملك، ولا قول نبي، وإنما ذكر الوصف، وهو الرسالة، وأن الرسولين في هذا التبليغ أمينان، سواء كان الرسول الملكي، أو الرسول البشري، فهما يؤديان رسالتهما على أكمل وجه من غير زيادة أو نقصان(٢).

٢- أن هذا فيه خلط بين المسموع من الله بلا واسطة، والمسموع من كلام الله بواسطة، فالأول: يكون مسموعا لفظا ومعنى وصوتا من الله، والثاني: يكون لفظه ومعناه من الله، ومن أداه يكون الصوت صوته، والحركات حركاته، وهذا الفرق جلي لمن تدبر(٣)

٣- أن هذا صريح بأن محمدا ﷺ لم يكن ليفتري على الله غير ما أنزل عليه، وأن القرآن ليس كأقوال الشعراء الذين ينشئون الشعر من أنفسهم، ولا كأقوال الكهان المخرصين، بل هو رسول رب العالمين، يبلغ ما أنزل إليه، فما يقوله: هو كلام الله، مبلغا عن الله، لا يتقول من عنده، فمن زعم أن هذا قول الرسول، فقد رد قول رب العالمين؛ لأنه أخبر أنه لا يتقوله أحد، والمعبر متقول عليه، والحاكي كذلك(٤).

٤- أنه لو كان هذا كلام محمد ﷺ لما كان هناك فرق بين القرآن والحديث، إذ

---

(١) طبقات الشافعة ٨/ ٢٢٤، وانظر: نص الباقلاني في أن القرآن إنما هو لفظ جبريل في كتابه الإنصاف ص ٩٧.

(٢) انظر: الدرء ١/ ٢٥٨، المجموع ٦/ ٥٢٤، ١٢/ ٣٧٨.

(٣) الدرء ١/ ٢٥٩.

(٤) انظر: الدرء ١/ ٢٥٨.

الأحاديث أيضا معناه من الله، ولفظه من محمد ﷺ، فما الفرق حينئذ بين الكلامين؟!.

٥- أن هذا القرآن لو كان تعبير محمد ﷺ، لما كان منزلا من الله ﷻ.

٦- أن هذا لو كان مرادا من الآية لكان قول الكفار صحيحا لما قالوا: إن هذا إلا قول البشر!!، فإنهم ما أشاروا إلا إلى اللفظ المنـزل، ولا يعرفون الكلام النفسي، حتى يقول عنه إنه كلام بشر، وقد أوعدهم الله بسقر، فدل على أن هذا المنـزل ليس كلام البشر، ولا تعبير أحد من المخلوقين[١].

٧- أن آيات التكوير فيها بيان وصف جبريل ؑ، وأنه يؤدي الرسالة على أكمل وجه لكونه كريما، وليس ببخيل كما زعمته اليهود ومن وافقهم، ووصف بأن له منـزلة عند الله ممكَّن، وهذا يؤكِّده سماعه كلام الله، واختصاصه بالوحي، ففي الآيتين بيان أن القرآن من عند الله، فليس الذي يأتي محمدا ﷺ إلا جبريل، وليس محمد ﷺ إلا رسول رب العالمين، يؤديان عن الله رسالته[٢].

٨- أن هذا المفهوم معارض بصريح القرآن الكريم، كما قال ﷻ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[التوبة:٦] ومعلوم أن المراد ما يُسمع ـ لا الصوت نفسه، والحركات التي أدي بها الكلام ـ فعلم أن المسموع هو كلام الله ﷻ بواسطة المبلغ، فليس المسموع كلاما لغيره، بل هو كلامه تعالى[٣].

٩- أن هذا يلزم منه أن من أدى حديث رسول الله ﷺ أن يكون الكلام كلامه، لا كلام النبي ﷺ، وهذا معلوم البطلان، فلو سمع إنسان قول شاعر متقدم، ثم نسبه إلى نفسه، لكونه أداه، لكان ذلك كذبا عند من عرف أن هذا ليس قوله، فكيف بكلام النبي ﷺ!! بل كيف بكلام الله ﷻ الذي لا يمكن لأحدٍ لا ملكا ولا نبيا أن يأتي بمثله،

---

(١) انظر: المصدر السابق، وشرح الطحاوية ص١٣٦، ١٥١.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: الدرء ١/ ٢٥٨، شرح الطحاوية ص١٤٣.

فكيف يقال: إن المبلغين عنه يصيِّرون الكلام كلامهم لكونهم بلغوا!![١].

١٠- إذا كان أحد الرسولين هو المعبر عن كلام الله ﷻ، أفيصح أن يقول - ولو معبرا عن الملك القهار -: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[طه:١٤]، فقولكم هذا كقول المعتزلة: إن الذي قال ذلك لموسى هي الشجرة!!، ثم معلوم أن الرسول إذا أراد أن يخبر بما أراده الله فإنه يقول: إن الله أمرني بكذا، وأمرني أن أبلغكم بكذا، ويقول لكم كذا، وفي الحديث القدسي: «إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل: إني أحب فلانا فأحبه، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه»، فتبين بهذا الفرق بين نداء جبريل، ونداء الله ﷻ، وأن لكل نداء مختصًّا به، وأن الرسول لا يعبر عن الله، وإنما الله ﷻ يتكلم بنفسه، وبصوت يُسمع[٢].

ومما يدل على فساد قول الكلابية والأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم، تلكم اللوازم السيئة التي تستلزم هذا القول، ومنها:

١. أنهم فرقوا بين كتاب الله وكلام الله، وهذه بدعة ما عرف عن أحد من المسلمين الأوائل، وإنما هو من مخترعات الكلابية، واتبعتهم في ذلك الأشعرية والماتريدية[٣]، والمعلوم أن الإجماع قائم أن ما في كتاب الله ﷻ هو كلام الله ﷻ[٤].

٢. ومما ترتب على هذه البدعة أنهم قالوا إن: «احترام الكتاب لأجل المكتوب، كاحترام البيت لأجل صاحب البيت»[٥] ومعلوم أن البيت وصف قائم بنفسه مضاف إلى الله، وأما كلام الله الموجود بين الدفتين فهو وصف لا يقوم بنفسه، بل هو صفة لله ﷻ، فوجب تعظيم المصحف لكون ما فيه صفة الله، فهو معظم بنفسه، وأما تعظيم البيت فلتعظيم صاحب البيت، فافترقا.

---

(١) انظر: الدرء ١/ ٢٥٧.
(٢) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤٢٤-٤٢٥.
(٣) انظر: المجموع ١٢/ ١٢٥.
(٤) انظر: الفصل الرابع من الباب الأول.
(٥) نهاية الإقدام ص ٣١٣.

٣. يلزم من القول بأن القرآن عبارة عن كلام الله ﷻ أن يكون جبريل نزل بالعبارة، ولم ينزل بكلام الله ﷻ !!، وهذا خلاف الأمانة.

٤. أن قولهم: إن الكلام هو ما كان في النفس دون الألفاظ، وأن هذه العبارات تدل على معاني كلام الله ﷻ ، يلزم منه أن يكون التفسير أيضا عبارة عن كلام الله ﷻ لأنه ألفاظ تدل على ما في نفس الباري ﷻ، إذ لا فرق حينئذ بين اللفظ المنـزل، واللفظ المعبر المفسر في الدلالة على الكلام النفسي!.

٥. أن مؤدى قول الأشاعرة هو عين قول المعتزلة بالنسبة إلى القرآن الكريم، وهو: أنه مخلوق[1] ـ والعياذ بالله ـ، فقالوا: «ويسمى كل من الصفة القديمة، والألفاظ الشريفة: قرآنا، وكلام الله، إلا أن هذه الألفاظ الشريفة مخلوقة!!»[2]، وقال الألوسي[3]: «استدل بالآية[4] على أن القرآن مخلوق، وأطالوا الكلام في ذلك، وأجيب بأنه إن دل على المخلوقية!! فلا يدل على أكثر من مخلوقية الكلام اللفظي!!، ولا نـزاع فيها!!!»[5] **هذا مع أنهم يشنشنون بقولهم**: نحن مدافعون عن السنة، ومنافحون بدع المعتزلة!!، ومخالفون لهم في مسألة الكلام!!، نعم من لم يفهم قولهم ظن أنهم مخالفون للمعتزلة، ولكن هذه المخالفة إنما هي من وجه واحد، وهو أن المعتزلة تثبت كلاما لله هو فعل له مخلوق، والأشاعرة لا تقول: بأن الكلام فعل له مخلوق، بل يقولون: إنه كلام نفسي!!، والمخلوقون هم الذين يجعلون له العبارات، ويعبرون عن كلام رب الأرض والسماوات!.

٦. أن أهل البدع جميعا يظهرون بدعتهم لكونهم لا يعرفون شناعتها، أو

(١) انظر: الإرشاد للجويني ص ١١٧، شرح الطحاوية ١/ ٢٠٢، شرح جوهرة التوحيد للقاني ص ٩٤.
(٢) كفاية العوام ص ١٠٤-١٠٥.
(٣) هو المفسر الفقيه: محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، أبو الثناء شهاب الدين، ولد ونشأ في بغداد، وله مصنفات كثيرة، وفيها إشارات للصوفية غير يسيرة، منها: روح المعاني، توفي سنة ١٢٧٠هـ. انظر: معجم المؤلفين ١٢/ ١٧٥.
(٤) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:٣].
(٥) روح المعاني ١٣/ ٦٤.

يعرفون فيكابرون، أما الأشاعرة والماتريدية ومن تبعهما، فإنهم لا يظهرون عقيدتهم في القرآن الكريم خوفا من الفضيحة، وفرقا من العامة(١) فهذا يؤكد قول من قال: إن الأشاعرة والماتريدية لا تثبت لله كلاما في مصاحف المسلمين، ولا يثبتون في الأرض كلاما لله رب العالمين(٢)، يتحاكم إليه البشر أجمعون، إلا ما هو دليل على الكلام القديم الذي في النفس ولا يُدرى ما هو؟!!، **وهم وإن كانوا يصرحون بأن القرآن كلام الله، لكن في هذا أحد ثلاثة أمور:** إما أنهم يقصدون به الكلام النفسي، أو أنهم يطلقون هذه العبارة مجازا، أو يقولون ذلك في طور القرب من السنة، والتأثر بالآثار المروية عن الأخيار، وقد يظن البعض أن الأشعرية تثبت كلاما لله رب العالمين، وأنهم يثبتون قرآنا في مصاحف المسلمين، لمَّا يقرأ أقوال بعضهم، وهم يصرحون: بأن القرآن مكتوب في مصاحف المسلمين على الحقيقة!!، يقول القشيري في رسالته الموسومة بشكاية أهل السنة ـ رادا قول من زعم أن الأشاعرة لا تثبت كلاما لله ﷻ في مصاحف المسلمين ـ فقال: «إن الأشعري، وكل مسلم غير مبتدع يقول: إن القرآن كلام الله، وهو على الحقيقة مكتوب في المصاحف، لا على المجاز، ومن قال: إن القرآن ليس في المصاحف على هذا الإطلاق فهو مخطئ، بل القرآن مكتوب في المصحف على الحقيقة، والقرآن كلام الله، وهو قديم غير مخلوق،... وكون الكلام مكتوبا على الحقيقة في الكتاب لا يقتضي حلوله فيه(٣)، ولا انفصاله عن ذات المتكلم...، **والنبي ﷺ على الحقيقة مكتوب في التوراة والإنجيل، وكذلك القرآن على الحقيقة مكتوب في مصاحف المسلمين**»(٤)، والذي استقر عليه قول الأشعري أن القرآن كلام الله غير مخلوق، مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة(٥).

---

(١) الفواكه الدواني ١/ ٥٧.

(٢) السير ٢١/ ٣٧٦، شرح الطحاوية ١/ ١٩٨.

(٣) قد مضى في المبحث الثاني من هذا الفصل الحديث عن مسألة الحلول في القرآن الكريم.

(٤) طبقات الشافعية ٣/ ٤١٧-٤١٨.

(٥) انظر: مشكل الحديث لابن فورك ص ١٠٣، وأصول الدين للبغدادي ص ١٠٨، تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١١٥، ٣٠٢، طبقات الشافعية ٨/ ٢٣٣، العين والأثر ص ٩٩.

فهذا الذي يذكرونه لا ينفي قولهم بخلق القرآن الموجود في مصاحف المسلمين، ولا ينفي هذا قول من قال: إنهم لا يثبتون في الأرض مصحفا، ولا كلاما لله رب العالمين، وذلك لأسباب:

الأول: أنهم فرقوا بين الكلام النفسي، والكلام الموجود بين الدفتين، ولا ندري ما مرادهم بأن القرآن حقيقة في المصحف، وهم مفرقون في القرآن!! خصوصا أن بعضهم يزعم أن الكلام اسم مشترك على المعنى القديم، واللفظ المخلوق!!.

الثاني: أنهم يقولون: إن القرآن مكتوب على الحقيقة في المصاحف كما أن محمدا مكتوب على الحقيقة في التوراة والإنجيل، ومعلوم أن محمدا ﷺ ليس نفسه موجودا في الإنجيل، ولا في التوراة، وإنما ذكره، فهم يريدون بهذا أن كلام الله ليس موجودا حقيقة في المصاحف، وإنما حكايته، أو ما يدل عليه من العبارة!!.

الثالث: أنهم صرحوا بأن هذا القرآن الموجود إنما هو مخلوق في اللوح، أو من لفظ جبريل[(١)]، أو محمد ﷺ، فكيف يقولون: بعد ذلك إنه ليس بمخلوق!!. ولهذا ينبغي التنبه لأقوال الأشاعرة، والتيقظ لها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أما الغلط في تصوير مذهبهم، فكان الواجب أن يقولوا: إن القرآن في المصحف مثل ما يقال أن العلم والمعاني في الورق، فكما يقال: العلم في هذا الكتاب، يقال: الكلام في هذا الكتاب؛ لأن الكلام عندهم هو المعنى القائم بالذات، فيصوَّر له المثَلُ بالعلم القائم بالذات، لا بالذات نفسها، وأما الغلط في الشريعة، فيقال لهم: إن القرآن في المصاحف مثلما أن اسم الله في المصاحف؛ فإن القرآن كلام، فهو محفوظ بالقلوب، كما يحفظ الكلام بالقلوب، وهو مذكور بالألسنة كما يذكر الكلام بالألسنة، وهو مكتوب في المصاحف والأوراق، كما أن الكلام يكتب في المصاحف والأوراق، والكلام الذي هو اللفظ: يطابق المعنى ويدل عليه، والمعنى يطابق الحقائق الموجودة. **فمن قال: إن القرآن محفوظ كما أن الله معلوم،** وهو متلو كما أن الله مذكور، ومكتوب كما أن

---

(١) وقد صرح غير واحد من أهل العلم على أن من قال: القرآن حكاية جبريل؛ فإنه يكفر. انظر: الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر الهيتمي ص ٢٥٠، ضمن الجامع لألفاظ الكفر للشيخ د/ محمد الخميس.

الرسول مكتوب، فقد أخطأ القياس والتمثيل بدرجتين؛ فإنه جعل الموجودات القائمة بأنفسها بمنزلة وجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها، والمسلمون يعلمون الفرق بين قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾[الواقعة:٧٧-٧٨]، وبين قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الشعراء:١٩٦]، فإن القرآن لم ينزل على أحد قبل محمد ﷺ لا لفظه، ولا جميع معانيه، ولكن أنزل الله ذكره، والخبر عنه، كما أنزل ذكر محمد ﷺ، والخبر عنه، فذكر القرآن في زبر الأولين كما أن ذكر محمد في زبر الأولين، وهو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، فالله ورسوله معلوم في القلوب، مذكور بالألسن، مكتوب في المصحف، كما أن القرآن معلوم لمن قبلنا، مذكور لهم، مكتوب عندهم، وإنما ذاك ذكره، والخبر عنه، **وأما نحن: فنفس القرآن أنزل إلينا، ونفس القرآن مكتوب في مصاحفنا، كما أن نفس القرآن في الكتاب المكنون، وفي الصحف المطهرة**... فإن الأعمال في الزبر كالرسول والقرآن في زبر الأولين، وأما الكتاب المسطور في الرق المنشور، فهو كما يكتب الكلام نفسه في الصحيفة، فأين هذا من هذا؟؟»[(١)].

٧. من اللوازم الفاسدة، أنهم زعموا: أنّ كلام الله لا يتفاضل، مع أن الأحاديث مصرحة بالتفضيل، ولكنهم يتلوّنون فيها فيقولون: «**إن ألفاظ القرآن** محدثة، ومدلولاتها فيها التفضيل!!!»[(٢)].

٨. أنهم زعموا أن القرآن لا يرفع في آخر الزمان[(٣)]، مع أن النصوص مصرحة بذلك[(٤)]، وقولهم بناء على أن القرآن عندهم هو معنى واحد في ذات الله قديم، ورأوا استحالة الانتقال عليه، وأنه لم ينـزل إلى الأرض إلا ما هو عبارة عنه، فماذا يرفع؟؟ ثم الرفع انتقال، وهو محال على الكلام!![(٥)].

---

(١) المجموع ١٢/ ٣٨٣-٣٨٥، وانظر منه: ص ٣٦٨، ٥٦٥.

(٢) الفواكه الدواني ١/ ٥٨، وسيأتي مزيد بيان في تفاضل آيات القرآن وسورها بعضها على بعض، في الفصل الأول، من الباب الثالث.

(٣) انظر: الانتصار للعمراني ٢/ ٦٠٠.

(٤) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول.

(٥) انظر: الإرشاد للجويني ص ١٣٠.

وبهذا أرجو أن أكون قد بينت هذه العقيدة المنحرفة في القرآن الكريم، والتي نشأت بسبب الجدال بالباطل، مع المعتزلة، ومن أتباع هؤلاء من يقول: إن القرآن الكريم تكلم الله به أزلا، وأنه قديم أزلي بحروفه!!، وأبين مذهب هؤلاء في المبحث الآتي.

المبحث الخامس: القول بأزلية القرآن

أولا: معنى هذا القول.

هذا القول يعني أن الله ﷻ تكلم بالقرآن أزلا، والأزل: هو الوقت الذي لا أول له[(١)]، ويعني أن الله ﷻ لم يتكلم بالقرآن في وقت، وإنما تكلم به أزلا، كما أن علمه كائن أزلا، فكذلك كلامه كائن أزلا، ومن ذلك القرآن الكريم، وأن الباء، والسين، والميم في: (بسم) موجودة مقترنة ببعض معاً أزلاً وأبداً، ولا تزال لم يسبق منها شيءٌ شيئاً!![(٢)].

وهذا يعني: أنه لا يتكلم بحسب ما يكون من الأوقات، ولا تتعاقب حروف كلامه، ولا يكون متكلما إلا أزلا، ولا يتكلم بمشيئته، فـ «القرآن قديم، مع كونه عبارة عن اللفظ القائم بذاته، بلا ترتيب»[(٣)] عند هؤلاء القوم.

وعندهم تكلم الله أزلا: فقال لموسى اخلع نعليك على أنها ستكون، فلما بلغ الوقت تكلم بأنها كائنة، ولما كان اليوم قالها على أنها كانت[(٤)].

وقالوا: «إذا كتب كلام الله تعالى بجسم من الأجسام، وانتظمت تلك الأجسام رسوما، ورقوما، وأسطرا وكلاما، فهي بأعيانها كلام الله تعالى القديم!!، وقد كان إذ ذاك جسما حادثا، ثم انقلب قديما»!!![(٥)].

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ص ١٧.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٥٨٩، ١٧/ ١٦٥.

(٣) نقله الجويني عمن سماهم بالحشوية أهل الظاهر!!، وهذا هو قول السالمية، على الصواب، والله الهادى الوهاب، وانظر: الدر النضيد لابن الحفيد ص ١٥٦، وقد نقله عمن سماه: المحقق عضد الملة والدين، وهو يعني به الإيجي صاحب المواقف. وانظر: المجموع ٩/ ٢٨٤.

(٤) الأزل لابن عربي ص ٦.

(٥) الإرشاد للجويني ص ١٢٦.

فأصحاب هذا القول: يقولون ـ كما نقل عنهم ـ بأن الكلام هو المعنى المقترن للحروف والأصوات، وأنها لازمة للذات، أي أنه لم يتكلم بقدرته، ومشيئته واختياره[(١)].

ثانيا: سبب ظهور هذا القول.

نشأ هذا القول لما قامت محنة الجهمية في مسألة القرآن الكريم، وقالوا: إنا إذا قلنا إنه تكلم بكلام هو قائم به، وأنه بصوت وحرف، يلزم منه أن يكون ذات الله ﷻ، محلا للحوادث، فكل من وافق على هذا الأصل المبتدع وهو الاستدلال على الله بمسألة حلول الحوادث، فإنه يلزم إذا أقر بالمقدمتين، هذه النتيجة التي ذكرها الجهمية، فمن أجل ذلك منعت المعتزلة المقدمة الأولى، حتى لا تلتزم بالنتيجة، وقالت: إن الكلام حرف وصوت، ولا يلزم أن يقوم بالمتكلم، وقالت الأشاعرة والماتريدية ونحوهم بمنع المقدمة الثانية، وقالوا: إن المتكلم من قام به الكلام، ولكن لا يلزم المتكلم أن يكون كلامه بحرف وصوت وبمشيئته، وإنما يكون كلامه واحدا نفسيا، وقالت السالمية ونحوهم بالمقدمتين، وزادت بأن الصوت والحرف كالكلام نفسه لأن الكلام بدون صوت وحرف لا يتصور، فيكون أزليا أيضا!![(٢)].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ثم إن طائفة أخرى لما عرفت فساد قول ابن كلاب في مسألة الكلام، ووافقته على أصله في أن الله لا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته، وكان من قولها: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يكن عندها إلا قديم لا يتعلق بمشيئة الله وقدرته، أو مخلوق منفصل عنه، لزمها أن تقول: **إن الله يتكلم بصوت، أو بأصوات قديمة أزلية، لا تتعلق بمشيئته وقدرته، وأنه لم يزل، ولا يزال متصفا بها،**

---

(١) انظر: الصفدية ٢/ ١٣٨، المجموع ١٢/ ٥٩٤.

(٢) انظر: شرح الأصبهانية ص ٣٢٣، المجموع ١٢/ ٥٢٦ وما بعدها، ١٦/ ٣٧٨، وأهل السنة ـ كما سبق وأن بينت في الباب الأول ـ يقولون: بأن كلام الله قائم به، وأن كلامه يكون بصوت وحرف، وأن ذلك لا يلزم منه الحدوث بمعنى أنه مخلوق، كما زعمت الفرق، فالسلف قالوا بالمقدمتين، ومنعوا النتيجة، وهو الحق، لأن هذه النتيجة مركبة على المحسوس، وهو أن من قام به الحركة والحدوث يكون مخلوقا، نعم ذلك لأنه مخلوق، وأما إن كان المجيء والإتيان والنـزول من الخالق فلا يكون مخلوقا. انظر: الصفدية ١/ ١٣.

بتلك الأصوات القديمة الأزلية اللازمة لذاته!!»[(١)].

ثالثا: القائلون بهذا القول.

هذا القول يذكر عن أبي الحسن ابن سالم شيخ أبي طالب المكي[(٢)]، وهو قول كثير من السالمية[(٣)] أتباع ابن سالم، فيقولون: إن كلام الله أزلي، والأصوات أزلية، مقترنة بالكلام أزلا[(٤)]، وهم قالوا: ذلك لما رأوا أن الأشعرية ومن وافقهم يقولون بالكلام الأزلي، وينفون أن يتكلم بمشيئته، فرأوا أن هذا يلزم منه نفي أن يكون القرآن كلام الله ﷻ، خصوصا أنهم قالوا: إنه لا يتكلم بصوت وحرف، وأن هذا الموجود هو عبارة عن كلام الله ﷻ، فلهذا قال هؤلاء: إنه متكلم أزلا بصوت وحرف، وأن ذلك قديم[(٥)].

ووافقهم على هذا القول بعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد، وغيرهم[(٦)]، فإنهم قالوا: القرآن قديم، وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس الله تعالى أزلا وأبدا!![(٧)].

ويفهم هذا من قول القاضي أبي يعلى الفراء، حيث قال: إنه لم يزل متكلما، وليس مكلِّمٌ، ولا مخاطب، ولا آمر، ولا ناه، ثم نفى أن يكون كلام الله بمشيئته واختياره، وما جاء عن الإمام أحمد مخالفا لهذا، تأوله على غير وجهه[(٨)].

---

(١) المجموع ٦/ ٥٢٤، وانظر: الصفدية ٢/ ٥٧.

(٢) هو الصوفي الواعظ المتكلم: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي، من تصانيفه الصوفية: قوت القلوب، توفي ببغداد سنة ٣٦٨هـ. انظر: معجم المؤلفين ١١/ ٢٧.

(٣) وبعضهم ينسبهم إلى الحنابلة نظرا لأن متكلم السالمية ومنظرهم أبو الحسن ابن الزاغوني حنبليٌّ: (٥٢٧هـ) انظر: ترجمته في السير ١٩/ ٦٠٥، **وأصحاب هذا القول: يلقبون بالاقترانية**، لقولهم باقتران الأحرف للكلام في القدم، وأنه لم يسبق بعضه بعضا. انظر: التنبيه على المخالفات العقدية في الفتح ص ١٤٦.

(٤) الفتح ١٣/ ٥٠٢، وانظر: المجموع ١٢/ ٥٢٧.

(٥) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤١٩.

(٦) انظر: الصفدية ٢/ ٥٨، شرح الأصبهانية ص ٣٣١، المجموع ٦/ ٥٢٤، ١٢/ ١٦٦.

(٧) انظر: المجموع ١٢/ ٣٢٠.

(٨) انظر: شرح الأصبهانية ص ٣٣٥، المجموع ٦/ ١٥٨، ١٢/ ١٦٦.

وهذا هو طريقة أصحاب القاضي[(١)]: كابن عقيل[(٢)]، وابن الزاغوني، وأبي عبد الله ابن عبد الوهاب[(٣)]، وهو المحكي عن أبي علي الثقفي[(٤)]؛ فإنه قال: «من أنكر أنه لم يزل، فقد اعتقد أن كلام الله محدث»[(٥)]، وهذا قول أبي الوليد الباجي[(٦)]، ومحكي عن أبي المعالي الجويني[(٧)].

وهذا القول يتفق مع قول الكلابية، ومن تبعهم في أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه قائم بذاته، بدون قدرته، ومشيئته، مثل حياته، وهم يقولون: الكلام صفة ذات، لا صفة فعل[(٨)].

ولهذا كان القول بأن الله تكلم بالقرآن أزلا، هو قول الأشعرية المثبتين لكلام الله ﷻ الأزلي، النافين لكلامه الذي يكون بمشيئته واختياره، وصرح بهذا بعضهم[(٩)]، وإنما خلافهم مع هؤلاء في هذا القرآن الموجود هل هو أزلي أم لا؟؟ فقالت السالمية: القرآن كلام الله أزلي، والأشعرية قالوا: القرآن ليس بأزلي بل هو محدَث؛ وهو عبارة عن كلام الله الأزلي.

---

(١) انظر: المجموع ٦/ ١٥٩، ١٧/ ٥٥، ومنهم ابنه أبو الحسين محمد كما في كتابه "الاعتقاد" ص٢٤-٢٥.

(٢) هو الفقيه المتكلم الواعظ: علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي أبو الوفاء الحنبلي، ولد ونشأ في بغداد، ومن مصنفاته الجامعة: كتاب الفنون، الانتصار لأهل الحديث، توفي سنة٥١٣هـ. انظر: السير ١٩/ ٤٤٣.

(٣) هو الفقيه الأصولي: محمد بن عبد الوهاب بن منصور الحراني أبو عبد الله شمس الدين، تفقه على مجد الدين ابن تيمية، والعز بن عبد السلام، وتولي القضاء مدة، توفي سنة ٦٧٥هـ. انظر: الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٤/ ٢٣٣.

(٤) هو المحدث الفقيه: محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب الثقفي النيسابوري، وتتلمذ على إمام الأئمة ابن خزيمة، وكان يجادل على طريقة أهل الكلام، ونهاه ابن خزيمة، توفي سنة ٣٢٨ هـ. انظر: السير١٥/ ٢٨٠.

(٥) المجموع ٦/ ١٦٩، وانظر: الدرء ٢/ ٧٨.

(٦) هو الفقيه المتكلم: سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي أبو الوليد الباجي، رحل إلى المشرق، ثم رجع بعد رحلة طويلة، وله مصنفات كثيرة، منها: التسديد إلى معرفة التوحيد، توفي بالمرية في الأندلس، سنة ٤٧٤هـ، وقيل غير ذلك. انظر: معجم المؤلفين ٤/ ٢٦١.

(٧) انظر: المجموع ١٧/ ٥٥.

(٨) انظر: المجموع ٦/ ٢١٩، ١٢/ ١٣٣.

(٩) انظر: تبيين كذب المفتري ص ٣٠٢، والغنية لأبي سعيد النيسابوري ص ٩٨.

وهؤلاء الذين يقولون: إن الله تكلم بهذا أزلا، وأن كلامه بحرف وصوت، وأنه لا يتكلم بمشيئته، يسمون أيضا: بالاقترانية[١].

رابعا: شبهاتهم والرد عليها.

أ- **قالوا:** إننا إذا أثبتنا لله كلاما متعلقا بالمشيئة، فهذا يلزم منه أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته، وقدرته، إذا فكلام الله ﷻ أزلي[٢]، واحتجوا ببعض ما ورد عن السلف: إن الله لم يزل متكلما[٣].

الرد على هذه الشبهة:

١- أن ما ذكروه من أن القرآن قديم أزلي هذا يرجع المسألة إلى العلم: فالله يعلم ما سيكون، وإذا وقعت علمها واقعة كما في الأول، ثم لما انقضى علم أنها انقضت على وفق ما علم، أما الكلام فهو ليس من صفات الذات المحضة، بل هو قديم العين من حيث تعلقه بالذات وأنه تعالى متكلم وقادر على ذلك أزلا، ومتعلق بمشيئته واختياره من حيث إنّه يتكلم متى شاء، فالكلام كالعلم من حيث تعلقه بالذات، وكصفات الأفعال من حيث تعلقه بالمشيئة.

٢- قول السلف: إنه لم يزل متكلما؛ لا يعني موافقتكم، فإنهم عنوا بهذا أنه متكلم أزلا، كما أنه متكلم متى شاء، وكونه متكلّما أزلا، يعني: أنه متصف بالكلام لأن ضده الخرس والله منزه عنه أزلا وأبدا، كالعلم اتصف الله به أزلا وأبدا، لأن ضده الجهل، وهو محال على الله ﷻ، ويعني كونه متكلّما أزلا: كقولنا إنه خالق أزلا، فإذا أثبت لنفسه أنه خالق، والمراد أنه خالق إذا أراد، وإن لم يكن خالقا في كل حال، فكذلك هو متكلم أي متصف به إذا أراد، وإن لم يكن متكلما بكل حال[٤].

---

(١) انظر: الصفدية ٢/ ٥٧.
(٢) انظر: المجموع ٦/ ٥٢٤.
(٣) انظر: المجموع ٦/ ١٥٩.
(٤) انظر: المجموع ٦/ ١٥٨، ١٦٠، ١٢/ ٥٢٩.

٣- أن هذا القول مبتدع، وقول «أنه لم يزل متكلما يتكلم إذا شاء، هذا هو الذي يقوله من يقوله من أهل الحديث، وأصحاب هذا القول: قد يقولون: إن كلامه قديم، وأنه ليس بحادث، ولا محدث؛ فيريدون نوع الكلام، إذ لم يزل يتكلم إذا شاء، وإن كان الكلام العيني يتكلم به إذا شاء»[(١)] فقولهم: إنه قديم، يعنون بذلك أنه ليس بمخلوق، فإن السلف ثابت عنهم أنهم يصفون الله ﷻ بأنه يتكلم متى شاء، فعلم من هذا مخالفتكم للسلف، ولم يقل هذا أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم، وإن كان هذا قول بعض أتباعهم المتأخرين[(٢)]، وهذا إمام الأئمة ابن خزيمة يقول ؒ: «الذي أقول به: إن القرآن كلام الله، ووحيه، وتنزيله غير مخلوق. ومن قال: إن القرآن أو شيئا منه، وعن وحيه، وتنزيله مخلوق، أو يقول: إن الله لا يتكلم بعد ما كان تكلم به في الأزل، أو يقول: إن أفعال الله مخلوقة، أو يقول: إن القرآن محدث، أو يقول: إن شيئا من صفات الله، صفات الذات، أو اسما من أسماء الله مخلوق، **فهو عندي جهمي يستتاب؛ فإن تاب، وإلا ضربت عنقه، وألقي على بعض المزابل؛ هذا مذهبي، ومذهب من رأيت من أهل الأثر في الشرق والغرب من أهل العلم**»[(٣)].

٤- هذا القول فيه مخالفة للمعقول والمنقول؛ «وإلا فكيف تكون السين المعينة المسبوقة بالباء المعينة قديمة أزلية، وتكون الحروف المتعاقبة قديمة، والصوت الذي كان في هذا الوقت قديما؟؟»[(٤)].

٥- ثم إن النصوص دالة على أنه ينادي في وقت معين، والنداء لا يكون إلا صوتا، فكيف يقال: إنه لم يزل مناديا من الأزل إلى الأبد!!، فهذا فيه مخالفة صريحة

---

(١) المجموع ٦/ ١٦٢.

(٢) انظر: منهاج السنة ٥/ ٤٢٠، وذكر شيخ الإسلام أن الشهرستاني ذكر في نهاية الإقدام: أن هذا قول السلف والحنابلة، وليس هذا هو قول السلف، ولا قول أحمد بن حنبل، ولا أصحابه القدماء، ولا جمهورهم. انظر: نهاية الإقدام ص ٣١٣.

(٣) الدرء ٢/ ٧٩، المجموع ٦/ ١٧٠.

(٤) منهاج السنة ٥/ ٤٢٠، المجموع ٩/ ٢٨٤، ١٢/ ١٣٢.

للنصوص[١]، قال ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾[القصص:٤٦] وقال: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[القصص:٦٢] وقال: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، وقال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة:٣٠] والمعنى: «واذكر إذ قال ربك للملائكة، والمؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا»[٢].

٦- **ومن الردود عليهم ما ذكره بعض المخالفين للسلف**، ـ وأهل البدع يرد بعضهم على بعض، فيؤخذ الحق منهم، ويرد باطلهم ـ، فيقول: «وأما الذين يقولون: إن الله تعالى تكلم في الأزل بكذا، فإنه يلزم القائلين به شناعات، ولا يحصل بها علم إلا بجهلهم، وإنما ينبغي أن يقال في مثل هذا: إن كلام الله صفة له قديمة لا تكيف، فإن الكيفية في هذا الفن من العلم محال...، فإذا ثبت أن الله موصوف بالكلام، وأن الكلام غير محدث، فلا يحتاج ذلك إلى أزل، ولا إلى غير أزل، فنقول: لما خلق الله موسى، وكان من أمره ما كان، وأبصر النار، وقصده: ناداه الحق في ذلك الوقت»[٣].

٧- وبالجملة فكون الرب لم يزل متكلما ـ إذا شاء ـ هو الحق، كما هو قول أهل الحديث، وهذا القول مبني على مقدمتين: **الأولى**: أن الله ﷻ تقوم به الأمور الاختيارية. **الثانية**: أن كلام الله لا نهاية له، ومن خالف في إحدى المقدمتين لزم قولَه الفسادُ[٤].

---

(١) انظر: المجموع ٦/ ٢٢٤، ١٢/ ٥٨٨.

(٢) الصفدية ٢/ ٥٨.

(٣) الأزل لابن عربي ص ٤-٥، وفي بعض كلامه حتى في هذا الموضع شطط، وانحرافات وغلط، وإنما نقلت ما يفيد الغرض، وأعرضت عما فيه غرض، وكلامه لو جمع في مسألة القرآن لكان من أشد الناس تناقضا، ومن أكثرهم تحولا، وأسرعهم تقلبا، فلا مذهب له، ولا ثبات، فاليوم مع الفلاسفة، وغدا مع المعتزلة، وحقيقته مع الحلولية وهو مذهبه الصريح، ومنهجه القبيح، وهكذا حال المبتدعة فإنهم يتحولون كل يوم، ولهذا كان الغزالي من أكثر الناس ترددا بين الفرق. انظر: مقدمة أحمد شمس الدين لتهافت التهافت ص ١٤.

(٤) انظر: منهاج السنة ٣/ ٣٥٩.

٨- وأيضا وصفه بأنه تكلم مع موسى أزلا!!، ومع جبريل أزلا!!، وتكلم بالقرآن أزلا محال!!، إذ وصفه بذلك له أول، والأزل عبارة عن نفي الأولية، فالجمع بينهما محال(١).

٩- لا يجوز أن يخبر الله ﷻ أزلا أنه أرسل نوحا، فيقول: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[نوح:١] فلو أخبر أزلا أنه أرسل نوحا، وهو لم يخلق بعد، لكان خلفا، إذ أنه لم يرسله بعد، وهو على الله وفي كلام الله ﷻ محال، فدل على أنه ما تكلم بهذا الكلام إلا بعد إرسال نوح ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ(٢).

١٠- قوله ﷻ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف:١٤٣] فهذه الآية تفيد أن الله كلم موسى وقت مجيئه الذي وقَّته له، وحينئذ قال موسى: رب أرني أنظر إليك، ونفى الله إمكان الرؤية في الدنيا لما سأله ذلك، وكل هذا وُقت في ميقات معين حدده رب العالمين، وليس ذلك أزلا، وإلا لزم منه أن الميقات لا معنى له، وأن موسى سأل أن يرى ربه أزلا، وأن الله قال له أزلا لن تراني!!!، وأن الله لا يرى أزلا!!، وأن الله تجلى للجبل أزلا!!، وأن موسى خر أزلا!!، وأنه أفاق أزلا!!، وأنه قال: تبت إليك أزلا!!، وهذه المفاسد كلها لو تصورها عاقل، لما تفوه بأن الله تكلم أزلا، ولم يتكلم حين جاء موسى للميقات!!.

١١- ثم إن القرآن الكريم كيف يقال عنه أن الله تكلم به أزلا؟ وفيه الآيات الكثيرة التي تدل على أن الله كلم هذا في وقت، وهذا في وقت، وأن هذه الآية قبل هذه، وأن هذه السورة قبل هذه!!.

---

(١) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٢٨.

(٢) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٢٩، الصفدية ٢/ ٥٧.

١٢- أن قولكم إن الله تكلم بالقرآن أزلا فيه أنه لا يتكلم بشيء مرتين، وهذه مكابرة، قال ابن خزيمة رحمه الله في رده على أمثال هؤلاء: «زعم بعض جهلة هؤلاء الذين نبغوا في سنيننا هذه[1]: أن الله لا يكرر الكلام، فلا هم يفهمون كتاب الله؛ إن الله قد أخبر في نص الكتاب في مواضع أنه خلق آدم، وأنه أمر الملائكة بالسجود له، فكرر هذا الذِّكْرَ في غير موضع، وكرر ذِكر كلامه لموسى مرة بعد أخرى، وكرر ذكر عيسى ابن مريم في مواضع، وحمد نفسه في مواضع...، ولم أتوهم أن مسلما يتوهم أن الله لا يتكلم بشيء مرتين!!»[2].

١٣- القول بأن الله تكلم أزلا، وأنه لا يتكلم متى شاء، يعني مخالفة صريح الكتاب والسنة؛ فإنه قد ثبت في غير ما آية أن الله ﷻ: «يكلم أهل النار بالتوبيخ والعقاب...، ويخلو الجبار بكل أحد من خلقه فيكلمه؛ ليس بينه وبين أحد منهم ترجمان... فمن زعم أن الله لم يتكلم إلا مرة، ولم يتكلم إلا ما تكلم به، ثم انقضى كلامه كفر بالله، بل لم يزل الله متكلما، ولا يزال متكلما، لا مثل لكلامه؛ لأنه صفة من صفات ذاته؛ نفى الله المثل عن كلامه، كما نفى المثل عن نفسه..ولم يزل متكلما، ولا يزال يتكلم؛ فهو الموصوف بالصفات العلى»[3].

١٤- وأما قولكم: إن القول بأنه يتكلم متى شاء يلزم منه القول بحدوثه فعنه أجوبة، **الأول:** أن هذا اللازم ليس بصحيح، فلا يسمى كلام الله ﷻ، وكتابه محدثا، وإن سمي حديثا. **الثاني:** أن القرآن يسمى حديثا، والحديث معناه الكلام كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٧]. **الثالث:** أنا لو سلمنا لكم[4] أنه يسمى محدَثا كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنبياء:٢]

---

(١) لعله يشير إلى قول أبي علي الثقفي من تلامذته القائلين بالكلام الأزلي.

(٢) المجموع ٦/ ١٧١.

(٣) المجموع ٦/ ١٧٣-١٧٤، وانظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ص ٤٤.

(٤) وتسمية القرآن بأنه محدث منعه الأئمة؛ لأنه ذريعة إلى القول بخلقه، فيتنبه لهذا، وقد اشتد نكير الإمام أحمد على داود الظاهري لما قال: إن القرآن محدَث، وهو يريد أن الله تكلم به في وقت معين. انظر: المجموع ٦/ ١٦٠-١٦١.

فإنه لا يسمى مخلوقا، وليس بمخلوق، وتسميتكم المحدَث بأنه مخلوق، هو اصطلاح اصطلحتم عليه، والآية ليس المراد بها اصطلاحكم، وإنما المراد أنه شيء جديد، وليس كل جديد محدَث إلا على اصطلاحكم. **الثالث**: إن أردت بقولك: إنه محدث أنه مخلوق، فقد علمت مذهب السلف في ذلك، وهم من أشد المنافحين عن القرآن، وإن أردت بقولك: محدث، أن الله تكلم به بمشيئته وقدرته، بعد أن لم يكن متكلما بالقرآن، وبغيره بعينه ـ وإن كان قد تكلم بغير ذلك قبله، مع أنه متكلم إذا شاء ـ فإن هذا هو قول السلف، وإذا فهم المقصود، فإن النزاع في العبارة غير مجد إلا أن تكون العبارة شرعية(١).

ب-**احتجوا**: بأدلة المعتزلة على أن الكلام يكون بحرف وصوت، وبأدلة الكلابية ومن وافقهم على أن الكلام لا يكون إلا قائما بالموصوف، ثم قالوا: وكل ذلك لا يكون إلا قديما(٢).

والجواب عنه من وجهين:

الأول: أن احتجاجكم بأن الكلام لا يكون إلا بصوت وحرف صحيح، واحتجاجكم بأنه لا يكون صفة لموصوف إلا إذا كان قائما به صحيح، ويبقى النتيجة التي ذكرتموها، وهي أن ذلك كله قديم، أزلي فهذا هو محل النزاع، ومعلوم أن الباء قبل السين، والسين قبل الميم، والقديم لا يسبق بغيره على قولكم، ثم الصوت يستحيل اقتران أوله بآخره، ووجوده كله في وقت واحد، وإنما يوجد متعاقبا(٣).

الثاني: **أن** وصفكم الرب الكامل بأنه متكلم أزلا، وليس بمتكلم أبدا وأن كلامه لا يكون بمشيئته وقدرته وصف له بالنقص، وهو محال على الله ﷻ، إذ المتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته وقدرته، فمن تكلم اضطرارا، أو مُكرَها، أو من غير إرادة منه كالنائم، فهذه كلها أوصاف نقص يلحق المتكلم بالكلام، ولا

(١) انظر: المجموع ٦/ ١٦٠-١٦١.
(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٣٢٠.
(٣) انظر: الصفدية ٢/ ٥٨، شرح الأصبهانية ص ٣٣٦، المجموع ١٢/ ٣٢٠.

يكون الكمال إلا ممن تكلم بمشيئته واختياره وقدرته[١].

قالوا: الكلام له وجود وماهية، وله ترتيب في وجوده، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هي في وجوده، لا في ماهيته؛ فإن السين مقارنة للباء في الماهية!! فليس هناك تقدم في الزمان؛ إنما هو تقدم في الوجود، كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض، فالكاتب قد يكتب آخر المصحف قبل أوله، ومع هذا إذا كتبه كان أوله متقدما على آخره في المرتبة، لا في الوجود[٢].

والجواب عن هذا من وجهين:

الأول: أن جمهور العقلاء يعلمون فساد هذا بالاضطرار؛ فإن الصوت لا يتصور بقاؤه، ودعوى وجود ماهية غير الموجود في الخارج دعوى فاسدة؛ لأن الوجود الذهني ليس وجودا للماهية على الحقيقة، وإنما هو وجود علمي ذهني، وأما وجود الأحرف في الخارج فوجود حقيقي عياني، والكلام في الأحرف الموجودة في العيان، لا الموجودة في الأذهان.

الثاني: أن الترتيب الذي في المصحف - حيث ركبتم الدليل عليه - هو ترتيب للحروف المدادية، والمداد أجسام، وإنما الكلام في الأحرف التي تكون عيانا من حيث هي بقطع النظر عن وسائلها؛ فإنها لا توجد - من حيث هي - إلا مرتبة، يعلم أن هذا قبل هذا وجودا وزمانا[٣].

ومما يدل على فساد قول القائلين بأن الله تكلم بالقرآن أزلا، ما يأتي:

١- يلزمهم على قولهم بأن الله تكلم بالقرآن أزلا أن يكون هذا القرآن الموجود بين الدفتين لم يسمعه جبريل؛ لأن جبريل عليه السلام لم يكن أزلا!!، وقال السلف: «إنما

---

(١) انظر: المجموع ١٨/ ٢٣٧.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٣٢٠.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٣٢١.

تكلم بالقرآن حيث خاطب به جبريل، وكذلك سائر الكتب»[١].

٢- إذ قالوا ذلك: فالقرآن يكون على قولهم هو عبارة عن الكلام الأزلي، فيرجع هذا إلى قول الكلابية وأتباعهم، أو يقولوا: بأن المسموع هو كلام الله الأزلي حرفا وصوتا، فيرجعون إلى قول الحلولية والاقترانية، وقد سبق الرد عليهم.

وهؤلاء يقابلهم أقوام ذهبوا إلى أن الله لم يتكلم أزلا، وإنما تكلم بعد أن لم يكن قادرا على الكلام، وأبين قول هؤلاء في المبحث الآتي.

(١) شرح الأصبهانية ص ٢١١، نقلا عن كتاب محمد بن الهيصم "جمل الكلام".

المبحث السادس
القول بأن الله تكلم بعد أن لم يكن متكلما، ومن ذلك تكلمه بالقرآن

أولا: معنى هذا القول.

المراد بهذا القول: أن الله لم يزل معطلا لا يتكلم، ولا يفعل شيئا، ثم حدث منه الكلام[١] فأصحاب هذا القول: يرون أن الله في الأزل لم يكن متكلما، إلا بمعنى القدرة على الكلام، وأنه يصير موصوفا بها يحدث بقدرته، وبمشيئته بعد أن لم يكن كذلك[٢].

وهؤلاء لا يعنون من كلمة "الحادث" أن القرآن مخلوق، وإنما يعنون: أن الله تكلم به بعد أن لم يكن متكلما، فهم يسمونه حادثا، ولا يسمونه محدَثا[٣].

ثانيا: سبب نشأة هذا القول.

لما حدث القول بأن القرآن حكاية عن كلام الله ﷻ، وأن هذه الأحرف ليست من كلام الله، وهذا معلوم شناعته، ونشأت السالمية الذين قالوا: إن هذه الأحرف أيضا هي من كلام الله ﷻ وهذه الأحرف أيضا أزلية، وأن الله لا يتكلم بمشيئته واختياره، وهذا أيضا معلوم شناعته إذ الحروف متعاقبة، ولا يكون المتعاقب أزليا، فنشأ قول ثالث: وهو أن الله موصوف بأنه تكلم بعد أن لم يكن متكلما، فتكلم بهذا القرآن بعد أن لم يكن متكلما، ونفوا أن يكون الله متكلما أزلا[٤].

---

(١) انظر: الصفدية ١/ ١٣، ١٧/ ١٦٥.

(٢) انظر: المجموع ٦/ ٥٢٤، ١٢/ ٥٩٣.

(٣) انظر: منهاج السنة ٢/ ١٠٨.

(٤) انظر: المجموع ٩/ ٢٨٤-٢٨٥، ١٢/ ٥٢.

وقالوا: إن المتكلم من قام به الكلام، وأن الكلام لا يكون إلا بصوت وحرف، وأن من الكمال أن يكون المتكلم متكلما بمشيئته وقدرته، لا أن يكون المتكلم من تكلم أزلا، وأما أن ذلك يلزم منه حلول الحوادث في الرب ﷻ، فليس في الأدلة ما ينفي حلول الحوادث في ذات الرب ﷻ[١].

وهؤلاء قالوا: بأنه تكلم بعد أن لم يكن متكلما، كقولهم فعل بعد أن لم يكن فاعلا، وذلك لئلا يلزمهم القول بحوادث لا أول لها[٢].

ثالثا: القائلون بهذا القول.

هذا القول هو المشهور عن الكرامية[٣]، وطائفة كثيرة: من المرجئة، والشيعة، وغيرهم: يقولون: بأن الله تكلم بكلام حادث، بعد أن لم يكن متكلما، وهذا الكلام الحادث ليس بمخلوق[٤]، ونقل عنهم أنهم يفرقون بين قول الله، وكلام الله؛ فيقولون: «الكلام قديم، والقول حادث غير محدث، والقرآن قول الله، وليس بكلام الله، والكلام عندهم القدرة على التكلم»[٥] فيكون هذا قولا آخر لهم في المسألة.

والكرامية أثبتوا أن الله ﷻ يتكلم بكلام قائم بنفسه غير مخلوق، وأن كلامه بمشيئته وقدرته، لكنه تكلم بعد أن لم يكن متكلما، وأن الحوادث تحل به[٦]، وهم يقولون: بأن كلام الله ﷻ لا نهاية له في المستقبل[٧].

والقول بأن الله تكلم بكلام حادث ـ ولا يعنون به المخلوق ـ نسب إلى أبي

---

(١) انظر: الصفدية ٢/ ٦٠، ١٣٨.

(٢) الصفدية ٢/ ٦٠.

(٣) وهم ينتسبون إلى محمد بن كرام السجستاني، وفي الفقه إلى أبي حنيفة، ورموا بالتشبيه. انظر: المجموع ١٢/ ٥٣٠، ١٧/ ٥٥.

(٤) انظر: الإرشاد للجويني ص١٠٦، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص٢٦٥، الصفدية ٢/ ١٣٨، شرح الأصبهانية ص ٣٣١، المجموع ٦/ ٥٢٤، ١٢/ ١٧٢، ٥٣٠.

(٥) الغنية لأبي سعيد النيسابورى ص ٩٩، وانظر: المجموع ١٢/ ١٧٧، منهاج السنة ٢/ ٢٤٨.

(٦) انظر: منهاج السنة ٣/ ٣٥٨، المجموع ٦/ ١٦١، ٢١٩.

(٧) انظر: منهاج السنة ٣/ ٣٦٠.

معاذ التومني، وزهير البابي، وداود الأصبهاني[١]، وقد يسمى أصحاب هذا القول بالحدوثية[٢]، نسبة إلى قولهم بأن الله تكلم بكلام حادث بعد أن لم يكن متكلما به.

رابعا: شبهات أصحاب هذا القول، والرد عليها.

أ- يفهم مما نقل عنهم سابقا أنهم يقولون: إن الله تكلم بكلام قائم به، والكلام لا يكون إلا بصوت وحرف، ويستحيل أن يكون هناك كلام ولا مُكَلَّم؛ فدل ذلك على أنه تكلم بعد أن لم يكن متكلما، وأن هذا الكلام متعلق بمشيئته وقدرته[٣].

والجواب عن هذا ما يأتي:

١- إن قولكم أنه تكلم بكلام قائم به حق، وكونه تكلم بصوت وحرف حق أيضا، وأما أنه تكلم بعد أن لم يكن متكلما فهذا هو وجه البدعة في قولكم، إذ كيف يتصور للرب الكامل أن يكون معطلا عن الكلام حتى يكون متكلما بسبب خارج عنه، وهم المخلوقون.

٢- أما قولكم: كيف يتصور وجود كلام ولا مكلَّم، فهذا نشأ بسب اعتقادكم تعطيل الرب عن الفعل، وأنه لم يكن فاعلا، ولا خالقا، فكيف يتصور أن يكون متكلما، ثم صار فاعلا، وخالقا، ومتكلما!!، ومعلوم أن الحق هو ما ذهب إليه السلف من أن الله ﷻ لم يزل فاعلا متكلما خالقا، كما لا يزال فاعلا خالقا متكلما.

٣- أن الكلام صفة كمال لا صفة نقص، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون قادرا على الكلام بمشيئته وقدرته، ووصف الكمال لله ﷻ واجب، فوجب أن يكون متكلما أزلا بمشيئته، كما أنه متكلم أبدا بمشيئته[٤].

---

(١) انظر: منهاج السنة ٣/ ٣٦٩، الصفدية ٢/ ٦٠، المجموع ١٢/ ١٧٧، ونسب إلى البخاري، وقد بينت في الفصل الأول من الباب الثاني، أن ذلك لا يصح عنه، والمذكورون هم الفقهاء الذين نسب إليهم شيخ الإسلام هذا القول؛ فإنه تارة يقول: طوائف من المنتسبين إلى السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد، وتارة يقول: طائفة من الفقهاء، وهم ـ والله أعلم ـ طائفة واحدة وهم المذكورون.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٥٩٤.

(٣) انظر: الصفدية ٢/ ٦٠، ١٣٨، المجموع ١٢/ ٥٢، المجموع ٩/ ٢٨٤-٢٨٥.

(٤) انظر: المجموع ٩/ ٢٨٥، ١٨/ ٢٣٧.

٤- قلتم: إن الكلام متعلق بالمشيئة، ومعلوم أن الله ﷻ لم يزل موصوفا بالإرادة، فكذلك يلزم أن يكون موصوفا بالكلام.

٥- إذا قلتم: إنه تكلم بعد أن كان الكلام ممتنعا عليه، فيلزمكم أن تبينوا ما هو السبب الموجب الذي جعله يتكلم؟؟، إن كان السبب الموجب قدرته وإمكان الكلام منه؛ فإنه لم يزل متصفا بالقدرة وإمكان الكلام؛ فبطلت دعواكم في أنه لم يكن متكلما، وإن قلتم: إنه لم يزل غير قادر، ثم صار قادرا على أن يتكلم بمشيئته من غير حدوث شيء، فهذا مخالف لصريح العقل، وسلبٌ لصفة الكمال من مستحقها، وهذا فيه تشبيه للخالق بالمخلوق الذي لم يكن قادرا على الكلام ثم قدر على الكلام بعد زمن!!![1].

ب- **قالوا:** كان الله قادرا على الكلام أزلا، ولم يكن متكلما أزلا، لامتناع حوادث لا أول لها، وإنما يتكلم بمشيئته وقدرته أبدا، للقطع بوجود حوادث لا منتهى لها[2].

والجواب عنها من أوجه:

١- أن كونه ﷻ يتكلم بمشيئته وقدرته حق عندنا وعندكم، ومعلوم أن الله ﷻ موصوف بالمشيئة والقدرة أزلا، كما أنه موصوف بهما أبدا، ولا يلزم من ذلك حلول الحوادث في ذات الرب ﷻ، فكذلك كلامه، وهذا الحق الذي يجب الرضا به:

وقد تكلم رب العرش بالكتب الـ ... منـــزلات كلاما لا شبيه بـــه
ولـم يزل فاعــلا، أو قائـــلا أزلا ... إذا يشاء، وهذا الحق فارض بـه
إذ هي صفات لموصوف تقــوم به ... قديمة مثله من غير ما شُـــبَه [3]

٢- أن قولكم هذا يعني: عدم الاهتداء «إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث، وهو الفعل المعين، والمفعول المعين، وبين ما لا يستلزم ذلك، وهو نوع الفعل والكلام، بل هذا يكون دائما، وإن كان كل من آحاده حادثا، كما يكون دائما في

(١) انظر: شرح الأصبهانية ص ٢٥٧، المجموع ٩/ ٢٨٥.
(٢) انظر: الصفدية ٢/ ٦٨، المجموع ١٢/ ٥٢.
(٣) من أبيات لمحمد جمال الدين اليمني الشافعي، كما في مقدمة منهاج السنة ١/ ١٠٩.

المستقبل، وإن كان كل من آحاده فانيا»[(١)]، فهذا القول منكم يدل على عدم الفرق بين الكلام المعين وجنس الكلام[(٢)].

٣- التزمتم بأن الرب يتكلم بمشيئته وقدرته، فيلزمكم ـ مع قولكم: إن الكلام متعلق بهما ـ أن تثبتوا الكلام الأزلي الذي لا مفتتح لوجوده، وإلا لزمكم التناقض، من حيث إثبات القدرة دون الكلام، مع أنه مقترن به[(٣)].

٤- أن القول بأن ذلك يلزم منه حوادث لا أول لها، ليس بصواب، وذلك أن الرب ليس موصوفا بالحوادث، وأما إن أردتم بأن ذلك يلزم منه حوادث لا أول لها من حيث إيجاد المخلوقين، فهذا قال به طوائف، ولا يلزم من كون الرب ﷻ متكلما أزلا إثبات حوادث لا أول لها أزلا.

٥- أن هذا الكلام لو كان محدَثا، لكان إما أن يحدث في ذات الله تعالى، فيكون محلا للحوادث، وهو محال. أو لا يحدث فيه؛ وهو محال؛ لأن كونه تعالى متكلما صفة من صفاته، وصفة الشيء يستحيل أن تقوم بغيره، فتبين بأن الله متكلم أزلا[(٤)]، ويتكلم متى شاء، من دون أن يلزم على ذلك مسألة حلول الحوادث[(٥)].

---

(١) المجموع ١٢/ ٥٩٣.

(٢) وهذه أبيات ليوسف بن محمد السرمري في الرد على السبكي، في مقدمة منهاج السنة ١/ ١١٧، يصلح ردا على هؤلاء وأمثالهم، حيث يقول فيها:

إن قلت كان ولا علم لديه ولا ... كلام، لا قدرة أصلا كفرت به
أو قلت أحدثها بعد استحالتها ... في حقه سُمْت نقص ما احتججت به
وكيف يوجِدُها بعد استحالتها ... منه، أيقدر ميت رفع منكبه
أو قلت فعل اختيار منه ممتنع ... ضاهيت قول امرئ مُغوٍ بأنصُبه
ولم يزل بصفات الفعل متصفا ... وبالكلام بعيدا في تقربه
سبحانه لم يزل، ما شاء يفعله ... في كل ما زَمَن، ما من معقبه
نوع الكلام كذا نوع الفعال قديـ ... ـم لا المعين منه في ترتبه.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٥٩٢، ١٨/ ٢٣٤.

(٤) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٥) انظر: الصفدية ١/ ١٣.

٦- أن قولكم بأنه تكلم بعد أن لم يكن قادرا على الكلام؛ بحجة امتناع حوادث لا أول لها، لا يصح؛ لأن السلف لم يقل أحد منهم أن الله لم يكن متكلما أزلا، ثم تجدد له هذا الوصف، ولم ينكر أحد منهم دوام فعل الله ﷻ أزلا، كما أنهم متفقون على دوام فعل الله ﷻ أبدا[١]، قال الإمام أحمد رحمه الله: «ففي مذهبكم قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم، حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم، كانوا لا يتكلمون: حتى خلق الله لهم كلاما، وقد جمعتم بين كفر وتشبيه، وتعالى الله عن هذه الصفة، بل نقول: إن الله لم يزل متكلما إذا شاء، ولا نقول: إنه كان لا يتكلم حتى خلق الكلام»[٢] وقول الإمام أحمد وإن كان ردا على الجهمية الخلص، إلا أنه يصلح في الرد على هؤلاء الكرامية في وصف الرب بعدم الكلام في الأزل.

ت- قالوا: إن الأمر بلا مأمور عبث، وأنه لا يخبر في القدم أنه أرسل نوحا، وكلم موسى لأن ذلك كذب، ولأن الأمة مجمعة على أن كلام الله ناسخ ومنسوخ، وسور وآيات، وذلك مما يدل على عدم كونه قديما[٣].

والجواب عنه بما يأتي:

١- الأول أن هذا لا يدل على أن الله ﷻ لم يكن متكلما أزلا، بل يدل على أن آحاد كلامه كانت في وقت شاءه ﷻ، دون وقت، وأما هذه الشبه فهي ترد على الأشاعرة القائلين بالكلام الأزلي النفسي، وعلى السالمية القائلين بالكلام الأزلي، ولا يرد على أهل السنة القائلين بأن الله ﷻ يتكلم متى شاء، مع كونه متكلما أزلا، كما أنه متكلم أبدا.

٢- أن إثبات كونه تعالى لم يكن متكلما أزلا، يلزم منه أنه ﷻ كان عاجزا، ثم صار قادرا على الكلام، ومعلوم بطلان هذا الكلام، إذ العجز من صفات المخلوقين، لا من صفات رب العالمين[٤].

---

(١) انظر: الصفدية ٢/ ٦٨.

(٢) الأصبهانية ص٢٠٢.

(٣) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص٢٦٥.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ١٨٤، شرح قصيدة ابن القيم ١/ ٢٦٣.

٣- أن نفي كونه ﷻ متكلما أزلا يعني تعطيل صفة الكلام، وهذا لا دليل عليه، لا من كتاب ولا من سنة، ولا من عقل.

٤- الكلام كالعلم من حيث كون الرب ﷻ متّصفا به أزلا وأبدا، وهو كالرزق والرحمة من صفات الله من حيث كونه ﷻ يرزق ويرحم متى شاء، فوجب إثباته أزلا وأبدا متى شاءه[(١)].

٥- أنه يلزم من قول الكرامية بحدوث الكلام، بعد أن لم يكن متكلما، أنه محل للحوادث، وأنه ﷻ يعتريه ما يعتري المخلوقين من حيث كونه لا يوصف بشيء ثم يوصف به بعد مدة وزمن، كالرجل يولد لا يتكلم ثم يتكلم!!!، وهذا وحده كاف في بطلان هذه العقيدة الفاسدة التي تؤدي إلى التعطيل والتشبيه.

ومن اللوازم الفاسدة لقول الكرامية:

١- وصفهم الرب ﷻ بأنه لم يكن متكلما أزلا!!![(٢)].

٢- أنهم يقولون: إن القرآن حادث، وهم وإن كانوا لا يريدون أنه مخلوق، إلا أن هذه اللفظة من الألفاظ المجملة التي لا ينبغي استعمالها في مسألة القرآن، إلا بقيد أو بيان.

فمسألة الكلام إن لم يكن المسلم فيها معتصما بالوحيين، متبعا للسلف الصالح في فهمهم، فإنه يضل، وأقل أحواله أن يكون شاكا مرتابا، متوقفا في هذه المسألة، والواقفة إحدى الفرق في مسألة الكلام، وأبين حالهم في المبحث التالي.

---

(١) انظر: المجموع ٦/ ١٦٠.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١٧٧.

المبحث السابع: القول بالتوقف في القرآن

أولا: معنى هذا القول.

المراد: بالتوقف في مسألة القرآن الكريم، هو أن أصحاب هذا القول، يقفون في وسط الطريق، كقطاع الطرق، الذين يميلون على هؤلاء وهؤلاء، فلا هم مع أهل السنة في قولهم: إن القرآن الكريم كلام الله ﷻ غير مخلوق، وأن الله تكلم به بمشيئته واختياره، ولا هم مع أهل البدع في قولهم: إنه مخلوق، أو في قولهم: إن الله تكلم به أزلا، أو تكلم به بدون اختياره وقدرته، فوقفوا في مسألة القرآن، ولم يهتدوا إلى جواب صحيح، وظنوا أن السلامة في التوقف عن القولين، وعدم الخوض مع الطائفتين!!، فساووا بين الحق والباطل!!.

قال الدارمي رحمه الله: «ثم إن ناسا ممن كتبوا العلم، وادعوا معرفته، وقفوا في القرآن، فقالوا: لا نقول: مخلوق، ولا غير مخلوق»[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «من قال: إن كلامه مخلوق، أو قال: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، فهؤلاء في الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم، ولا أثبتوا له كلاما؛ ولهذا يقولون: ما لا يعقل، هذا يقول: إنه معنى واحد قائم بالذات!!، وهذا يقول: حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته!!، وهذا يقول: مخلوق بائن عنه!!.

ولهذا لما ظهر لطائفة من أتباعهم ما في قولهم من الفساد، ولم يعرفوا عين[2] هذه الأقوال الثلاثة، حاروا وتوقفوا، وقالوا: **نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن**

---

(١) الرد على الجهمية ص ١٠٢.

(٢) هكذا في المجموع، ولعل الصواب (غير)، كما هو نص في السياق بعدها في ١٣/ ١٧١.

القرآن كلام الله، وأما كونه مخلوقا، أو بحرف وصوت، أو معنى قائما بالذات، فلا نقول شيئا من هذا»[١].

ثانيا: سبب نشأة هذا القول.

لما نشأت الجهمية المنكرون لكلام الله ﷻ اختلف الناس، فمنهم من قال: القرآن مخلوق!!، ومنهم من قال: كلام الله قديم، وألفاظنا بالقرآن مخلوقة!!، ومنهم من قال: بل نتوقف، ولا نقول: إنه مخلوق، أو ليس بمخلوق!![٢].

فكان سبب نشأة هؤلاء تحيرهم في مذاهب المعتزلة، والكلابية، والسالمية، «وكل طائفة تبين فساد قول الأخرى، وفي كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله، ولم يعلموا قولا غير هذه، فرضوا بالجهل البسيط، وكان أحب إليهم من الجهل المركب، وكان مِن أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم، وهو الاستدلال على حدوث الأجسام، وحدوث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع»[٣].

ثالثا: القائلون بهذا القول.

والتوقف في القرآن الكريم قول طائفة من الجهمية ـ خصوصا إذا ظهرت السنة ـ وقُمِعَت البدعة، فإنهم يستترون خلف التوقف في إخفاء قولهم بخلق القرآن الكريم[٤]، وكان الأئمة كأحمد وغيره يقولون: «افترقت الجهمية على "ثلاث فرق": فرقة قالت: القرآن مخلوق، **وفرقة تقف، ولا تقول مخلوق، ولا غير مخلوق**، وفرقة تقول: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة»[٥].

والواقفة صنف من أتباع كلٍّ من المعتزلة، والكلابية، والأشاعرة، والماتريدية،

---

(١) المجموع ١٣/ ١٧٠.

(٢) انظر: الدرء ١/ ٢٦٠.

(٣) المجموع ١٣/ ١٧١.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٣٥٨.

(٥) المجموع ١٢/ ٢٠٦، ٣٥٩، المدخل لابن بدران ص ٥٤.

والسالمية، والكرامية، ونحوهم، فتجد: «شيوخ العلم والدين، بمصر والشام قد صنفوا في أصول الدين ما صنفوه، ولما تكلموا في "مسألة القرآن"، وهل هو مخلوق؟ أو قديم؟ أو هو الحرف والأصوات؟ أو معنى قائم بالذات؟ نهوا عن هذه الأقوال، وقالوا: الواجب أن يقال ما قاله المسلمون كلهم: أن القرآن كلام الله، ويمسك عن هذه الأقوال، وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك»(١).

ومسألة التوقف من فروع التجهم، وجالت مسألة التوقف حتى في نفوس بعض من كان معروفا بالسنة والحديث(٢).

وهؤلاء يسمون بالواقفة وبالواقفيـة(٣).

فالواقفة ليست صنفا واحدا، وإنما هم أصناف ثلاثة:

الأول: الجهمية من أهل الكلام المتسترين بهذا القول.

الصنف الثاني: قوم ليس لهم دراية تامة بعلوم السلف، فيُخطؤون.

الصنف الثالث: ناس ليس لهم علم، فيتوقفون في المسألة، قال الإمام أحمد رحمه الله في بيان حالهم:

«من كان يخاصم، ويُعرف بالكلام(٤)؛ فهو جهمي، ومن لم يُعرف بالكلام؛ يجانب حتى يرجع، ومن لم يكن له علم؛ يسأل ويتعلم»(٥).

ويمكن أن يكونوا صنفين، باعتبار العلم والجهل، قال الشيخ حافظ حكمي رحمه الله: «وقضى السلف الصالح ـ رحمهم الله تعالى ـ على الطائفة الواقفة، وهم القائلون: لا نقول

---

(١) المجموع ١٣/ ١٧٠-١٧١، وانظر تلبيس إبليس ص ٣٥، شرح الأصبهانية ص ٤١٦.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٣٥٨، ولعل شيخ الإسلام رحمه الله وقف على معينين من بعض أهل السنة والحديث ممن قال بالوقف في مسألة القرآن الكريم، وقد ذكر الخلال في السنة ٥/ ١٣٠وما بعدها، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٣٥٧وما بعدها: أقوال بعض المنتسبين إلى الحديث القائلين بالوقف، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست ص٣٤٨، أن ابن الثلجي من فقهاء الحنفية المتقدمين كان يرى الوقف في القرآن.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ص٣٥، الواقفة اسم فاعل لبيان حالهم، والواقفية: نسبة إلى قولهم، وهو التوقف.

(٤) أي بعلم الكلام المنطقي.

(٥) السنة للخلال ٥/ ١٣٠.

القرآن مخلوق، ولا غير مخلوق، بأن من كان منهم **يُحسن الكلامَ فهو جهمي، ومن لم يحسن الكلام منهم**، بل عُلم أنه كان جاهلا جهلا بسيطا؛ فهو تُقام عليه الحجة بالبيان والبرهان، فإن تاب وآمن أنه كلام الله تعالى، وإلا فهو شر من الجهمية »[١].

رابعا: شبهتهم والرد عليها.

أ- **قالوا:** نحن نقر بما عليه عموم المسلمين، من أن القرآن كلام الله، وما زاد على ذلك، فلا نتكلم فيه لا نفيا ولا إيجابا[٢].

والجواب عن هذا من عدة أوجه:

١- **أن** قولكم بأنكم تعتقدون ما عليه عموم المسلمين، فهذا الذي نقول يجب المصير إليه، وقد كان السلف من الصحابة والتابعين حتى نشوء هذه الخلافات، كلهم يقولون بأن القرآن كلام الله، وصفة من صفاته، ومعلوم أن الصفة تتبع الموصوف، من حيث كونها واجبة، أو ممكنة، فلماذا عدلتم قولهم بقول الجعد بن درهم، فهو أول من قال: بخلق القرآن!![٣]، ثم تبعه الجهم بن صفوان، وكلاهما قتلا بيد أهل السنة نكالا، فكيف يكونون متبعين!!، أو مساوين لمن سلف!!.

٢- **أن** غاية ما عندكم هو عدم العلم، وهذا لا يلزم منه التوقف ـ خصوصا في باب العقائد ـ بل يجب فيه المصير إلى النصوص العظيمة المصرحة بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهب أنه ليس لديك نص صريح، أما يكفيك سيرة السلف، الذين بذلوا مهجهم في إثبات هذه العقيدة، فالمصير إلى قول العلماء الراسخين في العلم، من الصحابة والتابعين متعين، كيف والوقوف في هذه المسألة تعني الشك في الدين، نسأل الله العصمة من رب العالمين[٤].

---

(١) معارج القبول ١/ ٣٦٣، وانظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٤٢٤، اعتقاد أئمة السلف أهل الحديث ص٩٤، ٢٥٩.

(٢) انظر: المجموع ١٣/ ١٧٠-١٧١.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٤٢٠.

(٤) انظر: الشريعة للآجري ١/ ٢٣٢.

٣- أن «الهدي في هذه الأصول، ومعرفة الحق فيها، هو معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، وهو الموافق لصريح المعقول، أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم، لا سيما والقلوب تطلب معرفة الحق، في هذه بالفطرة»[(١)]، فكان الواجب طلب الهدي النبوي، دون النظر إلى القواعد المنطقية، والأصول الجدلية، فحينها يدرك الحق من أقرب طرقه.

٤- أن الأئمة ذموا الواقفة، فدل تضليلهم إياهم على شناعة توقفهم في مسألة ظهرت فيها الأدلة، وامتحن فيها أهل السنة، وأظهر الله الحق بعد المحنة، ثم ذم الواقفية مأثور عن الأئمة، قال الإمام أحمد رحمه الله لما سئل عن الواقفة: «هم شر من الجهمية، استتروا بالتوقف»[(٢)] وقال: «هم أشد على الناس تزيينا من الجهمية، هم يشككون الناس، وذلك أن الجهمية قد بان أمرهم، هؤلاء إذا قالوا: إنا لا نتكلم، استمالوا العامة؛ إنما هذا يصير إلى قول الجهمية»[(٣)] وهذا الإنكار منقول عن عدد من الأئمة، مثل ابن الماجشون[(٤)]، ووكيع بن الجراح، وأبي ثور، وإسحاق بن راهويه، وعثمان بن أبي شيبة[(٥)] ومن لا يحصى عددهم إلا الله[(٦)].

٥- قال الإمام أحمد رحمه الله في رده على الواقفة: «كلام سوء، هو ذا موضع السوء وقوفه، كيف لا يعلم إما حلال وإما حرام؟؟، وإما هكذا وإما هكذا؟، قد نزه الله جل وعلا القرآن عن أن يكون مخلوقا؛ وإنما يرجعون هؤلاء إلى أن يقول إنه مخلوق؛ فاستحسنوا

---

(١) المجموع ١٣/ ١٧٠.

(٢) السنة للخلال ٥/ ١٢٩، وما بعدها من النقولات.

(٣) السنة للخلال ٥/ ١٣٥.

(٤) هو الفقيه المحدث: عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون (بكسر الجيم) مفتي أهل المدينة، وكان رفيق الشافعي، مات سنة ٢١٣هـ. انظر: التقريب ص٣٠٤.

(٥) هو الإمام الحافظ المفسر: عثمان بن محمد بن القاضي أبي شيبة إبراهيم بن عثمان العبسي مولاهم أبو الحسن الكوفي، صاحب تصانيف، وأخوه الحافظ أبو بكر، ثقة مأمون، أخرج له خلق، توفي سنة ٢٣٩هـ. انظر: السير ١١/ ١٥١.

(٦) انظر: السنة للخلال ٥/ ١٤٠ وما بعدها، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٢/ ٣٥٧ وما بعدها، وشرح الأصبهانية ص ٤١٦، بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٥٢٨، المجموع ١٢/ ٤٢٠-٤٢١.

لأنفسهم، فأظهروا الوقف، القرآن كلام الله غير مخلوق بكل جهة، وعلى كل تصريف»[(١)].

٦- أن الوقف لا يجوز إذا تعين الرد، وظهرت البدعة، وانتشرت بين الناس المقولة، قال ابن قتيبة رحمه الله: «ولم أر في هذه الفرق أقل عذرا، ممن أمر بالسكوت، والتجاهل بعد هذه الفتنة، وإنما يجوز أن يؤمر بهذا قبل تفاقم الأمر، ووقوع الشحناء، وليس في غرائز الناس احتمال الإمساك عن أمر في الدين قد انتشر هذا الانتشار، وظهر هذا الظهور، ولو أمسك عقلاؤهم، ما أمسك جهلاؤهم، ولو أمسكت الألسنة، ما أمسكت القلوب...، **والشك لا يداوى بالوقوف**، والبدعة لا تدفع إلا بالسنة، وإنما يقوى الباطل أن تبصره، وتمسك عنه»[(٢)].

ومما يدل على فساد قول الواقفة اللوازمُ الفاسدة المترتبة على قولهم، ومنها:

١- أنهم لا يعرفون هل لله عز وجل كلام في مصاحف المسلمين حقيقة؛ وذلك لأنهم في حيرة من أمرهم.

٢- أن من قال من أئمة الصحابة والتابعين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، يكونون قد أخطؤوا!!!، وأن الواقفة أصابت الحق بتوقفها!!، وهذا تجهيل للسلف!!.

٣- أنهم لا يعتبرون لفهم السلف اعتبارا في النصوص، إذ فهم السلف من نصوص الكتاب والسنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهؤلاء لم يعيروهم أي اهتمام!!.

٤- أن الواقفة إذا وقفوا في مسألة القرآن؛ فلا يكون بينهم وبين الجهمية الخلقية نزاع، قال أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الجواز: «إذا كنا نقول: القرآن كلام الله، لا نقول مخلوقا، ولا غير مخلوق؛ فليس بيننا وبين هؤلاء الجهمية خلاف ـ فذكر قوله لأحمد ـ فقال: جزى الله أبا يعقوب خيرا»[(٣)].

٥- يلزم الواقفة أنهم لا يعلمون: إن كان الله يتكلم أو لا يتكلم، قال داود

---

(١) السنة للخلال ٥/ ١٣٤.

(٢) الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص٦٠-٦١، بشيء من التصرف.

(٣) السنة للخلال ٥/ ١٣٦.

ابن رُشَيْد[١]: «من زعم أن القرآن كلام الله، ولا يقول مخلوق، ولا غير مخلوق؛ فهذا يزعم أن الله لم يتكلم، ولا يتكلم!!»[٢].

٦- يلزمهم أن يقولوا: بأن أسماء الله ﷻ لا مخلوقة، ولا غير مخلوقة!!؛ وذلك لأن أسماء الله ﷻ في القرآن؛ فإن كانوا شاكين في القرآن، فإن الشك لازم لهم في أسماء الله، وإن قالوا: إن أسماء الله غير مخلوقة، لزمهم أن يقولوا بأن القرآن غير مخلوق[٣].

وبهذا يظهر أن التوقف في مسألة القرآن الكريم بعد فشو البدع والأقوال الشنيعة لا يحسن، وأن ذلك مذموم، مهما كان الدافع إليه، ومن أسباب التوقف في مسألة القرآن الكريم أن الواقفة رأوا أن القارئ يقرأ القرآن، والكاتب يكتبه، فازدادوا حيرة، إذ لم يعرفوا الفرق بين القراءة والمقروء، واللفظ والملفوظ، والكتابة والمكتوب، وهذه هي المشهورة بمسألة اللفظ، وأبينه في المبحث التالي.

---

(١) هو الثقة الفاضل: داود بن رشيد (بالتصغير) الهاشمي مولاهم، الخوارزمي، نزيل بغداد، روى له أصحاب الكتب إلا الترمذي، مات سنة ٢٣٩هـ. انظر: التقريب ص ١٣٨.

(٢) السنة للخلال ٥/ ١٣٧، وانظر الحجة في بيان المحجة ١/ ٤٢٤.

(٣) انظر: السنة للخلال ٥/ ١٣٨-١٣٩.

المبحث الثامن: ابتداء مسألة اللفظ في القرآن

أولا: معنى هذا القول.

ضل في مسألة اللفظ فرقتان: **فرقة تسمى باللفظية النافية**، وهي التي تقول: إن ألفاظنا بالقرآن ليست قديمة، وأن القراءة ليست قديمة بل هي مخلوقة، وإن كان القرآن غير مخلوق.

ومنهم من تذرع بهذا إلى أن القرآن مخلوق مطلقا.

فقول هؤلاء هو: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، لكن اللفظ بالقرآن مخلوق(١)، وهذا حقيقته خطوة إلى الجهمية، إذ يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق، والقرآن بلفظي مخلوق!!.

وفرقة تسمى باللفظية المثبتة، وهي التي تقول: إن ألفاظنا بالقرآن قديمة غير مخلوقة، وأن القراءة غير مخلوقة، وما دام أن القرآن كلام الله، وهو غير مخلوق، فكذلك قراءتنا غير مخلوقة!!، وهؤلاء نظروا إلى أن القرآن غير مخلوق، فتلاوتنا لا تكون مخلوقة.

ثانيا: سبب ظهور هذا القول.

ومن أسباب ظهور اللفظية، أن الأمر لما اختلط على بعض الناس، ظن أن القول باللفظ هو الصواب، فابتدع هذا متبعا فيها الجهمية، وكانت تقول: «كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق!!، وأما القرآن الذي أنزله على رسوله، وتلاه جبريل، ومحمد ﷺ، والمؤمنون فهو مخلوق، وهؤلاء هم اللفظية»(٢).

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٣٥، المدخل لابن بدران ص ٥٤.

(٢) المجموع ١٢/ ٣٥٩، انظر: الجواب الصحيح ٤/ ٣٤٢.

وبإزاء هؤلاء بالغ أقوام في إثبات أن القرآن كلام الله حتى قالوا: إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة[١].

ثم صار هذا التفرق موروثا في أتباع الطائفتين، اللفظية النافية القائلة بأن الألفاظ ليست قديمة، واللفظية المثبتة القائلين بأن ألفاظنا قديمة[٢].

وكلتا الفرقتين ضلتا بسبب عدم التفريق بين اللفظ والملفوظ، والقراءة والمقروء، والكتابة والمكتوب، والتلاوة والمتلو، فمن نظر إلى فعل العبد وكسبه: من تلفظ وحركات، وصوت ونسمات، وكتابة وقراءات، ظن أن هذا يعني أن الملفوظ، المتلو، المقروء، المكتوب مخلوق، ومن نظر إلى الملفوظ، المقروء، المكتوب، المتلو ظن أن هذا يعني أن اللفظ والتلاوة والقراءة والكتابة غير مخلوقة، فالضلال نشأ بسبب عدم التفريق بين فعل العبد وكلام الرب، بين ما يكون واسطة في الكلام، وبين الكلام نفسه، وما كان السبب فيه العبد من حسن تلاوة، أو جمال خط، فهذا معلوم أنه فعل العبد، والعبد وفعله مخلوق، وما لم يكن للعبد فيه من تصرف، فلا يختلف فيه سواء كان مسموعا أو مكتوبا، أو مقروءا فهذا كلام الله، ولا يختلف باختلاف القراء والكتاب، وما كان من صفة الخالق فإنه لا يكون مخلوقا كيف تصرف.

فأصل سبب النزاع في هذه المسألة هل الكلام هو اللفظ والمعنى، أم المعنى دون اللفظ، وأيضا عدم التمييز بين صوت العبد، وصوت الرب؛ بل يجعل هذا عين هذا؛ فينفيهما جميعا، أو يثبتهما جميعا؛ فإذا نفى الحرف والصوت، نفى أن يكون القرآن العربي كلام الله ﷻ، وأن يكون مناديا لعباده بصوته، ونفى أن يكون القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله، وإن أثبت الصوت والحرف، ولم يتنبه إلى أن الكلام قد يكون بصوت المبلغ ظن أن الصوت المسموع هو صوت الرب، فنشأ هذا الخلاف العظيم[٣].

---

(١) انظر: المجموع ٨/ ٤٢٣، ١٢/ ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) الدرء ١/ ٢٦٦ وما بعدها.

(٣) انظر: الدرء ١/ ٢٥٩، المجموع ١٢/ ٥٨٥.

ثالثا: القائلون بهذا القول.

أول من ابتدع مسألة اللفظ بالقرآن وأنه مخلوق، هو حسين الكرابيسي، وبدعه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[(١)].

وقال به آخرون من الجهمية متسترين خوفا من الفضيحة، ودفعا للشناعة عن نفوسهم القبيحة.

وعلى رأس القائلين بأن ألفاظ القرآن الكريم مخلوقة الأشعريةُ[(٢)]؛ لأنهم قالوا: إن الكلام النفسي قديم، وأما ما يدل عليه من العبارات فهي مخلوقة، فالقرآن الذي هو عند المسلمين، وفي مصاحفهم وبألفاظهم وبأصواتهم مخلوق!![(٣)]، فهم قد يسمون القرآن الكريم كلام الله ـ لكن على ضوء ما سبق ـ، يقول الباقلاني الأشعري: «الكلام الحقيقي هو المعنى القائم بالنفس، دون غيره، وإنما الغير دليل على الكلام، لا أنه نفس الكلام الحقيقي!!»[(٤)].

وممن يرى أن التلاوة غير مخلوقة أبو يعلى الفراء[(٥)]، ومن تبعه، وقال في مسألة اللفظ بعض المنتسبين إلى السنة[(٦)]، ممن لهم فضل ودين وعلم[(٧)]، فوقعوا في بعض المحاذير، لكن هؤلاء إنما قالوا: التلاوة غير مخلوقة، ردا على المتسترين من اللفظية الجهمية، وصونا للقرآن، وغلقا لباب يدخل منه المبتدعة، ولم يقصدوا بأن صوت

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٧٠، الفتح ١٣/ .

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٣٦٤.

(٣) ونقل هذا عنهم قوام السنة في الحجة في بيان المحجة ١/ ٣١٧، وانظر: الدرء ١/ ٢٦٨.

(٤) الإنصاف ص ١٠٧.

(٥) انظر: المعتمد في أصول الدين ص ٨٨، ١٩٢، ٢٦٧. **وأبو يعلى الفراء هو القاضي**: محمد بن الحسين بن محمد ابن خلف بن أحمد الفراء، فقيه حنبلي، ذو فنون، متبحر في العلوم، مؤلفاته كثيرة، منها: المعتمد في أصول الدين، الرد على الأشعرية، والرد على الباطنية، وغيرها، توفي سنة ٤٥٨هـ. انظر: طبقات الحنابلة ٢/ ١٦٧.

(٦) وقد مضى تفصيل قولهم في الفصل الأول من الباب الأول.

(٧) انظر: المجموع ١٢/ ٣٣٣.

العبد غير مخلوق، أو أن فعله غير مخلوق[١].

ونقل "مسألة اللفظ" عن بعض الأشاعرة بصورة أخرى، حيث قالوا: الذي يُسمع شيئان: « أحدهما: قراءة القارئ، وهي محدثة عندهم، والثاني: كلام الله القديم »[٢].

رابعا: شبهاتهم والرد عليها.

أ- ومن شبه اللفظية الخلقية النافية؛ أنهم قالوا: إن أفعالنا وأصواتنا مخلوقة، ونحن نقرأ القرآن بحركاتنا وأصواتنا، فهذا القرآن الموجود المقروء مخلوق، وليس بقديم[٣].

والجواب عن هذه من أوجه:

١- **أن إنكار الأئمة على اللفظية معلوم**، وهذا وحده دليل على أن هذا قول باطل، ودفعه أولى من دفع الصائل، قال الإمام الآجري[٤] رحمه الله: « احذروا رحمكم الله تعالى هؤلاء الذين يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق، هذا عند أحمد بن حنبل، ومن كان على طريقته منكر عظيم، وقائل هذا مبتدع، يُجتنب، ولا يكلم، ولا يجالس، ويحذر منه الناس »[٥].

٢- **أن اللفظ مصدر**، والمصدر إذا أطلق يراد به المقروء المتلو، ويراد به القراءة والتلاوة الذي هو فعل العبد، **فالأول**: كلام الله، وكلامه ليس بمخلوق، **والثاني**: فعل العبد وصوته، وهو مخلوق وما كان مضافا إليه فهو مخلوق، ولا يضاف إلى العبد في

---

(١) وممن نسب إلى اللفظية المثبتة أبو حاتم الرازي ومحمد بن داود المصيصي، ولقد ألف ابن أبي حاتم كتابه الرد على الجهمية، وذكر على وجه الخصوص اللفظية النافية، وبين أنهم جهمية، وذلك لأن القائلين بأن لفظي مخلوق: ممن عاصرهم وسمع كلامهم يريدون هذا، لا أن الإمام ومن نحا نحوه كان يقول: بأن فعل العبد قديم، ولم يقصد الإمام أبو حاتم، ولا غيره من الأئمة أن أفعال العباد غير مخلوقة. انظر: الدرء ١/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) الحجة في بيان المحجة لقوام السنة ١/ ٢٨٥.

(٣) انظر: الدرء ١/ ٢٦٠.

(٤) هو المحدث الإمام، شيخ الحرم الشريف: محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي الآجري، له تآليف نافعة، والسنة فيها ظاهرة، ومنها: كتاب الشريعة، توفي سنة ٣٦٠هـ. انظر: السير١٦/ ١٣٣.

(٥) انظر: الشريعة للآجري ١/ ٢٣٥، الحجة في بيان المحجة لقوام السنة ١/ ٣٧٠ وما بعدها فإنه ذكر خلقا كثيرين ممن بدعوا اللفظية، وانظر: الدرء ١/ ٢٦٠ وما بعدها، المجموع ١٢/ ٢٠٦، ٣٥٩، وانظر: ما سبق في الفصل الأول من الباب الأول.

حالة القراءة إلا الصوت والأداء، ولا يضاف إليه الكلام، فلا يقال: إذا قرأ القرآن، إن هذا كلامه، وإنما يقال: فلان حسن الصوت، حسن الأداء، والفرق بين القراءة والمقروء معلوم بديهة، فالخلط بينهما يورث الانحراف، فمن فصل من الأئمة الذين قالوا بأن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة يجب أن يفهم على أنهم أرادوا فعل العبد وصوته، لا القرآن الذي هو كلام الله ﷻ، وهو المتلو، المسموع، المقروء، والإشارة من المسلمين يكون إلى المسموع من كلام الله، أو المكتوب من كلام الله، فليست الإشارة إلا إلى ما هو من حيث إنّه كلام، لا إلى ما امتاز به كل قارئ عن قارئ، وكل كاتب عن كاتب من حيث المهارة في القراءة، أو الكتابة، فهذا كله متحد من حيث كونه كلام الله، والاختلاف إنما هو من حيث جهة أصوات القراء، فالمشار إليه باعتبار الحقيقة المتحدة، لا باعتبار ما اختلف فيه أحوال المخلوقين[(١)].

٣- أن من قال: إن ألفاظنا بالقرآن أو تلاوتنا وقراءتنا مخلوقة مطلقا من دون أن يبين التفصيل بين القراءة والمقروء، قد قال بمؤدى قول الجهمية؛ فإن «مقتضى كلامه أن الله لم يتكلم بالقرآن الذي أنزله، وأن القرآن المنـزل ليس هو كلام الله، وأن يكون جبريل نزل بمخلوق، وليس هو كلام الله، والمسلمون يقرؤون كلاما مخلوقا ليس هو كلام الله، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله تعالى، وإن كان مسموعا من المبلغ عنه؛ فإن الكلام قد سمع من المتكلم به، كما سمع موسى بلا واسطة، وهذا سماع مطلق كما يرى الشيء رؤية مطلقة، وقد يسمعه من المبلغ عنه؛ فيكون قد سمعه سماعا مقيدا، كما يرى الشيء في الماء والمرآة رؤية مقيدة لا مطلقة، أو كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[التوبة:٦] كان معلوما عند جميع من خوطب بالقرآن أنه يسمع سماعا مقيدا من المبلغ ليس المراد به أنه يسمع من الله»[(٢)].

---

(١) انظر: الدرء ١/ ٢٦٣، المجموع ١٢/ ٢٠١، ٥٤٠، ١٧/ ٣٤-٣٥.

(٢) المجموع ٧/ ٦٥٦، وانظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٢٨٤، و المجموع ١٢/ ٥٤١.

٤- أن السبب في عدم التفريق بين فعل العبد وصوته، وبين كلام الرب هو الذي أوقع هؤلاء في هذه البدعة النكراء؛ « فإنه إذا قيل سمعت كلام زيد، أو قيل هذا كلام زيد؛ فإن هذا يقال: على كلامه الذي تكلم به بلفظه ومعناه، سواء كان مسموعا منه أو من المبلغ عنه، مع العلم بالفرق بين الحالين، وأنه إذا سمع منه سمع بصوته، وإذا سمع من غيره سمع بصوت ذلك المبلغ، لا بصوت المتكلم، وإن كان اللفظ لفظ المتكلم »[(١)]، والمبتدعة لما لم يفرقوا بين أداء المبلغين وما يبلغون أصبحوا يخلطون، ويقولون(هذا القرآن المنزل المسموع هو تلاوة القرآن، وقراءته، وتلاوة القرآن مخلوقة، وقراءة القرآن مخلوقة، ويقولون: تلاوتنا للقرآن مخلوقة، وقراءتنا له مخلوقة، ويُدخلون في ذلك نفس الكلام المسموع، ويقولون: لفظنا بالقرآن مخلوق، ويدخلون في ذلك القرآن الملفوظ، المتلو المسموع »[(٢)].

٥- ظنوا أن القرآن لفظ مشترك بين كلام الله ﷻ، وبين فعل العبد من القراءة فاطردوا القاعدة من أن ما كان من العبد يكون حادثا مخلوقا، فالمسموع مخلوق!![(٣)] ومعلوم أن: القراءة غير المقروء، والقراءة حادثة، والمقروء قديم غير مخلوق، كما أنا إذا ذكرنا الله ﷻ كان الذكر الذي هو فعل العبد حادثا، والمذكور المتلو قديما غير مخلوق[(٤)].

٦- أن القول بأن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، يلزم منه أن يكون هناك قرآنان، قرآن مخلوق وهو هذا الذي يقرؤه المسلمون!!، وقرآن غير مخلوق!!، وهذا واضح البطلان؛ فإن القرآن الموجود في مصاحف المسلمين هو الموجود في السماء الدنيا، وهو الموجود في اللوح المحفوظ، وهو الذي تكلم الله ﷻ به، وسمعه جبريل عليه السلام، وأُنزل به ـ لا بآخر ـ على محمد ﷺ.

---

(١) المجموع ٧/ ٦٥٧، وانظر: الدرء ١/ ٢٥٩.

(٢) الدرء ١/ ٢٦٠.

(٣) انظر: طبقات الشافعية ٨/ ٢٢٦، نقلا عن العز بن عبد السلام.

(٤) طبقات الشافعية ٨/ ٢٢٦من كلام العز ابن عبد السلام، بتصرف، وفي بعض كلامه شيء من الباطل، وقد أوردته مع الرد عليه في المبحث الرابع من هذا الفصل.

٧- الأدلة قد تواترت في أن هذا الموجود هو القرآن الكريم، كلام الله ﷻ، حيثما تصرف، ولم يأت دليل واحد يبين أو يشير إلى أن المسموع مخلوق، ومن هذه الأدلة[١]: قوله ﷻ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ ﴾[مريم:٩٧] والذي يسره هو الذي نتلوه ونقرؤه في مصاحف المسلمين، وقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤] والمسموع المنصت له هو القرآن المتلو، وقال مخبرا عن الوحيد: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾[المدثر:٢٤-٢٥] فتوعده الله بالنار لأنه قال عن المسموع من النبي ﷺ من كلام رب العالمين، إنه قول البشر[٢]، وليس قول خالق البشر، ولو كان المتلو غير القرآن، وغير كلام الرحمن، لما توعدهم الله بالنيران، وقال ﷻ: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٧٥] فأثبت أنهم إنما يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه[٣] وأما الأحاديث في ذلك فكثيرة منها: حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [**تعاهدوا القرآن، فهو أشد تفصيا من صدور الرجال، من النعم من عقلها**][٤] فأثبت في صدور الرجال قرآنا، وهو كلام رب العالمين، محفوظ في صدورهم، وقال ﷺ: [**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**][٥].

٨- أن الكلام يكون لمن قاله مبتدئا، ولا يكون كلام من بلغه مؤديا، فمن سمع حديث رسول الله ﷺ من عالم أو محدث؛ وهو عالم بالحديث؛ فإنه لا يشك بأن المسموع هو كلام النبي ﷺ، وإن بلغه هذا المبلِّغ، وإن قال المبلغ هذا كلامي، لكذبه الناس[٦]، فكيف تقولون: القرآن بألفاظنا مخلوقة، ثم لا تريدون أن يكذبكم الناس!!.

(١) وقد ساق الآيات الكثيرة الإمام الحجة قوام السنة الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٥٨ وما بعدها.

(٢) انظر: الدرء ١/ ٢٥٨.

(٣) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٥٨.

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، الباب/٦٦ ح(٥٠٣٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، الباب/ ٦، ح(٢٢٩).

(٥) رواه الترمذي؛ كتاب فضائل القرآن، ح(٢٩١٣)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) انظر: الدرء ١/ ٢٥٧، ١٢/ ٥٨٤.

ب- وأما شبه اللفظية غير الخلقية فإن بعضهم قالوا بإزاء أولئك: إن القرآن غير مخلوق، فحركاتنا وأصواتنا حين القراءة غير مخلوقة!!، وبعضهم توقف فيه[(١)].

والجواب عن هذا من عدة أوجه[(٢)].

١- أن اختلاف أصحاب هذا القول في المسموع من الصوت هو وحده دليل على بطلانهم في قولهم، فمنهم من يقول: «إن صوت الرب حل في العبد، ومنهم من يقول: ظهر فيه، ولم يحل فيه، ومنهم من يقول: لا أقول ظهر، ولا حل، ومنهم من يقول: الصوت المسموع غير مخلوق، أو قديم، ومنهم من يقول: يُسمع منه صوتان: مخلوق، وغير مخلوق، ومن القائلين بأنه مسموع من الله من يقول: بأنه يسمع المعنى القديم القائم بذات الرب مع سماع الصوت المحدث!!»[(٣)].

٢- أن هذا القول مبتدع لم يقل به أحد من علماء الإسلام، بل أجمع المسلمون على أن العبد وفعله مخلوقان، فكيف يكون صوته صوت الرب، أو أداؤه وفعله أداء للرب ﷻ، فهذه الأقوال «كلها مبتدعة مخترعة، لم يقل السلف شيئا منها؛ وكلها باطلة شرعا وعقلا، ولكن ألجأ أصحابها إليها اشتراك في الألفاظ؛ واشتباه في المعاني»[(٤)]، والإمام أحمد وهو من أشد الناس نكيرا ـ في الحق ـ على اللفظية النافية، أنكر على اللفظية المثبتة، فدل على أن هذا ليس عليه أحد من السلف، بهذا الاعتبار، وقد ألف أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري كتابه خلق أفعال العباد، للرد على اللفظية المثبتة، التي تقول: بأن أصوات العباد وألفاظهم بالقرآن قديمة غير مخلوقة، وكذلك الإمام ابن قتيبة الدينوري ألف كتاب الاختلاف في اللفظ في بيان الرد على اللفظية النافية، والمثبتة[(٥)].

---

(١) انظر: الدرء ١/ ٢٦٢.

(٢) وقد مضى بالتفصيل الرد على من قال: إن الأصوات المسموعة هي صوت الرب!!، في هذا الفصل.

(٣) المجموع ٧/ ٦٥٧.

(٤) المجموع ٧/ ٦٥٧، وانظر: المجموع ٦/ ٥٢٦، ٨/ ٤١٥.

(٥) انظر: الدرء ١/ ٢٦١، المجموع ١٢/ ٣٢٤-٣٢٥، العيون والأثر ص ٩٦-٩٨.

٣- أصوات القراء، ونغماتهم، هي أكسابهم، والقراءة هي التي تستطاب من قارئ، وتستبشع من آخر، وهي الملحونة، والقويمة المستقيمة، ولا يخطر لمن لازم الإنصاف أن الأصوات التي يبح لها حلقه، وتنتفخ على مستقر العادة منها أوداجه، ويقع على حسب الإيثار والاختيار، محرفا، وقويما، وجهوريا، وخفيا، نفس كلام الله تعالى، وأما المقروء فهو كلام الله ﷻ، ولا يكون كلام القارئ، ولا يقوم به، بل هو كلام الله ﷻ الذي أنزله[1].

٤- أن من بلغ حديثا عن رسول الله ﷺ ثم قال هذا الحديث حديث رسول الله ﷺ وبصوته، ما قبل منه أحد لعلمهم بأن الصوت المؤدى به الكلام هو صوته نفسه، لا صوت المتكلم المبتدئ للكلام، فكيف يقال: إن المسموع من القراء إنما يكون مسموعا بصوت الرب ﷻ، سبحانك هذا بهتان عظيم[2].

٥- أن من جعل صفة المخلوق المحدث كصفة الخالق البارئ فقد ضاهى النصارى[3].

ت- وقالت اللفظية المثبتة: إن الله أخبر أن المسموع هو كلام الله ﷻ، ونحن إنما نسمع القرآن من أصوات العباد، فدل على أن المسموع كله بالصوت والفعل إنما هو من الرب ﷻ !!![4].

والجواب عن هذا بما يأتي:

١- أن المسموع هو كلام الله ﷻ، ولا شك في هذا، ولكن الصوت صوت العبد، وأنت إذا أديت كلام غيرك ونقلته، لا تقول: إن الصوت صوته، فلم قلت: إذا بلغت كلام الله يكون المسموع والصوت كلام الله!!!.

---

(١) انظر: الإرشاد للجويني ص١٢٧ - ١٢٨، المجموع ١٢/ ١٦٩.
(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٦٣.
(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٣٣٢.
(٤) انظر: المجموع ١٢/ ٢٦٣-٢٦٤.

٢- أن الله ﷻ فرق في كتابه بين سماع بدون واسطة، وسماع بواسطة، فأخبر أن موسى سمع كلامه بلا واسطة، ولا ريب أنه سمع صوت الرب حين ناداه، وحين ناجاه، وأما الناس فلم يسمعوا كلام الله من الله، وإنما سمعوه من المبلغين، فافترقا.

٣- أن الله ﷻ لما ذكر مراتب الوحي، ذكرها على أنها على مراتب، للدلالة على أن المسموع منه ليس كالمسموع من المبلغ الرسول، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[الشورى:٥١]، ففرق بين تكليمه من وراء حجاب ـ كما كلم موسى ـ، وبين تكليمه بإرساله رسولا يوحي بإذنه، الأول بلا واسطة، والثاني بواسطة(١).

ومما يدل على فساد قول اللفظية النافية أمور، وهي في نفسها تدل على بطلان هذا المذهب، ومنها:

١- أن هذا القرآن الموجود ليس هو كلام الله ﷻ، وهذا هو عين قول الجهمية والمعتزلة؛ فإن النزاع معهم في القرآن المنـزل أولا، ولهذا كان إنكار الأئمة على اللفظية النافية أشد؛ لأن قولهم يؤدي لا محالة إلى التعطيل والنفي(٢).

٢- يلزمهم أن هناك قرآنا لا نعلمه غير مخلوق، وهذا يعني الرجوع إلى قول الكلابية ومن تبعهم من أن الكلام النفسي هو كلام الله القديم، وأما المنزل فهو مخلوق محدث؟!.

٣- أن قولهم هذا يعني أن الكلام متعلق بالمعنى دون اللفظ، ومعلوم أن الكلام في الكتاب والسنة، وكلام السلف والأئمة، بل والأمم: عربهم وعجمهم، لا يطلق إلا على اللفظ والمعنى(٣)، فليس اللفظ وحده هو الكلام، ولهذا عد الهذيان هذيانا، ولم يُعَدَّ كلاما، وليس المعنى دون اللفظ كلام، وإلا عدت التفاسير قرآنا؛ لأنها معاني كلام الله ﷻ.

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٥٤٢.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٤٣٢.

(٣) انظر: المجموع ١٢/ ٤٥٦-٤٥٧.

٤- **أما اللفظية المثبتة**؛ فيلزمهم أن يكون صوت العبد وفعله غير مخلوقَين، وهذا معلوم البطلان، ويؤدي إلى قدم المخلوقين.

٥- أن القراءة المسموعة من القراء بواسطة، كالمسموعة من الله بلا واسطة!!.

٦- أنه لا فرق حينئذ بين موسى كليم الله الذي سمع كلام الله بلا واسطة، وبين العباد الذين يسمعون كلام الله من القراء؛ إذا كان كل واحد يسمعه بصوت الرب ﷻ.

وبهذا نعلم أن عقيدة أهل السنة والجماعة وسط في كل شيء، ومن ذلك توسطهم في "مسألة القرآن"، وأنهم وسط في مسألة اللفظ، فهم لا يقولون بكلام الفرقتين السابقتين، وإنما تطلب التفصيل، ثم تبين المراد بأحسن سبيل، ويصيرون على النهج القويم، فهم يقولون: إذا كان اللفظ المراد به فعل العبد؛ فهو مخلوق، وفعله مخلوق، وإذا كان المراد باللفظ كلام الرب، فهو غير مخلوق، وكلامه لا يكون مخلوقا، وبهذا التفصيل يتضح للسالك السبيل، والحمد لله رب العالمين[(١)].

وأما الفرقتان في مسألة اللفظ فقد علم الناس بالضرورة من دين الإسلام ضلالهما، وبالعقل فسادهما؛ فإنه إذا رجع إلى عقله علم أن كلام زيد يُسمع منه مباشرة بصوت نفسه، ويُسمع بواسطة، بصوت المبلغ عنه، ولهذا قال أهل العلم الراسخون في كلام الله ﷻ المسموع بواسطة المبلغين: الكلام كلام الباري، والصوت صوت القاري[(٢)].

ولما اختلف المخالفون في حقيقة القرآن الكريم، وهل هو كلام الله حقيقة، أم أنه مخلوق، وهل هو بمشيئته واختياره، أم لا، كما سبق، اختلفوا كذلك في معنى نزول القرآن الكريم، وهذا ما أبينه في الفصل الآتي.

(١) انظر: الدرء ١/ ٢٦٤-٢٦٥، شرح الواسطية للفوزان ص ١٢٤.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٤٠٨-٤٠٩.

الفصل الثاني

قول المخالفين في نزول القرآن على نبينا محمد ﷺ

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في نـزول القرآن، وفيه مطلبان.

المبحث الثاني: قول بعض الرافضة في نـزول القرآن الكريم.

المبحث الأول: في نـزول القرآن

المطلب الأول: نفيهم سماع جبريل القرآن من رب العزة.

سبق أن بينت عقيدة السلف في سماع جبريل القرآن الكريم من رب العزة ﷻ مع ذكر الأدلة مستوفاة(١)، وأما المخالفون للسلف فهم على أصنافهم: سواء كانوا فلاسفة بحتة، أو فلاسفة متصوفة، أو متكلمين؛ فإنهم لا يثبتون لجبريل ﷺ سماعا من الله ﷻ، وذلك بناء على عقائدهم الفاسدة في كون الرب ﷻ لا يتكلم، بكلام قائم به، متعلق بمشيئته واختياره، وقدرته، وسأسوق أقوال المخالفين، وإن في ذكرها غنى عن الرد عليها، إلا أني أحاول الرد عليها حتى لا تبقى شبهة بعد الإيراد، والله أسأل العون والإمداد.

أما الصوفية الحلولية المتفلسفة، والمتفلسفة غير الحلولية، فقولهم في الإنزال من أشنع الأقوال، وإليك فضائح أصحاب الأحوال، والمدعين الحكمة في المقال، قال ابن عربي الطائي: « ولما كان الواو رفيعا عليا لهذا جعلناه البعل، وكان الهو بعلا!!، ولما كان الهي رفيعا من حيث الأثر،سفليا من أجل الكسر أعطيناه الياء، وجعلناه الأهل، **فصار الهاء بمنـزلة الرسالة، وصار الهو بمنـزلة جبريل ﷺ المرسول إليه!!، فظهرت الأحكام، والشرائع(٢)، والمقامات، والأسرار من هذا الالتحام المبارك السعيد!!!»**(٣)، وهذا يعني أن الشرائع كانت بسبب التلاحم بين الهاء والهو والهي، ويعنون بهذا اللهَ، والملَك، والمرسَل البشري!!! وليس هناك وحي حقيقي!!!.

---

(١) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول.

(٢)وهذا ينبئك أن القوم لا يفرقون بين الأديان، ولا يفرقون بين الشرك والتوحيد، إلا ما عرفوه من مشائخهم أو فنائهم وكشوفاتهم بزعمهم.

(٣) الياء لابن عربي ص١١.

ويؤكد هذا الفهم قوله: معلِّم العلم من جاء الكلام له من الإلـه بلا غَبَرٍ و لا غِيَرَ[(١)].

بل إن بعض الصوفية الغلاة يزعم أنه أفضل من محمد ﷺ إذ جاءه الوحي من العرش، وأما نحن فنأخذ من الله مباشرة!!!، يقول ابن عربي: «وإذا قال لك: استرح، فالخطاب من فوق العرش، فخذ عن الخالق، وعن الترجمان، وإذا قيل لك: بلغ ولا تعمل، فالخطاب من العرش لا من فوقه ولا من تحته»[(٢)].

ويزعم بعضهم أن هذا الخطاب يمكن أن يحصل بالاستعداد الروحي الوجودي، إذا صفا من كدر التوحيد ـ الذي هو إثبات إله حق، ومألوه بحق ـ كما يقوله ابن عربي: «**لكن عجزوا عن التوصل إليها لغلبة الفكر**»[(٣)].

ولهذا يصرحون بأنه يمكنهم معرفة آيات القرآن الكريم من غير تعلم، ويعنون بذلك أنه من طريق الفيض، كما يقول ابن عربي: «ثم إنه ينـزل عليك نجوما منك بكشف غطائك، وقد رأيت ذلك من نفسي في بدء أمري...، وسمعت ذلك عن جماعة من أهل طريقنا: أنهم يحفظون القرآن، وآيات منه من غير تعليم معلِّمٍ بالتعلم المعتاد، ولكن يجده في قلبه، ينطق بلغته العربية المكتوبة في المصاحف، وإن كان أعجميا، روينا عن أبي يزيد البسطامي... أنه ما مات حتى استظهر القرآن من غير تلقين ملقِّنٍ معتاد!!»[(٤)].

وهكذا يقول ابن رشد عن الفلاسفة المشائين، أساتذته في هذا الفن المهين، وهو يرفع عنهم شناعة ما قالوه من عدم علم الله بالجزئيات، نافيا ذلك بالتأويلات، ومقرا في نفس الوقت بأن بعض الغيوب يمكن أن تدرك عن طريق الفيض، ولو كان مناميا:

---

(١) الكتب: لابن عربي ص ٤٣.

(٢) الشاهد لابن عربي ص٥، وانظر: التراجم لابن عربي ص٢، وأكد شيخ الإسلام ﷺ أنهم يقولون: بأنهم أفضل من كليم الله موسى؛ لأنه سمع محجوبا، وهم يسمعون بلا حجاب!!. انظر: المجموع ١٢/ ٣٩٩.

(٣) التراجم لابن عربي ص ١.

(٤) الإسفار عن نتائج الأسفار لابن عربي الطائي ص١٦، وانظر للرد عليه ما كتبه سميه في الاسم ابن العربي (المعرف) المالكي المعافري، حيث بين أن القلب مخلوق ولا يعلم شيئا، وإنما يكون التعلم بالعلم، ويكون هذا التعلم بحسب سنن الله الكونية، واتباع الموروثات الشرعية، لا بحسب الآراء الفلسفية، والكشوفات الصوفية. انظر: العواصم من القواصم ص ٤١-٤٢.

« وهم يرون أن الرؤيا الصادقة تتضمن الإنذارات بالجزئيات الحادثة في الزمان المستقبل، وأن ذلك العلم المنذر يحصل للإنسان في النوم من قبل العلم الأزلي المدبر للكل، والمستولي عليه »[(١)] وعلى هذا فالوحي فيض منامي!!، ولكن إذا صح الخيال، وقد يكون في غير المنام عندهم إذا صفا النفس من الأكدار!!، ويقول مادحا أساتذته الفلاسفة: « وهم يرون أنه ـ أي العلم ـ سبب **الإنذارات في المنامات، والوحي!!** وغير **ذلك من أنواع الإلهامات**»[(٢)].

وهذا يتضمن في طياته أمرين:

الأول: أن الوحي هو العلم، وهذا صريح في نفي كلام الله ﷻ.

والثاني: أن الوحي يحصل كالمنامات، ومعلوم أن المنامات أمورها خيالية، فكذلك الوحي أمر خيالي، كما هو حال الفلاسفة الذين يرون أن الشرع أمره خيالي للجمهور.

ويصرح الفيلسوف ابن رشد: أن الكلام الذي يكون من الله عن طريق الملك هو مخلوق، فيقول: « بل قد يكون بواسطة ملك، وقد يكون وحيا أي بغير واسطة لفظ يخلق... »[(٣)].

ويذكر الغزالي أن: « صاحب الرياضة قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى ابن عمران عليه السلام »[(٤)].

بل إن الغزالي، وابن سينا من الفلاسفة، وأمثالهما يرون: أن ما يحصل في القلوب من العلم للأنبياء، وغيرهم؛ فإنما هو من العقل الفعال!!![(٥)]، إذاً لا ملائكة، ولا وحي[(٦)]، وإنما هو تخيلات، وتصورات، وكل ذلك من الأفلاك التي هي جمادات!!!.

(١) انظر: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ص ٢٢.

(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ص ٤٢، و انظر: الرد على المنطقيين ص ٤٧٥.

(٣) مناهج الأدلة لابن رشد ص ٧٢.

(٤) الرد على المنطقيين ص٥١١، نقلا عن كتابيه : مشكاة الأنوار، وكيمياء السعادة، انظر: المجموع ١٠/ ٣٩٨.

(٥) انظر: المجموع ١٠/ ٣٩٨.

(٦) انظر: الصفدية ١/ ٢٠١.

وعلى هذا يكون الملَك ـ إن أثبتوه ـ عند هؤلاء الفلاسفة لم يسمع القرآن من رب العزة، وإنما هو سمع كلاما مخلوقا لله فأنزله، أو أنه انطبع في نفسه الكلام الموحى فأنزله!!!، أو أن الملَك أخذ من اللوح المحفوظ، وقد يسمونه النفس الناطقة!!، أو النفس الفلكية!! كما يقول أبو حامد الغزالي[1].

وبعد نقل هذا الكلام يتجلى لك أن القوم لا يرون اختصاص النـزول بالأنبياء، ويرون أنه عام لكل الأصفياء!!، ولهذا يقولون: بأن هذا من النبي تخييل!![2] وهو للجمهور من المسلمين تسيير!!، ولمن حجب عن التوحيد ـ الذي هو الحلول والوحدة ـ تمثيل!!.

ويزعم بعض الفلاسفة منهم أنه لا ملائكة[3]، وأن المراد بذكرهم النفوس، فكيف يكون هناك وحي، وهذا يدل على نفيهم لسماع جبريل القرآن من رب العزة ﷻ، وهذا يكفيهم عارا، لأن «نزول الوحي مما يتوقف على وجود الملك، وإلا فالنبوة والوحي أمر خيالي!! من تجسم العقل الفعال، والتكلم معه بحسب الخيال، كما زعموا»[4] ويقولون: «ملائكة الله اسم لما يتشكل في نفسه ـ أي في نفس الرسول البشري ـ من الصور النورانية، وقد يقولون: إن جبريل هو "العقل الفعال"!!، أو هو ما يتمثل في نفسه من الصور الخيالية كما يراه النائم»[5].

وهذا معلوم بطلانه، ظاهر ضلاله، إذ الأديان السماوية كلها على أن الأنبياء يوحى إليهم، وأن مِن الرسل ـ ملائكة وإنسا ـ مَن سمع كلام الرب منه ﷻ، فنفيه نفي للشرع المتين، وإبطاله إبطال للدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

---

(١) انظر: الرد على المنطقيين ص٤٧٤.

(٢) انظر: الصفدية ١/ ٢٠٠.

(٣) انظر: الرد على المنطقيين ص٤٨٦.

(٤) الدر النضيد لابن الحفيد التفتازاني ص٣٤٧.

(٥) المجموع ١٢/ ٣٥٢، وانظر: الصفدية ١/ ٢٠١.

والرد على دعواهم أنه لا ملائكة، وأن جبريل لم يسمع من أوجه:

١- أن هذا يعني أنه ليس في الخارج إله يوحي، ولا ملك يأتي بالوحي، وإنما كل ذلك في نظر هؤلاء الفلاسفة تخييل يتخيله الرسول في عقله، كما يخيل إلى النائم!!!، وزعموا أنهم يجمعون بين النبوة والفلسفة!![١]، وهذا صريح في نفي كلام الله ﷻ، ونفي نزول كلامه، مع كثرة الآيات المصرحة، والأحاديث المتواترة، والمسألة مستفيضة عند السلف، ومن تبعهم من الخلف[٢].

٢- أن العقل الفعال، لا حقيقة له إلا في خيال الفلاسفة، ومن زعم منهم أنه جبريل فإن هذه التسمية باطلة، ثم لو صحت التسمية؛ فهل جبريل ﷺ هو الذي يكون منه الوحي[٣]، وإن قيل إن العقل الفعال هو اللوح المحفوظ، فهل اللوح المحفوظ هو المتصرف في نفوس الأنبياء، وهو الموحي إليهم!![٤].

٣- أن العقل الفعال الذي تدعونه، أو المتخيلات في النفوس، لا يمكنه أن يتمثل بصورة دحية الكلبي[٥]، أو في صورة أعرابي، ولا في صورة ضيوف إبراهيم ولوط ـ عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وأيضا أخبر النبي ﷺ أنه رأى جبريل على صورته التي خلقه الله ﷻ عليها مرتين[٦]، وما في النفوس خيالات لا ترى رؤية بصرية[٧].

٤- أن على قولكم: إذا صفت الأكدار، يمكن إدراك خبر العزيز الغفار،

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٣٥٣، وقد ذكر من هؤلاء الفلاسفة والمتصوفة الفارابي وابن سينا، وعلى هذا الرأي القرامطة الباطنية، وغيرهم، وابن سبعين، وأمثاله، بل إن ابن رشد لم يؤلف كتابه "فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" إلا ليثبت أن لا فرق بين النبوة والفلسفة!!!.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ١٤.

(٣) انظر: المجموع ١٠/ ٣٩٨.

(٤) انظر: المجموع ١٠/ ٤٠٢.

(٥) ودحية هو الصحابي الجليل: دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، كان جميلا حسن الهيئة، وكان جبريل يأتي على صورته، نزل بالشام، مات في خلافة معاوية ﷺ. انظر: الإصابة ١/ ٤٧٣.

(٦) سبق ذكر ذلك في الفصل الثاني، من الباب الأول.

(٧) انظر: الصفدية ١/ ٢٠١.

فتكون النبوة مكتسبة!![١]، وهذا معلوم من الدين بالضرورة بطلانه، إذ النبوة اصطفاء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران:٣٣] وقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[الحج:٧٥] وقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾[الأنعام:١٢٤] فدلت هذه الآيات على أن النبوة اصطفاء، وعلى هذا أجمع السلف، وأئمتها وكثير من النظار[٢].

٥- أن القول بأنه ليس هناك إلا النفوس المتخيلة، أو الأفلاك التي فاضت بعضها عن بعض حتى العقل العاشر، ثم فاض هذا الكون كله من العقل العاشر، أو ما يسمى بالعقل الفعال، يعني إنكار الرسالات، وجحد النبوات، والوقوع في عقيدة الفلاسفة الدهرية[٣]، يقول ابن حزم ردا على من قال: إن الملائكة بمنزلة الهواء والرياح!!: «وهذا كذب، وقِحَة، وجنون؛ لأن الملائكة بنص القرآن، والسنن، وإجماع جميع من يقر بالملائكة من أهل الأديان المختلفة ـ لهم حقيقة ـ»[٤]. فكيف بمن يقول: إنهم الأفلاك، أو النفوس المتخيلة!!!.

٦- إذا لم تثبتوا ملكا يأتي بالوحي، إلا قوى النفس، كان قولكم هذا شرا من قول اليهود والنصارى المثبتين للوحي من السماء، وأنه بواسطة الملائكة الأصفياء، لكن هذا لا يستغرب ممن يدعي النظر العقلي المبني على الأقيسة الفاسدة، والكشف الخيالي المبني على الخيالات، والشطحات المهلكة[٥].

٧- ثم إن قول الفلاسفة بالفيض في مسألة القرآن، يلزم منه أنه لم ينزل وحي،

---

(١) انظر: الرد على المنطقيين ص٤٨٣.

(٢) انظر: منهاج السنة ٢/ ٤١٦.

(٣) انظر: كيد الشيطان لابن الجوزي ص٨٠-٨١، الصفدية ١/ ٢٠١.

(٤) الفصل في الملل والنحل ٥/ ٢٥.

(٥) انظر: منهاج السنة ٢/ ٤١٦، الرد على المنطقيين ص٤٨٢، الصفدية ١/ ٢٠١، المجموع ١٢/ ١٤.

وإنما حدث شيء في عقل النبي، ففاض عقل النبي بهذا الكلام الذي يسميه الجمهور بالوحي!!!، والله ﷻ يخبر أنه أنزل القرآن، وهؤلاء يقولون: لم ينـزل شيء!!، قال ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[الأنعام:١١٤] فصريح معنى الآية « فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي ﷺ من العقل الفعال، أو غيره، كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة »(١).

٨- قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن ما يفسرون به الملائكة، والوحي، مما يعلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه مناقض لما جاء به، فعلم أن ما يثبتونه من النبوة لا حقيقة له؛ وأن ادعاءهم أن علم الأنبياء إنما يحصل بالقياس المنطقي، وإما باتصال نفسه بالنفس الفلكية من أبطل الكلام...، وأن ما ذكروه من الطرق إنما يفيد علوما قليلة خسيسة، لا كثيرة ولا شريفة، وهذه مرتبة القوم؛ فإنهم من أخس الناس علما وعملا »(٢).

وأما المتكلمون من المخالفين للسلف: الذين أنكروا الصوت والحرف ـ كالكلابية ومن وافقهم ـ يلزم من قولهم نفي سماع جبريل لكلام رب العزة ﷻ، فإن نفي الحرف والصوت: « يلزم منه أن الله لم يُسمع أحدا من ملائكته ورسله كلامَه، بل ألهمهم إياه »(٣).

فالأشعرية والكلابية والسالمية، الذين يقولون: إن تكليم الله لعباده ليس إلا مجرد خلق إدراك للمتكلم، ليس هو أمرا منفصلا عن المستمع، أو الكلام ما كان في النفس، يلزم من قولهم أن جبريل لم يسمع كلام الرب ﷻ، وأن الله لم يتكلم مع موسى، ولا مع غيره(٤).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: « من قال: إن كلامه مخلوق، أو قال: إنه لا يتكلم

(١) المجموع ١٢/ ١٢٠.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٥٠٠.

(٣) الفتح ١٣/ ٤٦٣، وانظر: المجموع ١٢/ ١٢٠.

(٤) انظر: المجموع ١٢/ ١٦٦.

بمشيئته وقدرته، فهؤلاء في الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم، ولا أثبتوا له كلاما »[١].

وقال أبو نصر السجزي مخاطبا أشعريا: « قد علمنا جميعا أن حقيقة السماع لكلام الله منه على أصلكم محال، وليس ههنا مَن تتقيه، وتخشى تشنيعه، وإنما مذهبك أن الله يُفهم من شاء كلامَه بلطيفة منه، حتى يصير عالما متيقنا بأن الذي فهمه كلام الله »[٢] وأما أن يكون هناك سماع لكلام الله حقيقة؛ فلا يمكن إثباته على قول الأشاعرة ومن وافقهم.

وزعم ابن خلدون[٣] من متكلمي الأشاعرة المائلين إلى الفلسفة أن الرسل ينسلخون من بشريتهم فيصيرون في صورة ملَكية، ويسمعون كلامهم، ثم يعودون إلى حالتهم البشرية، وأن هذا هو الوحي!!!، فقال: « وفوق العالم البشري عالم روحاني، شهدت لنا به الآثار...، وهو عالم الملائكة، فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملَكية، لتصير بالفعل من جنس الملائكة!!، وقتا من الأوقات!! وفي لمحة من اللمحات!!، ثم تراجع بشريتها، وقد تلقت في عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر، وهذا هو معنى الوحي، وخطاب الملائكة، والأنبياء كلهم مفطورون عليه!! »[٤].

وهذا صريح في نفي إتيان جبريل له، وأنه إنما يدرك ذلك بما يحصل له اضطرارا، وجبلة، لا بما ينـزله الله بواسطة الملَك، وهو الرسول جبريل ﷺ إلى الرسول محمد ﷺ، وهذا القول قريب من أقوال الفلاسفة المتمسلمين.

وقد اختلف أهل الكلام في الذي سمعه جبريل من رب العزة ما هو، وهل

---

(١) المجموع ١٣/ ١٧٠.

(٢) الدرء ٢/ ٩٠.

(٣) هو المتكلم الأشعري المؤرخ: عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الأشبيلي المالكي المعروف بابن خلدون، أديب اجتماعي معروف، سافر إلى بلدان كثيرة، وأرخ عنها، وعرف طباعها، وكتب كثيرا، ومن ذلك: تاريخه المشهور، توفي سنة ٨٠٨هـ. انظر: معجم المؤلفين ٥/ ١٨٨.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٨٤٦.

سمع شيئا أم لا؟: «اختلف في كيفية وصوله إلى جبريل، ومنه له ﷺ في الأرض، فقال ابن العربي ـ الفقيه ـ: **إن جبريل عليه السلام فهم الكلام من العلو وأداه!!** إلى رسول الله ﷺ في الأرض، **وقيل**: إن جبريل نقل ذلك من اللوح المحفوظ، فنزل به على النبي ﷺ، **وقيل**: الملائكة المكرمون تلقنوه من رب العالمين في ليلة واحدة، ولقنته لجبريل في عشرين ليلة، ولقنه جبريل إلى النبي ﷺ في عشرين سنة على قدر الحاجة إليه بما سبق في علم الله، وهي النجوم التي أقسم الله بها، **وهذا كله بناء على أنه نزل بلفظه**، وأما على أنه نزل بالمعنى: فقيل إن **جبريل** عبر عنه للنبي ﷺ باللفظ الخاص[1]، وقيل: ألقى جبريل المعنى على قلب النبي ﷺ، والنبي ﷺ عبر عنه!!.

فتلخص أن النازل فيه خلاف، على قولين؛ قيل: اللفظ، وقيل: المعنى، وعلى الثاني: اختلف في المعبر، هل جبريل، أو النبي عليهما الصلاة والسلام»[2] وهذا يعني أنه على كلتا الحالتين لم يسمع جبريل كلام الرب الجليل!!!.

فانظر ـ حفظك الله ـ بعين الإنصاف، إذا كان قول أقرب الناس إلى أهل السنة من المخالفين للسلف هم الأشاعرة ومن تبعهم، وقولهم هو نفي سماع جبريل القرآن من رب العزة ﷻ، فكيف بغيرهم من المخالفين؟؟، وكيف بغيرهم من أهل البدع؟؟.

والآيات والسنة قد استفاض فيهما أن جبريل سمعه من الله ﷻ[3].

ومن شبههم: «أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر... جملة واحدة، فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل عليه السلام ينزل به نجما، نجما»[4] وهذا يدل على أنه لم يسمع من رب العزة كلاما!!!، وإنما أخذه من اللوح المحفوظ[5]،

---

(١) وقد صرح غير واحد من الأشاعرة بأن القرآن الكريم لفظ جبريل. انظر: الإحكام للآمدي ١/ ٢١١.

(٢) الفواكه الدواني ١/ ٥٧، وانظر: المجموع ١٢/ ١٢٠.

(٣) انظر: الأدلة على سماع جبريل القرآن من رب العالمين في الفصل الثاني، من الباب الأول.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ١٩٩.

(٥) انظر: الفتح ١٣/ ٤٥٠، والمرشد الوجيز ص ٢٦؛ فإنه صرح بأن جبريل كان ينزل بالآية بعد الآية من السماء الدنيا.

وقالوا: إنما نجمته الملائكة عليه في عشرين ليلة!![١].

والجواب عن هذا من عدة أوجه:

١- أن القرآن الكريم أنزله الله ﷻ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ذلك كان إيذانا ببدأ الوحي إلى الأرض، ولا يدل على نفي سماع جبريل عليه السلام الكلام من رب العزة.

٢- أن ما جاء من الآثار أن جبريل نزل بالوحي من السماء الدنيا، أو من الملائكة، فهذا لا يثبت[٢].

---

(١) انظر: الفتح ٨/ ٦٢٠-٦٢١، ومحاضرة الأوائل ص١٥٣.

(٢) إن الذي ورد إنما هو نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، كما سبق (انظر: ص١٤٩) وكون جبريل عليه السلام نزل بعد ذلك منجما لا يخالف سماعه القرآن من رب العزة، ويؤكد هذا الفهم أمران:

الأول: أنه ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: [**أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئا أوحاه، أو أن يحدث منه في الأرض شيئا أحدثه**] (رواه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير ح(٢٨٧٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي)، فهذا فيه تصريح بأن الله إذا أراد أن يوحي منه شيئا أوحاه، لا أن جبريل ينزل به من دون إيحاء الله ﷻ له، ويؤكد هذا رواية ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [**أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر، إلى السماء الدنيا، وكان بموقع النجوم، وكان الله ينزله على رسول الله ﷺ بعضه في إثر بعض**] (رواه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، ح٢٨٧٨، وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي).

الأمر الثاني: أن الروايات التي فيها التصريح بنزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى النبي ﷺ، أو من السماء الدنيا إلى النبي ﷺ لا تثبت، وأنا أورد ما جاء مما فيه تصريح بأن جبريل نزل بالوحي من السماء الدنيا، لا من العلي الأعلى، مع ذكر أقوال أهل العلم عليه:

أ- قال الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن أورد بعض الروايات، مثل: أن جبريل كان ينزل بالوحي من اللوح المحفوظ كما ذكره الحليمي في منهاجه، وكذا عنه ابن شامة في المرشد الوجيز ص١٩، قال الحافظ: «وهذا أورده ابن الأنباري من طرق ضعيفة، ومنقطعة أيضا، وما تقدم من أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك مفرقا هو الصحيح المعتمد». الفتح ٨/ ٦٢٠، فقد ضعف الحافظ الروايات التي تدل على أن جبريل نزل بالوحي من اللوح المحفوظ، وبين أنها لا تصح.

ب- حكى الماوردي والواحدي في تفسير ليلة القدر، أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة... فهذا فيه تصريح بأن جبريل لم ينزل بالوحي من رب العزة، قال فيه الحافظ رحمه الله: «وهذا أيضا غريب» الفتح ٨/ ٦٢١.

ت- قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١/ ٦٢: «ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي النبي ﷺ: [**يا ابن أم عبد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم**]. فهذا سند القوم في نفيهم لسماع جبريل القرآن من الله ﷻ، =

٣- أن المنزل جملة واحدة نجم على حسب الحوادث والسنين صواب، لكن ليس فيه نفي سماع جبريل الكلام من رب العزة ﷻ.

٤- وأما ما روي عن ابن عباس ﷺ: [**أنزل القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى الكتبة في سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل ﵇ نجوما**].

فالجواب عنه من أوجه: الأول: أنه ليس فيه نفي سماع جبريل الكلام من رب العزة ﷻ، وإنما فيه، أنه نزل بالقرآن منجما. **الثاني**: أنه لا يعارض بما ثبت صحيحا مرفوعا أن جبريل سمع كلام الرب ﷻ، كما في حديث «ماذا قال ربكم؟ فيقول: قال الحق»[(١)]. **الثالث**: أن الإجماع منعقد من السلف على سماع جبريل القرآن من رب العزة ﷻ، والإجماع لا ينسخ، و لا يقدم عليه فهم[(٢)].

٥- أن اختلافكم فيما سمعه جبريل عن الله ﷻ، وعمن **أخذ** جبريل ﵇، فيه دليل على بطلان قولكم، إذ الحق لا يتعدد، فالحق واحد، وهو ما عليه السلف - رحمهم الله - من أن جبريل سمع القرآن الكريم من الرحمن الرحيم، لم يأخذه من اللوح المحفوظ إلى النبي ﷺ، ولا من الحفظة[(٣)].

= فقوله روي وحدها كاف في رد هذ المتن، ثم لم أجد هذا المروي في شيء من كتب الحديث بهذا المتن واللفظ، ويدل على أن هذا لا يصح ما جاء في مسند الإمام أحمد (ح١١٤٩٣) - بسند صحيح - عن أبي سعيد الخدري ﷺ: [**أن النبي ﷺ إذا قام من الليل، فاستفتح صلاته وكبر، قال: سبحانك اللهم..، ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه، ونفثه**]، فهذا معارض للأول. وأيضا القرطبي نفسه ذكر حديث أبي سعيد الخدري فلعله لم ينتبه إلى المعارضة بين الأثرين.

ث- قال الزهري: «آخر القرآن عهدا بالعرش آية الربا، وآية الدين» (رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٤)، وهذا مرسل، ولا حجة فيه؛ فإن المرسل من أقسام الضعيف الذي لا يحتج به، والزهري من صغار التابعين، قال السيوطي: «مرسل صحيح»، وهو كما قال، ولكنه صحيح إلى ابن شهاب، وليس يصح عن الأصحاب، فضلا عن النبي ﷺ، وعلى فرض ثبوته؛ فالمراد أنه آخر ما سمع من كلام الله ﷻ المستوي على العرش؛ ففيه سماع جبريل من الله ﷻ، وأنه نزل بعد ما سمع من الله ﷻ.

(١) انظر: الفتح ١٣/ ٤٦٧، فإنه جمع الروايات التي تدل على سماع جبريل كلام الله ﷻ.

(٢) انظر: هذه الإجماعات في الفصل الثاني من الباب الأول.

(٣) انظر: مناهل العرفان ١/ ٤٩.

٥- أن نفي سماع جبريل القرآن من رب العزة ﷻ يعني أن اليهود يكونون أفضل من هذه الأمة إذ ثبت أن الله ﷻ كتب التوراة بيده، ثم أنزلها مكتوبة، فيكون لهم شرف ذلك، وهذه الأمة أقل شأنا منهم إذ كتابهم أخذه جبريل من اللوح المحفوظ!![1]، قال شيخ الإسلام ؒ بعد ذكره لهذا: «فيكون بنو إسرائيل قد قرؤوا الألواح التي كتبها الله، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ﷺ، ومحمد ﷺ أخذه عن جبريل وجبريل عن اللوح، فيكون بنو إسرائيل بمنـزلة جبريل، وتكون منـزلة بني إسرائيل أرفع من منـزلة محمد ﷺ على قول هؤلاء الجهمية، والله ﷻ جعل من فضائل أمة محمد ﷺ أنه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء، وأنه أنزله عليهم تلاوة لا كتابة...، ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله، وإنما وجده مكتوبا كانت العبارة عبارة جبريل، وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله، كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما، ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين»[2].

وهؤلاء النافون لسماع جبريل القرآن من رب العزة ﷻ، ليس عندهم شيء ينزل به جبريل من الله ﷻ إلى محمد ﷺ، وهذا يتضح في المطلب التالي.

(١) انظر: الإعلام والاهتمام بفتاوى شيخ الإسلام أبي يحيى زكريا بن محمد الأنصاري ص ٣٥٢-٣٥٣.
(٢) المجموع ١٢/ ٥٢٠-٥٢١.

المطلب الثاني: معنى نزول القرآن عند المخالفين، وشبههم.

السلف الصالح كلهم متفقون على ما دلت عليه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية، من أن القرآن الكريم نزل من رب البرية، وأن «الإنزال: النقل من الأعلى إلى الأسفل؛ فنـزول الكتب الإلهية إلى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بأن يتلقاها جبريل من جنابه ﷻ فينزل بها إلى الرسل عليهم السلام»[(١)].

وأما أهل البدع الذين لا يثبتون لله ﷻ علوا يلزمهم نفي نزول القرآن، خصوصا أنه قد جاء في أكثر من آية أنه من عند الله، فإذا ثبت أنه نزل من عنده، فهذا نص أنه نزل من علو، ولهذا فالمعتقدون عدم علو الله ﷻ على خلقه، قولهم في نزول القرآن هو النفي، ثم يحرفون ما جاء من الآيات والأحاديث الدالة على النزول لتوافق أهواءهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه.

وأما الفلاسفة فإنه يلزمهم نفي نزول القرآن؛ لأنه ليس ثم إلا عقول مدبرة تفيض من وإلى، وأن من فاض عليه فلصفاء نفسه ليس إلا؛ فكيف يكون هناك إنزال، وهذا لازم يدل على فساد القول بالفيض في كل حال، ولا ريب أنهم ينكرون النـزول حيث يقولون عن جبريل عليه السلام: «فقد يكون عقل شديد الاستعداد **حتى لا يحتاج في أن يتصل بالعقل الفعال** - الذي هو عند هم الرب - **إلى كثير من تخريج، وتعليم!!، حتى كأنه يعرف كل شيء من نفسه...، وهي القوة القدسية التي تناسب روح القدس؛ فيفيض عليها منه جميع المعقولات... فالدرجة العليا النبوة؛ فربما يفيض عليها وعلى المتخيلة من روح القدس معقول تحاكيه المتخيلة بأمثلة محسوسة!!، أو كلمات** مسموعة؛ **فيعبر عن الصورة بملك في صورة رجل، وعن الكلام بوحي في صورة عبارة**»[(٢)]، **فإذا** ليس ثم نبي يرى ملكا حقيقيا ينـزل عليه بالوحي!!، وهذا وحده كاف في بطلان قول الفلاسفة في الأديان.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ١/ ٢٤٠.

(٢) من كلام ابن سينا كما نقله الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ص ٤٧٦-٤٧٧، وانظر منه: ص ٤٨٥.

وابن رشد القرطبي - وهو من الفلاسفة، لكنه يذكر الشناعات الواردة على نفي العلو لله ﷻ على قولهم وقول المتكلمين - فيقول: « فترجع الشريعة متشابهة - أي إذا نفينا العلو لله ﷻ -، وذلك أنّ بَعْثَ الأنبياء انبنى على أن الوحي نازل إليهم من السماء، وعلى ذلك انبنت شريعتنا هذه، على أن الكتاب العزيز نزل من السماء، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[الجاثية:٣]، وانبنى نزول الوحي من السماء على أن الله في السماء، وكذلك كون الملائكة تنـزل من السماء، وتصعد إليها »[١]، بل « الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنـزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السماء نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ، حتى قرب من سدرة المنتهى »[٢] فشهد شاهد من أهلِهِمْ أن الشريعة لا تصح إلا بإثبات نزول الوحي، من السماء، وأن « كلام الله تعالى منـزل على الأنبياء، وقد دل على ذلك آي كثيرة من كتاب الله تعالى »[٣].

فإذا كانت الشرائع كلها، والكتب كلها، نصوصها دالة على نزول الوحي من السماء، وهذه النصوص معلومة للقاصي والداني، فهي تنص على أن كلام الله نزل من السماء من عند الله، وهؤلاء ينفون علو الله، فكيف يكون نـزول الوحي من السماء من عند الله؟؟؟.

يقول متكلم آخر - مبينا أن الأفضل إبقاء العامة على الظاهر!! -: « ثم إن هؤلاء القوم - يعني المتكلمين - عادوا إلى القرآن، الذي هو المعجز الأكبر، وقد قصد الشرع تقرير وجوده، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾[الجاثية:٣][٤] وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٣]...، وأثبته في القلوب...، وفي المصاحف...، وقال قوم من هؤلاء: هو مخلوق!!، فأسقطوا حرمته من النفوس، وقالوا: لم ينـزل،

---

(١) مناهج الأدلة لابن رشد ص٨١-٨٢.

(٢) مناهج الأدلة لابن رشد ص٨٥، وانظر: الدرء ١٠/ ٢٦٤.

(٣) الإرشاد للجويني ص ١٣٠.

(٤) وقد ورد لفظ النزول في آيات كثيرة، وانظر: الأدلة على نزول القرآن في الفصل الثاني، من الباب الأول.

ولا يتصور نزوله، وكيف نفصل الصفة عن الموصوف، وليس في المصحف إلا حبر وورق، **فعادوا إلى ما بعث الشارع في إثباته بالمحو**»[١].

وأما الصوفية فمنهم من يتفوه في الإنزال بكلام لولا النقل العلمي **ما** استسغت نقله، وإن مجرد حكايته تدل على شناعته، وذكره في حد ذاته ينبئك عن سخافته، وسخافة عقول هؤلاء الصوفية الغلاة القائلين به، المبتدعين في الدين بالهوى، المتبعين للردى، فهذا أحد الصوفية يخاطب مريديه، مبينا كيف نزل القرآن!!، فيقول:

وزفت عروس القرب ليلة قدرنا وفي ذِكر الذكر استلذ المجامع
وإنزاله القرآن قد حملت به فروج قلوب بالعلوم تدافع!!![٢]

بل إن هؤلاء الصوفية لا يرون أن الإنزال مخصوص بالقرآن بعد نبي آخر الزمان، ويصرحون بأن كتبهم أنزلها الرحمن!!، يقول القونوي عن كتابه المثنوي: «بأيدي سفرة، كرام بررة، يمنعون بأن لا يمسه إلا المطهرون!!، تنزيل من رب العالمين!!، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!!»[٣].

وهؤلاء الصوفية شطحاتهم جلية، وفضائحهم ظاهرة غير خفية، خصوصا أهل وحدة الوجود، والحلول، والاتحاد أصحاب المذاهب الردية.

فأهل الكلام لا يختلف قولهم في الإنزال عن أصحاب الحال إلا في المؤدى؛ فالجميع لا يثبتون الإنزال، **وسبق أن بينت أن المعتزلة** يرون أن الذي نزل به جبريل إنما هو كلام مخلوق، إما في نفسه، أو في الهواء...[٤].

والأشعرية من أهل الكلام ينصون على أن الذي نزل من السماء إنما هو لفظ جبريل، لا كلام الله رب العالمين نفسه، يقول الباقلاني: «والنازل على الحقيقة المنتقل

---

(١) أقاويل الثقات ص ٢١٩-٢٢٠.
(٢) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق!! ١/ ٢١٥، نقلا عن كتاب: أخبار جلال الدين الرومي ص ٦٦.
(٣) مقدمة المثنوي، نقلا عن كتاب: أخبار جلال الدين الرومي ص ٣٦٣-٣٦٤.
(٤) انظر: الفصل الأول من هذا الباب.

من قطر إلى قطر قول جبريل!!»(١).

فالمتكلمون من أهل الإسلام، يؤولون الإنزال الوارد في القرآن الكريم لسببين:

الأول: لكونهم نفوا العلو للعلي الأعلى، وأنه لا يصح بأن يشار إليه أنه في السماء!!(٢).

الثاني: أنهم قالوا: إن الكلام معنى، ولا يصح أن يوصف المعنى بأنه ينـزل!!، يقول الجويني: «ثم ليس المعنى من الإنزال حط شيء من علو إلى سفل!!، فإن الإنزال بمعنى الانتقال يتخصص بالأجسام والأجرام!!.

ومن اعتقد كلام الله تعالى، وقيامه بنفس الباري ﷻ، واستحالة مزايلته للموصوف به ـ وهو الحق ـ، فلا يستريب في استحالة الانتقال عليه!!، ومن اعتقد حدث الكلام، وصار إلى أنه عرض من الأعراض، فلا يسوغ على معتقده أيضا تقدير الانتقال، إذ العرض لا يزول ولا ينتقل.

فالمعنِيُّ بالإنزال: أن جبريل ﵇ أدرك كلام الله تعالى، وهو في مقامه فوق سبع سماوات، ثم نزل إلى الأرض، فأفهم الرسول ﷺ ما فهمه عند سدرة المنتهى!!، من غير نقل لكلام الله ﷻ !!!»(٣).

فالمخالفون للسلف، المخالفون لكتاب الله ﷻ لم يقولوا مع توافر النصوص بأن القرآن الكريم قد نزل من السماء، ولم يتصوروه(٤).

والجواب عن هذا من وجوه:

١. المعروف أن المعاني والصفات والأعراض لا تأتي، وإنما قالت العرب: جاء الحر، وجاء البرد، ومعلوم أن هذه المعاني تأتي مع الهواء الذي يحمل الحر والبرد، وهو

---

(١) الإنصاف ص٩٧.

(٢) انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٥٢، المجموع ٨/ ٢٦.

(٣) الإرشاد للجويني ص١٣٠، المعتمد للفراء ص٢٧٦، وقد أنكر النزولَ الحقيقيَّ للقرآن الزرقانيُ في مناهل العرفان، اتباعا لأشاعرة الزمان، وتقليدا لأصول كلام أهل اليونان، انظر: مناهل العرفان ١/ ١٩١- ١٩٤.

(٤) انظر: أقاويل الثقات ص٢١٠.

عين قائمة بنفسها، فـ «العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل، مثل لون الفاكهة؛ فإنه لا يقال في هذا: جاءت الحمرة، والصفرة، والخضرة، بل يقال: أحمر وأصفر وأخضر، وإذا كان كذلك؛ فإنزاله تعالى العدل، والسكينة، والنعاس، والأمانة ـ وهذه صفات تقوم بالعباد ـ إنما تكون إذا أفضى بها إليهم؛ فالأعيان القائمة توصف بالنـزول، كما توصف الملائكة بالنـزول بالوحي والقرآن؛ فإذا نزل بها الملائكة؛ قيل: إنها نزلت»[١] فالقرآن معنى من المعاني فإذا سمعه جبريل ووعاه نزل به من رب العالمين، إلى سيد المرسلين، وجبريل ذات مخلوقة، قائم بنفسه، ينزل ويصعد.

٢. أن إنكار النـزول يعني الرد على الله ﷻ، والآيات التي تدل على أن القرآن الكريم نزل من عند القدوس السلام أكثر من مائة وخمسين آية بالعد والإحصاء، وبصيغ مختلفة، مما يدل على أن الله ﷻ أنزله، وأن جبريل نزل به على محمد ﷺ من عند الله[٢].

٣. إن قلتم: القرآن لا ينـزل، فبأي شيء كان ينـزل جبريل ﷷ، أكان ينزل بقوله، أم برأيه؟؟، وهذا لا يقول به إلا من طرح الوحي، واتبع الطرق الكلامية، وإلا فإن نزول جبريل بالوحي أمر معلوم من الدين بالضرورة[٣].

٤. أن نزول القرآن الكريم لا يلزم منه تحول صفة الله ﷻ ومفارقة كلامه ذاته، كما أن الله يُعَلِّمُ أنبياءه ورسله، وعِلمه باق صفة من صفات ذاته، فكذلك كلامه، بل إن الواحد من أهل العلم يعلم آلافا من الناس، وعلمه لا يزول، بل يبقى صفة من صفاته، والناس يقولون: هذا من علم فلان، ويأخذون كلامه وهو صفة من صفاته، ويقولون: هذا كلام فلان، فقولكم بأن التحول على العرض غير معقول، فيه لبس إذ ما مرادكم بالتحول، إن كان القصد أنه يزول عن ذات المتكلم إلى السامع فهذا حق، ولا يكون تحول للكلام بهذا المعنى، إذ الكلام هو للمتكلم وإن سمعه السامع وقرأه القارئ، وإن قصدتم بالتحول أنه لا يكون في الأرض كلام لله ﷻ، ولم ينزل جبريل ﷷ

---

(١) المجموع ١٢/ ٢٥١.

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٢٧١-٢٨٠.

(٣) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٠٠-٣٠٤.

بالقرآن فهذا باطل، ونحن نقرأ أحاديث النبي ﷺ، ولم يتحول كلامه حتى يصبح عرضا لنا؛ فكيف بكلام رب العالمين؟؟(١).

٥. أن أهل الكتاب، بل وحتى المشركين، كانوا مقرين بنـزول الوحي من السماء، كما قال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[النساء:١٥٣] وقال ابن عباس ﷺ: [**بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ؛ فقال لأخيه: اعلم لي علم هذا الرجل، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء**]، وقال ﷺ: [**ألا تأمنونني!؟ وأنا أمين مَن في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء**](٢).

٦. قال صاحب متن الشيبانية ردا على من أنكر التنـزيل بحجة الكلام النفسي:

ونعتقد القرآن تنـزيل ربنـا ... بـه جـاء جبريـلُ النبيَّ (محمـدا)
وأنزله وحيـا إلـيه وأنــه ... هُدى الله، يا طوبى لمن بـه اهتـدى
كلام قديم منـزل غير محدث ... بأمـر ونـهـي، والدليـل تأكــدا
كلام إلـه العـالمين حقيــقـة ... فمن شك في هذا فقد ضل واعتدى
ومنـه بدا قولا قديمـا، وأنـه ... يعـود إلى الرحمـن حقـا كما بـدا...
فمن شك في تنزيله فهو كافر ... ومن زاد فيه فقد طغى وتـمـردا (٣)

ومن **شُبَهِ أهل الكلام** أنهم قالوا: إن النـزول بمعنى: الخلق، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[الحديد:٢٥]، أو يقولون: خلقه في مكان عال ثم أنزله من ذاك المكان!!.

والجواب عن هذا من وجوه:

١-أن النزول بمعنى الخلق لا يعرف في اللغة(٤)، وإنما هذا تفسير من يرى خلق

---

(١) انظر: ما سبق، في الفصل الأول من هذا الباب.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب/ ٦١، ح(٤٣٥١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب/ ذكر الخوارج وصفاتهم، ح(١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) نظم الشيبانية في العقيدة ص ٣٥-٣٦، مجموع أمهات المتون في مختلف الفنون والعلوم، جمع دار الفكر.

(٤) فهذا ابن منظور: وهو من هو في جمعه للمعاني الواردة لكلمة واحدة لم يذكر أن معنى النـزول هو الخلق، مع

القرآن الكريم، فيفسر آياته على معتقده!!، ولو كان النـزول بمعنى الخلق، لكان مخلوقا في محل، وما كان مخلوقا في محل، يكون صفة لذاك المحل النازل منه، ولا يكون صفة لله ﷻ[١].

٢-أن قولكم بخلق القرآن باطل، وما بني على باطل فهو باطل.

٣-أن النزول على حقيقته، وهو يكون من علو إلى سفل، وقولكم إنه خلقه في مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان، يدل على القول بخلق القرآن، وهو فاسد، وإنما هو كلام الله ﷻ سمعه جبريل من رب العزة في السماء العلى، ثم نزل به إلى محمد ﷺ، وهذا هو النزول الذي يفهمه المسلمون، ولا يفهمون من نزول القرآن الكريم إلا هذا، وهذا ما عليه السلف، واتباعهم واجب على الخلف.

٤-النزول جاء في القرآن على ثلاثة أنواع[٢]؛ **الأول**: نزول مقيد بأنه منه، وهذا لم يرد إلا في القرآن الكريم. **والثاني**: نزول مقيد بأنه من السماء ـ والسماء اسم جنس بمعنى العلو ـ كنزول المطر. **الثالث**: نزول مطلق، وهذا وارد في مواضع، كإنزال الحديد، والسكينة، والميزان، فالحديد أنزلها الله من المعادن الموجودة في الجبال، والسكينة أنزلها الله في قلوب المؤمنين، والميزان العدل، وقد أنزل الله كتبه ليحكم بين الناس بالعدل[٣].

ومن شبههم: أنهم قالوا: نزوله بمعنى الإعلام به، وإفهامه للملك، أو نزول الملك بما فهمه!!، وهذا قول الكلابية ومن وافقهم[٤].

والجواب عن هذا من أوجه:

١-أن النزول بمعنى الإعلام لا يعرف في اللغة، ولكن هذا تفسير من لا يثبت

= أنه يجمع كل ما قيل في معنى الكلمة عن العرب. انظر: مادة : (نزل) ١٤/ ١١١-١١٣، وانظر: المفردات للراغب ص ٤٩٠-٤٩٢.

(١) انظر: المجموع ٨/ ٢٦.

(٢) انظر: المجموع ١٢/ ٢٤٦-٢٥٠.

(٣) انظر: المجموع ٨/ ٢٦، ١٢/ ٢٥٤.

(٤) انظر: الغنية لأبي سعيد النيسابورى ص ١٠٨.

لله ﷻ كلاما إلا الكلام النفسي الذي لا يُسمع، وإذا لم يثبت في اللغة النـزول بمعنى الإفهام، علمنا أن القوم يصنعون لمذهبهم لغة[(١)]، قال شيخ الإسلام ﷺ بعد أن ذكر أقسام النزول: « فقد تبين أنه ليس في القرآن، ولا في السنة، لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف، وهذا هو اللائق بالقرآن؛ فإنه نزل بلغة العرب، ولا تعرف العرب نزولا إلا بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطابا بغير لغتها، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى في معنى آخر بلا بيان، وهذا لا يجوز »[(٢)].

٢-أن هذا التحريف مبني على قولكم الفاسد بالكلام النفسي الذي لا يُسمع فقلتم: إن النـزول هو الإفهام!!، وقد سبق أن تبين فساد القول بالكلام النفسي[(٣)].

٣-أن الملك إذا كان نزل بما فهمه؛ فهذا يعني أن القرآن لفظه، وهذا ما لا يوافقكم عليه مسلم يعقل عن الله ﷻ مراده، وعن الرسول ﷺ مرامه، لأن ما فهمه لا يكون كلاما لله ﷻ، فإنك لو تكلمت كلاما، ونقل آخر كلامك لا بلفظك، وإنما بما فهمه، قيل له: رويت بالمعنى، ولو فهم خطأ لقلت له: ليس هذا كلامي، هذا فهمك، فدل هذا أن هناك فرقا بين من ينقل الكلام بلفظه ومعناه، وبين من ينقل الكلام بمعناه.

قالوا: النزول ليس من علو إلى سفل؛ لأن المراد بالنـزول: « كما يقال: نزلت رسالة الملك من القصر، لا يراد به حط شيء من القصر »[(٤)]، والنـزول يراد به الحلول، كما تقول: نزل الأمير المدينة، والمعنيان كلاهما لا يصح إطلاقهما على القرآن الكريم، لما يلزم من هذين المعنيين من المكانية والجسمية!!![(٥)].

والجواب عن هذا ما يأتي:

١-أن قولكم بأن الإنزال معناه الحط ليس بصواب، وإنما المراد من الإنزال هو

(١) انظر: مقاييس اللغة لابن فارس ص ١٠٢٢-١٠٢٣، المفردات للراغب ص ٤٩٠-٤٩٢، لسان العرب ١٤/ ١١١-١١٣، فإن هؤلاء فطاحلة اللغة ولم يذكر واحد منهم أن من معاني النـزول: الإفهام.

(٢) المجموع ١٢/ ٢٥٧.

(٣) انظر: الفصل الأول، من هذا الباب.

(٤) الغنية لأبي سعيد النيسابوري ص ١٠٨.

(٥) انظر: مناهل العرفان ١/ ٤٣.

المعنى المعروف عند العرب، وهو ما يكون من علو إلى سفل[(١)].

٢-أن ما ذكرتموه من المثال، لا يعرف عن العرب، وإنما هو من وضعكم، ثم من المعلوم أن الرسول إذا جاء من القصر؛ فإنه يقول: جئت برسالة، ولا يقول: نزلت برسالة؛ لأن النـزول لا يكون إلا من علو، ولو صح المثال: فإن القصر يكون عاليا عن بيوت المخاطبين من الشعوب، فيصح نزول الرسول بالكلام حينئذ.

٣-أن في هذا تشبيها لله ﷻ بالملك، ـ وإن لم تقصدوا التشبيه، وإنما قصدتم التقريب ـ، والله ﷻ ليس له نظير، بل هو العلي الأعلى، فكل من خاطبه الله؛ فإنما يخاطب من علو لا من سفل.

٤-أن النـزول ورد في القرآن الكريم مؤكدا بالمصدر الذي يفيد وقوع الفعل حقيقة لا مجازا[(٢)] كما في قوله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[الإسراء:١٠٦] وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾[الإنسان:٢٣].

٥-أن نزول القرآن وهبوطه من السماوات العلى بواسطة جبريل ﵇ إلى محمد ﷺ هو المعروف في لغة الشرع، وفي العرف، بل وفي اعتقاد المسلمين، وأما ما ادعيتم من أن ذلك يلزم منه الجسمية فهذا ادعاء لا دليل عليه، وإن أحدنا ينقل كلام الآخر، ولا يلزم أن يكون الكلام المنقول جسما وذاتا بنفسه، ثم إن الكلام عرض وليس ذاتا، والأعراض تقوم بذواتها، لا بنفسها، فكلام الله ﷻ قائم به، وسمعه جبريل ونقله إلى محمد ﷺ، ولا يلزم من ذلك مفارقة صفة الرب ﷻ عن ذاته[(٣)].

٦-قال الحافظ ابن حجر ﵀: «الكلام الثاني ـ أي كون نزول القرآن ليس كنـزول الأجسام ـ متفق عليه بين أهل السنة سلفا وخلفا، وأما الأول ـ أي كونه لا يراد به الإنزال المعروف، وإنما هو الإفهام ـ فهو على طريقة أهل التأويل، والمنقول عن

---

(١) انظر: المصباح المنير ص ٦٠٠.

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن ص ١١١.

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٢١٣ وما بعدها.

السلف اتفاقهم على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله، وبلغه جبريل إلى محمد ﷺ، وبلغه إلى أمته»[1].

وبهذا يتبين ضلال قول المخالفين في نـزول القرآن الكريم، وأضل من هذا قول من زعم أن جبريل أخطأ في إنزال القرآن الكريم، وهذا ما أبينه في المبحث التالي.

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٦٣.

المبحث الثاني: قول بعض الرافضة في نزول القرآن

العقيدة السلفية الراسخة هي أن القرآن الكريم كلام الرحمن الرحيم، أنزله الله ﷻ على سيد الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد ﷺ بواسطة جبريل الأمين، وقد دلت الأدلة المتواترة على هذا[١].

وهناك فرقة من الروافض، وهي المشهورة بالغرابية تقول: بأن القرآن كان حقا خاصا لعلي!! ﷺ، وأنه كان شبيها بالنبي ﷺ فلما نزل جبريل بالوحي، أخطأ فأعطى الوحي للنبي ﷺ.

وإنما سموا "غرابية" لا نسبةً إلى رجلٍ منهم، بل لقولهم: إن عليا كان أشبه بالنبي ﷺ من الغراب بالغراب!!، فغلط جبريل حين بعث إلى علي فنـزل بالوحي إلى محمد!!![٢].

ولهذا فإن الروافض يبغضون جبريل ﷺ، كقول اليهود: هو عدونا من الملائكة، وكذلك الرافضة يقولون: غلط جبريل بالوحي على محمد ﷺ[٣]، ويسمون هؤلاء بالذمامية، لكونهم يذمون جبريل ﷺ[٤]، بل ويقولون لأتباعهم: العنوا صاحب الريش، يعنون جبريل ﷺ[٥].

(١) انظر: الأدلة على أن جبريل نزل بالقرآن على محمد ﷺ، في الفصل الثاني من الباب الأول، وانظر: الأدلة على اختصاص نبينا محمد ﷺ بالقرآن، في الفصل الخامس من الباب الأول.

(٢) انظر: المعارف لابن قتيبة ص٣٤٠، التبصير في الدين ص ١٢٨، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٩.

(٣) انظر: منهاج السنة ١/ ٢٧،٣٢.

(٤) انظر: تلبيس إبليس ص ١٠٩.

(٥) انظر: الفرق بين الفرق ص ١٩٠-١٩١، التعريفات للجرجاني ص ١٦٢، وشرح المواقف ٨/ ٤١٩.

ثم منهم من ادعى أن عليا كان يُعلِّم النبيَّ ﷺ القرآن!!![١].

وذكر ابن الجوزي[٢] أن الغرابية تدعي شركة علي ﷺ في النبوة[٣]، وهذا إن صح فإنه لا تعارض بين هذا وبين كونهم قالوا: إن القرآن كان حقا له؛ لأن الروافض قوم بهت، يكتمون مذاهبهم فربما قالوا اليوم شيئا، وغدا آخر، وأيضا: لما علموا بأن فضاحة قولهم واضحة عدلوا إلى القول بالشركة ـ والله تعالى أعلم ـ.

قال البغدادي[٤] رحمه الله: « وكُفْرُ هذه الفرقة أكفر من كفر اليهود الذين قالوا لرسول الله ﷺ: من يأتيك بالوحي من الله تعالى؟ فقال: جبريل، فقالوا: إنا لا نحب جبريل!!؛ لأنه ينـزل بالعذاب، وقالوا: لو أتاك بالوحي ميكائيل الذي لا ينـزل إلا بالرحمة لآمنا بك، فاليهود ـ مع كفرهم بالنبي ﷺ ومع عداوتهم لجبريل ﷺ لا يلعنون جبريل، وإنما يزعمون: أنه من ملائكة العذاب دون الرحمة، والغرابية من الرافضة يلعنون جبريل ومحمدا ـ عليهما السلام ـ وقد قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة:٩٨]، وفي هذا تحقيق اسم الكافر لبغض بعض الملائكة، ولا يجوز إدخال من سماهم الله كافرين في جملة فرق الإسلام »[٥].

ومن جملة المخالفين الباطنية الزاعمون بأن القرآن الكريم « قد أوحي حقيقة إلى سلمان الفارسي[٦]، وأنه كلامه!!، وأن محمدا ﷺ أخذه، وتلقاه عنه!! »[٧].

---

(١) انظر: المجموع ١٢/ ٤٥٥.

(٢) هو المفسر المحدث: عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي، ولد ونشأ في بغداد، وله مؤلفات في شتى الفنون، ومنها: زاد المسير، وتلبيس إبليس، توفي سنة ٥٩٧هـ. انظر: معجم المؤلفين٥/ ١٥٧.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ص ١٠٩.

(٤) هو المتكلم الأشعري: عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي الشافعي، أبو منصور البغدادي، أصولي وأديب، وفقيه أريب، ولد ونشأ ببغداد، وسكن ودرس بنيسابور، من مؤلفاته: نهاية الأقدام، وأصول الدين، توفي سنة ٤٢٩هـ. انظر: السير١٧/ ٥٧٢.

(٥) الفرق بين الفرق ص ١٩١، وانظر: التبصير في الدين ص ١٢٨.

(٦) هو الصحابي الجليل: سلمان الفارسي ﷺ، ويلقب بسلمان الخير، أبو عبد الله، سافر لطلب الدين الحق، فأوصله الله إلى صحبة خير الخلق، أول مشاهده الخندق، مات سنة ٣٤هـ. انظر: التقريب ص ١٦٨.

(٧) الحركات الإسلامية للخطيب ص٣٠٣.

فقول هؤلاء يلزم منه مفاسد شرعية مع كونه في نفسه كفرا، وهذه المفاسد هي:

١- أن الملائكة يخطئون، مع أن الله ﷻ قد أخبر بأن الملائكة معصومة بعصمة الله لهم.

٢-أن جبريل الأمين يكون خائنا!!، وهذا تكذيب للقرآن المبين، وتكذيب لرب العالمين.

٣-أن فيه اتهاما لرب العالمين، إذ كيف رأى جبريل يخطئ - على فرض أنه يخطئ - ثم لا يبين له الخطأ.

٤-أن فيه اتهاما للنبي ﷺ إذ كيف يأخذ ما ليس حقه، وفيه اتهام لعلي ﷺ إذ كيف يسكت على هذا؟؟، وعلى كل حال فاللوازم الفاسدة لهذا القول كثيرة، والقائلون بهذا أكفر من اليهود الذين أقروا بنبوة محمد ﷺ ولم يكذبوه، ولكن قالوا: هو إلى العرب خاصة!!.

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: « قد نص الله عز وجل على أن الملائكة متعبدون، قال تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]،... وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٨]،... وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[النحل:٤٩-٥٠]،... قال أبو محمد: فنص الله تعالى على أنهم مأمورون...، مكرمون موعودون بإيصال الكرامة أبدا، مصروفون في كتاب الأعمال، وقبض الأرواح، وأداء الرسالة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ....، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[التكوير:١٩-٢١]،... فأخبر ﷻ أن جبريل ﷺ مطاع في السماوات، وأمين هنالك، فصح أن هنالك أوامر وتدابير، وأمانات وطاعة ومراتب، ونص تعالى على أنهم كلهم معصومون...، فنص تعالى على

أنهم كلهم لا يسأمون من العبادة، ولا يفترون من التسبيح والطاعة، لا ساعة، ولا وقتا، ولا يستحسرون من ذلك، وهذا خبر عن التأييد لا يستحيل أبدا، ووجب أنهم متنعمون بذلك، مكرمون به، مفضلون بتلك الحال، وبالتذاذهم بذلك، ونص تعالى على أنهم كلهم معصومون، قد حقت لهم ولاية ربهم ﷻ أبدا، إلى الأبد بلا نهاية، فقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة:٩٨] فكفر تعالى من عادى أحدا منهم، فإن قال قائل: كيف لا يعصون، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء:٢٩] قلنا: نعم هم متوعدون على المعاصي،... وقد علم عز وجل أن... الملائكة لا يقول أحد منهم أبدا إني إله من دون الله...، وقد أعاذ الله عز وجل الملائكة من مثل هذه الصفة بما ذكرنا آنفا، أنهم لا يعصون الله، ويفعلون ما يؤمرون، وبإخباره تعالى أنهم لا يسأمون، ولا يفترون، ولا يستحسرون عن طاعته ﷻ، فوجب يقينا أنه ليس في الملائكة البتةَ عاصٍ، لا بعمد، ولا بخطأ، ولا بنسيان،... والملائكة رسل الله عز وجل بنص القرآن، والرسل معصومون»[(١)].

وبهذا يعلم ضلال وكفر هذه الطائفة الرافضية، وفساد قولها في الرسالة النبوية، وهذيانها في حق جبريل ذي الصفات الملكية، المعصومة عن الخطأ والزلل في تبليغ الرسالات السماوية.

ولما اختلف أهل البدع والأهواء في حقيقة القرآن الكريم، وفي نزوله من رب العالمين، اختلف بعد ذلك تعبدهم به لله ﷻ، وهذا ما أبينه في الفصل الآتي ـ إن شاء الله ﷻ ـ.

---

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٣/ ٢٥٩-٢٦١ بتصرف.

الفصل الثالث

قول المخالفين في التعبد بالقرآن الكريم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعبد بمجرد القراءة.

المبحث الثاني: التعبد بالتبرك به.

المبحث الأول: التعبد بمجرد القراءة

بينت فيما سبق[١] أن السلف الصالحين، كانوا يتعبدون لله رب العالمين، بكلامه المنزل المبين، وبصور مختلفة كما أمرهم الرحمن الرحيم، كيف لا وهو كلام الله ﷻ، ومن صور تعبدهم بالقرآن الكريم: التعبد بقراءته، وملاحظة ما يرافق القراءة من الأحوال الموافقة للشريعة نصا، أو في العمومات معنى، إذ كانوا يرون أن قراءة القرآن عبادة فكانوا يأتون به على الوجه المشروع[٢].

وأما المخالفون للسلف الذين اختلفت أقوالهم في القرآن الكريم، وتباينت آراؤهم في حقيقته، وتشتت مذاهبهم في معرفته، فإنهم لم يتلذذوا بالعبادة به كما أمرهم رب العالمين، ولكن بحثوا عن أمور أخرى أرادوا بها التقرب إلى رب العالمين، وذلك لما وقع بينهم وبين القرآن من حجب، فهم وإن قرؤوا فقراءتهم مجردة عن موافقة الشرع، وليست قراءتهم للاستفادة من معانيه، أو التحاكم إلى مبانيه.

بل حال أهل البدع المخالفين للسلف كحال: «من يحلي المصحف، ولا يقرأ فيه، أو يقرأ فيه، ولا يتبعه، وبمنزلة من يزخرف المسجد، ولا يصلي فيه، أو يصلي فيه قليلا، أو بمنزلة من يتخذ المسابيح، والسجادات المزخرفة، وأمثال هذه الزخارف الظاهرة التي لم تشرع، ويصحبها من الرياء، والكبر،والاشتغال عن المشروع ما يفسد حال صاحبها»[٣].

---

(١) انظر: الفصل الثالث من الباب الأول.

(٢) انظر: المجموع ١٠/ ٣٩١.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٢٩٦، بتصرف يسير.

فمن غلب عليه حال، فهو يكون موصوفا به، وأهل الأهواء غلبت عليهم بدعهم، فأبعدتهم عن كتاب الله ﷻ، تعلما وتعليما، وتعبدا وتحكيما، فالعبرة في حال الإنسان بالغالب من حاله، ولهذا قال الإمام البخاري ؒ: «باب: ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله، والعلم، والقرآن»(١)، فكيف إذا كان الغالب على الإنسان البدعة والهوى.

وأول أولئك الذين لهم قراءة للقرآن مشهودة، وتلاوة لآياته مسموعة، وإقامة لمبانيه وحروفه معلومة، هم الخوارج المخالفون للسلف الذين حذر منهم النبي ﷺ مع كثرة قراءتهم، وتلاوتهم؛ إذ كانت التلاوة تلاوة للحروف، ولم تكن تلاوة عمل بالمعاني، قال النبي ﷺ في حق الخوارج: [**إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**](٢)، وقال ﷺ: [**إن من ضئضئ**(٣) **هذا قوما يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**](٤)، وفي رواية: [**قوم يتلون كتاب الله، رطبا لا يجاوز حناجرهم...**](٥)، فهذا خبر النبي ﷺ فيهم أنهم يقرؤون القرآن، ويتلونه، ولكن هذه التلاوة لا تجاوز حناجرهم؛ فلا يعقلون معانيها، ولا يتدبرون مراميها، ولذلك تراهم يقتلون أهل الإسلام، ويثيرون القلاقل في أهل الإيمان باسم الإسلام، ويتركون

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ١٠/ ٥٦٤.

(٢) روى أصله البخاري، كتاب فرض الخمس، باب/ ومن الدليل على أن الخمس...، ح(٣١٣٨)، ومسلم واللفظ له، كتاب الزكاة، باب/ ذكر الخوارج وصفاتهم، ح(١٠٦٣) عن جابر بن عبد الله ؓ.

(٣) الضئضئ: الأصل، يقال: ضئضئُ صدق، وحكى بعضهم: ضِئْضِيءٌ على وزن قنديل، والمعنى: أنه يخرج من نسله وعقبه، وروي (صئصئ) بالصاد المهملة، وهو بمعناه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٦٩.

(٤) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب/ ٦، ح(٣٣٤٤)، ومسلم واللفظ له، كتاب الزكاة، باب/ ذكر الخوارج وصفاتهم، ح(١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري ؓ.

(٥) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب/ بعث علي وخالد، ح(٤٣٥١)، ومسلم واللفظ له، كتاب الزكاة، باب/ ذكر الخوارج وصفاتهم،ح(١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري ؓ.

أهل الشرك والأوثان، وقد أخبر النبي ﷺ أن هذا سيما الخوارج حتى قيام الساعة، لا يفقهون في دين الله، وإن تلوا كتاب الله ﷻ، قال ﷺ: [**سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم...**][١]، بل أخبر النبي ﷺ أن قراءتنا ليست بشيء عند قراءتهم، لكثرة تلاوتهم، وشدة أخذهم على أنفسهم في تلاوة الحروف، والغفلة عن معرفة المعاني، قال ﷺ: [**يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن، ليست قراءتكم عند قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم عند صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن، يحسبون أنه لهم، وهو عليهم...**][٢]، فالخوارج مخالفون للسلف حتى في قراءتهم لكتاب الله ﷻ إذ يقرؤون القرآن مجردا عن التدبر والخشية والعمل.

قال الترمذي رحمه الله: «وقد روي في غير هذا الحديث عن النبي ﷺ حيث وصف هؤلاء القوم الذين يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية؛ إنما هم الخوارج، والحرورية[٣]، وغيرهم من الخوارج»[٤].

ومما يؤكد عدم عمل الخوارج بالقرآن، وأن اهتمامهم بحروفه دون العمل به، ما ذكره أهل السير والتاريخ، من قصة عبد الله بن خباب بن الأرت[٥] رحمه الله حيث ورد أنّ الخوارج لقوا مسلما ونصرانيا؛ فأعفوا النصراني، وقالوا: احفظوا وصية نبيكم فيه!!، وقتلوا المسلم!!، ثم لقوا عبد الله بن خباب بن الأرت رحمه الله، ومعه المصحف؛ فقالوا: إن هذا المصحف يأمرنا بقتلك!!!، فوعظهم، وذكرهم، وحدثهم عن أبيه عن

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب/ كان النبي ﷺ تنام عيناه ولا تنام قلبه، ح(٣٦١١)، ومسلم واللفظ له، كتاب الزكاة، باب/ ذكر الخوارج وصفاتهم،ح(١٠٦٦) عن علي رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب/ ذكر الخوارج وصفاتهم،ح(١٠٦٤) عن علي رضي الله عنه .

(٣) الحرورية نسبة إلى حروراء، وإليها كان انحياز الخوارج زمن علي رضي الله عنه، ونسبوا إلى ذلك المحل، ويكفرون بالكبيرة، ويتبرؤون من عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص١١٥، معجم ألفاظ العقيدة ص١٣٩.

(٤) انظر: جامع الترمذي ٤/ ٤٨١.

(٥) هو التابعي الكبير: عبد الله بن خباب بن الأرت، حليف بني زهرة، يقال: إن له رؤية، قتله الحرورية سنة ٣٨هـ. انظر: التقريب ص٣٤٤.

رسول الله ﷺ، فلم يقبلوا... ثم ذبحوه، وقتلوا زوجته وبقروا بطنها وهي حامل[(١)].

وطائفة ـ تنتسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[(٢)] ـ من الرافضة الباطنية، ـ وهم غير الزيدية المعروفين ـ يذكر أن عندهم مصحفًا مذهَّبًا على ظهره أبيات شعر رُثي بها زيد، وهم يعبدون ذلك المصحف!!، وزيد عندهم ملك العرب، وعليّ بن أبي طالب ﷺ عندهم إله العرب!!![(٣)].

وتجد من المخالفين للسلف طائفة من الصوفية يطربون لسماع الأناشيد التي وضعها لهم أسلافهم، وأما القرآن الكريم فإنهم يجدون استثقالا عند سماعه وقراءته «لما اعتاضوا عنه بضده ونده، وإن ارتاحوا إلى سماعه، فللقدر المشترك الذي يكون بينه وبين سماعهم من الأصوات المطربة والألحان، ولهذا يرتاحون لذلك الشعر الكفري، والفسوقي، والزنائي، والمقصود: أن هذا السماع الشيطاني من أكبر الأسباب المضادة لأصول أولياء الله المقربين الثلاثة: الإخلاص، والمتابعة، والجهاد»[(٤)].

وذكر الذهبي[(٥)] رحمه الله في ترجمة أحد مشايخ الصوفية، أنه سمع أبياتا فبكى، ثم قـال للمنشد: «يا أخي لا تلم أهل الري أن يسموني زنديقا!؟ أنا من بكرة أقرأ في المصحف ما خرجت من عيني دمعة، ووقع مني إذ غنيت ما رأيت» !![(٦)].

---

(١) انظر: شذرات الذهب ١/ ٥١.

(٢) هو الهاشمي القرشي: زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين، كان ببغداد ثم توجه إلى الشام، وسكن المدينة، وخرج منها لقتال الأمويين بالكوفة سنة ١٢٠ هـ، وبايعه أهلها، وأرادوا منه أن يتبرأ من الشيخين فامتنع لأنهما وزيرا جده، فرفضوه، فسموا رافضة، ثم لما وقع القتال فر عنه شيعته من أهل الكوفة، فقتل رحمه الله، وإليه ينتسب الزيدية. انظر: السير ٥/ ٣٨٩.

(٣) انظر: معجم البلدان ٣/ ٤٤٢.

(٤) الكلام على مسألة السماع لابن القيم ص ٢٩٢، وانظر: البحث والاستقراء في بدع القراء لمحمد موسى نصر ص٣٤، وما بعدها.

(٥) هو الحافظ المحدث، والمؤرخ الناقد: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين الذهبي الشافعي، ولد بدمشق ونشأ بها، وكان من خواص شيخ الإسلام، ألف التآليف النافعة للأنام، في جميع الفنون ومنها تواريخ الأيام، وذاع صيته بين الأنام، من مؤلفاته: تاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال، وغيرها، توفي سنة ٧٤٨هـ. انظر: الدرر الكامنة ٣/ ٣٣٧.

(٦) السير ١٤/ ٢٤٩.

بل إن منهم من قد يزعم أن سماع الأناشيد الصوفية، وترداد الأوراد البدعية، أفضل من سماع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية!!!، فيقول بعض المخالفين: «إنه أفضل لبعض الناس، أو للخاصة، من سماع القرآن من عدة وجوه!! حتى يجعلونه قوتا للقلوب، وغذاء للأرواح، وحاديا للنفوس، يحدوها إلى السير إلى الله، ويحثها على الإقبال عليه، ولهذا يوجد من اعتاده، واغتذى به، لا يحن إلى القرآن، ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات، كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وإذا سمعوا المكاء والتصدية[1]، خشعت الأصوات، وسكنت الحركات، وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب!!»[2].

ولما نشأ مثل هذا في الخلف أن قدموا أبياتهم، وأقوالهم، وأورادهم على سماع القرآن الكريم، أنكر الأئمة عليهم أشد النكير، قال الشافعي رحمه الله: «خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة، يسمونه "التغبير"، يصدون به الناس عن القرآن»[3]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عقب قول الشافعي رحمه الله: «وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين؛ فإن القلب إذا تعود سماع القصائد، والأبيات، والْتذَّ بها؛ حصل له نفور عن سماع القرآن، والآيات؛ فيستغني بسماع الشيطان عن سماع الرحمن»[4].

فما ذكره الشافعي، كلام إمام خبير بأصول الإسلام؛ إذ أن هذا السماع المحدث لهذه الألحان الصوفية، لم يرغب فيه الشرع، بل لم يحدثه إلا من هو متهم بالزندقة في دينه كابن الراوندي، والفارابي، وابن سينا، وأمثالهم[5].

بل إن هؤلاء المخالفين أهل البدع إذا: «قصد أحدهم القبر الذي يعظمه، يبكي

---

(١) المكاء: الصفير، وهو ما يخرج من مكاء الطائر، والتصدية: كل صوت يجري مجرى الصدى. انظر: معاني القرآن للراغب ص ٢٨٢، ٤٧٣.

(٢) المجموع ١١/ ٥٦٨.

(٣) المجموع ١١/ ٥٦٩.

(٤) المجموع ١١/ ٥٣٢، وانظر: ١١/ ٢٩٧.

(٥) انظر: المجموع ١١/ ٥٧٠.

عنده، ويخضع، ويتضرع، ويدعو، ويحصل له من الرقة، والتواضع، والعبودية، وحضور القلب ما لا يحصل له مثله في الصلوات الخمس، والجمعة، وقيام الليل، وقراءة القرآن؛ فهل هذا الأمر إلا حال المشركين المبتدعين، لا الموحدين المخلصين المتبعين لكتاب الله تعالى، ورسوله.

ومثل هذا أنه إذا سمع أحدهم الأبيات يحصل له من الخضوع، والخشوع، والبكاء ما لا يحصل له مثله عند سماع آيات الله تعالى، فيخشع عند سماع المبتدعين المشركين، ولا يخشع عند سماع المخلصين المتقين، بل إذا سمعوا آيات الله تعالى اشتغلوا عنها، وكرهوها، واستهزؤوا بها، وبمن يقرؤها، مما يحصل لهم به أعظم نصيب من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[التوبة:٦٥].

وإذا سمعوا القرآن، سمعوه بقلوب لاهية، وألسنة لاغية، كأنهم صم وعمي، وإذا سمعوا الأبيات حضرت قلوبهم، وسكتت ألسنتهم، وسكنت حركاتهم، حتى لا يشرب العطشان منهم ماء»[(١)].

ومنهم طوائف لهم مخاريق جنية شيطانية، تحصل لهم عند سماعهم لأناشيدهم الصوفية، ووجدٍ تغيبهم عن حالتهم الإنسانية، ويدخل أحدهم النار، ويصعد في الهواء، ولا يحصل له أدنى خشوع عند الصلاة، ولا عند الذكر، و« لا عند قراءة القرآن؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية، إسلامية، نبوية محمدية، تطرد الشياطين، وتلك عبادات بدعية شركية، شيطانية فلسفية، تجلب الشياطين»[(٢)].

وهذه الأناشيد الصوفية، ذات الأصوات الندية، والألحان الشذية، تصد الناس عن القرآن، وتصدهم عن الرحمن، قديما وحديثا، يقول الشيخ الألباني رحمه الله: «إن بعض الشباب المسلم بدأ يتغنى ببعض الأناشيد، السليمة المعنى، قاصدا بذلك معارضة غناء الصوفية، بمثل قصائد البوصيري وغيره، وسجل ذلك في شريط، فلم

---

(١) الرد على البكري ٢/ ٥٧٥-٦٧٦.

(٢) المجموع ١١/ ٥٧٥.

يلبث إلا قليلا حتى قرن معه الضرب على الدف، ثم استعملوه في أول الأمر في حفلات الأعراس، على أساس أن (الدف) جائز فيها[(١)]، ثم شاع الشريط، واستنسخت منه نسخ، وانتشر استعماله في كثير من البيوت، وصار ذلك سلواهم وهجّيراهم، وما ذلك إلا من غلبة الهوى، والجهل بمكائد الشيطان، فصرفهم عن الاهتمام بالقرآن، وسماعه فضلا عن دراسته، وصار عندهم مهجورا»[(٢)].

ومما ينبغي التنبه له، أن الأناشيد الصوفية التي كانت تسمى بمجالس الذكر!! ـ وهي مجالس الرقص ـ قد حذر منها العلماء الفضلاء، وبينوا بدعيتها ومضارها في دين الله، فبدؤوا يسمون أناشيدهم بغير اسمها، ويسمونها أناشيد إسلامية!!، وهل كان في الشرع أناشيد يتقرب بها إلى الله ﷻ، نعم من الدين الذب عن الإسلام بالشعر الذي ليس فيه الخنا، والشعر الذي ليس فيه صوت الدفوف والغناء، والشعر الذي ليس فيه أصوات تشبه أصوات المغنين.

أما هذه الأناشيد الموجودة اليوم في أسواق المسلمين مما رتب ترتيبا ملحنا: صوتا، وأداء، وتطريبا، فهذه تصد عن القرآن، فكم تجد شابا ـ مستقيما ـ يحفظ الأناشيد والأناشيد و...، ولا يحفظ إلا القليل من القرآن!!![(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله:

تُلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهي
وأُتي الغناء فكالذباب تراقصوا ... والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شاهدٍ ... فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي[(٤)].

---

(١) يعني للنساء خاصة.

(٢) القول المفيد في حكم الأناشيد لعصام المري ص ٢٨.

(٣) انظر: القول المفيد في حكم الأناشيد ص ٣١.

(٤) الكلام على مسألة السماع ص ٥٨، طبعة مكتبة السنة، تحقيق: ربيع خلف، والعجب من المحقق إذ غير =

وأما استماع القرآن أو قراءته على ضرب الدفّ، ونحوه فكفرٌ[(١)]؛ فكيف بمن يسجل ذلك من الخَلَف على أشرطة ويغنيه غناء!؟.

وتجد من المخالفين للسلف طائفة من أهل الكلام يطربون لعلومهم الكلامية، وفنونهم الجدلية، ولا يرفعون رأسا بكلام رب البرية، وإن استشهدوا ببعض آياته فذلك لكونها وافقت قواعدهم، أو لِلَيِّ أعناقها لتوافق مذاهبهم.

ويعتقدون بتكافؤ الأدلة ـ مع أن القرآن الكريم، فيه الشفاء من كل عي، والدواء لكل داء ـ، وأقوامٌ منهم «يجتهدون في قراءة القرآن، وحفظ حروفه، والإكثار من ختمه، ثم اعتقادُه فيه، ما قد بيناه[(٢)]: اجتهاد روغان كالخوارج»[(٣)].

فـ «كثير من الناس اتخذوا هواجس الأفكار، وسوانح الخواطر والآراء علما!!، ووضعوا فيها الكتب، وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان، وملؤوا بها الصحف مدادا، والقلوب سوادا، حتى صرح كثير من الناس منهم: أنه ليس في القرآن والسنة علم، وأن أدلتها لفظية لا تفيد يقينا!!!، ولا علما!!، وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم، وأذن بها بين أظهرهم، حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان، كانسلاخ الحية من قشرها، والثوب عن لابسه»[(٤)]، فهذا حال هؤلاء المتكلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

=

اسم الكتاب: فطبعه باسم: كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء، وقد يسوغ له هذا؛ لأنه أضاف إليه بعض الفتاوى، ولكن ما كان ينبغي أن يكتب على غلاف الكتاب: تأليف ابن قيم الجوزية، خصوصا: أنه أثبت اسم الكتاب في المقدمة، وأن اسمه: الكلام على مسألة السماع.

(١) انظر: ألفاظ الكفر لبدر الرشيد الحنفي ص٢٧، ضمن الجامع في ألفاظ الكفر للشيخ د/ محمد الخميس، الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر الهيتمي ص٢٢٣، ضمن الجامع لألفاظ الكفر للشيخ د/ محمد الخميس، رسالة في ألفاظ الكفر لتاج الدين أبي المعالي مسعود بن أحمد الحنفي، ص ٤٤٣، ضمن الجامع لألفاظ الكفر، للشيخ د/ محمد الخميس.

(٢) انظر: الفصل الأول، من هذا الباب.

(٣) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٤٠٣.

(٤) الفوائد ص١٤٤.

والشرك والبدع تتسرّب إلى المسلمين إذا هجروا القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وتمسكوا بعادات الآباء والأجداد، وتقاليدهم(١).

وقد وقع المخالفون للسلف في أنواع هجر القرآن الكريم، وهي(٢):

الأول: هجروا سماعه، فتراهم لا يسمعون إن انتسبوا إلى الدين إلا إلى الأناشيد الصوفية، والترانيم الصوتية، والحداء الذي هو شبيه بالتغبير، الصاد عن ذكر الله، ومنهم من لا يسمع إلا الأغاني، والموسيقى!!.

الثاني: هجروا العمل به، وتنفيذ أوامره، والانتهاء عن نواهيه.

الثالث: هجروا تحكيمه، والمحاكمة إليه؛ فهم يتحاكمون إلى البراهين العقلية!!، دون الدلائل النقلية! لأنها عندهم لا تفيد ألفاظها اليقين!!، ولا يحصل بها العلم!!، فبعضهم لا يحكمه في العقائد، وبعضهم لا يحكمه في الشرائع، وإنما يتحاكم إلى القوانين الوضعية، والتقاليد والعادات الموروثة البشرية، وزبالات الأفكار الإنسانية.

الرابع: هجروا تدبره، وفهمه، ومعرفة مراد الله ﷻ المتكلم به.

الخامس: هجر الاستشفاء، والتداوي به، ومنهم من قد يستشفي به، لكن على طريقة بدعية، كتعليق التمائم المخلوطة بالألفاظ الشركية، أو كتابتها بشيء من النجاسات!!.

وكل هذا داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[الفرقان:٣٠] فهذه الآية في سورة الفرقان فارقة بين السلف الصالحين، وتمسكهم بالقرآن، وبين المخالفين الهاجرين للقرآن، ومن كان فيه خصلة من الهجر، كان على قدر ذلك محروما.

وذكر ابن القيم رحمه الله **مبينا حال المخالفين للسلف بطوائفهم المختلفة**، وما

---

(١) انظر: رسالة التوحيد للعلامة إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي ص٦٢.

(٢) انظر: الفوائد لابن القيم ص١١٢، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٣١٧، سبعون فتوى في احترام القرآن لعلي أبي لوز ص١٦.

يجدونه من الحرج تجاه القرآن الكريم فيقول: « **فإنه تارة يكون حرِجا** من إنزاله، وكونه حقا من عند الله، **وتارة** يكون من جهة المتكلم به...، **وتارة** يكون من جهة كفايته، وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات!!، والأقيسة، أو الآراء، أو السياسات!!، **وتارة** يكون من جهة دلالته، وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها، وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، **وتارة** يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة!!.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعا في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته »(١).

ومما يؤكد هذا الحرج الذي يجده بعض أهل البدع من القرآن الكريم، ما يجده بعضهم من الحرج من قراءة سورة "المسد"، ويزعم أن النبي ﷺ، يحزن ويغتم من قراءتها!!(٢) وكل طائفة من المخالفين تجد حرجا من الأدلة والآيات التي تخالف مذهبها، وتنقض مضاجعها(٣).

فإذا كانت العقيدة البدعية راسخة في قلوب أهلها، فكيف يستجيبون للقرآن الكريم بالعمل، أو باتخاذه حجة، أو بالتداوي به، أو بالتدبر فيه، وهم يعتقدون أنه تخييل أو تجهيل!!، كما هو عقيدة الفلاسفة من المخالفين للسلف(٤).

---

(١) الفوائد ص١١٢-١١٣.

(٢) انظر: السنن والمبتدعات للشقيري ص٢١٤.

(٣) قال الشيخ ابن باز رحمه الله في إجابة على سائلة تقول: إن أختها نهتها عن قراءة سورة المسد، بحجة أن ذلك يؤذي النبي ﷺ، فقال الشيخ: « لا حرج في قراءة سورة تبت كغيرها من السور؛ فهي من جملة سور القرآن الكريم، وفيها بيان حال أبي لهب، وما حكم الله عليه من الخسران، ودخول جهنم، هو وزوجته، لكفرهما بالله، وإيذائهما رسول الله ﷺ، والله ﷻ يقول في كتابه الكريم: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ ﴾[المزمل:٢٠] ...، والخلاصة أن الصواب معك أيتها السائلة، أما أختك فقد غلطت، وعليها التوبة إلى الله سحانه، من قولها، وإنكارها؛ لأنها قالت قولا باطلا، وقالت على الله بغير علم » (فتاوى وتنبيهات ص٥١٤).

(٤) انظر: الدرء ٥/ ١٦-١٧.

ويكون في المخالفين للسلف من يحفظ القرآن، ولكن حفظه إنما هو حفظ للحروف، دون تفقه في المعاني والأحكام[١].

وقد يكون من المخالفين للسلف من يخشع للقرآن، ويخضع، بل ويميل إليه في الاتّباع، ولو خالفت ما قعّده من الابتداع، وذلك لما فيه من خصال الخير، وميل إلى السنة، أو في حال قربه إلى السنة، دون حال قربه إلى البدعة.

والمخالفون للسلف لهم قراءات للقرآن الكريم، ولكنها لا توافق ما شرعه رب العالمين، ولا ما جاء به محمد ﷺ خاتم النبيين، وأذكر بعض الصور التي بها يتقربون في قراءاتهم بالقرآن الكريم، دون موافقة للشرع الكريم، وهذه الصور كثيرة غير متناهية، لكون باب البدعة الحسنة مفتوحةً عند القوم!![٢]، ولكن أذكر بعض ما يدل على استيعاضهم عن الطرق الشرعية، ويدل على قراءتهم البدعية، ومنها:

١- قراءة السور منكسة، أو الآيات منكسة، وهذا «متفق على منعه، وذمه؛ لأنه يذهب بعض الإعجاز، ويزيل حكمة الترتيب»[٣]،«ومن الناس من يتعاطى هذا ـ أي تنكيس الآيات ـ في القرآن والشعر، ليذلل لسانه بذلك!!، ويقدر على الحفظ، وهذا حظره الله، ومنعه في القرآن؛ لأنه إفساد لسوره، ومخالفة لما قصد بها»[٤]، واستثنى السلف القراءة من السور القصار للصغار[٥]، ولو كانت على غير الترتيب المشهور في الأمصار، رغبة التحفيظ والتكرار، لا التعبد بالتنكيس كما يفعله الفجار[٦].

٢- قراءة القرآن بصورة جماعية، كما يقرؤون الأناشيد الصوفية، والعجب أن بعضهم يستحبها[٧]، مع أنها لم ترد عن سيد البشرية، ولا عن الصحابة خير البرية،

---

(١) انظر: الحوادث والبدع للطرطوشي ص ٩٦-١٠١.

(٢) وتقسيم المبتدعات إلى بدعة حسنة وسيئة، في حد ذاتها بدعة، بل البدع في الدين كلها سيئة، ويجب إنكارها بقوة وحمية. انظر: المجموع ١/ ١٦٢، مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ١/ ٢٣٤.

(٣) المجموع للنووي ٢/ ١٨٩، التبيان للنووي ص ١٠٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٤.

(٥) انظر: التبيان للنووي ص ١٠٠.

(٦) انظر: الحوادث والبدع للطرطوشي ص ١٥٥.

(٧) انظر: المجموع ٢/ ١٨٩.

وإنما هي من البدع الغوية، ولو كان خيرا لسبقنا إليها السلف الصالح، فهم إلى كل خير سباقون، وعن كل شر مبتعدون، وقد: « أنكر عبد الرحمن بن عَرْزَب[(١)] رحمه الله هذه القراءة الجماعية، وقال: ما رأيت، ولا سمعت، وقد أدركتُ أصحاب رسول الله ﷺ »[(٢)]،« يعني ما رأيت أحدا فعلها »[(٣)]، وقيل للإمام مالك رحمه الله: « أرأيت القوم يجتمعون؛ فيقرؤون جميعا سورة واحدة، حتى يختموها؟ فأنكر ذلك وعابه، وقال: ليس هكذا كان يصنع الناس، إنما كان يقرأ الرجل على الآخر يعرضُه »[(٤)]، وسئل الإمام أحمد رحمه الله: « عن قوم يجتمعون فيُدعون، ويقرؤون القرآن، ويذكرون الله، فما ترى فيهم؟! فقال: يقرأ في المصحف، ويذكر الله في نفسه، ويطلب حديث رسول الله ﷺ، قال له السائل: فأخ لي يعمل هذا، فأنهاه، قال: نعم، قلت: فإن لم يقبل، قال: بلى إن شاء الله؛ فإن هذا محدث، الاجتماع والذي تصف »[(٥)]، وقد يستدلون[(٦)] بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده »، **فالجواب عن هذا من وجوه؛ الأول**: أن الحديث فيه النص على التلاوة، ولا يمكن التلاوة مع خلط الأصوات، واختلاف النغمات. **الثاني**: أن المراد بالاجتماع أن يجتمع على شيخ، أو على قارئ، والاستماع إليه، هذا سنة، وهذا هو المراد[(٧)]، ويؤكد هذا المراد الوجه **الثالث**: أنه قد جاء تفسير هذا الاجتماع والمراد به؛ فلا ينبغي أن نقدم أفهامنا على تفسير النص للنص، [**خرج النبي ﷺ على**

---

(١) هو: عبد الرحمن بن عرزب (بتقديم المهملة على المعجمة)، الأشعري قبيلة، تابعي، أخرج له ابن ماجة. انظر: التقريب ص ٢٨٨.

(٢) ذكره النووي عن ابن أبي داود، ولم أجده في كتابه المصاحف، انظر: التبيان ص ١٠٣.

(٣) التبيان للنووي ص ١٠٣، ثم أولَّها!!.

(٤) التبيان للنووي ص ١٠٤، ثم ادعى النووي أن هذا القول مخالف لعمل السلف!! مع أن الإمام مالكًا رحمه الله يحكي أن ذلك لم يرد عن السلف.

(٥) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٢٣٩.

(٦) كما استدل به النووي رحمه الله في التبيان على القراءة الجماعية!!، ص ١٠٢.

(٧) انظر: المجموع ١١/ ٥٨.

حلقة من أصحابه، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة](١). فهذا النص يؤكد أن القارئ والمتكلم كان واحدا منهم، لا أنهم كانوا يقرؤون بصورة جماعية، وبصوت جماعي، ويعضد هذا فهم السلف الصالح، فكان عمر رضي الله عنه يقول لأبي موسى رضي الله عنه: **[يا أبا موسى! ذكرنا ربنا، فيقرأ، وهم يستمعون]**(٢). **الرابع**: أن المراد بذكر الله عز وجل أعم مما فهمه المخالفون للسلف؛ فإن ذكر الله يدخل فيه العلم، وحلقات العلم، ولو جعل هذا الحديث في فضل حلق العلم لكان أولى(٣)، والتلاوة مطلقة يراد بها ما يتلى من الآيات لتبيَّن معانيها، ولتفسر مراميها، وتطلق على ما يكون من تعلم التلاوة بعد الاستماع من القارئ، لا ما يكون من القراءة الجماعية(٤).

٣- قراءتهم القرآن بالإدارة، وهي أن يقرأ واحد شيئا من القرآن، ثم يكمل الآخر، وهكذا، فهذا ذكره النووي رحمه الله، وقال: «لا بأس به»(٥)، ولم يثبت فيه عن السلف شيء، وكرهه طوائف من أهل العلم(٦)، أي إذا كان على سبيل ختم القرآن، أما إذا كان ذلك من المعلم كأن يقرأ الطالب الأول شيئا، ثم يبدأ الثاني وهكذا، فالأظهر أنه لا بأس به.

٤- من القراءات البدعية ما تكون في الأماكن المستقذرة شرعا وعرفا،

---

(١) رواه مسلم؛ كتاب الذكر والدعاء، ح(٢٧٠١)، عن معاوية رضي الله عنه.

(٢) روى الأثر الإمام عبد الرزاق في مصنفه ٢/ ٤٨٦ ح(٤١٧٩)، والدارمي في سننه ٢/ ٣٤٧ ح(٣٤٩٣)، وانظر: المجموع ٣/ ٤٢٦، ١١/ ٥٨.

(٣) وبهذا تعلم أن تبويب النووي له بباب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن هو الصواب، لا ما فهمه هو في التبيان من القراءة الجماعية؛ فإن هذه لا تعرف عن السلف، بل هي مشهورة في الخلف.

(٤) انظر: الحوادث والبدع للشقيري ص ١٥٢، البحث والاستقراء في بدع القراء لمحمد موسى نصر ص ٣٨.

(٥) التبيان ص ١٠٤، وانظر: المجموع له ٢/ ١٨٩.

(٦) انظر: مختصر الفتاوى المصرية ص٣٩٣، الحوادث والبدع للطرطوشي ص٩٥، ١٦١، الاعتصام للشاطبي ٢/ ٢٧، ٣١.

كالقراءة في الحمامات والخلاء، ونحوه[١]، فإن ذا لا يليق بكتاب الله، وكلامه، ونحو هذا ما يفعله بعض الخلف من قراءة للقرآن بالأسواق، والطرقات؛ فإن هذه للتآكل بالقرآن[٢]، وفيه ابتذال القرآن، ولا يصغي إليه أحد، فلا يجوز[٣]، و« كثير من أقوال وأفعال يخرج مخرج الطاعات عند العامة، وهي مآثم عند العلماء، مثل القراءة في الأسواق»[٤]، وقال القرطبي رحمه الله: «ولا يقرأ في الأسواق، ولا في مواطن اللغط واللغو، ومجمع السفهاء»[٥]، والتآكل بالقرآن في أي مكان لا يجوز، قال ﷺ: [**اقرؤوا القرآن، واعملوا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلوا فيه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به**][٦]. فكيف إذا ضُمَّ إلى ذلك أن كان في مكان غير سائغ فيه القراءة شرعا؟؟.

٥- «ومن البدع المنكرة في القراءة، ما يفعله جهلة المصلين بالناس في التراويح من قراءة سورة الأنعام، في الركعة الأخيرة في الليلة السابعة، معتقدين أنها مستحبة!!، فَيَجْمَعُونَ أمورًا منكرةً: منها اعتقادها مستحبة. ومنها: إيهام العوامِّ ذلك. ومنها: تطويل الركعة الثانية على الأولى، وإنما السنة تطويل الأولى على الثانية. ومنها: التطويل على المأمومين»[٧].

٦- من البدع قراءة آية فيها سجدة في صبح يوم الجمعة غير سجدة التنـزيل، قاصدا ذلك، والسنة قراءة "تنزيل السجدة" في الأولى، و"هل أتى" في

(١) انظر: التبيان للنووي ص١١٤، شرح العمدة ١/ ٤٠٧.

(٢) انظر: كشاف القناع ١/ ٤٣٣، الفواكه الدواني ٢/ ٣٣٦، البحث والاستقراء في بدع القراء لمحمد موسى نصر ص١١.

(٣) انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٠٥-١٠٩، مختصر الفتاوى المصرية ص٢١١، معارج القبول ٢/ ٦٢٩، السنن والمبتدعات للشقيري ص٢١٥، بدع القراء لبكر أبي زيد ص٢٥، بدع المقابر والجنائز لعلي الطهطاوي ص٢٨٠-٢٨٢.

(٤) كشاف القناع١/ ٤٣٣ نقلا عن حنبل.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٤.

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده، ح(١٥٦١٤)، وغيره، عن عبد الرحمن بن شبل رضي الله عنه، وقال الألباني: «صحيح»، كما في صحيح الجامع(١١٧٩).

(٧) التبيان للنووي ص ١١٥، وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٣/ ١٢١.

الثانية[١]، وقريب من هذا ما يفعله بعضهم من قراءة السجدة من سورة السجدة صبيحة الجمعة، ولا يختم السورة!!.

٧- قراءة قارئ القرآن يوم الجمعة قبل خروج الخطيب والناس يستمعون إليه؛ أو قراءة سورة الكهف على المصلين وهم منتظرون الخطيبَ[٢]؛ فإن هذه بدعة شنيعة، لا يجوز العمل بها؛ وإن تواتر الناس عليها[٣].

٨- قراءة الفاتحة عند عقد الزواج، أو بعد الانتهاء منه، أو حين إظهار القبول والإيجاب، فهذه كلها بدعة منكرة، يجب الابتعاد عنها؛ خصوصا أن القُرَب سبيلها الاتباع لا الابتداع[٤].

٩- ومن ذلك أنهم يستأجرون من يقرأ لموتاهم القرآن، ويهدون ثواب تلك القراءة لموتاهم[٥]، فهذا: «ليس بمشروع، ولا استحبه أحد من العلماء»[٦]، بل إن القاعدة هي: أنه لا يجوز الاستئجار على الطاعات[٧][٨].

---

(١) انظر: التبيان للنووي ص١١٥.

(٢) انظر: معيد النعم ومبيد النقم للسبكي ص١١٠.

(٣) انظر: الإبداع في مضار الابتداع لعلي محفوظ ص١٧٧، السنن والمبتدعات للشقيري ص١٧، ٤٩، بدع القراء لبكر أبي زيد ص٢٠، من فتاوى الأئمة الأعلام حول القرآن جمع عبد الكريم الدرويش ص١٧٨-١٨١.

(٤) انظر: السنن والمبتدعات للشقيري ص ٢١٧.

(٥) ووضع المخالفون للسلف في ذلك أحاديث، وأوردوا ما لا يصح، انظر: المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٦) المجموع ٢٤/ ٣٠٠، و انظر: حاشية ابن عابدين ٤/ ١١.

(٧) انظر: حاشبة ابن عابدين ٤/ ١٨.

(٨)**وأما قراءة القرآن للأموات، وإهداء ثوابها لهم، فهذا محل نزاع بين أهل العلم، ولتحرير محل النزاع** أقول: إن العلماء ـ رحمهم الله ـ اتفقوا على أن قراءة القرآن للميت على وجه الإجارة لا تصح، ولا يصل ثوابها إليه، وأنه لا يشرع قراءة شيء من القرآن على القبور، وأجمعوا على أنه لو قرئ القرآن ثم دُعي للموتى أن ذلك الدعاء يصل إليهم؛ لأنه من باب الدعاء، واختلفوا في وصول ثواب القراءة نفسها إذا كانت تطوعا من غير مقابل، على قولين مشهورين:

القول الأول: أنه لا يصل إلى الميت ثواب القراءة، وهذا عليه الأكثرون، وهو المذهب عند المالكية والشافعية، وقول عند الحنفية، وعليه أكثر أصحاب مالك والشافعي ـ رحمهم الله ـ، وقول لشيخ

....

=

الإسلام ابن تيمية، واستدلوا بما يأتي:

وأما قراءة القرآن للأموات، وإهداء ثوابها لهم، فهذا محل نزاع بين أهل العلم، ولتحرير محل النزاع أقول:
إن العلماء ـ رحمهم الله ـ اتفقوا على أن قراءة القرآن للميت على وجه الإجارة لا تصح، ولا يصل ثوابها إليه، وأنه لا يشرع قراءة شيء من القرآن على القبور، وأجمعوا على أنه لو قرئ القرآن ثم دُعي للموتى أن ذلك الدعاء يصل إليهم؛ لأنه من باب الدعاء، واختلفوا في وصول ثواب القراءة نفسها إذا كانت تطوعا من غير مقابل، على قولين مشهورين:

القول الأول: أنه لا يصل إلى الميت ثواب القراءة، وهذا عليه الأكثرون، وهو المذهب عند المالكية والشافعية، وقول عند الحنفية، وعليه أكثر أصحاب مالك والشافعي ـ رحمهم الله ـ، وقول لشيخ الإسلام ابن تيمية، واستدلوا بما يأتي:

١ - أن القراءة للأموات وإهداء ثوابها لهم، لم تثبت لا في آية ولا في حديث صحيح، ولا أثر عن صحابي بسند معتبر، وسبيل القرب التوقيف لا القياس والاجتهاد، والسلف « لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ، ويهدي إلى الموتى، ولا كانوا يعرفون ذلك البتة...» (الروح لابن القيم ص١٩٢)، قال الدردير من المالكية: « وكره قراءة شيء من القرآن عند الموت، وبعده، وعلى القبور؛ لأنه ليس من عمل السلف؛ وإنما كان من شأنهم الدعاء بالمغفرة، والرحمة، والاتعاظ » (الشرح الصغير١/ ١٨)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: « ولم يكن من عادة السلف؛ إذا صلوا تطوعا، أو صاموا تطوعا، أو صاموا تطوعا، أو حجوا تطوعا، أو قرؤوا القرآن يهدون ثواب ذلك إلى موتى المسلمين؛ فلا ينبغي العدول عن طريق السلف ».

٢ -أن القراءة عمل بدني، لو صح وصول ثوابها إليه لصحت الصلاة عن الغير.

٣ -أنه دل عموم القرآن على أن الإنسان ينتفع بعمل نفسه، لا بعمل غيره، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]، وهذا العموم لا يخصص إلا فيما ورد به نص، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[يس:٥٤].

٤ -أن النبي ﷺ لما بين في أكثر من حديث الذي يصل إلى الميت لم يذكر قراءة القرآن.

٥ -أن قراءة القرآن أسهل على النفس من الصدقة فلو كانت مشروعة لأرشد إليه ﷺ، خصوصا أن كثيرا من أهل الميّت لا يملك المال، ويستطيع أن يقرأ لميته، فلما لم يرشد إلى ذلك دل أنه غير مشروع.

٦ -أرشد النبي ﷺ إلى الصلاة على الجنازة، والدعاء له، ولم يأت لا في حديث صحيح ولا ضعيف قراءة القرآن للميت، لا على قبره، ولا في غير ذلك.

٧ -أن هذا لو كان مشروعا لنقل كما نقل سائر الشريعة.

٨ -أنه ﷺ أرشد إلى الدعاء للميت ولم يرشد إلى إهداء ثواب القراءة له، فدل ذلك على افتراقهما.

٩ -أن الإهداء إنما يكون لشيء يملكه الإنسان كالصدقة في المال، أما ثواب القراءة فلا يملكه الإنسان، بل ولا يدري هل قبلت منه القراءة، أم لا؟، وهذا أمر غيبي فكيف يهديه؟؟.

١٠ - أن إهداء الثواب فيه جواز الإيثار في القرب، ومعلوم أن السلف كرهوا الإيثار في القرب.

=

....

=

١١- أن هذا لو جاز لجاز إهداء ثواب الطاعات للأحياء، وهذه مفسدة كبيرة، فإن أرباب الجاه والأموال إذا فهموا ذلك، واستشعروه، وكلوا من يفعل ذلك عنهم، فتصير الطاعات معاوضات، وذلك يفضي إلى إسقاط العبادات.

القول الثاني: أن ثواب القراءة يصل إلى الميت مادام بالمجان، وهذا قد استحبه بعض أصحاب أحمد وأبي حنيفة، وهو قول لشيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر له ابن القيم في الروح، واستدل هؤلاء بما يأتي:

١- أن الثواب ملك له، وله أن يهدي كما يهدي ماله!!. والجواب عن هذا: أن المال ملك حقيقي ثابت، وأما الثواب فهو ملك مأمول غير ثابت تملكه له، فلا يسوى بينهما.

٢- قالوا: ثبتت النيابة في عبادات غير مالية كالصوم، ولم يأت دليل على منع إهداء ثواب القراءة، فدل ذلك على جواز إهداءه كالصوم. والجواب عن هذا: أن الصوم جاء في الفرض، والنزاع في النفل معلوم بين السلف، ثم القياس في العبادت لا يصح، وأيضا إنّ الأصل في العبادات المنع حتى يأتي دليل على فعلها ومشروعيتها.

٣-قالوا: قد ثبت وصول ثواب الصوم والحج والدعاء والاستغفار، ولا خاصية تمنع من وصول ثواب القراءة!!. والجواب: أن الخاصية هي: عدم الورود، وتسوية ما ورد بما فهم من النص لا يليق؛ لأن الأول شرع، والثاني مفهوم من الشرع قد يكون صوابا وقد يكون خطأً، ومعلوم أن الشرع لا يصح فيه القياس في العبادات، والأصل في العبادات وما يتقرب بها إلى الله ﷻ التوقيف، وهذا هو الفارق.

٤-لم يثبت عن واحد من السلف أنهم قالوا: اللهم ثواب هذا الصوم لفلان؛ لأنهم كانوا يكتمون أعمالهم، فكذلك القراءة لم تثبت عنهم لهذه العلة. والجواب: أن هذا غير سائغ إذ الصوم ثبت في السنة فلا حاجة إلى ثبوته عن السلف ـ لو قلنا بجواز وصول ثواب الصوم مطلقا ـ، وأما القراءة فلم تثبت في السنة؛ فلذلك قلنا: هل قال بقولكم أحد من السلف؟؟ فقلتم: لا، فدل ذلك على أنه لم يصح، وأما أنهم كانوا يكتمون فهذا يستقيم لو جاءنا عن علماء السلف ما يدل عليه، ولو في باب التعليم، أما إنه لم يثبت ذلك لا تعليما، ولا نقلا للحال، فكيف يقال: إنه لم ينقل، وأيضا: إذا قيل بأنه لم ينقل لأنه خفي، لصحّت دعوى كل مدع أن هذا فعله السلف ولم ينقل!!. وأيضا: نُقِل الدعاء والاستغفار، والحج والصدقة، فلم لم ينقل ثواب القراءة، أيظهرون بعضا ويخفون بعضا؟؟.

٥-قالوا: لم يُرِدِ النبيﷺ بإعلامهم أن الصوم والصدقة والحج تصل إلى الميت الاقتصار والحصر، وإنما أجاب على أسئلتهم الواقعة؛ فخرج منه ذلك مخرج الجواب. والجواب: أن هذا من أضعف ما يحتجون به، إذ النبيﷺ سئل عن ماء البحر، فأجابهم وزاد لعلمه بحاجتهم إلى ذلك، فكيف يعلمهم بما يصح عن الأموات مما فيه مشاق على النفس كالصدقة، ولا يعلمهم ما هو يسير على الإنسان؟؟، وميسر لكل إنسان كالقراءة؟؟، ثم أيضا جاء الحصر في بعض ألفاظ الأحاديث، فدعوى العموم يحتاج إلى دليل.

وبهذا يتبين ـ للمنصف ـ أن إهداء ثواب قراءة القرآن للأموات لا يصح، لا عن النبيﷺ، ولا عن الصحابة ﷺ، ولا عن السلف؛ والخير كل الخير في اتباع من سلف، ولا يغتر الإنسان بالقائلين، وعليه الاهتمام بالمنقول والتثبت في الناقلين. انظر: مختصر الفتاوى المصرية ص٣٩٣، الإقتضاء٢/ ٧٤١-٧٤٤، المجموع ٢/ ١٤٣، ٢٤/ ٣٠٠، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٦٦، ٣١/ ٤١، الروح لابن القيم ص١٥٩-
=

١٠- القراءة الملحنة التي تطرب النفوس، وتخرجها عن التأمل في المعنى، والاستماع للصوت الظاهر في المبنى، الذي يقارب أصوات النغمات، ويكون كأصوات المغنين والمغنيات، فهذا هو التلحين، وهو الذي كرهه السلف ـ رحمهم الله ـ[(١)]، قال ابن قتيبة رحمه الله: «وكان القراء... يدخلون في القراءة من ألحان الغناء، والحداء، والرهبانية: فمنهم من كان يدس الشيء من ذلك دسا رقيقا، ومنهم من كان يجهر بذلك حتى يسلخه»[(٢)]، ومن علامات التلحين أنه يلهي القلب عن التأمل في معاني الآيات، ويتمايل الجسم مع النغمات، حتى إن بعض المستمعين للقراءات الملحنة لتأتيه النشوة، فيدعو للشيخ بالزيادة، ويقول: زادك الله يا شيخ!! مع أنه كان يقرأ آية فيها ذكر العذاب، وذلك لعدم التأمل في الآيات[(٣)]، فالمخالفون للسلف ـ حتى في حالة استماعهم للقرآن الكريم ـ يفعلون أفعالا بعيدة عن السنة، مبتدعة في الشريعة، ومن ذلك قول بعضهم ـ والقارئ يقرأ ـ الله!! الله!! ونحو ذلك من الألفاظ التي تنبئك عن اهتمامهم بالأصوات، لا المعاني الدالة عليها الآيات[(٤)]، والواجب إعمال الجهد في تأدية كلام الله تعالى كما أنزل من غير تمطيط، ولا عجرفة، بل بلفظ بين

= ١٩٣، رد مجلة المنار على ابن القيم ضمن فتح البيان لصديق حسن خان ٨/ ٥٤-٨٠، فتاوى الدين الخالص للشيخ أمين الله البشاوري ١/ ١٣٣، ٢/ ١٤٣، من فتاوى الأئمة الأعلام حول القرآن جمع عبد الكريم الدرويش ص ٧٥-٧٨، فتوى الشيخ/ محمود شلتوت، ص ٩٤-٩٥ فتوى العلامة/ محمد خليل هراس، ضياء النور للشيخ محمد طاهر ص٤٦.

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ص٧٦٢، وما روي أن الشافعي لم يكرهه؛ فإنما مراده رحمه الله، ما كان فيه حسن الصوت، دون التطريب الذي يكون بحسب الدرجات الموسيقية، والأوتار الصوتية. انظر: تلبيس إبليس ص١٢٤، والقول المفيد في حكم الأناشيد ص٣٥.

(٢) المعارف لابن قتيبة ص٢٩٦، وانظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص١٢٤، وقد أخبرني أحد كبار القراء، أنه تعلم الدرجات الموسيقية حتى يستطيع أن يقرأ القرآن كما يريد!!، على حسب النغمات!!، وكان يتدرب على الأنغام الموسيقية حتى تمرسها، ثم أصبح يقرأ على القراءات المختلفة، فمرة يقلد هذا، ومرة يقلد هذا، بصوت وطرب!!.

(٣) انظر: اللمع في النهي عن البدع للتركماني ١/ ٦٣-٦٦، الحوادث والبدع للطرطوشي ص٨٣-٨٩، البدع والنهي عنها لابن وضاح ص٨٦، المدخل لابن الحاج ١/ ٧٨-٧٩، زاد المعاد لابن القيم ١/ ٤٨٢-٤٩٣.

(٤) انظر: السنن والمبتدعات للشقيري ص ٢٢٠، بدع القراء لبكر أبي زيد ص٢٢.

واضح مرتل[(١)].

١١- ويدخل في القراءة الملحنة القراءة باللحون الأعجمية، فإنها بدعة غوية، وعن السنة قصية[(٢)]، و أما قوله ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: [**لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود**][(٣)]، فليس «المراد به الترديد والتلحين؛ إنما معناه حسن الصوت، وأداء القراءة، والإبانة في مخارج الحروف، والنطق بها»[(٤)].

١٢- ومن قراءات المخالفين للسلف، ابتداع ما يصاحبهم حال القراءة من غشيان، وإغماء، وشهق ونحو ذلك؛ فإن الصحابة ﷺ كانوا من أتقى الناس، وكانوا من أصفى الناس لسماع القرآن، ولم يؤثَر عنهم ذلك[(٥)]، قال الآجري ﷺ في حديث العرباض بن سارية: [**وعظنا رسول الله موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب...**] قال: «ولم يقل صرخنا، ولا ضربنا صدورنا، كما يفعل كثير من الجهال الذين يتلاعب بهم الشيطان»[(٦)]، وقيل لأسماء بنت أبي بكر الصديق[(٧)] ﷺ: [**كيف**

(١)انظر: معيد النعم ومبيد النقم للسبكي ص١١٠.

(٢) انظر: المدخل لابن الحاج ١/ ٥٤، إغاثة اللهفان لابن القيم١/ ١٦٠-١٦٢، الإبداع في مضار الابتداع للشيخ على محفوظ ص٧٣، بدع القراء لبكر أبي زيد ص ١٠.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب/ حسن الصوت بالقرآن، ح(٥٠٤٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين...، ح(٧٩٣).

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٧٦٣.

(٥) وقد ذكر شيخ الإسلام ﷺ أن الشهق والإغماء قد يكون بسبب تغليب جانب الخوف، ونسيان جانب الرجاء، والصحابة جمعوا بينهما فلم تحصل لهم مثل هذه الأمور، وهذا الجمع من شيخ الإسلام مسدد، من حيث بيان السبب، ولكن يرد عليه ما ورد أولا من أنه لم يكن ذلك عند السلف، ولو كان بسبب تغليب الخوف؛ فإن ذلك يدل على نقص في المتابعة، وعدم الكمال في الجمع بين النصوص، من وعد ووعيد، وهذه مخالفة لمنهج السلف الصالح، وذكر ابن القيم ﷺ أنواع الشهق، ثم قال: «وبكل حال: فسبب الشهقة، قوة الوارد، وضعف المحل عن الاحتمال» (الفوائد ص٢٦٧) ومهما يكن مِن شيء، فإن ذلك مخالف لهدي السلف الصالح الذين جمعوا بين الرغبة والرهبة، في سماعهم لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

(٦) نقله ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٨٨.

(٧) هي الصحابية الجليلة ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر الصديق، وزوج الزبير بن العوام، أسلمت قديما في مكة، وعاشت مئة سنة، روى لها أصحاب الكتب، توفيت سنة ثلاث أو أربع وسبعين. انظر: التقريب ص٦٦١.

كان أصحاب رسول الله ﷺ عند قراءة القرآن؟! قالت: كانوا كما ذكرهم الله ﷻ، تدمع عيونهم، وتقشعر جلودهم. فقلت لها: إن ههنا رجالا إذا قرئ على أحدهم القرآن غُشِيَ عليه!!، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!!][1]، و[مر ابن عمر ﵄ برجل ساقط من العراق، فقال: ما شأنه؟، فقالوا: إذا قرئ عليه القرآن يصيبه هذا!!، فقال: والله إنا لنخشى الله ﷻ وما نسقط][2]، وقيل لعائشة ﵂: [إن قوما إذا سمعوا القرآن صُعِقوا، فقالت: إن القرآن أكرم أن يُنزف عنه عقول الرجال، ولكنه كما قال الله ﷻ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[الزمر:٢٣]][3]، و« سُئل أنس بن مالك ﵁: عن القوم يقرأ عليهم القرآن، فيصعقون، فقال: ذلك فعل الخوارج »[4]، و« سُئل محمد بن سيرين[5] ﵀:عن الرجل يقرأ عنده القرآن فيصعق، فقال: ميعاد ما بيننا وبينه أن يَجلس على حائط، ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن وقع فهو كما قال! »[6]، وما ثبت أن السلف الصالح ﵃ كان أحدهم يغشى عليه عند قراءة القرآن، فهذا إما أنه مكذوب عليه، أو ضعيف لا يصح[7]، ثم لو صح عن بعض التابعين فليس فيه حجة، وإنما الحجة في كتاب الله ﷻ، وقد وصف المؤمنين بأنهم إذا سمعوا القرآن توجل قلوبهم، ويزدادون إيمانا، وتقشعر جلودهم، وتذرف عيونهم، ولم يذكر فيه الصعق، والإغماء، والغشيان، وكذلك سنة نبينا ﷺ والصحابة ﵃، قال ابن الجوزي ﵀: « وما كان في الصحابة من يجري له مثل هذا، ولا

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٢٨٨.

(٢) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١١١، وانظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٢٨٨.

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١١٢.

(٤) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١١٢.

(٥) هو التابعي الجليل: محمد بن سيرين الأنصاري، أبو بكر ابن أبي عمرة البصري، ثقة ثبت عابد كبير القدر، كان لا يرى الرواية بالمعنى، واشتهر بتفسير الرؤى، روى له أصحاب الكتب، توفي سنة ١١٠هـ. انظر: التقريب ص ٤١٨.

(٦) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١١٢.

(٧) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٢٨٦.

التابعين»[(١)]، قال شيخ الإسلام: «ولا صعق لا هو، ولا أصحابه عند سماع القرآن، بل كانوا توجل قلوبهم، وتقشعر جلودهم، وتدمع عيونهم»[(٢)].

١٣- ومن قراءاتهم التي يزعمون أنهم يتقربون بها إلى الله ﷻ، ما يفعلونه فيما يسمونه بـ"قراءة الترقيص"!!، حيث يقرؤون بالأنغام والتمطيط، ويرفعون أصواتهم بالقراءة في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول ـ احتفالا واحتفاء بالمولد!! ـ، وهذا كله في بيوت الله ﷻ، ومعلوم أن هذا لم يعهد عن السلف[(٣)]؛ وإنما انتشر في الخلف الذين لم يفهموا مقصود نزول القرآن الكريم، إن اعترفوا بنـزوله، وأيقنوا أنه كلام الله ﷻ.

١٤- تعيين مكان معين للقراءة، لم يعينه الشارع، فهذا لا يشرع باتفاق العلماء[(٤)]، كمن يقرأ القرآن عند القبور، فهذا كرهه أبو حنيفة، ومالك، والإمام أحمد، وطوائف من السلف[(٥)]، فـ«القراءة عند القبور مكروهة ـ أي كراهة تحريمية ـ عند أبي حنيفة، ومالك، وأحمد في رواية؛ لأنه محدث، لم ترد به السنة»[(٦)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧] والمراد بالقلب: القلب الحي الذي يعقل عن الله[(٧)] كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[يس:٣٦-٣٧] أو عند افتتاح الأمور والدور، وما يكون من المناسبات والحبور، أو في المآتم وحين يحصل الشرور، فعزلوا القرآن الكريم عن حياة الناس إلا في مثل هذه المحافل: فرح، أو حزن، وفي كلتا الحالتين الناس عن معانيه منشغلون، إما

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٢٨٦، وانظر: الشرح والإبانة لابن بطة ص ٣٦٣، بدع القراء لبكر أبي زيد ص٢٣.

(٢) الجواب الصحيح ٦/ ٣٧٠.

(٣) انظر: الإبداع في مضار الابتداع ص ٢٧٢.

(٤) انظر: المجموع ٣١/ ٤١.

(٥) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ٢/ ٧٤١، المجموع ٣١/ ٤١-٤٢، الفتاوى الكبرى ١/ ٢٠٧، شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور لمرعي الحنبلي ص ٧٥.

(٦) شرح الفقه الأكبر لملا علي القاري ص ١١٠.

(٧) الفوائد لابن القيم ص ٧.

بسرورهم، وإما بحزنهم، حتى أصبح ظَنَّ بعض الساسة القرآن لا يعمل به ـ حتى من حيث القراءة ـ إلا في المناسبات، وأما التحاكم إليه، والاعتقاد بما فيه، والعمل بما يقتضيه، فقليل من يتنبه له منهم(١).

١٥- تعلم القرآن والقراءات للمناسبات، وابتغاء الفانيات، مع أن من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله، ثم لم يخلِص فيه، كان متوعدا أشد الوعيد؛ لأن هذا مخالف لنصوص الوحيين، ومجانب لعمل الصحابة والتابعين، قال النبي ﷺ: **[من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف(٢) الجنة يوم القيامة]**(٣)، فيجب «على حامل القرآن، وطالب العلم، أن يتقي الله في نفسه، ويخلص العمل لله؛ فإن كان تقدم له شيء مما يكره، فليبادر التوبة والإنابة، وليبتدي الإخلاص في الطلب وعمله»(٤)، وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: **[كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجري عليها الناس؛ فإذا غير منها شيء، قيل: قد غيرت السنة!!، قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟، قال: إذا كثر قراؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم، وقل أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين]**(٥)، قال القرطبي رحمه الله مبينا التلحين والتمطيط الذي هو حرام: «إنما هو بترديد الأصوات، وكثرة الترجيعات؛ فإن زاد الأمر على ذلك، حتى لا يفهم معناه؛ فذلك حرام باتفاق، كما يفعل القراء بالديار المصرية، الذين يقرؤون أمام الملوك، والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور، والجوائز، ضل سعيهم، وخاب عملهم؛ فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في تنـزيله، ما ليس فيه جهلا بدينهم، ومروقا عن سنة نبيهم، ورفضا لسير الصالحين فيه من سلفهم،

(١) انظر: مجموعة رسائل الجامي ص ١١٥.

(٢) العرف: قال أبو داود: يعني ريحها. انظر: سنن أبي داود ٤/ ٤٨.

(٣) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب/ في طلب العلم لغير الله، ح(٣٦٦٤)، عن أبي هريرة ﷺ، قال الألباني: إسناده صحيح، كما في تعليقه على المشكاة، ح(٢٢٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٧.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٥٢، ح(٣٧١٥٦)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٧.

ونزوعا إلى ما زين لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ فهم في غيهم يترددون، وبكتاب الله يتلاعبون؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون»(١).

١٦- وبعض هؤلاء يصدون الناس عن تفهم القرآن الكريم، ويقول: إن فهم القرآن صعب!! ـ مع أن الله يسره ـ، وفهمه لا يكون إلا للمجتهدين، وأما نحن فنقرأ كتب الفقه، وكتب الرقائق، والزهد والتصوف!!(٢)، والله ﷻ أخبر أنه جعله قرآنا عربيا، فبين أنه أنزله عربيا؛ لأن يعقلوا، والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه، قال ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:٣]، وذم الله من لم يفهم القرآن في أكثر من آية، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[الإسراء:٤٥-٤٦]، وقال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[النساء:٧٨]، وذم من لم يكن حظه من القرآن إلا استماع الصوت دون فهم المعنى(٣)، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:١٧١]، و قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٤).

١٧- القراءة بالقراءات الشاذة، والإقراء بها، فإن هذا مخالف لما أجمع عليه الصحابة من الاجتماع على مصحف عثمان ﷺ، ولأن القراءة لا تثبت إلا بالسند الصحيح، الموافق للرسم الصريح، ووجه من اللغة العربية ولو غير فصيح، وما كان على خلاف هذا فلا تجوز القراءة بها، ولا الإقراء بها(٥).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١/ ١٥.

(٢) وهذا سمعته عن غير واحد ممن لا يلقون لاتباع السلف بالا، ونقله إلي غير واحد من الثقات، أناس معممون ينهون الناس عن الجلوس إلى دروس التفسير!!، ويقولون: نخاف عليك أن تكفر من دون أن تشعر!!.

(٣) انظر: المجموع ٨/ ١٥٨، الكلام على مسألة السماع لابن القيم ص ٤٤.

(٤) سورة محمد، الآية ٢٣-٢٤.

(٥) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١١٣، بيان زغل العلم والطلب للذهبي ص ٤-٥، بدع القراء للشيخ بكر أبي زيد ص ١٧.

١٨- وقد تجد بعض أهل البدع يعظمون المصحف، ولكن بماذا يعظمونه؟؟ بتحليته بالذهب، ونحوها، مع أن هذا لم يكن معهودا عن السلف ﷺ ، فإذا كان التذهيب على وجه القربة فلا شك في بدعيته[١].

وبهذا يظهر للمنصف أن المخالفين للسلف لم يكن حظهم في التبعد بالقرآن الكريم إلا القراءة، بل القراءة التي لا توافق السنة، ومن تعبداتهم بالقرآن الكريم التبرك به على وجه غير مشروع، وهذا ما يتبين لك في المبحث التالي.

(١) انظر: الحوادث والبدع للطرطوشي ص ١٥٥، الإبداع لعلي محفوظ ص٧٢.

المبحث الثاني: التعبد بالتبرك به

التبرك بالقرآن الكريم يكون بإظهار أوامره، وبيان آثاره على الإنسان قولا وفعلا، وذلك بالعمل بما فيه، والتحاكم إلى قضاياه، والاعتقاد بما فيه، ويكون التبرك بالقرآن من حيث الاستشفاء به، وهذا ما كان عليه السلف ـ رحمهم الله ـ[(١)].

وأما الخلف فإنهم يتعبدون إلى الله ﷻ بالتبرك به ظاهرا، كأن يتمسحَ به أَحَدُهم، أو يضع المصحف أو شيئا من القرآن على صدره رجاء البركة، أو على رأسه رجاء الخير، وهذا كله لم يؤثر عن السلف الصالحين، فضلا عن النبي الكريم ﷺ.

والمخالفون إذا قرؤوا أو درسوا القرآن فإنما هي مدارسة للبركة، قال ابن القيم رحمه الله: «ولقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض أتباع تلاميذ هؤلاء أنه رآه يشتغل في بعض كتبهم، ولم يحفظ القرآن، فقال له: لو حفظت القرآن أولا كان أولى، فقال: وهل في القرآن علم!!، قال ابن القيم: وقال لي بعض أئمة هؤلاء: إنما نسمع الحديث لأجل البركة لا لنستفيد منه العلم!!!»[(٢)].

فغالب المخالفين للسلف من مسلمة اليوم «قد اكتفوا من القرآن بألفاظ يرددونها، وأنغام يلحنونها، في المآتم، والمقابر، والدور، وبمصاحف يحملونها، أو يودعونها تركة في البيوت، ونسوا أن بركة القرآن العظمى؛ إنما هي في تدبره، وتفهمه، وفي الجلوس إليه، والاستفادة من هديه، وآدابه، ثم في الوقوف عند أوامره، ومراضيه،

---

(١) انظر: الفصل الثالث، من الباب الأول.

(٢) الفوائد ص١٤٤، ولقد أخبرني والدي رحمه الله أنه حضر دورة للحديث في كابل ورأى أنّ هؤلاء إذا مرُّوا على الأحاديث التي تخالف معتقدهم أو مذهبهم قالوا: هذه للبركة!!.

والبعد عن مساخطه، ونواهيه»[(١)].

وصور تبرك المخالفين بالقرآن الكريم كثيرة، والبدع فيها غير محصورة، ومنها:

١- جعلهم القرآن الكريم، كلام رب العالمين، بدلا عن الكلام، مع أن هذا نهى عنه السلف، قال إبراهيم النخعي رحمه الله: «كانوا يكرهون أن يتلوا الآية عند شيء يَعرِضُ من أمر الدنيا»[(٢)]، قال أبو عبيد رحمه الله: «وهذا كالرجل يريد لقاء صاحبه، أو يَهِم بالحاجة فتأتيه من غير طلب، فيقول كالمازح: جئت على قدر يا موسى! وهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب[(٣)] رحمه الله: «لا تُناظر بكتاب الله، ولا بسنة رسول الله ﷺ»، قال أبو عبيد: لا تجعل لهما نظيرا من القول، ولا الفعل»[(٤)]، فالسلف منعوا الاستشهاد بالقرآن على غير المراد الذي من أجله أنزل، وإيراده اقتباسا أو أساسا على الوجه الذي نزل هو المقصود[(٥)]، قال ابن عقيل رحمه الله: «كان أبو إسحاق الخراز[(٦)] صالحا، وهو أول من لقنني كتاب الله، وكان من عادته الإمساك عن الكلام، في شهر رمضان؛ فكان يخاطب بآي القرآن، فيما يعرض إليه من الحوائج، فيقول في إذنه: ادخلوا عليهم الباب، ويقول لابنه في عشية الصوم: من بقلها وقثائها، آمرا له أن يشتري البقل، فقلت له: هذا الذي تعتقده عبادة هو معصية، فصعب عليه؛ فقلت: إن هذا القرآن العزيز أنزل في بيان أحكام شرعية؛ فلا يستعمل في أغراض دنيوية، وما هذا إلا بمثابة صر السدر[(٧)]، والأشنان في ورق المصحف، أو توسدك له، فهجرني ولم يصغ إلى الحجة!!!»، قال ابن الجوزي قبله: «ومن تلبيس إبليس على قوم من الزهاد

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ١٠-١١.

(٢) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٥٨، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ١٥، وانظر: التبيان للنووي ص١١٨.

(٣) هو الحافظ الفقيه: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أبو بكر ، متفق على جلالته، وإتقانه، روى له أصحاب الكتب، مات سنة ١٢٥هـ. انظر: التقريب ص٤٤٠.

(٤) فضائل القرآن ص ٥٩.

(٥) انظر: كشاف القناع ١/ ٤٣٤، سبعون فتوى في احترام القرآن لعلي أبي لوز ص ٨١ وما بعدها.

(٦) لم أعرفه.

(٧) المعنى: ربط أوراق السدر في المصحف، وفي الأصل(صك)ولم أجده في مادة (ص ، ر ، ك)، فلعله تصحيف من الصرة، وهو الربط ـ والله تعالى أعلم ـ.

الذي دخل عليهم فيه من قلة العلم، أنهم يعملون، بواقعاتهم، ولا يلتفتون إلى قول الفقيه»[١]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد استعمال القرآن لغير ما أنزله الله له[٢]، وبذلك فسر العلماء الحديث المأثور[٣] **[لا يناظر بكتاب الله]** أي: لا يجعل له نظير يذكر معه، كقول القائل لمن قدم لحاجة "لقد جئت على قدر يا موسى"، وقوله عند الخصومة "متى هذا الوعد"... ثم إن خرجه مخرج الاستخفاف بالقرآن والاستهزاء به كفر صاحبه، وأما إن تلا الآية عند الحكم الذي أنزلت له، أو ما يناسبه من الأحكام فحسن...»[٤]، قال في البحر الرائق في بيان ما يكفر به الرجل: «وبالمزاح بالقرآن، كقوله: التفت الساق بالساق، أو ملأ قدحا، وجاء به، وقال: كأسا دهاقا، أو قال عند الكيل أو الوزن: وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون»[٥]، وقال في الفروع: «ولا يجوز أن يجعل القرآن بدلا من الكلام، ذكره ابن عقيل، وتبعه صاحب المغني، والمحرر؛ لأنه استعمال له في غير ما هو له، كتوسد المصحف، أو الوزن به...، وذكر شيخنا[٦]: إن قرأ عند الحكم الذي أنزل له، أو ما يناسبه، ونحوه فحسن..، كقوله إذا هم وحزن: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله»[٧]، فهذا تفصيل بديع، **وهو التفريق بين سياق الآية لما أنزل، وذكرها لذلك**، فهذا يسمى استشهادا، واستئناسا، وبين ذكر الآية من دون مناسبة قريبة ظاهرة، فهذا جعل للقرآن بدلا عن الكلام، **ويفرق بينهما في النية أيضا.**

٢- ومما يتعبد به المخالفون للسلف، وزعموا أنه من باب التبرك، كتابة شيء من القرآن الكريم على الحيطان والثياب[٨]، وهو لم يرد عن

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٧٦-١٧٧، وانظر: الفتاوى الكبرى ١/ ٢٠٨، المجموع ٢٣/ ٦٦.

(٢) وبهذا يعلم أن استعمال القرآن فيما أنزل له هو المقصود، كأن ترى مسلما مسرفا على نفسه، فتقول له: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله»، وهكذا، فهذا استعمال للقرآن فيما أنزل له.

(٣) هو مأثور من قول ابن شهاب، كما سبق ص٥٠٠.

(٤) مختصر الفتاوى المصرية ص ٥٧٨.

(٥) ٥/ ١٣١.

(٦) أي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

(٧) انظر: الفروع لابن مفلح ٣/ ١٤٤.

(٨) انظر: السير ٩/ ١٨٤.

السلف[١]، ومعلوم أن «من انتفع بالقرآن فيما أنزل من أجله؛ فهو على بينة من ربه، وهدى وبصيرة، ومن كتبه على الجدران، أو على خرق تعلق عليها، ونحو ذلك زينة، أو حرزا، وصيانة للسكان، والأثاث، وسائر المتاع، فقد انحرف بكتاب الله، أو بآية، أو بسورة منه عن جادة الهدى، وحاد عن الطريق السوي، والصراط المستقيم، وابتدع في الدين، ما لم يأذن به الله، ولا رسوله ﷺ قولا، أو عملا، ولا عمل به الخلفاء الراشدون، وسائر الصحابة ﷺ أجمعين، ولا أئمة الهدى في القرون الثلاثة التي شهد لها النبي ﷺ بأنها خير القرون، ومع ذلك فقد عرض آيات القرآن، أو سوره للإهانة...، وجدير بالمسلم أن يرعى القرآن وآياته، والمحافظة على حرمته، ولا يعرضه لما قد يكون فيه امتهان له»[٢]، وبعضهم قد يكتبه بشيء نجس زعما منه أنه أبلغ في التداوي!!، فيكتبه بدم الحيض، أو غيره!!!، ومعلوم أنه «لا تجوز كتابة القرآن بشيء نجس»[٣]، ومن هذا كتابة القرآن على القبور، أو على الأضرحة؛ فإن هذه بدعة منكرة[٤].

٣- ومن التبرك غير المشروع ما يفعله بعض المخالفين من كتابة القرآن في الحروز ومعها شيء من الطلاسم، والحسابات، والمبتدعات[٥]، والتعاويذ، وتعليقه على الصبيان، والنساء، بل والدواب، وهذا كله زعم منهم أنه من باب التداوي[٦]، بل

---

(١) انظر: التبيان للنووي ص ١٥٨، ١٧٣، مختصر الفتاوى المصرية ص ٣١٨، الإتقان للسيوطي ٢/ ١٧٠، كشاف القناع ١/ ١٣٧.

(٢) من فتاوى اللجنة الدائمة، فتوى رقم: (٢٠٧٨) موقعة من كل من: عبد الله بن قعود، عبد الله بن غديان، عبدالرزاق عفيفي، عبد العزيز بن باز: (رئيسا). وانظر: سبعون فتوى في احترام القرآن لعلي أبي لوز ص٤٤.

(٣) التبيان للنووي ص١٧٣، وانظر: كشاف القناع ١/ ١٣٧، بل نقل عن ابن عقيل أن من كتب المصحف بشيء نجس وجب قتله.

(٤) انظر: اللمع لابن التركماني ١/ ٢١٥.

(٥) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي١/ ٢٧٤، بل ومنهم من يزعم أن تحلية الحروز بالذهب جائزة؛ لأنها من القرآن، فهل هذا سبيل تعظيم شعائر الرحمن!!. انظر: مواهب الجليل شرح مختصر خليل ١/ ١٢٦، وقد بين الشيخ ابن باز ﷺ أن المعلقين للتمائم إنما يريدون البركة والنفع؛ ولهذا يعلقون التمائم. انظر: فتاوى وتنبيهات ص ٢٥٣.

(٦) انظر: التبيان للنووي ص ١٥٩.

أرادوا التبرك غير المشروع، كما قال القرطبي: « لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها!! »[(١)]، ومن هذا ما يفعله بعض الخلف في زماننا من وضعهم المصاحف في السيارات، دفعا لعين الحاقدين والحاقدات!! فهذا نوع تبرك به غير مشروع، وهو عمل لم يثبت عن السلف، وليس عليه دليل من الشرع[(٢)]، فوضع الآيات على الدواب فيه نوع إهانة، ثم الحروز والتمائم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٢٠٧، وقد نقلها عن الإمام مالك رحمه الله، ولم أجده عنه، والممنوع من التمائم والحروز ما كان منها مخلوطا مع غير القرآن مما فيه تلبيس أو تدليس، وأما إذا كان من القرآن، فهذا فيه خلاف، والأظهر منعه، وقد ثبت عن إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي أنه قال: « كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغيره » (فضائل القرآن لأبي عبيد ص٢٣١)، وقوله: يكرهون، قيل يرجع إلى أهل العراق تلامذة ابن مسعود، والذي يظهر أنه عام عن السلف رضي الله عنهم إذ لم يثبت عنهم خلاف ذلك، وتأكد لي هذا العموم لما وقفت على كلام الإمام الشوكاني رحمه الله حيث يقول: « وقد ورد ما يدل على عدم جواز تعليق التمائم، فلا يقوم بقول عبد الله بن عمرو حجة »، وذلك لأنه لم يثبت هذا القول عن ابن عمرو رضي الله عنه وأكد عموم خبر النخعي العلامة الشيخ الألباني رحمه الله، وأما حديث ابن عمرو فروي مرفوعا، وفيه: [**أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون، وكان عبد الله ابن عمرو: يعلمهن مَن عقل من بنيه، ومن لم يعقل، كتبه فعلقه عليه**] (رواه أبو داود،ح(٣٨٩٣) والترمذي ح(٣٥١٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة ص٧٦٥ المرفوع دون الموقوف)، قال الشيخ الألباني: « لم يصح إسناده إلى ابن عمرو؛ لأن فيه محمد بن إسحاق وهو مدلس، وقد عنعنه؛ فلا يجوز الاحتجاج به على جواز تعليق التمائم من القرآن؛ لعدم ثبوت ذلك عن ابن عمرو »، ثم بين الشيخ أن المرفوع منه له شاهد عند ابن السني، والموقوف ليس له شاهد، ولعل النسائي تعمد حذفه لنكارته، وفي قول الترمذي: حسن غريب، إشارة منه إلى ضعف إسناده. (انظر: الكلم الطيب لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق الشيخ الألباني ص ٨٤-٨٥). وانظر: فتاوى الدين الخالص ١/٦١، قال الشيخ ابن باز رحمه الله: « القول الثاني: أنها لا تجوز، وهذا هو المعروف عن عبد الله بن مسعود، وحذيفة رضي الله عنه، وجماعة من السلف، والخلف، قالوا: لا يجوز تعليقها، ولو كانت من القرآن، سدا للذريعة، وحسما لمادة الشرك، وعملا بالعموم؛ لأن الأحاديث المانعة من التمائم أحاديث عامة، لم تستثن شيئا، والواجب: الأخذ بالعموم؛ فلا يجوز شيء من التمائم أصلا؛ لأن ذلك يفضي إلى تعليق غيرها، والتباس الأمر، فوجب المنع، وهذا هو الصواب لظهور دليله؛ فلو أجزنا التميمة من القرآن، ومن الدعوات الطيبة، لانفتح الباب، وصار كل واحد يعلق ما شاء؛ فإذا أنكر عليه، قال: هذا من القرآن!!، أو هذه من الدعوات الطيبة، فينفتح الباب، ويتسع الخرق، وتلبس التمائم كلها، وهناك علة ثالثة وهي: أنها قد يدخل بها الخلاء، ومواضع القذر، ومعلوم أن كلام الله ينزه عن ذلك، ولا يليق أن يدخل بها الخلاء » (فتاوى وتنبيهات، ص٢١٤، وانظر: ص٢٧٣).

(٢) وقد أفتى الشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله: « أن وضع المصحف في السيارة، لدفع العين لا يجوز »، وانظر: السنن والمبتدعات للشقيري ص ٢١٥، ٣٣١.

من القرآن يخلط بالشرك!!، فيجعل القرآن تلبيسا، والمقصود الشرك تأسيسا، بل ربما كان فيها نوع استعانة بالجن(١)، قال شيخ الإسلام ﷺ: «وعامة ما يقوله أهل العزائم فيه شرك، وقد يقرؤون مع ذلك شيئا من القرآن، ويظهرونه، ويكتمون ما يقولونه من الشرك، وفي الاستشفاء بما شرعه الله ورسوله ما يغني عن الشرك وأهله»(٢). وقريب من هذا التبرك غير المشروع، ما يفعله بعض أهل البدع من كتابة القرآن على الأثواب، ولبس ذلك لإخراج الجن(٣)، أو يكون ذلك تبركا، ولعل هذا كان معروفا ولهذا ذكره في كشاف القناع، فقال: «وهل يجوز مس ثوب رقم بالقرآن!!»(٤)، وهذا يدل أن هناك ثيابا كانت ترقم وتكتب فيها القرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤- ومن ذلك قراءتهم ـ تبركا ـ القرآن على الميت!!(٥) فهذا تركه النبي ﷺ، وتركه الصحابة، مع قيام المقتضي للفعل، والشفقة للميت، وعدم المانع منه؛ فيقتضي أن ترك القراءة هو السنة، وفعله بدعة، وكيف يعقل أن يترك الرسول ﷺ وأصحابه شيئا نافعا لأمته يعود عليها بالرحمة، ويتركه الرسول ﷺ طول حياته، ولا يقرؤه على

---

(١) انظر: معيد النعم ومبيد النقم للسبكي ص ١١٧، التمائم في ميزان العقيدة د.علي نفيع العلياني.

(٢) المجموع ١٩/ ٦١.

(٣) وقد سئل شيخنا العلامة عبد المحسن العباد ـ حفظه الله ـ عن هذا فقال: «هذا امتهان للقرآن، كيف يستر به العورة!؟، وهذا يعد من التمائم».

(٤) كشاف القناع ١/ ١٢٥.

(٥) انظر: التبيان للنووي ص١٦٨، الدار الآخرة لدستغيب الرافضي ص٢٣٢، وقد ذكروا في ذلك أحاديث موضوعة وضعيفة لا تصح، بل ووضع بعضهم في ذلك أحاديث باطلة، مثل ما يروى عن علي ﷺ مرفوعا: [**من مر على المقابر، وقرأ قل هو الله أحد، إحدى عشرة مرة، ثم وهب أجرها للأموات، أعطي من الأجر بعدد الأموات!!**] (ذكره ابن عابدين في حاشيته ٤/ ١٢) بل وزعم ابن عابدين بعد ذكر بعض الأدلة العامة، ومثل هذه الأحاديث الموضوعة والضعيفة: أن النفع بعمل الغير بلغ مبلغ التواتر، قلت: إن كان يقصد الدعاء، والصدقة، فنعم، وأما إن كان يقصد قراءة القرآن، فلا؛ فإن الخلاف فيه مشهور، وعن العلماء مزبور، والصحيح منعه، والصواب عدم ثبوته، ومثل هذا ما ذكره الخلال عن مجالد عن الشعبي [**أن الأنصار كانوا يقرؤون عند الميت القرآن**] فهذا مرسل لأن الشعبي لم يدرك الصحابة ﷺ، ثم إن مجالدا ضعيف، ومثل هذه القصص كثيرة يذكرونها، ولا تصح، كما ذكرها ابن القيم في كتاب الروح. انظر: ص ١٧، وما بعدها، وانظر: حاشية ابن عابدين ٣/ ٨٠.

ميت ولو مرة واحدة؟؟. وزعموا أن في ذلك دليلا[(١)]، وهو ما جاء مرفوعا: **[اقرؤوا "يـس" على موتاكم]**[(٢)]، والجواب عن هذا من عدة أوجه: **الأول**: أنه ضعيف لا يصح؛ فإن الأئمة لم يقبلوا الحديث لضعف سنده[(٣)]. **الثاني**: أنه لو صح فإنه يحمل على ما فهمه السلف، قال ابن حبان رحمه الله: «أراد به من حضرته المنية، لا أن الميت يقرأ عليه»[(٤)]. **الثالث**: أن هذا ـ لو صح ـ فإنه مثل: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله"، وهو بالاتفاق حالة الاحتضار، لا بعده. **الرابع**: أن هذه القراءة ـ لو صحت فهي ـ للتخفيف على المحتضر، حتى يستبشر بالجنة، ويسهل عليه الفراق، وليخفف عنه بها، ولهذا قيل: إذا قرئت "يس" عند الميت خفف عنه بها[(٥)]. وأما ما ورد من قراءة سورة البقرة على الميت، فهذا لم يثبت قطعا[(٦)]، فالتقرب إلى الله عز وجل يكون بما شرع، لا بالبدعة والأمر المخترع، ولهذا عد العلماء المتبعون قراءة القرآن عند المقبور[(٧)]، وقراءة "يس" عند القبور من المبتدعات[(٨)]، وكذلك قراءة فاتحة الكتاب عند رأس الميت رجاء البركة، وقراءة الفاتحة وخاتمة البقرة عند رجلي الميت، يفعلونه ولا دليل عليه من آية أو حديث[(٩)]، ومن ذلك الختمة التي يسمونها ختم القرآن لروح الميت؛ فإن هذه

---

(١) وقد زعم ذلك المالكي في كتابه: خصائص القرآن ص ٨٢.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب/ القراءة عند الميت، ح(٣١٢١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة، باب ما يقرأ عند الميت، ح(١٠٧٤)، وفي السنن الكبرى، باب/ ما يقرأ على الميت،ح(١٠٨٦٤) وغيرهما.

(٣) قال النووي: «إسناده ضعيف». انظر: التبيان ص ١٦٩، وقال الحافظ ابن حجر: «حديث غريب، وقد أعله ابن القطان بالاضطراب، وبالوقف، وقال الدارقطني: حديث ضعيف الإسناد، مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث». انظر: تلخيص الحبير ٢/ ١٠٤.

(٤) صحيح ابن حبان ٥/ ٣، التلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ١٠٤، وانظر: حاشية ابن عابدين ٣/ ٨٠.

(٥) انظر: التلخيص الحبير ٢/ ١٠٤.

(٦) انظر: التبيان ص ١٦٩.

(٧) انظر: المدخل لابن الحاج ٣/ ٢٦٣، شرح الإحياء للزبيدي ٢/ ٢٨٥، الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ ص ٤٤، والعجب مما ذكره الذهبي في السير ١٨/ ٥٤٧، في ترجمة القشيري: أن الناس لزموا قبره مدة حتى قيل ختم على قبره عشرة آلاف ختمة!!!.

(٨) انظر: أحكام الجنائز للألباني ص ٢٥٩.

(٩) انظر: أحكام الجنائز للألباني ص ٢٥٤، وذكر الشيخ رحمه الله أن ما جاء عن ابن عمر أنه أمر بذلك، كما في

القراءة لم تثبت عن السلف ﷺ[١].

٥- أن المخالفين للسلف تركوا السنة الواردة في دعاء المقابر، وابتدعوا من عندهم أورادا وأذكارا، وقراءات للقرآن عند الزيارة، غير ما شرعه النبي المختار ﷺ، وهذا يدل على بعدهم عن السنة، وتشوفهم للبدعة، فيقولون مثلا عند زيارة شهداء أحد: «يقول: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، ويقرأ آية الكرسي، والإخلاص إحدى عشرة مرة!!، وسورة يس إن تيسر ويهدي ثواب ذلك لجميع شهداء أحد، ومن بجوارهم من المؤمنين» !!![٢].

٦- ومن ذلك تبركهم بتقبيل المصحف تعبدًا[٣]، وجوّزوا ذلك ظنا منهم أنه من التعظيم[٤]، وبعضهم يضعه على جبهته كمن يسجد على شيء، ومعلوم أن تعظيم شعائر الله يكون بما شرعه الله، واستدلالهم بما روي عن عكرمة بن أبي جهل ﷺ: «أنه كان يضع المصحف على وجهه، ويقول كتاب ربي، كتاب ربي»[٥]. فهذا عنه أجوبة: **الأول:** أن هذا لم يثبت عن عكرمة فإن الحسن البصري أرسله عنه، فهو منقطع[٦]. **الثاني:** أنه ـ لو صح ـ ليس فيه ما يدل على التقبيل، وإنما كان يضعه على وجهه معظما لكونه كلام الله ﷻ. **الثالث:** أن المصحف كان معروفا في عهد السلف، ولم يؤثر عنهم ذلك، وهم من أشد المعظمين لكلام الله ﷻ، فدل ذلك على عدم مشروعيته، على وجه

= سنن البيقي ضعيف لا يثبت عن ابن عمر ﷺ، وانظر: زاد المعاد ١/ ٥٢٧، اللمع للتركماني ١/ ٢١٦.

(١) انظر: السنن والمبتدعات للشقيري ص ٣١٩، بدع القراء لمحمد موسى ص ١٣-١٤.

(٢) نور الإيضاح ورواح الأرواح ص ١٥٨.

(٣) انظر: ما كتبته حول هذه المسألة في كتابي إتحاف أهل القبلة بأحكام القبلة ص ٧٢، وما بعدها.

(٤) انظر: طبقات الشافعية للسبكي ١٠/ ٢٦٩، وقال: هو ثابت بالقياس!!، وهل العبادة تثبت بالقياس؟؟، وانظر: الفتح ٣/ ٥٥٥.

(٥) رواه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب/ في تعاهد القرآن، ح(٣٣٥٠)، والحاكم في مستدركه ٣/ ٢٧٣.

(٦) كما قال الذهبي في تلخيصه، انظر: مستدرك الحاكم ٣/ ٢٧٣، وكذلك ما روي عن ابن أبي مليكة عن عكرمة فهو مرسل أيضا؛ فإن ابن أبي مليكة لم يرى عكرمة، ولهذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد(٩/ ٣٨٥) بعد أن ذكر هذا الأثر: «رواه الطبراني مرسلا، ورجاله رجال الصحيح».

القربى[١] **وقريب من هذا وضعهم المصحف على القبر**[٢]، فإن هذا من البدع المنكرة، وليس هذا سبيل التبرك[٣]، أو وضع المصحف عند رأس المحتضر تبركا[٤]، قال الشيخ ابن باز رحمه الله معلقا على ما في الفتح: «الأحكام التي تنسب إلى الدين، لا بد من ثبوتها في نصوص الدين، وكل ما لم يكن في زمن التشريع، وفي نصوص التشريع؛ فهو مردود على من يزعمه، وتقدم قول الإمام الشافعي: ولكننا نتبع السنة فعلا وتركا»[٥].

٧- إحضار القراء عند العزاء، ويقرؤون القرآن رجاء البركة للميت، وانتفاعه به، والقارئ همه المال، والمستمعون في شغل عن القرآن، ويرفعون الأصوات مع الخلان، ويخلطون ذلك بالغوغاء وشرب الدخان[٦].

٨- ومن تبركاتهم البدعية بالآيات القرآنية، أو المصحف، **أخذهم الفأل من المصحف**، أو من الآيات، وذلك بفتح القرآن[٧]، ثم ينـظر على ماذا يقع عينه، فيتفاءل

(١) انظر: الفواكه الدواني ١/ ٣٦٥، إتحاف أهل القبلة بأحكام القبلة، لكاتب هذه الأسطر ص٧٢، من فتاوى الأئمة الأعلام حول القرآن جمع عبد الكريم الدرويش ص٢٠٠.

(٢) انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص٢٢٢، تاريخ بغداد٥/ ٣٨٢ فإنهما حكيا وضع المصحف على قبر القاضي أبي بكر الباقلاني الأشعري!!.

(٣) انظر: المجموع ٢٢/ ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٧، الفتاوى الكبرى١/ ٢٠٨، أحكام الجنائز للألباني ص٢٦٢، بدع القراء لمحمد موسى ص ١٥-١٦.

(٤) انظر: بدع الجنائز للألباني ص٢٤٣، بدع المقابر والجنائز لعلي الطهطاوي ص ١٤٤، البحث والاستقراء في بدع القراء لمحمد موسى نصر ص ١٥.

(٥) انظر: حاشية الفتح ٣/ ٥٥٥، الطبعة السلفية.

(٦) انظر: المدخل لابن الحاج ٣/ ٢٤٩،حاشية الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة ص ٢١١، الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ ص ٢٣١، بدع المقابر والجنائز لعلي الطهطاوي ص ١٥١.

(٧) انظر: كشف الظنون ٢/ ١٢١٦، وذكر الخلاف في أخذ الفأل من المصحف، ثم قال: وقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم، ولم أقف على ذلك، وتأكد لي عدم ثبوته من قول شيخ الإسلام وسيأتي، ومن قول صديق حسن خان في أبجد العلوم ٢/ ٣٩٤، حيث قال: «والمعتمد عدم التفاؤل من كتاب الله، ولم يرو عن السلف، بطريق يعتمد عليها في هذا الباب، ولم يقل به أحد من أهل العلم بالحديث؛ وإذا كان فتح الفأل من التنـزيل ممنوعا، فكيف بغيره من كتب الأنبياء والأولياء والمشايخ، وقد تسرب بهذا نوع من الشرك إلى عقائد المسلمين، أعاذنا الله منه»، وهذه بعض المواضع التي يبين كيف يتفاءل القوم بآيات القرآن، وكيف يفتحونه!؟، فقد ذكر الحافظ ابن كثير الفأل في ترجمة العفيف التلمساني، فقال: «وقد ذكر والده أنه حين =

بذلك، أو يتشاءم!!، ومعلوم أن القرآن الكريم ما أنزل لهذا، ولكن أهل البدع يبتدعون في الدين ما يشتهون!![1]، حتى إن أحدهم يريد أن يعرف مسألة عقدية، ليعرف حال فلان هل هو على السنة، أم لا؟؟ فيتبرك بالقرآن بأخذ الفأل منه!!، بدل أن ينظر إلى دلائله، ووضع عقيدة الرجل في ميزان الشرع، فهذا رجل يقول: إنه ذهب إلى قبر القاضي أبي بكر الباقلاني الأشعري فرأى مصحفا على القبر!! «وذلك بعد موته بشهر، فرفعت مصحفا، كان موضوعا على قبره، وقلت: اللهم بين لي في هذا المصحف حال القاضي أبي بكر!، وما الذي آل إليه أمره!!!، ثم فتحت المصحف، فوجدت مكتوبا فيه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[هود:٢٨]»[2]، فعلى هذا الفأل البدعي يكون المخالفون للباقلاني من أهل الحديث والأثر كابن خزيمة وأبي إسحاق الشيرازي، ونحوهم هم المخاطبون بالآيات!!، أي أنهم ليسوا مسلمين!!، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما استفتاح الفأل في المصحف؛ فلم ينقل عن السلف فيه شيء...، وقد حرم الله الاستقسام بها ـ أي الأزلام ـ كالضرب بالحصا، والشعير، واللوح والخشب، والورق المكتوب عليه حروف أبجد، وأبيات شعر، ونحو ذلك: منهي عنه؛ لأنها من أسباب الاستقسام بالأزلام»[3]، وحكي عن ابن العربي المعافري المالكي

= ولد له فتح المصحف يتفاءل!!!؛ فإذا قوله: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، فسماه إسماعيل، ثم ولد له آخر، فسماه إسحاق، وهذا من الاتفاق الحسن!!!» (البداية والنهاية ١٣/ ٣٧٥، وانظر منه ١٣/ ٢٦٧)، وانظر: شذرات الذهب ٤/ ٣، التحفة اللطيفة ٢/ ٣٥٧، تاريخ بغداد ٨/ ٩٢، الكامل لابن الأثير ٤/ ٤٨٦، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٤/ ٥، أبجد العلوم ٢/ ٣٤٩.

(١) انظر: المدخل لابن الحاج ١/ ٢٧٨، وقد ذكر القرطبي أن أخذ الفأل من الكتب هو من الطيرة ٦/ ٢٨٥، الإبداع في مضار الابتداع لعلي محفوظ ص ٧٤، البحث والاستقراء في بدع القراء لمحمد موسى نصر ص ١٩.

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ٣٨٢، تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٢٢.

(٣) المجموع ٢٣/ ٦٦-٦٧، وانظر: مختصر الفتاوى المصرية ص ٢٦٦، وكذلك قال صاحب الفواكه الدواني ٢/ ٣٤٢: **أن الفأل بالمصحف، نوع استقسام بالأزلام**، ولأنه قد يخرج ما لا يريد فيتشاءم بالقرآن، انظر: حاشية العدوي ٢/ ٦٤٥.

تحريمه، وهكذا عن غيره[١]، وفي تصرفهم هذا «رجم بالغيب، وقد يصيبون، وقد يخطؤون، وهذا هو الشأن في الاستخارة، والكشف، ومن يبحث عن الفأل في المصحف، وبالعكس من ذلك: فإنه لا خطأ في الوحي»[٢].

٩- تعليق الآيات القرآنية في البيوت، واتخاذها زينة، أو تبركا، أو كتابتها على الستور، أو اتخاذها رسوما فنية، فهذا كله لم يثبت عن السلف الصالح ﷺ[٣].

فالتبرك بالقرآن لا يكون بما يستحسنه العقل، ولا بما يقوله بعض الناس من دون دليل من النقل، وفي حقيقة الأمر هذا كله يدل على مخالفة الخلف للسلف، وهو في حد ذاته مخالفة للقرآن الكريم، الذي أمر باتباع السلف[٤].

ومن مخالفات الخلف للسلف، مخالفتهم في إعجاز القرآن الكريم، وهذا ما أبينه في الفصل الآتي.

---

(١) انظر: كشاف القناع ١/ ١٣٧.

(٢) رسالة التوحيد للعلامة إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي ص ٣٤، وكان غزوان بن غزوان الرقاشي التابعي الجليل يكثر القراءة من المصحف، وكانت له أم كبيرة جاهلية، فقالت له ذات يوم: يا غزوان أما تجد فيه بعيرا لنا ضل في الجاهلية، قال: فما كرهها، ولا انتهرها، قال: يا أمه، أجد، والله، فيه وعدا حسنا (الطبقات لابن سعد ٧/ ٢١٧) فهذا إذا صح، يدل على أن الفأل بالكتب كان معروفا في الجاهلية، وليس هو من سنن المسلمين النقية.

(٣) انظر: كشاف القناع ١/ ١٣٧، ومنكرات البيوت لرائد ابن أبي علفة ص ٧١.

(٤) انظر: الفصل الثاني من الباب الثالث.

الفصل الرابع

قول المخالفين في كون القرآن آية لنبينا محمد ﷺ

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: قول المعتزلة: بأن العرب صرفوا عن الإتيان بمثله.

المبحث الثاني: صور الإعجاز عند المخالفين.

المبحث الأول
قول المعتزلة بأن العرب صرفوا عن الإتيان بمثله

ذكرت أن العقيدة السلفية في القرآن الكريم كلام رب البرية، أنه معجز للبشرية أن يأتوا بمثله على السوية، أو بعشر سور من مثله بليغة قوية، أو بسورةٍ من مثله في إعجازه بصوره المختلفة الجلية، وذلك لكون القرآن كلام الله ﷻ لا كلام أحد من البشرية.

وأما المعتزلة الغوية، التي اعتقدت خلق القرآن في كلام رب البرية؛ فإنها لا تعتقد الإعجاز، إلا على صورة المجاز، وهو أن القرآن ليس معجزا في نفسه ـ وكيف يكون معجزا في نفسه، وهم اعتقدوا أنه مخلوق كالمخلوقات!! ـ، وإنما إعجازه في كون الله ﷻ صرف البشر عن الإتيان بمثل القرآن من السور، وإلا فهم قادرون على الإتيان بمثله دون غرر!!.

وقولهم هذا يسمى بـ"الصرفة"، وهي: أن الله صرف الخلق عن الإتيان بمثله، مع قدرتهم على ذلك!!، وإنما لم تتوجه هممهم إلى الإتيان، وإلا فهم قادرون على ذلك[(١)].

وبعض المعتزلة تقول: «تأليف القرآن، ونظمه معجز محال وقوعه منهم، كاستحالة إحياء الموتى منهم»[(٢)].

وممن نقل القول بالصرفة، وأنه دليل على إعجاز القرآن، وأن ما سوى ذلك من الأدلة الدالة على الإعجاز فلا يدل على صدق النبي، إذ هو بمقدور البشر، ابن رشد،

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ١/ ٥٣.
(٢) مقالات الإسلاميين ص ٢٢٥، الفرق بين الفرق ص ١٧٣.

فيقول: «وكان القرآن من جنس الأفعال المعتادة عنده إذ هو كلام، وإن كان يفضل جميع الكلام المصنوع؟ قال: إنما صار معجزا بالصرف، أعني بمنع الناس أن يأتوا بمثله، لا بكونه في الطور العالي من الفصاحة...، وقوم رأوا أنه معجز بنفسه لا بالصرف»(١) ثم رجح بعد أن معجزة الرسل في كونهم يأتون بالشرائع المستقيمة والأحكام السديدة، مما فيه سعادة البشر، ويدل لذلك أخبارهم الغيبية، وأفعالهم الحسنة السنية(٢).

بل بالغ بعض المعتزلة كالنظام فأنكر أن يكون القرآن معجزا في عجيب نظمه!!، بل ذلك للصرفة، وإنما معجزته في إخباره عن الغيوب!!(٣).

والقرآن لا ريب في كونه معجزًا، سواء على المعتقد الصحيح ـ الذي عليه السلف ـ، أو سلمنا بقول المعتزلة؛ فإن المقصود حصل، وهو إعجاز الخلق؛ حتى بالصرفة، وهذا جواب لكل منكر للإعجاز في القرآن؛ فإنه لم يأت أحد من فصحاء العرب، ولا من بلغاء الشرق والغرب بمثل القرآن، ولا يأتون بمثله ولو اجتمع له الإنس والجان، و« من أضعف الأقوال، قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي، مع تمام الموجب لها، أو بسلب القدرة التامة المعتادة، في مثله، سلبا عاما...، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته، مع قيام المقتضي التام؛ فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنـزيل وهو: أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله؛ فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة، مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادات»(٤).

قال السمعاني رحمه الله: «ولا نقول كما قال بعض المبتدعة: إن نفس القرآن ليس

---

(١)مناهج الأدلة لابن رشد ص ١١٩.

(٢) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد ص ١٢١-١٢٢.

(٣) مقالات الإسلاميين ص ٢٢٥، وذكر أبو يعلى الفراء في المعتمد ص٢٧٦، أن النظام لا يرى حتى الإعجاز في إخباره بالغيوب!!.

(٤) الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨.

بمعجز، وإن فصاحة بعض الفحول من شعراء الجاهلية لا تكون دون فصاحته، وإنما الإعجاز في القرآن: هو أن الله ﷻ منع الخلق عن الإتيان بمثله، مع قدرتهم عليه. وهذا قول باطل، وزعم كاذب»[1].

فنحن نقول: لمن أنكر إعجاز القرآن: «إن كان هذا القرآن معجزا بنفسه، لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا في قواهم معارضته؛ فقد حصل المدعى، وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله، ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله؛ لصرفه إياهم عن معارضته، مع قدراتهم على ذلك، وهذه الطريقة؛ وإن لم تكن مرضية؛ لأن القرآن في نفسه معجز، لا يستطيع البشر معارضته، إلا أنها تصلح على سبيل التنـزل، والمجادلة والمنافحة عن الحق»[2].

فقول المعتزلة أيضا يثبت به إعجاز القرآن الكريم، على وجه التسليم والتنـزل للخصم، **وأما الرد على القول بالصرفة، فبما يأتي:**

١- أن القول بالصرفة يعني أنه في حقيقة الأمر، لا فرق بين كلام الله، وكلام البشر!!! والحال أن الفرق بينهما ظاهر، سواء كلام البشر قبل المعارضة، أو بعد المعارضة، سواء ما كتبه البشر قبل المعارضة، أو بعد المعارضة، بل الفرق بين كلام الله، وكلام الرسول ﷺ، ظاهر لكل من له أدنى تدبر للسنة[3]؛ فكيف يقال: إنه يمكن الإتيان بمثل القرآن لقدرة البشر على ذلك، ولكن منعوا عنه!!، إذاً أين كلامهم الذي يقارب القرآن ـ فضلا أن يماثله ـ قبل التحدي؟؟، وللعرب أشعار، وخطب، ونثر، وكذلك للعجم.

٢- أن الناس من قريش ومَن سواهم، ومَن بعدهم يجدون الدواعي على المعارضة، ولكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة، لا لأنهم منعوا من الكلام،

---

(١) قواطع الأدلة ١/ ٣٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٢، وانظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص ٣٢٨.

(٣) انظر: الجواب الصحيح ٥/ ٤٣٠.

كما يمنع الرجل السوي[(١)]، ولم يقولوا: يا محمد!! نريد أن نعارض ما جئت به، ولكنا نمنع، ولا نستطيع بسحرك أن نتكلم؛ فهلا تركتنا لنتحدى ما جئت به من الكلام!!؟، فدل هذا على أنهم تركوا المعارضة للعجز عن تحديه، لا للعجز عن القيام به.

٣- أن القول بالصرفة على مذهب المعتزلة مستحيل: إذ كيف يصرف العباد، ويعجزون عن المعارضة، وعن الكلام، أو عن كتابته، وهذه مفعولات للعبد غير مخلوقة لله ﷻ بزعمهم!!!، فأفعال العباد لا تدخل في مقدورات الرب عندهم!!، فإذا كانت لا تدخل في مقدورات الرب؛ فكيف منعهم من المعارضة، والله تعالى بزعمكم لا يقدر أن يخلق أفعال العباد!!!، وهذه وحدها تدلك على ضلال أهل البدع؛ فإن كلامهم ينقض بعضه بعضا؛ فيلزمهم: إما أن يقولوا بالصرفة، ويتركوا قولهم بأن الله لا يقدر على خلق أفعال العباد، وأن الخالق لها هم العباد أنفسهم، دون إرادة الله!!!، أو يقولوا بهذا ويتركوا قولهم بالصرفة.

٤- أن القول بالصرفة يعني: أن المعجزات السابقة للأنبياء كانت أفضل من معجزة محمد ﷺ إذ خلق الله الناقة لصالح، والحية من العصا لموسى ـ عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ، والقوم لم يقدروا عن الإتيان بمثل ذلك لا لكونهم صرفوا اتفاقا، وإنما لعجزهم عن ذلك؛ فيكون على هذا قول المعتزلة أن معجزة نبينا محمد ﷺ دون معجزة الأنبياء السابقين[(٢)]، وقد قال ﷺ: [**ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما على مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**].

٥- أن الإعجاز متعلق بسورة من القرآن، ولو كان الإعجاز متعلّقا بالصرفة لما كان في ذكر التحدي بالسورة من فائدة[(٣)].

---

(١) انظر: الجواب الصحيح ٥/ ٤٣٠.
(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني ١/ ٥٣.
(٣) انظر: فتح البيان ١/ ٨٧.

٦- «أن المتأمل في نظم القرآن، وجزالته، وفصاحته، وعرضه على كل نظم عُرف من أساليب كلام العرب، وكل كلام فصيح عرف من كلامهم، ثُم امتيازه عن الكل بروائه، وبهائه، وطلاوته، وحلاوته، وإغداقه، وإيناقه، وإعجازه ظاهر لكل ذي لب من الناس لولا خذلان يلحق بعض القوم، ونسأل الله العصمة بمنه»[(١)].

وهكذا كل فرقة ضلت وغوت في اعتقادها في كلام الله؛ فإنها تضل فيما يترتب على ذلك من المسائل، وأبين في المبحث الآتي أقوال المخالفين للسلف في إعجاز القرآن الكريم، من غير القائلين بالصرفة.

(١) قواطع الأدلة ١/ ٣٥-٣٦.

المبحث الثاني: صور الإعجاز عند المخالفين.

سبق أن بينت صور إعجاز القرآن الكريم عند السلف، وأنه بلفظه، ومعناه، وبتشريعه، وبيانه، وإخباره، وعلومه[١].

وأما المخالفون للسلف؛ فكل ملة منهم له رأي في إعجاز القرآن الكريم، وذلك ناشئ عن خلافهم في حقيقة القرآن الكريم.

فيرى الصوفية المتفلسفة، أنه يمكنهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن!!، بل قالوا: إن النبي يأخذ من اللوح ونحن نأخذ عن الله مباشرة!!، قال: «عمرو بن عثمان[٢] كنت أماشيه ـ أي: الحلاج[٣] ـ يوما فقرأت شيئا من القرآن؛ فقال: يمكنني أن أقول مثل هذا!!!!»[٤].

ومتفلسفة المسلمين يظنون أن القرآن ليس معجزا بنفسه، ولا معجزا لكونه كلام الله، بل لكون نفس النبي ﷺ قد صفت فجاء بسبب تصفية قلبه، وتصرف نفس النبي!!!، هذا الكلام الذي عجزت النفوس عن الإتيان بمثله!!!، وهذا القول بناء

---

(١) انظر: الفصل الخامس، من الباب الأول.

(٢) هو الزاهد: عمرو بن عثمان ابن كرب بن غصص، أبو عبد الله المكي، صحب الخراز، وروى عن يونس بن عبد الأعلى، وكان من أئمة الفقه، ولي قضاء جدة، وكان ينكر على الحلاج ويذمه، توفي بعد الثلاث مئة. انظر: السير١٤/ ٥٧.

(٣) هو الصوفي الكبير، صاحب المخاريق الشرير: الحسين بن منصور بن محمي، أبو عبد الله الحلاج الفارسي، وجده محمي كان مجوسيا، صحب الحسين التستري الصوفي، والجنيد، وأكثر الترحال والأسفار والمجاهدة على الطريقة الصوفية، تبرأ منه الصوفية الذين عرفوا قوله في الحلول، وكان يميل إلى التشيع مع إظهار التصوف بلون معقول، قتل أيام المقتدر لزندقته، وذلك سنة ٣٠٩هـ. انظر: السير ١٤/ ٣١٣.

(٤) الفرق بين الفرق ص ١٩٨.

على أنه لا وحي ولا موحي؛ وإنما ذلك تخيلات في نفس النبي!!![1].

وذلك لأن الفلاسفة: «هم الذين قالوا: إن معجزات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قوى نفسانية»[2].

قال ابن سينا: «الذي يقع له هذا ـ إشارة إلى الوحي والإلهام ـ في جبلة النفس، ثم يكون خيرا رشيدا، مزكيا لنفسه، فهو ذو معجزة من الأنبياء، أو كرامة من الأولياء، وتزيده تزكيته لنفسه، في هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته؛ فيبلغ المبلغ الأقصى، والذي يقع له هذا ثم يكون شريرا، ويستعمله في الشر، فهو الساحر الخبيث»[3].

فلم يفرق بين المعجزة الدالة على صدق الأنبياء، وخوارق السحرة إلا بالنظر إلى دعاواهم!![4].

وقد وافق الرازي هؤلاء في بعض كتبه، يقول الرازي: «وخواص النبي كما ذكرنا ثلاث: **أحدها**: في قوته العاقلة...، **وثانيها**: في قوته المتخيلة...، **وثالثها**: **أن تكون نفسُهُ متصرفة في مادة هذا العالم!!! فيقلب العصا ثعبانا!!!، والماء دما يبرئ الأكمه والأبرص، إلى غير ذلك من المعجزات!!!**»[5].

فالفلاسفة من المخالفين الذين قالوا بأن الملائكة لا حقيقة لهم[6]، ومعلوم أن نزول الوحي، وإعجاز القرآن متوقفان على إثبات الملائكة عموما، وإثبات نزول جبريل خصوصا، وهم ينفون ذلك، فأين يكون كلام الله المعجز المتحدى به عندهم، ثم لو فرضنا أن هذا المتفلسف منتم إلى أهل الإسلام المثبت للملائكة والوحي؛ فإن

---

(١) انظر: الصفدية ١/ ١٦٨.

(٢) الصفدية ١/ ١٢٨، وقد ذكر شيخ الإسلام ﷺ وجوها كثيرة في الرد على من زعم بأن المعجزات إنما هي من قبيل القوى النفسانية. انظر: الصفدية ١/ ١٨١ وما بعدها.

(٣) الإشارات لابن سينا ٤/ ٨٩٨-٨٩٩.

(٤) انظر: الرد عليه في الصفدية ١/ ١٧٩ وما بعدها.

(٥) انظر: المباحث المشرقية للرازي ٢/ ٥٥٦.

(٦) انظر: الدر النضيد لابن الحفيد ص ٣٤٧.

الوحي عنده هو: الفيض، الذي يكون بسبب نقاء وصفاء نفس النبي ليس إلا؛ فتفيض عليه المعارف الماضية والمستقبلية!!، ويكون الكلام كلامه؛ فكيف يكون حينئذ معجزا!!، ولهذا قالوا: إنه معجز من حيث المعنى الذي جاء به النبي من التشريعات الحسنة، والمؤثرات الحميدة على النفس!!![١].

ولهذا جعل الفيلسوف ابن سينا معجزات الأنبياء من قبيل خواص الأجسام التي تؤثر بقوة تخصه، فالمعجزات عنده من قبيل المؤثرات بسبب العناصر الموجودة فيها، لا أنها فيها خاصية الإعجاز، فيقولون: المعجزة مثل: جذب الحديد للمغناطيس!!![٢].

وهذا فيلسوف فلاسفة المسلمين ابن رشد، يقول بأن معجزة الرسول ﷺ ليست في كونه جاء بهذا الكلام؛ فإن هذا لا مزية فيه!!!، فهو يرجح أن معجزة الأنبياء في كونهم يأتون بالشرائع المستقيمة، والأحكام السديدة، مما فيه سعادة البشر، ويدل لذلك أخبارهم الغيبية، وأفعالهم الحسنة السنية[٣].

قلت: ولا يخفى أن هذا القول فيه حق وباطل، والحق أن ما ذكره دال على الإعجاز وصدق النبي، ولكن أن يكون هذا هو الشيء الوحيد الذي يدل على صدق النبي ﷺ، دون القرآن، وغيرها من المعجزات، فلا، وهذا القول من ابن رشد: يؤكد أنه مثل الفلاسفة لا يرى إلا أن ما جاء به الأنبياء هو التخييل، كما صرح هو في غير موضع بهذا، فإذا كان تخييلا؛ فيعني ذلك أنه لا حقيقة لهذه المعجزات في نفسها؛ وإنما هي من قبيل النيرنجيات[٤]؛ ولذلك قال: بأن ما جاؤوا به فيه صلاح البشر، وهو يعني أن التخييل فيه صلاح الجمهور!!!، لا أن ما جاؤوا به معجزات في نفسها.

---

(١) انظر: النبوات ص٢٦٠، ٢٧٤،

(٢) انظر: الصفدية ١/ ١٦٥.

(٣) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد ص ١٢١-١٢٢، الفيلسوف المفترى عليه ص١٤١.

(٤) نيرنجيات جمع نيرنج وهو: الدهاء والمكر، وأخذ كالسِّحر وليس به. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٩٦٧.

ولهذا الفلاسفة « ظنوا أن هذه الخوارق من قوى النفس، قالوا: والفرق بين النبي والساحر، أن النبي يأمر بالخير، والساحر يأمر بالشر »[(١)].

وأما المعتزلة فيرون القرآن الكريم معجزة لكون الله ﷻ صرف العباد عن الإتيان بمثله، وإلا فإن الخلق قادرون على الإتيان بمثله!! حتى زعم النظام: « أن نظم القرآن، وحسن تأليف كلماته، ليس بمعجزة للنبي ﷺ، ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه، ما فيه من الأخبار عن الغيوب؛ فأما نظم القرآن، وحسن تأليف آياته؛ فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم، والتأليف، وفي هذا عناد منه لقول الله ﷻ : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء:٨٨] »[(٢)].

وكان راهب المعتزلة [(٣)] يقول أيضا: « بإبطال إعجاز القران من جهة الفصاحة والبلاغة »[(٤)].

وأما الرافضة فإنهم وإن قالوا: إن القرآن معجز؛ فهذا ينقض قولهم: بزيادته ونقصانه؛ لأن من علامات إعجازه، صدقه في إخباره، وقد أخبر الله فيه أنه قد حفظه، وأما إن قالوا: بزيادته ونقصانه!!، فهذا تكذيب لإعجازه، ورد على آياته.

وكذلك القائلون بالكلام النفسي: يلزمهم أن القرآن ليس بمتحدى به، لأن الكلام النفسي لا يتحدى به[(٥)]، ولهذا صرح بعضهم بـ « أن الإعجاز مختص بنظمه

---

(١) النبوات ص٣٣٩.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ص١٠٣، ٢٦٦.

(٣) انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ص١٥١. عيسى بن صبيح المعروف بأبى موسى (المردار) وكان يقال له (راهب) المعتزلة وهذا اللقب لائق به إن كان المراد به مأخوذا من رهبانية النصارى ولقبه بالمردار لائق به أيضا لأنه بالفارسية معناه العذرة، وهو في الجملة كما قيل، وقل ما أبصرت عيناك من رجل إلا ومعناه إن فكرت في لقبه.

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ص ٣١، وانظر: الفرق بين الفرق ص ١٢٢، وانظر: المبحث الأول في هذا الفصل، قول المعتزلة بالصرفة.

(٥) انظر: الدر النضيد لابن الحفيد ص ١٥٦.

العربي دون معناه»[(١)]!!!.

بل إن أبا المعالي الجويني صرح بهذا فقال: «ثم اعلموا أن المعجزة لها أوصاف، تتعين الإحاطة بها، منها: أن تكون فعلا لله؛ فلا يجوز أن تكون المعجزة صفة قديمة!!؛ إذ لا اختصاص للصفة القديمة ببعض المتحدين دون بعض، ولو كانت الصفة القديمة معجزة، لكان وجود الباري تعالى معجزا»[(٢)].

وهذا كلام يدل على أن العقيدة السيئة تؤدي إلى القول السيئ، وإلا فإن الله ﷻ لم يقل للعباد حين تحداهم بكلامه أن يأتوا بكلام ليس بمخلوق، وإنما وقع التحدي من حيث النظم والترتيب، والتركيب، والمعاني، والبديع، لا مماثلة الكلام نفسه من حيث هو.

ثم القول بأن المعجزة لا بد وأن تكون فعلا لله ﷻ دليل صريح في أنهم لا يرون الكلام النفسي، الذي أثبتوه في الخيال معجزا، وإنما المعجز عندهم النظم العربي ـ الذي ألفه عندهم جبريل، أو محمد عليهما السلام ـ دون المعنى!!.

وأيضا هذا يُنْبِئُ عن قرب الأشاعرة للمعتزلة بطرق ملتوية؛ لأنه إذا كانت المعجزة لا بد أن تكون فعلا لله ﷻ، فهذا يعني أن الله صرف العباد ـ وهذا فعل لله ـ عن الإتيان بمثل لفظ ونظم القرآن، لا أنه في نفسه معجز!!!.

ومن بعض هؤلاء من يناقض القول السابق، فيزعم أن التحدي إنما هو في المعنى، لا في المبنى، بناء على قولهم بالكلام النفسي، الذي قالوا: هو المعنى، وأما الألفاظ الدالة عليه فلا يكون عندهم من معجز!!![(٣)]، قالوا: «فمن يقول: الإعجاز لا يتحقق إلا بالنظم؛ فهو لا يجد بدا من أن يقول بأن المعجز محدث!!، وهذا مما لا يجوز القول به»[(٤)].

---

(١) انظر: حواشي الشرواني ٢/ ٤٤.

(٢) الإرشاد للجويني ص٢٦١، ٢٩٢.

(٣) انظر: أصول السرخسي ص٢٨١-٢٨٢.

(٤) أصول السرخسي ص٢٨٢، وهذا القول هو الذي رجحه، وإن كان ذكر قول أهل السنة من أن القرآن =

ولما كان خلافهم شديدا في المعجزات وحقيقتها، كان من كبارهم كالغزالي والرازي، من اعترف بأن المعجزات قد لا توصل إلى معرفة النبي!!؛ يقول الغزالي: «فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله، إما بالمشاهدة، أو بالتواتر، والتسامع..فأكثر النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة، واعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات، وتأثيرها في تصفية القلوب...؛ فمن هذا القبيل اطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعبانا، وشق القمر؛ فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده؛ ولم تنظم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن حد الحصر، ربما ظننت أنه سحر، وأنه تخييل، وأنه من الله تعالى إضلال»[1].

فقوله: قريب من قول ابن رشد، وهو الاستدلال على النبوة بالأخلاق الحسنة، والتشريعات الصحيحة الطيبة، فهذا قد يرجع إلى ما ذكرته عن ابن رشد، وقد يرجع إلى مقصد حسن، وهو فتح طريق آخر للاستدلال على النبوة، ولكن يجب التأكيد على أن القرآن وجوه إعجازه أكثر من أن تعد، وأشمل من أن تحصر في هذا.

ولكن تأكد لي أن هذا يرجع إلى قول الفلاسفة ـ على طريقة ابن رشد ـ لما وقفت على كلام شيخ الإسلام رحمه الله، حيث قال: «ولكن النبوة التي علمها أبو حامد، هي النبوة التي تثبتها الفلاسفة، وهي من جنس المنامات، ولهذا استدل على جوازها بمبدأ الطب والهندسة، ونحو ذلك!!.

وأمر النبوة أعظم من هذا بكثير، وتلك النبوة موجودة لخلق من الناس، ولهذا لا يوجد للنبوة عندهم ما تستحقه من التصديق والاحترام، ولا يعتمدون عليها في استفادة شيء من العلم الخبري، وهي الإنباء بالغيب، وهي خاصة النبوة.

= معجز لفظا ومعنى، ثم ذكر لما رجحه دليلا آخر، وهو: كيف يكون معجزا بلفظه، والعجم لا تفهمه؟ ومعلوم أن هذا لا يلزم؛ لأن أصحاب الفن من البلاغة إذا عجزوا فغيرهم أعجز، فعجزهم عجز لهم، كما هو معلوم، وإلا لصح أن يقال: إن عصا موسى ليس بحجة لأنه لم يعلم العوام مخالفته للسحر، وإنما الذي علم ذلك هم أهل الاختصاص، وهذا معلوم البطلان.

(١) انظر: المنقذ من الضلال صـ١٤٥-١٥٠، وقرر مثل هذا الرازي في كتابه معالم أصول الدين ص٩٣-٩٥.

والرازي كلامه في النبوة متردد بين نبوة الفلاسفة، ونبوة أصحابه هؤلاء»[(١)].

فالأخلاق الحسنة والدعاوى الطيبة وحدها لا تدل على النبوة، فكم من رجل في الدنيا كان على خلق مع الناس، وكان صاحب دعوةٍ وله شأو، ولم يكن نبيا.

وكذلك أهل الكلام يقعون في خطأ آخر في باب المعجزات، وهو حصرهم معرفة النبي بالمعجزات، وهذا خطأ، إذ النبوة أمر يعرف بالمعجزات، والتشريعات، والنظر إلى أحوال النبي من حسن الأخلاق والمعاملات[(٢)].

وبعض المخالفين للسلف من المتقدمين والمعاصرين قصروا معجزات نبينا محمد ﷺ في القرآن فحسب، ومعلوم أن هناك معجزات أخرى له ﷺ، فلا يجوز إنكارها[(٣)].

ومما يدل على خطأ المتكلمين في باب المعجزات: أنهم لم يفرقوا بينه وبين الخوارق الشيطانية إلا بكون النبوة معها الدعوى، وتلك خالية عن دعوى النبوة!!![(٤)]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وجنس السحر والكهانة متى اقترن به دعوى النبوة كان دليلا على النبوة عندهم، لكن قالوا: الساحر والكاهن لو ادّعيا النبوة لكان يمتنع من ذلك، أو يعارضان بمثله، وأما الصالح فلا يدعي؛ فكان أصلهم: أن ما يأتي به النبي والساحر والكاهن، والولي من جنس واحد!!! لا يتميز بعضه عن بعض بوصف!!، لكن خاصة النبي اقتران الدعوى، والاستدلال، والتحدي بالمثل بما يأتي به، فلم يجعلوا لآيات الأنبياء خاصة تتميز بها عن السحر، والكهانة، وعما يكون لآحاد المؤمنين، ولم يجعلوا للنبي مزية على عموم النبي، ولا على السحرة، والكهان، من جهة الآيات التي يدل الله بها العباد على صدقه، وهذا افتراء عظيم على الأنبياء وآياتهم، وتسوية بين أفضل الخلق، بل تسوية بين ما يدل على النبوة، وما يدل على نقيضها!!!»[(٥)].

---

(١) النبوات ص٣٨٤.

(٢) انظر: الإرشاد للجويني ص٢٧٣، ٢٧٨، شرح الأصبهانية ص٤٧١، ٥٧٣، ٥٩١، ٦٠٩.

(٣) انظر: الإرشاد ص ٢٩٦، النبوات ص٢٣٤، موقف العقل والعلم والعالم ١/ ٢٧، ٤/ ٤٤.

(٤) انظر: الإرشاد للجويني ص٢٦٩-٢٧١، النبوات ص١٩٨، ٢٣٥، ٢٤٠.

(٥) النبوات ص ٢٣٧-٢٣٨، وانظر منه: ص٣٣٩.

وعلى هذا القول ـ أعني القول بأن الخارق للعادة مطلقا يدل على النبوة إذا كان معها دعوى النبوة ـ فـ « المعجزة هي: مجموع دعوى الرسالة مع التحدي، فلا حاجة إلى كونه خارقا، ويجب إذا تحدى بالمثل أن يقول: فليأت بمثل القرآن من يدعي النبوة؛ فإن هذا هو المعجز عندهم، **وإلا فالقرآن مجردا ليس بمعجز؛ فلا يطلب مثل القرآن إلا ممن يدعي النبوة**»(١).

فالقرآن معجز عند هؤلاء المتكلمين من الأشاعرة ومن وافقهم لكونه كان مصحوبا بالتحدي، لا في نفسه، وإنما لمجرد الدعوى المصحوبة معه، ثم يؤدي هذا إلى قول المعتزلة بالصرفة، حيث إن قول هؤلاء: أن من ادعى النبوة ومعه خارق للعادة، كأن يكون بليغا، ويريد أن يأتي بمثل القرآن؛ فإن الله يمنعه، وينسيه البلاغة، وهذا هو الصرفة؛ لأنهم قالوا في التفريق بين خوارق السحرة، وخوارق الأنبياء؛ أن الفارق هو الدعوى، فالساحر لا يدعي النبوة، ولو ادعى فإن الله سيسلبه السحر!!!(٢).

فعلى قول الأشعرية والماتريدية لا يستقيم دعوى الإعجاز؛ لأن الله عندهم يجوز له أن يصدق الكاذب، ويكذب الصادق، « فيجوزون أن يأمر الله بكل شيء، وأن ينهى عن كل شيء؛ فلا يبقى فرق بين النبي الصادق، والمتنبي الكاذب »(٣).

ويستدل بعضهم على كون القرآن معجزة بكونه حجة، كما يقول الباقلاني مستدلا على إعجاز القرآن الكريم بكونه هداية للناس: « فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة!! »، ويقول بعد آية استجارة المشرك: « فلو لا أن سماعه إياه حجة عليه لم يوقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة »(٤).

---

(١) النبوات ص٧٣، وانظر منه ص٢٠٠.

(٢) انظر: النبوات ص٧٣.

(٣) النبوات ص٢٤٠، وانظر: منه ص ٣٢٠.

(٤) إعجاز القرآن ص٢٨.

ورحم الله القاضي إذ لو عكس القضية لكان أثبت، فهذه الأحاديث النبوية حجة، ومعلوم أنها مع حجيتها ليست معجزة، ولا متحدى بها، وكذلك إجماع الصحابة حجة، بل كل إجماع صحيح حجة، وليس بمعجزة، فالصحيح أن يقال: كل معجزة حجة على الخلق، ولا عكس - والله تعالى أعلم -.

بل وربما عدّ المخالفون للسلف معجزات اخترعوها، أو ذكروها في غير بابها، أنها أشمل من معجزة القرآن!!!، يقول مصطفى صبري - شيخ الإسلام في الدولة العثمانية - عن صديقه الكوثري الجهمي البغيض: «إن صديقي الشيخ زاهد أبقاه الله للإسلام!!، وعلمائه، غواص منقطع النظير في البحرين المحيطين اللذين هما: علم الحديث، والفقه، والذين امتاز بهما الإسلام على جميع الأديان، وعلماؤه على علمائها في ضبط وتحقيق الحقائق الدينية؛ فأصبحا: أي العِلمان وعلماؤهما **أكبر معجزات محمد ﷺ!!، وأدومها بعد معجزة القرآن!!، وأشمل منها، نظرا إلى أن إعجاز القرآن يخص فهمه بالعرب!!، وفهم معجزة علمي الفقه والحديث يعم كل ذي عقل وإنصاف**»[1].

فيا للعجب!! القرآن الذي يقرؤه الصيني، والتركي، والرومي، والحبشي، لا يكون معجزة عند هؤلاء لهؤلاء!!، مع أنهم يقرؤونها كأنه منزّل بلغتهم، ميسر على ألسنتهم، ولا يقرأ أحدهم شيئا من كتب الفقه والحديث، فكيف تكون أشمل من القرآن!!.

ثم الفقه الذي كان من استنباطات الفقهاء، كان في أحايين وفي مختلف البلدان سببا للقتل والقتال بين المسلمين، بسبب التعصب للمذاهب والعلماء، وأما القرآن الكريم؛ فهو جامع للناس، وكيف لا، وهو حبل الله المتين، وكتابه المبين.

ولا يتبين هذا إلا بمعرفة منـزلته الحقة، عند أهل الحق من السلف الصالحين، ومتبعيهم من الخلف العاملين، وهذا الأمر هو الذي سيكون حديثي عنه في الباب الآتي.

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ٣/ ٣٩٣، وهو في هذا الموضع أثنى على الكوثري، وجعله من المعجزات، مع أنه يطعن في علماء السلف، والمتبعين لهم من الخلف، فسمى الطائفة السلفية بالمبتدعة، وزعم أن مؤسسها ابن تيمية.